



المشروع القومي للترجمة

وسط الجزيرة العربية وشرقها

تأليف : وليم جيفورد بالجريف

ترجمة : صبري محمد حسن

270

الجزء الثاني

المشروع القومى للترجمة

وسط الجزيرة العربية وشرقها

(المجلد الثانى)

تأليف

وليام جيفورد بالجريف

ترجمة

صبرى محمد حسن



٢٠٠١

الرحلة والإقامة
فى
وسط وشرقى الجزيرة العربية

الفصل العاشر

الحياة فى الرياض

ولكن الأخلاق Morolity بنفسها هناك
تضم الآراء كلها :
اسمع ، كيف يطلق الصرخة هناك
بين رفاقه الاثنين ؛
انظر ، كيف تسلخ الجِلد وتسقط
مثل من كان يُقشِّر البصل !
الآن هناك – هم محزومون للجحيم ؛
ومَطرودون من ممتلكاتنا ،
ومن يومها إلى يومنا هذا ،

بيرنز

جوهر أول مريض نفحصه – مكانته ، شخصيته ، ونفوذه – عبد الكريم – تاريخه وشخصيته – زيارة منزله – غداء على طريقة العارض – التبخير- أسرته – نقاش عن تقسيم الذنوب فى الدين الإسلامى- العقيدة العامة – الشرك وتدخين التبغ –

الأسباب التى ساقها عبد الكريم - خواص التبغ العربى - مزيد من الأسباب - مناورات عبد الكريم تحاشيا لدفع الأتعاب - خطبته - عبد الرحمن المطوع - مسكنه ، دراساته ، وتلاميذه - قصة ماموميت فى دمشق - غضب عبد الحميد - عبد اللطيف الوهابى - تاريخه وشخصيته - خطبته - طُرَف عدالة السماء - عن مدخنى التبغ - التشدد الوهابى ونتائجه - العقوبات العربية - محمد ، شقيق عبد اللطيف - أفراد آخرون - استطراد عن علم تصنيف الأمراض عند العرب - حالة التصحاح فى الجزيرة العربية - بشكل عام - اختفاء أمراض بعينها - الأوبئة - سل الغدد الليمفاوية - أشكاله - الروماتيزم - الأمراض الباطنية والاستسقاء - العلاج العربى - الدوسنتاريا - الحمى - السكتة الدماغية - الشلل - الرُقاص - التيتانوس - الهوس - رُهَاب الماء - الرَّبو - الالتهاب الشُّعبى - الجذام والأمراض الجلدية - الرمد وأمراض العيون - انعدام التوتر العصبى بين العرب - إجراء عملية - الفروق الواضحة على ساحل الخليج الفارسى وفى عُمان - شفاء جوهر - مكانتنا فى القصر - مقدمة لتاريخ الأسرة المالكة الوهابية .

وبرًا بوعده لعب أبو عيسى دوره مستفيدًا من كل ما لديه من قوى التضخيم الذى تطلق عليه العامة اسم "النفخ" ، فى جلب المرضى والزبائن . وتكللت مساعى هذا الرجل بما يستحقه من نجاح ؛ إذ جلب لنا فى صبيحة اليوم التالى لانتقالنا إلى منزلنا الجديد ، مريضًا يكاد يكون لُقْيَةً ومصادفة سعيدة .

هذا المريض ، كان هو جوهر ، بشحمه ولحمه ، وزير خزانة الملك فيصل ، ومن الإمبراطورية الوهابية . وسوف يندهش القراء عندما يعرفون أن ذلك الموظف كان شديد السَّواد ، بل أنه كان زنجيًا ، فى حقيقة الأمر ، رغم أنه لم يكن عبدًا ، إذ أعتقه الأمير تركى، والد الملك الحالى. كان جوهر طويل القامة ، وأنيقًا ، قياسًا على الزنوج ، ويبلغ من العمر خمسه وأربعين عامًا تقريبًا ، يرتدى ثيابًا فاخرة ، وهذه مسألة لا يغفلها الأثرياء الأفارقة ، بغض النظر عن معتقداتهم النظرية ، وكان يعلق فى وسطه سيفًا مقبضه من الذهب . ولكنه أبلغنى ، أن الذهب حرام إذا كان يشكل جزءًا من الثياب أو لمجرد الزينة ، ومع ذلك يمكن استعماله فى تزيين الأسلحة . ومبلغ ظنى ، "أن الوعّاظ قد بددوا وقتهم وقدرًا كبيرًا من طلاقتهم فى إقناع السيدات بالاعتدال فى ثيابهن[1] ". ولعل هؤلاء الوعّاظ يجربون حظهم مع مجموعة مكونة من الزنوج الذين

(١) لعل الكاتب يلمز فى عبارته هذه إلى مسألة حجاب المرأة وهذا واجب شرعى وثابت بنصوص القرآن والسنة وعلى العلماء واجب البلاغ والتنبيه إليه دائمًا حتى لا تخرج النساء متبرجات - (د . حلمى عبد المنعم) .

ينتمون إلى الطبقة فوق المتوسطة ، ومع إني لا أعرف النتائج التي يمكن أن تترتب على مثل هذا العمل إلا أني واثق أن "جبريل[1] " والوهابي قد فشلا فشلاً ذريعًا في هذا الأمر . أما فيما يتعلق بالأمور الأخرى كلها ، فقد كان جوهر ممتازًا ، حلو الطبع ، ولكنه كان حاد المزاج إلى حد ما ، ومرن ، ويمكن ائتمانه على الأسرار مثل معظم "أبناء جلدته" ، كما يقول التعبير العربي .

كان المرض الذي يشكو منه جوهر يقلقه كثيرًا ، وبخاصة أن الملك فيصل كان يود تكليفه ، على الفور، بمهمة رسمية ، يوفده فيها إلى البحرين (التي التقيناه فيها فيما بعد) ، ولكن حالته الصحية هي التي تؤخر قيامه بهذه المهمة . من هنا ، فإن تحسين حالته ربما يُنْظَرُ إليه باعتباره خدمة وطنية . ونظرًا لأن أبا عيسى ، كان يعرف جوهر منذ زمن بعيد ، بوصفه وزيرًا للخزانة ، فقد قدمه لنا ، وأجلسه في مكان موقر ، على سجادة مفروشة في الحوش الخارجي ، مع اثنين أو ثلاثة أشخاص من أصحاب المال والجاه ، في حين جلس أبو عيسى إلى جوار جوهر ، وراح يثني على مهارتي الطبية بأوصاف إن أطلقت على كالين Cullen نفسه ، لاحتاجت منه إلى مؤهلات لإثباتها ؛ ومع ذلك فقد شجعت هذه الأوصاف جوهر مما جعله يتهيأ لتقبل العلاج .

وبعد الترحيب وتناول القهوة ، اصطحبت مريضي الأسمر إلى غرفه الفحص ، وعن طريق الاستجواب وطرح الأسئلة وعن طريق الحدس - نظرًا لأن الزنوج مُقلِّين أكثر من العرب في تعبيراتهم وأقوالهم - استطعت أن أحدد حالته المرضية . ومع أن مرض جوهر كان مؤلمًا ، إلا أنه ، من حسن حظي ، كان من الأمراض التي تستجيب للعلاج البسيط الفعال ، إلى حد أنني أبلغته ، في الحال ، بأن حاله سوف يتحسن خلال أسبوعين، وأنه سوف يتمكن ، بعد ثلاثة أسابيع، من القيام بمهمته إلى البحرين ، وأردفت قائلاً : إنني لا أستطيع مع شخصية بارزه مثل ، جوهر ، أن أدخل في مساومة ، حول الأتعاب ومقدارها ؛ وأن مسألة تقدير أتعابي متروكة لكرمه . ويستأذن جوهر ، عائدًا إلى مكتبه في القصر ، ويرفقته مرؤسيه من الزنوج .

(١) ماذا يقصد المؤلف بكلمة (جبريل) إذا كان يقصد بها أمين الوحي الذي ينزل على الأنبياء والرسل بكلام الله عز وجل وبالوحي الإلهي ، فهذا إسفاف وسخرية يتنزه عنها الملك جبريل عليه السلام ، لأن الشرع أوجب علينا الإيمان بالملائكة وعلى رأسهم جبريل ، ولهم كل الإجلال والاحترام . يقول تعالى في كتابه الكريم «من كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين» (البقرة : ٩٨) . (د. حلمي عبد المنعم).

وبذلك يكون الجليد قد ذاب ؛ إذ أسفرت ثقة مريضنا الأول بطبيبه ، ومركزه الرفيع وأهميته ، عن سمعة طيبة لنا فى كل من القصر والمدينة ، بل إن هذه المسألة كانت خبطه حظ لى ، نظراً لأن الزبون الأول كان من الزنوج ، والعرق الأسود ، باعتباره أقل من العرق العربى ، من حيث القوه الفكرية وثبات العزيمة ، لا يعانى من الشك الشديد والحسد الدفين الذى يشيع بين المواطنين البيض . والحقد هو نقطه البلاء عند العرب ، ومن يعيش بينهم فترة طويلة ، يقف ، عن طريق التجربة والمعاشرة ، على إدانتهم المتكررة لهذه الصفة الذميمة فى أدبهم . ولكنى لم أر فى أى مكان زرته حسداً دفينًا ، مثل ذلك الذى رأيته فى العارض .

والشخص الثانى المهم الذى استقبلناه بعد جوهر ، كان من نوعية مختلفة ؛ إذ كان أقل مرونة من جوهر ، وأقل امتنانًا ، ولكنه كان يصلح لرحلتنا فى الرياض ، من بعض النواحى . إنه عبد الكريم ، ولد إبراهيم الذى ارتبط مؤخراً بالأسرة الوهابية عن طريق المصاهرة ، والذى يزعم أنه من نسل أعيان العارض . كان عبد الكريم وهابيًا متشدداً ، ونموذجًا لكل رذائل مذهبه ، فقد برزت شخصيته بشكل واضح ، مع مجموعة المطيعية الأولى ، عندما تأسست فى العام ١٨٥٥ الميلادى ؛ وقيل أيضًا إن وفاة الوزير السابق سويليم ، القاسية ، عزتها الشائعات إلى حقد عبد الكريم الشخصى وأهدافه الخاصة ، التى كانت تتستر بقناع الحماس الدينى . وهناك أعمال أخرى ، من القبيل نفسه ، تعزى إلى هذا الشخص نفسه ، وأنه تحول خلال فترة وجيزة من توليه السلطة ، إلى شخصية غير محبوبة ، إلى حد أن رفاقه من المطيعية اضطروا إلى الاستفادة من تدهور حالته الصحية ، فى إبعاده عن منصبه . وبعد أن كرَّمه أولئك الذين اعتبروه ضحية من ضحايا فضائله ، وبعد أن كرهته عامة الناس ، تقاعد ليقضى بقية حياته فى الحى الثالث من المدينة ، الذى حضر إلينا منه لأنه كان يعانى من التهاب شُعبى مزمن ، يشيع فى مثل هذا المناخ .

وقدم عبد الكريم نفسه لنا ، فى شىء من التواضع البشوش ، ولكنه ، قبل أن يتحدث عن مرضه ، دخل من قبيل التقديم فى خطاب أثبت به أنه أستاذ فى الشريعة الإسلامية . وفى منزلنا ، أعرب عن إعجابه بالمدرسة الدينية الدمشقية ، ولم يفت عليه أن يذكرنا أن ابن عبد الوهاب قد تلقى العقيدة السليمة وتعلمها فى عاصمة سوريا ، وأدخل فى أذهاننا أننا أيضاً لابد أن نكون على نفس المستوى من التقوى والعلم . وقد سعدنا لأننا ناقشناه فى موضوعات كان يتكلم فيها بلا أى عوائق أو تكلف ، وكان كلما كلنا له شيئًا من المديح ، يسارع إلى تثقيفنا ، ويشرح لنا كثيراً من نقاط المذهب

الوهابى وسلوكياته . وفى النهاية ، بدأ عبد الكريم ينتقل من المجالات المجردة إلى المجالات المادية ، ورجانى أن افحص صدره . وشخصت له مرضه ، ثم استأذن الرجل وذهب لحال سبيله ، بعد أن حصل منا على وعد بتشريف منزله بزيارتنا له ، وتناول الغداء فيه ، فى ساعة مبكرة ، من اليوم التالى . وبرغم أن هذه الألفة بعثت السرور فى نفس أبى عيسى إلا أنها استحثت فيه اليقظة والحذر . لقد انشرح صدر أبى عيسى ، لأن الدخول إلى دائرة شخصيه مرموقة ، من هذا القبيل ، فى عالم التقوى ، إذا ما استعملنا التعبير العام ، هو بمثابة وضع ريشه فى غطاء رأسنا ، وجواز سفر إلى الاحترام والتبجيل فى الأماكن الأخرى ؛ ولزم أبو عيسى اليقظة والحذر ، عندما أخذ بعين اعتباره احتمال الخيانة والشر من مضيفنا فى المستقبل . والواقع أن ذلك الشعور بلغ من السيطـرة على أبى عيسى مبلغًا جعله ، يطلب منا عدم الذهاب إلى منزل عبد الكريم ؛ ولكنى رأيت من الأفضل عدم الاستسلام لهذا الحذر الزائد عن الحد .

وقبل ظهر اليوم التالى بفترة قصيرة ، حضر عبد الكريم وهو يرتدى ثوبًا أبيض ورداء متواضعًا ، وفى يده عكازه ، إلى منزلنا ، وطلب منا الوفاء بالوعد الذى قطعناه على أنفسنا . ونهضنا من مكاننا ورافقناه فى المسير عبر السوق ثم من خلف القصر ، ثم مررنا بالشوارع الأنيقة المنظمة ، إلى أن وصلنا منزله . كان المنزل كبيراً ، وأشار إلينا عبد الكريم بالدخول إلى حوش المنزل ، ومن حوش المنزل اتجهنا إلى درج طويل يؤدى إلى الطابق الثانى ، حيث أدخلنا إلى ديوان أنيق حسن الإضاءة . وفوق باب ذلك الديوان ، نقشت بحروف نصف كوفية ، وهى الأحرف التى يشيع استعمالها فى نجد ، الأبيات التالية المأخوذة عن عمر بن الفارض الشاعر العظيم :

مرحبًا بمن لا أستحق لقاءه ،
مرحبًا بالصوت الذى يعلن الفرح بعد الحزن :
الترتيبات الجميلة لك ؛ ولتذهب ثياب الحزن ؛ اعلم
أنك مقبول ، وأنا بنفسى سوف أتحمل كل ما يغضبك .

هذه الكلمات تحمل مغزى الزهد ، بل إن لها مضمونًا مسيحيًا ، إذا ما أدخلناها ضمن القصيدة التى اقتبست منها ، ولكن المستهدف من هذه الأبيات هنا هو التعبير عن مشاعر الكرم ، والود والصداقة . وهذه الأبيات شأنها شأن النقوش النجدية كلها ، كانت مرسومة وليست محفورة . وفى داخل هذا الديوان كان يجلس إبراهيم ، والد عبد الكريم المسن ، ورب هذا البيت ، ومعه مجموعة أخرى من أبنائه ؛ ومن أمامه

مجموعة من الكتب الشرعية ، والدينية ، وأجزاء من القرآن ، ومحبرة ، ومجموعة من أوراق الكتابة ؛ بعض هذه الأشياء ، كان موزعًا في كل أنحاء الديوان ، والبعض الآخر موضوع في الفتحات مثلثة الشكل التي تستعمل رفوفا للكتب في الجزيرة العربية ، وكل ذلك كان يوحي بالعلم والدراسة .

والمفترض في العواصم أن تكون أكثر رقيًا من حيث السلوكيات وارتفاع مستوى الحياة عن أي مكان آخر ، وقد لاحظت أن التشدد الوهابي لم يمنع الرياض من اتباع هذه القاعدة العامة . وقد استقبلنا إبراهيم وأسرته استقبالاً طيبًا ، فقد قام أحد الأطفال ، فور وصولنا ، بإحضار طبق منتقى من التمر الممتاز ، تعبيرًا عن حسن النية وتقديرًا لنا . وعندما ظهر الغداء ، في الوقت المناسب ، بعد التماس كثير من الأعذار لبساطته - "أنتم أيها الدمشقيون كنتم ستعاملوننا أفضل من هذا لو كنا في دياركم ، ولكنكم تعلمون إن نجد فقيرة ، ونحن نفتقر إلى الوسائل ، ولكن لا تعوزنا الإرادة والنية" ، وما إلى ذلك من هذه الاعتذارات - كان الغداء ، يشتمل ، علاوة على الأصناف الأخرى ، على طبق أدهشني أن أراه وسررت أيضًا لرؤيته ، نظرًا لأنه كان إشارة واضحة إلى أننا بدأنا نقترب من الساحل الشرقي . ولو قدر للقارئ ، حتى وإن كان من أهل الشرق، أن يحذر مدة ساعة كاملة، نوعيه ذلك الطبق الطيب الذي أمامنا ، فإنه سوف يصعب عليه ، من وجهة نظري ، معرفة أن ذلك الطبق كان يحتوي على جمبري مجفف ، أما صديقي السوري ، الذي لم يسبق له أن رأى ذلك الجمبري من قبل ، فلم يكن يعرف كيف يتصرف ؛ أما فيما يتعلق بي أنا شخصيًا ، فقد رحبت بذلك الصديق (الجمبري) القديم ، برغم وجوده في ظروف غير مواتية - إذ لم يكن طازجًا ، وأقل تجهيزًا وإعدادًا مما لو كان على ضفاف نهر ياري Yare. وعندما سألت عن ذلك الجمبري ، قيل لي أن هذا الجمبري يجري جلبه بصورة مستمرة من الأحساء ، وأن المَصْيد نفسه يتبع البحرين . ولكن فيما يتعلق بالمنتجات الكثيرة الأخرى التي تنتجها هذه الجزيرة ، فلم يكن يصل منها أي شيء إلى هذه البلاد ؛ والسبب في ذلك هو عدم معرفة الناس هنا بطريقة الحفظ بالتمليح والتقديد .

وبعد تناول الغداء ، غسلنا أيدينا بالبوتاس أو القالي كما يقولون له (ومن هذه الكلمة اشتقت الكلمة الإنجليزية alkali «قلوى») ، وهو المنظف المعتاد في نجد ، ثم أعقب ذلك عملية الطِّيب والتبخير بالطيب . ولم تكن عمليه التبخير بالطيب هذه

مقصورة على نجد فقط ، فقد سبق أن شاهدناها تمارس أحيانًا فى جبل شومر ؛ زد على ذلك أنها تعَد عملية يومية فى سدير ؛ ومع ذلك فقد نسيت أن أصف هذه العملية ، فى مرحلة سابقة ، ولذلك أجد أن الوقت والفرصة سانحة هنا ، لتناول عملية التبخير بالوصف . الواقع ، أن التطيب ، هنا ، فى منطقة العارض المتدينة ، يقل طابعه الدينى عن طابعة الأرستقراطي ، ذلك أن النبى (ﷺ) قال عن نفسه بعبارات صريحة إنه محب للطيب ومحب للنساء ، وبذلك يكون قد ترك أثرًا يحتذيه أتباعه المخلصون . وبناء عليه ، يظهر بعد تناول الغداء ، أو شرب القهوة ، صندوق مربع صغير يشبه الزهرة اليانعة ، الجزء العلوى من جوانبه مُخَرَّم تخريمًا زينيًا ، فى حين يكون الجزء السفلى من هذا الصندوق ، على شكل ساق أو إن شئت فقل مقبض ، يبلغ طوله حدًا يسمح للإنسان بالإمساك به دون أن يحرق الجمر أصابعه ؛ وهذا الصندوق مصنوع من الفخّار ، ويملأ هذا الصندوق بالفحم النباتى ، أو بقطع من خشب الأثل المشتعل ، ويوضع من فوق الفحم أو خشب الأثل ثلاث أو أربع قطع من خشب الطيب ، من نفس النوعية التى رَشَوْنَا الوزارة بها فى الفصل السابق ؛ أو قد توضع ، بدلاً من خشب الطيب ، نتفًا من اللبان الجاوى أو إن شئت فقل : المَيْعَة ، إلى أن يتصاعد الدخان العبق . ويتناوب الحاضرون تناول هذه المبخرة المشتعلة ، ويمررها كل واحد منهم تحت ذقنه (التى ينبغى أن أقول : إنها خشنة فى نجد) ، ثم يرفع بعد ذلك طرفى غترته الواحد بعد الآخر ، ليصطاد بهما قدرًا من ذلك العطر الثابت ، برغم أن فى ذلك مخاطرة بإصابة الأذن بالحروق إذا كان مستعمل المبخرة مستجدًا على هذه العملية ، مثلما حدث معى أنا شخصيًا ؛ وفى النهاية ، وبرغم أن ذلك ليس بصورة مستمرة ، يفتح الشخص صدر قميصه أيضًا ، ليسمح لدخان الطيب المعطر بالدخول إلى ملابسه الداخلية وتعطير جسده من الداخل . والسبب فى ذلك أن عبق الطيب فواح ، وقد يستمر ساعتين بعد التطيب . ولم أر نوعية الطيب الذى يستخدم فى أوروبا سوى مرتين أو ثلاثة ؛ ويقول النجديون عن الطيب ، إنه يجرى استيراده من حضرموت . ولكن هيا بنا نعود مرة أخرى إلى مضيفنا .

لا يزال ، إبراهيم المسن ، والد عبد الكريم مضيفنا ، يتذكر الغزو المصرى وحصار الدرعية . وقد حكى لنا الكثير من الأحداث عن هذا الموضوع ، وكان هو نفسه شاهد عيان فيها ؛ وسوف أورد بعضًا من هذه الحكايات فى الفصل الذى سوف أخصصه لأسرة آل سعود اليمفاوية . وقد لاحظت أيضًا أن اسم أبو نقطة ، الذى ورد

على لسان رفيق لاسكاريس Lascaris ، وهو يصف الغزو الوهابي للمنطقة الشمالية ، لم يكن غائبًا عن ذهن إبراهيم والد عبد الكريم ؛ ولكن إبراهيم أعطى أهمية عسكرية كبيرة لبطل زنجي آخر ، اسمه الحارث : الذى سوف أورد الكثير عنه فيما بعد . وبينما كان إبراهيم يروى لنا هذه الأحداث ، زمجر وانفعل ، وبدا عليه كما لو كان يستطيع أن يبتلع كل الكفار الأحياء على هذه البسيطة ، وأنا أقـر أنه لم تكن تنقصــه الشجاعة أو يفتقر إلى الجرأة ؛ والسبب فى ذلك أن الجبن ليس من سمات النجديين .

واستمر عبد الكريم فى زيارته لنا على نحو شبه يومى ، بينما كنا نرد زيارته من حين لآخر ، إلى أن تم شفاؤه فى النهاية ، ولم يعد بعد بحاجة إلينا . ومبلغ ظنى ، أن عبد الكريم لم يكن "واضحًا "إن جاز لى أن أستعمل هذه الكلمة التى يستعملها الصحابيون Quakers فى إطار الدين المسيحى . يضاف إلى ذلك أن عبد الكريم ، عندما كان يحاول استدراجنا ، كان يكشف نفسه فى أحيان كثيرة ، الأمر الذى كان يسعدنى ويرضينى .

وفى إحدى المناقشات الحامية ، بينى وبينه ، طلبت منه ، ذات يوم ، أن يحدد لى من منظور المذهب الوهابى ، الخطايا الكبرى ، أو إن شئت فقل كبائر الذنوب ، بلغة العرب ، وأن يحدد لى أيضًا "الصغائر" (ولعل القارئ يعلم أن أتباع محمد (ﷺ) يقسمون الذنوب إلى "الكبائر" التى يحاسب المسلم عليها فى الحياة الآخرة ، أو إن شئت فقل : التى يستحق العقاب عنها فى الحياة الآخرة على أقل تقدير ؛ و"الصغائر" ، التى يعفو الله عن مرتكبها إبان حياته ، إن تاب منها[1]) . وهذا يشبه إلى حد ما التقسيم الشائع بين المسيحيين : الخطيئات الكبرى والخطيئات العرضية . ومسألة التسوية بين كل هذه الخطايا أمر لا يرد على ذهن أى مسلم ، أو أى نجدى .

ونحن نسلم بمسألة التمييز الحقيقى بين هذا وذاك ، ولكن تبرز هنا مسألة ما هى الكبائر وما هى الصغائر ؟ وكل إنسان يعرف تباين الآراء الكبير بين علماء المسيحية ومن يقومون فيها على أمر فتاوى الضمير والسلوك والواقع أن علماء الإسلام يختلفون

(١) نعم الذنوب نوعان كبائر وصغائر ، والتوبة شرط فى المغفرة أيًا كان نوع الذنب ، والكبائر منها ما يكون فيه حدّ كالزنا والقتل والسرقة .. ألخ ومنها ما لا يكون فيه حدّ كاليمين الغموس أو الفاجرة (شهادة الزور) والحدود على الكبائر تكون كفّارة للذنوب فوق أنها زجر وردع للآخرين يقـول عز وجل "الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم إن ربك واسع المغفرة هو أعلم بكم ...الآية (النجم : ٣٢) - (د. حلمى عبد المنعم) .

أيضًا حول الموضوع . فمن علماء الإسلام من يعتبرون الكفر ، والشرك ، وعدم اعتناق الدين الإسلامي ، من الكبائر – أو إن شئت فقل عدم الإيمان . ويبدو أن مسألة عدم الإيمان هذه كانت حكمًا محمديًا ، إذ يشهد على ذلك العديد من النصوص القرآنية . بعض آخر من العلماء ، يركزون على تعبيرات محددة وردت في "الكتاب" (القرآن) ، ويضيفون إلي ذلك "قتل النفس" والربا ؛ وبعض ثالث ، يصل بعدد الكبائر إلى سبع ، وربما كان ذلك محاكاة للخطايا السبع الكبار المحددة عند المسيحيين ؛ وبعض رابع من العلماء ، يصل بهذه الكبائر إلى خمسين أو سبعين كبيرة ؛ وفي أحد المؤلفات العلمية التى رجعت إليها في مدينة حماه ، أصابني الذعر عندما وجدت أن عدد هذه الكبائر لا يقل عن أربعمائة . وأخيرًا ، هناك بعض العلماء الذين يحلون هذه المشكلة بقولهم : إن الله وحده هو القادر على تمييز الكبائر من الصغائر ، وأن إرادته وحده هي الأساس في الثواب والعقاب .

وينبغي أن أضيف هنا ، برغم أن ما سأورده هنا يعد من قبيل الاستثناءات الخاصة ، إنه طبقًا للشريعة الإسلامية ، فإن عذاب الآخرة ، بكل صورة ، سيكون أبديًا لمن لا يتبعون دين محمد ؛ معنى ذلك أن أتباع محمد سوف ينجون في النهاية من نار جهنم ، إما عن طريق وساطة[1] محمد (ﷺ) ، حسب اعتقاد الكثيرين ، أو بمرور الوقت ، أو برحمة من الله ؛ ولكنهم ، في النهاية ، سيدخلون الجنة إن عاجلاً أم آجلاً ، تاركين الكفار والمشركين وراءهم في النار . وهذه عقيدة تدخل السلوى والعزاء إلى النفوس ، وتنقسم بمقتضاها الحالة المستقبلية إلى قسمين : الجنة لأتباع محمد (ﷺ) ، وجهنم لكل من عداهم[2] . يضاف إلى ذلك ، أن جميع التفاسير على اختلاف أنواعها ، تضع المسيحيين ، واليهود ، وعبدة الأوثان ومن في حكمهم ، تحت واحد من هذين العنوانين القاتلين ملحد أو كافر . وهذا أسوأ لأتباع محمد (ﷺ) ؛ ولكن لا لوم في ذلك ، نظرًا لأن القرآن يقول : "يهدى من يشاء ، ويضل من يشاء" .

(١) التعبير الشرعي عن ذلك هو "الشفاعة" – (د. حلمي عبد المنعم) .

(٢) نعم ، إن كل من علم ببعثة النبي محمد (ﷺ) ولم يؤمن به ويصدق برسالته فهو في الآخرة من الكافرين يقول تعالى "ومن لم يؤمن بالله ورسوله فإنا أعتدنا للكافرين سعيرًا" ويقول تعالى "ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين" (آل عمران : ٨٥) – (د. حلمي عبد المنعم) .

نعم في الدنيا : يطلق على اليهود والنصارى أنهم أهل كتاب ولهم معاملة خاصة من قبل المسلمين ، ويطلق على غير الكتابي أنه كافر أو ملحد ، ولكن في الآخرة الكفر كله ملة واحدة – (د. حلمي عبد المنعم)

قد يقول القارئ : ياله من توقع مرعب ! وعلى كل حال ، لابد أن أورد هنا ، و ذلك من قبيل الاعتذار لأصدقائنا من أتباع محمد، وأصدقائنا النجديين ، إن هذه العقيدة ، من منظورهم هم ، ليست بهذا القدر من الوحشية ، مثلما تبدو لنا منذ الوهلة الأولى . والسبب فى ذلك ، أن أتباع محمد ، وأصدقاءنا النجديين ، بحكم جهلهم المطبق فى الجغرافيا والإحصاء ، يتصورون أن دين محمد (ﷺ) هو دين كونى فى كل أنحاء الدنيا ، وأن العقائد الأخرى ليس لها سوى قليل من الأتباع ، إذا ما قورنت بالإسلام . وهم يعرفون ، على سبيل المثال ، أن أوربا مسيحية ، ولكنهم يعاملونها كما لو كانت بلداً واحداً ، لا أكثر ولا أقل ؛ وأن ملوكها السبعة - لأن هذا الرقم هو الدقيق ، أو عدّهم أنت إذا شئت - محبوسون ، داخل مناطقهم ، فى نوع من الأقفاص الذهبية ، يتدبرون ويدرسون مسألة السلام المتبادل أو الحروب المتبادلة ، ومسألة التحالف أو التعاهد ، برغم أن ذلك يكون دومًا بأوامر من سلطان القسطنطينية ، وقد انغرس هذا الدرس الجغرافى والسياسى القيم فى ذهنى ليس مرة واحدة وإنما عشرين مرة أو أكثر ، عندما كنت فى حمص، وبغداد ، والموصل بل وعندما كنت فى دمشق أيضاً . وعلى كل حال ، فقد كنت أتوقع ، للمعرفة شيئًا من القصور ، فى الجزيرة العربية ، بل أن أهل هذه البلاد كانوا يسألوننى مراراً "هل هناك مسيحيون أو كفار آخرون فى العالم ؟" وليس هناك من شك أن ثلاثة أرباع أبناء آدم هم من أتباع محمد (ﷺ) على أقل تقدير . ومن ثم ، فإن أتباع محمد (ﷺ) عندما يحكمون على أغلبية تعيسة ، تصل نسبتها عشرة إلى واحد ، بنار لا تنطفئ ، فإنهم بذلك - طبقًا لنواياهم وتصوراتهم - يُدْخلون النار ، قطيعًا لا يذكر من الكفار العنيدين ، الذين تناسوا القرآن حقدا منذ فجر نزوله ، والذى انتشر منذ ذلك الحين عبر آفاق الانسانية شرقًا وغربًا ، وهذه الفكرة ليست جديدة بأى حال من الأحوال ، ولكن فيها بعض الأشياء المنافية للعقل : فمن صالح البشر أن يكون قاضيهم إلهًا وليس بشراً[1] . وهناك مثل هندوسى يقول : "الإنسان هو أسوأ شياطين نفسه" ؛ ولو قدر للمحكمة العلياGreat Assizes أن يعهد بشئونها إلى مُحَكِّمٍ فانٍ ، من أى بلد ، أو من أى دين أو عرق ، بما فى ذلك الأخيار أيضًا ، فإن الجنة ستعانى من الفراغ ، فى حين ستعانى جهنم من العكس تماماً .

(١) إن الحكم الذى ذكرناه سابقا ليس من حكم البشر ولا من كلام البشر وإنما هو حكم الإله العظيم الخالق لكل البشر والمحاسب لهم أجمعين ، فآيات القرآن هى كلام الله ، وليست كلام محمد (ﷺ) ولا كلام أتباعه - (د. حلمى عبد المنعم) .

وعلى كل حال ، فإن الكثيرين ، بل والكثيرين جداً ، من بين أولئك الذين يمكن أن أسميهم أتباع محمد (ﷺ) "الاسميين" ، وبخاصة أولئك الذين سافروا أسفاراً صغيرة أبعد من تلك التى وصل إليها أتباع محمد (ﷺ) الحقيقيين ، والذين شاهدوا بعضاً "من أشياء الأرض الكثيرة" ، أكثر من تلك الأشياء التى يحلمون بها فى إطار الفلسفة المحمدية ، هؤلاء الأتباع الاسميين ، يحملون فى باطنهم آراء وأفكاراً مختلفة تماماً وربما أكثر عقلانية من أفكار الأتباع الحقيقيين . وأنا أضيف إلى هؤلاء الأتباع الاسميين أعداداً كبيرة من أتباع المدرسة الصوفية العربية ، الذين يتفقون مع ابن الفارض[1] فى رأيه الذى يقول : "إذا كانت آيات القرآن تنير المسجد فإن كلمات الإنجيل لا تُظْلِمُ الكنيسة بأى حال من الأحوال" ؛ ويقول ابن الفارض بعد ذلك فى موقع آخر : "وهذا ليس من قبيل الظرف أو التفكه ، لأن الله لم يخلق كل هذه المخلوقات كى يتخلص منها ، حتى وإن كانت أعمالهم وتصرفاتهم ليست على المستوى الأمثل" . بل إننى سمعت بعض المَنَاطِقة الشرقيين يذهبون إلى أبعد من ذلك فى تفسير الظواهر التى تحير الأذهان والقلوب الضيقة غير المستنيرة عندما تقول : "أولاً وقبل كل شئ ، لابد للحكم أن يتناسب مع المعرفة ، ولا يمكن للقوانين الوضعية Positive والعقائد الوضعية أن تكون ملزمة لأولئك الذين لم يعرفوها قط ؛ وأن التزامات الإنسان إنما تقاس بوسائله ، وأن من يُحْسِنُ التصرف سوف يعامل معاملة حسنة فيما بعد" ؛ تأكيداً للمعنى نفسه . ولكن هذه المعتقدات ، تتعارض تعارضاً مباشراً مع مذهب محمد[2] (ﷺ) وتعاليم القرآن ، وأن من يعتنقون هذه المعتقدات لا يمكن أن يقتدى بهم فى الإسلام ، وإنما هم من قبيل الاستثناءات ، أو بالأحرى أعداء الإسلام .

(١) إن ابن الفارض ليس حجة فى الإسلام بل هو متصوف له شطحات وأفكار لا يقرها علماء الإسلام بل يعتبره البعض من فلاسفة المتصوفة الذين خرجوا عن تعاليم الإسلام بأفكارهم الملحدة من الحلول والاتحاد ووحدة الوجود ، واستشهاد المؤلف به لا يكون حجة له على ما يقول ، لأن مثله لا يستشهد به على القضايا الكلية الكبرى فى الإسلام ، ولا على غيرها – (د. حلمى عبد المنعم) .

(٢) ليس لسيدنا محمد (ﷺ) مذهب ، وإنما هو دين الله أو دين الإسلام ، ومحمد (ﷺ) هو الرسول الذى بلغ هذا الدين عن رب العزة والجلال فليس ما جاء به محمد (ﷺ) مذهباً شخصياً وإنما هو دين إلهى سماوى . ثمّ ما هو التعارض الذى يذكره المؤلف من معتقدات أهل السنة والجماعة مع ما جاء به النبى (ﷺ) ، نعم إن البلاغ بالإسلام والتعريف به والعلم به شرط فى المحاسبة قال تعالى " وما كنّا معذبين حتى نبعث رسولاً " (الإسراء : ١٥) – (د. حلمى عبد المنعم) .

ونظرا لأنني كنت أعرف الآراء المختلفة السائدة بين أتباع محمد (ﷺ) فيما يتعلق بالتقسيم الثنائي للذنوب ، فقد كنت أود أن أعرف وأقف على موقع الخط الفاصل الذي يضعه الفكر الوهابي بين شقي هذا التقسيم الثنائي . وأنا على يقين أن القارئ يعلم أن الإجابة على هذا التساؤل لابد وأن تلقي بعض الضوء على الطبيعة الأخلاقية للمذهب الوهابي ؛ وربما كانت هذه النقطة هي أهم النقاط التي تعنى بها المعتقدات الوطنية . وبناء على ذلك ، أعربت لصديقي العالم ، عن القلق الكبير الذي ينتابني ، والاضطراب الذي يصيب ضميري ، جراء التخوف من ارتكاب الكبائر ، في الوقت الذي أرى فيه أنها من "الصغائر" ؛ وأبلغته أيضًا أنني وجدت أن إجابات علماء الشمال على هذا التساؤل حيسية ، وغير واثقة من نفسها ، بل وغير مقنعة أيضًا ؛ ولكن ، نظراً لأني الآن ، في أكثر المدن تدينًا وتقوى ، ونظراً أيضًا لأنني بصحبة أكثر أصدقائي علمًا (ونظرت إليه نظرة تنم عن التواضع) ، فإنني أتطلع إلى الاستقرار الذهني ، وأن أَبُتَّ ، مرة واحدة وإلى الأبد ، في هذا الموضوع الفائق الأهمية .

ولم يشك عبد الكريم أن أمامه باحثًا صادقًا ، وأنه لن يرفض مد يده لمساعدة إنسان يغرق . وعليه ، وبعد أن أضفى على نفسه مظهر العمق ، وبصوت يعبر عن الجدية التامة قال قولته التي مفادها : "أولى هذه الكبائر هي أن تضفي الصفات الالهيه على أي مخلوق من المخلوقات" . وهنا ، يتعين علي أن أسوق ملاحظة مفادها : أن هذه الضربة موجهة إلى أتباع محمد (ﷺ) العاديين ، الذين يصف الوهابيون عقيدتهم التوسطية ، سواء أكان ذلك التوسط عن طريق محمد (ﷺ) أو عن طريق عليٍّ ، على إنها وثنية مباشرة وصريحة[1] . ولو قدر لشيخ دمشقي أن يقول ذلك لاستبدل كلمة "الوثنية" ، بكلمه "الكفر" .

وأجبت عبد الكريم قائلاً : "هذا أمر مسلم به ، لأن جسامة هذا الذنب لا يرقى إليها أي شك . ولكن إن كانت هذه هي الكبيرة الأولى ، فلابد أن تكون هناك أيضًا كبيرة ثانية ؛ فما هي ؟"

(١) يتندّر المؤلف على الشرك في الاعتقاد ، وهذا أمر مقرر في الإسلام فلابد من سلامة التوحيد وتخليصه من الشرك بكل صورة سواء أكان شركاً في توحيد الربوبية أو توحيد الألوهية أو توحيد الأسماء والصفات يقول تعالى "إن الله لا يغفر أن يشرك به" ويقول تعالى "وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء" ، ويقول تعالى "فاعبد الله مخلصاً له الدين" والآيات والأحاديث في تقرير سلامة التوحيد من الشرك كثيرة جداً وعلى ذلك فأكبر الكبائر هو الشرك بالله تعالى وعلى ذلك إجماع الأمة – (د. حلمي عبد المنعم) .

وأجابني عبد الكريم على الفور ، وبلا تردد : "إنها شرب المنكر" . وهو يقصد بذلك تدخين التبغ(١) .

وتساءلت قائلاً : "وماذا عن القتل ، والزنا ، وشهادة الزور ؟"

وأجابني صديقي قائلاً : "إن الله غفور رحيم" ، بمعنى أن هذه الذنوب هي من الصغائر(٢) .

وبرغم أني كدت أفقد السيطرة على انفعالاتي ، رددت عليه قائلاً : "إذن الكبائر اثنان فقط وهما : الشرك والتدخين" . ويرد عليّ عبد الكريم بكل جزم وتأكيد أن ذلك هو واقع الحال . ولكني أود ، قبل أن أترك هذه النقطة ، أن أضيف شيئًا من الشرح والتفسير .

فيما يتعلق بالرد على أولى هاتين الكبيرتين "الشرك" (معنـــاه الحرفي "إشراك" أو وضع مخلوق آخر على قدم المساواة مع الخالق) ، فإن المذهب الوهابي ، الذي هو الروح الحقيقية للقرآن ، يعد كل شئ بسيطًا وخاليًا من التعقيد . وقد سبق لي أن شرحت ، في فصل سابق ، الفكرة الربانية الحقيقية التي ينقلها القرآن كما شرحت أيضًا ذلك النظام الديني الشامل الذي يجعل الرب هو القاهر ، ويجعل مخلوقاته عبيداً له. وهناك استنتاج رائع ، ومع ذلك فهو نتيجة لوحدة وجود العمل كله ، والمسئولية كلها في الرب وحده . ولكن ، في مثل هذا النظام (الإسلام) ، ما الذي يمكن للمخلوق أن يفعله ، وكيف يزجي وقته ، سواء أكان يقتل ، أو يسرق ، أو يحنث في قسمه ، أو على العكس من ذلك ، في الأمور التي تعد صغيرة عند القاهر الأعظم Great Autocrat ، طالما بقي ملكه المقدس بلا مساس ومعترف به ؟ . القاهر الأعظم يرضى عن العبد ، إذا ما رضي العبد بعبوديته ، ولا يطلب القاهر الأعظم منه شيئًا غير ذلك . والتطبيق يسير وفقًا لهذه النظرية . هناك نوع من أنواع الحل الوسط بين الرب والإنسان :

(١) إن شرب الدخان أو التبغ قد أفتى أهل العلم بحرمته وذكروا كثيراً من العلل والحكم في تحريمه وقد أثبت الطب الحديث الضرر الذي يترتب على شرب الدخان وقامت حملات في كثير من الدول تدعو إلى تحريمه والإقلاع عنه وقد سبق الإسلام كل هذه الدراسات حينما حرم الخبائث ، وأم هذه الخبائث هي الخمر وكل المسكرات والمفترات وعلى رأس المفترات هو الدخان – (د. حلمي عبد المنعم) .

(٢) ما أظن أن هذه الإجابة التي ذكرها المؤلف يقولها صبي صغير مسلم ، فحرمة الزنا والقتل وشهادة الزور هو من المعلوم من الدين بالضرورة ، ولا يسع مسلم كائنا من كان الجهل بها ويحرم منها ويكون كل واحدة منها كبيرة من الكبائر ، فكيف بعالم متبحر ـ كما ذكره المؤلف ووصفه ، يفتي بأن الزنا من الصغائر ؟ إن هذا محض افتراء من المؤلف – (د. حلمي عبد المنعم) .

فالإنسان يقول : "أنا سوف أقر بوحدانيتك ، وتأدب وولاء كاملين مع الخالق ، الحافظ ، السيد، إلهى، كل شئ . ووفاء بهذا الالتزام ، سوف أصلى لك خمس مرات فى اليوم ، تشتمل على أربع وثلاثين ركعة[١] ، وسبعة عشر سورة من القرآن[٢] ، وعدد مساو من الانحناءات ، على ألا أنسى أن أتوضأ قبـل ذلك ، وضوءاً كاملاً أو تيممًا ، وأن أردد "لا إله إلا الله" وما إليها من الذكر . وأنت من جانبك ، سوف تتركنى بناء على كل ذلك ، أفعل ما أشاء طوال بقيه الأربع وعشرين ساعة ، وألا تفرط فى مساءلتى عن سلوكى الخاص والشخصى ؛ وبعد ذلك ، فإنك لن تفعل ما يقل عن إدخالى الجنة التى ستزودنى فيها "بلحم طير مما يشتهون" (هذه الكلمات مأخوذة من القرآن[٣]) ، وأشجار ظليلة ، وأنهار من رحيق ، وكئوس من نبيذ ، مقابل عبادتى لك طوال حياتى . وإذا كانت عبادتى لك ، ليست على الوجه الأكمل ، بين الحين والآخر ، فإن إيمانى بك أنت ، وحدك، مع قولى "لا إله إلا الله" خالصة ، وأنا على فراش موتى ، يكفيانى تماماً . هذا هو جوهر الإسلام وخلاصته ، بلغه انجليزية بسيطة وواضحة . واعتماد الرب نفسه لهذا الميثاق ، يجعل المسلم يتأكد من وعد الله له فى القرآن "إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء" ٤٨ – النساء " أى أن الله ، يغفر لأولئك الذين هداهم "الصراط المستقيم" إلى الإيمان الحقيقى .

ولكن أتباع محمد (ﷺ) العاديين قد يندهشون تمامًا عندما يجدون ، هنا ، كبيرة ثانيه ، إلى جانب هذه الكبيرة الأولى ، هى شقيقه للكبيرة الأولى وغريمة لها . فلماذا التدخين على وجه الخصوص ؟ السبب هنا أيضًا راجع لوحدة الوجود[٤] ، نظراً لأن ما يفعله الإنسان (طبقًا لهذا النظام الكونى) ، هو ما يفعله الله ، ومن ثم يصبح التدخين ، شأنه شأن السرقة والقتل ، نتيجة لأمر ربانى واندفاع لا يقاوم .

(١) الصواب : سبع عشرة ركعة لأن الفرائض الخمس بدءاً من الفجر حتى العشاء تكون عدد ركعاتها على هذا النحو : ٢ صبح + ٤ ظهر + ٤ عصر + ٣ مغرب + ٤ عشاء = ١٧ ركعة – (د. حلمى عبد المنعم) .

(٢) إن قراءة سورة أو بعض سورة بعد الفاتحة فى الصلاة المفروضة إنما يشرع فى الركعتين الأول من كل فريضة وعلى ذلك فالمشروع فى قراءة السورة بعد الفاتحة عشرة ركعات أى عشر سور أو بعض الآيات فى الركعات العشر فى الفرائض الخمس من الصلاة – (د. حلمى عبد المنعم) .

(٣) إن المأخوذ من القرآن نصاً هو تلك الآية الكريمة ، فقط وهى "ولحم طير مما يشتهون " – (د. حلمى عبد المنعم) .

(٤) عبارة المؤلف "وحدة الوجود" هى عبارة غير صحيحة فى شريعة الإسلام بل هى تشير إلى مذهب هدّام من مذاهب التصوف الفلسفى الذى يرفضه الإسلام رفضاً قاطعاً ، وإنما الصواب : أن ذلك يرجع إلى وحدة الأمر الإلهى وأن الله وحده له الأمر كما له الخلق وأن ما ينهى عنه وما يأمر به ينبغى الأخذ به كله فى المأمورات ، والترك له كله فى المنهيات يقول تعالى "وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله" (الأنفال : ٣٩) – (د. حلمى عبد المنعم) .

وهنا نجد الخلاصة ، أو الرد المقنع الذى يقول : "هذه هى إرادة الله" . ومن ذا الذى يستطيع أن ينكر على القاهر الأعظم حقه في أن يضع الذنب حيثما يشاء ، وأن يُعَاقِبَ عليه كما يشاء هو (سبحانه وتعالى) ؟

وعلى كل حال ، فإننا لابد أن نبحث عن سبب آخر فى التقصى المعتاد ، وذلك عندما يطرح هذا السؤال على شخص لا يكون مستوعبًا لمعتقدات هذه العقيدة . ومن هذا المنطق وجدتنى أستطرد فى تواضعى وألتمس من عبد الكريم أن يشرح لى الشر الخاص الكامن فى أوراق التبغ ، علَّىْ اكرهها وأتخلص منها فيما بعد . وسوف أورد هنا الأدلة والحجج التى أتى بها عبد الكريم ثم أتبعها أنا بسبب أعتبره حاسمًا وقاطعًا فى هذه المسألة ، فى نطاق المذهب الوهابى ، وأثبت أن هذا السبب كان أكثر حسمًا من الأسباب التى أتى بها عبد الكريم نفسه .

ويمضى عبد الكريم فى تثقيفى قائلاً : أولاً ، جميع المواد المُسْكرة محرمة فى القرآن . ولكن التبغ مادة مسكرة ؛ إذن ، فالدخان محرم .

وخطأته قائلاً : إن الدخان ليس مسكرًا ، واستشهدت بتجربتى له . ولكن ما أدهشنى أن صديقى ، عبد الكريم ، كان قد خبر الدخان أيضًا ، وكانت لديه حكايات مخيفة عن أناس راحوا فى غياهب السكر بعد أن شربوا نفسًا واحدًا من الدخان ، وحكايا أخرى عن أناس آخرين انتابتهم حالة وحشية من جراء تعاطى الدخان . ولم تكن قصصه بلا مبرر كما يتصور الكثيرون . والتبغ العُمَانى ، كان أول تبغ يظهر فى جنوبى نجد، عندما عرف الناس الدخان؛ وهذا النوع من التبغ قوى جدًا . وأنا نفسى ، اندهشت جدًا ، بل إننى انخدعت مرارًا ، بفعل تأثيراته المخدرة غير العادية ، عندما جربت أوراق هذا الدخان ، فى مقاهى البحرين وفى مقاهى صُوحار S.ohar. ولم يكن من قبيل المبالغة عندما أشرت إلى قوته باستعمال الرموز القياسية ×× أو ××× .

وعلى كل حال ، لن أعترض على حجته هذه ؛ يضاف إلى ذلك ، أننى حتى ذلك الحين ، لم أكن قد جربت نوعية التبغ التى كان يتحدث عنها ويقصدها . ولذلك وافقته ، دون أن أناقشه فى صحة الحقائق التى أوردها ، فى أن أوراق التبغ ، يمكن أن ننظر إليها قبل كل شئ ، على إنها من قبيل الاستثناءات أو الخصوصيات ؛ ووافقته أيضًا على أن الأشقياء الفاسدين ، ونحن الدمشقيون منهم ، فى المناطق الشمالية الأقل تنويرًا ، نشاهد كل يوم مع شديد الأسف ، الانغماس فى تعاطى "المنكر" ، ولم نلاحظ

له أعراضاً فيما يتعلق بالسُّكر ، ولم نلاحظ أيضاً أن له مثل هذه الكوارث المأساوية ، في شكلها المباشر على أقل تقدير .

ولكن مُعَلِّمي قلب عليّ الموائد بأن راح يؤكد لي أن السكر هو القاعدة ، وأن عدم السكر هو الاستثناء ، وأردف قائلاً : "وهذا ، مثل ما يحدث عندما يشرب بعض الناس النبيذ دون أن يتأثروا به ، ومع ذلك فإن حال مثل هؤلاء الرجال لا يعفي ذلك الشراب من التحريم المطلق ، الذي يبنى في الأصل على تأثيره الطبيعي والمعتاد" . ومن هنا وجدت أن من الأفضل ألا أرد عليه ، تحسباً لسبب جوهري تماماً ، من منظور قياسي المنطقي الشخصي ، الذي ربما يدخلني في مجال شك عبد الكريم بأنني أدافع عن النبيذ أيضاً ، ومن ثم أكون قد زدت الطين بلة .

كان عبد الكريم ، حتى تلك اللحظة ، يشعر في داخله ، شأنه شأن غالبية المتصوفة ، أن السبب الأول الذي ساقه إليّ لم يكن كافياً تماماً ، وهنا بدأ يقدم سبباً آخر ، على أساس من الأثر أو التراث ، ومفاد هذا السبب ، أن المصادر تقول لنا : إن محمداً (ﷺ) ، وأنا لا أعرف لذلك سبباً أو مكاناً ، أعلن على أتباعه عدم شرعيه استعمال الشائط والمحروق في الطعام . ولعل ذلك يكون واحداً من أسباب شيوع استعمال اللحم المسلوق في نجد ، مما أدى إلى استبعاد اللحم المشوي ، والمحمر ، واللحم المقلي، اللهم إلا إذا كان ذلك من قبيل الجهل بطهي مثل هذه الأنواع من اللحم. وعلى أي حال ، فالتحريم قائم ، ليبين أن دخان التبغ داخل في هذا الإطار . يضاف إلى ذلك أن تسوية اللغة العربية بين "الشرب" و"التدخين" يكفي أيضاً للتدليل على ذلك .

وقد عارضت إدخال التبخير ضمن هذه الحجة اللغوية ، ومن المعروف أن التبخير أمر شائع في نجد ، إضافة إلى أنه كان محبباً للنبي (ﷺ) . وقد جاء الاعتراض تأسيساً على أن مادة "شرب" لا يصلح استعمالها في إطار التبخير بالطيب . وهنا تحولت إلى ما يطلق عليه النجديون اسم "الملة"، أو إن شئت فقل الخبز ، أو بالأحرى الخبز المخبوز أو المحروق في جمر ملتهب ، الذي اتخذنا منه طعاماً لنا طوال المرحلة السابقة من رحلتنا ، والذي يشيع استعماله في كل أنحاء نجد ، وقد أصابت إشارتي هذه المحز ؛ وهنا راح عبد الكريم يتكلم عن الخواص المخدرة للعشب .

ولكن القارئ العزيز ، قد يتساءل عن السبب الحقيقي والواقعي لذلك الخطر والتحريم العرفي الذي يضعه المذهب الوهابي على التبغ ؟ ونحن لسنا بحاجة إلى

الذهاب بعيداً ونحن نبحث عن هذا السبب ؛ ذلك أن الميل إلى التميز المذهبي هو الذى يفسر هذا السبب تفسيراً تاماً .

ومبلغ ظنى ، أن قطع تاريخ المذهب الوهابى ، الذى رويته فى المجلد الأول ، قد أوضح للقارئ أن فكرة القهر والهزيمة كانت ما تزال تسيطر على موقف محمد بن عبد الوهاب ومريده سعود الثانى من فكرة العقيدة أو الهداية . كلاهما وربما الثانى أكثر من الأول ، كان يتطلع لا إلى تأسيس مذهب وحسب وإنما إلى تأسيس إمبراطورية ؛ لم يكونا يتطلعان إلى ارتداد جيرانهم عن دينهم ، وإنما إلى إخضاعهم . لقد كان محمد بن عبد الوهاب وسعود الثانى رائدين متحدين من رواد الإسلام ، والسيف يرتبط بالإسلام بحكم الضرورة . والشروع فى تنفيذ هذا العمل ، يتطلب ذرائع مقبولة ومهذبة ، فى الوقت الذى يتحتم فيه أن يكون هناك شعار فريد يميز هذه الجماعة عن بقية الجماعات الأخرى . فالإقرار بوحدانية الله ، والمواظبة على الصلاة مثل سائر أتباع محمد من غير الوهابيين ، والبساطة فى الملبس والثياب والعبارات والمقولات الخاصة ، وكذلك غض البصر لم يكن كل ذلك كافيًا لتحقيق هدف كل من هذا أو ذاك ، وضمان استعمال السيف، أو تمييز أولئك الذين استلوا سيوفهم عن أولئك الذين أشهرت عليهم السيوف . ويرد على ذلك ، العدد الكبير من السكان الذين هاجمهم الوهابيون قائلين : "خلاصة القول ، نحن أيضًا من أتباع محمد مثلكم ، وليس هناك أى فارق جوهرى بيننا ؛ فبأى حق ، وبأى ذريعة ، تهاجمون إخوانكم ، وتقتلوهم وتستعبدوهم ؟" كان الأمر يحتاج إلى شئ إضافى ، وهنا قفز التبغ أمام الوهابى فى الوقت المناسب .

أضف إلى ذلك، أن مسألة تعاطى الدخان على مستوى الكون، كانت أمراً مؤكداً ؛ علاوة على أن مسألة تعارض هذه الحقيقة إلى حد ما ، مع النص الحقيقى للشريعة الإسلامية ، كانت أمراً مؤكداً كذلك . وبذلك يتضح أن البشر يحكمون حكمًا صحيحاً ، فى أغلب الأحيان ، برغم عدم صواب الحجج التى يسوقونها . والحجج التى ساقها عبد الكريم ، قد لا تكون كافيه، حتى من وجهة النظر المحمدية ، لتأييد فرضيته ، ومع ذلك ، فإن احتمالية صدق هذه الحجج كبيرة جداً ، ولو قدر لمحمد (ﷺ) أن يعرف التبغ ، لحرّم استغلاله، من منطلق أسباب تحريمه لاستغلال العنب . والتدخين عادة اجتماعية ، وحضارية ، وهو يجمع الناس إلى بعضهم (ويؤسفنى أن أقول إن تأثيره ، على السيدات ، تأثير عكسى فى هذا الصدد ؛ ولكنهن إن تعاطينه لهذا السبب ، فإن ذلك سيحزننا) ،

والتـدخين هو الذى يدفع البـشـر– وذلك علـى العكس مما يقـوله كـوبر Cowper– إلى تجاذب أطراف الحديث، وإلى الدعابة، وتبادل الأفكار وديًا بين الناس . وعلى كل حال ، فإن التدخين ، برغم أنه أساسًا من المسكنات ، له أيضًا تأثير تحفيزى ، يجعلنا ندخله ضـمـن دائرة النبيذ والمشروبات الروحـيـة . (أخيرًا ، فإن التبغ ، لا يدخل ضـمـن اللهو الوحيد الذى أباحه محمد لأتباعه أثناء القتال وفيما بين أوقات الصلاة[1]) . وتأسيسًا على ذلك ، فإن الوهابيين يصبحون منسجمين مع أنفسهم ومنطقيين فى عدائهم لذلك النوع من اللهو Luxry ؛ ويجب علينا أيضًا أن نعترف أن هناك فى الشرق الذى يدخن التبغ ، بعض الذرائع القليلة المهمة التى تتعارض مع ذلك ، وهناك أيضًا مزيدٌ من الدلائل الواضحة المؤيدة لذلك . والواقع أن غالبية المواطنين السوريين ، والمصريين ، بل ومواطنى المناطق النائية فى الجزيرة العربية نفسها ، لا يجدون ما يقولونه عن هذه الأمـور المذهبـيـة ، إذا مـا سـألناهم عنهـا ، سـوى أنهم يكرهون الدخان فى الداخل والخارج . وهذا لا يعنى أن الوهابيين لا مثيل لهم ، فى كراهيتهم للدخان ، وإن كان ذلك بدرجه أقل ؛ إذ هناك عدد كبير من أتباع محمد الملتزمين والزهاد ، من أهل السنة العاديين ، ومن قبلهم أتباع المذهب المالكى ، كلهم يرفضون شرب الدخان ، ويعدونه شيئًا لا يليق بالمؤمن الصحيح ، برغم أنهم لا يعزونه إلى أصل شيطانى ، أو يعتبرونه من الكبائر مثلما هو محكوم عليه فى نجد . وفى وادى الدواسر ، نجد الناس أكثر تشددًا فى هذا الموضوع ، من أهل العارض ، والشئ نفسه ، إذا لم تخنى ذاكرتى يمكن قوله أيضًا عن جبل عسير .

هذا هو ما وصل إليه حوارى مع عبد الكريم فى ذلك اليوم ؛ وقد أوردت هذا الحوار مثالاً لحوارات أخرى كثيرة جرت فى أوقات متباينة . ومع ذلك ، فأنا لا يمكن أن أغفل أو ألغي ذلك الذى حدث بينى وبينه بعد أن عوفى تمامًا من مرضه ، وبخاصة أن هذه المناسبة سوف تشد اهتمام القراء ، نظرًا لمغزاها المهم جدًا عند عبد الكريم وعند الناس الآخرين على حد سواء .

وفى خلال ثلاثة أسابيع اختفت الأعراض التى كانت تضايق عبد الكريم وتزعجه من قبل ، إلى حد أنه قال لى : إن حالته أصبحت جيدة ، وأنه أصبح على ما يرام .

(١) هذا محض افتراه من المؤلف ولم يثبت مطلقاً عن النبى (ﷺ) أنه أباح التبغ لا فى أثناء القتال ، ولا بين أوقات الصلوات ولا فى أى وقت آخر ، بل الصواب أنه نهى عن كل مسكر ومفترٍ – (د. حلمى عبد المنعم) .

ومع بداية العلاج ، كنا قد اتفقنا على دفع الأتعاب بعد الشفاء ، ونظراً لحلول موعد هذه الأتعاب ، فقد ذكرته ، بطريقة لطيفة ، بما تم الاتفاق عليه بيننا . ولما لم يلتفت إلى إشارتي الأولى ، أشفعتها بإشارة ثانية وثالثة كل منهما أوضح من سابقتها ، ولكنه لم يلق بالاً لهذه الإشارات . وفي الوقت نفسه ، قام عديد من السكان المحترمين ، لأننا كنا نجلس بين المواطنين ، بحث المطوع المتقاعد على الوفاء بالتزامه ، ومع أن إجمالي المبلغ المطلوب من عبد الكريم كان لا يتجاوز أحد عشر شلنًا إنجليزيًا ، إلا أن مماطلته كانت تبعث على السخرية وتوحي بالدناءة . وشعوراً منه بالخجل والتردد ، فكر الرجل في الانصراف بسرعة ، من منطلق أن ذلك نوع من البراعة والعبقرية ؛ ولكن ذلك لم يكن في صالحه .

وفي عصر أحد الأيام ، وبينما كنت أجلس وحدي في مقهى منزلي ، سمعت طرقًا غريبًا على باب المنزل ، جعلني أتوقف عن الاستمرار في تدوين مذكراتي وأنهض لفتح مزلاج الباب ، ويدخل أربعة من أصدقائي في المخدرة ، توحي وجوههم بأن لديهم طرفة يودّون أن يقصوها علّي ، وما أن جلسوا على الأرض حتى راحوا يقصون علّي ذلك الذي شاهدوه . فقد كانوا عائدين لتوهم من المسجد الكبير أو الجامع بعد أن انتهى درس العصر . ولقد وصفت هذا الدرس عندما كنت في حائل ؛ وليس هناك أي فرق بين درس العصر في حائل ودرس العصر في الرياض ، سوى أن درس الرياض أطول بكثير ، والجمهور الذي يحضره أكبر بكثير من جمهور حائل ، وأن هذا الدرس أو الموعظة ، يتركّز مرتين من بين كل ثلاث مرات ، على خاصية من خصائص المذهب الوهابي . وفي هذه المناسبة ، وبعد أن فرغ قارئ الدرس من قراءته ، تقدم عبد الكريم ليعقب على ما قرئ ؛ وهذا التعقيب أمر لا يمكن إغفاله في الرياض . واختار عبد الكريم لخطابه موضوع عدم كفاية المخلوقات وحتمية التوكل على الخالق وحده ، واستبعاد المخلوق . وعندما وصل عبد الكريم إلى التطبيق العملي ، راح يندد بأولئك الذين يثقون بالطب والأطباء ، ولا يثقون بالله وحده ، وأعلن على الحاضرين ، أن مثل هذه الثقة ، هي في المقام الأول هرطقة ، وفي المقام الثاني ، خطأ فادح ، من منطلق أن السبب الوحيد للصحة أو المرض ، والحياة أو الموت ، إنما هو إرادة الله ؛ وأن الأطباء والدواء لا يمثلان شيئًا في هذا الأمر من بدايته إلى منتهاه . وخلص عبد الكريم ، من كل ذلك ، إلى مواتية منطقية جداً مفادها أن هذه الأشياء والمخلوقات عديمة النفع ولا تستحق بأي حال من الأحوال ، المكافأة عليها ، بالمال أو الشكر من

المؤمن الحقيقى ، بل إنه أردف قائلاً : إن المريض إذا ما بدى أنه تحسن باستعمال الوسائل الطبية ، وأنه استعاد صحته أثناء استعماله هذه الوسائل ، فإن الشفاء الذى يكون من هذا القبيل ، هو مجرد مصادفة ، ولا علاقة له بالأسباب والمسببات ، وأن الطبيب لا يكون من حقه أى شئ بناء على ذلك ، والسبب فى ذلك ، أن الشفاء هنا لا يرجع إليه ، وإنما إلى الله وحده ، لا إله إلا الله ، ... الخ .

ويحتمل لهذه الدروس ذات الصبغة الدينية - التطبيقية أن تحظى بالتصديق والاستحسان لو أنها كانت فى لحظة ، أو مناسبة غير المناسبة التى نحن بصددها ، وصادرة من فم إنسان غير عبد الكريم . ولكن من سوء الطالع أن عبد الكريم كان شخصية منافية للذوق العام ، وكنت أنا أيضًا كذلك . فكل جار من جيرانه كان يعرف قصة مرضه ، وقصة علاجه ، وقصة شفائه أيضًا مسيحية تامة . وترتب على ذلك ، أن مرموقة امتناعه عن دفع الأتعاب ، لأسباب يرجعها هو إلى الدين ، كانت تقوم فى أساسها على المشاعر الخاصة وليست المشاعر النبيلة ، يضاف إلى ذلك ، أن الجميع كانوا يعرفون أن الواعظ إنما كان مشغولاً بربط حبل كيس نقوده بدلاً من حل مشكلته الطبيعية . وانتشر اللمز والغمز فى كل مكان ؛ وبعد أن خرج المصلون من المسجد استمروا فى تعليقاتهم وفى ضحكهم على طريقتهم النائية . وقد تمتع أصدقائى بهذه النكتة ، وفى النهاية ، وعدوا بإحضار عبد الكريم إلى منزلنا ، فى اليوم التالى ، بطريقة أو بأخرى ، بعد أن اتفقنا على ما يجب قوله وعمله .

وبر الأصدقاء بوعدهم ، وفى ضحى اليوم التالى ظهر عبد الكريم وهو يبدو عليه الحرج ، ويحيط به كثير من الرفاق ، الذين كان من بينهم الأصدقاء الذين زارونا فى اليوم السابق . وبعد تبادل عبارات التأدب واللياقة ، وبعد أن وصل الحوار إلى النجدية المطلوبة قلت لعبد الكريم : "يا عبد الكريم ، إن أحداً لا يشك أن الصحة والشفاء يأتيان من الله وحده ، وأن الأطباء لا يستحقون فى ذلك سوى قليل من الثناء . وأنا أيضًا على نفس الشاكلة ، وبلا زيادة أو نقصان ، أثق بأن الله سوف يعطينى أكثر (ثم نطقت بالمبلغ المتفق عليه بيننا) مواتية لوسائلك السلبية ، وعندما يعطينى الله ذلك ، فإنك لن تستحق فى ذلك سوى القليل من الثناء أيضًا" . وضحك جميع الحاضرين ، وانهالوا على المطوع المتقاعد المسكين ، إلى أن بدأ يحس بالخزى والكسوف من نفسه تمامًا . ويترك عبد الكريم المنزل ، على وعد بسداد المبلغ على وجه

السرعة ، وقبل غروب الشمس حضر أخوه الأصغر ومعه المبلغ المطلوب ، تحاشياً لمزيد من التهكم والتجريح . ولكن عبد الكريم لم يدخل دارنا قط بعد ذلك اليوم ، ونحن بدورنا لم نندم أو نأسف عليه .

ولديَّ عينة أخرى تنتمى إلى الطبقة المتعلمة أو شبه المتعلمة ، وتتمثل فى مريض ثالث هو من الأعيان ، اسمه عبد الرحمن ، مطوع القصر . وقد ظل عبد الرحمن يعانى عدة سنوات من نوبات حادة من الصداع العصبى ، والواقع أنه كان يعمل فى ظل نوبة حادة ألزمته غرفته ، وجعلته غير قادر على القيام بمهامه الدينية . وكان جوهر الذى أصاب تحسناً كبيراً فى حالته الصحية قد رسَّخ سمعة طيبة وجيدة فى كل أنحاء القصر ؛ ولذلك أرسل المطوع بناء على توصية من جوهر ، يطلبنى على وجه السرعة .

كان سكن عبد الرحمن مقابلاً تماماً لسكن محبوب ، وواسعاً ومؤثثاً تأثيثاً جيداً ، وكان يضم علاوة على أشياء أخرى حوالى أربعين مجلداً ، ما بين مخطوط ومطبوع ، عن موضوعات مختلفة ؛ وهذه مكتبة جيدة جداً فى الجزيرة الطيبة ، وبرغم الألم ، فقد التزم التزاماً تاماً بقواعد النحو العربى عندما كان يعرض علىّ شكواه ؛ وبعد أن تحسن حاله وشفى من آلامه ، بعد أيام تعيسة من العلاج المناسب ، اتضح لنا انه من المعارف المهمة ، وأنه أكثر أُنساً ولطفاً وصراحة من عبد الكريم . وفى مسكن عبد الرحمن ، تعلمت الكثير عن مسيلمة ، وعن الوهابيين ، وعن دولة نجد المتدينة فى الأزمان القديمة ، بل تعلمت الكثير أيضاً عن موضوعات أخرى مماثلة ؛ وقد ضمنت قصتى بعضاً من هذه التفاصيل وسوف أضمنها الباقى فيما بعد . بل ، إن عبد الرحمن المطوع ، كان يحفظ عن ظهر قلب كثيراً من سور قرآن مسيلمة الكذاب ، كما كان يرتل تلك السور متمثلاً تماماً الضحك الرخيص الذى تنطوى عليه . وإلى مسكن عبد الرحمن ، كانت تأوى – مثلما نأوى إلى مركز عام – أفئدة من الشباب طلاب العلم فى الشريعة وأمور الدين التى أشرت إليها وكانوا يناقشون عبد الرحمن أمامى فى قضايا أخلاقية أو أحكام العقيدة على طريقتهم الخاصة ، والسبب فى ذلك أن عبد الرحمن لم يكن عالماً فحسب وإنما كان كثير الكلام ومتحدثاً بارعاً ، وأنه كان يجمع أولئك الصبية الشاحبين من حوله ، مما جعل الكثيرين منهم ينظرون إليه باعتباره مرشداً واستاذاً لهم .

وذات صباح أجلسونى على "البلاص" أو إن شئت فقل : سجادة نجدية خشنة ، بجوار عبد الرحمن ، فى حين كان يدور نقاش بين أفراد كثيرين من القصر .

وتطرق الخطاب ، بصورة أو بأخرى ، إلى دمشق ، أو "الشام" ، مما جعل الجميع ينحنون لها أدبًا ، وراحوا يكيلون المديح لذلك الذى ظنوه بلدى وموطنى ، ويستشهدون من الأثر الشهير بزيارة محمد (ﷺ) لتلك المخدرة . وهذه مجرد خرافة وتلفيق ، تقول بأن النبي ، عليه الصلاة والسلام ، انتوى دخول العاصمة السورية ، وأنه كاد ينزل من على بعيره بالقرب من البوابة الجنوبية ، عندما جاءه جبريل ليقول له إن الله يترك له الخيار بين جنة هذه الدنيا وجنة أستطيع ؛ وبناء على ذلك ، إذا ما أصر محمد (ﷺ) على دخول دمشق ، فإن ذلك سوف يكون مشروطا بالتخلي عن حدائق وحور الترحيب . وهنا عدل النبى عن خطته ، وفضل متاع الآخرة على بيارات ومياه نهر بردى ، وأعاد قدمه الشريفة إلى مكانها فوق سرج الجمل ؛ ورجع من حيث أتى . وعلى كل حال ، وعلى العكس مما يقوله المشككون والكفار ، فإن أثر القدم النبوى الذى لامس التربة الصخرية بالفعل ، مايزال موجوداً هناك ، وقد سعدت أنا بنفسى ، عندما شاهدت هذا الأثر فى ذلك المسجد الصغير الجميل الذى يخلِّد ذكرى هذه الرؤيا وذلك الاختيار ، بالقرب من بوابة البلدة الواقعة على طريق الخروج من حوران . وبرغم أن البعض يقولون : إن أثر القدم بأصابعه الخمسة لا ينتمى إلى محمد (ﷺ) وإنما إلى جبريل، الذى تمثل بشرًا ، ولكن له رشاقة الملائكة، وأنه هبط على قدم واحدة فقط . وأنا بعيد كل البعد عن محاولة البت أو الفصل في جدل كهذا ؛ والأمر متروك للقارئ نفسه .

ويغض النظر عن أثر القدم ، فإن هذه القصة حقيقة لا ريب فيها بين أتباع محمد[1] (ﷺ) ، وقد رددها الحاضرون للمرة الألف ، من باب التحية لنا نحن "الشوام" أو الدمشقيين المزعومين . ولكن عبد الحميد البشاورى ، الذى سبق أن تناولته بالوصف ، كان ضمن الحاضرين ، ولم يطق أن يتحمل كل ذلك فى صمت . زد على ذلك، أن الحقد الذى كان يضمره لنا عبد الحميد ، كان وحده كافيًا لاستثارة غضبه ، وأن عبد الحميد هذا نفسه باعتباره واحداً من أبناء أقاليم كشمير الجميلة ، تربى بين بيارات أجمل بكثير من حدائق دمشق ، وبجوار أنهار يعد نهر بردى قناة بالقياس

(١) هذا الكلام لا أساس له من الصحة، وليس من الإسلام فى شىء، ولكن الذى حدث بالفعل هو ذهاب النبى (ﷺ) فى غزوة تبوك على رأس جيش لملاقاة الرومان والقبائل الموالية لهم على تخوم الجزيرة العربية من ناحية الشمال ، ولكنه لم يحدث حرب ورجع النبى (ﷺ) بالجيش سالمًا ، بعد أن صالح بعض القبائل على الجزية هناك – (د. حلمى عبد المنعم) .

إليها . زد على ذلك أن عبد الحميد كان شيعيًا خالصًا ، ومن هنا كان مذاق امتداح أكثر المدن تمسكًا بالسنة ، العاصمة القديمة لبنى أمية ، ومركز العداء والتصارع الحالى مع مذهبه الشيعى ، مرًا ومريرًا فى نفس عبد الحميد . وعليه "ينطلق عبد الحميد انطلاق الوحش قائلاً" : "ياله من هراء ذلك الذى تقولونه . تقولون جنة الأرض ! جنة الأرض ! وكل ذلك من أجل مجموعة قليلة من الأشجار القزمة وقليل من الماء المختلط بالطين ! لماذا كل هذا ! ألا تعرفون أن النبى وأصحابه لم يكونوا سوى بدو ، اعتادوا أن يمضوا كل حياتهم فى أرض الحجاز الجدباء الجافة ، وفى الصحراء ؟ ولذلك ، فإنهم عندما وصلوا دمشق شاهدوا ، لأول مرة ، مجموعة من الحدائق والأنهار الجارية ، استنتجوا أن تلك هى الترحيب وأطلقوا عليها هذا الاسم ! ومبلغ ظنى ، أنهم لو شاهدوا بلدى لغيروا رأيهم" .

وحملقت كل العيون ، وانفغرت جميع الأفواه ، وقال الجميع "استغفر الله . لا إله إلا الله"، ويحمر وجه عبد الحميد بفعل الانفعال والاستثارة، ودخل فى طور من التهور ، وظهر على وجهه الغضب والاحتقار ، وتمتم ببعض اللعنات السائدة فى كابول **Cabul** . ولولا أن عبد الحميد كان من الأشخاص المحببين للملك فيصل ، لساءت الأمور بالنسبة له تمامًا ، ولكن عبد الرحمن سرعان ما حول ، بحنكته ، مجرى الحديث ، الأمر الذى أنهى ثورة هذا الأفغانى العنيفة ، بدون المزيد من التعليق .

وينبغى ألا أشغل القراء من غير العاملين بالطب ، بتفاصيل الحالات التى فحصتها، إذ توجد بأعداد كبيرة ، كما أن فرصة شفائها هنا أكثر من أى مكان آخر . فقد كان زوارى من الحضر ، وبعضهم من الغرباء الذين حضروا إلى الرياض بغرض التجارة والاتجار ، والمال والأعمال ؛ بعض المرضى كانوا من الأثرياء ، وبعضهم كانوا فقراء ؛ وقمنا ورددنا كثيرا من الزيارات ، ودعينا إلى الطعام مرات ومرات ورددنا هذه الدعوات . وفى بعض الأحيان ، كنا نجد أنفسنا متكئين على حَشيَّة داخل قهوة مفروشة فرشًا جيداً بالبسط والسجاد ، ومن أمامنا صف طويل من دلَاء القهوة ، التى لا يستعمل منها سوى اثنين أما العشر الباقيات فللعرض والاستعراض ؛ كما جلسنا أيضا فى مقاهى أخرى ، هى عبارة عن غرف سيئة الإضاءة توجد فى الطابق الأول ، من منازل الفقراء ؛ بل إنها تكون فى بعض الأحيان ، فى حديقة تبعد عن المخدرة ميلا أو أكثر . وكنا نذهب إلى هذه المقاهى بناء على دعوة من الأصدقاء أو لفحص مريض .

ومرت الأيام سراعا ؛ وأكاد أكون مخطئًا إذا لم يحسدنا أطباء لندن ، على انشغالنا الدائم، وعلى ذيوع شعبيتنا التي ربما كانوا أحق بها منا ، لو أنهم كانوا هنا بدلا عنا .

وعلى كل حال ، فأنا لا يمكن أن أغفل ذكر عبد اللطيف أكبر أحفاد الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، والذي يشغل الآن منصب قاضي العاصمة وعبد اللطيف ، في واقع الأمر ، شخص بادي الأناقة ، حسن السمعة ، توحي سلوكياته بقدر معقول من الحضارة المصرية . إذ أنه عندما كان طفلا ، أصدر الباشا الغازي أمرا بنقل أسرته إلى مصر ، التي تلقي فيها تعليمه . ومن مجتمع القاهرة ، ومن اتصاله برجالها الأكثر علما والأقل تشددا من علماء نجد والدرعية ، تعلم عبد اللطيف سلامة الحديث وتنوعه ، وهو أمر يدعو إلى الدهشة وبخاصة في قاضي مدينة الرياض؛ وقد تمكن عبد اللطيف ، بفضل هذه السلاسة ، أن تكون له عباراته المستقلة الخالية من المصطلحات الخاصة والحشو الممل في المذهب الذي يترأسه . ولكن هذه الليبرالية المظهرية هي مجرد شكل خارجي فقط ؛ ذلك أن اللسان قد يكون لسان مصر ، ولكن القلب والعقل هما دوما : قلب نجد وعقل نجد ، وأنا أعتقد أن جبال وسط نجد ليس فيها رجل أخطر من عبد اللطيف ، أو رجلا أشد كرها للتقدم الذي شاهده بعينه ، والذي شارك فيه إلى حد ما . وتوفيق باشا ، وعلى باشا ، وأي باشا آخر ، من الذين عادوا إلى البسفور بعد قضاء سنوات بجوار نهر السين أو الدانوب ، وبداخلهم حقد دفين على الازدهار والحضارة التي شاهدوها ، والتي يشعرون أنها بعيدة عن متناولهم ، وكارهين لتفوق الغير عليهم ، وعاقدين العزم على استغلال المزايا الشخصية التي اكتسبوها هناك في معارضة وإيذاء أولئك الذين لا يستطيعون ولن يستطيعوا تقليدهم أو محاكاتهم ، هؤلاء الباشوات ليسوا سوى أنماط لـ عبد اللطيف ، تلميذ القاهرة ، ورئيس المطاوعة الوهابيين ، وهذا العداء المتجسد للشر ضد الخير ، يتساوى على أقل تقدير ، مع العداء المتجسد للخير ضد الشر .

كنت التقي بعبد اللطيف من حين لآخر، ولكن أدبه الجم ومعرفتي به كانا يجعلاني أتراجع في أحيان كثيرة ، عن هذه اللقاءات . وأنا لست بحاجة هنا إلى أن أقول : إن منزله كان قصرا ، وبساتينه من أوسع البساتين ، وعبيده كثيرون ؛ ولما كان عبد اللطيف يشغل منصب الرجل الثاني بعد الملك ، فقد كان بلا منازع الشخصية الأولى في العاصمة ، وفي الإمبراطورية كلها . بل إنه ، من نواح كثيرة ، كان أقوى من الملك

فيصل نفسه . ولم يغب عن ذهن عبد اللطيف الذى هيأ له مركزه وأسرته ، ومنصبه ونفوذه أنسب الفرص للتمتع بكل ما يمكن التمتع به عملا بالحكم القرآنى الذى يقول : "يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم" فى الآية ٥٧ المائدة[١] . فقد نزلت على هذا الرجل ضيفًا مرات ومرات لشرب القهوة : وأنا لا أعرف ، ذلك الذى جعله يحكم عليَّ من نبرات صوتي وموسيقاه أنني لست دمشقيا وإنما مصريٌ ، وتكلم معي عن طيب خاطر ، عن القصر العينى وعن جامع الأزهر . ولكنه أيضا كان يعرفنى بصفتي مسيحيا ، وكان فى الوقت المناسب يكشف لى عن مشاعره الحقيقية تجاهى بوصفى مسيحيا .

كنت أحضر فى أغلب الأحيان ، محاضراته وتعليقاته العامة سواء أكانت في مسجده الأنيق ، الذى يجاور منزله فى الحى الثالث من المدينة ، أم فى الجامع الكبير فى مدينه الرياض. وفى تلك المناسبات، كان يحيط به عدد كبير من الطلاب المستمعين ، إضافة إلى هيئة كبيرة من أتباعه ومريديه الخصوصيين : وأنا هنا لابد أن أعترف بأنه كان متكلما واضحا وسلسًا ، ولديه من العلم ما يجعله جديرا بالمركز الذى يشغله . ولكنه مذهبى حرفى ومتشدد بصورة تزيد على ما ورد فى المسائل التى تشكل البنية الأساسية والجوهر الرئيسى لتعاليم مذهبه وأحكامه ، ولم يحدث قط أن استمعت إلى هذه التعاليم أو الأحكام .

أذكر جيدا عصر أحد أيام شهر نوفمبر ، عندما كان الجامع الكبير مليئا بالمستمعين ، ثم حدث شيئ من الهرج والانفعال على أثر وصول أخبار جديدة من عنيزه ، والانتصار الذى حققه "المسلمون" على الزامل الكافر هو وجماعته . كان الواعظ ، فى ذلك اليوم ، هو عبد اللطيف ، وكان موضوعه الالتزام بالإيمان الصحيح ، وخطر البدع الحديثة ، ولتأكيد موضوع الموعظة ، روى عبد اللطيف شيئا من الأثر ، الذى ينص على أن محمداً (ﷺ) قد أخبر صحابته بنبأ عظيم مفاده أنه "مثلما كان اليهود مقسمين إلى إحدى وسبعين مذهبا مختلفا ، ومثلما كان المسيحيون مقسمين إلى اثنين وسبعين نحلة" – (ربما كان يدور بخلد النبى فكرة مشوشة عن الاثنين وسبعين تابعا الذين أرسلهم الرب للوعظ) – "فإن إخوانه فى الدين سوف ينقسمون إلى ثلاثة

(١) رقم الآية الصحيح هو ٨٧ من سورة المائدة – (د. حلمى عبد المنعم) .

وسبعين مذهبا ، وأن اثنين وسبعين فرقة من هذه الفرق سيكون مآلها إلى نار جهنم ، وفرقة واحدة هي التي سيكون مآلها إلى الجنة" . وهنا يتوقف الواعظ عن الكلام برهة صغيرة مثلما فعل ماسيلون **Massillon** "بعد أن مرت بقية إسرائيل ناحية اليمين !" وهنا سرت بين جمهور الحاضرين ، موجة من الفرح والنشوة . ويواصل عبد اللطيف حديثه بعد ذلك ، رافعا صوته ، ليروي للحاضرين كيف راح الصحابة ، بعد سماع الإعلان المخيف ، يسألون : "يا رسول الله ، ما هي علامات تلك الفرقة (المذهب) السعيدة التي ضمنت الجنة ؟" ويرد عليهم محمد (ﷺ) قائلا : "هم أولئك الذين يتبعوني أنا وصحابتي" ثم يردف عبد اللطيف قائلا بصوت خفيض يوحي بالاقتناع التام "وهؤلاء ، هؤلاء ، برحمة الله ، هم نحن ، أهل الرياض"[١] .

وهنا خطرت ببالي تلك الطرفة القديمة التي تقول : "الارثوذكسية معناها خليلتي ، والابتداع خليلة رجل آخر" – هل يمكن للأمر أن يكون غير ذلك ؟ كان الجالس إلى جواري واحداً من مرافقي النائب البغداديين ؛ وبعد أن استمع إلى هذه العينة الثمينة من الوعظ الديني في الرياض ، نهض من مكانه وشق طريقه بين الحاضرين إلى خارج المسجد ، وكاد يدوس الناس من فرط غضبه . ولكن النجديين كانوا مستغرقين في كلام الواعظ إلى الحد الذي جعلهم لا يلقون بالاً لابتسامتي أو التجهم الذي كان على وجه حسن . وسرت في كل أنحاء الجامع "أشهد أن لا إله إلا الله"، ورفع كل واحد من الحاضرين سبابته شهادة على وحدانية الواحد الأحد التي تضمن الخلاص للمؤمنين الحقيقيين ، وتأكيدا على لعنة المشككين والمشركين .

هذا الذي وصفته ليس سوى عينة محتملة من التلقين النجدي . وعلى امتداد شهر ونصف الشهر قضيتهما في هذه العاصمة المتدينة لم أسمع مقطعا واحد ، طوال فترة حضوري هذه المواعظ أو ترددي عليها ، عن الأخلاق ، والعدل ، والإنصاف ، والرحمة ،

(١) ليس هذا من التلقين النجدي أو المذهب الوهابي الذي يحمل عليه المؤلف دائمًا ، وإنما هذا حديث صحيح فقد روى حديث افتراق الأمة أبو داود في سننه كتاب السنة ، ورواه الترمذي في سننه كتاب الإيمان ، ورواه ابن ماجة في سننه كتاب الفتن ، ورواه أحمد بن حنبل في المسند في عدة مواضع من المسند ، ونذكر هنا نص روايه ابن ماجه في سننه عن عوف بن مالك قال : قال رسول الله (ﷺ) : "افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة ، فواحدة في الجنة ، وسبعون في النار ، والذي نفس محمد بيده ، لتفترقنّ أمتي على ثلاث وسبعين فرقة، واحدة في الجنة ، واثنتان وسبعون في النار ، قيل يا رسول الله من هم ؟ قال : "الجماعة" ومعنى الجماعة هنا : أي الموافقين لهدى النبي الصحيح وجماعة أصحابه والسلف الصالح من أهل العلم العدول . ولعل كلام الشيخ عن أهل الرياض بأنهم من أهل الجماعة هو من باب البشارة – (د. حلمي عبد المنعم) .

والصدق ، ونقاء السريرة وعفة اللسان التي تجعل الإنسان أفضل مما هو عليه . ولكني سمعت الكثير عن الصلاة ، وعن شن الحرب على الكفار ، وعن أنهار الجنة ، وعن الحور العين ، وعن حفر النار ، وعن الشياطين والأغلال ، وعن أحكام الطلاق ، وعن التزامات التعدد المعقدة . وينبغي ألا يغيب عنا هنا ذلك الموضوع المتكرر ، كبيرة شرب الدخان ، بل إن هذه الكبيرة تؤيد بأحكام عينية ومخيفة ، تشبه ، على نحو غريب ، تلك الأحكام التي توردها الروح المسيحية الأدنى من اليهودية ، في كتب التثقيف والتنوير الأوربية . من ذلك على سبيل المثال . يقال إن رجلا عاش حياة صحيحة وأن إسلامه لم يكن يرقى إليه أي شك، توفي ودفن في بلدة سدوس، تلك البلدة التي تقع على الحدود ، والتي سبق أن مررنا بها . وصلى الناس على ذلك الميت ، ودفنوه في قبره على شقه الأيمن ووجهه متجه إلى الكعبة ، شأنه شأن أي مسلم آخر عندما يموت . وتصادف أن أحد جيران ذلك المتوفي ، عندما كان يساهم في طقوس الجنازة والدفن ، سقط منه ، دون أن يدري ، كيس نقوده الصغير في قبر الميت ، ويبقى الكيس مغطى بالطين داخل قبر الميت . وعندما عاد الجار إلى منزله ، اكتشف ضياع كيس نقوده ؛ ويبحث الرجل عن الكيس في كل مكان ، ولكن دون جدوى ، ولكنه سرعان ما توصل في النهاية إلى ما مفاده أن نقوده لابد أن تكون قد ذهبت إلى القبر قبل الأوان . ماذا يفعل الرجل ؟ ونبش القبور أمر مكروه وممقوت عند أتباع محمد وعند المسيحيين المعتادين . ولكن Quid non morta lia pectora Cogis Auri Sacra Fames? واستشار ذلك الفلاح قاضي القرية الذي أفتاه بأن نبش القبر في مثل هذه الحالة لا يعد ذنبا ، ولكنه نصحه أن من الحكمة أن ينتظر إلى دخول الليل تحاشيا للفضيحة والقيل والقال . ويحل الليل ويبدأ "رجل البعث" المجاز عمله ، ويسترد كيس نقوده من قبضه الموت الباردة . ولكن هذا الفلاح اندهش وأصابه الرعب والفزع ، لأنه رأى الميت وقد تغير موضع وجهه عن الكعبة ، إلى وضع معاكس تماما لذلك الوضع الذي سبق أن وضعه عليه . ويغطي الفلاح القبر بسرعة ، ويعود إلى القاضي ليخبره بهذه المعجزة . واتفق الاثنان على تغير وضع الميت بهذا الشكل ، لابد أن يكون نتيجة لموته على الكفر ، أو لارتكابه كبيرة من الكبائر ، وفتش الناس منزله السابق ، علهم يجدون دلائل أو إشارات إلى أعماله الشريرة . وراح الكبار والصغار يفتشون ويدققون ، إلى أن اهتدوا إلى غليون صغير من العظم ، كان مخبأ بعناية في فتحة في الجدار ، وعرفوا من أنبوبه الأسود ورائحته الشيطانية أنه كان يستعمل مرارا وتكرارا ، مما أثبت نفاق صاحبه المخزي . ويتضح الذنب ، ويفسر العقاب العيني ، ومما لا شك فيه أن هاوي "مُنْكَر" Shameful الدخان ،

أصبح يصلى نارا حامية Sarve him right، وهذا شخص آخر تقطع إربا إربا ، وذلك ثالث وقعت على رأسه صخرة - إلخ . إن التعصب وحكاياته موجود فى كل المناخات ، وبكل لسان mutato nomine Fabula narratar .

يضاف إلى ذلك ، أن الأخلاقية الضعيفة فى هذه الأرض التى تتظاهر بالتقوى أقل مما هى عليه عند الشاعر روبرت بيرنز Burns فى قصيدته كيلمارنوك Kilmarnock ، أو السوق المقدس Holy Fair ، صحيح أن الأنوار تطفأ هنا ، بعد غروب الشمس بساعة واحدة ، وصحيح أيضا أن السير فى الشوارع محظور بعد الغروب ، ولا يسمح لأى طفل ، أثناء النهار ، باللعب على رصيف الطريق ؛ وصحيح أيضا أن الناس هنا لا يجاهرون بالضحك ، وصحيح أيضا أن الآلات الموسيقية الدنيوية لا تطغى على الأصوات والهمهمة المنبعثة عن محاضرات القرآن الكريم ، وصحيح أيضا أن جماعات اللهو الدنيوى لا تؤذى العيون الملتزمة فى الأسواق والأماكن العامة . ولكن الخلاعة بكل أنواعها ، والتى تعاف اللغة ذكرها ، هنا ، أكثر مما هى عليه فى كل من دمشق وصيدا على وجه الخصوص ؛ يضاف إلى ذلك أن الاحتشام النسبى فى المدن العربية الأخرى، يبرز اسوداد الرياض ويجعلها تتناقص تناقصا قويا وغريبا مع تلك المدن(١). وليسمح لى القارئ بأن اقتبس واحدة من الملاحظات الجيدة التى وردت عند واحد من المؤلفين المحدثين ، والذى يقول فيها: "الحكومة التى لا تكتفى بقمع التجاوزات المشينة ، وتطالب رعاياها بالالتزام بالتقوى الصارمة المتقدة ، سرعان ما تكتشف ، أنها وهى تحاول تقديم خدمة مستحيلة لقضية الفضيلة ، قد ساعدت فى حقيقة الأمر ،على زيادة الرذيلة" . والواقع ، أن معظم الملاحظات التى أوردها ماكولى Macauley عن هذا الموضوع ، فى كتابه المعنون "مقالات "نقدية وتاريخية" ، سواء أكان موضوعه يتعلق ببرلمان الأرداف Rump parliament والتزمت البيوريتانى أم عن رد الفعل الفظيع الذى ترتب على الانحلال الذى حدث فى زمن أواخر من جاءوا من عائلة استيوارت Stuarts ، يمكن أن ينطبق انطباقا حرفيا على الحال الراهن فى مملكه القديسين العرب ، فى الوقت الذى يتوقع فيه حدوث ذلك فى المستقبل القريب .

(١) يبدو من كلام المؤلف مدى الحقد والكراهية على أهل التديّن والالتزام بعقائد الإسلام الصحيحة وتشريعاته ، ولا يترك فرصة إلا ويحاول تلطيخ سمعة أهل الرياض باعتبارها قاعدة الحركة الإصلاحية الوهابية ، فوق هجومه العنيف على الحركة نفسها وعلى رجالها الأفاضل - (د. حلمى عبد المنعم) .

وهناك حقيقة فريدة ، يجدر بنا أن نأتي على ذكرها هنا ، قبل أن نتحول عن هذا الموضوع البغيض ، مفادها أن الجرائم التي يكرهها الجميع ، بحكم أن الطبيعة نفسها تدينها ولا ترضى عنها ، كانت هي بمثابة الجرائم الوحيدة التي يجرى العقاب عنها بالقهر والتعذيب طوال الحقبة السابقة للحكومة الوهابية . وقد سبق أن أشرت في مرحله سابقة من هذا الكتاب إلى أنه في الوقت الذي أصبح فيه الأتراك والفرس مصدرا للقلق والرعب بين الأمم جراء عقوباتهم الوحشية ، التي كان القتل على الخوازيق يعد شكلا رحيما من أشكالها ، فإن العرب ، اكتفوا في تنفيذ أحكام الإعدام القليلة التي كانوا يصدرونها ، باستعمال السيف في ضرب عنق المحكوم ، من منطق عدم شرعية تعذيب الإنسان لأخيه الإنسان في لحظات عمره الأخيرة ، عذابا سطحيا ، وذلك بغض النظر عن الذنب الذي اقترفه[1] . ومع ذلك كانت هناك بعض التجاوزات القليلة ، وذلك من قبيل التنديد والتشهير . ولكن المجتمع الغاضب ، كان يعبر عن استيائه من المجرمين الذين كانوا يُعَلَّقون من أعقابهم ورؤوسهم تتدلى نحو الأسفل ، إلى أن يفارقوا الحياة . وفي ظل الحكم الحالي يلتزم الناس بسماحة القرآن وتراحمه مع أمثال هؤلاء المجرمين . وهذه صورة لدولة إسلامية مثالية .

وعبد اللطيف لا يعد الممثل الأوحد لأسرته ؛ لأنه الأخ الأكبر من بين عدد كبير من الأشقاء ، غير أنهم جميعا أقل منه موهبة وعبقرية . وأصغر هؤلاء الأشقاء هو محمد ، الذي كان شخصيه أصيلة . كان قد عاد لتوه من مصر ، التي قضى فيها عامين بين طلبة القصر العيني . وكانت شخصيته ينطبق عليها المثل العربي الذي يقول : "ذهب حمارا وعاد حمارا"[2] . كان محمد (آل الشيخ) ضيق الأفق ، وضيق الصدر ، محبا لاكتناز المال في العشرين مثل السير جون كتلر John Cutler عندما كان في الستين ، وحاملا لرذائل دخيلة من القاهرة ليطعِّم بها رذائل الرياض ، ولهجة غير واضحة مثل ذلك الذي "فقد" خلال سني ترحاله "لغته الخاصة ، ولم يكتسب شيئا عوضا عنها" ،

(١) لعل المؤلف يلمز إلى إقامة الحدود في الإسلام ومنها القصاص بقطع الرقبة بالسيف ، ومن المعلوم أن الحدود في الإسلام هي صمام الأمن في المجتمع، وهي زواجر لكل من يُرَوِّع الناس في أرواحهم بالقتل ، وفي أموالهم بالسرقة ، وفي أعراضهم بالانتهاك وفي دينهم بالردة ، وفي عقولهم بالإنكار والتغييب عن الوعي ، وهي رحمة من الله لعباده وحياة لهم - (د. حلمي عبد المنعم) .

(٢) ما هكذا تكون أخلاق الكتَّاب ، وقد نهى الإسلام عن الفحش في القول وأمر بعفة اللسان ، ولم يكن رسول الله (ﷺ) فاحشاً ولا متفحشاً ولا بذيء اللسان ، وكان ينبغي على المؤلف أن يلتزم عفة القول في التعبير بصرف النظر عن صدق كلامه أو عدم صدقه - (د. حلمي عبد المنعم) .

وقد كنت أشعر بأنس بالغ وأنا استمع إلى تجاربه المصرية ، وتعليقه على العرق الفرعوني ، وهو يتكلم بشكل غير لائق عن سكان الدلتا العظيمة . لقد استطاع أن يتابع المحاضرات التمهيدية في كلية الطب ، ولكنه لم يفهم منها سوى القليل جداً ؛ وما أن حل ، في النهاية ، موعد حضور مقرر التشريح ، ومشاهدة عجائب "المشرحة" ، حتى قال محمد (آل الشيخ) لنفسه ، إن عقيدته لا تستوعب أو تهضم تلك الأعمال التي تتعارض مع الإسلام الصحيح ، وترتب على ذلك أن ترك كلية الطب هي والعاصمة . كانت تلك هي روايته عن هذا الموضوع ؛ وأنا لدى شك فيما قال : إذ ربما كان الغباء أو سوء السلوك هما السبب الرئيسي وراء هذا الطرد الذي ألبسه محمد (آل الشيخ) قناع الانسحاب المحترم . والواقع أنه كان واحداً من الوحوش الضارية التي أسعدني الحظ بلقائها ؛ وقد شرفت بكراهيته لي وتلطيخ سمعتي .

ولولا تخوفي من ضيق صدر القارئ ، لحكيت له حكاية الطُّوِيِّل Toweel ، ذلك الرئيس البدوي ، من عشيرة عتيبة ، الذي أحصيته ضمن مرضاي ، والذي تصرف البدو ، بعد أن استرد عافيته ، وهرب من الرياض دون أن يدفع الأتعاب ؛ وحكاية الثري عبد الرزاق ومسكنه الأنيق على طريقة الرؤساء النجديين القدامى ؛ وحكاية فهد ، ذلك الحبشي البشوش ، الذي كان يتميز بكرمه وسخائه على جيرانه من العرب ؛ وحكاية الشاب حمود ، الذي جرح في العمليات الحربية في عنيزه ، وبذلك أصبح شبه شهيد، وحكايات كثير من المرضى والأصدقاء الآخرين الذين بثوا الحياة في مقامنا في الرياض ، والذين يملأون كتابنا الآن ، بعد أن ملأوا حافظة نقودنا من قبل . ومع ذلك ، لا يزال لدينا الكثير الذي يجب أن نرويه للقارئ قبل أن نغادر العاصمة ، كما أن لدينا الكثير أيضا الذي سوف نحكيه أيضا بعد أن نغادرها ، كما ينبغي علي ، أن أقوم على وجه السرعة ، بتقديم الاعتذار الواجب ، للأطباء من بين القراء أو لأولئك الذين يتمتعون بالفضول الفسيولوجي على أقل تقدير . والسبب في ذلك أن القارئ لن يغفر له مسألة عدم التعرض للجانب الصحي في الجزيرة العربية ، بعد أن لعبت فيها دور الطبيب على امتداد اثني عشر شهرا ؛ ولذلك سوف أحدد بشكل سريع ، الخصائص البارزة للأمراض السائدة بين العرب : ويكفيني في هذا الصدد ، بضع صفحات قلائل . وبعد أن أنتهي من هذه المهمة ، سوف أعود ثانية إلى مريضنا جوهر ، وأجعله يفتح الطريق أمامنا على أحداث مهمة من الماضي ومن الحياة الحاضرة - أو إن شئت فقل يفتح لنا الطريق إلى الأسرة المالكة الحاكمة ، وإلى البلاط الملكي في الرياض ، وإلى ما وقع لنا هناك .

وأنا عندما أتكلم عن الجزيرة العربية ، بشكل عام أقول : إن الهضبة الوسطى كلها ، التى تشتمل على المساحة التى يشغلها جبل طويق من ناحية الشرق ، ووادى الدواسر من ناحية الجنوب ، والحد الصحراوى أو طريق الحج من الناحية الغربية ، وصحراء النفود أو بحر الرمال فوق جبل شومر من ناحية الشمال ، وجميع المناطق الواقعة بين هذه الحدود الأربع ، كل هذه المناطق تشكل جزءاً من أهم المناطق الصحية فى العالم بأسره ، ومن ثم تكاد تكون خالية من أعراض الأمراض على اختلاف أنواعها ، وفى هذا الجو النقى تماما ، والمناخ الجاف ، ودرجة الحرارة المعتدلة ، ليس لدينا الكثير الذى يمكن أن نضيفه إلى ملاحظاتنا عن "كلى برايت" أو إن شئت فقل "كبسولات أديسون فوق الكلوية" . يضاف إلى ذلك أن سكان هذه المنطقة لا يشكون من النقرس ، الذى لم أشاهد أو أسمع عن حالة واحدة منه ، على سبيل المثال ، بل إن السرطان أيضا على اختلاف أنواعه ، وأشكاله الكريهة ، مطرود من كل هذه المناطق ، كما تنعدم الهستيريا أيضا بين السيدات المخشوشنات غير الحالمات فى هذه المناطق . وخلاصة القول : إن هذه المناطق تغيب عنها معظم الأمراض التى يبدو وأنا أقول "يبدو" لأن هذه هى الكلمة الصحيحة التى يمكن استعمالها هنا – إنها تعتمد على الجو غير النقى ، ونقص الضوء والهواء – وارتفاع مستوى المعيشة ؛ يضاف إلى ذلك ، أن الأمراض التى تصيب الإنسان خلال حياته ، وكذلك الأمراض التى تعتمد على اعتلال المزاج والتوتر العصبى ، غير موجودة فى هذه المناطق من شبه الجزيرة العربية ؛ علاوة على أن سكان هذه المناطق لا يعرفون أسماء هذه الأمراض . وفيما يتعلق بالحمى الرجعية ، برغم أنى شاهدت منها حالة أو اثنتين ، ينبغى أن أقول : إنها تندر هنا تماما بكل أشكالها الثلثية[1] والرِّبْعية أو غيرها . أما الحصبة فلم أرها ولم أسمع عنها؛ ولكنى أشك فى صحة ذلك ، نظرا لعدم دقة الرواة الذين حدثونى عنها ، فلربما كانوا يخلطون بينها وبين الجدرى ، أو الحمى القرمزية الموجودة هنا ، والتيفوس والتيفود غير معروفين فى كل أنحاء نجد ، إذا ما استعملنا هذا التعبير فى إطار دلالته الجغرافية الواسعة . ولم تصل يداى أو أسمع أى شئ عن انتشار الطاعون ، الذى كان يفد من مصر أو من بلاد فارس ، فى هذه المناطق العالية من البلاد .

(١) الحمى الثلثية : هى الحمى التى تحدث كل ٤٨ ساعة ، والربعية هى التى تحدث كل ٦٤ ساعة – (المترجم) .

وعلى كل حال ، فمن الواضح أنه برغم غياب هذه الأمراض ، لابد أن تكون هناك أشكال أخرى من المرض ، والسبب فى ذلك أن قاعدة السبعين إلى الثمانين تنطبق على الجزيرة العربية مثلما تنطبق على أى مكان آخر من العالم ؛ ومبلغ ظنى ، أن الكثيرين هنا يتمتعون بطول العمر قياسا على أى مكان آخر ، لو كان الناس هنا يمسكون سجلات للمواليد والوفيات ، لاستطعت التوصل فى هذا الموضوع ، إلى نسبة تقريبية صحيحة ؛ ومع غياب المعطيات الرسمية ، استطعت أنا ورفيقى ، بعد كثير من النقاش والملاحظة أن نتوصل إلى إجماع مفاده أنه إذا كانت نسبة وفيات الأطفال فى هذه المناطق أعلى منها فى الأماكن الأخرى التى يتوفر لها الإسكان الجيد، والملبس الجيد ، والوسائل المنزلية أوالصحيه الجيدة ، فإن متوسط عمر أولئك الذين يفلتون من أخطار الموت فى سن الطفولة المبكرة يكون أطول من متوسط عمر أولئك الذين يعيشون فى الجبال السورية، التى تتساوى ظروفها مع ظروف هذه المناطق، فيما يتعلق بهذا الأمر .

ولكن الناس سيموتون إن عاجلا أم آجلا ، كما أن الموت الذى لا يحدث نتيجة سبب مرضى مباشر ، أو نتيجة لما يطلق الناس عليه الوفاة بسبب الشيخوخة ، هو من الظواهر النادرة الحدوث ، هذا إن لم يكن ذلك من قبيل المعتقدات الشعبية . إن أسباب الوفاة قد تكون لاحقة ، ولكنها لا تقل واقعية وتحديدا ، برغم أننا قد لا نلاحظها فى بعض الأحيان . ترى ، ما هى المسارات المعتادة التى يسلكها الجنس البشرى ليخرج من الجزيرة العربية إلى مثواه الأخير ؟

فى البداية ، يمكن لنا أن نستنتج مما سبق أن الأوبئة والأمراض المعدية كانت تنتشر فى تلك البلاد بين حين وآخر وعلى ذلك ، فإن الكوليرا ، عرفت طريقها إلى نجد ، برغم أنها جاءت متأخرة ، وبعيدة تماما عن طابعها ومداها الكونى ؛ ويبدو أن الكوليرا كانت مصحوبة بكل أعراضها ومخاوفها الشهيرة ، برغم أنها لم تعتبر الأراضى العالية التى تفصل القصيم عن جبل شومر ، تلك المنطقة ، التى نجت تماما ، بناء على رواية أهلها ، من ذلك الوباء الأسيوى ، فى حين عانى وادى الجوف المنخفض معاناة شديدة من هذا المرض الوبائى . والنجديون يعزون مجيئ الكوليرا إلى مصر ، ويحددون له مسارا من الغرب إلى الشرق . والجزيرة العربية تعرف مرض الجدرى منذ قديم الأزل ، ولا يزال الناس يتطعمون ضد هذا المرض فى كل أنحاء نجد ، ولم يدلنى أحدٌ على تاريخ دخول هذا الطعم إلى نجد . وأنا أكاد لا أصدق الطريقة التى وفد بها

هذا الطعم من القسطنطينية إلى نجد ، وليست هناك امرأة غربية من قبيل مارى ورتلى مونتاجو Wary Wortley Montague حتى يمكن أن تزعم مثل هذا الشرف . وقد جلب المغامرون الدمشقيون الطعم إلى منطقة الجوف ، ويقال إن طلال بن الرشيد ، راح يشجع بعد ذلك ، على نشر ذلك الطعم في كل أنحاء جبل شومر ؛ وقد تعرقل وصول الطعم إلى الممتلكات والأراضى الوهابية نظرا لأنها كانت تنتشر فيها أهواء من قبيل تلك الأهواء التى كانت تنتشر ، في يوم من الأيام ، بين سكان إنجلترا . وقد سبق أن أشرت إلى الحمى القرمزية ، ولكن الحالات التى شاهدتها لم تكن من النوع المؤذى أو الضار .

ويعد الاستعداد الطبيعي لتقبل عدوى السل الليمفاوى (العنقى) الذى يشيع بين أفراد العرق العربي ، مصدرا عاما من مصادر الإصابة بالأمراض المختلفة . والضغط الذى ينتج عن سوء الامتصاص التكوينى يقع في بعض الأحيان على التجويف الصدرى وأحيانا أخرى على تجويف البطن ، ولكنه يقع في معظم الأحيان على تجويف البطن ، وربما يكون ذلك راجعا إلى اعتدال المناخ النسبى الذى تؤثر خلاله ، الأسباب المثيرة لذلك الراسب المميت ، على أعضاء التنفس ، أكثر منه في مناخ أوربا الرطب ، في حين ، قد يعرض الطعام المثير الذى يصعب هضمه ، من الناحية الأخرى ، الجزء السفلي من الأحشاء للأخطار بعد ذلك . ومن ثم قد اندهشت في البداية للحالات التى كان السل الباطنى يشكل فيها العرض الرئيسى ، فى حين يجيئ العرض الصدرى فى المرتبة الثانية ، أو قد لا يوجد على الإطلاق ، على صورة المؤشرات الواضحة التى تدل عليه . وفيما يتعلق بالنوع الأول فقد شاهدت منه حالات كثيرة بين الرجال والنساء . ويبدو أن المرحلة السنية التى يهاجم فيها هذا المرض الجسم هى من سن العشرين إلى الأربعين ، برغم أنى شاهدت حاله ، كانت المريضة فيها امرأة ثرية ، يقل سنها قليلا عن الخمسين ، ومع ذلك فهذه الحالات نادرة تماما . والسل الليمفاوى (العنقى) الذى يؤثر أيضا على غدد العنق ، ويسبب الوهن والضعف ، وتنتج عنه التشوهات التى نشاهدها فى أوربا ، يعد أيضا من الأمراض السائدة في جنوبى نجد ؛ ولكنى لم أشاهد أى نوع من أمراض السل في جبل شومر ، أو في القصيم ، أو في سدير . ولا يشيع فى نجد سل القصبة الهوائية ، أو بالأحرى ذلك السل الذى ليست له أعراض بارزة ؛ وقد شاهدت حالة واحدة منه في الرياض . وبطبيعة الحال ، فإن العرب ليست لديهم أية فكرة عن معالجة مرضى السل ، اللهم إلا إذا حددناه نحن على أنه سل ،

حتى يتناول المريض أكبر قدر ممكن من الطعام . وفيما يتعلق بالجدرى وأمراض الطفح الأخرى ، فإن العرب ، مثلما كان الأطباء الأوربيون يفعلون فى عصر سابق ، يبذلون قصارى جهدهم ، لخنق ضحاياهم المساكين بالإكثار من الملابس ، والتدفئة ، والنوافذ المغلقة . وقد سبق أن تكلمت عن حمّيتهم من الكوليرا فى الفصل السابق ، ولم يكن لديهم شئ غير ما فعلوه .

وأكثر الشكاوى شيوعا وبخاصة بين البدو والقرويين الفقراء تتمثل فى آلام الروماتيزم بكل أشكاله ، وآلام أسفل الظهر وما يتصل بها من أمراض . يضاف إلى ذلك أن الأمراض الباطنية ، وكل ما يتصل بها ليست نادرة هنا ؛ فقد شاهدت حالات كثيرة تعانى من أمراض القلب ، التى لها علاقة بالأمراض الباطنية ، ومرض القلب غالبا ما ينتهى هنا بالاستسقاء : ولقد شاهدت ذلك مرات ومرات هنا بين الكبار والصغار ، ومن الواضح ، أن هذا الاستسقاء ناتج عن مرض باطنى . وبإمكانى أن أضيف هنا أن ظهور مرض Anasarca بصورة عارضة ، يجعل العرب يفقدون كل أمل فى الشفاء . والعرب ، فى بعض الأحيان ، يحاولون علاج مرض القلب ، فى مراحله الأولى ، باستعمال النزف والمطهرات المسهِّلة ، وبذلك يحققون شيئا من التسكين المؤقت على حساب إحداث أضرار كبيره . وفى بعض الأحيان ، أيضا ، قد يكوى ثدى المريض ، بالمياسم الحديدية الساخنة ، وهذا عمل بشع لا فائدة منه ، ولكنهم يدعون أن ذلك منصوص عليه فى الأحاديث النبوية[1]، وهم يعالجون الروماتيزم بالطريقة نفسها، برغم أنهم قد يحققون ميزة الاحتكاك فى بعض الأحيان ؛ والأدوية المُعَرِّقة لا تستخدم هنا مطلقا . وأنا لا أذكر أنى شاهدت حالة واحدة من حالات الاستسقاء الكلوى .

والأكثر شيوعا هنا من الروماتيزم هو سوء الهضم والتهاب غشاء المعدة المخاطى. وليس فى ذلك ما يدعو إلى العجب ، نظرا لأن التمر ، والخبز غير المخمور سيئ التسوية ، وتناول لحم الضأن سيئ الطهى من حين لآخر ، هو الطعام والغذاء الرئيسى هنا طوال ثمانية أو تسعة أشهر من العام ، وبخاصة فى الطبقة الوسطى والطبقة

(١) نعم جاء فى الطب النبوى بعض الأحاديث التى تشير إلى العلاج لبعض الأمراض بالكى بالنار ، وهو علاج ناجع فى بعض الأمراض إذا ما أحسن تشخيصها وتوفرت الخبرة فى العلاج يقول (ﷺ) فيما رواه البخارى فى كتاب الطب عن ابن عباس رضى الله عنهما : "الشفاء فى ثلاث : شربة عسل ، وشرطة محجم ، وكيّة نار ، وأنهى أمتى عن الكى" وقد وصف النبى (ﷺ) الكى ، ثم نهى عنه ، لأنه كرهه لما فيه من الألم الشديد والخطر العظيم ، ولهذا كانت العرب تقول فى أمثالها "آخر الدواء الكىّ" ، وقد كوى النبى (ﷺ) سعد بن معاذ وغيره ، واكتوى غير واحد من الصحابة . انظر فى ذلك فتح البارى جـ ١٠ ص ١٤٥ طبعة الريان - (د. حلمى عبد المنعم) .

الأدنى منها . وقرحة المعدة تبدو هنا شيئا نادرا ؛ وهي تصيب النساء بشكل خاص ، وأنا على قناعة تامة ، أنه إذا ما أدخل هنا مبدأ تشريح الجثة لمعرفة سبب الوفاة ، فإن ذلك سوف يكشف أن هناك امرأة واحدة من بين كل ستين امراة ، تموت بسبب تقرح المعدة . ومن خلال ممارستي القصيرة والمحدودة ، شاهدت حالتين من حالات الالتهاب الصفاق[1] المفاجئ العنيف ، المصحوب بانفصال سريع ، يترتب على تعطيل المعدة فترة طويلة ، ولم يخالجني أي شك ، في أن ذلك كان نتيجة لحدوث ثقب في المعدة . ومن بين ضحايا هذا المرض ، كانت هناك امرأة شابة ، زادوها آلاما على آلامها ، بأن راح بيطار يكوي بطنها بالنار ، برغم كل معارضتي له واحتجاجي عليه .

ويكثر المغص هنا أيضا ، وهو ليس مقصورا على المغص المعوي وحده . والصيدلية العربية ، ليس لديها ما تقدمه في هذا الصدد . والدوسنتاريا هي والإسهال المزمن ، برغم أنهما قد يحدثان هنا في بعض الأحيان ، إلا أنهما أقل بكثير جداً عنهما في الهند . وقد كان الأفيون الذي لا يعرفه العرب كدواء ، معينا كبيرا لي في علاج بعض الحالات . وتعد البواسير والتشققات من الأمور اليومية التي يصادفها الطبيب ؛ والتشققات يشتكي منها عدد كبير من المرضى في كل من شومر ونجد ، ولكن الشكوى من البواسير تزاد كلما اقتربنا من الخليج الفارسي . والممارسون العرب يعالجون البواسير بالاستئصال كلما أمكن ذلك أو بموعظة عن الصبر إذا لم يستطيعوا . أما فيما يتعلق بالدوسنتاريا ، فإنهم ليس لديهم علاج أو حمية غذائية لها ، ولذلك فإنها قد تودى إلى الوفاة ، في بعض الأحيان .

سبق أن قلت إن الحمى الرجعية تندر هنا ، وهذا فيما يتعلق بتوطن المرض ؛ ولكن الحمى الرجعية بوصفها مرضا وافدا ، يوجد فيها شكل يستمر شهورا بل وحتى سنوات مع الأفراد العائدين من البصرة ، والأحساء ، أو القطيف . وهذه الحمى الرجعية تتسبب في تضخم الطحال . وقد وردت عليّ حالات كثيرة ، من هذا القبيل في الرياض . وبعد أن استطعت وقف الحمى نفسها ، مع استمرار بقائها ، باستعمال حبوب الكنين ، اكتشفت أن سلفات الزنك كان لها تأثير ممتاز في تقليل ورم الطحال . وأنا لا أعرف مدى استعمال هذا الدواء في أوربا ؛ فقد أحضرته معي من الهند ، وأدى لي خدمات جليلة في نجد .

(١) الصُّفاق : هو الغشاء المصلي الشفاف المبطن للتجويف البطني في الحيوان الثديي – (المترجم) .

وهناك حمى أخرى متقطعة من النوع البسيط ، وليست من النوع الخطير ، تنتشر في كل أنحاء نجد وفي شومر ؛ وهي عبارة عن شكل بسيط من أشكال الحمى المتقطعة في الهند . وقد تستمر هذه الحمى أسبوعين أو ثلاثة أسابيع على أكثر تقدير ؛ ولكنها تستجيب بسرعة للعلاج الصحيح . وقد أفدت من وصفة ماريوت ، التي تقول بخلط الطرطير بالانتيمون ، وإعطائه للمريض بجرعات صغيرة ولكن بصورة متكررة ، في الحصول لنفسي على أتعاب من المرضى ، وشفائهم من المرض .

ويجب أن أسجل هنا ، أن الكنين برغم عدم معرفته في الجزيرة العربية ، فإن استعمال المنشطات الأخرى ليست غريبة على أهل هذه البلاد . وأهل هذه البلاد يستخدمون بدلا من هذه المنشطات نباتا يسمي الشيح ، وهو نبات شديد المرارة ينمو في كل مكان ، من الأراضي المرتفعة ، أو قد يستعملون الطهمام ، وهو عبارة عن عشب رفيع ذكي الرائحة ، يقتصر نموه على نجد وحدها ، وقد اكتشفت أن هذين العشبين كانت لهما فاعليتهما في بعض الحالات الطفيفة .

ويشيع هنا بشكل مخيف مرض أنا في حل من أن أذكر اسمه . والعرب شأنهم شأن الأمم الأخرى يعزون هذا المرض إلى الأجانب ، بل إنهم يصرحون أنهم لم يسمعوا عن هذا المرض فيما بينهم إلا بعد أن وفد عليهم من بلاد فارس عن طريق الإيرانيين . ومع ذلك ، فإن الاسم الذي يدل على هذا المرض "البلغ" **Belegh** ، عبارة عن كلمه عربيه تماما ، ومن هنا فأنا أخشى أن يكون المرض نفسه غير محلي ، برغم أن خلاعة الزوار الإيرانيين بصفة خاصة ، ومرور قوافل حجهم خلال نجد أثناء ذهابهم إلى مكة وعودتهم منها – ربما تكون قد ساعدت على انتشار هذا المرض . هنا المرض ينتشر على مستوى جميع المساكن ، وزيادة هذا المرض وعدم السيطرة عليه تجعله الآن يشبه الوباء. والمواطنون يسلمون بأن فيروس هذا المرض لا ينتقل من شخص إلى آخر، وانه يقل انتشاره بين الناس عن كل من الجدري أو الحمى القرمزية . وأنا لا أستطيع أن أقطع إن كان ذلك صحيحا أم لا ؛ ومع ذلك فقد شاهدت بعض الحالات التي كان من الصعب تفسيرها بغير هذا التفسير . والزئبق معروف ويستخدم كعلاج محدد لهذا المرض ، ولكنه يستعمل في شكل واحد فقط ، هو سلفات الزئبق ، أو إن شئت فقل : كبريتيد الزئبقيك الذي يباع ويشترى ؛ أما المستحضرات الأخرى ، مثل مرهم الكالوفيل على سبيل المثال ، أو ثاني كلوريد الزئبق فليس لها وجود هنا . وقد بذلت

قصاری جهدی لإدخال هذين المستحضرين ، کی تستفيد منهما هذه البلاد . وهناك علاج غريب لهذا المرض ، يتمثل أصلا فی حمية غذائية ، يطلقون عليها فی أوربا اسم "العلاج العربی" Arab ، ولا يستحق أن أطلق عليه هذا الاسم ؛ وأنا لم أسمع أی شیء عن هذا العلاج أو حتی عن اسمه ، هنا فی الجزيرة العربية ، ومع الحالة التی عليها علم العقاقير هنا ، يصعب علی القارئ أن يسمع حتی عن اليود ، نظرا لأن الاسم نفسه لم يصل إلی هذه البلاد ، اللهم باستثناء الفترة التی قمت خلالها برحلتی .

نسيت أن أقول : إن استسقاء المبيض يعد من الأمراض الشائعة في نجد . والسكان هنا يخلطون بين هذا الاستسقاء والحمل المطوّل ، بل إنهم يحدثونك عن نساء حوامل تتراوح أعمارهن بين أربع وخمس سنوات . وعندما كانوا يحضرون إلی مرضی من هذا النوع ، كنت أرفض القيام بعمل القابلة ، وأتمنی للمريضة ولادة سريعة .

والسكتة الدماغية تحتل مكانا متميزا علی قائمة التراث الحزين الذی تركه آدم لأبنائه العرب ؛ وكذلك الشلل بنوعيه النصفی والكلی (وقد فحصت حالة غريبة من حالات الشلل فی حائل ولدی شك أن تسوس العظام كان وراء هذه الحالة) ، كما توجد أيضا بعض حالات من الشلل الطرفی أو إن شئت فقل الشلل العصبی ، وغُرّة الوجه المؤلمة ، أو إن شئت فقل تقلصات الوجه المؤلمة ، هی وصداع الجمجمة فاقت كل توقعاتی نظرا لأننی شاهدت منها حالات كثيرة ، مرارا وتكرارا ، ولم تكن هذه التقلصات مقصورة علی الموهوبين ، أو النساء السمراوات اللاتی يمثلن هنا "الجنس اللطيف" . كما وقعت تحت يدی أيضا حالات شديدة جداً من الرُّقاص ، ذلك الاضطراب العصبی الذی يتميز باختلاجات تشنجية فی الوجه والأطراف ؛ ومع ذلك لا يعد الرُّقاص مرضا عاديا، وقد سمعت عن التيتانوس، ولكنی أشكر الله ، لأنی لم أره . كما كان الناس يحضرون لی مرضی مصابين بالصرع من حين لآخر ، ولكنی لم أمكث فی أی مكان مطلقا ، فترة تكفی لعلاج حالة من حالات هذا المرض الخطير ، الذی ينشر الفزع هنا مثلما ينشره في أوربا ، كما انه ينتهي في آخر الأمر ، نهاية محزنة . وفی الرياض شاهدت أيضا حالات تعاني من المَسّ ، ذلك النوع من الجنون الذی يتميز بالانفعال الشديد ، كما سمعت عنه فی أماكن أخری . وهذه الأمراض كلها ، وبخاصة الصرع والمس ، يعالجها العرب ، مثل الروماتيزم ، بمزيد من الألم ، باستعمال الكوی بالنار . وقد شاهدت صبيا تعيسا مريضا بالصرع وقد اكتوی جسمه بالنار من رأسه

حتى قدميه ، ولم يسفر ذلك الكوى عن أى نتيجة ، بطبيعة الحال ؛ كما شاهدت أيضا مجنون الرياض التعيس ، ذلك الشاب كريم المحتد ، الذى كُوِىَ فى رأسه إلى أن وصل الميسم عظم الجمجمة ، وأصبح حرق رأسه يشبه حرق لوك Luke فى بوهيميا . ولو لم يكن ذلك الرجل مجنونا بالفعل ، لأصابه ذلك الكوى بالجنون .

رُهَاب الماء ، أو إن شئت فقل الخوف المرضى من الماء ، الناتج عن عض الكلاب المسعورة ، معروف فى كل أنحاء شبه الجزيرة العربية ؛ وقد سمعت قصصا عجيبة عن عشب يستعمل فى علاج هذا المرض ، ويقولون : إن أحد المرضى بعد أن تعاطى ذلك العشب تقيئ - وأنا التمس العذر والسماح من القارئ الكريم - العديد من الجراء الصغيرة ! ثم شفى بعد ذلك من هذا المرض . بل والأهم من ذلك ، أن راوى هذه القصة قال: إنه شاهد تلك الجراء الصغيرة العجيبة، كما وصف أحجامها ، وألوانها ، وأشكالها .. الخ وصفا تفصيليا . ولكنى عندما سألته عن ذلك العشب الذى يصنع المعجزات قال : إنه لم يعد ينمو فى أى مكان . والتينيا والأمراض الطفيلية الأخرى تندر تماما فى الجزيرة العربية ؛ وعندما يكون هناك شك فى الإصابة بهذا المرض ، فإن السكان هنا يعالجونه بمستخلص من جذور الرمان البرى الذى ثبت أنه علاج ناجح .

والازمة ، فى اعتقادى ، تنتشر هنا بين الناس ، أكثر مما هى عليه فى أوربا ؛ ويبدو أن هواء الطويق شديد الجفاف يزيد من استعداد الناس للإصابة بهذا المرض المزعج . والداتوره تنمو هنا فى كل مكان ، ولكنهم لا يستعملونها فى العلاج ؛ وبرغم أن الداتوره قد تُسْتَعْمل سما فى أيدى بعض الأشرار إلا أنها قد تستعمل عقارا للمحبة فى أيدى الأخيار ؛ ومن المؤكد ، أن أى شخص فضولى ، وحتى أنا ، ينبغى أن لا يذهب تفكيرنا إلى أبعد من هذا .

وأنا لم أر أو أشاهد حالة واحدة من حالات الإصابة بالحصى ، ولكن يصعب أن أقول : إن الجزيرة العربية خالية من هذا المرض تماما .

وإصابات الجهاز التنفسى بدءا من نزلات البرد البسيطة واحتقان الحلق وانتهاء بالأمراض الشديدة المزمنة ، تشغل حيزا كبيرا من وقت الطبيب العربى . وبقدر ما تشيع هذه الأمراض وتنتشر تندر أيضا الأمراض الرئوية. ومرض ذات الجنب Pleurisy ليس شائعا هنا ، ولكنى لا أستطيع أن أقطع بعدم وجوده ؛ والعرب يستعملون الكوى بالنار فى علاج هذا المرض .

وأنا ليس لدى شئ أقوله عن السعال ، وأمراض الفم الأخرى التى تصيب الطفل الأوربى ؛ والسبب فى ذلك أن خبرتى الطبية كانت فى مجال الأشخاص الكبار . ولكن فيما يتعلق بالسعال الديكي لم يصل إلى علمى أن أحداً أصيب به فى أى مكان من هذه البلاد ؛ وربما يدخل المرض الثانى ضمن ما يطلقون عليه هنا اسم مرض الخنَّاق ، والذى يقال عنه إنه يجعل الأطفال الصغار يعجلون بمواجهة هموم الحياة .

وقائمة الإصابة باضطرابات الجلد طويلة وتعافها النفس ، وهى أطول من القائمة الأوربية . وهى تبدأ بمرض الذئبة وتنتهى بالحصف impetigo . والجذام ، شهير وكثير هنا : وهو فى بعض الأحيان يوجد هنا على شكل بقع غير خطيرة ، يطلق عليها اسم "البرص" ، ويوجد فى بعض الأحيان على شكل الجذام المخيف ، الذى تتورم المفاصل بسببه فى البداية ، ثم ينتشر بعد ذلك على شكل قرح بطيئة متأكسدة ، وفى النهاية تنفصل تلك التقرحات ، مخلفة وراءها التهابات مزعجة فى أجزاء مختلفة من الجسم فى كل من الظهر والأعضاء التناسلية ، إلى أن ينتهى أجل المريض ، برغم أن ذلك قد يطول . والبرص أيضا ، قد يؤدى إلى حدوث بعض التقرحات السطحية ، برغم أنه ليس من الأمراض التى تتسبب فى الوفاة . وعلى كل حال ، فإن الجذام والبرص لا يرقيان إلى المستويات التى نقرأ عنها فى مجلة "الأعْدَاد" ، وبذلك يظل الجذام الذى يصيب اليهود مختلفا عن الجذام الذى يصيب العرب . يضاف إلى ذلك ، أن جذام العرب ، برغم شكله المقزز ، لا يصيب ضحاياه بالتلوث ، ولا يخطر على بال أحد هنا أن هذا المرض من الأمراض المعدية . وأهل هذه البلاد يعالجون الجذام باستعمال سلفات الزرنيخ ، أو إن شئت فقل الزرنيخ الأصفر ، كما يسميه العرب ، برغم ثبوت فشل هذا الدواء فى كثير من الأحيان . وفى بعض الأحيان قد يشفى مريض الجذام أو البرص من جراء تعاطى الزرنيخ الأصفر بجرعات كثيرة ، ولكن ذلك قد يؤدى فى بعض الأحيان ، إلى وفاة المريض . وهم لا يستعملون حامض الزرنيخيت العادى لعلاج هذين المرضين ، وإنما يستعملونه بوصفه سما .

والحكة ، هى والكبريت علاجها المفضل ، تنتشر فى الجزيرة العربية من أقصاها إلى أقصاها ؛ ولكن نقص خبرة العرب فى استعمال الكبريت استعمالا صحيحا تجعلهم يفشلون فى استعماله فى علاج الحكة ، أو بالأحرى يصبح الكبريت فى أيديهم محايدا ، أى لا ينفع ولا يضر . وهذه الحكة تنتشر بين الجمال ، وهى غالبا ما تنتقل من الجمال إلى الإنسان .

والرمد، هو والتهاب العيون ، ينتشران بشكل مخيف هنا ، وبخاصة بين الأطفال ، ويصلان في حالات كثيرة إلى مراحل غاية في السوء . ولن أبالغ عندما أقول : إن واحدا من بين كل خمسة من الكبار قد أصيبت عينيه بالضرر ، بصورة أو بأخرى ، جراء هذا المرض . ومع ذلك ، فإن العرب الذين تقل عندهم موهبة الاختراع ، لم يفكروا مطلقا في إيجاد علاج لهذا المرض ، بل وحتى أبسط أنواع العلاج - ولا حتى في الأحماض الكاوية المخففة ، أو حتى فيما يستعمله غيرهم بطريقة ناجحة ، في البلاد المجاورة ، وبخاصة مصر . كما تشيع هنا أيضا المياه البيضاء **Cataract** ، والعمى الجزئي أو الكلي ليس قليلا في هذه البلاد : وهو قد يصيب المريض فجأة ؛ وأهل البلاد هنا يعزون الإصابة بالعمى الكلي أو الجزئي إلى التعرض لهواء الليل البارد ؛ ومن المؤكد أيضا أن الإسراف في الدرس والتحصيل والمذاكرة لا يؤدي إلى الإصابة بهذا المرض . وينتشر هنا أيضا ، كما هو الحال في الهند العمى الليلي ، أي ذلك العمى الذي يصيب العين بدءا من غروب الشمس إلى شروقها في اليوم التالي . والتهاب الجفون المزمن ، وتورم باطن الجفون الحبيبي يضايق الممارسين العرب ويفقدهم صبرهم . أخيرا ، أستطيع أن أقول : إن كل مرض من الأمراض المدرجة في كتالوج أمراض العيون ، يمكن أن نجد له حالة أو أكثر من حالة في كل بلدة من البلدان متوسطة الحجم في منطقة نجد .

ويؤسفني أشد الأسف ، أنني لم أستطع من خلال تجاربي وخبرتي ، تأييد أو إثبات الأحكام العديدة الخاصة بحدة السمع والبصر بين العرب بصورة عامة . وأنا أرى كلا من البدو والحضر ، متوسطين فيما يتعلق باستخدامهم لحواسهم ، وذلك قياسا على بقية أفراد الجنس البشري - فهم أطول نظرا من الألمان على سبيل المثال ، ومدى بصرهم أقصر من مدى بصر اليونانيين ، والشيء الملحوظ جداً بين العرب هو ذلك القدر الكبير من بلادة الحس ، في حساسيتهم العصبية بشكل عام . ففي أحيان كثيرة كنت أستعمل المشرط أو المادة الكاوية ، وكنت أندهش لبرود المريض وقدرته على التحمل . وعندما كنت في الرياض ، جاءني شاب يشكو من حبة رش استقرت في ساعده ، وأبلغني أن ذلك يؤلمه ويضايقه ، وأصر على أن أخرج له هذه الرشّة . وكانت العملية ، بحكم قلة خبرتي ، صعبه جدا . إذ كان لابد من قطع العضل وصولا إلى العظم . وطوال هذه الفترة كان النجدي يفرد ساعده دون حراك ، كما لو كان ذلك الساعد ينتمي إلى شخص آخر ، ولم يتغير لون هذا الشاب ، اللهم باستثناء تلك

الحمرة التي علت وجهه عندما أخرجت الرشة من خلال الفتحة التي فتحتها في ساعده ووضعتها في يده . وبعد فترة قصيرة من تضميد الجرح وربطه نهض ذلك الشاب وانصرف عائدا إلى منزله ، حاملا معه هديته المصنوعة من الرصاص . وقد رأيت وسمعت الكثير عن حالات من هذا القبيل ؛ والحق أن العرب ليسوا عرقا عصبيا أو من السهل إثارته .

وأنا لا أستطيع أن أقول شيئا عن كثير من الأمراض النادرة أو الأمراض ذات الأشكال الغامضة ، لا من حيث أن تلك الأمراض لا علاقة لها بالمناخ أو الناحية الفسيولوجية ، وإنما أيضا من صعوبة إطلاق أحكام لا تكون مؤيدة بالتقصي الدقيق ، وبالتحري التشريحي بعد الوفاة . وأنا أعتقد ، أن ما قدمته هنا ، يكفي أن يكون إيجازا مفيدا عن الحالة المرضية في نجد . وهنا سوف أتبع هذا الإيجاز ببعض كلمات قليلة عن الحالة المرضية في كل من أقصى شرقي وجنوبي شبه الجزيرة العربية ، وعن جزر وشواطئ الخليج الفارسي ، انتظارا مني ، لامتداد زيارتنا إلى هذه المناطق ، وتحاشيا مني للرجوع إلى هذا الموضوع مرة ثانية ، بعد أن أكون قد استقطعت فيه ذلك القدر الكبير من وقت القارئ الكريم .

وبناء على ما تقدم، فنحن عندما ننزل من حافة الهضبة الكبيرة في اتجاه الشرق، وندخل منطقة الهواء الساخن الرطب في الأحساء ، تبدأ ، في الظهور ، أنواع كثيرة من الأمراض التي يندر أو لا توجد مطلقا ، في نجد . وتجيئ الحمى الرجعية في مقدمة هذه الأمراض ، إذ تنتشر من حين لآخر ، وهي خطرة في كل الأحيان ؛ والمناطق الرئيسة التي تنتشر فيها هذه الحمى هي مناطق السَّبخ والمستنقعات في القطيف ، ومع ذلك فهي تنتشر أيضا ، بشكل أو بآخر ، خلال المنطقة الساحلية بكاملها والتي تمتد من الكويت إلى قطر ، وهي تسبب الوفاة في معظم الأحيان . وحمى التيفود (وليست حمى التيفوس ، التي لا وجود لها في هذه البلاد) تلازم السكان هنا بصورة دائمة ، وقد تشكل وباء حقيقيا في بعض الأحيان . وأعراض هذه الحمى ، هنا لا تختلف عن أعراضها في أوربا . والدوسنتاريا تنتشر هنا أيضا ؛ كما أن البواسير من الأمراض المؤلمة والمتعبة هنا أيضا ، وتنتشر بين الناس على نطاق واسع . وعلى الجانب الآخر فإن سل الغدد الليمفاوية بكل أشكاله ، وكذلك الأمراض الصدرية ، وأمراض العيون ، تعد من الأمراض النادرة هنا في المنطقة الشرقية ؛ كما يقل فيها أيضا

الروماتيزم . ومبلغ علمي أن هذه الملاحظات المختصرة صادقة إلى حد بعيد ، اللهم باستثناء بعض الحالات النادرة ، وأنها تنطبق على كل من الأحساء ، والقطيف ، وجزر البحرين ، وجعس Ge's، وجشم Djishm وأرمز ormuz ، وكذلك ساحل لنجا Linja وساحل عمان،، ولكن المناطق الجبلية في عمان تضارع كلا من سدير وشومر من حيث الجو الصحي النظيف . وقطر أيضا ملائمة للصحة ؛ وبعد أن انتهيت مما أردت قوله عن الحالة المرضية ، يتعين عليّ أن أعود من جديد إلى سياق روايتي ، التي قاطعتها عندما زارني جوهر ، وزير الخزانة ، أول مرة .

وينسى جوهر مركزه الرفيع، ويحضر من منطلق طواعية الزنوج ، ليتلقى العلاج ، صباح ومساء كل يوم ، في منزلنا المتواضع ، برغم أن تحركه ، مع مثل هذا المرض ، كان يسبب له آلاما كثيرة . وبانتهاء الأسابيع الثلاثة ، كان علاجه قد أسفر عن تحسن كبير ، بل إنه استطاع على أثر ذلك القيام برحلته على شاطئ الخليج ، دون أن يشعر بأي ألم . كان سروره كبيرا ، وهديه طيبه إلى نجد . وقد وصلت تكاليف علاجه إلى حوالى أربعين شلنًا إنجليزيًا تقريبا - ترتب عليها أن أثنى علينا وامتدحنا اعترافا منه بالجميل ، وتحسن مركزنا لدى البلاط ، عند هذا الحد تحسنا كبيرا ، يضاف إلى ذلك أن (الأمير) عبد الله ، ولى العهد ، والحاكم الحقيقي للمملكة أصبح يؤازرنا ويساندنا . غير أن محبوب ، رئيس الوزراء ، بدأ ينظر إلينا ، منذ ذلك الحين ، نظرات كالحة باردة ؛ وأن شفاء والده هو الذى جعلنا نحظى في النهاية بعطفه ورعايته ، وحميميته فترة محدودة . وبدأت تتزايد زياراتنا للقصر ، وأصبح بوسعنا أن نتحدث عن سلاطين نجد، وأمراء نجد ووزراء نجد ، مثلما تتكلم "بنات الثالثة عشر عن الجراء الصغيرة" . وعلى كل حال ، وقبل أن أروى ما حدث لى في البلاط الملكى وفي القصر ، يجدر بنا أن أورد شيئا عن تاريخ الأسرة المالكة السعودية ، وتاريخ الشخصيات الرئيسية فيها ، وكذلك الأحداث الهامة . وهذا الموضوع مهم في حد ذاته ، وقد يساعدنا في تفسير بعض المشاهد التي سأوردها فيما بعد ، والتي أدت إلى تنويع الأسابيع التي أمضيتها في الرياض .

سوف أتتبع في الإطار العام الذى سوف أحدده هنا للأسرة المالكة الوهابية ، هي وحروبها ، وثوراتها وازدهارها ثم قيامها من جديد ، على الروايات التي استمعت إليها من أهل هذه البلاد ، ولن أزيد على ذلك أو أنقص منه . ومسألة احتواء مثل هذا

التاريخ ، على العديد من التجاوزات من ناحية التواريخ ، بل وحتى في الأشخاص ، واختلاف ذلك عن ما سجله أو نشره الآخرون عن مثل هذه الموضوعات ، مسألة أعرفها وأعيها جيدا ؛ يضاف إلى ذلك ، أننى لا أدعى أن هذه الروايات فائقة الدقة ، برغم أننى أرى أن هذه الرواية قد تكون أوضح بكثير عن الروايات الأخرى ، وتنطوى على كثير من الاحتمالات الجوهرية . زد على ذلك ، أن بعض الحقائق أو المحادثات التى يجرى تسجيلها ، في هذه المناسبة أو تلك ، يمكن أن تكون أضعف من المعتقدات غير المسجلة ؛ ففي المعتقدات غير المسجلة يقوم الخيال بدور الذاكرة ، والتحزير لا يدخل ضمن الوثائق . ومع ذلك ، سأكون مخطئا إذا ما تغاضيت عن تلك المعتقدات أو حذفت شيئا منها ، والسبب في ذلك أن هذه المعتقدات تعد أمثلة حية على مشاعر البشر والسلوكيات ، علاوة على أن هذه المعتقدات هي ، بصورة أو بأخرى ، بمثابة صيغة من الحقائق الأكثر تجريدا والحقائق ذات الصيغة التاريخية المهمة ، وتأكيدا لهذه النقطة ، فإننا نجد أن خطب كلا من جرمانيكوس Germanicu وأوثو Otho لا تشكل أي اتهام بالخيانة أو التقصير في مواجهة صدق تاسيتوس Tacitus، كما أننا لا نهمل الروايات التي قيلت عن الثورة الكورسيرية Corcyraean من منطق أن ثوسيديدس Thucydides جَسَّد مشاعراً ثينيه ، أو ربما مشاعر شخصية ، في أنواع الخطاب ، التى من المؤكد أنها لم تكن حرفية تماما مثلما وردت فى ذلك التاريخ المدهش الذى رواه . هذا الطلاق الكامل بين حقيقة الواقع وحقيقة الخيال ، بين الخريطة وسطح الأرض ، بين المقال التاريخى والرواية التاريخية ، والذى يميز هذا الفرع من الأدب فى أيامنا هذه ، لاحظه اللورد ماكولى Macauly ، وما يزال يلاحظه بكثير من الأسى الذى يقترب من اللوم والتقريع والاستهجان . والواقع ، أن القدامى إذا كانوا قد تساهلوا فى هذه المسألة ، ألا نكون نحن المحدثين قد أفرطنا فى وسواسنا ، وحساسيتنا الشديدة لهذا الطلاق ؟ واختصارا للحديث ، فإننى سوف أعرض فى الاستطراد التاريخى التالى كل ما سمعته دون مدح أو قدح ، ولن أدون سوى ما سمعت ، ولن أحاول تمحيصه أو تحليله أو تمييزه على غيره .

الفصل الحادي عشر

تاريخ الأسرة المالكة الوهابية

قرأت تاريخ الإنسان ، عصراً بعد عصر ،

ولم أجد فيه سوى الخيانة والذبح .

لا الأوبئة ولا العفاريت يمكن أن تسبب نصف الشر

أو نصف الإقفار الذى يجره الإنسان على الإنسان –

شاعر عربى

قيام أسرة ابن سعود المالكة – السنوات الأخيرة من حكم سعود الثانى – نصيحة سعود الثانى عند وفاته – حكم عبد العزيز – غزواته – الخنجر– الشيعى – اغتيال عبد العزيز – حكم عبد الله – الحملة التى قام بها على مشهد حسين – غزو مكة والمدينة – حملته على سوريا – تمرد الحريق – المذبحة السكانية – استعدادات محمد على لمواجهة الوهابيين – طارسون باشا – وفاته – تعيين إبراهيم باشا قائدا للحملة – الإجراءات التى اتخذها الأمير عبد الله – الرسالة التى أرسلها – عبد الله إلى إبراهيم باشا – النتائج التى ترتبت على هذه الرسالة – مبعوث ناجح – مسيرة إبراهيم باشا عبر الجزيرة العربية – سلوكه السياسى – معركة القرين – حصار الدرعيه – الاستيلاء على الدرعية – معاملة إبراهيم باشا للأسرة المالكة وللأعيان – مجلس الرياض – الإيقاف المفاجئ للمجلس – إبراهيم فاتحا فى نجد – عودة إبراهيم إلى مصر – حكومة إسماعيل باشا – قسوة إسماعيل باشا – تركى بن سعود – ظهور تركى بن سعود من جديد – تمرد نجد – تركى يسترد العرش – إجراءاته الأولى بعد

أن أصبح ملكا – حملة حسين باشا – فشل الحملة – السنوات الأخيرة من حكم تركى – فيصل ملكا – طرده بواسطة خورشيد باشا – تجواله – نيابة الملك واستقالة خالد – فيصل أسيرا في مصر – نيابة ابن ثنيان عن الملك – سقوط ابن ثنيان ووفاته – عودة فيصل – الأحداث التي وقعت في أواخر حكم فيصل – شيخوخة فيصل – أسرته – نظرة عامة على المناطق التابعة لإمبراطوريته – ميول تلك المناطق – عسير – الافلاج – زيارتنا لتلك المناطق – وادى الدواسر – وادى نجران – الإحصاء العددى – المتحصلات والدخل – إحصاء مملكه شومر – دخل ومتحصلات مملكة شومر .

أوردت في الفصل الثامن ، ضمن الموجز الذى كتبته عن محمد بن عبد الوهاب ، ومكانته في البلاط السعودى ، الظروف التي ساعدت على قيام الأسرة السعودية في الدرعيه ، على يد (الأمير) سعود ، أول من حمل هذا الاسم بين الأمراء المستقلين ، وقد ورد ذكر الدرعية في الحوليات التاريخية العربية ، قبل الأهمية التى أضفاها عليها الحكام الوهابيون . كانت الرياض ، أيام مسيلمة ، وما بعدها عاصمة للعارض ؛ وبدأت العيينة تحتل هذه المكانة في ظل حكم آل – معمر ؛ في حين بقيت منفوحة بمثابة المدينة الرئيسة في اليمامة . وقد استولى سعود الكبير الذى يمتد نسبه إلى عنيزه ، وتربطه قرابة الدم مع كل من وعيل ، وتغلب ، وشومر ، على القرية التى قدر لها أن تحكم الجزيرة العربية ، إذا انتزعها سعود من آل – معمر وجعلها واحدة من إقطاعاته . حدث ذلك قبل خمسين عاما تقريبا ، قبل أن يعتلى العرش حفيده الأكبر ، الذى كان أول من حمل لقب الملك من بين أفراد الأسرة . ومع ذلك ، فإن سعود الكبير (الأول) هو عميد هذه الأسرة ومؤسسها في نجد ، وبعد وفاة سعود الكبير خلفه ولده عبد العزيز ، الذى خلفه هو أيضا ، سعود الثانى ، مريد الشيخ محمد بن عبد الوهاب وراعيه . وقد أفضت في شرح طريقه اعتناق الملك سعود الثاني للمذهب الوهابى وتحمسه له ونجاحه في نشره . دام حكم الملك سعود الثانى فترة طويلة ، دامت حوالى خمسين عامًا ، وشهد ، قبل وفاته ، امتداد حكمه وسلطانه على المنطقة فيما بين شواطئ الخليج الفارسي وحدود مكة . واختفت أمام هذا الفاتح أسرة ابن طاهر المالكة في الأحساء ، وأسرة الدعّاس المالكة في اليمامة ، وأحفاد داريم في القصيم ، ووصلت مساحة إمبراطورية سعود الثانى إلى ما يساوى مساحتها الحالية . ولكن سعود الذى لم يقل حرصه عن مغامرته ، حرص على أن يتحاشى القيام بأى تحرش على الحدود المتاخمة للقوى الكبرى المحيطة بإمبراطوريته الجديدة . فقد احترم هذا النجدى سيادة إيران على البحرين ومحميتها في القطيف ؛ ولم يشتك ابن سعيد ، ملك عمان ، أو إن

شئت فقل سلطانها ، من العدوان أو القهر ، كما لم يتعد على الحدود المقدسة للحرم المكي أو ينتهكها ، ولم يخاطر باستعداء الأتراك أو المصريين . ويبدو أن سعود لم يظفر بالانتصار في الخارج ، وإنما ذاع أيضا صيته وشهرته في الداخل ؛ فقد كان راعيا للعلم والدرس طالما كانا متمشيين مع مرتكزات مذهبه ؛ وإذا كان سعود قد تعاون تعاونا صادقا وقويا في نشر تعاليم المذهب الوهابي ، فإنه لم ينس أن يزور عاصمته ويزينها بآثار دينية ووطنية يتباهى بها رعاياه وتزيد من احترامهم وتقديرهم . فهذه بقايا قصر من القصور الضخمة ، وتلك بقايا مسجد من المساجد الضخمة أيضا ، في مدينة الدرعية ، ولا تزال إلى يومنا هذا ، شاهداً على عظمة ذلك الملك الذي كان يرعاها ويتعهدها ، يضاف إلى ذلك ، أن هذه العاصمة القديمة تكشف وسط إقفارها الحالي ، عن دلائل توحي بانتظام وزينة أكثر من تلكم التي تتباهى بها الرياض . كان سعود الثاني ، يعارض أيضا سفك الدماء بلا مبرر ، بل إنه كان إنسانا حتى في حروبه ؛ كانت منيرفا[1] هي التي تقود حملاته بدلا من بللونا[2] Bellona[3] ، يضاف إلى ذلك أن حلول السلام في الوقت المناسب ، كان يحول في معظم الأحيان بينه وبين اللجوء إلى السيف ؛ ولم تسجل مضابط التاريخ النجدي أن ذلك الرجل نصب مذابح رهيبة أو دمر دمارا شاملا أية منطقة من المناطق التي ضمها إلى إمبراطوريته طوال سنين حكمه ، بل إنه لم يفعل ذلك أيضا في القصيم ، التي كنا نتوقع لها مصيرا سيئا . ولم يقف أمام سعود الثاني ، ويقاومه مقاومة شديدة ، سوى بني خالد في الأحساء ، الذين خذلتهم غالبية السكان ، وتم إخضاعهم في النهاية .

وعندما كان سعود الثاني على فراش مرضه ، استدعى ولديه الكبيرين عبد العزيز وعبد الله ؛ وعين الأول خلفا له ، وأسند إلى الثاني مركزا محترما في الحكومة ،

(١) منيرفا : إلاهة الحكمة عند الرومان – (المترجم) .

(٢) بللونا : إله الحرب عند الرومان – (المترجم) .

(٣) هذا اقتباس في غير محله ، فقد كان الأمير سعود مؤمناً موحداً يطبق تعاليم الشريعة التي لم تحرص على إراقة الدماء أبدا وإنما تحرص على نشر السلام والأمان ، ولم تحل الشريعة سفك دم مسلم إلا بحقه كما جاء في الحديث الشريف "أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله . فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله . ومن هنا فإن الذي كان يقود الأمير ليست هي إلاهة الحكمة (منيرفا) وإنما الذي يقود الأمير في حروبه هو الإيمان بالله وتعاليم الشريعة الربانية – (د. حلمي عبد المنعم) .

وأوصاهما ، في النهاية ، وشدد عليهما ، أن يسيرا على خطه السياسي ، وكرر على مسامعهما القول المأثور "إياكم والصخر" : بمعنى انهما يجب أن يحذرا استعداء جيرانهم الأقوياء ، وبخاصة الحكومة العثمانية ، التي قد تبدو ضعيفة من الناحية الشكلية ، ولكنها لها قوة ساحقة بحكم مواردها الهائلة .

وفي العام ١٨٠٠ الميلادي أو ما يقرب من ذلك (ولعل القارئ يسترجع هنا ما قلته مرارا عن التواريخ العربية) اعتلى عبد العزيز عرش البلاد . ومع أن حكمه دام فترة قصيرة إلا أنه كان عامرا بالأحداث العظيمة والضارة أيضا .

ونظرا لأن عبد العزيز كان شخصية قلقة وجريئة ، مع أنه كان أقل حصافة وحرصا من والده ، فقد فتح ذراعيه صوب الشرق ، واستولى على القطيف ، التي نصب فيها مذبحة مروعة للسكان ، واحتل البحرين هي والجزر المجاورة لها في الخليج الفارسي ، وهاجم الساحل الشرقي أو إن شئت فقل بر فارس ، والذي انتزعه إلى غير رجعة من الحكم الفارسي ، ثم هاجم في النهاية مملكه عُمَان . وكان عبد الله ، شقيقه الأصغر الطائش والمتهور ، هو الذي قاد الحملة على عُمَان . وأصاب النجديون نجاحا كاملا : وبعد سلسلة من المعارك ، التي انتصر فيها عبد الله ، تمكن من الوصول إلى المرتفعات المطلة على مسقط ، ووجه بطاريات المدفعية الموجودة في القلعة ، صوب المدينة نفسها . وهنا استسلم السلطان سعيد للعاصفة ، ووافق على أن يدفع جزية سنوية ، كما وافق أيضا على وجود حامية وهابية في الأماكن المهمة من مملكته ، كما أذن أيضا بإقامة المساجد الوهابية في كل من مسقط والأماكن الأخرى .

غير أن هذه الفتوحات كانت وبالاً على عبد العزيز ، الذي استثار بها أخطر وألدَّ أعداء الإمبراطورية الوهابية . فقد كانت القطيف والبحرين محميتين فارسيتين ، كما كانت تربطهما ببلاد فارس روابط دينية أكثر منها مدنية . كما كانت عمان ترتبط بإيران أيضا ارتباطا حميما . وقرر البلاط الملكي في طهران أن يثأر لحلفائه من قاطع الطريق العربي . ومع أن مسالة المخاطرة بإرسال جيش إيراني إلى قفار الجزيرة العربية كانت تنطوي على كثير من الأخطار ، وعديمة الجدوى ، إلا أنه كانت هناك وسيلة أسهل وأنجح ، تتمثل في أداة تعرفها الشيعة في كل العصور والظروف ، وهي ما يطلقون عليه اسم خنجر القاتل .

وبرغم تعدد وتفرق الفرق التي نشأت عن صراعات عليٍّ "كرم الله وجهه" مع خصومه الذين أصابوا نجاحا كبيرا ، إلا أن هذه الفرق تتفق على نقطة واحدة –

إباحة وممارسة الاغتيال . والشيعة الذين ينتمون إلى فرقه الإسماعيلية (وهم قتلة بلا منازع ، ومنهم استمدت بقيه الفرق أسماءها : الدروز ، والقرامطة ، والخوارج ، والمطاولة ، أو باختصار ، كل الأصدقاء والجيران والأنسباء بدءاً من الرافضي وانتهاء بالبابي في زماننا هذا يجيزون خنجر القاتل ويستعملونه ، عندما يريدون تحقيق هدف من الأهداف أو التخلص من أحد المنافسين ؛ وخنجر القاتل هذا يمثل جزءاً أساسيا من معتقدات الشيعة العملية والنظرية . ويقول واحد من العرب : إن المسلم ، والنصراني، والسني ، والملحد، "ذاق" كل منهم طعم خنجر الشيعة متعددي الأشكال ، النمط الأعلى "للسواد" في الشرق . وهنا تلقى عبد العزيز درسا ، دفع هو ثمنه ، مفاده أن "المذاهب السرية" في آسيا لا يجب تجاهلها .

ومن منطقة غيلان[1] ، المنطقة التي استطاع فيها عبد القادر قبل ستة قرون أن يجعل حماس أتباعه ومريديه أساسا للمكارم السماوية ، من هذه المنطقة تقدم شخص يعرض القيام بذلك العمل الدموي. ويتلقى هذا الشخص التعليمات المطلوبة من طهران، التي سافر منها إلى مشهد حسين ، مكة المذهب الشيعي . ومن مشهد حسين ، يحصل ذلك الرجل على فتوى مكتوبة تغفر له ذنوبه ما تقدم منها وما تأخر ، وعمل رئيسي معتمد ومتفق عليه ، يضمن له نعيم الجنة الأبدي ، إذا ما أفلح في تخليص الأرض من الطاغية النجدي . وبعد أن يلف ذلك الرجل ، هذه الوثيقة حول ذراعه على شكل تميمة أو تعويذة ، يشق طريقه ، متنكرا في زي تاجر ، إلى مدينه الدرعية التي راح يتحين فيها فرصة الحصول على المكافأة التي وعدوه بها لقاء غدره وخيانته .

ولما كان عبد العزيز وهابيا خالصا ، فإنه كان لا يتأخر مطلقا عن حضور صلاة الجماعة في الجامع الكبير في المدينة . ونظرا لأن عبد العزيز كان أعزل من السلاح ، ونظرا أيضا لأنه كان مستغرقا في أداء الصلاة التي لا تسمح له بالنظر يمينا أو شمالا أو إلى الوراء ، فربما كان فريسة سهلة لتلك الجريمة المدبرة . كان الفارس يعرف كل ذلك ؛ وبعد أن التزم ذلك الفارس التقوى الشكلية والاتصال بالناس لمدة أسابيع ، مما أكسبه ثقة أهل المدينة ، دخل المسجد لصلاة العشاء ، واتخذ لنفسه مكانا خلف (الملك) عبد العزيز مباشرة ، وبعد أداء الركعتين الأوليين ، وأثناء الركعة الثالثة، غرس ذلك الفارس، خنجره الخرساني في ظهر الملك عبد العزيز أثناء السجود . ويخترق حد الخنجر المنطقة بين كتفي الملك عبد العزيز ليبرز من ناحية صدره ؛ ويموت الملك عبد العزيز دون أنين أو مقاومة .

ويتناول حراسه السيوف التى كانوا قد فكوها لأداء الصلاة ، ويستلونها على القاتل . وفى شجاعة اليأس ، يدافع الإيرانى عن نفسه باستعمال خنجره الذى مازال الدم الملكى يتقاطر منه؛ ثم يسقط أرضا، ليقطعه حراس الملك إربا على أرض الجامع ، ولكن بعد أن كان أجهز على ثلاثة من الحراس . وقد عثر الحراس على الوثيقة المكتوبة والموقعة من حاكم مشهد حسين ، مع جثة الميت ، ويقسم الأمير عبد الله الذى اعتلى عرش البلاد ، بعد عبد العزيز ، أن يكون أول انتقام لموت أخيه ، من تلك المدينة التى آوت ذلك القاتل .

وقد وقعت هذه الأحداث وفقا لما يقوله الرواة في الفترة ما بين ١٨٠٥ و ١٨٠٦ . وينفرد عبد الله ، منذ ذلك الحين ، بالحكم ؛ ولم يكن لأخيه خالد الأصغر منه ، أو الثنيان ولد عبد العزيز ، أو بقية أفراد الأسرة أية صلة بالحكم أو السلطة الملكية . وقد أنجب خالد ولدا أسماه مشاري ، هو الذى سبق أن قلنا عنه في هذه القصة إنه هو قاتل الأمير تركي . وهناك أيضا ابن ثنيان وخالد آخر ، هو أيضا ابن أخو عبد الله ، سوف يرد ذكرهما فيما بعد .

كان عبد الله قد ورث عن والده مهارته وشجاعته وقوة شخصيته ، ولكنه أضاف إلى تلك الصفات الحلوة الرذائل المعتادة لأولئك الذين يولدون فى قصور السلطة والجاه؛ فقد كان طاغية ، وقاسيا ، وغادرا ، ومتكبرا بشكل يندر وجوده فى الشرق ، كما كان متعصبا إلى حد بعيد لذلك المذهب الذى نشأ وتربى عليه . وقد تمثلت تماما فى ذلك الطاغية ، واتسمت كل إجراءات حكمه ، بكل الصفات الغريبة التى يندر ألا توجد فى الحاكم الإسلامى (المحمدى) المطلق – التباهى ، التهور ، سفك الدماء ، انعدام الإحساس بمعاناة البشر ، الإسراف الزائد عن الحد القائم على الظلم الجائر ، القسوة النَّزوية ، وكذلك الرحمة النزوية[1] .

وعقب دفن أخيه مباشرة ، بدأ عبد الله يستعد للبر بالقسم الذى اقسمه بأن ينتقم من مشهد حسين ومن الشيعة الموجودين فى تلك المدينة الحدودية . وتحقيقا لهذا

(١) هذه مغالطات تنمّ عن حقد المؤلف على الإسلام وبنى الإسلام وبحيث لا يترك فرصة إلا ويطلق فيها اللمز بالإسلام وأهله ، فقد أصدر حكماً بأن الصفات الوضيعة توجد بإطلاق فى كل حكم إسلامى أو محمدى – على حد تسميته . وهذا مخالف لتاريخ المسلمين ، فهل كان حكم عمر بن الخطاب الذى حقق العدل فى ربوع الأرض وضيعاً ؟ وهل ما فعله صلاح الدين الأيوبى مع الصليبيين من التسامح والسلام يعدّ حكماً وضيعًا ؟ كلا ، إن تاريخ الحكم الإسلامى ملئ بالفخار وتحقيق العدل والأمان . – (د. حلمى عبد المنعم) .

الهدف ، وضع نفسه على رأس جيش قوى ، واتجه صوب ضفة نهر الفرات الغربية . وهدد وهو في طريقة بالتهام بلدية الكويت الصغيرة ، التى بدأت تتزايد أهميتها التجارية ، ولكن الخضوع في الوقت المناسب هو والهدايا الكبيرة كانا يؤديان إلى تحاشى أخطار مثل هذه الزيارة النجدية الكريمة . وبعد أن قضى عبد الله على المقاومات التى اعترضت طريقه ، وزّع قواته المجمعة ليبدأ الهجوم من الزبير ، وسوق الشيوخ ، ومن سَمْوَه Samwah ، إلى أن وصل أمام بلدة مشهد على الكبيرة ، التى حاصرها على الفور . وسواء أكانت وساطة ربيب محمد الإعجازية هى التى نشرت الفوضى فى صفوف المهاجمين الوهابيين ، وذلك نقلا عما تقوله الشيعة إلى يومنا هذا ، أم افتقار القائمين بالحصار إلى المهارة والقوه اللازمين لهدم وتدمير التحصينات ، فقد ارتد عبد الله على عقبيه متكبدا الكثير من الخسائر ، واضطر إلى التخلى عن خطته التى كان قد أعدها للهجوم على مشهد على . وبعد أن ترك عبد الله مشهد على لمدافعيها ، اتجه شمالا ، وقلبه مملوء بالغضب ، صوب مشهد حسين ، أو إن شئت فقل كربلاء ، الهدف الرئيسى لهجومه وحقده . وفى مشهد حسين طغى هجومه وفاق كل شئ ، وعصف بالمدينة ودخلها ، وروت المذبحة المروعة التى نصبها عبد الله لحامية المدينة وسكانها شعر عنق عبد العزيز . ودمر عبد الله ، القبر الحقيقى أو المزعوم لولد فاطمة ، وهدم المسجد الضخم وسلبه ونهبه . ولقد شاهدت فى الرياض أشياء متباينة من تلك التى نقلها عبد الله من ذلك المزار الشيعي ؛ ويتفق الجميع على أن المجزرة كانت قاسية ، وأن السكان سواء أكانوا مسلحين أم عزّلا قد قُتِّلوا بالسيف .

هذا النجاح الذى أصابه عبد الله ، جعله يتحدى نصيحة والده التى أسداها إليه وإلى أخيه عندما كان على فراش موته ؛ فقد قرر عبد الله إكمال مخططات غزوه بالاستيلاء على الأراضى المكية ناحية الغرب . واستعدادا لهذا الغزو حشد عبد الله للمرة الثانية كل القوة المتيسرة له فى نجد، وعبر حدود الحرم عند مغاصيل Meghasil ، وخلال أيام قلائل ضرب خيامه ومعسكره أمام مكة ، التى يصعب عليها الدفاع عن نفسها . واستولى عبد الله على المدينة المقدسة ، التى كانت جميع المذاهب تحميها من الغزاة وتحترمها منذ أيام قرموط بن طاهر ، وأقام عبد الله مذبحة لحامية المدينة ، وقتل إلى جانب الجنود الأتراك كثيرا من الأشراف والسعيديين Sey,yids كبار السن . ودمر عبد الله أو أزال كل مظاهر الزينة ، وكل ما يتصل بالخرافات وما ليس له علاقة بالتقوى والصلاح العربيين ؛ وأعاد الكعبة إلى إطار العبادة الإسلامية الخالصة ،

كما حماها عبد الله من التلوث المستقبلي بأن قصر الدخول إليها على المتقين أو إن شئت فقل على المذهب الفاتح . وعلى كل حال ، فقد اعترى ذلك التحريم قليل من التراخي مع بعض الحجاج الذين ثبت بالدليل المقنع أن آراءهم الدينية صحيحة ، بل إن عبد الله أمدهم بالإعانات المالية والعينية؛ ولم يسمح عبد الله لغير هؤلاء ، من السنة أو الشيعة ، بالاقتراب من مكة . كما كانت تحدث بين الحين والآخر نوبة من الحماس المتعصب فيما يتعلق بالذهب ومباهجه ، وكفّر عبد الله عن حلوله الوسط التى كان يشتريها بالمال ، بأن رفض رفضاً باتاً السماح للأتراك بالمرور مهما كانت مناصبهم أو مراكزهم ، أو حتى مقاصدهم . وعلى سبيل المثال ، ففى مرة من تلك المرات أعيدت شقيقة السلطان ، من مكة "وهى تحمل الخزى والعار" قبل أن تقبّل الحجر الأسود أو ترمى الجمار فى وادى منى . وفى كثير من الأحيان ، كان حراس المدينة المقدسة الوهابيون يرضون عن سلب قوافل الكافرين الثرية ونهبها ، وذلك من منطلق وحدة الهدف والمصلحة ، ووحدة الحماس والغنيمة . إن الذكريات عن تلك الأيام الذهبية ، التى ولت سراعا ، مازالت تعيش فى أذهان أهل العارض وأهل نجد ، اللتين سمعت الناس فيهما يتحسرون على أيام الغزو الخوالي الجميلة ، أيام التشدد ، أيام الملك عبد الله.

شنّ عبد الله حملته الثانية على المدينة المنورة . وقد جاءت هذه الحملة ، إن صحت الروايات التي رواها أهل مكة ، نتيجة لمناورة سياسية فريدة جرت فى المناطق العليا . ويقال إن أشراف وشيوخ مكة الذين بقوا على قيد الحياة بعد مذبحه مكة ، بعد أن رأوا أن الله أمهل أولئك الذين اعتدوا على بيته الحرام وعلى سدنته فى العاصمة ، فكروا فى استنصار النبى نفسه فى قضيتهم . ولكى يتحقق ذلك لابد أن يخطئ عبد الله فى حق شخص النبى (ﷺ) ، وبذلك يستثير غضبه واستياءه . ولما كان احترامهم وتوقيرهم لمحمد (ﷺ) يمنعهم من التعاون بصورة مباشرة فى عمل من هذا القبيل ، فإنهم يمكنهم تدبير مثل هذا العمل بطريق غير مباشر ، وبشكل لا يقل مثقال ذرة عن الطريق المباشر . وبناء على ما تقدم ، ذهب أصحاب اللحى الموقرون من أهل مكة ، ذات صباح ، إلى الكعبة المنهوبة ودعوا الله أن يكشح الملك الوهابى ويجعله ينتهك قدسيه المدينة المنورة وقبر النبي ، وبذلك يغضب منه الرسول ويجر على نفسه غضب الحبيب محمد (ﷺ) . واستجاب الله دعاءهم ، واتجه عبد الله بجيشه صوب يثرب ، أو إن شئت فقل المدينة المنورة، ليتوج جرائمه فيها . وأنا على ثقة ، أن القارئ ، يجب ألا يغيب عنه هنا أننى هنا أقوم بدور الرواى ، ولا أقوم بدور المؤرخ .

وسقطت المدينة المنورة فريسة سهلة ، وواصل الوهابى المنتصر تطبيق المعيار الشهير من معايير مذهبه والذى يقول : "خير القبور الدوارس" ، واعتدى عبد الله على قبر النبى ، وقبرى صاحبيه أبى بكر وعمر . وبعد أن سوى بهذه القبور الأرض ، استرعى اهتمامه بعد ذلك النذور الثرية التى تجمعت منذ أجيال فى الجامع الذى يحوى هذه القبور . وأطلق عبد الله نكتة غير دينية إذ قال : "مات محمد ، وأنا ما أزال حيا ، وهذه الثروة ، يحافظ عليها الأحياء أفضل من الموتى" ؛ وأمر ، بعد انتصاره الدنيوى ، بإحضار ستين جملا ، لتحميل هذه النذور عليها ، وإرسالها إلى خزانة الدرعية .

وبرغم أن النبى لم يبال بما حل بالكعبة ، إلا أنه تأثر تأثرا شديدا بهذه الإهانة الشخصية الأخيرة . وسواء أكان النبى ، فى تلك اللحظة ، فى بال Baal (أى فى رحلة) أم ربما كان "نائما ، ولابد من إيقاظه" ، فقد سكت عن هذا الأمر طيلة خمس سنوات[1] . وفى الوقت نفسه ، وبعد أن أصبح الفاتح الوهابى ، ملكا على شبه الجزيرة العربية كلها ، باستثناء ركن صغير من اليمن وحضرموت ، وجّه عصاباته التى تشبه الجراد صوب الحدود الشمالية . واستسلمت كل من شومر والجوف ، ولكن المنطقة المكشوفة فيما بين كاراك Carac وباليرا Palmyra تم سلبها ونهبها ، أو حرقها أو ذبح من فيها ؛ بل ؛ احتمى السكان الذين لا حول لهم ولا قوة بالقلاع والمدن الحصينة من بطش سيوف إخوانهم المتدينين . وعلى كل حال ، فإن عنزه الشمال لم يكونوا ميالين ، بشكل عام ، إلى توحيد الهدف مع السلّاب والنُّهّاب القادمين من الجنوب ، ولذلك دارت بين عنزه الشمال وبين هؤلاء السلاب والنهاب بعض المبارزات ، مما جعل م . لامارتين يتحدث فى كتابه الشهير الذى كتبه عن الشرق ، عن صراع استمر سبعة أيام بين جيشين كان أحدهما بقيادة بنى شعلان والآخر تحت قيادة أبى نقطة ورفاقه . ولكن بالرغم من جميع التحريات والاستقصاءات التى قمت بها ، سواء بين بنى شعلان

(١) هذا الكلام مخالف لتعاليم الدين ، وفيه إهانة للنبى (ﷺ) فالرسول (ﷺ) قد انتقل إلى الرفيق الأعلى بعد أن أكمل الله به هذا الدين ، ومات وترك أمته على المحجة البيضاء ، وكل معالم هذا الدين محفوظة فى الكتاب والسنة . ولم يطلب من النبى بعد وفاته أن يدافع عن حرمات الإسلام ، وإنما جنود المسلمين وحماة الدين هم الذين يدافعون عن الدين ومقدساته . والنبى فى قبره هو فى مقعد صدق عند مليك مقتدر وليس فى رحلة كما يهرف ذلك المؤلف ويخرّف فى كلامه هذا مع تحفظى الشديد على هذه الروايات عن الأمير عبد الله والدعوة الوهابية ، فإن المؤلف على طول الخط يحمل عليها وعلى الإسلام ونبى الإسلام وينبغى أن تؤخذ مروياته بتحفظ شديد - (د. حلمى عبد المنعم) .

أنفسهم ، والروالة ، والسباع ، أو بين حصينة الشمال ، أو بين النجديين ، أو بين بني تميم في الجنوب ، إلا أنني لم أعثر على أي أثر أو حادثة ؛ ولو قدر لمثل هذا الأثر أو تلك الحادثة أن تقع بمثل المبالغات الهائلة التي أوردها لامارتين ، لخلّد ذكرها ما لا يقل عن خمسين من شعراء الصحراء والحضر .

وبينما كانت القوات النجدية الرئيسة مشغولة على هذا النحو على الحدود الشمالية للإمبراطورية ، إذ أدى ذلك إلى تخفيف الضغوط إلى حد ما على الإمبراطورية من الداخل . وتهيأت الفرصة للاستياء والرفض أن يعبرا عن نفسيهما ، واندلعت ثورة عارمة في نجد ، التي أدى جبروت عبد الله واستبداده فيها إلى كراهيته من رعاياه ومن أعدائه على قدم المساواة . وقد حدث ذلك بصفة خاصة في المناطق الواقعة جنوب العارض ؛ ولكن المركز الرئيسي لرد الفعل كان في منطقة الحريق ، ذلك الموقع المتقدم في اليمامة ، الذي هيأ له بعده الفرصة كي يكون موطنا يتوالى منه السخط على الحكومة الوهابية والاستياء منها . وكان أهل الحوطة أول من وقف في مقدمة تلك الثورة ، كما وقف إلى جوارهم أيضا كثير من أعيان هذه المنطقة ، الذين بدءوا يطالبون بأراضيهم .

ولكن عبد الله كان مستعدا لذلك أيضا ، علاوة على أن نيره كان يبلغ من الثقل حداً يصعب معه على انتفاضة جزئية من هذا القبيل أن تتخلص منه أو تلقي به بعيدا عن عنقها . وهنا جمّع عبد الله قواته الاحتياطية من كل من العارض وسدير، مستبديه المخلصين ، وهاجم على الفور الثورة في اليمامة قبل اندلاعها . وبعد المذبحة - نظرا لأن الحرب كانت أهلية وضروسا - وصل عبد الله إلى منطقة الحريق وشتتها هنا وهناك . ولكنه ادخر انتقامه الثقيل والمكثف لبلدة الحوطة - إذ أحرق جميع منازلها ، وذبح رجالها وأطفالها ، ولم يبق من سكان الحوطة الذين قدر عددهم بعشرة آلاف نسمة تقريبا ، سوى مائة وثلاثين نسمة ، يقال إنهم هم الذين نجوا من سيف عبد الله .

وبعد ذلك ، وبينما كان الغازي يجوب راكبا خلال أنقاض المدينة المخضبة بالدماء ومن حوله رفاقه المتوحشين ، طلعت عليه أرملة ثكلت زوجها وولدها في المذبحة ، واعترضت طريقه وصاحت قائلة : "يا عبد الله". ورد عليها عبد الله قائلا : "سم" . وقالت له المرأة : "اذكر اسم الله" . وتعجب عبد الله منها قائلا : "يا الله" . واستطردت المرأة وهي تكمل العبارة : "يا الله ، إن كان عبد الله قد فعل خيرا بما فعله هنا ،

فكافئه بالخير . ولكن إذا كان فعله هنا ظلما وقسوة فقابله بما فعل" . ويمضي عبد الله إلى حال سبيله صامتا ، مكتئبا ويعذبه ضميره عائدا إلى الدرعية ، بعد أن خلف الحريق صحراء قاحلة . ولكن دعوة الأرملة كانت تلاحقه وتطارده .

واشتركت حكومة القسطنطينية مع محمد على ، والى مصر ، فى القيام بطرد الوهابيين من مكة ، وأن ينزل بهم العقاب المناسب . وكانت أولى العمليات العسكرية التى استهدفت تحقيق هذه الغاية ، بقيادة طارسون باشا ، ولد محمد على ، والأخ الذى يكبر إبراهيم باشا . وقد استغرق سفر طارسون باشا هو وقواته إلى أراضى الحجاز وظروف النجاح والفشل والتفاوض فترة من الزمن تتراوح بين عامين وثلاثة أعوام . وإن لم تخنى الذاكرة ، فإن بركخاردت **Burckhardt** وصف فى كتابه ، وصفا دقيقا ، الطاعون الذى انتشر بين أفراد الجيش المصرى ، كما وصف أيضا وفاة طارسون باشا ، وبعض الأحداث الأخرى .

وأعيد فتح مكة مرة ثانية ، ولكن الجيوش المصرية لم تتقدم إلى أبعد من ذلك ، ولم يكن لديها فكرة محددة للوصول إلى نجد نفسها . ولكن محمد على ، على العكس من ولده طارسون ، كان قد أعد خطة جريئة لا للقضاء على الصلف الوهابى فى نجد وحسب وإنما لاستبعاد أى احتمال لتكرارها مستقبلا ، وذلك عن طريق الاستيلاء على الدرعية ، حتى يقتل الدبابير فى عشها .

ولكن فى البداية (وأنا هنا أورد القصة من منظور الرواية النجدية) دعا محمد على ، فى القاهرة ، إلى عقد اجتماع عام حضره جنرالاته ، ووزرائه ، وضباطه ، وسياسيوه لمناقشة هذه الخطة . وبعد أن شرح محمد على لجميع الحاضرين الأسباب التى دعته إلى عقد الاجتماع ، والهدف الذى ينتويه ، أشار محمد على إلى تفاحة كانت ملقاة على أرضية الديوان ؛ وكان قد تم وضع هذه التفاحة فى مركز سجادة كبيرة مفروشة على الأرض فى الصالة من أمام الحاضرين . ثم قال محمد على : "من منكم يستطيع أن يناولنى هذه التفاحة بيده ، دون أن يضع قدمه على السجادة فى المكان الموجودة فيه التفاحة ، إن من سيفعل ذلك سيقود الحملة الموجه إلى نجد" . وحبى كثير من البهوات الصغار وفردوا أجسامهم على الأرض ، جاعلين أعقابهم عند حافة السجادة ، ومادين أذرعهم عن آخرها فى اتجاه الثمرة ؛ ولكن المسافة كانت طويلة عليهم جداً ، مما ترتب عليه بقاء التفاحة فى مكانها دون أن يصل إليها أحد أو يمسك

بها . وجرب البهوات ، الواحد بعد الآخر ، خطة بعد أخرى ، ولكن باءت كل محاولاتهم بالفشل ، وانتهى الأمر بهم جميعا إلى الاستسلام من اليأس . وفى النهاية ، نهض إبراهيم القصير المتين ، وولد محمد على بالتبنى ، وانحنى أمام والده ، وعرض القيام بتلك المناورة الصعبة . وضحك الجميع منه ، إذ لم يكن يراودهم أى شك فى فشله . ولكن سخريتهم سرعان ما تحولت إلى إعجاب عندما شرع إبراهيم باشا فى التنفيذ ، بأن راح يطوى السجادة من الحافة نحو الداخل إلى أن أصبحت التفاحة فى متناول يده ؛ ثم تناول التفاحة وسلمها إلى والده ، الذى فهم هذا اللغز البلاغى ، وعين إبراهيم باشا منذ ذلك الحين قائدا عاما للجيش المصرى .

وسواء أكانت هذه القصة حقيقة أم خيالا ، فإن الفكرة التى تقوم عليها تتعلق بطبيعة البلاد التى سيجرى غزوها ، كما تتعلق أيضا بأنسب الوسائل التى تضمن نجاح هذا الغزو ، ومن هنا لا يجب التقليل من قيمة وأهمية هذه القصة بأى حال من الأحوال . لقد كانت العقبة الكؤود فى هذه الحملة المقترحة ، تتمثل فى تسيير جيش نظامى عبر منطقة صحراوية شاسعة تحيط بنجد من كل جانب . وقد ثبت أن أذرع كثير من الغزاة عجزت عن الوصول إلى نجد بفضل هذه الصحراء ، فى حين أقنعت هذه المحاولة كثيرا من القادة بأن يفلتوا وينجوا بجلودهم ، – المقصود هنا هو الاتصالات العسكرية الموجودة فى المؤخرة ، – من حتمية الاتصال بالقاعدة الأمينة . ولكن الهضبة الوسطى بحد ذاتها، إذا ما تم الاستيلاء عليها، فلن تشكل مقاومة تذكر ، شأنها شأن أى تفاحة عندما تقع فى قبضة الأصابع التى تمسك بها ، ولكن كيف انتوى إبراهيم باشا طى السجادة كى يصل إلى الجائزة ؟ إن حملة إبراهيم باشا سوف تكشف لنا الحل العلمى لذلك اللغز : وأنا يتعين علىَّ فى الوقت نفسه ، أن أنقل القارئ بضع لحظات إلى التربة العربية ، لدى تلك الاستعدادات التى أعدها عبد الله استعدادا لملاقاة العدو المنتظر .

وبينما بقى إبراهيم باشا فترة من الوقت فى مصر ، راح خلالها يجمِّع قواته وذخائره ، وصلت ظلال هذه الحرب المخيفة إلى الملك عبد الله فى عاصمته . وكانت قوات نجد قد استدعيت للخدمة العاملة منذ فترة قصيرة ، فى الحرب التى شنها طارسون باشا ، التى وقع عبئها الأكبر على سكان جبل عسير المحاربين كثيرى العدد ، تحت قيادة ابن سعدون . والقارئ عندما يعود إلى الخارطة يتبين أن منطقة عسير الجبلية تقع إلى الجنوب مباشرة من منطقة مكة ؛ وتقدر المبالغات النجدية عدد مقاتلى

جبل عسير بحوالى سبعين ألف مقاتل ، ونحن إذا ما قدرنا هذا العدد بحوالى الثلث فقط ربما نكون قد قاربنا على المتوسط الحقيقى . وسكان عسير من الوهابيين المتشددين والملتزمين ، وهم إلى جانب ذلك ، حلفاء لنجد ، وليسوا من رعاياها . وبذلك يكون سكان جبل عسير قد كوّنوا أول مانع صعب فى مواجهة الغزو المصرى . ولكن عبد الله كانت لديه مخاوف من ألا تتمكن عسير وحدها من وقف مد الحرب المتقدم .

وكتب الملك عبد الله رسالة يشجع فيها ابن سعدون ويعده بالعون والمساعدة ، وراح هو نفسه يجهز استعدادات عسكرية على نطاق غير عادى . ولكنه اختار ، فى الوقت نفسه ، من بين أهل الدرعية واحدا توسم فيه أن يقوم بدور الجاسوس ، وأرسله إلى مصر متنكرا ، ليكتشف ذلك الذى يجرى هناك على قدم وساق ، وكلفه الملك عبد الله ألا يترك شاردة أو وارده إلا ويلاحظها ؛ على أن يكون ذلك فى سرية كاملة . وعاد المبعوث بعد فترة من الوقت . وهنا عقد الملك عبد الله اجتماعا عاما أمام بوابة قصره ، واستدعى المبعوث ، وطلب إليه أن يحكى للمجتمعين ذلك الذى رآه وسمعه ، وبدأ ذلك المبعوث التعيس ، الذى تركت القوة العسكرية المصرية هى واستعراضها التنظيمى وجيوشها انطباعا كبيرا على خياله ، بدأ يسرد أمام أعين إخوانه المواطنين تفاصيل تلك الصورة المخيفة لذلك الباشا العنيد هو وقواته ، ومدافعه ، وكتايبه ، والقوات الراكبة والراحلة ، وأن ذلك كله كان من أجل غزو نجد . واصفرت الوجوه ، ولكن الملك عبد الله قاطع رواية ذلك المبعوث ، وأمر باقتياده وضرب عنقه بالسيف فورا جزاء "تخويفه المسلمين وترويعه لهم" .

ومع أن الملك استطاع إلى حد ما أن يسكت مخاوف المجتمعين ، إلا أنه لم يستطع التخلص من مخاوفه الشخصية . وربما كان من الأفضل له أن يوفد سفيرا إلى المصرى ، يتفاوض معه على السلام تحاشيا للخطر قبل فوات الأوان . ولكن الملك لم يستطع بعد العثور على من يمكن أن يضطلع بمثل هذه المهمة ؛ فقد تراجع جميع الحاضرين ، خوفا على أنفسهم ، ولم يكن خوفهم بلا مبرر ، فقد شاهدوا بأنفسهم مصير المبعوث الأول . وفى النهاية تقدم أحد الحاضرين للاضطلاع بهذه المهمة ، ولكن بشرط أن يسمح له سلفا أن يقرأ محتويات الرسالة التى سيحملها – وهذا تحوط حكيم ، وتمت مناقشة جميع الأمور المتعلقة بهذه المهمة .

كان عبد الله قد كتب ، بالطريقة الوهابية ، على قصاصة مربعة من الورق القذر بني اللون ، رسالة قصيرة غير لائقة تماما لإبراهيم باشا . وقد تضمنت هذه الرسالة بعد البسملة ما يلي: "نحن ، عبد الله بن سعود ، نحيي ، إبراهيم باشا" . دون ألقاب ، أو مجاملات ، أو مقدمة ، ثم أتبع ذلك بسلسلة من النصائح الحكيمة ؛ واستشهادات من القرآن ، وعرض بارد بالصداقة ، شريطة أن يبقى كل طرف من الطرفين في مكانه حيث هو ، يضاف إلى ذلك ، أن الكبرياء الوهابي يحول دون الدخول فى المفاوضات بغير هذه الطريقة . ولكن المبعوث بعد أن طلب الاطلاع على هذه الرسالة غير الدبلوماسية ، وبعد أن قرأها ، ألقاها جانبا وقال : "إن حملى لهذه الرسالة يساوى قطع رأسى تماما . وينبغى أن تتركنى أنا أكتب الرسالة باسمك أنت ؛ وبهذه الطريقة يمكننى أن أحمل الرسالة ، أما غير ذلك فلا" . وأجاب عبد الله ، الذى كان يعرف أن مسألة المبعوثين أمر نادر ، قائلا : "أكتب" . وسأل سفير المستقبل الملك عبد الله قائلا : "ولكن هل تضمن لى سلامتى بوعد حقيقى منك وهل تضمن لى أيضا أن أكتب ما أرى ؟ " وأعطاه الملك عبد الله وعداً . وبناء على هذا الوعد طلب ذلك النجدى الذى خبر الأسفار الطويلة ، وعرف عن الدنيا وأحوالها أكثر من سيده الذى تربى فى القصور ، إحضار ورقة بيضاء كبيرة ، وبرى ريشة ممتازة . ثم قام بعد ذلك بكتابة بضعة أسطر بخط يده ، كلها من قبيل التحية والمجاملة ، وتلك هى الديباجة الشرقية المعتادة فى الرسائل الرسمية ؛ وأغدق سفير المستقبل ، على الكافر المصرى ألقاب "السيد ، لورد ، حاكم" .. الخ – وهذه كلها من قبيل الوثنية فى نظر الوهابيين إذا ما أطلقت على أى إنسان غير الخالق . وتلى ذلك عرض بالصداقة والتحالف ، مغلف بعبارات يستشم منها الخضوع والإذعان ، ولا يشتم منها المساواة والتهديد والوعيد ؛ وأنهى السفير رسالته بالتماس بتواضع يقول فيه : "سيدنا (إبراهيم باشا) هل تتفضلون بقبول – هكذا كتب السفير على مسئوليته – بقبول الهدايا المصاحبة لهذه الرسالة .

وبعد أن انتهى المبعوث من كتابة الرسالة سلمها إلى الملك. وتعجب المستبد قائلا : "والله ، لولا أننى أقسمت ووعدت بسلامتك ، لدفعت حياتك ثمنا لهذا الكفر" . وعلى كل حال ، لم يكن هناك مفر من ذلك ، وختم عبد الله الوثيقة الكريهة ، وأضاف إليها هدية عبارة عن ستة خيول رشيقة من الخيول النجدية . وبعد أن تزود السفير بالرسالة والهدية شق طريقه فى اتجاه الغرب .

وعبر السفير من جده إلى القصير فى مصر ، التى التقى فيها ، قبل أن يقطع مسافة كبيرة داخل البلاد ، الجيش وعلى رأسه إبراهيم باشا ، متجها من القاهرة صوب البحر . وانتظر مبعوث الملك ثلاثة أيام قبل أن يلتقى إبراهيم باشا . وسمحوا له فى اليوم الرابع بلقائه .

وقال له إبراهيم باشا بلهجته القاهرية العامية التى لم يتخلّ عنها طوال حياته : "حسن ، أيها الرجل ، ما الذى أحضرته لنا من كلب نجد سيدك ؟" . وقدم السفير الرسالة التى يحملها . وتناول الباشا الرسالة ، وحملق بعينيه فى محتوياتها ، وانفجر فى ضحكة تشبه ضحكة الحصان .

"وعليه - "سيدى ، ومولاى ! خادمك المطيع ! " يا ولد "(ناظرا إلى الخادم) ، "أحضر الرسالة التى وصلتنا قبل أربعة أيام من السعدون ، كلب عسير" .

وأحضر الخادم الرسالة. كانت الرسالة عبارة عن إعلان بالخضوع وتوكيد للولاء ، فى حين أضاف إليها رئيس عسير ، من باب إخلاصه للباشا ، تلك الملاحظة التى كان الملك عبد الله بن سعود قد أرسلها له منذ فترة قصيرة .

قال إبراهيم باشا : "اسمع ما يلى ، يا خنزير" وراح يقرأ بصوت مرتفع الوثيقة الوهابية الثانية ، وهو يوزع لعناته على الخط النجدى : "بسم الله الرحمن الرحيم ، نحن عبد الله بن سعود ، نحيى ابن السعدون ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته . وبعد: لا يَخْدَعنَّك حمار مصر ولا نهيقه، لأنه لا يستطيع أن ينفعك أو يضرك فى شئ ، ونحن بمشيئة الله سنكون المنتصرين، وأنا أقول لك : احذر تباهى الكفار؛ خزاهم الله ، لأنهم هم الخاسرون بكل تأكيد ، ونحن على استعداد لمساعدتك بالراكبين والراجلين ، والنصر من الله ، والنصر قريب ، والسلام عليكم ورحمة الله" .

وهنا أيقن النجدى أنه لم يعد هناك مجال للاعتذار أو الدبلوماسية ، ولذلك لم يحاول اللجوء إلى أى منهما ، ولكنه اصطحب معه خيوله وأبحر ثانيه من القصير ، ومنها إلى جدة على وجه السرعة .

وعندما وصل المبعوث إلى جدة ، بدأ يفكر فى الطريقة التى يمكن أن يظهر عليها فى الدرعية بعد ذلك الصد ، والرد الذى يحمله : فالرد ينطوى على ما يطيح بمائة رأس بدلا من رأس واحدة . وعلى كل حال ، فإن العربى الحقيقى لا يعدم وسيلة فى إيجاد

الذرائع . وباع المبعوث الخيول ، التى كانت مقدمة قربانا للسلام ، بسعر طيب ، واشترى بثمن الخيول اثنى عشر عبدا نوبيا ، ألبسهم جميعا لباسا أنيقا ، ثم اصطحبهم معه على الطريق إلى داخل البلاد ، وراح يشيع فى كل مكان يصل إليه أن هؤلاء العبيد هدية من إبراهيم باشا إلى سلطان نجد ، وقربانا للتحالف والصداقة ، بل إشارة إلى الخوف .

ويصل المبعوث إلى الدرعية بهذا المظهر ، ويدخل المدينة خلال فترة العصر ؛ وبالتحديد عندما كان المؤذن يرفع آذان العصر . وقصد المبعوث الجامع الكبير ومعه هذا العدد من العبيد السود الذين يرتدون ثيابا أنيقة ، ثم انضم إلى المصلين ؛ كان الملك عبد الله يصلى فى الصف الأول ، وكان المصلون على وشك الدخول فى الصلاة . وعندما دخل المبعوث إلى الجامع ، اتجهت إليه وإلى العبيد السود جميع الأنظار ، وأثبتت الرغبة أنها أم الفكر ، واستخلص الجميع بما فيهم عبد الله نفسه ، نتيجة واحدة مما شاهدوه . وسرت خلال هذا الجمع همهمة كبيرة مثل همهمة البحر : "لا إله إلا الله ! الله مع المسلمين ، العظمة لله وحده ! الحمد الله" وبرغم أن عبد الله كان أكثر ابتهاجا ، فى قرارة نفسه من أى إنسان آخر ، بتلك الأخبار الطيبة المرتقبة ، إلا انه فرض الصمت بإشارة من يده ، وأدى الجميع الصلاة . وبعد أن انتهى المصلون من أداء الصلاة استدعى الملك مبعوثه ليحكى أمام الجمهور المحتشد عن مهمته والهدف منها وما أسفرت عنه .

قال المبعوث إن العاهل المصرى استقبله استقبالا طيبا ، وانه منزعج لحب نجد للحرب وبسالتها فيها ، وأنه قبل الهدايا المقدمة بكل سرور ، وأنه قابل تلك الهدايا بهدية العبيد الموجودة أمام الجمهور ، وأعلن عن صداقته وأكد تحالفه ، وأشياء أخرى كثيرة ؛ وبذلك تكون هذه الكذبة الهائلة التى جاءت فى وقتها ، قد انطلت على كل من الملك والشعب . ويردف الملك عبد الله بعد أن ينتهى المبعوث من سرد الأخبار الطيبة التى اختتمها الجمهور بقول : "الله أكبر" ، يردف قائلا : "دعونا نطلع على رسالة الكافر" . ولكن المبعوث أعطى إجابة مفادها أن الرسالة تشتمل على أمور تحتم أن يطلع عليها مجلس خاص فقط ، والتمس إلى الملك عبد الله أن يؤجل ذلك إلى الوقت المحدد . ويوافق الملك الذى كان رائق المزاج بشكل غير عادى ، على التأجيل ، ويصطحب المبعوث معه ، ويتحرك على الفور داخلا إلى القصر ، ومن حوله وزراؤه وحاشيته ، ومن خلفهم العبيد فى المؤخرة .

وبمجرد أن دخل الملك عبد الله الديوان ، طلب الرسالة المزعومة من المبعوث للمرة الثانية . ورد عليه الدجَّال قائلا : "إنها ذات طبيعة سرية جداً ، وأنها لا يمكن أن يراها أو يسمعها أحد غيرك" . واضطر عبد الله ، الذى اعتراه شئ من الدهشة ، أن يخرج مستشاريه من الديوان .

وهنا قال المبعوث الذى اضطر فى النهاية أن يمسك بالثور من قرنيه : "لم أحصل على أى رد على مقترحاتك غير ذلك الرد الذى سوف يعطيه لك إبراهيم باشا بنفسه فى الدرعية . وبعد كل ذلك ، إذا كنت رجلا بحق ، فعليك بالاستعداد للحرب" . ثم كشف المبعوث بعد ذلك للملك عبد الله عن كل ما شاهده وما سمعه ، واعتذر له عن الخداع المؤقت الذى لجأ إليه تحاشيا لتثبيط الهمم ومنعا للذعر من أن يعرف طريقه إلى العاصمة . وينهى المبعوث حديثه قائلا : "ولكن الخطر محدق ، ولا بد أن تتوقع شن حملة على نجد نفسها" .

ولم يكن أمام الملك شئ سوى أن يشكر لخادمه مهارته ، وصرفه ورأسه على جسده . وكرَّس عبد الله نفسه لاستدعاء وحشد كل القوات الموجودة فى الإمبراطورية ، وصمم على انتظار عدوه بهذه القوة ، عند مداخل الممرات النجدية الداخلية بالقرب من الكويع 'Kowey' ، وهى المنطقة التى يدخل عندها طريق مكة إلى وديان التيه فى الطويق ، قبل أن يصل الطريق إلى وادى حنيفة وقلب نجد . وظن عبد الله أن قواته الجديدة والكاملة ، سوف تدافع عن بلادها على ترابها الوطنى ضد عدو سيصل منهكا ومرهقا ومنزعجا من عبور الصحراء الفاصلة ، وربما تقل قوة اندفاعه وتتحطم وينقص عدد قواته بسبب حرب العصابات التى يشنها عليه البدو والقرويون الذين ينتشرون على خط سيره . ولم يكن هناك أى شك فى أن حسابات الملك عبد الله كانت على قدر كبير من المهارة والحذق ، وربما أصابت نجاحا مع مهاجم أقل حنكة ومكرا من إبراهيم باشا .

ولكن إبراهيم باشا كان قد بدأ تطبيق خطته الخاصة بطى السجادة العربية ، واثبت بالحقائق وليس بالنظريات ، مدى خطورة الحملات التى قام بها كل من قمبيز Cambyses وكراسوس Crassus ، بل ونابليون ، وذاع صيتها بشكل مؤسف ، وأنها كانت وبالاً على من قاموا بها سواء أكان ذلك فى سكاثيا السفلى ، أم فى الصحراء السورية . أو حتى بين ثلوج روسيا . وجدير بنا أن نسجل هنا الأسلوب والطريقة التى لجأ إليها إبراهيم باشا فى شن هذه الحملة ؛ وهذه الحملة تعد مثالاً جيدا على

العمليات الحربية التى تجرى فى آسيا ، وبخاصة عندما تشن هذه العمليات على نطاق واسع . وفى العمق والمناطق الداخلية .

وبعد أن عبر إبراهيم باشا البحر بقواته ووصل إلى جده ، استسلم له ابن سعدون رئيس جبل عسير ، وتقدم إبراهيم باشا على رأس قوته الرئيسية عبر الوادى الرملى الطويل الذى يصل بين مكة ونجد، تاركا صحراء النفود على يساره فى منطقة القصيم، وذراع جبل طويق المنخفض (يطلق عليه فى بعض الأحيان اسم جبل العارض) عن يمينه ، وبذلك يصبح مساره بعيدا عن أذى جبل الدواسر وسكانه المتشددين . ولم يكن أمام إبراهيم باشا فى ذلك المسار من يواجهه أو يشتبك معه سوى سكان القرى المبعثرين هنا وهناك ، وغير مسلحين تسليحا جيدا من ناحية ، وكذلك قبائل حرب ، وعتيبة ، وعنزة وقحطان البدوية ، فى حين كان يجرى الحصول على الماء بشكل يومى ، وفى أضعف الأحيان ، من الآبار التى توجد على مسافة مسيرة زمنية تتروح بين أربعين وخمسين ساعة ، فى المسار نفسه .

ويتقدم إبراهيم باشا ، فى ذلك المسار على شكل صديق وليس على شكل فاتح . فقد كان إبراهيم باشا يدفع فورا ثمن كل دلو من الماء الذى كان السكان يقدمونه للقوات ، كما كان يدفع على الفور أيضا ثمن كل تمرة ، وكل عود حطب يقدمه السكان لقواته ، ومنع إبراهيم باشا ضباطه وجنوده منعا قاطعا من إهانة أو استثارة السكان العزل المستسلمين ، بأى شكل من الأشكال . وراح إبراهيم باشا يتجاوز قرية بعد أخرى ، وقبيلة إثر أخرى من القبائل التى أصابها الخوف والفزع من ذلك العرض العسكرى ، الذى انجذبوا إليه على أمل تحقيق الأرباح والمكاسب ؛ وتأثرت هذه القرى وتلك القبائل بالفارق الكبير بين النظام المتحضر والحماية الوهابية الوحشية المهينة ، مما جعل هذه القرى وتلك القبائل تدين بالولاء للقائد المصرى وترفض الحكم النجدى . ورحب إبراهيم باشا بالمستسلمين ، بغض النظر عن نوعياتهم أو عشائرهم ترحيبا طيبا ومشرِّفا . وبقيت هناك أقلية رفضت أن تستبدل حكومة "المسلمين" بسيادة "حمار مصر" . ولم يلجأ إبراهيم باشا إلى استعمال العنف المباشر مع هذه الاقلية ، ولم يسفك دم أى إنسان ، وكل ما فعله إبراهيم باشا مع تلك الأقلية ، كان عبارة عن إصدار أمر رحيم منه إلى هؤلاء السكان بترك مساكنهم ، وأن يسبقوه إلى وسط نجد ؛ وقال لهم ، فى تهكم شديد ، اذهبوا إلى هناك "كى تزيدوا من حجم جيوش المؤمنين" ،

ولكن إبراهيم باشا كان يرمي ، من وراء ذلك ، إلى استنفاد موارد الملك عبد الله من ناحية وإحباط شجاعته عن طريق عبء إضافي من خليط مشترك من البشر الذين لا نفع فيهم ولا طائل من ورائهم . واندفعت العشائر البدوية بلا استثناء تحت لواء الباشا عندما عرض عليهم تقديم المقابل المالي ومقدارا كافيا من التبغ لجميع البدو ، مقابل توفير الجمال لنقل الماء وإرشاد القوات على الطريق . وبذلك يكون الباشا قد "طوى نجد" ، كما يقول التعبير العربي ، خطوة بخطوة ، وأخذ يتقدم في سهولة ويسر نحو المرتفعات الوسطى ، بلا متاعب ، مع تأمين احتياجات الجنود ، ودون أن يخسر أو يهدر قطرة دم واحدة على الطريق ؛ وخلف إبراهيم باشا وراءه اتصالات آمنة مع الشاطئ ، وحلفاء موالين له ، وساق أمامه جمهورا جائعا ، لا نفع منه ، كما ساق أمامه أيضا الرعب والفزع الذي ينتج عن اتحاد القوة مع كل من الانتظام الكامل والاعتدال من جانب السلطة الواعية .

وبالقرب من الكويع Kowey' اصطدم إبراهيم باشا بمواقع الجيش النجدي الأمامية أو أن شئت فقل الحامية الأمامية . كان الملك عبد الله قد أرسل مبعوثا إثر مبعوث لمهادنة الغازي أو تحاشيه ؛ ولكنه حصل على رد واحد على جميع العروض التي تقدم بها ، مفاده أن ذلك كله سوف يسوى "في الدرعية" . ولكن ابن سعود ، برغم كل عيوبه ، لم يكن جبانا ؛ فقد قرر أن يدافع عن مداخل جباله دفاعا ضاريًا ، ويكلف من يدخلها ثمنًا غاليًا . وسرعان ما اجتاحت الطوابير المصرية المواقع النجدية الأمامية ، واستطاع إبراهيم باشا بعد قليل من الاشتباكات الوصول إلى شقراء ، إحدى المدن التجارية مثلما هي عليه حاليا ؛ وفتحت شقراء بواباتها للباشا طواعية واختيارا . ولكن على بعد فراسخ قليلة من شقراء كانت تتمركز في القرين K.oreyn قوة نجد الرئيسة وعلى رأسها الملك عبد الله نفسه ؛ في حين كان الحارث ، الذي لا يقهر يتولى منصب القائد الثاني ، الذي ورد ذكره في الأثر على انه أشرس القادة الوهابيين القدامى والمحدثين قاطبة .

ودارت في القرين معركة ، أعادت إلى الأذهان تلك المعركة التي دارت بين خالد بن الوليد ومسيلمة . ويقال أن هذه المعركة دامت يومين ، وأن مدفعية الميدان المصرية حسمت تلك المعركة لصالحها في مساء اليوم الثاني . وقيل إن الحارث ومعه حَمَلَةُ الحراب اخترقوا صفوف العدو ، ووصلوا إلى الباشا نفسه ، ولكن عندما رفع النجدي

سيفه لينهي الحرب بضربة واحدة ، جاءه تركي من الخلف ، أثناء القتال ، وضربه بسيفه الضالع في خاصرته ، سقط الحارث على أثرها ، ميتاً من فوق حصانه ، ومع ذلك واصل رفاق الحارث القتال بلا خوف إلى أن فصل حلول الليل بين المتحاربين . ويقال أن أحلام إبراهيم باشا ، ظلت لفترة طويلة ، يسيطر عليها كابوس ذكرى ذلك الخطر المحدق الذى كاد أن يودى بحياة إبراهيم باشا فى ذلك اليوم ، وقيل أيضا أنه ظل ، طوال عدة سنوات ، بعد ذلك ، يصحو من نومه وهو يردد اسم الحارث .

وفى النهاية ، أدت المدفعية التى كان قد تم سحبها إلى إحدى المرتفعات الحاكمة ، الدور المطلوب منها . وانسحب عبد الله مع قواته المدحورة ، ليتخذ لنفسه مواقع فى الدرعية، وأصبح وادى حنيفة مفتوحا أمام المصريين . ويتقدم المصريون بحرص بالغ ، بعد أن نشروا بعض القوات لتأمين الطريق ، ويصلوا فى النهاية إلى أبواب العاصمة .

وجرى اقتحام الدرعية على الفور ، ولكن حاميتها صدت ذلك الهجوم . ونظراً لأن سياسة إبراهيم باشا بعيدة النظر ، كانت تتحاشى سفك الدماء ، فقد أصدر أوامره بعدم تكرار الهجوم ، واكتفى بتوزيع قواته من حول أسوار المدينة ، ليقطع اتصالاتها الخارجية ، وراح يدعو أهل المدينة للاستسلام . ولم يتجاوب أهل الدرعية مع نداءات إبراهيم باشا . وحاصر المصريون المدينة عشرين يوما دون أن يطلقوا أو تطلق عليهم طلقة واحدة ، والسبب أن الوهابيين قرروا المحافظة على قوتهم كاملة استعداد للهجوم الحاسم ، ولم يقوموا بأى هجوم ، أو الرد بأى شكل من الأشكال والتزموا الصمت إزاء نداءات إبراهيم باشا لهم بالاستسلام . وفى الوقت نفسه تجمعت قوة وهابية احتياطية فى سدير ، وتوجهت لفك حصار العاصمة . وعلم إبراهيم باشا بتحرك هذه القوة ، وأرسل مفرزة قوية لمواجهة تلك القوة والهجوم عليها ، والتقت هذه المفرزة مع تلك القوة فى سدوس ، وانتصرت عليها بسهولة ويسر ، وتشتت السدايرة ومعهم آخر آمال الملك عبد الله فى الإسعاف والمعاونة . وبعد ذلك ، وفى اليوم الحادى والعشرين ، أصدر الباشا للمحاصرين إنذاره الأخير بالاستسلام المشرف أو عن طريق الهجوم ، إيماناً منه أن سوء الطالع الأخير لابد وأن يكون قد أثر على كبرياء الملك النجدى ، وبالتالى يضطره إلى قبول العرض الرحيم المقدم من الباشا . ولكن الملك عبد الله ، لم يستسلم رغم كل ذلك ، وعاد المبعوث بلا أى رد أو جواب . وأصدر إبراهيم باشا أوامره بنصب المدفعية حول العاصمة .

ومع غروب الشمس بدأ ضرب العاصمة بالمدفعية ، واستمر القصف طوال الليل وحتى شروق شمس اليوم التالي . ويقال أن المدفعية ضربت العاصمة المتدينة بستة آلاف دانة وقذيفة ، في تلك الليلة . ويطلع النهار وقد انهارت الجدران ، والقذائف تنهال على أكوام الحطام التي انهارت على من ماتوا ومن لا يزالون يعانون سكرات الموت تحت أنقاض منازلهم التي تنهار عليهم ، وعلى الباقين على قيد الحياة الذين لم يعد لهم حول ولا قوة .

دخل إبراهيم باشا الدرعية بلا تفاوض أو معارضة . وكان همه الأول إلقاء القبض على عبد الله وأفراد أسرته ، وحاشيته والرؤساء والأعيان الآخرين الذين تجمعوا داخل العاصمة . وإذا كان الجنود قد قتلوا القلة القليلة التي قاومت ؛ فقد أحنت الغالبية رأسها امتثالا لمشيئة الله واستسلمت. وأسر إبراهيم باشا أيضا كلا من علماء الدين ، وكبار أفراد العائلة الوهابية الكبيرة ، كما أسر أيضا القاضي والإمام والمطوع وكل أولئك الذين كانوا يشكلون قوة تلك الجماعة العقائدية ووضعهم جميعا تحت حراسة مشددة . ثم أصدر الباشا عفواً عاما شمل بقيه السكان الآخرين ؛ وباستثناء ساعات تعد على أصابع اليد الواحدة ، من السلب والنهب ، أصدر إبراهيم أوامره إلى الجيش المنتصر بتجنب العنف بكل صوره وأشكاله . كما أصدر في الوقت نفسه أوامره بتشديد الحراسة على الشوارع التي تربط المدينة بالجبل ، ومراقبتها مراقبة جيدة . ولم تفلح في الهرب ، أثناء المراحل الأولى من الاستسلام ، سوى قله قليلة من المواطنين ، كان من بينهم الأمير تركي ، أكبر أبناء الملك عبد الله ، وولي عهده .

وبعد أن انتهى كل شئ ، وبعد التحوط من سكان المدينة الذين بقوا على قيد الحياة ، والتحوط من أخطار تشددهم ، لجا إبراهيم باشا إلى السهل الموجود خارج أسوار المدينة ونصب فيه خيمته ، وأصدر أوامره بإحضار عبد الله ومعه كل أقاربه . وبدون تهديد أو وعيد أو لوم قال إبراهيم باشا لـ عبد الله : "أنا خادم سلطان القسطنطينية ، وهو الذى سيقاضيك ، وليس أنا . وفي الوقت نفسه ، وانتظارا للمزيد من رضاه ، سوف تصحبني إلى مصر ، التي ستعامل فيها معاملة كريمة ؛ وبعد أن تصدر أوامر السلطان ، يتعين عليك الانصياع لها". ولم يجب عبد الله سوى بعبارة قرآنية واحدة والانصياع . وتصرف إبراهيم باشا بنفس الكياسة واللين مع بقية أفراد الأسرة المالكة، ومع كل أولئك الذين كانوا يقومون على أمر السلطة المدنية والعسكرية . ولم يقتل إبراهيم باشا أحداً منهم أو يسيئ معاملتهم طوال مقامه في نجد .

وفي الوقت الذى كان إبراهيم باشا يحاول فيه إلحاق قوة تلك البلاد الفطرية على حكومته ، كان يود أيضا ، وللأسباب نفسها ، استئصال ذلك التشدد الذى لا يناسب استقرار تلك الحكومة. إن القومية النجدية يمكن أن تقف إلى جانب النظام، والتجارة ، والتقدم ؛ ولكن التعصب النجدى يستحيل أن يفعل ذلك ؛ بل إن هذا التعصب سيظل بمثابة البذور الضارة للتمرد والعصيان اللذين لا ينتهيان . وهنا قرر إبراهيم باشا إنهاء كل ذلك مرة واحدة وإلى الأبد .

وبعد أن أمر إبراهيم باشا بوضع الأسرة المالكة وحاشيتها تحت الحراسة المشددة الكريمة ، أمر بإحضار المطوع ، وعلماء الدين ، وأساتذة الشريعة : ويقال أن عدد هؤلاء كان يزيد على خمسمائة فرد . وأبلغهم أنه يود تحديد الفروق الدينية التى بينهم وبين أتباع محمد (ﷺ) المعتادين وأن تناقش هذه الفروق وتدرس دراسة مستفيضة ؛ وأبلغهم أيضا أنه أحضر معه ، من أجل هذا الهدف ، علماء كبارا من علماء الدين فى مدرسة القاهرة ، وانه سوف يعقد فى الجامع الكبير مؤتمرا بهذا الخصوص ، وأنه سوف يحضر هذا الاجتماع ليرى ويستمع إلى ما يدور ويجرى حول هذه القضية .

وبطبيعة الحال فإن دعوة المنتصر لا ترد ولا يلتمس لها عذر وعليه بدا مجلس الرياض يستأنف جلساته ، ودامت هذه الجلسات ، إن صحت الرواية ، ثلاثة أيام ؛ ناقش أعضاء المجلس خلالها نقاط الخلاف مناقشة مستفيضة ، ومما لاشك فيه ، أن كل طرف من الطرفين حقق الانتصار الكلامى فى رأى مؤيديه ، وترأس إبراهيم باشا ، الذى لم يكن يهتم مثل جاليليو بهذه المشاعر ، هذه الجلسات ، وصبر عليها كثيرا ، بل إنه كان يصغى إليها باهتمام وصمت فى بعض الأحيان .

ولكنه فى اليوم الرابع ، وسواء أكان صبره قد أوشك على النفاذ ، أم لأنه كان يظن أن الجدل قد وصل إلى مرحلة تتطلب تدخله ، فقد طلب إبراهيم باشا الكلمة ؛ وبعد أن حصل من علماء الدين النجديين على الإعلان الدينى ، الذى يشيع بين من لا ينتمون إليهم ، والذى مفاده "بما أن هناك إله واحد ، فبالتالى لا بد أن يكون هناك أيضا إيمان واحد ، وان هذا الإيمان هو إيماننا" ، وكنتيجة منطقية لهذه المقولة يصبح الخلاص خارج نطاق حدودهم أمرا مستحيلا تماما ، ويواصل إبراهيم باشا جدله بلهجته العامية المصرية المعتادة ويقول :

"حسن ، وماذا تقولون عن الجنة أيها الخنازير ؟ ما هى حدودها ؟" وأتباع محمد (ﷺ) يجيبون عن هذا السؤال ، بإجابة واحدة فقط ، تتمثل فى كلام القرآن ، "جنة عرضها السماوات والأرض ، أعدت للمتقين" . وأجاب النجديون بالإجابة نفسها .

وكرر إبراهيم باشا الآية نفسها قائلا: تقولون "جنة عرضها السماوات والأرض !" وأردف قائلا : "وإنكم ، أنتم النجديون ، فى الوقت نفسه ، إذا ما دخلتم الجنة برحمة من الله ، فإن شجرة واحدة ، من أشجار بساتينها تكفى لتظلكم جميعا ! إذن لمن تكون بقيه الجنة ، جزاكم الله خيرا ؟"

ويصمت النجديون . وينادى إبراهيم باشا على الجنود الواقفين خلفه ويقول : "امسكوهم ، واقتلوهم" . ويتحول جامع الدرعية خلال دقائق معدودات إلى قبر دموى للمذهب الوهابى .

وأنا لن أقول هنا أن إبراهيم باشا تصرف تصرفاً سليما فى تلك المناسبة ؛ وإنما أؤكد أنه تصرف تصرفا حكيما ، مع هذه البلاد على أقل تقدير . فالتسامح مع الجماهير يكون من قبيل الصواب والحكمة[1] ؛ ولكن التسامح مع المتعصبين والمتحمسين والمسيئين ، ربما يكون من قبيل الصواب ، ولكنه بكل تأكيد ليس من قبيل الحكمة . وأستطيع أن أزيد هنا أن التشجيع الإيجابى المطلق للمناهج والعقائد التى تتعارض مع الهدوء ، والاستقرار والصحة والتقدم الوطنيين لا يكون من قبيل الصواب أو الحكمة ؛ وهذا الكلام ينطبق على الشرق بكل تأكيد . ولكن هيا بنا نعود إلى سياق موضوعنا .

بعد أن – وأنا هنا اقترض التعبير العربى – جعل إبراهيم باشا سكان الدرعية يتجرعون "كئوس حلاوته وكئوس مرارته" ، أقبل على فعل عمل بارز ، إن لم يكن فريدا بين أعمال كل من جاءوا قبله ومن جاءوا بعده فى الشرق ، إلا وهو التوحيد والدعم والتقوية بعد الغزو . قام إبراهيم باشا شخصيا بزيارة المناطق المجاورة ، وسار فى جميع الأماكن التى زارها ، على نفس الخط السياسى الذى انتهجه أثناء تقدمه من مكة ، والذى انتهجه أيضا فى العاصمة ، والدرعية ، كان يسترضى الرؤساء الوطنيين ويستميلهم ويعاملهم برفق ، هم وعامة الناس ، فى حين كان يلتزم الشدة والقسوة مع القائمين على إمبراطوريته العتيدة الدينية ، كما كان يعمل من أجل توفير النظام

(١) هذه النتيجة التى خرج بها المؤلف خاطئة مائة فى المائة ، لأن غزو الآمنين فى أوطانهم بغير حق جريمة فى الشرع ، وقتل المتمسكين بدينهم وبسنة نبيهم جريمة أكبر ، فإبراهيم باشا هو فى الحقيقة فئة باغية ، لأنه نازع الأمر أهله ، ولا تملك إلا أن تقول يرحم الله أهل الدرعية وأنزلهم منازل الشهداء المخلصين – (د. حلمى عبد المنعم)

والتقدم ، وسداد الحقوق ، وتحقيق العدل للجميع . ويجب ألا ينصرف ذهن القارئ إلى أننى أثنى ثناء خياليا على ذلك الباشا العظيم ، يجب أن يعلم القارئ إننى أعيد هنا ذلك الذى سمعته فى نجد ، وفى الأراضى التى غزاها إبراهيم باشا . وهناك نقطة واحدة فى إدارة إبراهيم باشا الحكيمة ، أعترف بأنى كنت شاهد عيان عليها وعلى النتائج التى ترتبت عليها . كانت هذه النقطة تتمثل فى اهتمام إبراهيم باشا اهتماما خاصا بتحديد النقاط القوية فى هذه البلاد وتحصينها تحصينا تاما ، وأنها عند المدخل الغربى لوادى حنيفة ، وفى حريملاء فى المرتفعات الوسطى فوق الدرعية ، وفى أماكن أخرى كثيرة . كما أرسى إبراهيم باشا ، فى الوقت نفسه أساس التقدم الزراعى ، بأن أمر بحفر آبار جديدة فى الأماكن التى يحتمل وجود الماء بها ولكنها لم تستغل بعد . وقد فشلت جهوده فى هذا الصدد ، فى تلك العملية كما سبق أن أوضحنا؛ وسوف نلاحظ تذكارا مماثلا من تذكارات المشروع المصرى فى وادى فاروق. وشاع فى الوقت نفسه استعمال الملابس الحريرية ، والخواتم الذهبية ، وانتشر استعمال التبغ فى نجد ، وجاء ذلك بمثابة دليل وبرهان محزن على ضعف البشر ، بمعنى أن السنوات المتواصلة من التقوى والتشدد الدينى لم تفلح تماما فى استئصال النتائج السيئة التى ترتبت على فترة قصيرة من الحرمان من الملذات والأهواء الذاتية .

انشغل إبراهيم باشا بهذه الأمور طوال عدة أشهر فى نجد ؛ وعند عودته إلى القاهرة اصطحب معه عبد الله والجزء الأكبر من أسرة ابن سعود ، علاوة على عدد كبير من الرهائن الذين اختارهم من بين كبار أعيان البلاد . وكان إبراهيم باشا ، يرمى من وراء ذلك الإجراء الذى لجأ إليه مؤخرا ، إلى هدف محدد ، يتمثل فى تنشئة رجال جدد ، لـ نجد ، يكون تعليمهم أفضل ، ورؤاهم أوسع من ذلك التعليم الذى تتيحه لهم بلادهم ، وبذلك يكون إبراهيم باشا قد مهّد الطريق أمام هذه البلاد للمضى قدما على طريق التقدم الحقيقى والمستمر . وخابت آمال إبراهيم باشا نتيجة لحماقة وعجز أولئك الذين جاءوا من بعده ، وعناد الشخصية النجدية من الناحية الأخرى . وبعد أن غادر إبراهيم باشا الدرعية ، خلّف وراءه ، مثلما تفعل تلك القلّة القليلة من الغزاة مع الشعوب المغزوة ، إحساسا بالثقة ، والانتماء ، والخوف ، الممزوج بالإعجاب القائم على الاحترام ؛ وإلى يومنا هذا ، لا يزال اسم إبراهيم باشا واسم عائلته شائعا فى كل أنحاء وسط الجزيرة العربية بين جميع سكانها ، باستثناء أولئك الذين يبالغون فى تعصبهم وفى تشددهم ، ويخشون حدوث زيارة مصرية ثانية يعقبها انعقاد مؤتمر عقائدى من قبيل المؤتمر الأول الذى انعقد فى جامع الدرعية الكبير .

وعندما غادر إبراهيم باشا نجد، ترك واحداً من ضباطه ، اسمه إسماعيل باشا ، ليقوم بدور النائب المُنَاب في هذه البلاد . وشغل إسماعيل باشا ذلك المنصب طوال عامين ، زار خلالهما الاحساء ، التي فرحت فرحا عظيما لتخليصها من نير الوهابيين ، كما زار أيضا كلا من اليمامة ، والحريق والقصيم ، وراح يوزع الحاميات المصرية في كل مكان. ولكن إسماعيل باشا، بدأ ، على العكس من ولد محمد على ، يشبع رغباته ، وسمح لضباطه بأن يشبعوا رغباتهم من منطلق أنهم غزاة ، الوهابية إلى أن أدت هذه الصلافة وذلك القمع إلى إحياء الكراهية الوطنية القديمة - التي كانت قد هدأت مؤقتا بفعل اعتدال إبراهيم باشا وأضرت بالأسس التي تقوم عليها الحكومة المصرية - العربية .

وعلى أية حال ، لم تحدث خلال هذين العامين ، اضطرابات مهمة ذات بال ، ويعود إسماعيل باشا إلى مصر ، بعد انتهاء العامين ، بعد أن ترك وراءه خالد باشا ، في منصب الحاكم . واتضح أن الحاكم الجديد أكثر استبدادا وأشد قسوة من إسماعيل باشا نفسه . وقد أدت عقوبتا الإعدام على الخازوق والإعدام بالحرق ، اللتان أدخلهما خالد باشا إلى نجد ، إلى تفاقم غضب السكان واستيائهم إلى الحد الذي جعلهم مستعدين للإطاحة بذلك الاستبداد والطغيان المصري . ولم يكن هؤلاء السكان يفتقرون إلى الوسائل أو الرجال اللازمين لتحقيق هذا الهدف .

سبق أن قلت : أن تركياً ، ولد الملك عبد الله ، كان قد أفلح (وأنا هنا أكرر ما قيل لي) في الهرب من الدرعية لحظة الاستيلاء عليها . وهرب تركي إلى سدير ، ونظرا لأنه يئس من العودة إلى بلاده واستعادة العرش طوال وجود إبراهيم باشا وخلفه إسماعيل باشا في نجد ، فقد أمضى عدة سنوات من حياته جائلا على الحدود الخارجية للبلاد . وأخيرا وصل تركي إلى البصرة ، وبقي فيها ، أو في المناطق المجاورة لها متنكرا فترة من الزمن . في الوقت نفسه ، كانت كل الأخبار التي تصله تبدد كل آماله المستقبلية . وفيما يتعلق بوالده، الملك عبد الله ، فقد استدعاه السلطان ، بعد فترة أسر قصيرة في مصر ، (عامله محمد على خلالها معاملة طيبة) إلى القسطنطينية ، التي أعدمه فيها فور وصوله إليها . كما أمر السلطان أيضا بإيداع كل إخوانه وأقاربه ، مع من بقوا على قيد الحياة من العائلة الوهابية القديمة ، وكثيرا من الرؤساء ، البارزين في السِّجْن المشدد في مصر . ولم يعلن ، أي رد فعل ، عن نفسه في نجد أو المناطق التابعة لها حتى ذلك الحين ؛ بينما راحت الحكومة المصرية تحكم قبضتها يوما بعد يوم على وسط الجزيرة العربية .

وفي ضوء الأخبار التي ذاعت عن قسوة خالد باشا وظلمه ، تعلم تركي كيف يتطلع إلى إحياء تلك المشاعر العربية القديمة ، التي لا يمكن أن تخمد إلى الأبد بأي حال من الأحوال ، برغم أن التصرفات الحكيمة من جانب المصريين قد تؤدي إلى التقليل من خطورة اندلاع الثورة . كانت نجد تشعر بالقلق ، وبحاجة إلى زعيم . كان ولد مليكها الذبيح ، الوريث الشرعي للعرش ، ما يزال طليقا على قيد الحياة ، ولكنه كان في المنفى . وأرسلَ المبعوثون إلى تركي ، الذي كان قد وصل إلى حدود سدير ؛ ولم يتردد الأمير المنفي لحظة واحدة في قبول الدعوة التي وجهها إليه رعاياه . وسرعان ما أعلنت عصابات السلب والنهب ، التي كانت تنزل من جبل طويق ، هي والهجمات المفاجئة التي كانت تشنها على المواقع المتقدمة المصرية ، عن وجود الأمير تركي على حدود وادي حنيفه .

وأدى تغير الأحوال إلى إرباك خالد باشا ؛ وسمح خالد باشا في البداية بتقسيم قوته ، مما أدى إلى تبديدها في حرب العصابات ، التي كانت طبيعة الأرض ، ومساندة القرويين ، والسكان الوطنيين ، والإرادة القوية كلها لصالح الأمير تركي . وزادت خطورة الموقف يوما بعد يوم ، إلى أن حدثت في النهاية انتفاضة عامة بين النجديين ، الذين كانوا قد تعلموا ليس كراهية سادتهم المصريين فحسب وإنما احتقارهم أيضا . واشتعلت المنطقة كلها من القصيم حتى شواطئ الخليج الفارسي . وهاجم الناس الحاميات الموجودة في كل من الاحساء ، واليمامة ، والحريق وذبحوا أفرادها ، ولم ينج من الجنود سوى قلة قليلة ، عن طريق تعاطف الأفراد معهم ، وأفلحت قلة قليلة أخرى في الهرب . وخشي خالد باشا ، وكان محقا في ذلك ، أن يجد نفسه ، خلال فترة وجيزة ، معزولا عن مصر ومحاصرا في وادي حنيفه . وهنا انسحب خالد باشا ومعه البقية الباقية من قواته إلى منطقة القصيم ؛ ونزل الأمير تركي إلى الوادي الأوسط الكبير ، ونادى به الجميع سلطانا على نجد ومجددا للإمبراطورية الوهابية .

كان هم تركي الأول اختيار عاصمة جديدة ، نظرا لان حطام الدرعية المخضب بالدم وكذلك ذكريات الهزيمة تجعل هذه المدينة غير صالحة لإحياء أسرة مالكة جديدة وسطوع نجم جديد . وبحس سياسي سليم ركز تركي اهتمامه على الرياض ، مركز نجد قديما أيام مسيلمة ، والتي حمتها السماء حتى من سيف خالد بن الوليد[1]

(١) كيف ذلك وقد انتصر المسلمون على بني حنيفة وقتل مسيلمة وأعمل المسلمون السيف في المرتدين أتباع مسيلمة حتى تم لهم النصر ، وعلا الحق ، وأندثر الباطل ومات مسيلمة مقتولاً في المعركة - (د. حلمي عبد المنعم) .

يضاف إلى ذلك أن الرياض كانت تصلح من جميع النواحي لأن تكون العاصمة ، فضلا عن إنها تقع وسط رقعة من الأرض التى تتمتع بخصوبة غير عادية ؛ والعيب الطفيف الذى يتمثل فى عدم صحية مناخها يمكن التغاضى عنه فى ظل اعتبارات وحسابات أخرى يأخذها السياسى العربى بعين اعتباره . وفى مدينه الرياض ، أسس الأمير تركى بلاطه الملكى ، وبدأ فى تشييد ذلك القصر الكبير الذى يسكنه حاليا ولده فيصل . ثم بدأ بعد ذلك فى تحصين المدينة ، وإنشاء المسجد الكبير ، أو إن شئت فقل الجامع . ونظرا لأن الأمير تركى ، كان يعى تماما أن التحمس للدين كان بمثابة المصدر الرئيسى لحكمه فى نجد ، وكان الذريعة الوحيدة التى تذرعت بها تلك الغزوات الاجنبية التى فكر فيها الأمير تركى وتأملها تأملا جيدا ، فقد راح يكشف عن نفسه ، فى جميع المناسبات ، على أنه المجدد الغيور على مذهب والده ، والباعث الجديد لامبراطوريته .

واعترف الناس بسلطة تركى كسلطان (يندر استعمال مصطلح الإمام ، نظرا لكونه عرضة للغموض والمواربة ، وينطبق على المسجد أكثر من العرش) فى كل أنحاء العارض والوشم ، وسدير ، والافلاج ، إلى ، الحريق ، وفى وادى الدواسر ، وفى كل أنحاء المنطقة الوسطى على سبيل الاختصار . ولكن القصيم : العليا والسفلى ، كانت لا تزال فى قبضة خالد باشا ، فى حين انضمت التوابع الموجودة فى شمالى القصيم وغربها إلى السلطان الوهابى . وكانت الاحساء والقطيف قد طردتا الطغاة المصريين ، ولكنهما لم تكونا على استعداد لاستقبال حكام نجديين يحلون محل المصريين ؛ وراح الرؤساء الوطنيون يستأنفون من جديد سلطتهم السلفية على أراضى هاتين المنطقتين الخصيبتين . وفى النهاية كانت عمان قد عادت إلى سيادة سلطانها سعيد بن سعيد .

وبدأ تركى بداية حكيمة بأن أعاد تنظيم كلا من الإدارة المدنية والإدارة العسكرية داخل نجد نفسها ، ولكن أثناء انشغال تركى بهذه الأمور ، وقبل أن يحاول إخضاع مناطقه المتناثرة ، هبت عليه عاصفة جديدة من ناحيه الغرب ، التى أرسل محمد على منها جيشا جرارا بقيادة حسين باشا ، لاستعادة أملاك مصر فى الجزيرة العربية .

ونظرا لعدم قدرة ولد عبد الله على صد الهجوم الذى شنته القوات النظامية ، فقد قرر الانتظار والاستفادة من الأخطاء التى يقع فيها عدوه . وهرب تركى من الرياض ، ولجأ مع أنصاره الرئيسيين ، إلى مرتفعات طويق ، فى المنطقة خلف

حريملاء ، ومن هذه المنطقة راح يراقب تقدم المصريين خلال الوديان الجنوبية . وحقق حسين باشا نجاحا كاملا في فترة من الفترات ، وفتحت له المدن والقرى أبوابها ، واستسلمت له الحاميات النجدية أو تشتتت . وتجمع بعض الهاربين من حول تركي في الجبال ؛ وعبر بعض آخر من الهاربين وبأعداد كبيرة ، منطقة اليمامة ، وركزوا قوتهم في منطقة الحريق التي كانت تضمر ألد العداء للحكم المصري .

وفي الوقت ذاته ، وفي غياب مقاومة تركي ، قام حسين باشا باحتلال الرياض ، وجزء كبير من وادي حنيفه ، وربما استطاع ذلك منذ فترة طويلة لو أنه كان قد تصرف تصرفا حكيما . ولكن تعجل حسين باشا جعله يسارع إلى سحق المعارضة كلها منذ البداية ، كما تهور أيضا وسارع بالهجوم على الهاربين في منطقة الحريق ، مبقيا على تركي وسدير لحين عودته .

وتلى ذلك ، وقوع عمل من أعمال الخيانة المدروسة غير الشائعة في نجد على الإطلاق ، ويندر أن تحدث في بقية الجزيرة العربية ، ويصعب تبريرها حتى من منطلق قضية الاستقلال والتحرر الوطنيين . فقد كان من الطبيعي للجيش المصري ، أن يتخذ لنفسه مرشدين ، قبل أن يصل إلى الحريق ، يدلونه على الطريق ، وبخاصة أن الجيش كان سيتعين عليه عبور ذراع من أذرع الصحراء الكبرى ، وهو بالتحديد ذلك الذراع الذي يفصل الحريق عن اليمامة ، وينتهي في وادي سليع ناحية الشمال . وبحث حسين باشا عن مرشديين له ولجيشه ؛ ولكنه عثر على خونة .

وتحت ذريعة إرشاد المصريين خلال مسارات وطرق أقصر وأمن ، ضيَّع النجديون المصريين وأضلوهم خلال الكثبان الرملية الموجودة في جنوب غربي الحريق ، وتركوهم يموتون من العطش في تلك المتاهة الحارقة . الواقع ، أن المصريين هلكوا جميعا ؛ وعندما عبر القرويون ، الذين كانوا على بعد مسير ساعات قلائل عن مكان الحادث ، سلسلة التلال الرملية ليشاهدوا عمل الموت ، لم يجدوا (روى لي هذه الحكاية شاهد عيان) سوى جثث ، تتشنج وتتلوى من سكرات الموت عطشا ومن اليأس . وأحصى القرويون عدد أولئك الموتى ووجدوا أنهم يزيدون على أربعة آلاف . وهناك رواية تقول إن جثة حسين باشا كانت بين الضحايا ؛ وهناك رواية أخرى ، وهي الأكثر احتمالا ، تجعل حسين باشا يهرب ومعه الاحتياطي الرئيسي الذي كان قد تركه في اليمامة ، التي انسحب منها إلى القصيم ، ثم بعد ذلك إلى مصر .

وبعد أن تخلص تركي من الغازى ، على هذا النحو ، ظهر ثانية فى الرياض ، واعتلى عرش مملكته عدة سنوات دون أدنى تحرش من مصر أو من أى مكان آخر . أما فيما يتعلق بالحملة التى نظمها وشنها على الاحساء ، وفيما يتعلق باغتياله بيدى مشارى ابن عمه ، وفيما يتعلق بالدور الذى لعبه عبد الله بن الرشيد في الاقتصاص من المغتصب ، وأيضا ما يتعلق بتنصيب فيصل ملكا على العرش الذى خلى بوفاة والده ، فقد أوردت كل ذلك بصوره مفصلة في الفصل الثالث من هذا الكتاب ، ولذلك فأنا أحيل القارئ الكريم إليه.

كان فيصل عندما اعتلى العرش وقمة السلطة بهذه الصورة المفاجئة يبلغ من العمر حوالى ثلاثة وثلاثين أو أربعه وثلاثين عاما . ومع أن الأحداث أخذته على حين غرة إلى حد ما ، إلا أنه كان لديه من الصفات والخصائص ما يجعله قادرا على تحمل صعاب منصبه الجديد . فهو من حيث صفاته الشخصية كان شبيها لوالده تركى أكثر من جده الملك عبد الله. كما كانت ميوله طبيعية ومحببة إلى النفوس، كما كان حصيفا ، وحذرا بشكل مبالغ فيه ، ومعتدلا فى آرائه ، وموهوبا في بعد نظره وبصيرته ، وواسع الأفق ، طليق اللسان ، مظهره يسترعي الانتباه ، أي أنه كانت فيه خصال كثيرة استحوذت على حب وولاء رعاياه له ، إضافه إلى أن تلك الخصال كانت تبشر أيضا بحاكم جيد وقوى . ولكن تعليمه الوهابى ، وتعصبه المذهبى ، وتأثير ذلك الذى يمكننى أن أطلق عليه ، برغم أن ذلك لن يكون بدون تلميح أوربى بعيد ، اسم الحزب النجدى الدينى الأعلى High orthodox Nejdean party ، وقد تضافرت كل هذه المزايا على تبديد تلك الآمال الجميلة إلى حد بعيد . وأدى تقدم الملك فيصل فى السن إلى ترسيخ آثار التعصب الوهابى أكثر فأكثر ؛ وانتهى الملك فيصل فى سنوات حياته الأخيره إلى أن أصبح مجرد أداة فى أيدى كل من مستشاريه ضيقي الأفق وولده العنيف ، الذى كان يحكم المملكة باسم الملك القديم ، ويستمد من ضعف شيخوخة والده موافقة سهلة على أشد أنواع القمع وأفظع الجرائم . ومع ذلك ، كانت تلوح بين الحين والآخر ، بوادر طيبة ، خلال سحب الحكم المطلق والفساد الشديد الذى كان يحيط بأواخر أيامه ؛ وربما كانت تلك البوادر إشارة طيبة إلي أن ولد تركي ربما يصبح ملكا ممتازا لنجد على أقل تقدير ، إذا ما تهيأت له ظروف أخرى ، وتعليم أفضل ومستشارين أفضل أيضا .

وبعد أن نودى بفيصل سلطانا على نجد ، كرس نفسه لاستعادة النظام فى المناطق الوسطى ، التى انتشرت فيها الفوضى عقب وفاه الملك تركى ، واغتصاب مشارى العرش . ولم يسعفه الزمن بأكثر من ذلك . والسبب فى ذلك ، أن الحاكم المُنَاب المصرى ، استغل تلك الفرصة المواتية ليثأر ، من ناحية ، للهزيمة التى نزلت بالمرحوم حسين باشا ، ويعيد تأكيد سلطته على وسط الجزيرة العربية من الناحية الأخرى . ولذلك أرسل الحاكم المناب ، قائدا جديد اسمه خورشيد باشا ، ومعه قوات كبيرة إلى نجد . وكانت القصيم طوال تلك الفترة فى يد المصريين ، ولذلك فقد وفرت للمصريين دخولا آمنا إلى وادى حنيفه خلال فترة وجيزة وانقض خورشيد باشا على الملك الجديد على حين غره ، وأفلح فيصل فى الهرب إنقاذا لنفسه ، وتم أسر العديد من أفراد الأسرة المالكة وأرسلوا من جديد إلى القاهرة ، ونصَّب خورشيد باشا شخصا يدعى خالدا ، سلطانا بديلا على عرش نجد . وخالد هذا ليس حفيدا من أحفاد عبد العزيز ، وإنما هو حفيد من أحفاد واحد من إخوانه ، ضاع اسمه من ذاكرتى ؛ ثم عاد خورشيد باشا بعد ذلك إلى القصيم، التى كان مناخها يناسبه أكثر من مناخ العارض.

وانتهز فيصل ، بعد أن طرد من عاصمته الفرصة كى يتفرج على العالم ، لأنه لم يكن ميالا ، إلى شن حرب عصابات على الغزاة ، مثلما فعل والده ؛ وبعد أن أدى فريضة الحج - متنكرا بطبيعة الحال - اتجه شمالا إلى دمشق ، وزار المسجد الأقصى فى القدس ، كما زار أيضا كثيرا من مدن الساحل السورى . والمؤسف أن الملوك المنفيين يندر أن يستفيدوا من ترحالهم فى الخارج ، وأنا لا أستطيع أن أقطع إن كان ذلك راجعا إلى أن أذهانهم تكون مشغولة بالأضرار الحقيقية أو غير الحقيقية التى لحقت بهم ، أو إلى تلك العبقرية الشريرة التى لازمتهم يوم أن كانوا على العرش ولا تزال تصاحبهم خلال أسفارهم ؛ ولكن هذا هو واقع الحال فى أغلب الأحيان ؛ وأصدق مثال على ذلك هو أمل دايونيسيوس Dionysius من الزمن القديم ، وشارل الثانى من القرن السابع عشر ، وكومت دارتوا Comte d'Artois فى عصرنا الحالى ، لم يعد أحد منهم إلى وطنه سيراقوصه Syracuse ، أو لندن ، أو باريس وهو أكثر حكمة وتعقلا مما كان عليه قبل أن يترك بلاده . إنّ واحدا فقط ، وهو من المحدثين ، هو الذى استفاد من دروس المحنة ، تلك الاستفادة التى حولته إلى إمبراطور . وهذا استثناء شاذ تماما ، بل أنه أكثر شذوذا بسبب ندرته .

ولكن دعونا نعود إلى فيصل مرة ثانية . فقد استطاع سد العجز والقصور فيما يتعلق بالتعصب عن طريق الارتواء من مياه زمزم المعدنية من ناحية وعن طريق الارتواء الروحي من المحاضرات التي كان يلقيها علماء المذهب الحنبلي والمذهب الشافعي في دمشق من ناحية أخرى . وقد دامت هذه العقبة التي حالت دون تحول النجدى إلى وهابى ، عامين تقريبا . ثم وصلت فيصل بعد ذلك معلومات تطلب إليه أن يعود إلى حدود نجد . كان خالد الذى بدأ يضيق ذرعا بمركزه الزائف الغريب كمجرد أداة مصرية – وهو أحد أبناء سعود ووهابى خالص – وبدأ يعرب عن رغبته في التخلى عن منصب الحاكم المناب غير الآمن الذى لا يحسد عليه . لقد كان خالد بحق شخصا هادئا وعاقلا ، وبرغم أن مواطنيه كانوا يحترمونه حبا في أسرته إلى الحد الذى جعلهم لا يتألبون عليه ، إلا أنهم كانوا يتعاطفون معه في قلقه واضطراب مشاعره ، وساندوه في طلب إعفائه من منصبه . ويظهر فيصل على الحدود من جديد ؛ وينسحب خالد إلى القصيم ، ومنها إلى مصر ، وبعد أن قضى عدة سنوات على ضفاف النيل ، عاد إلى مكة التى عاش فيها حياة هادئة وعامرة بالاحترام ، إلى أن حظى في العام ١٨٦١ الميلادى بامتياز يندر أن يحدث في أسرته ، الوفاة الطبيعية في فراشه . ويُنَصَّبُ ولد فيصل نفسه مرة ثانيه مكان والده في قصر الرياض ، دون مصاعب أو معارضة .

ولكن خورشيد باشا ، لم يكن موافقا على التزام الصمت إزاء التغييرات التى كانت تحدث على العكس مما يريد . وعن طريق المناورة المفاجئة ، طوّق خورشيد باشا عاصمة العارض وأجبر فيصل على الاستسلام نزولا على رغبته ، ثم أرسله بعد ذلك مباشرة إلى مصر ، لا كسائح وإنما أسير . وأمر محمد على بوضع الأمير المخلوع تحت الحراسة المشددة في قلعة تقع في المنطقة بين القاهرة والسويس ، التى بقى فيصل محصورا فيها إلى أن توفى محمد على باشا .

وفى الوقت نفسه نصَّب خورشيد باشا ، ابن ثنيان ، أحد أبناء عم خالد ، وحفيدا أيضا من أحفاد عبد العزيز بن سعود ، نصبه حاكما منابا على نجد . كان ابن ثنيان ، الملك الجديد أو بالأحرى الإقطاعي الجديد ، على العكس من خالد ، سعوديا خالصا ، تأصلت فيه كل خصال العرق الملكى النبيلة ، وكل الخصال السيئة أيضا . كان ابن ثنيان أنيقا ، كريما ، جسورا ، بعيد النظر وطويل اليد ، فقد كان ينتمى إلى طائفة الرجال "الدمويين المخادعين" ، الذين يندر ، سواء أكانوا في عصر داود أو في

عصرنا ، أن "يعيشوا نصف حياتهم" . وما أن تولى ابن ثنيان العرش حتى بدأ يحكم المملكة بطريقته الخاصة ، دون الاعتماد بشكل كبير على راعيه المصرى . وكان أول عمل جيد يقوم به ابن ثنيان ، هو قمع البدو ، الذين كانوا قد استعادوا خلال تلك الفترة المضطربة سطوتهم ووقاحتهم القديمة . كانت مطير وعتيبه أكبر وأقوى قبيلتين بين بدو نجد ؛ ولكنهم لُقِّنوا درسا فى تحاشى سيف ابن ثنيان والخوف منه واعترفوا به ملكا . وبعد أن انتصر ابن ثنيان على البدو ، قام بإخماد تمرد قام به سكان وادى الدواسر الهمجيين . ويقال إن مشاهد القتل الذى دار فى وادى الدواسر ، كانت تعيد إلى الأذهان مشاهد الرعب الذى حدث على يدى كل من جلينصو Glencoe وأركوت Arcot ، ومع ذلك فقد كانت تلك الأعمال ضرورية للبلاد ومن مصلحتها . وأكمل ابن ثنيان أيضا كثيرا من الأعمال المعمارية التى كان الملك تركى قد بدأ يقيمها فى العاصمة ؛ ووسع ابن ثنيان قصر الرياض ، وشيد مبانى داخل أفنيته ، كما خاطر ابن ثنيان أيضا ، بإقامة مخزن البارود الحالى والترسانة الحالية داخل القصر أيضا .

كان النجاح والسلطة سموم شخصيته المتكبرة ، ولذلك بدأ يستبد برعاياه ؛ وجدد ابن ثنيان قسوة خالد باشا ، وكان يعدم على الخازوق دون محاكمة أولئك الذين كانوا يغضبونه أو يستفزونه على أى نحو من الأنحاء . ومن ثم فان أذهان رعاياه ، الذين كانوا قد رضوا عنه فترة من الوقت بفعل مظهره الأنيق ، وكرمه الحاتمى ، وحيويته الدافقة ، واستقلال حكمه ، إلى حد ما ، عن الحكم المصرى ، بدأت تنصرف عنه فى النهاية ؛ وتوترت الحبال بين ابن ثنيان ورعاياه وأوشكت أن تتقطع بفعل الضربة الأولى .

كان ابن ثنيان قد مضى على حكمه فى نجد خمس سنوات عندما مات محمد على، الذى خلفه حفيده المعتوه عباس باشا . وقد سبق أنْ أفضت فى شرح خطط ذلك الداعر المجنون الخاصة بالجزيرة العربية ؛ وما أن وصل عباس باشا إلى العرش حتى خطى الخطوة الأولى فى تنفيذ خططه الخاصة بالجزيرة العربية ، وتمثلت فى إطلاق سراح فيصل ورفاقه وتحريرهم من الأسر . ونظرا لتخوف عباس باشا من أن يفعل هذا العمل علانية دون الحصول على إذن من القسطنطينية ، الذى كان يعلم أنه لن يحصل عليه أو يجرؤ على طلبه ، فقد لجأ إلى تنفيذ هذا العمل الأحمق عن طريق المكر والخداع ، بأن قلل عدد حراس القلعة وأبعدهم عنها ، وزود الأسرى بالحبال والوسائل

الأخرى التي تمكنهم من الهروب . ويحصل الأسرى على هذه الحبال والوسائل ، ويتسلقون جدران القلعة في إحدى الليالي المظلمة ، ليصلوا بعد ذلك إلى القصير على وجه السرعة ، وفيها يحمدون الله ويشكرونه ، مثل الوهابيين المخلصين ، ويسخرون من عباس باشا .

ومن القصير ، أرسل فيصل جواسيسه تتحسس له طريقه إلى العرش مرة ثانية . ولم ينتظر فيصل في القصير وقتا طويلا ، وما أن علم الناس في نجد ، بإطلاق سراح فيصل مرة ثانية ، حتى انهالت عليه في القصير الدعوات وعروض الولاء. وقال الناس : إنَّ خورشيد باشا وابن ثنيان مكروهان ؛ وإذا ما عاد فيصل فإن الناس سوف تنضم تحت لوائه . وفي الوقت نفسه أدرك الباشا المنحوس الخطر المحدق ، وحاول دون جدوى أن يطلب من عباس باشا تزويده بالمساعدات والإمدادات ، ولكن عباس باشا كان قد صمم على خيانة قضيته وخادمه . وبعد أن فقد خورشيد باشا الأمل في وصول أي شئ من القاهرة ، وجد أن من الحكمة أن يجلوا عن القصيم ويخليها قبل أن تثور عليه المنطقة ؛ وبذلك ينتهي الحكم المصري في الجزيرة العربية ، بعد أن دام سبعةً وعشرين عاما متصلة .

وبعد أن ترك خورشيد باشا أهل القصيم لحال سبيلهم أيقن كبارهم وصغارهم ، والرؤساء وعامة الناس ، أنهم سئموا مقام الأجانب الطويل في بلادهم ، وبدءوا يبعثون إلى فيصل رسائل يستحثونه ويرجونه فيها أن يكون ملكا وسيدا عليهم . ومن واقع الأحداث التي أوردتها في الفصول السابقة ، فإن القارئ الكريم ، يعرف أنَّ تصرفاً كهذا ، إنما يثبت القصة القديمة التي تدور حول الأشجار وشجرة العُلّيق . ولم يتردد فيصل في قبول هذا العرض ؛ وأبحر من القصير إلى ينبع ، ليظهر فجأة ، في منطقة القصيم ومعه بعض أتباعه . وأحاط حماس أهل القصيم الدافق (الملك) فيصل بعدد كبير من الاتباع وجيش كبير . ونظم فيصل هؤلاء الاتباع وذلك الجيش ، وتقدم بجيشه وأتباعه إلى مدينه شقراء ؛ ومن شقراء أرسل مبعوثا إلى ابن ثنيان ، يطلب إليه تسليم التاج إلى صاحبه الشرعي .

ولم يكن ابن ثنيان من أولئك الرجال الذين يتنازلون عن أشيائهم من الوهلة الأولى . فقد عقد اجتماعا لرؤساء نجد المحليين ، وطلب منهم أن يساندوه ويؤيدوه . ولكنهم ردوا عليه على مرأى ومسمع منه ، بأن أحدا منهم لن يرفع إصبعا واحدا تأييدا لقضيته ؛

وتنفيذا لما قالوه انصرفوا عنه واحدا بعد الآخر لينضموا إلى فيصل فى القصيم ، وبقيت مع المغتصب مجموعة منتقاة من الأتباع الموالين له ، قادها واتجه بها إلى شقراء لملاقاة خصمه وغريمه . ولكن مع اقتراب ابن تركى ، بدأ الهروب يعمل عمله بين أفراد حاشية ابن ثنيان الذى اضطر إلى العودة، بدون قتال ، إلى الرياض ، التى يئس فيها ، وحصن نفسه فى القصر ، ومعه البقية الباقية من أولئك الذين حافظوا على ولائهم لمليكهم التعيس المذنب .

ويدخل فيصل الرياض ، ويطلب من ابن عمه الاستسلام المشرِّف ، ويعده بالحفاظ على حياته وإطلاق حريته ، ولكن ابن ثنيان رفض التنازل عن منصبه ، وأصر على موقفه نظرا لأن المدفعية الوحيدة فى الرياض كانت فى حوزته وتحت إمرته وداخل القصر . ونظرا لأن فيصل لم تكن لديه ماكينات حصار من هذا القبيل ، فلن يخاطر هو وأتباعه بالهجوم على أسوار القصر السميكة المحروسة حراسة جيدة ؛ ولم يكن أمامهم من شئ سوى محاصرة القصر . وعلى امتداد شهر كامل كان هناك ملكان فى نجد ، أحدهما داخل القصر ، والثانى خارجه . ويكرر ولد تركى نداءه بالاستسلام والعفو يوما بعد يوم ، ولكن دون جدوى ؛ وفى النهاية يعلن ابن ثنيان انه على استعداد للتنازل عن العرش نظير الحفاظ على حياته فقط .

وفى إحدى الأمسيات ، أى بعد غروب الشمس بوقت قصير ، وصل المغتصب المُحَاصَر ، أثناء تجواله مكتئبا خلال ممرات القصر ، إلى فتحة جانبية تطل على غرفه صغيرة ، كان يجلس فيها بعض أفراد حاشيته ويدور بينهم حديث خطير . ويقترب ابن ثنيان من الفتحة ليصيخ السمع ، ولكنه ، مثل سائر المتنصتين ، لم يسمع خيرا . إذ كان الخطاب يدور على النحو التالى – أن الله قد تخلى عن حفيد عبد العزيز ، وأن الوقت قد حان ليرضخوا هم أنفسهم إلى مشيئة العناية الالهيه ، وأن يفتحوا أبواب القصر ليسمحوا بدخول فيصل ، ويحصلون على عفوه ومكافأة منه عندما يقدمون له رأس غريمه . وهنا أدرك ابن ثنيان أنه لا يمكن أن يثق بحاشيته بعد كل ما سمعه – لقد ضاع كل شئ ، وتحت ستر الليل ، يمرق ابن ثنيان من الباب السرى ويهرب من القصر . وبعد أن أضناه اليأس ، وبدلا من أن يلوذ بالأمن فى مكان بعيد ، اتجه إلى منزل أحد الأعيان الأثرياء ، اسمه ابن سويليم ، الشخص نفسه الذى ضربه المطيعية بعد ذلك بعدة سنوات ، ضربا أفضى إلى موته ؛ ويجلس ابن ثنيان فى قهوة ابن سويليم ، وقد وضع غترته على وجهه .

ويتعرف المضيف ضيفه ويتعجب متسائلا : "ابن ثنيان ؟" ويتحول الصمت إلى أبلغ دليل . ويردف ابن سويليم قائلا : "هل جئت تطلب حمايتى ؟" والسبب فى ذلك أن طبيعة "المجير" فى الجزيرة العربية تبلغ من القداسة والتقدير مبلغا يجعله يجير ابن ثنيان ولا يتخلى عنه . ولكن ابن ثنيان المنكوب يرد عليه متهورا من فرط يأسه قائلا : "لا" . ويسأله رب البيت قائلا : "إذن ، ما الذى جاء بك إلى هنا ؟" إن كلمة واحدة كانت كفيلة بضمان أمنه وسلامته ؛ وظل ابن ثنيان صامتا . وكرر رب البيت السؤال على ابن ثنيان مرة ثالثة ولكن دون جدوى .

وتأسيسا على هذا الرد أبلغ ابن سويليم الملك فيصل أن غريمه موجود تحت سيطرته . وأوفد فيصل جنوده على الفور إلى منزل بن سويليم ؛ والقوا القبض عليه فى المكان الذى كان يجلس فيه بلا حراك ، وأحضروه أمام الملك الشرعى . وسأله فيصل "هل جئت تطلب منى أن أجيرك ؟" ولو رد ابن ثنيان قائلا : "نعم" لأنهى بذلك كل الحقد والغل ؛ وسواء أكان ذلك كبرا أم إحساسا بالذنب ، أم شعورا بالدمار فقد رد ابن ثنيان على فيصل : "بلا" وينظر فيصل إلى كل الحاضرين من حوله ويقول : اشهدوا يا جميع الحاضرين ، أن الله قد سلمه لى بلا قيد أو شرط " . ويستولى فيصل بعد ذلك على القصر المفتوح بطريقة سلميّة ، ويودع ابن عمه المنحوس "زنزانة الدم" ، ليموت فيها بعد أيام قلائل يأسا وكمدا كما يقول البعض ، أو بدس السم له بأوامر من فيصل كما يقول البعض الآخر ، وهذان الاحتمالان واردان . وقبر ابن ثنيان يقع بالقرب من قبر تركى فى المقبرة الكبيرة ؛ ولا يزال بعض من أبنائه يعيشون فى الافلاج ، التى لا تبعد سوى مسير أيام قلائل عن العاصمة .

وبذلك يصبح فيصل ملكا أوحد لا ينازعه أحد على وسط الجزيرة العربية . ولكن الأحساء رفضت الاعتراف بصولجان فيصل ؛ وكانت عُمَان أيضاً قد تخلصت ، منذ زمن بعيد ، من التدخل الوهابى . والسبب فى ذلك أن قبيلة عجمان كثيرة العدد وشديدة البأس كانت قد أعلنت تمردها الصريح فى منطقة الحدود الشمالية الشرقية ، واستنجدت بكل من بنى هجر وبنى خالد الأقل بأسا . وتجمعت قوات هذه القبائل وهددت بغزو نجد ، يضاف إلى ذلك أن أحداً من الرؤساء المحليين لم تكن لديه القوات التى تكفى لمواجهة مثل هذا الخطر . وخلاصة القول ، أن فيصل أصبح يمتلك امبراطورية متقلصة ، تهزها من أعماقها ثورات متكررة ومتطاولة .

ولم يكن السلطان نفسه محاربا بمعنى الكلمة ، أو بارعاً فى استعمال الأسلحة الدبلوماسية أو العربية ؛ زد على ذلك ، أن الملك بدأ يعانى من ضعف البصر ، نتيجة المياه البيضاء Opthalmia التى أصيب بها فى مصر ، وأصبح تقدم المرض يهدد بفقدان البصر تماما . كما أصيب بهذا المرض أيضاً بعض من رفاق الملك فى الأسر ، وقد عزا بعض التجديين المتشككين الاصابة بهذا المرض ، إلى سم الأعين الذى قالوا انه دُس للملك ورفاقه بناء على أوامر الحاكم المُنَاب فى القاهرة .

ولكن فيصل كان لديه بالفعل عوضا كاملا عن نقائصه العربية فى ولده الأكبر عبد الله . وأيا كانت عيوب ذلك الأمير ، وقد سبق أن أشرنا إلى بعض هذه العيوب الفظيعة ؛ وبغض النظر عن كبره ، وبذاءته ، وخيانته ، وقسوته ، فإننا يجب أن نثنى على شجاعته العظيمة ، ومهارته فى التكتيك الحربى ، الذى يعد أمر غريبا على العرب ؛ وينبغى علينا أيضاً ألا نبخسه حقه فى هذه الأمور . ومن هنا فقد أسند الملك فيصل الإدارة العربية إلى ولده عبد الله ، على حين بقى هو فى عاصمته يدير وينظم أمور إمبراطوريته .

وشن عبد الله حملته الأولى على بدو عجمان ؛ الذين كان جيشهم القوى عددا وعدة ، قد تمركز واحتشد بالقرب من الكويت ، وأوشك أن يهجم على نجد ، التى كان يتوقع أن يحقق انتصارا سهلا عليها . وبينما كان بدو عجمان يتخيلون ، فى أمنهم المزعوم ، أن عبد الله كان بعيدا عنهم فى العارض ، أطبق عليهم فجأة . وبثلاثمائة خيَّال فقط هجم عبد الله على فرقتهم المتقدمة وردها على أعقابها مرتبكة إلى القوة الرئيسية . وفى اليوم التالى جمع كل طرف من الأطراف قواته استعدادا للدخول فى معركة فاصلة . وطبقا للعادات والتقاليد ، كانت الحدائية تجئ فى مقدمة الجيش البدوى ؛ والحدائية فتاة من أسرة طيبة تتمتع بالشجاعة ، تركب جملا ضمن الصفوف الأولى ، ومهمتها توبيخ الجبان وإثارة الشجاع عن طريق أشعار الهجاء أو المديح . ولقد سمعت ولكنى نسيت اسم الفتاة التى قامت بذلك الدور فى ذلك اليوم المشهود ؛ ويقال عنها إنها كانت فارعة الطول فصيحة اللسان ، وأنها يجدر بها أن تُدرج ضمن أولئك اللاتى جرّت عليهن مشيتهن ووقفتهن ، وجلستهن الرشيقة ، الملاحظة التالية التى وردت على لسان الاميرة فى إحدى قصائد الشاعر تينيسون Tennyson ، "ما هذا ! هل كل بنات أرضــك فارعات الطــول مثلك ؟" وعلى كل حال ، فإن إله الحرب Mars

لم يبق على إلاهة الحرب Bellona العربية ، ويقال أن وفاتها بطعنة رمح نجدى هى التى تسببت فى هزيمة جيش عجمان هزيمة منكرة . وتابع عبد الله انتصاره بمطاردة حامية استأصل بها فلول أعدائه ، وشن حملة قضى بها على ثلثى سكان عجمان من الذكور ، وأخضع بها قبائل الشمال إلى أبد الآبدين . وحوَّل الغازى ذراعيه بعد ذلك ناحية بدو الغرب - مطير ، والعنزة ، وعتيبة وأنـزل بهم ذلك الذى أنزله ببدو عجمان .

ثم قام عبد الله بعد ذلك بإخضاع الاحساء ، ولكن بعد معركة شرسة ، كما أخضع القطيف أيضاً ووضع فيها من جديد حامية نجديه . وبعد أن أصاب عبد الله نجاحا فى كل مكان ، بدأ يشتاق لزيارة عُمان . ولكنى لن أتكلم هنا عن الحملة العمانية الكبيرة ، أو عن مجرياتها ، أو نتائجها ، أو كل ما يتعلق بموقف حكومة الرياض والحكومة العمانية من هذه الحملة ، وإنما سوف أتناول كل ذلك بالتفصيل فيما بعد ؛ يضاف إلى ذلك أننى لن أتطرق هنا إلى سرد الحقائق إلا عندما تصل الرحلة إلى مرحلة تصبح عندها هذه الحقائق أمرا مألوفا فى جنوب شرقى الجزيرة العربية .

وأنا لا أعرف متى تم ضم وادى السليل إلى الطرف الجنوبى الغربى من الامبراطورية الوهابية ، ولا أدرى أيضا أكان الضم بطريقة سلمية أم عن طريق الحرب . ولكنى لا أتصور أن منطقة صغيرة من وادى السليل ، الذى يشغل موقعا متوسطا بين وادى الدواسر من ناحية ، وجبل عسير من الناحية الأخرى ، وهما منطقتان لا تقلان تزمتا عن العارض نفسها ، يمكن أن يكونا مصدر قلق بالنسبة للرياض . وربما يكون وادى السليل قد سار على خط وادى الدواسر ، وبخاصة أن وادى السليل يعد فى واقع الأمر ملحقا أو امتدادا لوادى الدواسر ، ويشترك معه فى خصائصه الأرضية وسمعته السيئة .

هذه الأحداث ، التى أوجزتها هنا ، دامت حوالى عشر سنوات ، انشغل الملك فيصل خلالها بالمسائل المدنية والدينية والإصلاحات ، ولم يلعب دورا فاعلا فى الحروب التى خاضها ولده المتهور ، علما بأن الملك فيصل زار المناطق التى غزاها وأخضعها ولده ، وحدد الضرائب التى ستجبى منها ، والجزية ، والإدارة المحلية . وعقب عودة عبد الله من عمان ، بدأت سلسلة الأحداث المؤسفة التى تناولتها فى الفصل الرابع من هذا الكتاب . ومع ذلك ، فإن أنظار الملك فيصل لم تتحول قط عن الخليج الفارسى ، الذى أدت الحضارة والتجارة إلى تراكم الثروات على شاطئيه بشكل كان يستثير

مطامح الملك الجشعة . ويعد المهادنة الزائفة التى حدثت فى العام (١٨٥٥-١٨٥٦) الميلادى بين حاكم الرياض المطلق والزامل ، رئيس عنيزه ، تم فى القطيف تجهيز حملة وهابية بناء على أوامر من الملك فيصل ، وأبحر مقاتلوا نجد بأسطولهم لأول مرة تحت اسم الامبراطورية الجديدة ، لغزو البحرين واحتلالها ، وسوف أؤجّل النتائج التى ترتبت على هذه الحملة إلى فصل لاحق .

أما فيما يتعلق بجبل شومر والمناطق التابعة له فكان قد تم فصله فعلا عن نجد بفعل الحيوية والنشاط اللذين دبا هناك فى الأسرة المالكة المنابة والتى كانت ممثلة فى شخص عبد الله بن الرشيد . وعلى كل حال ، فقد حاول فيصل أن يبذر بذور النزاع والفرقة بين أعضاء الأسرة المالكة ، عن طريق عملائه المنافقين ، إلى أن تحين الفرصة التى تسمح له بالتدخل المسلح ؛ وهذا أمرٌ ممكن إذا ما سارت الأمور على ما هى عليه .

ويتقدم السن بالملك فيصل ، فى الوقت ذاته ، ويفقد الرجل بصره تماما ، فى حين جعلته السمنة المفرطة ، وهذه ظاهرة نادرة فى التكوين الجسمى العربى ، عاجزا عن الأداء النشط . زد على ذلك ، أن الجبن ، والإيمان بالخرافات الذى يصاحب الجبن فى معظم الأحوال ، بدأ يسيطر عليه بصورة متزايدة يوما بعد آخر ، إلى الحد الذى جعله يتنازل تماما ، خلال السنوات الثلاث أو الأربع الأخيرة من حكمه ، عن إدارة الأمور وتوجيهها لولده عبد الله ، وقسّم الجزء الباقى من حياته بين الوعظ والحريم . والملك فيصل لا يقابل الشعب مطلقا ، اللهم باستثناء زيارة قبر والده فى ساعة مبكرة من كل صباح يوم الجمعة ، أو قد يظهر إذا ما وقع حادث غير عادى يضطره إلى الظهور أمام شعبه دقائق معدودات ليس إلا . وكلمة عبد الله هى العليا خارج القصر ، ولكن محبوب ومعه بعض العبيد الزنوج ، والذين لهم حق الاتصال بالمستبد العجوز ، هم الذين يسيِّرون الملك المسن على هواهم وحسبما يشاءون . يضاف إلى ذلك ، أن المطيعية المتعصبين ، الذين لا يقوى الملك على مقاومة نفوذهم المادى والمعنوى ، ولا يجرؤ على رفض ذلك الذى يملونه عليه ، مهما كانت خطورته على الامبراطورية ، هؤلاء المطيعية هم وحدهم فقط الذين لهم حق الاتصال بالملك والدخول عليه . وأصبح الجشع والبخل "تلك الرذيلة الطيبة التى ترافق كبر السن" يسيطران على شخص فيصل شأنه فى ذلك شأن الكرام الآخرين الذين يسيطر البخل عليهم عندما يتقدمون فى السن ؛

كما اكتمل نفاقه وغدره بفعل الممارسة الطويلة . وخلاصة القول ، أخشى أن يكون كل ما بداخله من خير قد اختفى تماما ، وأن تكون عواطفه وعقله وفكره وإرادته قد بدأت كلها تتحول إلى خرافة تناسب مستبدا فى سن السبعين .

ويكفى ما قلته من قبل عن أكبر أولاده ، عبد الله . وعلى كل حال ، يجدر بنا أنْ نضيف هنا أنَّ والدة عبد الله (وكتاب الملوك يتعرض دوما لأمهات ملوك اليهود) تنتمى أيضاً إلى العائلة السعودية . ولكن والدة ابنه الثانى ، الذى سمى باسم سعود المؤسس الأول للعرق السعودى ، ليست من العائلة السعودية ، ولكنها من قبيلة بنى خالد . وعبد الله يتجسَّدُ فيه مثل عربى ، نظرا لأن الصفات التى ورثها عن أمه أكثر من تلك أخذها عن أبيه . فبينما نجد أن عبد الله ، مثل والده ، قصير القامة ، ومتينا ، وكبير الرأس ، وغليظ العنق، ويشبه الثور فى مظهره، نجد أنَّ سعودا فارع الطول ، نحيفا ، وأنيقا ، ولا يدل محياة على بداوة مفرطة . وسعود صريح وكريم ، ومتيم بالاستعراض والفروسية ، وهو محبوب من الجماعة "الليبرالية" ، التى تطلق عليه اسم "أبو هلا" ، التى معناها الحرفى "أبو الترحاب" ، وهذه التسمية مأخوذة من التعبير "يا هلا"، الذى يحيِّى به سعود كل من يفد عليه . فى حين يقف عبد الله على رأس الجماعة المتدينة ، التى تتطلع إليه وتعده عونها الرئيسى وأملها المستقبلى .

ومع أن الشقيقين ، يكادان يتساويان فى العمر ، إلا انهما متناقضان ومتنافران ولا يهادن أحدهما الآخر . ومنعا لتكرار الصدام بين الشقيقين ، عيَّن الملك فيصل ولده "سعود" حاكما على كل من اليمامة والحريق ، على أن يتخذ من السالمية مقرا لإقامته ، وبذلك يكون قد أبعده عن الرياض ، فى حين أبقى الملك فيصل عبد الله فى الرياض بصفته حاكما خاصا للمدينة . واستطاع سعود ، فى ذات الوقت ، أن يستحوذ بفضل بساطته وسلوكه الليبرالى ، على قلوب رعاياه المقربين منه ، وقلوب أولئك الذين يعارضون التشدد والتعصب فى مناطقهم . ومن ثم ، فمن المسلم به أن وفاة الملك فيصل سوف تكون بمثابة الإشارة إلى بدء حرب دموية وغير متكافئة بين كل من رموليوس **Rumulus** وريموس **Remus** ، أو إن شئت بين كل من دون هنرى **Don Henry** ودون بدرو **Don Pedro** فى نجد . وطالما أن هناك مستبدين ، وشرين يسمحان بالخيار من بينهما ؛ فإن كل أمانِّى الطيبة تتجه صوب سعود . والملك فيصل ، على كل حال ، يفضل ولده الأكبر وذلك من باب التقوى والتدين وربما من باب التعاطف معه أيضا ،

ولذلك فهو يحاول أن يكون ولده سعود في مؤخره الصورة دوما . ولم يحدث سوى مرة واحدة ، أن عين الملك فيصل ولده سعود قائدا للحملة التي كان على وشك أن يشنها على وادي الدواسر ، على إثر بعض الاضطرابات والمتاعب التي نشأت هناك .

ولكن سرعان ما ندم الملك فيصل على إعطاء ولده سعود فرصة الظهور على الملأ ، وبخاصة عندما عاود سعود ، بعد تلك الحملة القصيرة الناجحة ، الظهور في الرياض وبصحبته مائتي رجل اختارهم هو بنفسه ، وكانوا جميعا يرتدون زيا فارها أنيقا قرمزي اللون ، مطرزًا بالذهب ، وسيوف مزينة بالفضة ، وزخارف غالية الثمن "ويركب كل واحد منهم حصانا يتراقص" ، وسط عظمة وأبهة لم تشهدها أيام الملك عبد الله الأول ، الجد ، الأمر الذي أغضب الوالد المتعصب واستشار حقد الشقيق . وصدرت الأوامر إلى سعود ، بالعودة إلى السالمية على وجه السرعة ، التي سنلحق به فيها ، ثم أروي للقارئ الكريم ذلك الذي حدث في الاجتماع الثلاثي الذي ضم كلا من سعود وعبد الله وفيصل .

كان محمد ، الابن الثالث للملك فيصل ، من سيدة نجدية ، والذي كان يشبه والده وأخاه الأكبر من حيث الشكل والمظهر ، ما يزال يحاصر مدينة عنيزه ، كما سبق أن أوضحنا في الفصول السابقة . وعبد الرحمن ، هو الابن الرابع والأخير من أبناء الملك فيصل، وهو صبي يبدو عليه أنه مثقل بالهموم ، ولا يزال يسكن في جناح حريم والده . وأنا أرى أن عمره يتراوح بين عشر واثني عشر عاما : والناظر إليه لا يتوسم له مستقبلا واعدا . وقد سبق أن تحدثت عن تلك الفتاة العجوز ، ابنة الملك فيصل التي لم تتزوج ، وسكرتيرته الخاصة . وأنا على ثقة ، أنها جميلة جدا ، ولكني لم أتمكن قط من النظر إليها خلسة من خلال ذلك الرداء الأسود الذي تلف نفسها فيه ، مما يجعلها تشبه كومة من القماش أكثر منها ابنة ملك . وأنا أتوقف هنا ، إذ يكفي ما أوردته عن أسرة نجد الملكية .

ولكن قبل أن أعود إلى سياق قصتي وأروي ذلك الذي حدث بيني وبين أفراد هذه الأسرة المالكة ، قد يكون من المفيد أن أستعرض بشكل موجز الوضع الحقيقي لهذه الامبراطورية، سواء أكان ذلك داخل حدودها، أم مع جيرانها ، أو حلفائها أو أعدائها .

وفيما يتعلق بالوضع الحقيقي لهذه الامبراطورية داخل حدودها ؛ فإنه يتكون من عنصرين ، مختلفين جداً ، ويتعارض كل منهما تعارضا شديدا مع الآخر : والعنصر

الأول يشتمل على أولئك الوهابيين الأشداء الحقيقيين ، أولئك الرجال الذين قال عنهم كرمويل العجوز إنهم "يحكمون الضمير في أعمالهم" ؛ ولكن العنصر الثاني يتكون من أولئك الرجال الذين هم وهابيون من باب الخضوع ، وليس أمامهم خيار غير ذلك . والتعبير الألماني يُصَنِّفْ الوهابيين إلى وهابين و"وهابيين بالإكراه **Must - be - Wahhabees** .

وطبقة الوهابيين الحقيقيين هي التي تسيطر على المناطق الستة : العارض ، الوشم ، سدير ، الافلاج ، الدواسر ، واليمامة . وهذا لا يعني أن الوهابيين بالإكراه ليسوا موجودين في هذه المناطق ، وذلك لأنهم يشكلون أقلية محددة ، تتكون في معظمها من أسر الرؤساء السابقين الذين جردتهم السلطة الحالية من سلطتهم ، ومعهم الحاشية التي كانت قريبة منهم . أما بقية سكان هذه المناطق فهم موالين مخلصين للنظام السعودي وللأسرة المالكة السعودية ، برغم أن سبب ودرجة ولاء هؤلاء السكان ليست واحدة بأي حال من الأحوال . إذ يصل هذا الولاء إلى أقصى مدى له في العارض ، التي تدعم الروابط الدينية فيها التعاطف الديني ؛ فآل سعود هم أبناء هذه الأرض ، وهم رؤساؤها المكرمين منذ زمن طويل ، إلى الحد الذي يجعل الحكومة هنا تحظى بشعبية كبيرة ، أو إن شئت فقل : إن الشعب يرفعها عاليا . يضاف إلى ذلك ، أن نزعه القلق والحرب ، هي والفقر المحلي ، يجعلان طبيعة النظام الحالي والنتائج المترتبة عليه ، تروق تماما لسكان أعالي العارض . ومع ذلك ، توجد في هذه المنطقة جماعة رجعية ، بمعنى مجموعة من الرجال الذين يودون مزيدا من التبغ وقليلا من الصلاة . إلا أن هذه المجموعة أيضا لا ترغب في تغيير الأسرة المالكة ، مع أنهم إذا ما توفي الملك فيصل سوف يفضلون سعود على عبد الله . ولكن أتباع عبد الله بشكل عام هم والمتدينون المتشددون تصل نسبتهم سبعة إلى واحد في كل أنحاء العارض . ومنطقة العارض هي أهم ، بل وستظل أهم المناطق جميعا من الناحية السياسية ومن الناحية المعنوية أيضا .

والشعور الشعبي في اليمامة لا يختلف كثيرا عن ذلك ، برغم أنه يتخذ شكلا مخففا إلى حد ما ؛ إذ يسود هنا الاحترام الوراثي الشديد للأسرة الحاكمة ، ومع ذلك إذا كان محبو سعود بن فيصل أكثر من محبي شقيقه عبد الله ، فإن هذه الصورة على النقيض مما هو حاصل في العارض . وهذا يمكن تفسيره عن طريق تواجد الأمير سعود بن فيصل بصفة شخصية ، والتخفف نسبيا من التشدد في المنطقة الجنوبية . والمعروف أن كلا من العارض واليمامة هما منطقتان وهابيتان بالضرورة .

وفي الحريق ، تركت الحروب القاسية ، والنزاع القديم وكذلك الذكريات الأليمة ، آثارها على هذه المنطقة ، الأمر الذي جعل كثيرا من الأسر ساخطة لا على الوهابيين بشكل عام وإنما على عائلة ابن سعود بشكل خاص . كان هذا هو الحال منذ سنوات قلائل ؛ وفي الوقت الراهن ، استطاع سعود عن طريق زياراته المتكررة إلى مدينة الحوطة ، وعن طريق التأدب مع أهلها بصفة خاصة ، أن يكسب حب غالبية السكان ، ويوم أن ينشب الصراع الحتمي بين الشقيقين ، فإن عبد الله لن يكسب إلى جانبه سيفا أو خنجرا واحدا من سيوف أهل الحريق أو خناجرهم .

والافلاج، لكونها من المناطق القفر غير المتحضرة، يشبه سكانها سكان العارض ، اللهم باستثناء أن دوافعهم الدينية تشكل رابطة أقوى من رابطة الشعور السياسي .

وهذا في الواقع هو حال وادى الدواسر ، الذى يصل الحماس الدينى فيه إلى حد التعصب الأعمى فى أبشع صوره ، إذ يشيع السلب والنهب . هنا أكثر من العارض . وأكثر الناس احتقارا وأبشعهم ازدراء من بين أفراد العرق العربى ، إن صح ما ورد عنهم فى التاريخ وفى الشعر وفى الهجاء (وأنا هنا أكتب من واقع تجربتى الشخصية) هم أهل ومواطني أو سكان وادى الدواسر ، أو إن شئت فقل آل - عمار ، إن أردنا أن تسميتهم باسمهم الحقيقى ، والذين خلدهم المتنبى فى أشعاره الموجعة القاسية ، ويقفون على رأس السلم الوهابى وينحطون إلى الدرك الأسفل من السلم الوطنى . ومع أن أهالى وادى الدواسر كانوا لا يشكلون شيئا ولا وزن لهم ولا قوة على امتداد أجيال طويلة ، إلا أنهم الآن ، وهذا من سوء حظ جيرانهم ، استطاعوا بفضل انضمامهم إلى هيئة الوهابيين الكبرى ، أن يكون لهم وزن وشأن ؛ وهم الذين ينطبق عليهم المثل العربى العامى الذى يدور حول شحاذ يركب حصانا ويرضى بالذهاب إلى أى مكان آخر غير الأماكن التى يوجد فيها الخضيريه وآل - عمار فى وادى الدواسر . وأنا لست بحاجة إلى القول : إننا يجب أن نفتش عن قوات وادى الدواسر المهلهلة ، فى الأماكن التى يجرى فيها السلب والنهب ، سواء أكان ذلك لحساب سعود أم لحساب عبد الله .

والوشم منطقة مختلفة تماما . إذ تشيع التجارة فى هذه المنطقة ، وتنتشر فيها الروح التجارية ، والعبارة التى تقول : "روحى هى السبب ، روحى هى السبب" ، يتردد صداها خافتا فى قلوب أهل الوشم أكثر من أى مكان آخر فى كل أنحاء جبل طويق . ولكن نزعة أهل الوشم غير العربية التى تميل إلى الهدوء هى التى تمنعهم من أن يكونوا

أى شئ آخر ، غير مواطنين صالحين فى ظل حكومة تعتمد أرباحهم الكبيرة فى أساسها ، على وجود هذه الحكومة ، التى تضاعف لهم قوافل الحجاج إلى ثلاثة أو أربعة أضعاف عددها على طريق مكة ، وتملأ متاجر المدن والقرى على جانبى الطريق ، وبخاصة شقراء ، بكل أنواع البضائع التى تمر من المنطقة الغربية إلى نجد . ومنطقة الوشم ، تتحول فى الحروب ، إلى مصدر للتمويل والتموين بدلا من الانضمام إلى صفوف القتال ؛ ومع ذلك فإن سكان الوشم وهابيون صالحون ؛ وإن كان من بينهم قلة قليلة من "المطيعية"، فذلك ترتب عليه إيجاد قلة قليلة من السخط والاستياء .

وسدير هى أكبر كل هذه المناطق الستة ، وصيتها هو الأكثر ذيوعا . وروح المغامرة التى يتميز بها سكان جبل شومر هى التى تزيد من كرم هذه المنطقة وتقوى من شجاعتها وروح المثابرة وطول البال ؛ ولكن أهل سدير يتفوقون على كل جيرانهم من الناحية البدنية ؛ كما توجد فى سدير أيضا أقدم المدن العثمانية على الإطلاق ، وأقدم العائلات العربية ، وكذلك الذكريات القديمة والمشرفة . والسديرى هو عين أعيان نجد. والسكان فى معظمهم من الوهابيين، ويلتزمون بمبادئ هذا المذهب التزاما وثيقا ، وبخاصة فى الأجزاء الجنوبية من الجبل ؛ يضاف إلى ذلك ، أن اتصالهم من ناحية الشمال ، بكل من الكويت ، والزبير ، وجبل شومر قد زعزع آراءهم إلى حد ما . زد على ذلك ، أن الولاء السياسى لأبناء سعود هنا يقل عنه فى المناطق الأخرى من نجد ؛ والكثير من الرؤساء هنا يتحسرون على استقلالهم السابق ، والناس هنا يتحرقون شوقا إلى حكومة وطنية محلية . والأمر لن يحتاج إلى صدمة عنيفة جدا تمكن أهل هذه المنطقة من الانفصال عن الأسرة المالكة فى الرياض ؛ ولكنهم لن ينفصلوا عن تعاليم المذهب الوهابى أو يتخلصون منها .

وعدد البدو فى هذه المناطق الستة قليل نسبيا ، وهم ينتشرون فى كل أنحاء الهضبة الكبيرة ووديانها المختلفة . والبدو عن بكرة أبيهم متيمون بتلك الفوضى المدنية والدينية ، التى يمكن الدخول فيها بسهولة والخروج منها بسهولة ، قياسا على قوة أو ضعف الحكومة القابضة على السلطة ؛ والبدو هم مخلوقات اليوم ، وهم أيضا من الأدوات المستعدة للغزو أو القهر ، ولإثارة الاضطرابات والخروج على النظام ، بغض النظر عن شخص من يقبل على المزايدات التى من هذا القبيل .

وإلى هنا ، يكفي ما قلته عن كل من نجد ، وعن الحريق ووادي الدواسر . وتجيء بعد ذلك ثلاثة مناطق أخرى كبيرة ، تتبع نجد لسبب واحد رئيسي ، مؤداه أن هذه المناطق الثلاثة لا تستطيع تحرير نفسها من قبضة نجد ؛ وأنا أعني بهذه المناطق كلا من الأحساء ، والقطيف ، والقصيم .

وسبق أن قلت الكثير عن سكان القصيم مستهدفا بذلك تفسير ميولهم واتجاهاتهم سواء أكانت سياسية أم دينية . ويكفي أن تكون حرب عنيزه مثالا على ذلك . وأهل القصيم ربما يسعدون ، وسوف يسعدون في يوم من الأيام ، عندما يتحالفون مع القوة الأولى ، بغض النظر عن هويتها ، التي ستثبت لهم إنها هي التي تحميهم ، سواء أكانت تلك الحماية حجازية ، أم قاهريه ، أم عثمانية أم مصرية . وأغلبية السكان في هذه المناطق من المسلمين ، وليسوا وهابيين ؛ وبعض هؤلاء السكان ، حوالي الربع تقريبا لا يستقرون على مذهب بعينه سواء من حيث النظرية أو التطبيق .

سوف أتعرض بشيء من التفصيل ، فيما بعد ، لكل من الاحساء والقطيف . وسوف يتضح أن وحدتهما مع نجد غير مستقرة ورغما عنهما وذلك على العكس من القصيم . وسوف نقف فيما بعد على تأثير كل من المذهب الوهابي ونجد على البحرين ، التي تقع على الضفة الفارسية المقابلة ، أو إن شئت فقل : بر فارس ، وعلى الكويت في الشمال ، وعلى عُمان في الجنوب – والتأثير في هذه المناطق نابع من الخوف وليس من الحب، ولكن يستثنى من ذلك ثلاثة مناطق محلية ، هي على وجه التحديد بر فارس ، وجزء من قطر ، وساحل القواسمة .

وعسير حليف دائم لنجد ، ولكنها ليست امتدادا أو تابعا لها ، وأنا لم أزر منطقة عسير الجبلية التي تقع إلى الجنوب من مكة ، وأذكر القارئ الكريم إنها لا تبعد كثيرا عن شواطئ البحر الأحمر . ولكني استمعت إلى بعض المواطنين وهم يتحدثون عن منطقة عسير قبل وأثناء رحلتي إلى وسط الجزيرة العربية . وتشدد أهل عسير يشبه تشدد النجديين، وبخاصة أن أهل عسير يلتزمون بالتعاليم النجدية من جميع النواحي . ومن حيث الخصال والصفات العربية يقال أنهم أقل ثباتا من النجديين في الحرب كما يقلون عنهم أيضا في قوة الإرادة والعزيمة – وخلاصة القول : أن أهل عسير يشبهون أعراق الحجاز الذي يعيشون على حدوده . ولكن ، في جميع الأحوال ، فإن عدد سكان عسير ، وأهمية موقعها الجغرافي ، بحكم قربها الشديد من مكة ، ووجودها

على أحد أجناب المسار الذى يسير فيه الغزو المصرى ، هو الذى يجعل من هؤلاء السكان حليفا نافعا لقضية لا نفع منها أو طائل من ورائها .

واستهدافا لمنع مقاطعة استمرار المضى فى سرد أحداث قصة الرحلة التى قمت بها إلى الرياض ، سوف أورد هنا بضع كلمات عن رحلة قصيرة قمت بها مع بركات إلى الافلاج . تلك المنطقة التى تحددها معظم الخرائط ، وأنا لا أعرف سبب ذلك ، على إنها تبعد حوالى مائتى أو ثلاثمائة ميل عن العارض ، برغم إنها تجاور العارض ، فى واقع الأمر ، وتفصلها عن وادى الدواسر . والواقع أن الافلاج ، هى عبارة عن كتف الجبل ، أو إن شئت فقل إنها النتوء البارز من حائط جبل طويق العظيم ؛ وعلى كل حال فإن ارتفاع ذلك النتوء الذى تقع عليه الافلاج أقل من ارتفاع بقية سلسلة الجبال ؛ ومن خلف هذا النتوء يبدأ مستوى الأرض فى الانخفاض تدريجيا – وهذا هو ما قاله الرحالة العرب وأنا أؤكد صحة ذلك – إلى ما يقرب من مسيرة ثلاثة أو أربعة أى (حوالى ستين أو سبعين ميلا) من قلعة بيشه . ومن قلعة بيشه يبدأ مستوى الأرض فى الارتفاع من جديد فى اتجاه جبل عسير . وقد غادرت الرياض مع رفيقى بركات فى الأسبوع الثانى من شهر نوفمبر ، وسرنا فى اتجاه الجنوب الغربى ، وعبرنا وادى حنيفه ، ووصلنا فى الليلة نفسها إلى قرية صفراء على حدود العارض . وكان مرشدنا من مدينه نجران ، واسمه بداع[1] ، أو إن شئت فقل "الهرطقه" وهذه تسمية سيئة وغير موفقة لإنسان سيزور أكثر البلدان تدينا ؛ ومع ذلك فقد كان حامل ذلك الاسم رجلا حسن الطبع بشكل ملموس ، مستدير الوجه ، وعريض المنكبين ، ويعمل تاجرا جائلا ، ومحبا للمتعة والتنويع . كان بداع قد تناول معنا القهوة مرارا فى قهوتنا فى الرياض ؛ وكانت الرحلة التى نقوم بها الآن من اقتراحه هو ؛ وقد أعطتنى ممارسة مهنة الطب ذريعة مناسبة لمصاحبته أثناء هذه الرحلة .

وبعد أن خرجنا من وادى حنيفة ، اكتشفنا أن الهضبة الجنوبية أكثر تكسيرا وتعرجا من الهضبة الشمالية ؛ ولكنها تشبهها من بعض الجوانب الأخرى ، إذ أن الهضبتين تتكونان من الحجر الجيرى أو إن شئت فقل : إنهما مكونتان من تركيب كلسى واحد. وكان الطريق، أو بالأحرى المدق، الذى سلكناه يصعد ويهبط بين قمم الصخور التى يضرب لونها إلى البياض ، وعلى كل حال فإن أشجار السدر والمرخ ، وكذلك العشب كانت تكفى لرعى الأغنام ، والمحافظة على المنظر الطبيعى من الإقفار والجدب .

وعلى امتداد عدة أميال كانت مجارى سيول الشتاء تتجه صوب وادى حنيفة ، ثم اتجهت بعد ذلك لتشق لنفسها طريقا فى اتجاه الجنوب .

وفى قرية الصفراء استقبلنا الناس استقبالا طيبا على الطريقة النجدية . وقد أعطانا صغر حجم القرية ، التى لا يزيد عدد منازلها على ستين منزلا ، مبرراً لعدم بقائنا فيها إلى ما بعد صبيحة اليوم التالى . وكانت بعض منازل هذه القرية مصنوعة من جريد النخل ومن القش ، وهذه كلها مؤشرات ودلائل على المناخ الحار ؛ أما الأسوار التى كانت تحيط بالقرية (ويصعب أن اسميها تحصينات) فقد كانت مصنوعة من اللبن ، وتبدو عليها آثار التخريب والدمار . وعوضا عن ذلك ، كان المسجد الذى كان الجميع يداومون على إصلاحه وترميمه بصورة مستمرة ، جديدا وأنيقا .

وفى اليوم التالى ركبنا جمالنا ، وجلنا عدة ساعات وسط ذلك الذى يطلق عليه الإنجليزى الذى يزور الشرق اسم "الوديان" Denes ، التى تتخللها ، من حين لآخر ، وديان رملية تنحدر بشكل متدرج وملحوظ من ناحية الجنوب الغربى . ثم تصل إلى الافلاج ؛ وقبيل الظهر تجاوزنا قرية المِشَلَّح الكبيرة – ووقع هذه الكلمة نذير شؤم وسوء عند الرحالة ؛ وباستثناء القمصان ، فقد كانت القطع الثلاثة الصغيرة تناسب هذا الغرض تماما) ، وفى قرية المشلح أمضينا فترة حرارة الظهيرة فى منزل صغير ، مع بعض السكان الذين تعرف بداع عليهم عن طريق تجارته الجائلة . ومظهر السكان فى تلك القرية يوحى بالفقر المدقع . وبرغم كبر مساحة بيارات النخيل ، إلا أن أشجارها كانت متناثرة وغير كثيفة فضلا عن أن آبار المياه لم تكن غزيرة الإنتاج . وزراعة القطن فى هذه المنطقة أكثر من العارض ، كما تكثر هنا حقول الدخن الأبيض بدلا من حقول العدس التى تكثر وتنتشر حول الرياض . ومن حيث الملبس والأمور الأخرى يتشابه الرجال والنساء هنا مع رجال ونساء العارض ، باستثناء أن القمصان هنا أكثر منها فى العارض ، كما يشيع هنا استعمال السكين الثقيل المستقيم الذى يسمونه "البريم" ويعلقه الرجال فى أحزمتهم .

والطريق من المشلّح إلى الخُرْفَة يقع فى معظمه وسط ممر ضيق عميق إلى حد ما؛ وقاع هذا الممر الضيق الحجرى يدل على أنه مجرى لسيل من سيول الشتاء غير أنه يجف فى هذا الوقت من العام ؛ وعلى جانبى هذا الممر الضيق توجد مراعى ممتازة

وقطعان كبيرة من الأغنام ؛ وفى أسفل هذا الممر يوجد عدد قليل من بيارات النخيل التى أقام البساتنه أكواخهم إلى جوارها ؛ وهذه المنطقة تعانى من التخلخل السكانى ، وبخاصة عندما نقارنها باليمامة أو حتى بمنطقة سدير . ويرخى الليل سدوله علينا قبل أن نصل إلى الخرفه ، ونقضى فترة الراحة فى سهل رملى تتخلله أشجار النخيل بالقرب من أسوار القرية . وحاكم المنطقة الذى يسكن فى هذا المكان ، من أهل العارض ، وهو من الوهابيين المتشددين . ويرفض بداع أن نقوم بزيارة هذا الحاكم ، ولم يحبذ الذهاب دون تقديم أنفسنا له . وبلدة الخرفة ، كما يسمونها ، تحتوى على ثمانية آلاف مواطن أو أكثر ؛ والماء وفير فى الخرفة ، وتجود البساتين فيها أكثر من أى مكان آخر فى الافلاج . ويتساوى عدد الخضيريه ، أو إن شئت فقل المولَّدين مع عدد السكان البيض ؛ والسكان البيض شأنهم شأن أقاربهم الزنوج يرفضون الاعتراف بالقميص العربى ، ويكتفون بلف فوطة من حول خصرهم . وكرم أهل هذا البلد هزيل جداً ، والناس هنا يفتقرون إلى العلاقات الاجتماعية ، وسلوكياتهم تفتقر أيضاً إلى التحضر ، مما ذكرنى ببوادى الدواسر ، الذى لا تبعد حدوده عن هنا سوى خمسة عشر أو عشرين ميلا فقط فى اتجاه الجنوب . وبقينا فى الافلاج إلى ما بعد الظهر ، وعدنا منها إلى الرياض ، ومن نفس الطريق الذى سلكناه إليها .

وكان من الطبيعى أن يتركز الحديث الذى جرى فى كل من الصفراء ، والمشلح ، والخرفة عن حرب عنيزه بصفة أساسيه ، والتى اشترك فيها حوالى ثلث الرجال المقاتلين من هذه المنطقة . ولكن الموضوع الثانى الذى جذب اهتمامى بصفة خاصة ، كان يتمثل فى البلاد وحركة المرور بين الافلاج واليمن ، ذلك الموضوع الذى ساعد وجود بداع على إثارته . ومن خلال الحديث الذى دار استطعت أن أجمع المعطيات التالية ، عن طريق السماع ، دون التشكك فى صحة هذه المعطيات بشكل عام ، إضافة إلى إننى لا يمكن أن أقطع بدقة التفاصيل التى وردت ضمن هذه المعطيات .

كانت تلك المعطيات على النحو التالى : أولا ، أن التاجر أو الرَّحَّال المتجه إلى اليمن ، عندما ينطلق من جنوب الخرفة ، يدخل وادى الدواسر ، الذى يصفه أهل الافلاج بأنه طويل وممل ، ورملى ، وان جبل طويق يَحُفُّ بهذا الوادى من الناحية الشمالية (وهم يسمون هذا الجبل هنا ، باسم الجزء الأوسط منه ، أى جبل العارض أو جبل نجد ؛ ولكن هذين الاسمين غير صحيحين من الناحية الجغرافية) ،

ويقولون أيضا إن وادى الدواسر تحيط به الدهناء أيضا من الناحية الجنوبية . والناس يقدرون طول هذا الوادى بمسير حوالى عشرة أيام ؛ أى بما يقدر بحوالى مائتى ميل . ومنازل القرى مصنوعة في معظمها من سعف وجريد النخيل، وهي تتناثر هنا وهناك ، على طول الطريق ، والماء يكثر هنا في كل مكان . وأنا هنا أعتبر هذه المنطقة نوعا من المناطق الموجودة جنوبى وادى السرحان . والمسافر عندما يصل إلى نهاية وادى الدواسر ، يدخل منطقة القورا K.ora ، وهى منطقة واسعة ولكنها مخلخلة السكان ، وشبه صحراوية ؛ وهى تقع خلف كل من الطائف وجبل عسير . والمدينة الرئيسة فى هذه المنطقة هى قلعه بيشه ، والتى تبعد مسير يومين (أو أربعين ميلا) عن وادى الدواسر . والسير مسافة ثلاثة أيام أخرى في اتجاه الجنوب يفضى فى النهاية إلى وادى السليل ؛ ولم أتمكن من معرفة اسم عاصمة ذلك الوادى ، إن كانت له عاصمة . وقد حدثنا بداع عن ذلك الوادى بأنه منطقة فقيرة ، مليئة بالكثبان الرملية ، ويقل فيها الماء. ومسير يومين آخرين يفضى بالمسافر إلى وادى نجران ؛ وإن صحت رواية بداع ، فإن خصوبة ذلك الوادى تتسم بالطابع اليمنى أكثر منها بالطابع النجدى : ووادى نجران زراعته جيدة ، ويسكنه عدد كبير من السكان المتحضرين ، وتموره من النوع الممتاز ، وقمحه من النوع الممتاز أيضا ، وهو من مناطق السلام والخير الوفير . ومن وادى نجران يمر الطريق المتجه إلى صنعاء ، التى يعتمد أمير وادى نجران على أميرها اعتمادا كبيرا .

وسكان وادى نجران يقولون عن أنفسهم إنهم شيعيون ؛ والنجديون يكنونهم "بالكفار" . وعندما استشعر بداع أنه بعيد عن تنصت الوهابيين ، لم يخف مذهبه ولا مذهب بنى وطنه . وسكان وادى نجران ، شأنهم شأن سكان كل من الاحساء وعمان ، ينتمون إلى مدرسه القرامطة ، وهى مدرسه مشابهة للمدرسة الفارسية ، وهى تنقسم إلى البياضية[1] ، والدروز ، والاسماعيلية وإلى طوائف وفرق أخرى كثيرة . ومبلغ علمى أنه لا توجد ، فى غربى الجزيرة العربية ، مستوطنة قرموطية ، غير وادى نجران . ووادى نجران هو التذكار الوحيد المتبقى الذى يذكرنا بالثورة التى اندلعت خلال القرن الثالث الإسلامى . والطريق الذى يمر بكل من وادى الدواسر ووادى السليل هو الطريق الذى يسلكه ، فى معظم الأحيان ، تجار اليمن عندما يقصدون السفر إلى نجد ؛ وهذا الطريق مباشر تماما ، ولا يمر خلال الممرات الجبلية أو العوائق الموجودة فى جبل عسير .

وقد سمعت الكثير من أولئك الذين كانوا يقطعون الطريق الشهير الذى يمر من خلال وادى حنيفة إلى شمالى الافلاج ، ثم منها إلى شقراء ، ثم جنوبا إلى الطويق ومنها إلى مكة ، وسمعت منهم الكثير عن قوافل ذلك الطريق ، وأماكن الراحة فيه . وقد جاء كلام هؤلاء الناس مطابقا لما هو موقع على الخريطة الألمانيه التى نشرت فى جوتا Got'aa فى العام ١٨٣٥ الميلادى، بعد الأبحاث التى قام بها كل من نيبور ، واهرنبرج ، وروبل Rüpel . وهذا هو الطريق العلوى فى وسط الجزيرة العربية . وعند شقراء يتفرع من هذا الطريق طريق آخر مباشر يؤدى إلى كل من عنيزه والقصيم .

ومن شمالى الرياض هناك طريق واحد فقط هو الطريق نفسه الذى سلكناه كى نصل إلى الرياض ؛ ولكن هذا الطريق يتفرع عند زلفة إلى ثلاثة طرق : أحدها يؤدى إلى القصيم ناحية الغرب ، والثانى يؤدى إلى جبل شومر فى الشمال الغربى ، والثالث إلى الزبير فى الشمال الشرقى . ومن شرقى الرياض هناك طريق واحد مطروق ينطلق من وسط الرياض إلى المناطق المحيطة بها؛ وسوف نسلك ذلك الطريق بعد فترة وجيزة. ومن ثم فإن نجد تبدو وكأن لها أربع من خطوط الاتصال مع المناطق الخارجية ومع السواحل ، وأن هذه الخطوط الأربعة تتفق إلى حد ما ، مع الجهات الأربع الأصلية فى البوصلة ، وأن هذه الطرق الأربع يتعين عليها فى مرحلة من المراحل أن تعبر شريطا صحراويا ، برغم أن الطريقين اللذين يقفان ناحية الجنوب الغربى ، وناحية الغرب يصادفان رمالاً أقل من الطريقين الآخرين . والمسار الذى سلكناه إلى الرياض كان أطول هذه المسارات ، وأشقها ، وأقلها ارتياداً ، وبالتالى كان ذلك الطريق ، ومن منطلق هذه الأسباب نفسها ، أفضل الطرق وأكثرها أمنا وأمانا بالنسبة لنا .

والصحراء الكبرى تقع إلى الجنوب من وادى الدواسر وشرقى نجران . وهى تمتد أيضا من بعد اليمامة والحريق على شكل عائق مهجور وخال من الطرق والمدقات ، ويصعب اجتيازه ، وينطبق عليه الكثير من ذلك الذى كتبه شايلد هارولد Child Harold، فى المقطوعات الأخيرة ، من قصيدته التى كتبها عن المحيط ؛ ولكنى سوف أتكلم بالتفصيل عن الصحراء الكبرى ، عندما أزورها فيما بعد .

وخلاصة القول ، إننا يحق لنا أن نقول : إن الإمبراطورية الوهابية عبارة عن حكومة محكمة منظمة تنظيما جيدا ، والمركزية فيها مفهومة فهما جيدا وتنفذ تنفيذا جيدا أيضا ، وأن القوة والتشدد هما حلقتا الوصل والمحركان الرئيسيان فى هذه

الحكومة ، وليست هناك أية عوائق دستورية أمام الملك أو مرؤسيه ، سوى ما تمليه الضرورة أو ما ينص عليه القرآن (الكريم) . والمناخ السائد هنا ، إن جاز لي أن أتكلم بطريقة الاستعارة، هو الاستبداد الشديد والفريد سواء أكان أخلاقيا، أم فكريا ، أم دينيا ، أو بدنيا . وهذه الامبراطورية لديها القدرة التي تمكنها من توسيع حدودها ، ومن هنا فهي تشكل خطرا على جيرانها ، الذين بدأت تبلع البعض منهم الآن ، بل إنها سوف تبتلع المزيد منهم في المستقبل ، إذا لم يجر منعها من ذلك . ونظرا لعجز هذه الإمبراطورية عن تحقيق التقدم الداخلي الحقيقي ، ونظرا أيضا لمعاداتها للتجارة ، ونظرا أيضا لعدم رضاها عن الفنون بل وعن الزراعة أيضا ، وفي ضوء رفضها وظلمها الشديد ، فإنها سوف لا تحسِّن من نفسها ، ولن تفيد الآخرين ؛ في حين نجد أن النظام والهدوء التي تنشرهما في الأراضي التي تغزوها ، ينطبق عليهما الوصف الذي ورد على لسان المؤرخ الروماني ويستشهد به في معظم الأحوال : إنهم يصنعون الوحدة المدينة ويدعونها سلامًا . ubi solitudinem Faciunt pacem appellant . ونحن نضيف هنا أيضا أن أخطر نقاط ضعف هذه الامبراطورية تتمثل في المنازعات العائلية والتصارع على تولي الحكم ، والتي إذا ما أضفناها إلى رد الفعل المعادي للوهابية في كل أنحاء هذه الامبراطورية ، فلربما أدت في يوم من الأيام إلى تفكيك هذه الإمبراطورية النجدية وتبعثرها ، وهذا لا يعني القضاء عليها كليا . وإبراهيم باشا وحده هو الذي استشرف الوسائل الحقيقية لتخليص الجزيرة العربية وجيرانها من سموم ذلك التشدد المستبد ، وهو الذي بدأ العمل في هذا الاتجاه ولكن نزوات وأهواء وحماقة من جاءوا بعده هي التي أحبطت هذا العمل وأوقفته . ولكن طالما بقيت الوهابية في وسط الجزيرة العربية وفي الأجزاء المرتفعة منها ، قلَّت ، في واقع الأمر ، فرص التحضر ، والتقدم ، والرفاه الوطني أمام أفراد العرق العربي .

وأنا في النهاية ، أضيف إلى هذا الفصل قائمة عددية حصلت عليها من سجلات الحكومة في الرياض ، وهي إلى حد ما من المعلومات المحلية ، وتحتوي على المدن أو القرى الرئيسية ، وعدد السكان ، والقوة العسكرية ، في كل أنحاء الإمبراطورية الوهابية . كما أورد أيضا قائمة ثانية تقدم شيئا مماثلا عن البدو داخل المناطق المختلفة .

رقم مسلسل	اسم المنطقة	عدد المدن أو القرى	عدد السكان	القوة العسكرية
١	العــــــارض	١٥	١١٠٠٠٠	٦٠٠٠
٢	اليـمـــامــة	٣٢	١٤٠٠٠٠	٤٥٠٠
٣	الحـــــريق	١٦	٤٥٠٠٠	٣٠٠٠
٤	الافـــــــلاج	١٢	١٤٠٠٠	١٢٠٠
٥	وادى الدواسر	٥٠	١٠٠٠٠٠	٤٠٠٠
٦	السـسلـيــل	١٤	٣٠٠٠٠	١٤٠٠
٧	الـــوشـــم	٢٠	٨٠٠٠٠	٤٠٠٠
٨	ســــديـر	٢٥	١٤٠٠٠٠	٥٢٠٠
٩	القــصـــيم	٦٠	٣٠٠٠٠٠	١١٠٠٠
١٠	الاحـــســاء	٥٠	١٦٠٠٠٠	٧٠٠٠
١١	الـقـطـيـف	٢٢	١٠٠٠٠٠	–
الإجمـالى		٣١٦	١٢١٩٠٠٠	٤٧٣٠٠

ويجدر بنا هنا أن نلاحظ أمرين . أولهما ، عدم تناسب عدد السكان مع عدد القرى . ربما يكون ذلك راجعا إلى تباين أحجام القرى وأهميتها ، وذلك فى ضوء الظروف السياسية والظروف الأخرى لكل منطقة من هذه المناطق كل على حده . وعلى سبيل المثال ، نجد فى وادى الدواسر ، الذى لا توجد فيه مدن كبيرة ، ومراكزه السكانية عبارة عن مجرد كفور (هجر) ؛ أن إجمالى عدد السكان يساوى عدد سكان القصيم تقريبا ، التى يوجد فيها مدن كبيرة مثل عنيزة ، وبريده ، والحناكية ، والرس وما إلى ذلك ، يضاف إلى ذلك أيضا خصوبة تربة البلاد بشكل عام ، وكل ذلك يؤدى إلى زيادة إجمالى عدد السكان إلى ثلاثة أضعاف سكان وادى الدواسر .

ثانيا ، إن حصة القوات العسكرية تظهر بينها تفاوتات كبيرة . وهذا يرجع بدرجة كبيرة إلى المناطق المدرجة على هذه القائمة ، من ذلك مثلا أن القطيف ، برغم زيادة

الكثافة السكانية فيها ، لا تزود الجيش بأى شئ من الأفراد ، وذلك لأسباب سوف أشرحها وأوضحها فيما بعد ؛ فى حين أن سكان العارض التى تقل فيها الكثافة السكانية ، يملأون صفوف المقاتلين النجديين . وكثير من هذه التناقضات لها تفسيرات كثيرة فيما أوردته من تفاصيل طوال هذه الرحلة .

وفيما يلى إحصائية عن السكان البدو ، ذلك العنصر الذى تناقص بشكل كبير فى وسط الجزيرة العربية .

رقم مسلسل	القبائل	عدد السكان
١	عجمان	٦٠٠٠
٢	بنو هجر	٤٥٠٠
٣	بنو خالد	٣٠٠٠
٤	مطير	٦٠٠٠
٥	عتيبة	١٢٠٠٠
٦	الدواسر	٥٠٠٠
٧	السباع	٣٠٠٠
٨	قحطان	٦٠٠٠
٩	حرب	١٤٠٠٠
١٠	عنزه	٣٠٠٠
١١	آل مره	٤٠٠٠
	أسر متناثرة	١٠٠٠٠
الإجمالى		٧٦٥٠٠

من المعروف أن القوة العسكرية فى القبيلة البدوية تقدر بحوالى معشار العدد الإجمالى لهذه القبيلة . وهذا يجعلنا نقدر إجمالى قوة المقاتلين البدو بحوالى ٨٠٠٠ مقاتل تقريبا ، ينضوون تحت لواء ابن سعود المكون من اللونين الأبيض والأخضر .

وأنا هنا ، أود أن أذكر القارئ (الكريم) ، برغم أننى شرحت ذلك من قبل ، أن بنى خالد الذين ورد ذكرهم ضمن هذه القائمة هم ينتمون إلى الأصل نفسه الذى

تنتمي إليه هذه القبيلة في سوريا : وأود أن أذكر القارئ أيضا أن عنزة نجد وسباع نجد ليسوا هم عنزة أو سباع سوريا ؛ وأود أيضا أن ألفت انتباه القارئ أن عشائر قحطان وآل مرة أكثر عددا في واقع الأمر ، مما هم عليه في هذه القائمة ، إذا أن من ورد عددهم هنا هم أولئك الذين يكونون رهن إشارة الملك الوهابي ؛ كما أود أن ألفت الانتباه أيضا إلي أن العجمان ، وبني خالد ، وبني هجر هم أولئك الذين أنزل بهم سيف عبد الله كثيرا من الخراب والدمار .

ثالثا ، وأنا أدرج هنا أيضا قائمة الجزية التي كانت المناطق المختلفة تدفعها لخزينه الرياض كل عام ، هذا بخلاف المساهمات الطارئة غير المعتادة . وأنا أورد هذه التقديرات من واقع القوائم الموجودة لدى جوهر ، كما أحدد المبلغ هنا بالريال أو بالدولار الأسباني ، اللذين يستعملان هنا ، كما يستعملان على نطاق واسع أيضا في الشرق ، باعتبارهما مقياسا نقديا موحدا ؛ والريال الأسباني أو الدولار الأسباني ، طبقا لسوق النقود في نجد ، يساوي خمسة شلنات وست بنسات من النقد الإنجليزي .

رقم مسلسل	المنطقة	الجزية بالريال
١	العارض	٥٠٠٠
٢	اليمامة	٦٠٠٠
٣	الحريق	١٠٠٠٠
٤	الأفلاج	٢٠٠٠
٥	وادي الدواسر	٤٠٠٠
٦	السليل	٣٠٠٠
٧	الوشم	٦٠٠٠
٨	سدير	٧٠٠٠
٩	القصيم	١٢٠٠٠٠
١٠	الاحساء	١٥٠٠٠٠
١١	القطيف	٥٠٠٠٠
	الإجمالي	٣٦٣٠٠٠

= أي ما يعادل ١٠٠٠٠٠ جنيه إنجليزي .

ويتعين علينا أن نضيف إلى هذه المبالغ ما يلي : أولا ، جزية سنوية أو إن شئت فقل ابتزازا يقدر بحوالى ٨٠٠٠ ريال ، أو ما يعادل ٢٢٠٠ جنيه إنجليزى تجبى سنويا من البحرين . ثانيا ، جزية مماثلة مفروضة على المناطق الغربية من عمان ، وتقدر بحوالى ٢٠٠٠٠ ريال سنويا ، أى ما يعادل ٥٥٠٠ جنيه إنجليزى . وإذا ما أضفنا هذه المبالغ إلى إجمالى الجزية السابقة، يصبح إجمالى هذه الجزية حوالى ٣٩١٠٠٠ ريال، أى ما يساوى ١٠٧٠٠٠ جنيه إنجليزى .

وتقدر المدفوعات الطارئة غير المعتادة ، هي والغرامات ، والهدايا ، وغنائم الحرب وما إلى ذلك بمبلغ يساوى هذا المبلغ تقريبا ؛ ومع ذلك فإن إجمالى المتحصلات السنوية قد يصل إلى ١٦٠٠٠٠ جنيه إنجليزى ، وقد يزيد عن ذلك . ونظرا لأن هذه الإمبراطورية لا تحتفظ بجيش نظامى ، وليس لها أسطول باستثناء سفينتين أو ثلاث سفن قديمة فى (القطيف) ، ونظرا لأن الملك ليست له حاشية كبيرة ، فى نجد ، فإننا نقول إن الحكومة الوهابية ليست معرضة للوقوع فى براثن الدين الوطنى ، وأن هذه الحكومة يمكن اعتبارها من الحكومات الغنية فى إطار بلادها والظروف المحيطة بها .

وسوف أضيف على ذلك تقديرا تقريبيا لهذه العناصر نفسها فى مملكة طلال ابن الرشيد . وكان من المفروض أن أورد هذه الجزئية فى مرحلة سابقة من هذا الكتاب ؛ ولكنى استهدف من ذلك وضع التقديرين جنبا إلى جنب ؛ كى تتهيأ للقارئ فرصة تبين بعض الاختلافات المهمة فيما يختص بالسكان والأمور الأخرى بين منطقتى نجد وجبل شومر :

رقم مسلسل	المنطقة	عدد المدن أو القرى	عدد السكان	القوة العسكرية
١	جبل شومر	٤٠	١٦٢٠٠٠	٦٠٠٠
٢	الجوف	١٢	٤٠٠٠٠	٢٥٠٠
٣	خيبر	٨	٢٥٠٠٠	٢٠٠٠
٤	القصيم العليا	٢٠	٣٥٠٠٠	٢٥٠٠
٥	تيماء	٦	١٢٠٠٠	١٠٠٠
الإجمالى		٨٦	٢٧٤٠٠٠	١٤٠٠٠

القبائل البدوية الخاضعة ل - طلال :



رقم مسلسل	القبيلة	الأجمالى
١	شومر	٨٠٠٠٠
٢	الشرارات	٤٠٠٠٠
٣	الحويطات	٢٠٠٠٠
٤	بنو عطية	٦٠٠٠
٥	معاز	٤٠٠٠
٦	الطائى	٨٠٠٠
٧	الوحيدية	٨٠٠٠
	الإجمالى	١٦٦٠٠٠

تقدر القوة العسكرية بحوالى ١٦٠٠٠ رجل

إجمالى السكان ٤٣٠٠٠٠ نسمة ، والقوة العسكرية ٣٠٠٠٠ رجل

ولعل القارئ الكريم يلاحظ نسبة البدو الكبيرة في الشمال . ولم أتمكن من الحصول على تقدير دقيق بالمدخلات التى يحصل عليها طلال بن الرشيد ؛ ولكنى اعتمادا على حالة الزراعة والتجارة فى مملكه ابن الرشيد ، أقدر تلك المداخيل بما يعادل حوالى ربع المداخيل التى يتحصل عليها فيصل كل عام .

الفصل الثانى عشر

بلاط الرياض - الرحلة إلى الهفوف

دعنى أتناول

درهم سمٍّ ، تلك الآلة سريعة الانتشار

والتى ستنتشر نفسها خلال جميع الأوردة

ويتخلص البدن من النفس

فجأة مثلما يفعل البارود المستطلق

متعجِّلا عندما يخرج من رحم المدفع المميت

شكسبير

التعارف مع عبد الله أول مرة - جمائله - شخصيه ذلك الأمير- زيارة الإسطبل الملكى - الحصان النجدى - تفاصيل السلالة - محبوب رئيس الوزراء- تاريخه ، شخصيته ، وسلوكه - مصر ونجد - استقبال النائب الإيرانى فى البلاط - مضايقات النائب الإيرانى - زيارة المطيعية الصباحية - نتائج الزيارة - مناورات النائب مع حكومة الرياض - اختتام المفاوضات - الاستعداد لعنيزة - المراسلات الرسمية - وصول سعود مع الحامية الجنوبية - استقبال سعود والحامية فى الرياض - المنازعات بين سعود وعبد الله- مقابلة سعود - شخصيته - الوضع النسبى لُكل من الشقيقين - شيخوخة عبد الله وتشككه - مقترح إقامة منشأة فى الرياض - الهروب من المقترح - علاج الاستراكنين - طلب الأمير عبد الله - رفض الطلب - مشهد ليلى فى القصر - موقف حرج - هدوء مؤقت - الهروب من الرياض - توديع العاصمة - ثلاثة أيام فى

وادى سُلَيِّع– رحله مع أبى عيسى والغنام– الأراضى العالية شرقى الطريق– اللقيات – آخر حدود الطريق – المناظر الطبيعية – آبار الأويسيط – الدهناء ، أو الصحراء الكبرى– لحظه خطيرة – رجمة أبى عيسى– آل مُرَّه– انفصال أبى عيسى عن الغنام – الطريق الصحراوى – وادى فاروق – مرتفعات الغار والغوير – انحدار الساحل – الجراد – حلول الليل فى الهفوف .

بعد أن مرت العاصفة الأولى ، بدأت الأمور تبشر بالهدوء وسلامة مقامنا فى العاصمة ، طوال المدة التى نود قضاءها فيها . فقد استطاع جوهر أن يجعل صيتنا يذيع بين الناس ، وبدأت أعداد المترددين علينا طلبا للفحص تزيد يوما بعد يوم ، وزادت على أثر ذلك معارفنا ، وكانت غالبية أولئك الذين تعرفنا عليهم من أصحاب الشخصيات المرموقة . وكان الملك فيصل ، الذى هدأت مخاوفه إلى حد ما ، قد عاد إلى قصره ، واستجمع ، بعد شئ من التأخير ، شجاعته بما يسمح له بمقابلة النائب الإيرانى ، مقابلة خاصة فى الديوان الداخلى . وبرغم ذلك ، لم يكن محمد على الشيرازى سعيدا بذلك الاجتماع أو ذلك الاستقبال ، ولم يستطع تفسير ذلك البرود الذى استقبله به ذلك "البدوى" (هذا هو اللقب الوحيد الذى كان الشيرازى يطلقه على الملك) هو وقائمة الإهانات الطويلة التى تقدم بها إليه ؛ يضاف إلى ذلك أن محبوب لم يكن متحمسا للوصول بهذه المسألة إلى أبعد مما وصلت إليه . ونحن من جانبنا ، اتفقنا مع أبى عيسى ووافقناه على ألا نطلب الاجتماع (بالملك) فيصل ؛ فقد كان ذلك الرجل المسن مجرد أداة فى أيدى وزرائه وأيدى طائفة "المطاوعة" ؛ وإذا كنا لا ننتظر نتائج طيبة من وجودنا فى ديوان الملك فيصل ، فإن ذلك الوجود قد يكون باعثا على إثارة شكوك الحقد والنقد المغرض .

ولما كان عبد الله، لا تراوده مخاوف الشيخوخة التى كانت تعتمل فى صدر والده ، فلم يكن يود أن يطول مقامنا فى البلاد دون أن ننال شرف التعرف عليه شخصيا . والقارئ الكريم يعلم ، أننا كنا قد فضضنا بالفعل رسالة عبيد إلى ذلك الأمير وقرأنا محتوياتها ؛ يضاف إلى ذلك أن محتويات تلك الرسالة لم تشجعنا على التقرب إلى أى من طرفيها . والأهم من ذلك ، أن كل ما وصلنا عن شهرة ولى العهد وما سمعناه عن شخصيته وميوله لم يكن مغناطيسا يجذبنا إلى أحضان ذلك الأمير . كان عبد الله ، بصفته حاكما للبلاد ، يحضر اجتماعين شعبيين كل يوم ؛ ولم يكن من الصعب الاتصال به أو الدخول إليه فى قصره . ولكننا حاولنا جاهدين تحاشى ذلك الجزء من الشارع الجانبى الذى كان أفراد الجمهور يقولون عنه ، إنه يمكن من رؤية الأمير ، وكنا نكتفى برؤية منظر الأمير ، من بعد ، ومعه خدمه وحاشيته .

وعلى كل حال ، فقد وصلتنا ، خلال أيام قلائل ، رسالة من الأمير تطلب إلينا المثول أمامه . وكان حامل دعوة صاحب السمو ، سَمِيًّا للأمير عبد الله ، وواحدا من أولئك النجديين الذين ينتمون إلى أشد الطبقات تزمتا وتعصبا ؛ كان حامل الرسالة رجلا واهي الساقين ، شاحب الوجه ، ومسنا ؛ ومع ذلك فقد كان ذكيا بحق ونشيطا ، وشخصية مقبولة بأى حال من الأحوال . وقد أَبْلَغَنَا ذلك العليم أن صحة عمه (كلمة استعملها الرجل تأدبا بدلا من اسم الأمير) كانت متوعكة إلى حد ما ، وأن ذلك هو الذى دفعه لاستشارة الطبيب . وأنهى الرجل كلامه بأن طلب إلينا بألا نتأخر فى تحقيق الرغبة الملكية .

وهنا ارتدينا ملابس خارجية نظيفة واتجهنا إلى قصر الأمير عبد الله . وفى القصر تحتم علينا أن نتجاوز فناءين خارجيين ، قبل أن نصل إلى ردهة مسقوفة كانت قهوة الأمير عبد الله الخاصة عند مؤخرتها . وكانت للأمير قهوة أخرى ، ولكنها كانت لعامة الناس ؛ وكانت تلك القهوة فى الفناء الثانى ؛ كما كانت أبعاد تلك القهوة كبيرة ، ويصل حجمها الإجمالى إلى ضعف حجم غرفة ضيافة الملك فيصل . فى حين كانت القهوة الخاصة ، على العكس من القهوة العامة ، صغيرة ، ولا تتسع إلا لحوالى عشرين أو خمسة وعشرين فردا على أكثر تقدير ؛ ومؤثثه تأثيثا جيدا ، ولكنها لم تكن جيدة الاضاءة تماما . كانت فترة الصباح قد انتهت ، وأخذت درجة الحرارة ترتفع بشكل خانق داخل المبانى . وكان عبد الله يجلس على سجادة مفروشة فى الردهة ومعه ثلاثة أو أربعة من حاشيته إلى جواره . فى حين كان هناك كثيرون منهم الأبيض ، والأسود ، ويلبسون الملابس البسيطة المعتادة ، ولكنهم ، بلا استثناء ، كانوا مسلحين ، ويقفون أو يجلسون إلى جوار الباب ، وفى الأفنية الخارجية ؛ لقد كانوا يشكلون منظرا غير لطيف ، وبخاصة النجديين الحقيقيين منهم .

ولولا مظهر التعالى والصلافة ، وميله الشديد إلى السمنة والبدانة – إذ يبدو أن ذلك عيبا وراثيا ، فى بعض أفرع الأسرة – لبدا عبد الله رجلا مقبولا . وعبد الله ، بالصورة التى هو عليها ، يشبه إلى حد بعيد هنرى الثامن فى كثير من ملامحه ، يضاف إلى ذلك أن هاتين الشخصيتين لا تختلفان عن بعضهما اختلافا تاما . وعندما دخلنا إلى مجلس الأمير عبد الله حاول أن يستجمع شكلا من أشكال الكياسة الجافة ، واستقبلنا استقبالا مشجعا ، برغم أننى سرعان ما اكتشفت أن طريقة استقباله

البدني لنا كانت من قبيل إشباع فضوله ليس إلا . وكان من الطبيعي ألا يرد على لساني ذكر عبيد أو رسالته . وبدأ الأمير عبد الله يستفسر بشكل عام عن جبل شومر ، والسبب في ذلك ، أنهم كانوا قد أبلغوه بزيارتنا لتلك المنطقة ، وأوضح الأمير عبد الله أمامنا ، عدم رضاه عن طلال ، وسب ولعن المدافعين عن عنيزة ، كما سب الزامل ولعنه أيضا . ثم دخل الأمير بعد ذلك ، في سلسله من التساؤلات الطبية عن المزاج - الصفراوي ، اللنفاوي ، والدموي ... الخ . وكان يتشوق ، بشكل خاص ، إلى معرفة نوعية مزاجه ، وقد زاد تقديره لي بشكل كبير عندما أكدت له أن مزاجه إنما هو خليط من تلك الأنواع الأربعة . وتلي ذلك ، أن أكد الأمير عبد الله مرارا على حمايته لنا ورغبته الطيبة تجاهنا ، وأنا لم أشك أبدا أن ذلك كان من قبيل النفاق ، نظرا لأنه ، حتي ذلك الوقت ، لم تكن تراوده الشكوك بالنسبة لنا . وفي النهاية ، أمرنا بدلا من أن يطلب إلينا ، بالحضور إليه في ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي ومعنا كتبنا الطبية ، معربا عن رغبته الأكيدة في تعلم فن الطب : ودارت بخاطري ، ويخاطر القارئ الكريم المقولة التي تقول : "هذا تلميذ واعد" .

وعلى كل حال ، كان الأمير عبد الله متشوقا ، عندما وصلنا في صبيحة اليوم التالي إلى قهوته الخاصة ، وتناولنا القهوة وتطيبنا على نحو يعكس كثيرا من الاحترام والتقدير ؛ ويجلس الأمير معنا ساعة كاملة نقرأ ويَقْرأ لنا ، من كتابي القديم المطبوع في بولاق ، أو من مخطوط قديم مجهول التاريخ من مكتبة صاحب السمو ، كان يحتوي على بعض الوصفات النبوية العلاجية (مما أثبت للأسف ! معرفة وليّ العهد الهزيلة بالطب) ؛ وهذه الوصفات عبارة عن تعاريف قديمة وتذاكر مسروقة من ترجمة غير دقيقة لكتاب جالينوس في الطب ، وقد أتلفها سارقها بأن خلطها ، أو إن شئت فقل لخبطها ، مع بعض الأسماء الفارسية لبعض النباتات والمزروعات التي تحمل أسماء من صعيد مصر ، الأمر الذي يجعل حتي (النبي دانيال) عاجزا عن تفسير هذه التعاريف . وكان من الطبيعي أن نعامل ذلك الكتاب بكثير من الاحترام والتبجيل، وحاولنا تطعيمه ، بصورة أو بأخرى ، ببعض التفسيرات الأصيلة ؛ وأنا لا أدري مدى ما أصابه ذلك الكتاب من نجاح بعد هذه الإضافات . وفي جميع الأحوال ، فقد نجحنا في اكتساب ثقة ولي العهد بنا إلى حد بعيد ، وأصبحنا عندما نمر على خدم القصر وحراسه يضحكون في وجهنا إن كانوا من البيض ، ويكشرون إن كانوا من السود ، إلى أن بدأنا نألف القصر ونتآلف مع ساكنيه والعاملين فيه .

ويستمر الحال على هذا المنوال المحبب ثلاثة أسابيع . إذ كانت تصلنا كل يوم تقريبا دعوة عامة أو خاصة لزيارة الأمير ، ونمضي ساعتين أو ثلاثة كل مساء أو أثناء الليل وسط هذا الجو الملكي . ولم يكن سموه متحفظا مني على الإطلاق . وكان يتكلم في السياسة ، كما كان يهزأ من منطلق الجهل المتغطرس بتلك الدول التي سحقت إمبراطورية أجداده منذ سنوات ، والتي أعدمت واحدا من أجداده ، ونفت آخر ، بل وأسرت والده فترة طويلة . وعلى كل حال ، فإن القسطنطينية والقاهرة لم تكن تشكلان أي شيء في نظر عبد الله ، وعندما سألته ذات مرة ، وبطريقة عابرة ، إن كان قد زار مكة فأجابني قائلا : "سوف أزورها ، ولكني سوف أذهب إليها راكبا جوادا" ؛ بمعنى إننا قد نشاهد ذلك ونحن على قيد الحياة . ثم بدأ يتكلم بعد ذلك عن الخطط الفظيعة التي وضعت للاستيلاء على عنيزة ، وكيف سيتم دك الجدران والأسوار بالمدافع ، أو بالأحرى إذابتها بالماء عن طريق آلة ضخمة ، نظرا لأنها مصنوعة من اللبن ؛ كما حدثنا أيضا عن الطريقة التي سوف يقطع بها رأس الزامل ، الخ . يضاف إلى ذلك أن سلسلة انتصاراته على البدو الغزاة وعلى جيرانه المسالمين ، جعلت الأمير يظن أن الجيش النجدي هو أول الجيوش ، وأنه هو نفسه أول قائد على وجه الأرض . والواقع أن الأمر هنا ليس فحسب من قبيل التباهي وإنما لأن الفرصة مهيأة لـ – عبد الله داخل حدود شبه الجزيرة العربية ، أن يكون مهيمنا وطاغيا على من عداه أيا من كان ؛ يضاف إلى ذلك أن مصر لا يتهيأ لها كل قرن شخصية من طراز إبراهيم باشا حتى تقود جيوشها .

وقد تمكنت خلال هذه الفترة من مشاهدة الإسطبل الملكي ، وتلك فرصة كنت أتحينها وأتحرق لها شوقا . والسبب في ذلك ، أن الحصان النجدي لا يقل عن سائر أنواع الخيول العربية التي تتفوق كل سلالاتها على السلالات الفارسية ، وسلالة رأس الرجاء الصالح ، والسلالة الهندية . ونجد هي الموطن الحقيقي للسلالة العربية ، أو إن شئت فقل النمط الأعلى ، أو النوع الأصيل . هذا هو ما سمعته ، وبالتالي هذا هو أيضا ما أعرفه من واقع خبراتي وتجاربي ؛ برغم علمي بأن المصادر الرسمية لها رأي يخالف هذا الرأي . وعلى أي حال ، فإن مجموعة خيول الملك فيصل ، قياسا على المجموعات الأخرى ، تحتل المرتبة الأولى بلا منازع ؛ ومن يشاهد هذه المجموعة ، فإنما يكون قد شاهد أرقى أنواع الخيول وأكملها لا في الجزيرة العربية وحدها وإنما في العالم كله .

حدث أن فرسا كانت قد أصيبت بجرح فى كتفها من الخلف ، من أحد الخيّالة ؛ ونظرا للإهمال فى علاج الجرح وعدم العناية به ، فقد تلوث وتحول إلى ورم أحار أكثر البيطريين النجديين خبرة ومهارة . وذات يوم ، وبينما كنت أجلس مع بركات فى قهوة الأمير الخاصة ، دخل صبى ، كعادته كل يوم ، على الأمير عبد الله ليحكى له عن أحوال الإسطبل . ونظر إلىَّ (الأمير) عبد الله ، وسألنى إن كنت أستطيع علاج جرح الفرس . وقبلت العرض بكل سرور وطلبت زيارة المريضة ، برغم أنى قصرت خدماتى فقط على مسألة الفحص ليس إلا ، وامتنعت عن التدخل فى كل ما يدخل فى نطاق عمل الطبيب البيطرى . ويصدر الأمير تعليماته الخاصة بذلك الموضوع ؛ ثم يحضر إلينا فى المساء صبى حسن الطبع ، كما هى عادة الصبية ، ويرافقنى إلى الإسطبل مباشرة .

وإسطبل الملك يقع خارج المدينة ، ناحية الجنوب الشرقى ، وإلى اليسار قليلا من ذلك الطريق الذى وصلنا الرياض منه أول مرة ، كما لا يبعد ذلك الإسطبل عن بساتين عبد الرحمن الوهابى (آل الشيخ) . والإسطبل يشغل مساحة مربعة طول ضلعها حوالى ١٥٠ ياردة ، وغير مسقوفة من الوسط ، وبداخلها حظيرة تمتد بطول الجدران الداخلية ؛ ويتم ربط الخيول إلى أوتادها ، أثناء الليل ، فى هذه الحظيرة ، وبخاصة أن عدد هذه الخيول ، عندما شاهدتها ، كان يصل إلى حوالى ثلاثمائة حصان ؛ ويتم فك هذه الخيول أثناء النهار لتتجول فى كل أنحاء الإسطبل . كان الجزء الأكبر من هذه الخيول غير مربوط عندما ذهبت مع الصبى إلى الإسطبل ؛ وعلى كل حال ، كانت قلة قليلة من تلك الخيول ، مربوطة إلى معالفها ؛ وكان البعض ، وليس الكثير منها قد وضع على ظهورها قطعا من القماش (عراقات) . فلم يكن الندى الغزير الذى يسقط فى وادى حنيفة يسمح ببقاء تلك الخيول معرضة ومكشوفة أثناء الليل ؛ وقيل لى أيضا أن الريح الشمالية التى تهب على هذه المنطقة ، بين الحين والآخر ، تؤذى هذه الخيول ، مثلما تفعل الريح البرية فى خيول الهند . شاهدت ما يقرب من نصف خيول الإسطبل الملكى ولكن بقية الخيول كانت ترعى ؛ ويقدر عدد خيول الملك فيصل بحوالى ستمائة رأس ، أو ما يزيد على ذلك .

والعرب لا يفكرون فى ربط الخيل من أعناقها ؛ وإنما هم يستعملون طولا بدلا من الحكمة ؛ ويتم وضع حلقة حديدية خفيفة حول رسغ قدم من قدمى الحصان الخلفيتين ، ويتم قفل هذه الحلقة بقفل من الحديد ، متصل بسلسلة من الحديد طولها يصل إلى حوالى قدمين ، وتنتهى بحبل ، مثبت فى الأرض على بعد مسافة قصيرة ، بواسطة وتد

حديدى ؛ وهذه هي الطريقة المتبعة في ربط الخيول داخل الإسطبل الملكى . أما إذا كان الحصان من النوع المتعب دائم الحركة ، فيتم ربط واحدة من قدميه الأماميتين بالطريقة نفسها . ومن المعروف أن الخيول فى الجزيرة العربية أقل عنادا وشبقا منها فى أوربا ، ولعل هذا هو السبب فى عدم لجوء العرب إلى الخصى برغم أنه معروف لديهم . ولم أعثر على أى سبب خاص يمنع العرب من القيام بعملية الخصى ، وكل ما فى الأمر إن هذه العلمية تعد نادرة جدا ، لأنها ليس لها ما يبررها ، علاوة على أنها ، فى رأيهم ، تقلل من قيمة الحيوان .

ولكن هيا بنا نعود إلى الخيل التى أمامنا ، لم يحدث أن شاهدت أو تخيلت أننى سوف أشاهد مجموعة من الخيول لها مثل هذا القدر من الجمال . كانت قامة هذه الخيول منخفضة إلى حد ما ؛ ولا أعتقد أن قامة أى منها تزيد على خمس عشرة قبضة[1] ، وأنا أرى أن متوسط ارتفاع هذه الخيول لا يزيد على أربع عشرة قبضة ؛ ولكن أشكال هذه الخيول وصلت من الدقة والكمال حدا أصبح معه افتقارها إلى الحجم لا يعد نقيصة أو عيبا على الإطلاق . وأكفال هذه الخيول ممتلئة ، وأكتافها تنحدر بطريقة جميلة تجعل الإنسان ، كما يقول الشاعر العربى "يتشوق جنونا إليها" ؛ وظهورها صغيرة ، بل وصغيرة جدا ، لتحمل سروجا صغيرة أيضا ، ذلك الانحناء الطفيف الذى يوحى بالمرونة فى غير ضعف ؛ ورأس عريض من الأعلى ، ومستدق من ناحية الأنف الذى ينطبق عليه قول الشاعر العربى"يشرب من وعاء سعته ثمن جالون" ، إن قدر لمثل هذا المكيال أن يكون موجودا فى نجد ؛ ومظهر الحصان النجدى يوحى بالذكاء والتفرد ، وعيناه كبيرتان ، وأذنه صغيرة تشبه الشوكة ، ورجلاه الأماميتان والخلفيتان تبدو وكأنها مصنوعة من الحديد المطروق ، والحصان النجدى نظيف جدا وهو مفتول العضلات ؛ وحافره مستدير وأنيق ، وهذا هو ما يصلح للأرض الصلبة ؛ وذيله يمتد على شكل عَقْدٍ كامل ؛ وشعر ناعم ولامع ، وخفيف ، وشعر عنق الفرس ، أو إن شئت فقل عرفه ، طويل بشكل معقول ولكنه ليس كثيفا ؛ ومظهر الحصان النجدى ومشيته تبدو كما لو كانت تقول : "تناظرنى ، فهل أنا لست شعْراً ؟" إن مظهر هذه الخيول يؤكد شهرتها وذيوع صيتها ، وقيمتها ، وكل ما قيل فيها من أشعار . واللون الغالب على هذه الخيول هو اللون الكستنائى أو الرمادى ؛ ويندر هنا اللون الكستنائى

(١) القبضة : وحدة تساوى أربع بوصات لقياس ارتفاع الخيل خاصة – (المترجم) .

الفاتح ، واللون الحديدى ، واللون الأبيض ، وكذلك اللون الأسود ؛ واللون الكستنائى الحقيقى ، وكذلك اللون الرمادى المنقط بنقط ضاربة إلى الحمرة ، وكذلك اللون الأرقط غير موجود هنا بالمرة. ولكن إذا سألنى سائل عن المميزات الخاصة بالحصان النجدى، فإننى سوف أرد قائلا هى : انحدار الكتف ، ونظافة الساق ، واستدارة الكفل ، برغم أن كل جزء من أجزاء هذا الحصان فيه جمال وانسجام (لم تشهده عيناى) فى أى مكان آخر .

وغنى عن القول أننى التقيت هنا مرارا ، وطوال هذه الرحلة ، كثيرا من أنواع الخيول ودرستها بطريقة علمية ؛ ولكنى أجلت التعرض لهذا الموضوع إلى هذه المرحلة من الرحلة . وفى حائل وجبل شومر عثرت على أمثلة ممتازة لما يمكن أن أسميه الحصان العربى : وهى سلالة جيدة ، يقبل على شرائها ، بين الحين والآخر ، الأمراء الأوربيون ، والنبلاء ، بل وعامة الناس أيضا ، ويدفعون فيها أثمانا باهظة . وهذه السلالة تأتى من فرس من جبل شومر أو من المنطقة المجاورة له ، يقوم بتلقيحها حصان نجدى ، ويحدث العكس فى بعض الأحيان ؛ ولكن يستحيل أن تكون (برغم أنى هنا ، قد أكون معرضا للنقد من منطلق "الحقائق المنطقية") هذه السلالة نجدية الطرفين تماما . وهذه الخيول ، برغم كل هذا التميز ، ليست رائعة الجمال ، وأنا لا أذكر أننى شاهدت أى حصان من هذه الخيول دون أن أكتشف فيه نقطة ضعف معينة؛ وقد تكون نقطة الضعف هذه على شكل ثقل قليل فى الكتف ، أو على شكل ترهل قليل فى الكفل ، أو على شكل انكماش فى الحافر ، أو صغر العين بشكل ملحوظ . وقامة هذه الخيول النجدية تتباين بشكل كبير أيضا ؛ فبعضها يصل ارتفاع قامته إلى ست عشرة قبضة ، والبعض الآخر ينخفض إلى أربع عشرة قبضة . وكل الناس يعرفون الفروع التقليدية لشجرة أنساب الحصان العربى فمنها : المنافى ، والشقلاوى ، والحمدانى ، والطريفى .. الخ ؛ وقد سبق أن قمت بإعداد قائمة بهذه الأسماء ، أثناء مقامى عدة سنوات ، قبل هذه الرحلة ، بين بدو السباع والروالة ، ولم أجد أى فارق يستحق الذكر بين ما قيل لى والروايات التى وردت فى كتب الرحالة بل والمؤلفين المتخصصين فى هذا الموضوع . ولم يغب عن بال البدو أن يتغنوا بأساطيرهم المتكررة عن إسطبل سيدنا سليمان .. الخ . ولكنى أميل إلى اعتبار الجزء الأكبر من هذه السلالات ، بل ولازلت أنظر إلى عراقة أصل هذه الخيول ، على إنها أمور ما تزال حديثة ، وليس لها شأن كبير ، وإنها دخلت إلى أسواق الخيل عن طريق البدو أو عن

طريق الحضر . زد على ذلك أن الفرس القهلانية لا تعد بأى حال من الأحوال ، ضمانا لحصان قهلانى ؛ والسبب فى ذلك أن تهجين السلالة أمر يحدث كل يوم ، وشومر ليست استثناء من ذلك . وأنا عندما وصلت إلى شومر لم أسمع أى شىء عن الحصان الشقلاوى ، أو الدلهامى ، أو عن أى اسم آخر من هذه الأسماء النَّسبيَّة ؛ يضاف إلى ذلك أن إسطبلات الملك سليمان لم تكن أشهر من إسطبلات أو جيوس **Augeus** . وفى نجد تأكدت أنهم ليس لديهم شجرة نسب لهذه الخيول ، وأن كل ما يهمه فيما يتعلق بالسلالة هو التأكد من نسب الأب ونسب الأم ؛ وأردف الصبى قائلا : يبدو أن سليمان أخذ منا الخيول ولم نأخذها نحن منه ؛ وهذه الملاحظة تثبت أن قائلها كان لديه قدر كبير من النقد التاريخى . وخلاصة القول ، إن من يريد أن يكون خيالا جيدا فى نجد لابد أن يتمتع بنفس القدرة على التحرى والتقصى ونفس المعرفة التى يتمتع بها أهل يوركشير **Yorkshire** ، ولا أكثر من ذلك ولا أقل ؛ بل وربما يكون أقل منهم فى إلمامهم بالكتب المكتوبة عن الخيول .

والسلالة النجدية الأصيلة ، فى ضوء ما توصلت إليه ، يمكن العثور عليها فى نجد نفسها ، بل إن أفراد هذه السلالة لا يوجدون بكثرة فى نجد أيضا ، ولا يحوز هذه الخيول أو يمتلكها سوى الرؤساء أو الأثرياء أو أصحاب المنازل الرفيعة . بل إن هذه الحيوانات ، لا تباع أو تشترى مطلقا ، كما يقول الناس هنا ؛ وعندما سألت عن طريقة اقتناء جواد من هذه السلالة أجابونى بأن ذلك يكون عن طريق "الحرب ، أو الوراثة ، أو عن طريق الإهداء" . وأنه عن طريق الإهداء فقط يمكن لحصان من هذه السلالة أن يغادر نجد ، مع أن ذلك يعد مسألة نادرة أيضا ؛ وفى الحالات السياسية التى يجرى فيها إهداء خيول من هذا القبيل إلى مصر أو إيران ، أو إلى القسطنطينية (وقد شهدت بنفسى مناسبتين من هذا القبيل وسمعت عن حالات أخرى كثيرة) ، فإن الإناث تستبعد تماما من عملية الإهداء ، ولا يرسل سوى الذكور الهزيلة ، التى ينظر إليها فى الأماكن الأخرى على إنها من الخيول الجميلة بحق ، والتى يجرى انتقاؤها فى مثل هذه الأحوال .

ويحتفظ كل من عبد الله ، وسعود ، ومحمد بخيولهم فى إسطبلات مستقلة ، يحتوى كل واحد منها على ما يقرب من مائة حصان. وبعد كثير من التحرى والملاحظة، توصلت أنا وزميلى إلى نتيجة مفادها أن إجمالى عدد الخيول النجدية لا يزيد على

خمسه آلاف حصان ، بل انه ربما يقل عن ذلك العدد . أما مسألة أن عدد الخيَّالة فى الجيش يقل بدرجة كبيرة عن عدد الجمَّالة فيمكن تفسيرها تفسيرا قاطعا ، من منظور أن الخيول النجدية لا تستعمل مطلقا إلا فى الحرب أو الاستعراض ، فى حين تستعمل الجمال وأحيانا الحمير فى السفر وكل الأعمال الحقيرة الأخرى .

وهناك قصص جميلة تروى عن الألفة التي بين العرب، البدو على وجه الخصوص ، وخيولهم ؛ وكيف أنهم يحملون المهر الوليد ، عند مولده ، بين أيديهم ولا يسمحون له بالسقوط على الأرض، وكيف أن هذا المهر الوليد يلعب مع أطفال الأسرة داخل المنزل ، وكيف يأكل ويشرب مع صاحبه أيضا، وكيف يعتنى به صاحبه عندما يتوعك، انتظارا ، بلا أدنى شك ، أن يرد هذا الجواد ، الجميل لصاحبه عندما تسنح له الفرصة بذلك . وحكى الناس لى أيضا أن الحصان العربى أجمل والطف وأذكى بكثير جدا ، من حصان "إنجلترا السعيدة" الذى يبقى حبيس الإسطبل مربوطا ، والذى توضع على عينيه ، غمامتين ، ويظل سجينا طول الوقت . وأنا أقر بذلك وأعترف به تماما ؛ المؤسف أن الأمور لا يمكن أن تكون غير ذلك . وتنشئة الحصان العربى على الاتصال الوثيق بالإنسان ، وإتاحة الفرصة له كى يستعمل حواسه وأطرافه بما يرضيه ، يهيئ لهذا الحيوان فرصة الاستفادة إلى أبعد حد ممكن من مشاعر وغرائز أصله الطيب ، وهذا أمر قل أن يفشل فى معظم الأحيان . وعلى كل حال ، فنحن عندما نتناول الظروف الخاصة بحياة الحصان العربى ، والتى سبقت الإشارة إليها ، نجد أنها لا تشكل قاعدة عامة أو أسلوبا خاصا فى تنشئة الخيول وتربيتها ، يضاف إلى ذلك أن العربى لن يكون مخطئا عندما يضرب فرسه على أنفها عندما تدس أنفها فى طعامه ، أو عندما يسمح للطبيعة أن تقوم بدور القابلة ، عندما تكون الفرس بحاجة إلى ذلك . ومع ذلك ، فأنا لا أود القول إن الطرف والنكات القيمة التى ترد على صفحات كثير من الكتب قد لا تحدث هنا أو هناك ، وإنما ، يهمنى أن أقتبس ما قاله أحد الشعراء العرب " أنا لم أر قط شبيها لهذا الجواد ، أو سمعت عنه" . أما فيما يخصنى أنا شخصيا ، ومن واقع تجربتى الشخصية ، فأنا لم أُطْعِم الحصان العربى إلا من يدى ، وليس من صحنى ، وسيطرت عليه ، أكثر من أولئك الذين يسيطرون على أرواح الهوة السحيقة ، إذ كان يأتى إلىّ كلما ناديته ؛ وأنا لا أستطيع تصنيف بقية ما قيل عن هذه الخيول ، ولكنى لن أتردد فى إضافته إلى حكايات الصحراء الكثيرة الأخرى .

وبعد أن أمضيت ساعة كاملة ، رحت أتجول خلالها بين هذه المخلوقات الجميلة ، وبصحبتي هؤلاء الصبية المحترفون المدربون والذين يستشعرون لذة لحوم الخيل ، فحصت الفرس المصابة ، وفحصت فرسا أخرى كانت لا تقبل على الطعام ، ووصفت لهما علاجا لن يضر إذا لم يفد ، وغادرت الإسطبل ، وأنا أتحرق شوقا إلى معاودة رؤية هذه المخلوقات ، التي شاهدتها مرارا بعد ذلك من منطلق كوني طبيبا .

وكلما بعدنا ومضينا قدما ، وتخطينا حدود جبل طويق الشرقية والجنوبية ، نجد أن هذه السلالة العربية تتدهور من ناحية الجمال والاكتمال ، والحجم والقوة . وأنواع السلالات المحلية التي شاهدتها في عُمان تشبه إلى حد بعيد خيول "التاتوز" tattoes الموجودة في الهند ؛ ولكن نقص الخيول في الركن الشرقي من الجزيرة العربية يعوضه انتشار الذلول في تلك المنطقة .

والخيول النجدية مشهورة بسرعتها الفائقة ومقدرتها على تحمل التعب ؛ والواقع أن الخيول النجدية تنفرد بهذه الخاصة الأخيرة . ومسألة أن يمضي الجواد النجدي أربعاً وعشرين ساعة سيرا على الطريق دون طعام ودون تبرم أو احتجاج أمر له مغزاه؛ كما أن مسألة التوقف عن الطعام وأداء العمل نفسه ، في جو الجزيرة العربية المحرق ، مدة ثمان وأربعين ساعة تنفرد بها أيضا هذه السلالة من الحيوانات . زد على ذلك ، أن هذه الحيوانات ، تنفرد بميزة معينة ، لا علاقة لها بأفواه هذه الخيول ، إذ من السهل ركوبها بدون شكيمة أو لجام ، وإنما بالاعتماد على إحساس هذه الحيوانات بحركات الركبة ووخزات الرِّكاب ، واستجابتها لأقل وخزة من ناحية وصوت راكبها من ناحية أخرى ، ومن هنا فإن الخيول النجدية تتفوق بكثير جدا على كل ما تعلمه مدارس الفروسية للخيول الأوربية برغم أنها مزودة بالشكائم ، واللجائم بل وبكل شئ . وقد ركبت هذه الخيول النجدية مرارا بناء على عروض من أصحابها ، وكنت أركبها بدون سرج ، أو لجام ، أو ركاب ، وكنت أنطلق بها بأقصى سرعة لها ، وأستدير بها فجأة ، وأجعلها تتوقف فجأة توقفا كاملا ، وكان ذلك يتم بأقل قدر من الصعوبة وبأقل قدر من التوافق بين حركات الحصان وما أريده أنا ؛ والذي يركب هذه الخيول يحس وكأنه يركب قنطوراً[١] ، أو إن شئت فقل : يستشعر أنه مخلوق عجيب ومتميز . وهذا يرجع في معظمه إلى نظام التنشئة العربية للخيول ، والذي يتفوق على النظام الأوربي من

(١) القنطور : كائن خرافي نصفه رجل ونصفه فرس - (المترجم) .

حيث إنه يغرس في هذه الحيوانات غريزة المرونة والطواعية . وعلاوة على ذلك ، فإن سرعة الجواد لا قيمة لها إذا لم تكن مرتبطة بهاتين الخاصيتين ، والسبب في ذلك أن " الارتداد" المفاجئ وليس "المضى قدما" ، سواء أكان في سباق للخيول العربية في المطاردة والحرب ، هو القاعدة وهو الأساس . وهذه النوعية من التدريب مطلوبة أيضا لمسابقة الجريد ، ذلك الدوري الذي يقام في الشرق ، والذي شاهدته في نجد ، ووجدت انه لا يختلف في شئ عن العروض المماثلة التي تقام في كل من سوريا ومصر ، باستثناء أن الجريدة نفسها تكون أخف قليلا . وينبغي أن أشير هنا أن هضاب نجد الصخرية تحتم "بيطرة" حوافر الخيل بصورة دائمة ، ولكن حدوة الفرس هنا من النوع البدائي الثقيل ؛ وهم يقومون هنا بتقشير الحافر بعض الشئ ، كما أنهم يثبتون الحدوة بستة مسامير . ولولا جودة الحوافر ، لأفسدت البيطرة النجدية كثيرا من هذه الخيول الجميلة .

وأنا أتحول عن موضوع الخيول وكلي أسف ؛ ولكن عزائي الوحيد في ظل ما وصلت إليه عند هذه المرحلة ، يتمثل في المقولة : "ذلك الحيوان الأنبل" التي قالها كوبر في إحدى المناسبات ، عندما كان يقارن الجواد بصاحبه الذي يسير على قدمين . وأنا أتصور أن كوبر كان ينبغي أن يستعمل الصفة "نبيل" بدلا من أفعل التفضيل "أنبل" ؛ وبذلك يكون الشاعر قد أخطأ في هذا الاستعمال ؛ وسبب ذلك أن الإنسان برغم رداءته في بعض الأحيان ، وبرغم وضاعته في بعض الأحيان أيضا ، إلا أنه يكون فيه دوما جانبا خيِّرا إنسانيا ، جانبا يستحق الحب والتقدير ، جانبا يستحق الاحترام . والوهابيون بشر مثاليون بما لا يدع مجالا لشك ، ولا تزال حاشيتهم وبلاطهم مثالي أيضا ؛ ومع ذلك يظل الإنسان دوما شبيها بربه ، برغم اختلاف بنيته الدنيوية البدنية أو الأخلاقية من حين لآخر .

وبينما راحت تنهال علينا أفضال عبد الله ، وبينما كنا نكتب وصفات طبية لحيواناته من ناحية ولخدمه وموظفيه من الناحية الأخرى ، وافق محبوب ، بفعل تأثره بمدائح والده ، على أن يزورنا ، وهو الأمر نفسه الذي دفعنا حرصنا إلى تجنب القيام به تحسبا للتوقعات . رئيس الوزراء محبوب ، وما أدراك ما رئيس الوزراء ! ومن حسن حظي أن أبا عيسى كان قد وصف لي صورة سعادته في أحيان كثيرة ، مما جعلني أتعرفه فور دخوله إلى منزلنا ، غير أن رفيقي بركات ، لم يكن يصدق مطلقا أن الشخص الذي أمامه هو العمود الرئيسي في نجد بل وفي الامبراطورية الوهابية كلها .

ولما كان محبوب ابن أمَةٍ جورجية Georgian ، أهداها عباس باشا للملك فيصل عند اعتلائه العرش ، فإن عمر محبوب يقدر بحوالي خمسه وعشرين عاما ، وكان مظهره صبياني جدا ، وغير نجدي ، وغير عربي أيضا مما أحارني وأثار دهشتي . ووالد محبوب هو جوهر ، مريضنا الأسود - وأنا أقصد بذلك والده القانوني ، والسبب في ذلك ، أن هذه البشرة البيضاء ، وهذا الشعر الملون الناعم ، وهاتان العينان الزرقاوان ، وهذه الأطراف المتناسقة لا يمكن بأي حال من الأحوال عزوها إلى والد أسود، اللهم إلا إذا كانت دراستي وكتبي وملاحظتي مزيفة ولا أساس لها من الصحة . والواقع أنه إذا كان اللسان الرسمي ، من قبيل الحرص الذي سوف ألتزمه طوال كتابة هذه القصة - يجعل جوهرا أبا لرئيس الوزراء، فلا أحد، سواء أكان كبيرا أم صغيرا ، ينكر أو يخامره أي شك في أن فيصل هو صاحب الحق أولا وأخيرا في منح هذا اللقب العزيز . وأنا هنا في غنى عن الدخول في تفاصيل أسرار البلاط الملكي أو فضائحه ، إن قدر للفضائح أن تجد لها مكانا في نجد ؛ وهنا ينبغي على القارئ الكريم، أن يثق بأنني على يقين من أنه طالما أن المرأة الجورجية هي أم محبوب، فإن فيصل سيدها الأول ومالكها ، لا بد أن يكون والد محبوب أيضا .

ومحبوب شاب ماهر ذكي ، بلا أدنى شك ؛ وهو جرئ وجسور أيضا . وتذوقه للأدب بصفة عامة ، وحبه للبحث يدلان على أصله القوقازي ، ويظهران عليه بشكل واضح . ومع ذلك فإن الغرور ، والصفاقة ، والتباهي ، والقسوة الاستبدادية ، والسلوك الطائش الذي يتناقض مع الوقار والرزانة المعتادة في الرياض ، كل ذلك في شخص محبوب ، وليس في ذلك ما يثير الدهشة أو العجب ، إذا ما أخذنا أصله وتربيته في القصر بعين اعتبارنا . وعلى كل حال ، فإن هذه العيوب تُعَدُّ مستورة ومقنَّعة إلى حد ما ، بل إنها تكاد تكون لائقة ومقبولة ، في ضوء استقلاله الفكري ، والسلوكي القوي ، ونغمته الصريحة ، وبشاشته الصادقة في بعض الأحيان ، والتي يفتقر إليها كثير من النجديين المحيطين به . وأخيرا ، وليس آخراً ، فإن محبوباً وسيم بشكل ملفت للنظر ، وجميل ، وجورجي تماما ؛ والخلاصة هي أن محبوباً عبارة عن شخصية أرنولد التي أوردها الشاعر الإنجليزي بايرون Byron في الحلم الغريب في قصيدته " ممسوخ مشوه " De Formed Trans Formed تلك الصورة التي كانت تقفز إلى ذهني ، في معظم الأحيان ، وأنا أتحدث مع محبوب الخلاسي . هذه البسطة في العقل وفي الجسم تجعل هذا الغلام القوقازي المولد ، وهو في سن يجاهد فيها الإنجليز الخلص في

المدارس ، أو يعملون عازفى أبواق أو ضباط صف فى البحرية ، يقود طاغية نجد العجوز من أنفه ، ويرهب ابنه المخيف بالصياح والعبوس ، ويتحكم فى عبودية أفراد البلاط ، وفى الرؤساء ، وفى المطاوعة ، كما أنه هو وحده الذى يتحكم فى مصير أكثر من نصف شبه الجزيرة العربية .

كانت زيارة محبوب الأولى لنا فريدة ومتميزة . فقد خلت من الرسميات ، وغلب عليها الود والألفة ، وكان يجرى خلالها توالى الأسئلة قبل اكتمال الإجابة ، وجرى خلالها أيضا فحص كل شئ على وجه السرعة - مثل الكتب ، والعقاقير ، والملابس ، وكل شيء ؛ وتناول محبوبٌ خلالها فنجالا سريعا من القهوة ، وقال لنا بعض الكلمات المشجعة وبعض كلمات الرعاية والحماية ، وصافحنا بطريقة أوربية خالصة ، وودعنا على أمل لقائنا فى مرة قادمة .

وبدأ أبو عيسى ، الذى لم يكن له مثلنا سند فى البلاط الملكى سوى محبوب ، والذى أصبح مصيره مرتبطا بمصيرنا أيضا ، بدأ هذا الرجل يشعر بالقلق البالغ من تلك الحميمية الوثيقة التى أتبعت ذلك اللقاء الأول ، يضاف إلى ذلك ، أننى أيضا لم أتردد مطلقا فى أن أخلو إلى نفسى وأدرس هذه الشخصية الفريدة والمهمة فى نفس الوقت . واستهدافا منى لهذه الدراسة ، قمت برد الزيارة فى صبيحة اليوم التالى ومعى أبو عيسى .

كان محبوب يجلس فى ديوان جوهر ، وكشف أمامى عن كل مظاهر الفتنة مع أبى عيسى بوصفه راعيا له منذ زمن بعيد ، وبدأ يقدم لى المزيد من هذا التلاحم . ولكنه ، خلال هذه الزيارة ، وجه اسئلته واستفساراته وجهة أخرى ، وهنا اكتشفت أن الوزير بدأ يكرمنى على اعتبار أننى أنتمى إلى الأصل الذى ينتمى هو نفسه إليه ، أى أننى مصرى الوطن ، ولكنى من أصل جورجى أو شركسى . وقد كان لهذه الفرضية أثر غريب فى الرياض وتأثير كبير على الأحداث التى وقعت بعد ذلك .

كانت مصر فى بعض الفترات صديقة لنجد وعدوة لها ؛ فقد كانت نجد تخشى مصر ، عندما يكون لدى نجد مبررا لشكوكها فى مصر . وشكوك نجد الحالية تفوق مخاوفها ، ومع ذلك فالشك والمخاوف قائمان . ونجد لا تخشى إيران أو تخافها ، والسبب فى ذلك أن جيوش الشاه يصعب عليها أن تعبر الخليج الفارسى ، يضاف إلى ذلك أن نجدا لا تخشى أو تخاف وقوع هجوم أو غزو مباشر عليها من القسطنطينية .

والسبب في ذلك أن القوات التركية ستعمل ألف حساب وحساب للمانع الطبيعي الذي يتمثل في التلال والجبال الرملية التي تتوسط المسافة بين القسطنطينية ونجد ؛ ولو حاولت القوات التركية شن مثل هذا الهجوم أو القيام بمثل هذا الغزو ، فإن قلة قليلة من تلك القوات هي التي يحتمل لها أن تصل إلى جبب طويق . وفيما يتعلق بالدول والأمم البعيدة ، وذلك باستثناء دولة واحدة فقط ، فإن أسماء هذه الدول يغلفها غموض ضبابي ، يضاف إلى ذلك أن الخبرة المتكررة ، إن لم تكن خبرتهم ، فهي خبرة جيرانهم على أقل تقدير ، قد علمّت النجديين أن مسألة هبوب عاصفة رعدية بين الحين والآخر ، من الغرب West تعدا أمرا نادرا ، وإن حدثت فإنها لا تكون دوما مصحوبة بعاصفة خطيرة . والخليج الفارسي وحده ، الذي يفتح الطريق إلى البحر الهندي ، وبذلك يجعل الخط الساحلي من الأراضي الوهابية قريبا جدا من أراضي الإمبراطورية التي لا تغرب عنها الشمس ، هذا الخليج هو السبب في مخاوف (الملك) فيصل ، الأمر الذي يجعله يتخوف من أولئك الذين ذهبوا ، في البداية ، إلى الهند بوصفهم تجارا ، ثم تحولوا بعد ذلك إلى غزاة وحكام لها . ومع ذلك ، فإن مصر هي التي تشكل المصدر القريب للخوف بصورة مستمرة :" فالإنسان يستطيع أن يُعيد فعل ذلك الذي سبق أن فعله" ؛ والواقع أن أعلام القديس جورج يمكن أن ترفرف على الشواطئ وعلى السواحل ، ولكن أعلام مصر المنتصرة ترفرف الآن وسط عواصف وادي حنيفة . ومن هنا فإن أهل الرياض ينظرون إلى المصري سواء أكان طبيبا ، أم حاجا ، أو تاجرا ، بشيء من الاحترام ومزيد من الشك ، ينظرون إليه على أنه شخص لا يمكن إهماله أو الوثوق به ، ينظرون إليه على أنه ضيف خطر وغير مرغوب فيه ، ومع ذلك لا يجب التخلص منه بنفس الطريقة السريعة التي يتخلص بها أهل نجد من الأشخاص الآخرين .

كان محبوب مقتنعا في قراره نفسه أننا لسنا سوى مجرد جاسوسين ، موفدين من الحكومة المصرية ، وربما في أمر يتعلق بحرب القصيم ، وحصار عنيزة . ولم يكن ذلك تحذيراً سيئا من جانب محبوب ؛ وكانت دوافع هذا التحذير تتمثل في المسار الذي سلكناه إلى الرياض ، والكتب التي كانت في حوزتنا ، وحقيقة تفوقنا (النسبي) عليه في المعرفة الطبية ، فضلا أيضا عن طريقتي في النطق ؛ كل هذه الأسباب جعلته يصل إلى مثل هذه الفكرة . ولم يعرب محبوب عن ذلك بصورة صريحة أو علنية ، وإنما كان من السهل علينا أن نلاحظ ذلك في الانحراف الذي طرأ على أفكاره ، كما لاحظناه في

تصـــرفاته المستهترة غــير المترابطـــة . زد على ذلك أن محمداً (آل الشيخ) ، ولد عبد اللطيف (آل الشيخ) ، كان قد أذاع كذبة كبيرة مفادها أنه كان قد تعرف على شخصيا عندما كان في مصر ، وأشاع أيضا أنه يعرف تاريخي الماضي ونواياي الحالية : مجموعة من الأقاويل المتناقضة - المتضاربة بحق ، ولكن ليس من السهل محوها أو التخلص منها .

وبعد أن التقيت محبوبا في قهوة جوهر ، بدأ محبوب يفتح لي قهوته الخاصة التي رحت أمضي فيها ساعات طوال خلال الأيام التي تلت ذلك . كانت مكتبة محبوب أغزر المكتبات التي شاهدتها في الجزيرة العربية ؛ إذا كانت تحتوى على دواوين كبار الشعراء وأشهرهم ، مثل أبي العتاهية Ben-El-'Atiheeyah ، والمتنبي ، وأبي العلاء Abu-l-'ola ، إضافة إلى ديوان الحريري ، والحماسة ، وأعمال أخرى من الأدب العربي القديم ؛ إضافة إلى أبحاث في الشريعة والدين كتبها مؤلفون من المالكية والحنابلة ؛ كما كانت المكتبة تحتوي أيضا على تعليقات على القرآن ، وكتب عن الرحالة ، وكانت كل هذه اللمسات توحي بأن تلك المكتبة تم تشكيلها منذ زمن غير بعيد ؛ كانت في المكتبة أيضا أبحاث جغرافية ، تقسم العالم إلى ستة أقاليم ، كانت الجزيرة العربية تجيء في مقدمتها ، بل وأكبرها أيضا ، وأن هذه الأقاليم متشابهة إلى حد بعيد . وأهم الكتب التي لفتت انتباهي مخطوط الامبراطورية الوهابية التاريخي ، الذي يحتوي أيضا على مخطط عام لحوليات التاريخ العربي ؛ والقسم المعادي للإسلام يشبه إلى حد كبير ذلك الذي أورده أبو الفدا ، وربما يكون ذلك القسم منسوخا من كتب أبو الفدا ؛ والفترة في ما بين حروب خالد بن الوليد وقيام الأسرة المالكة السعودية مخصصة لـ - نجد وحدها ؛ وهذه الفترة كانت سيئة الأحداث ، وقد جَسَّدْت في هذه القصة الجزء الأكبر مما وقع خلالها من أحداث ؛ وسوف أورد ، فيما بعد ، ذلك الجزء القليل المتبقي من تلك الأحداث . وكانت السجلات المحاسبية ، وسجلات الوحدات والجنود ، وكذلك المراسلات الرسمية ، وما في حكمها ، كل هذه الأشياء كانت محفوظة في دولاب كبير، ولكن أبواب ذلك الدولاب كانت مفتوحة ، وبذلك كنت أستطيع، بين الحين والآخر ، أن ألقي نظرة على هذه المستندات ، التي تعد الإحصائيات التي أوردتها في الفصل السابق جزءا منها . والواقع أن محبوباً لم يعارض ولم يجد أي حرج في الملاحظات التي كنت أدونها والمقتطفات التي كنت أنسخها ، وبخاصة من الكتب الأدبية ؛ وأنا نادم أشد الندم لأنني فقدت بعضا من هذه الأوراق بسبب الأحداث التي وقعت خلال الجزء المتبقي من الرحلة .

ووعدنا رئيس الوزراء بالكثير ووفى بشيء منه . فقد حرص رئيس الوزراء على ضرورة أن نحصل من القصر ، على الكماليات النجدية – اللحم الطازج والبن – كما قدم لي أيضا هدية قيمة من النقد السائل ، قبلتها منه أملا في تخفيف الشكوك التي تشغل باله . ومع ذلك فقد كانت عينا محبوب عليّ دوما ، وكانتا توحيان بإنسان حائر يطيل النظر إلى شيء في أعماق الماء ، هو لا يستطيع تحديد طبيعته أو معرفة كنهه ؛ وعلى كل حال ، فإن تعاطفه العرقي المزعوم كان يجعله ودودا معي .

وفي الوقت ذاته كان كل من محبوب وعبد الله يسخران من النائب شفاء ؛ وكان النائب بدوره يسخر منهما . وعندما أدرك النائب الإيراني أن فيصل ينظر إلى قضيته ببرود شديد، قرر أن يقوم بزيارة ولده وولي عرشه ، وبعد أن ارتدى النائب أبهى ثيابه ، اتجه إلى قصر الأمير . وبعد أن دخل النائب القهوة ، وجد (الأمير) عبد الله مسترخيا على السجادة على طريقة البدو ، وظهره مفرود إلى الأعلى ، ومن تحت كوعيه مخدة ترفعه إلى الأعلى ، ويشبه إلى حد بعيد منظر الكلب عندما يضع خطمه[1] بين مخلبيه وينظر إليك[2] . "مرحبا" ، قالها الأمير المهذب للسفير الذي دخل عليه ، ثم أشار إليه بالجلوس ، ودون أن يغير من جلسته التي لا توحي بالاحترام . وبعد أن يطيل (الأمير) عبد الله النظر إلى النائب يسأله قائلا : "هل تصبغ لحيتك ؟" وهنا ينبغي أن أنوه إلى أن الوهابيين يعدون تلوين الشعر وصباغته انتهاكًا غير شرعي لحقوق الخالق الذي يهبها لمخلوقاته ، وانه (ﷺ) هو الذي يختار هذه الألوان[3] . وهنا يجيبه النائب بشيء من الضيق ، أن لحيته مصبوغة بالفعل ثم يسأله قائلا : وهل هناك ضرر من صبغها ؟ ويرد عليه عبد الله قائلا : "لأننا نعد مثل هذه الأعمال غير صالحة بدرجة كبيرة" . ويرد عليه النائب قائلا : إن الإيرانيين لا يوافقون على ذلك ولهم رأي آخر . ويسأله الأمير بعد ذلك قائلا : "وهل أنت سني أم شيعي ؟" وهنا يوشك صبر النائب على النفاذ ، بل يصل فعلا إلى نهايته ، ويرد على الأمير قائلا : "أنا شيعي ، ابن شيعي ، وكان جدي شيعيا أيضا ، بل إننا جميعا شيعيون ؛ ولكن قل لي

(١) الخَطْم : بفتح الخاء وتسكين الطاء ، هو أنف الحيوان وفكاه التاتئان – (المترجم) .

(٢) هذا تشبيه سخيف يدل على بذاءة المؤلف وقد علمنا الإسلام عفة اللسان ، وحسن البيان ولم يكن (ﷺ) فاحشاً ولا متفحشاً ولا بذئ اللسان – (د. حلمي عبد المنعم) .

(٣) نعم فقد أباح النبي الصبغ بغير السواد مثل الحناء – (د. حلمي عبد المنعم) .

يا عبد الله هل أنت أمير أم مطوع ؟" قال النائب كل هذا بلغته العربية المكسرة الأمر الذي جعل الغضب شيئا لابد منه . ويرد عليه عبد الله متشامخا : "أنا أمير ، بطبيعة الحال" . ويرد عليه النائب : "لأنني ظننت ، من أسئلتك ، أنك مطوعا ؛ وإن كنت كذلك بحق فاذهب إلى المسجد ، لأن ذلك هو المكان ، وليس القصر ، هو الذي يليق بمن يتكلمون بطريقتك هذه " . وينفجر عبد الله ضاحكا ، ويعتذر اعتذارا أقبح من الذنب ، بأن تظاهر بجهله الأعراف والاحترام الديبلوماسيين ، اللذين يجب الالتزام بهما مع السفراء ، ثم غير عبد الله لهجة الخطاب بعد ذلك . كان كل ذلك من قبل الطيش والاستخفاف من جانب عبد الله ؛ كانت هذه الصلافة نتيجة لحسابات باردة ومدبرة ، تهدف إلى الوصول بذلك الإيراني إلى النتيجة المسبقة التى سبق الاتفاق عليها بين فيصل وولده . ويخرج النائب غاضبا من ذلك البدوى ، ويحاول أبو عيسى أن يثنيه عن مغادرة العاصمة فى اليوم نفسه .

ولم ينجح النائب مع محبوب أيضا ، برغم أنه زاره كثيرا من الزيارات الودية ، على أمل أن يستفيد من نفوذه لدى الملك المسن ، كما سمع أيضا من محبوب ما يسيئ إلى الإيرانيين وإلى الشيعة . هؤلاء الشيعة ، من بين تخيلاتهم الكثيرة ، يكنون احتراما مبالغًا فيه ويصل إلى حد الخرافة لأسماء الشخصيات الصالحة ، ويعدون التعريض ، عن قصد ، بهذه الأسماء جريمة بغيضة . وفي إحدى المرات ، بينما كان النائب الإيرانى موجودا فى الديوان ، تسلم محبوب بعض الرسائل ، التى تحمل البسملة المعتادة فى أعلاها . وبعد أن قرأ محبوب هذه الرسائل ، مزقها وألقى بها ، على مرأى ومسمع من النائب الإيرانى ، فى المدفأه المشتعلة . ولم يقل توسُّل محمد على الشيرازى لدى محبوب بألا يحرق الأوراق التى تحمل البسملة ، عن توسل كل من الناثان El-Nathan ، وديليا Delaiah ، جيماريا Gemariah ، إلى يواقيم Jehoiakim بألا يحرق الورقة التى كتبت عليها النبوّة . بل إن النائب كاد يغمى عليه من هول ما رأى . ولكن حدث بعد ذلك ما هو أفظع وأبشع . كان الشيرازى يحمل معه كوبا فضيا من الطراز الفارسي ، يستعمله في شرب الماء ، وكان مزينا عند حافته بالأسماء الخمسة التى يحترمها الإيرانيون ويوقرونها – محمد ، على ، فاطمة ، الحسن ، والحسين . كان النائب قد حمل هذا الكوب معه ، إلى القصر ذات يوم " ليدهش بها المواطنين " . ويتناول محبوب ذلك الكوب ، ويديره بين يديه ، وبعد أن قرأ النقوش الموجودة على حافة الكوب تساءل قائلا :" ما تلك النقوش الكريهة ؟" ثم ألقى بالكوب

على الأرض . والأفضل لنا هنا أن نتخيل مشاعر النائب بدلا من أن نصفها . وخلال ساعات المساء الهادئة التى كنا نقضيها معه فى مسكنه العالى البارد ، وهو يدخن نرجيلته ويسترجع معنا الأحداث التى وقعت له أثناء النهار ، كنا نستمع منه إلى سرد لكل هذه الأحداث ، وكثيراً من الأحداث الأخرى المماثلة ، التى كان يرويها بلغة عربية مكسرة أو بلغة هندوستانية رشيقة في بعض الأحيان .

ونقلا عن الرواة ، فقد وقع في ذلك الوقت حادث فكاهى ، جعل الأمور تتفاقم وتصل إلى حد الأزمة ، ولكن سخف هذا الحادث أنقذ النائب من انفجار المزيد من الغضب على المشاعر الشيعية . سبق أن ذكرت أن قوائم الصلاة الصباحية والمسائية كانت تتلى فى سائر المساجد الموجودة فى كل أحياء المدينة ، وكان المتقاعسون عن الصلاة يعاقبون عقابا عمليا على تخلفهم عن الصلاة، على أمل المداومة عليها مستقبلا. وكان من الطبيعى ألا يشغل النائب أو رجاله أنفسهم بمسألة الحضور هذه ، من منظور أنهم من الشيعة ، وكان من الطبيعى ، ألا أشغل نفسى أنا وبركات بمسألة الحضور هذه من منظور إننا مسيحيان . وذات صباح قرر " المطوع " المشرف على المسجد ، الذى يتبعه محل إقامتنا ، إننا سواء أكنا كفارا أم غير كفار فإنه يجب علينا أن نفعل مثلما يفعل المسلمون المتقون :" كن روميا عندما تكون فى روما " . وبناء على ذلك ، تلى اسمانا واسم النائب ومن معه ، مع بقية أولئك الذين لم يحضروا الصلاة ، ولكن لم يكن هناك أحد أو أى صوت يثبت وجودنا . وتأسيسا على ذلك ، قام المطوع الغاضب بتجميع مجموعة من الأتقياء مسلحة بالعصى والعكاكيز ؛ وقبيل شروق الشمس بقليل ، يصل المطوع إلى باب دارنا ، وهو أقرب الأبواب للمطوع . ومن حسن حظنا أن الباب كان مقفولا بالمزلاج من الداخل ، فى حين راح بركات وأبو عيسى وأنا معهما ، بدلا من الصلاة والوضوء ، يدخن غليون الصباح ومعه فنجال من القهوة الممتازة . وعندما سمع أبو عيسى الطرق على الباب ، وتعرفه بوحى من إحساسه الداخلى ، تملكه خوف شديد ، لأنه يعرف من واقع الخبرة والتجربة أن التشدد الوهابى عندما يستثار فإن الأمور تتفاقم. وشحب وجه الرجل ، وطلب منا ألا نرد على الطارق ، وأن نختبئ فى غرفة من الغرف الداخلية . ولكن بركات ، على النقيض من كل ذلك ، وبكل شجاعة أهل مدينة زحلة ، صمم على مواجهة الخطر ، واتجه مباشرة إلى الباب ، وفتحه فجأة ، وخرج منه ثم صفقه بعده بشده كى لا يترك فرصة للآخرين كى يدخلوا منه . ثم سمعنا الحديث التالى فى الشارع بين بركات والمطوع وجماعته .

" لماذا لم تحضر صلاة الصبح ؟" "لقد صلينا الصبح ؛ هل تعدوننا موحدين من طائفة غير التي تنتمون إليها ؟" أذن ، فلماذا لم ترد عندما تلونا اسمك ؟" . وقد أوحت إجابة بركات السريعة على أسئلة المطوع ، أوحت له بأننا ربما كنا في المسجد بصورة أو بأخرى . ويرد بركات على المطوع قائلا :" لقد ظننا أنكم أيها الوهابيون لديكم اجتماع خاص بكم ولا يهمنا نحن الأجانب؛ كيف لنا أن نعرف كل عاداتكم وتقاليدكم ؟". ويسأله المطوع قائلا :" ومن الذي كان على يمينك عندما أقيمت الصلاة ؟" ويرد عليه بركات قائلا :" بدوى من البدوان فأنا لا أعرفهم جميعا ؛ وهل من مهمتي أن أتعرف كل بدوان الرياض ؟" ويسأله المطوع قائلا :" ومن الذى كان عن يسارك ؟" ويرد عليه بركات قائلا :" الجدار " . قالها بركات بطريقة توحي بالبراءة وعدم الاكتراث ، الأمر الذي أحار حاملي العصى وجعلهم عاجزين عن التصرف . وعليه ، فسرو الشك لصالحنا ، مثلما يفعل العرب الحقيقيون ، ومضوا إلى حال سبيلهم بعد أن أنذرونا بالمداومة على الفروض الدينية . ويرد عليهم بركات ، بذلك الرد الدينى الغامض قائلا : " إن شاء الله " .

ويترك السرب المقدس بابنا إلى باب دار النائب . وتسمع طرقة تشبه الرعد على الباب ، ويرد علىٌ ، أحد خدام النائب ، بأن يفتح الباب على مصراعيه بحسن نية . لا مكان للإيرانيين : "اطرحوه أرضا ، واضربوه ، ونقوا جلده وطهروه" ، تردد هذا الصياح من جميع الجوانب، وَطُرِحَ المطوعُ الشيعي المشدوه لينزل به العقاب الشرعي . ولكن عليا كان صبيا قويا ، ولم يقع على الأرض بسهولة ؛ وسرعان ما يخلص نفسه من أولئك الجلادين الطيبين ، وينطلق مسرعا إلي داخل المنزل طالباً العون والمساعدة من شقيقه حسن . ويخرج حسن وفي يديه مسدسان ، في حين أحضر على خنجرا وراح يلوح به تخويفا للجميع، ويستيقظ النائب المسن من غرفة نومه في الطابق الثانى، وينظر من الدور العلوى وهو يرتدى ثياب النوم ، شأنه شأن والد شيلي Shelly ذلك المستبد الأشيب ، وراح يصرخ من أعلى لاعنا ومهددا باللغة الفارسية . ويرتد المطاوعة خائفين مذعورين : وراح كل من على وحسن يجريان خلفهما ، وقد حمل على خنجرا في يده ، أما حسن فقد كان يحمل مسدسين كلا منهما في يد ، وراحا يضربان هذا ، ويركلان ذاك ، ويتركان ثالثا يتمرغ في التراب .

ويرتدى النائب ملابسه على الفور ، ويتجه مباشرة إلى القصر يطالب بالعدل في مسألة العدوان على حرمة المنزل من قبل أولئك الذين قاموا بذلك ، وليحتج احتجاجا شديداً على سخافة إجبار الناس على أداء العبادات قسرا . ووجدنا من الأفضل لنا ألا نذهب مع النائب إلى القصر ، نظرا لأن مشكلتنا كانت قد انتهت بسلام ، ولكن أبا عيسى الذى رافق النائب ، تكلم نيابة عنا . وكانت النتيجة أن أصدر الملك أمراً للمطاوعة بألا يشغلوا أنفسهم بعد اليوم بنا أو بما نفعله ؛ في حين بدأ محبوب وجماعته يعاملون السفير الفارسي ، منذ ذلك الحين فصاعدا ، بمزيد من الأدب والاحترام ، تعويضا له عن الإهانات السابقة .

قد يكون من المفيد أن أروى هنا بقية الأشياء التي وقعت لـ - محمد على الشيرازى في الرياض . وبعد شهر من الشد والجذب ، والتعجيل في يوم والتأجيل في يوم آخر ، دون الاقتراب من الموضوع الرئيسي ، كرر أبو عيسى على مسامع النائب ذلك الذى سبق أن قاله له مرارا بوضوح تام ، أكثر من مرة ، ولكن النائب لم يلق لذلك بالا - كان أبو عيسى قد قال للنائب : أن النقود ، والنقود وحدها في العاصمة الوهابية التي تجعل الفرس تجرى ، وأنه إذا كان يريد حلا سريعا ومنصفا لمشاكله ، فما عليه إلا أن يقدم بعض العطايا المعتبرة وبعدها سيكون كل شيء على ما يرام .

كانت تلك أنباء سيئة لـ - محمد على الشيرازى ، الذى كان ممسكا كما هى عادة الإيرانيين ؛ ومع ذلك ، فلم يكن أمام النائب أى خيار آخر . وفى صبيحة اليوم التالى قدم النائب البندقية ذات الماسورتين للأمير عبد الله ، وأرسل ماكينة عمل الشاى إلى محبوب ، كما شقت ياقوتة جميلة زرقاء طريقها إلى غرفه فيصل الداخلية ، أنا أظن أن ابنة الملك الجميلة ، سكرتيرة مجلس الوزراء ، حصلت أيضا على نصيبها من تلك الهدايا . وكان لتلك الهدايا تأثير يشبه السحر . وعلى الفور تم تحرير خطاب اعتذار رقيق عن " الأحداث السابقة " ، موجه إلى الشاه وموقع عليه من فيصل ، وألقى فيه باللائمة كلها ، فى كل ما حصل ، على أبو بطين الذى أصبح الآن لاجئا بين "كفار" عنيزة ؛ ولكن عندما يوقعه الله في يد المؤمن كي يقتص منه ، فإن ذلك الملعون سوف يربط بالسلاسل ويرسل إلى طهران كي يمثل بنفسه أمام جلالة شاه إيران ، اللهم إذا لم يقتل قبل ذلك ، وهذا هو المتوقع والمنتظر . ولم تتعرض الرسالة إلى مهنا من قريب أو بعيد . كما أنها لم تتعرض مطلقا (فقد قرأت هذه الوثيقة بنفسى) للتكاليف

أو الأضرار ، باستثناء ذلك الذى يتعين على أبو بطين أن يعيده لأصحابه - عندما يتم الإمساك بالأرنب البرى ، وهو ما سيكون قريبا بمشيئة الله .

وفى النهاية ، وجدوا أن أفضل وسيلة لقفل فم النائب ، ومنعه من تقديم شكاوى عاجلة عن مدى السلب والنهب الذى حل بأتباعه ، هى تقديم بعض الهدايا للنائب . وأهدوا للنائب حصانا عجوزا ، لا يساوى فى سوق بومباى أكثر من مائة روبية أو ما يقرب من ذلك ؛ كما أهدوا له جملا أيضا ، والجمل فى نجد لا يساوى أكثر من ستة أو سبعة ريالات ، أى ما يقرب من جنيهين إنجليزيين ، كما أهدوه أيضا ثلاثة أو أربعة مشالح من مصنوعات الاحساء ، ولكنهما من الدرجة الثانية ، ألقوها له كما لو كانت غميسة[1] ألقيت إلى سيربيروس[2] الذى ابتلعها بنهم شديد . ولم يكن النائب خبيرا فى لحوم الخيل أو لحوم الإبل ؛ يضاف إلى ذلك أن المشالح هى الأخرى ، كانت جديدة عليه ، ولذلك فإنه كان يُسلِّم أن الحصان والجمل اللذين أهديا إليه كانا الأفضل فى نوعيهما . وفى مقابل ذلك ، تعهد النائب بأن يدوام الحجاج الإيرانيون على استعمال طريق نجد ، وأن يدفعوا أيضا رسوم المرور فيه . وكانت المسألة مسألة نذالة من بدايتها إلى منتهاها . ولم يكن فيها أى نوع من الشرف لسلطان نجد الشرائى وأتباعه أو لذلك النائب الفارسي الذى باع بلده عامدا متعمدا - باع حقوق الناس ، ومصالح حكومته لقاء حصان عجوز ، وجمل عجوز ، وبعض المشالح القديمة .

وحصل أبو عيسى لنفسه، كنتجة طبيعية لهذه المناورات ، على مرسوم ملكى ينص على أنه هو كبير المرشدين فى المنطقة ما بين الساحل الإيرانى ومكة ، لجميع قوافل الحجاج ، وبذلك يصبح أبو عيسى بلا منافس فى تلك المنطقة ؛ وقد ضمن هذا الإجراء للإيرانيين قدرا معينا من المعاملة الطيبة وهم فى طريق عودتهم ، كما مكَّن ذلك الإجراء صديقنا (أبا عيسى) من الحصول على تعويضات تكفى لمواجهة بذخه الزائد عن الحد وكرمه الذى يقوم على التباهى .

كانت تتبقى أمام محمد على مشكلة واحدة كان لابدّ من حلها والبت فيها ، وتتمثل فى الطريق الذى يتعين عليه أن يسلكه أثناء عودته وصولا إلى مشهد (على)

(١) غميسة : قطعة من الخبز تغمس فى سائل ما قبل أكلها - (المترجم) .

(٢) سيربيروس : كلب ذو ثلاثة رؤوس زعمت الميثولوجيا الكلاسيكية أنه يحرس باب الجحيم - (المترجم) .

ومنها إلى بغداد ثم إلى طهران . كان فصل الشتاء قد بدأ ، ويحتمل أن يكون مسار الطريق البرى ، الذى يمر خلال المناطق المرتفعة ، باردا جدا ، حتى فى الجزيرة العربية نفسها . ولعل هذا السبب وبعض الأسباب المنطقية الأخرى هى التى دفعت النائب إلى تفضيل المسار الأسهل ، الدافئ الذى يمر بمنطقة الأحساء ، ثم الانتقال بالسفن عن طريق الخليج الفارسي إلى شط العرب ثم إلى مشهد علِى ، بدلا من السير فى الطريق المرهق الذى يمر خلال جبال سدير وزلفة ، ثم بعد ذلك خلال الأراضى المرتفعة من البلاد . ومع ذلك فقد كان محمد على شيعيا أصيلا ، وبالتالى كان لابد فى البداية أن يستخير الله باستعمال مسبحته . وقد عرف محمد على ، من خلال الاستخارة التى أجراها ثلاث مرات أن الإنذار السماوى يلفت انتباهه إلى عدم سلوك الطريق الأول ، والسير فى الطريق الثانى ، وهذا هو ما فعله محمد على الشيرازى بالفعل ، مما أدى إلى إضاعة الكثير من الوقت وزيادة النفقات والمتاعب .

وينبغى على القارئ الكريم أن يعرف (إذا لم يكن يعرف ، لأن هذا الأمر يستحق المعرفة) أن الإيرانى ، أو الشيعى بشكل عام ، لا يمكن له أن يشرب فنجالا من القهوة أو يشعل النرجيلة ، دون أن يستخير حظه باستعمال مسبحته . وهذه عادة كريهة يستنكرها الوهابيون عن حق ، يضاف إلى ذلك أن كراهية الوهابيين لكل من السحر ، والتعاويذ ، والشعوذة إلى آخر هذه القائمة ، تمتد أيضا لتشمل الرجم بالغيب والفأل بكل صوره ، وتفسير الأحلام وأيام السعادة وأيام التعاسة ، وما إليها ؛ وهذه شهادة حق يسعدنى أن أشهد بها للوهابيين .

وخلال الأسبوع الأخير من شهر نوفمبر ، اتجه محمد على ومعه كل خدمه إلى سدير ، وقد فرحت فى الربيع التالى عندما علمت أنه وصل هو ومن معه إلى بلاده سالما .

وقد حصل الشحاذان المكيان ، اللذان رافقانا من حائل إلى هنا ، على قميص لكل منهما وقطعة نقود من فئة الريالين ، وقد أفاد أحدهما من هذه الهدية القيمة ، بأن ذهب إلى البصرة ، التى انتحل فيها اسم سعيد Sey,yid ، واشترى لنفسه عمامة كبيرة ؛ بينما اتجه زميله ناحية الغرب – ولا أعرف له مقصدا أو مُقامًا . وهنا أجدنى أعود من جديد إلى مجرى الأحداث الطبيعى .

طوال هذه الأيام الأربعين كانت الاستعدادات تجرى على قدم وساق فى نجد لتوجيه ضربة حاسمة إلى عنيزه . وحتى ذلك الوقت ، لم تكن القوات والحملات التى

شنت على عنيزة سوى جماعات للمناوشة ، و كانت تضم عددا محددا من رجال الافلاج وسدير ، ومن زلفة ومن شقراء ، مع قليل من محاربي العارض واليمامة وذلك لرفع الروح المعنوية لدى بقية القوات ، كما عين محمد ولد فيصل الأصغر قائدا لهذه الحملات . وكانت خطة المجلس الوهابى ترمي إلى إضعاف العدو عن طريق الهجمات المتفرقة وعن طريق الحصار ، ثم الهجوم عليه بعد ذلك باستعمال القوة المركزية والقوة الجنوبية ، بالاشتراك مع قوات المناطق الشرقية . وأن قيادة ذلك الهجوم الرئيسى سوف توكل إلى (الأمير) عبد الله السفّاح الذى لا يقهر .

ويقترب الموعد المحدد للهجوم ، وتصدر الأوامر لكل من اليمامة والحريق بإرسال قواتهما ، وتطلب السلطات من السليع ووداى الدواسر أن يرسلا ميليشياتهما الوقحة ، وطلب من الاحساء إرسال المبلغ المفروض عليها ، واستدعيت مدفعية القطيف ، ليكون كل ذلك جنبا إلى جنب مع قوات العارض نفسها ، واستكمالاً لعدة وعتاد الجيش الذى يحاصر عنيزة . ترى ماذا يتبقى لمدينة معزولة ، مهما كانت قوتها ، وهى تواجه هذا الحشد من قوات الهجوم ؟

ويستشعر الزامل هو وأتباعه أن مسألة سحقهم لم تكن مدبرة وإنما مؤكدة بالفعل. ولم يعد يتبقى لهم أى أمل فى شريف مكة ، إضافة إلى أن مصر كانت بعيدة عنهم ، وكان حالهم مثل حال بنى إسرائيل القدامى ، مجرد قصب مكسّر . من هنا ، راح الزامل وأتباعه يرسلون لفيصل رسائل الاستسلام والخضوع ، بل رسائل التضرع ، وعرضوا عليه الولاء التام له ، ودفع الجزية ، والطاعة والولاء له ، وجددوا مساندتهم للدين ، واستنفروا فيه أخوة الإسلام ، وأخيرا استرحموا سلطان نجد أن يراعى الله فى الأخطار التى سوف تترتب على الحرب واقتحام المدينة . وقد أثرت هذه الرسائل فى (الملك) فيصل، وأثنته عن هدفه ، وكان على استعداد لقبول هذا الخضوع الذليل، وكان على علم أيضا بأن رفض مثل هذا العرض قد تترتب عليه مسئولية مخيفة . ولكن محبوب ، على العكس من فيصل ، كانت له تطلعات طموحة ، فى ظل القوه الصاعدة ، تتعلق بزيادة الامتيازات والنفوذ والتوسع الوهابى بعد سقوط عنـيزه . فى حين أن عبد الله الذى كان يتوقع الانتصار بشكل ضارٍ وشديد جداً ، لم يكن ميالا إلى أن يفلت منه درس واحد من دروس فنه ، أو ورقة واحدة من إكليل نصره ، وألا يقل عن ذلك الذى يقول التاريخ عنه أنه خاض معركة نيمويجين **Nimwegen** وفى جيبه معاهدة آترشت **utrecht**.

وكان المطاوعة ، من جانبهم ، يحاصرون الملك المسن المتردد ، ويحثونه على القسوة الشديدة التى لجأ إليها النبي والتي ورد ذكرها فى إحدى سور القرآن الشهيرة ، آخر السور نزولا من حيث التوقيت ، والتى تحمل اسم " التوبة " ، والتى أبدى عنها أبو بكر ملاحظة مفادها أن اسم " الانتقام " هو الأنسب لهذه السورة[1] . ودارت فى القصر مشاورات مطولة ، أُرسل على أثرها ، إنذار الملك فيصل إلى الزامل وأتباعه . يقول الإنذار : " سلمٌ نفسك يا زامل ، سلمً نفسك يا خياط ، وليسلم بقية زعماء التمرد أنفسهم ، وعندئذ ، وليس قبل ذلك ، سوف أنظر فى مسألة السلام " . كان الموت أرحم لرجال عنيزة من الوفاء بمثل هذه الشروط ، ولذلك لم يرد الزامل وأتباعه على ذلك الإنذار . وقد اطلعت ، عن طريق محبوب ، على الرسالة التي وردت من عنيزة ، وعلى الرد أيضا ، برغم أننى لم يسمح لي بحضور المجلس ، الذى اعتمدت فيما كتبته عنه ، على التقارير التى كانت متداولة فى ذلك الوقت .

وكشف عبد الله عن سروره بالحملة ، وكان مستعدا للرحيل على وجه السرعة . وأرسل الملك فيصل ، فى الوقت نفسه ، إلى ولده من زوجته الثانية ، سعود ، وطلب إليه إحضار قوات الحريق ، وأن يسلم هذه القوات ، عندما يصل إلى الرياض ، إلى أخيه الأكبر عبد الله ، الذى سيحل سعود محله فى رئاسة مدينه الرياض ، أثناء وجوده فى عنيزه . ويصل سعود على وجه السرعة ، ومعه قوات الحريق التى تقدر بحوالى مائتى خيال ؛ فى حين كانت بقية القوات من الجمّالة ويقدرون بأكثر من ألفى رجل .

وعندما دخلت قوات الحريق الرياض ، ظهر فيصل لأول وآخر مرة ، طوال مقامنا فى الرياض ، عند بوابة القصر . كان المشهد يحتاج إلى رسّام فنان . كان الطاغية العجوز الضرير ، المتين المقعد ، يجلس مهيبا ، رافعا جبهته العريضة الكبيرة ، بلحيته البيضاء ، وعلى وجهه مسحة من التفكير والتأمل ، مرتديا أبسط الثياب الوهابية ؛

(١) نعم إن سورة التوبة هي آخر ما تنزل من سور القرآن كما جاء ذلك فى صحيح البخارى من حديث البراء يقول : آخر آية نزلت "يستفتونك كل الله يفتيكم فى الكلالة" وآخر سورة نزلت براءة (يعني التوبة) وأما عن أسمائها فهى تسمى براءة لأن الله ورسوله تبرءا من المشركين وتسمى الفاضحة ، والبحوث وتسمّى المبعثرة ، أما الفاضحة فلأنها كشفت أسرار المنافقين ، وأما البحوث فلأنها تبحث عن أسرارهم . والمبعثرة من البعثرة وهى البحث . ولكننى لم أقف على ما ذكره المؤلف من أسمائها وهو "الانتقام" ، ووصف الكاتب النبي (ﷺ) بأنه كان قاسياً فهذا وصف خاطئ لأنه (ﷺ) كان موصوفاً بالرحمة بل هو نبي الرحمة قال تعالى "ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك" وقال تعالى "وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين" .

وكان يتدلى من جانبه ذلك السيف ذو المقبض الذهبي ، الذى كان بمثابة الشئ الوحيد الذى يميزه عن الآخرين . وإلى جانب الملك ، كان يجلس الوزراء ، وموظفو البلاط ، وجمع من الأعيان والأثرياء . ولم يغب عن هذا الاجتماع الشعبى سوى الأمير عبد الله وحده . ويظهر (الأمير) سعود ، ويبدو كما لو كان ضابطا من ضباط الهوصار[1] وكان يرتدى شالا من الكشمير ، ووشاحا قصيرا جدا مشغولا بالذهب ، ويأتى بعد ذلك الرجال واحد بعد الآخر ، على شكل فرسان يرتدون ملابس حمراء ، ورماحهم فوق أكتافهم، وسيوفهم تتدلى من أجنابهم ؛ كما كانت تتدلى من سرج حصان كل محارب ، بندقية فتيل ؛ يضاف إلى ذلك أن خنجر الحريق الحاد كان يتلألأ فى أحزمة الفرسان . وبعد الفرسان ، يجيئ الجنود العاديون راكبي الجمال أو الذلول ، وقد تسلح بعضهم بالرماح فقط ، والبعض الآخر بالرماح والبنادق ، إلى أن امتلأ الميدان العام بالرجال والمتفرجين ، طوال الفترة التى استغرقتها القوات فى الاصطفاف أمام ذلك الحاكم المطلق ، ثم ينزل سعود عن حصانه ويقبل يد والده . " الله ينصر فيصل ! الله ينصر جيوش المسلمين ! " تردد هذا الهتاف من جميع الأجناب ، وعلت جميع الوجوه ابتسامة الحماس الشديد والإحساس بالقوة . وينهض (الملك) فيصل من مكانه ويُجلسُ ولده إلى جانبه . وبعد برهة قصيرة يدخلان القلعة سويا ، فى حين تنصرف القوات إلى ثكناتها ، فى الخجيك **Khajik** بصفة خاصة .

كنت قد قلت أن عبد الله لم يظهر . وبرغم أنه كان فرحا بأن ذلك كان حدثا من الأحداث التى ستساعد على تحقيق أهدافه ، إلا أن حقده الشخصى لم يسمح له بالمشاركة فى استقبال أخيه . وفى اليوم التالى ، وبينما كان (الملك) فيصل يجلس فى ديوانه الخاص مع ولده سعود ، سأله إن كان التقى بأخاه الأكبر ، وعندما أجابه سعود بالنفى ، طلب منه أن يزور أول ما يزور ، أخاه عبد الله . ويرد سعود على والده قائلا : " أنا الضيف الغريب فى حين عبد الله هو من سكان المدينة ، وبالتالى ينبغى عليه هو أن يقوم بزيارتى أولا " . ويلح (الملك) فيصل فى أوامره ، ولكن دون جدوى ؛ ويصر سعود على رفضه . ويفقد الملك المسن سيطرته على نفسه ، وينهض بمساعدة عبدين زنجيين ، ليضرب ولده سعود . ويمد سعود كتفيه ناحية والده قائلا : " اضرب ، فأنا موجود أمامك ، ومع ذلك لن أذهب إلى منزل أخى" . ويتدخل العبدان ، ويشعر (الملك) فيصل بالخجل لسوء تصرفه ، ويأمر سعود بالابتعاد دون أى تعليق منه بعد ذلك .

(١) الهوصار : جندى فى وحدة من الوحدات العسكرية الأوربية المنظمة على طريقة سلاح الفرسان الهنغارى الخفيف فى القرن الخامس عشر – (المترجم) .

وبعد ذلك بساعات قلائل ، ركب الملك الضرير ، حصانا ، وشوهد وهو يعبر الشارع المؤدى إلى قصر الأمير عبد الله . وبعد أن وصل إلى القصر ، حكى لابنه ما حدث ، وطلب منه أن يقوم هو بالزيارة الأولى . ولكن الابن الأكبر أثبت أنه أكثر شموسا من الابن الأصغر ، برغم أن أعذاره كانت أقل . وفى النهاية يقول فيصل لولده عبد الله: "الخطأ كله عندى أنا ، فأنا الذى أسأت معاملة أخيك . لقد كان على صواب ، ونحن جميعا على خطأ . ولابد من تصحيح هذا الخطأ بأى حال من الأحوال . فهلا أتيت معى إلى القصر ، ونقوم أنا وأنت بزيارته فى مسكنه ؛ إن زيارتك سيكون لها طعم آخر وأنا معك ، وسوف تعود المياه إلى مجاريها المعتادة" . وهنا لم يقو عبد الله على الرفض ؛ وأمكن بذلك فرض عادات الأدب والاحترام بين الشقيقين ، وبذلك أمكن تحاشى أخطار حدوث فضيحة عامة شائنة . وكان قد تم إبلاغ محبوب بكل ما حدث . ويسأل محبوب فيصل : "هل تفهم حقيقة ما يدور الآن ؟ والله ! ما أن تموت حتى يسمع الناس صليل السيوف فيما بين العارض وسدير" . وتنهد فيصل تنهيدة عميقة ؛ ولكن ما هو العلاج ، عندما ينتقل الصراع من الأمهات إلى الأبناء ، ويزداد الأمر سوءا عندما يتصارع الأبناء على الملك ؟

ولم تمض على سعود ، فى مسكنه الجديد ، داخل القصر ثلاثة أيام ، حتى جاءنى خادم طويل أنيق، بعد عودتى بمنتهى الرقة والأدب، من حضرة سيده ، والذى قال لى ، إن سيده يعانى من ألم فى أسنانه أو من صداع ، لقد نسيت أيهما ، وأنه بحاجة إلى مساعدتى العاجلة له . وعندما دخلت مسكن الأمير ، استقبلنى استقبالا حارا وبطريقته الودية المعتادة التى يشتهر بها ، وضحك بصوت عالٍ عندما سألته عن أوجاعه . ويرد على قائلا : "أنا على ما يرام مثلك تماما" . إن كل ما أريده كان مجرد ذريعة لإحضارك إلى هنا " . ثم يدخل (الأمير) سعود ، معى ، بعد ذلك فى حديث ودى ، وأعرب ، أو نوه فى أقل الأحوال ، عن تعاطفه الكبير مع مصر . والواقع أنه ، نظرا لأن سعود كان عدوا لدودا لـ - عبد الله ، واستشعارا منه لحقيقة صراع غير بعيد ، فإنه كان يود عن طيب خاطر ، طلب المساندة من حكومة ينتظر منها أن تكون مشاعرها غير ودية بشكل عام ، تجاه أخيه الوهابى المتزمت . وتكرر استدعاؤه لى ، طوال فترة مقامى فى الرياض ، وعبّر لى عن كثير من وده ، الحقيقى ، فى ظل فكرة مفادها إننى كنت مبعوثا من مصر ، ومن منطلق هذه الفكرة أيضا راح يحرص علىّ عبد الله ، بالطريقة التى سوف أرويها هنا .

فى البداية رأينا كيف أن كل شىء كان يسير على ما يرام وبلا منغصات مع ولى العهد . ولكن مع مرور الوقت ، بدأ النجاح الذى تحقق يثير الحقد هنا وهناك ، كما بدأت المراقبة اللصيقة تثير الشكوك ، إلى أن بدأت السماء الصافية تتلبد بالغيوم ، وبدأت تظهر نذر عاصفة على وشك الهبوب ، وقد بلغت هذه النذر من الكثرة حداً جعلنا نحتاط ونأخذ حذرنا ، وليتنا كنا أكثر حذرا ، مما كنا عليه . والحقيقة تضطرنى هنا إلى أن أعيد ذكر أكثر من حماقة ، أنا على يقين أنها ستشبع رغبات القارئ الأوربى أكثر من رغبات سموه فى الرياض . وأنا أورد الظروف هنا حتى يمكن لى توضيح أسباب الأحداث وعلاقاتها .

وعليه ، ففى إحدى الأمسيات أزعجنى عبد الله ، عندما طلب واقيا من المرض ، لألم فى أسنانه يعاوده من حين لآخر ، ويضايقه إلى حد بعيد . واقترحت عليه واقيا أو اثنين ، ولكنه لم يوافق عليهما . وأخيرا قلت له أنه لم يعد يتبقى سوى دواء ملكى واحد ، وأنه لابد وأن يحتفظ به سراً . ويسألنى الامير بشغف :" وما هو ذلك الدواء ؟" وأجبته قائلا :" إنه الدخان ، بعد أن يتم مضغه ووضعه على السن ، مع إشعال الغليون واستعماله لزيادة فاعلية الدخان " . ولم يقل الوهابى شيئا ، ولكن جبهته كانت تقول الكثير ، وشعرت إننى تجاوزت الحدود معه إلى حد بعيد .

وفى مرة أخرى ، طلب منى (الأمير) عبد الله أن أباشر خيوله بصورة دورية وعلمية . وحاولت أن أفعل ذلك فترة من الوقت ، ولكن دون جدوى ، عله يفهم أن الطبيب البشرى إنما هو شئ واحد فقط ، وأن الطبيب البيطرى شئ ء ختلف أيضا : والحق هو إننى كنت متخوفا من ارتكاب أى خطأ مع أفراسه وخيوله . ومع ذلك ، لم يقبل عبد الله أى عذر من الأعذار التى كنت أسوقها إلى أن حسمت الأمر قائلا :" سوف يسعد سموك أن تتذكر أننى هنا فى عاصمتك أعمل طبيبا للمغفلين وليس الخيول[1] ؛ واستوعب الأمير الإصابة ، ولم يكن راضيا عنها ؛ ثم ابتسم ابتسامة صفراء ، وغير مسار الخطاب .

ثم حدث بعد ذلك ، ما هو أسوأ من ذلك . كنا فى القصر ، فى إحدى الليالى ، وكان من عادة عبد الله ، أن يؤخرنى حتى منتصف الليل ، ويروح يزعجنى ويضايقنى

(١) استعمل المؤلف هنا كلمة Asses التى معناها القريب "جحوش" ولكن معناها البعيد "مغفلون" – (المترجم) .

بالأسئلة الطبية العلمية ، ويخص نفسه بمقرر منظم من المحاضرات الصيدلانية دون دفع الأتعاب . وكنت متعبا وأغالب النوم ، وكان من الأفضل لي أن أذهب إلى المنزل لآخذ قسطا من النوم . ورغبة مني في تصعيد الأمور إلى حد الأزمة لزمت الصمت ، وتعمدت أن أترك أسئلة سموه تمر دون أن أجيب عليها . ويسألني الأمير :"فيم تفكر ؟" وبعد إجابة رائعة أو اثنتين ، أجبته أنني كنت أفكر في قصة من القصص التي تدور عن الخليفة هارون الرشيد ومزّاحه الشهير ، ورفيق مجلسه أبو نواس . ولكن عبد الله ، الذي كان مثل سائر العرب ، لا يستسيغ شيئا سوى قصص الملوك والخلفاء ، سألني عن مضمون هذه الحكاية . فقلت له : كان من عادة هارون بن الرشيد أن يظل ساهراً إلى ساعة متأخرة من الليل ، وأنه كان من عادته أن يجعل من أبي نواس رفيقا له في سهره ، في الوقت الذي يفترض فيه أن يكون أبو نواس نائما . وذات ليلة وبينما كان هارون الرشيد يتكلم على نحو سريع ، في حين كان أبو نواس صامتا كما لو كان غارقا في أفكاره . وسأله الخليفة :" فيم تفكر يا أبا نواس ؟" ويرد أبو نواس :" أنا لا أفكر في شيء يا أمير المؤمنين ؟" ، ثم يلوذ بصمته مرة أخرى . ويكرر الخليفة السؤال عليه مرة ثانية ، ويجيب عليه أبو نواس بنفس الإجابة . ولكن عندما كرر الخليفة السؤال للمرة الثالثة ، رفع أبو نواس رأسه ، ونظر وحملق في وجه صاحب الجلالة خليفة بغداد ، وقال :" أنا أفكر في هذا " . (ويؤسفني أن أقول تلك الكلمة العربية التي سوف أعبر عنها بالعبارة العربية : التي تؤذي أذن المتزوجين ") "الشهواني البهيمي ، الذي لا ينام ولا يدعني أنام ".

ويحملق عبد الله ، ويتردد فيما بين الغضب والضحك . ويغلب عليه الضحك في النهاية . ثم قال لي : " تصرف على راحتك " ، وهنا استأذنت وذهبت لحال سبيلي .

وفي هذه المرة لمست أنه على وشك الاستياء مني ، وقد بلغني بعد ذلك أن القاضي عبد اللطيف (آل الشيخ) ومعه بعض أمثاله ، انتهزوا هذه الفرصة وراحوا يجعلوني محطا لشكوك الأمير . وكان أول عمل حميمي نلقاه يثير كثيرا من العجب .

ومسألة دخول الأجانب إلى الرياض عملية صعبة ، ولكن مسألة الخروج منها أشد صعوبة ؛ ولو قدر لـ – رينارد Reynard نفسه أن يكون حيا ، لما خاطر بالدخول في هذا الكهف الملكي . وفي العاصمة النجدية هناك طريقتان متفق عليهما لسد الطريق في وجه أولئك الذين تثور من حولهم الشكوك ويريدون الخروج من العاصمة . وأولى هاتين

الطريقتين وأسرعهما هي تلك الطريقة التي يكنونها بقولهم " الميت ليس له رفاق ". ولكنهم عندما يجدون أن قبور الموت غير سريعة ، فإن قيود هيمان[1] والإقامة في الرياض قد تقوم من حين لآخر بأعمال قيود الموت . وقد حاول عبد الله ، بل وقرر تقييدنا بذلك النوع الأخير من القيود .

وبناء على ما تقدم ، حضر إلى منزلنا ذات صباح ، خادم من خدام القصر ، وعلى وجهه ابتسامة ، إشارة إلى أنه يحمل شيئا طيبا ، وكان كلامه جميلا . وبعد أن سألنا عن صحتنا وأحوالنا ، وأمورنا ، وارتياحنا . . الخ أضاف أن عبد الله ظن أننا ربما نكون بحاجة إلى شراء هذا الشئ أو ذاك ويأمل أن نقبل هذه الهدية البسيطة ، كانت الهدية عبارة عن مبلغ معقول من النقود ، ضعف ذلك المبلغ الذي سبق أن حصلنا عليه كتعبير عن حسن النية، كان المبلغ على وجه التحديد، أربعة ريالات بدلا من اثنين . ثم ينصرف الخادم بعد ذلك . وكان أبو عيسى موجوداً أثناء هذه المقابلة ؛ وهنا قال أبو عيسى " خذا حذركما ، هناك خطأ ما " .

وفي مساء اليوم نفسه ، أرسل عبد الله في طلبي ، وأبلغني بعد كثير من الإطراء والوعود الطيبة ، أن الرياض لا يمكن أن تخسر طبيبا قيما من هذا الطراز ، وأنني بناء على ذلك ، لابد أن يكون لي منزل ومقر دائمين في العاصمة ، التي يجب أن أعتمد فيها على حمايته ورعايته لي ، وأن أعتمد عليه أيضا في كل الأمور الطبية الأخرى ؛ كما أبلغني أيضا أنه قد قرر بالفعل إعطائي منزلا وبستانا ، وحددهما لي ، فضلا عن أثاث مناسب ، ووجه حسن يشاركني الحياة في ذلك المنزل ؛ واختتم الأمير عبد الله كلامه بتوجيه الدعوة إلي بالذهاب فورا لمعاينة المسكن الجديد ، واستلامه .

وحاولت مرارا وتكرارا رفض ذلك العرض بشتى الطرق ؛ فقد حدثته عن قيامي بزيارة الشاطئ في فصل الشتاء ثم أعود في فصل الربيع ، وتذرعت بهذا العذر مرة وبذاك العذر مرة أخرى ؛ ولكن ذلك لم يُجْدِ فتيلا ، واستمر (الأمير) عبد الله على إصراره . واستهدافا لإسكاته ، وافقت على الذهاب لمعاينة المتزل الجديد . واستعداد لأغنية الكاليبسو كانت لدى بعض الحجج التي استقيتها من الشريعة المحمدية (الاسلامية) ، والتي تجعل هذه الاغنية غير قابله للنقاش ، ولكن شرح هذه الحجج

(١) هيمان : إله الزواج عند اليونان – (المترجم) .

وتفسيرها يحتاج مني مساحة أكثر مما تستوعبه هذه الصفحات . ويكفي أن أقول أن هذه الحجج كانت قاطعة وحاسمة، ومكنتني من وضع نهاية حاسمة " لعرض " الأمير . ومع ذلك ، فقد بقي المنزل والدخل المقدم خارج نطاق هذه الحجج . ففي هاتين المسألتين كان عبد الله لا يتوقع حدوث أي رفض من جانبي ، وأنا لا أظن أن هناك أي تشريع في العالم يمكن أن يكون ذريعة لرفض دخل طيب من هذا القبيل . وعليه ، فقد أصدر عبد الله أوامره لواحد من الخدم ليذهب معي كي أعاين المنزل الجديد ، ووعدته أنا بدوري ، أن أعطيه رداً محددا في صبيحة اليوم التالي .

كان المنزل ممتازا بحق ، ويناسبني تماما ، وبجواره بستان صغير ، ولا يمكن بأي حال من الأحوال الاعتراض عليه بأي شكل من الأشكال . ولو كان هناك طبيب عربي، من أولئك الأطباء الطواقين لتهشّ، إن جاز لي أن أستعمل هذه الكلمة السوقية ، هذا العرض . ولكن المسألة هنا تتمركز في " أكون أو لا أكون " ، إضافة إلى أن المصاعب إذا كان لابد من وقوعها ، فذلك يحتم مواجهتها .

وفي لقائنا في اليوم التالي أبلغت عبد الله أننا كنا مدركين تماما للتكريم والمعروف الذي صُنِعَ فينا ، ولكن المشكلة تتمثل في أننا كنا قد ارتبطنا من قبل على الذهاب إلى الاحساء ، وأننا لا يمكن لنا أن نتحلل من هذا الارتباط ، وأن مسألة عودتنا إلى الرياض في فصل الربيع تكفي ، وأنه طالما أن عبد الله سيقود بنفسه الحملة الموجهة ضد عنيزه ، فمن الأفضل لنا أن ننتظر عودته قبل أن نقيم في العاصمة بشكل دائم ، وذلك تحسبا لحدوث بعض المصاعب لنا أثناء غيابه عن الرياض ؛ وخلاصة القول : أننا أبلغنا عبد الله بأننا لا يمكن أن نقضي فصل الشتاء في نجد ، ولكننا كنا نتطلع إلى زيارة ثانية تستمر فترة أطول في العام الثاني . وبغض النظر عن لطف الرفض لم يكن مقبولا ؛ ولكن عبد الله قبل هذا الرفض في شيء من التردد الواضح والشك المقنع .

كان فصل الشتاء قد بدأ ؛ إذ كنا في الأسبوع الثالث من شهر نوفمبر . وهبت عاصفة رعدية ، هي أول عاصفة ، من نوعها ، نشاهدها في وسط الجزيرة العربية ، وتسببت في انخفاض درجه الحرارة وبرودة الجو في وادي حنيفة . وينهمر المطر غزيرا بعد هذه العاصفة ، وتنهال السيول على مجاري السيول الجافة في الوادي ، محولة تجاويفه ومنخفضاته الكبيرة إلى خزانات مؤقتة للمياه . وعلى كل حال ، لم يكن أي مجرى من تلك المجاري يتجه ناحية البحر ، ولا يمكن لها أن تصل إلى البحر ، والسبب

فى ذلك أن هذا الجزء من نجد مطوق من ناحية الشرق بسلسة جبال طويق . ورحب السكان بالأمطار الغزيرة ، التى تنبئ بخصوبة ونماء فى العام المقبل ، فى حين أحدثت هذه الأمطار نفسها فى عنيزة ، أثرا ممتازا ، أتحدى أن يعرفه القارئ أو يقف عليه . كان الجيشان المتعاديان ، بقيادة الزامل ومحمد بن سعود ، يواجه كل منهما الآخر ، وعلى وشك الدخول فى معركة شرسة ، عندما هبت العاصفة عليهما ، وعندما أدت الأمطار إلى إطفاء البنادق الفتائلية ، لدى كل جانب من الجانبين ، تسببت فى منع خروج الطلقات وتدفق الدم. وعندما وصل هذا الخبر إلى الرياض، قال لى أبو عيسى :" لا تنس عند عودتك أن تذيع ذلك فى أوربا ، فقد يساعد ذلك على إعطاء فكرة عن العمليات الحربية العربية "

كانت مشكلات النائب قد أوشكت على الانتهاء ، وكان أبو عيسى قد حصل أيضا على تراخيصه الحكومية . وبدأنا الاستعداد للاتجاه شرقا ، ولكن لم نكن قد حددنا بعد اليوم الذى سنرحل فيه عن نجد ، وهنا حدث انفجار مفاجئ لنية ملكية مبيتة ، جعلتنا ننهى ترددنا ، وحتمت علينا أن نعجل بالرحيل عن الرياض .

كانت طبيعة مريض واحد من المرضى ، قد دفعتنى إلى تجربة مادة علاجية قوية برغم خطورتها وهى الاستركنين تلك المادة السامة ، وترتب على استعمال هذه المادة حدوث تحسن سريع وفريد . ومبلغ ظنى أن مسألة حدوث تحسن دائم لم تكن هى السبب ، وإنما النجديون الذين لم يروا شيئا سوى هذه النتيجة الحالية ، لم يكونوا ولا يمكن أن يكونوا ، قضاة ، فى مثل هذا الموضوع ، فى حين أن المريض نفسه ، وقد كان ذا منزلة عالية ، ورئيسا مسنا لأحد البلدان ، هو الذى لفت الانتباه إلى هذه الحقيقة . وراح الجميع يتكلمون عن هذا الموضوع ، وذاع الخبر و انتشر إلى أن وصل القصر .

كان عبد الله قد قام بزيارته الاضطرارية إلى أخيه سعود ، وكان التصارع المتبادل بين الأخوين ، والذى بدأ يزداد بحكم اقترابهما من بعضهما ، قد أوشك على الانكشاف ، أو بالأحرى انكشف وبان للعيان ولكن فى حدود رسميات وشكليات اللياقة الاجتماعية . وبدأت رائحة المؤامرات ، والخيانات ، بل والعنف نفسه يَفوحَ من خلف جدران القصر ؛ ولم يعد التفكير فى الاغتيال ، سواء أكان بالخناجر أم بالفناجيل ، أو بالأحرى بفناجيل القهوة ، يدهش أحدا فى القصر . بل وإن محبوبا أيضا الذى كان

كارها دوما لـ - عبد الله ، بدأت تزداد ، عند هذه اللحظة ، كراهيته لـ - عبد الله أكثر من ذى قبل ، ومن موقعه كوزير استطاع أن يتبين الخطر الذى يمكن أن ينزل به هو شخصيا ، عندما يضع الزمن السلطة الكاملة المطلقة بين يدى شخص طالما كان يرهبه بالصياح والعبوس ويعطله على الدوام. ومن هنا انضم محبوب إلى جانب سعود، وأدى بفعلته هذه إلى تسخين مشاعر عبد الله الغاضبة إلى سبعة أضعاف ما كانت عليه . وانقسم أعيان البلاد ، بل وغربائها بين مؤيد لهذا الأخ ومعارض لذاك ، ومع أن حياة (الملك) فيصل ، كانت مثل ذلك الخيط الحريرى الذى كان يلف الوحش فى رواية ترايرمين Triermain ، التى عنوانها "صالة الخوف"، وكانت تبعد النمرين عن بعضهما ، إلا إنها لم تكن كافية لمنع حدوث وثبة مفاجئة أو بمعنى أصح انفجار سرّى .

كان عبد الله قد تعلم من خلال محاضراته الثقافية قدرا من المعلومات التى تمكنه من تعرف خصائص المواد السامة وبخاصة الاستراكنين ؛ وبرغم أن عبد الله لم يكن على دراية كاملة بألاعيب المجرمين الأوربيين ، فإنه كان منافسا لهم فى الشرق . كان العلاج ، أو الشفاء على أقل تقدير ، الذى سبقت الإشارة إليه ، قد حدث فى السادس عشر من شهر نوفمبر ، أو فى الوقت الذى كنت قد أبلغت فيه عبد الله برفضى القاطع للعروض التى قدمها ، وبالتالى كان لا يعرف ماذا يفعل بعد ذلك . وبعد ذلك بيوم أو يومين أرسل إلى عبد الله ، وأعرب عن أسفه لأننا قررنا مغادرة العاصمة ، والتمس منا أن نترك بعض الأدوية النافعة حتى يفيد منها الناس ، وطلب منا ، أن نعهد إليه قبل كل شئ ، بذلك العقار القوى الذى بدأ الجميع يعبرون عن إعجابهم بنتائجه الباهرة .

والغريب فى الأمر أن عبد الله رفض رفضا قاطعا كل ما قلته عن عدم جدوى ، بل والخطر الهائل، الذى يترتب على تداول الأيدى الجاهلة غير المتعلمة للمواد الصيدلانية . وفى النهاية ، وبعد كثير من الحض ، أنهى الأمير كلامه بأن قال لى أننى يمكن أن ألغى جميع العقارات باستثناء عقار الاستراكنين الذى يتحتم أن أعطيه إياه ، وإنه على استعداد أن يدفع ثمنه أيا كان .

وهنا اتضح لى هدفه تماما ، ولم يخطر ببالى أن أمد له يد العون ، حتى ولو كان ذلك بطريقة غير مباشرة ، فى مخططاته الشيطانية ، ولم أجد أمامى سبيلا آخر غير الرفض بحزم وأدب . واستكمالا للرفض ، تظاهرت بأننى لا أشك فى نواياه ، ورحت أركز على طبيعة الاستراكنين الخطرة ، إلى أن اثنيته مؤقتا عن طلبه ، ثم غادرت القصر بعد ذلك .

وفي صبيحة اليوم التالي جدد عبد الله مطالبه ، ولكن دون جدوى . والتقيته للمرة الثالثة ؛ وكان ذلك في اليوم التاسع عشر أو العشرين من الشهر (نوفمبر) . وبعد أن أشار إلي بالجلوس إلى جانبه ، أصر إصرارا قاطعا على الحصول على هذا السم على أن يكون في حوزته هو ، وأخيرا ، وبعد أن تخلى عن جميع الأعذار ، بدأ يوضح لي الأسباب الداعية لذلك، برغم أنه لم يوضح ذلك الشخص الذي كان يريد السم من أجله، وأبلغني أنه لن يقبل أي عذر سواء أكان أخلاقيا أم غير ذلك .

كان عبد الله ، في ذلك الوقت ، يجلس في الطرف القصي من القهوة ، بينما كنت قريبا منه ؛ في حين كانت تفصلنا عن أفراد الخدم والحاشية الحاضرين مسافة لا تمكنهم من استراق السمع على حديثنا ، وبخاصة عندما نتناجي . ونظرت من حولي كي أتأكد أن أحدا لا يسمعنا أو يسترق السمع علينا ، وعندما قابل رفضي الصريح برفض صريح من جانبه وإصرار على طلبه، اتجهت إليه مباشرة، ورفعت طرف غترته ، وهمست في أذنه قائلا:" يا عبد الله، أنا أعرف جيدا السبب الذي تريد السم من أجله ، وأنا لا يخطر ببالي أن أكون لك شريكا في جرائمك ، ولست على استعداد أن يسألني ربي عما يجب أن يسألك عنه . أنا لن أعطيك هذا السم مطلقا " .

ويسودُّ وجه الرجل وينفجر غضبا؛ أنا لم أر قط شيطانا مثلك من قبل أو من بعد . وتردد لحظة في صمت ، ثم تمالك نفسه ، ثم تغيرت نبرات صوته فجأة وراح يتكلم عن أشياء لا علاقة لها بالموضوع . ثم نهض بعد ذلك بلحظات ، ثم عدت أنا إلى المنزل .

وفي المنزل عقدت مجلسا مع كل من أبي عيسى وبركات لنرى ماذا نفعل . وخلصنا إلى أن هبوب العاصفة خلال وقت قصير أصبح أمرا مؤكدا ، ومن الخطر أن ننتظر هبوب العاصفة ، ولكن كان من الخطر أيضا أن نغادر المدينة بصورة مفاجئة ، ولم يكن من المفيد لنا أيضا أن نغادر المدينة دون أن نحصل على إذن بذلك . وأجمعنا رأينا على أن نواصل بقاءنا في المدينة عدة أيام قلائل نتحرك خلالها بهدوء وحذر ؛ وأن نعطي إشارة للبلاط بأننا سنرحل ، وأن نودع الذين نعرفهم في قصر فيصل ، ونجعل محبوبا يودعنا (ولم يكن ذلك بالأمر الصعب) . ثم ننسلخ بعد ذلك دون أن نلفت الانتباه إلينا . ومع ذلك ، فإن مصيرنا لم يكن بهذه السهولة واليسر .

وفي مساء اليوم الحادي والعشرين ، سهرنا حتى ساعة متأخرة من الليل ، وكنا نتحدث عن الاستعدادات اللازمة للرحلة ، ونشرب القهوة مع بعض من الحضر ،

طبيبي المعشر ، الذين لم يكونوا من معارضي الدخان المحظور ؛ هذه العملية التي كان منزلنا قد اشتهر أو لم يشتهر بها منذ فترة طويلة ، وفجأة سمعنا طرقا على الباب يعلن وصول عبد الله ليس عبد الله الأمير وإنما سَمِيُّه وكاتم أسراره . وسألناه ، ونحن غير راضين عن زيارته لنا : " ما الذي جاء بك إلى هنا في هذه الساعة من الليل ؟" .

ويرد علينا الرجل رداً قصيرا قاطعا قائلا : "الملك" (وهذا هو اللقب الشائع في عامية الرياض ويطلق على ولي العهد) " يطلبك ؛ هيا معي على الفور" . وسألته وأنا انظر إلى رفيقي : "هل أحضر بركات معي ؟" ويرد عليّ المبعوث قائلا : "إن الملك يريدك وحدك " . وسألته : "هل أحضر معي واحداً من كتبي ؟" ويرد قائلا : "لا داعي لذلك" . وقلت له : "انتظر بضع دقائق حتى تشرب القهوة التي أعددناها لك" .

ومن الأدب ألا يرفض ذلك الطلب الأخير . وأثناء فترة تناول القهوة انتهزت الفرصة وتبادلت بعض الكلمات مع كل من أبي عيسى وبركات . ووافق الاثنان على توديع الضيوف ، وأن يظلا مستعدين لنتائج هذه المهمة الليلية ، والتي يتضح منها إنها مهمة تهديدية ، وربما خطيرة أيضا . ومع ذلك ، فإن حقيقة عدم استدعاء بركات ، كنت أعتبرها ضمانا لعدم حدوث عنف مفاجئ .

وغادرت منزلنا بصحبة مبعوث الملك ، وسرنا في صمت خلال الظلام عبر الشوارع الملتوية إلى أن وصلنا إلى قصر عبد الله . وبعد أن وصلنا إلى هناك ، دار حديث قصير بين المبعوث والحراس ، الذين استأنفوا مهمتهم بعد ذلك ، في حين مضى المبعوث إلى داخل القصر ليبلغ الأمير بوصولي ، وتركني دقيقة أو اثنتين أبَرِّد فيهما نفسي ، في هواء الليل ، في الفناء . ويظهر بعد ذلك عبد (زنجي) ، يشير إليّ بالدخول .

كانت الغرفة مظلمة ، ولم يكن فيها أي ضوء غير ذلك الضوء الذي كان ينبعث من الحطب المشتعل في المدفأة . وفي الطرف البعيد من الغرفة كان يجلس عبد الله ، صامتا ومحزونا ؛ وفي مقابله، كان يجلس عبد اللطيف ، سلف محمد بن عبد الوهاب ، وبعض الناس الآخرين ، أظن أنهم كانوا من المطاوعة ، أو ممن ينتمون إلى جماعتهم . كان محبوب يجلس إلى جانب عبد اللطيف ، وكان حضوره بمثابة الظرف المواتي الوحيد منذ الوهلة الأولى . ولكنه أيضا كان يبدو عليه التجهم . وفي الجانب الآخر من تلك الصالة الطويلة ، كان هناك عشرة أفراد مسلحين ، أظن أنهم كانوا نجديين أو زنوجا .

وعندما دخلت الغرفة ، لم يتحرك أحدٌ ، ولم يردوا عليّ التحية . وحييت عبد الله ، الذي رد عليّ التحية بصوت خفيض ، وأشار إليّ بالجلوس على بعد مسافة قريبة منه ، ولكن في نفس الجانب من الديوان . ولعل القارئ يقتنع بأنى لم أكن ، فى تلك اللحظة أتطلع إلى ذلك الجوار الحميمى .

وبعد شئ من الصمت ، استدار عبد الله قليلا ناحيتى ، قال لى بصوت واضح وعميق وقد علت وجهه نظرة سوداء :" أنا أعرف جيدا الآن من أنتما ؛ أنتما لستما أطباء ، أنتما مسيحيان ، جاسوسان ، وثوريان (مفسدان) ، جئتما إلى هنا لتخريب ديننا ودولتنا لصالح أولئك الذين أوفدوكما . وعقاب أمثالكما هو الموت ، وأنت تعرف ذلك ، وأنا مصمم على قتلكما على الفور " .

وخطر ببالي أن " عمر الشقى بقى " ولم أجد أى حرج فى الحفاظ على الهدوء الذى كنت أحسه بالفعل . ونظرت إلى وجهه نظرة باردة وقلت له :" أَسْتَغْفِر الله " فهذه العبارة التى تقال لمن يكون قد قال شيئا فى غير محله .

وجاء ردى عليه مفاجئا ؛ وبادرنى قائلا :" لماذا ؟"

ورددت عليه قائلا :" لأنك قلت الآن شيئا سخيفا تماما . تقول إننا " مسيحيون " ، وهذا مقبول ، ولكن جواسيس ، ومفسدون كما لو كنا غير مشهورين أو معروفين من كل من هم فى المدينة ، على أننا أطباء ، ولا أكثر من هذا ولا أقل ! ثم تتكلم بعد ذلك عن إعدامى ! وأنت لا تستطيع أن تعدمنى ، ولن تجرؤ على فعل ذلك .

ويرد عليّ عبد الله :" ولكننى أستطيع ذلك وأجرؤ عليه ؛ ومن الذى سيمنعنى من ذلك ؟ سوف تعرف ذلك حالا وتدفع الثمن ".

ورددت عليه قائلا :" أنت لا تستطيع ولا تجرؤ على فعل ذلك ." نحن هنا ضيوف على والدك وضيوف عليك مدة شهر أو أكثر ، وقد عرفتمونا على هذا النحو واستقبلتمونا على هذا النحو أيضا . ترى ما هذا الذى فعلناه ويعد خرقا لأصول الضيافة والكرم فى نجد ؟ يستحيل عليك أن تفعل ما تقول ، " استطردت فى كلامى وأنا اعتقد أن ذلك أمر يسير جداً ثم قلت له : إن شين وعار مثل هذا العمل سيكون كثيرا جدًا عليك " .

وتأمل عبد الله الأمر لحظة ثم قال :" وكما أن أحداً لن يكون بحاجة إلى معرفة من فعلها . فأنا لدى الوسائل ، وبوسعى أن أتخلص منك بدون كلام أو شائعات . إن من يأتمرون بأمرى يستطيعون أن يجدوا الوقت المناسب والمكان المناسب لذلك ، دون أن يذكر اسمي ضمن هذا العمل كله .

كان من الواضح ، عند هذه المرحلة ، أن لغتى كانت هى الراجحة ، وتابعت الحديث ، ثم قلت بابتسامة هادئة " أنت ليس فى وسعك شيء من هذا القبيل . ألست أنا معروفا لدى والدك ، ويعرفنى أيضا كل من هم فى القصر ؟ ألست أنا معروفا أيضا من أخيك سعود من بين كل هؤلاء الآخرين ؟ أليست حقيقة هذه الزيارة معروفة من كل أولئك الذين هم خارج بواباتك ؟ أم أنك تحسب أن أحدا ليس موجوداً هنا ؟" قلت له ذلك وأنا أنظر إلى محبوب ، "ويستطيع أن يبلغ ما قلته أنت هنا إلى الأماكن الأخرى ؟ من الأفضل لك أن تتخلى عن هذا الكلام الذى لا معنى له ؛ هل تظننى طفلا عمره أربعة أيام ؟ " .

وتمتم عبد الله وهو يكرر تهديده . ورفعت صوتى حتى يسمعه كل الجالسين فى أنحاء الغرفة قائلا :" اشهدوا يا كل الحاضرين هنا ، أننى ورفيقى إن أصابنا أى شيء فى المنطقة من الرياض إلى شواطئ الخليج الفارسى ، فإن ذلك كله سيكون بفعل عبد الله . وإنه سوف يتحمل جميع النتائج المترتبة على ذلك ، وستكون النتائج أسوأ مما يتوقعه أو يحلم به .

ولم يرد الأمير على ما قلت . وصمت الجميع ؛ وركز محبوب عينيه على المدفأة ؛ وزادت نظرات عبد اللطيف ولم ينطق بكلمة واحدة .

ونادى عبد الله على الخدم " صب قهوة " . وقبل مضى دقيقة واحدة ؛ كان عبداً أسود قد حضر وفى يده فنجال واحد ، فنجال واحدا لا غير ، من القهوة . وبإشارة ثانية من سيده ، وصل العبد أمامى وقدم لى فنجال القهوة .

وبطبيعة الحال من الممكن للقارئ أن يظن الأسوأ فى تناول جرعة وحيدة وغير معتادة من هذا القبيل . ولكنى ظننت أن الأمور لا يمكن أن تكون قد وصلت إلى مثل هذه المرحلة من الإعداد الدقيق ؛ زد على ذلك ، أن السبب الرئيسى وراء غضب عبد الله كان رفضى إعطائه السموم ، وهذا معناه أنه لم يكن لديه أى شيء من هذه

السموم حتى يستعملها . وعليه " سميت باسم الله "، وتناولت الفنجال ، وأطلت النظر إلى عبد الله ، ثم قلت للعبد " صب لي فنجالا ثانيا " . ويصب العبد لي فنجالا ثانيا ؛ شربته دفعة واحدة ثم قلت له " لقد اكتفيت ".

وتحققت النتيجة المطلوبة . وظهرت الهزيمة على وجه عبد الله ، بينما راح باقي الحاضرين يتهامسون . ونظر الأمير إلى عبد اللطيف وراح يتكلم عن الأخطار التي تتهدد البلاد من الجواسيس ، والخطط الشريرة التي يحيكها الكفار من أجل تدمير مملكه المسلمين . ويقاطع القاضي ورفاقه الحديث ويروحون يتكلمون ويعلقون على قصة الرحالة الدرويش مستعار الاسم الذي قتل في الدرعية ، وقصة رحالة آخر (ولكني لا أعرف من هو ؛ وربما كان فارسيا ، الذي قال عنه عبد الله ، إنه ضبط متلبسا بالتآمر ، ولكنه هرب إلى مسقط ، وفر من العقاب الذي كان يستحقه على جرائمه) . ويتكلم محبوب أخيرا ، لا لشيء سوى التهكم من هذا التخويف . وقال محبوب :" هذا الأمر بحد ذاته غير محتمل ؛ ولو قدر لهذا الأمر أن يحدث ، فما هو الضرر الذي يمكن أن يفعلانه ؟" وبذلك كان محبوب يقصدني " أنا ورفيقي .

وهنا طلبت الكلمة ، وتلت ذلك محادثة عامة ، حاولت خلالها تفجير فكرة الجواسيس والتجسس ، واستشهدت فيها بسلوكنا الهادئ القويم ، كما أثرت خلالها مسألة استيائي الأخلاقي من استبدال الشر بالخير وبخاصة بعد الخدمات التي أديناها لكل من الحاشية والمدينة كما استشهدت بآيات من القرآن تتعلق بحماقة إضمار الشك الذي لا أساس له والحكم بدون دليل واضح . ولم يرد عليَّ عبد الله رداً مباشرا ؛ زد على ذلك أن الآخرين ، مهما كان تفكيرهم ، لا يمكن أن يؤيدوا اتهاما ، تخلى عنه سيدهم .

والشيء الذي سرني كثيرا هو أن الأمير الوهابي ، كان على وجه التقريب قد دق على المسمار الصحيح ، وأنني كنت انتهره لوصول الظن به إلى مثل هذا الحد . ولم أكن أتمالك نفسي ، ولكني شعرت بالسعادة عندما رأيت أن الأمير برغم عدم تغيير رأيه فينا ، ألا أنه بلغ من التخوف حداً حتَّم أن يكون أرجاء تنفيذ الحكم أمرا مؤكدا ، ومن ثم تصبح مسألة هروبنا أمرا ممكنا أيضا .

ويستمر الحال على هذا المنوال فترة من الوقت ، جلست خلالها عامدا متعمدا في مكاني ، لأثبت اطمئناني إلى البراءة ، إلى أن أشار لي محبوب إشارة فهمت منها أنني

يمكن أن أنصـرف وأعود إلى منزلنا في سـلام . وهنا اسـتأذنت من عبد الله وغادرت القصر دون أن يرافقني أحد . كان الوقت يقترب من منتصف الليل ، ولم يكن ينبعث أي ضوء من المنازل ، ولم ينبعث من الشوارع أي صوت ، كما كانت السماء أيضا مظلمة وملبدة بالغيوم ، إلى أن اعتراني لأول مرة شعور بالخوف والوحدة ، وأنا أعترف بأني التفت خلفي أكثر من مرة تحسبا أن يكون هناك من يتبعني وفي يده " الشر " كما يقول العرب . ولكن لم يكن هناك أحد يتبعني ، ثم وصلت إلى الحارة الهادئة ثم إلى الباب الخفيض الذي كانت تنبعث من خلال شقوقه ومضات ضوء خافت مما يدل على انتظار رفاقي القلق ، الذين فتحوا الباب الرئيس وفرحوا بعودتي سليما معافا من تلك المساءلة الحرجة .

وسرعان ما انتهينا من خطتنا المستقبلية . لم يكن أمامنا في الرياض سوى يوم أو يومين على أكثر تقدير ، وذلك تحسبا أن توحي العجلة بالخوف ، ومن ثم تُشَجِّعُ الغير على مطاردتنا . ولكننا تحاشينا الذهاب إلى القصر خلال هذين اليومين ، كما تحاشينا أيضا التنزه في الحدائق ، أو السير أثناء الليل ، والتزمنا دارنا إلى أبعد حد ممكن . وفي الوقت نفسه قام أبو عيسى بتجهيز الإبل المطلوبة ، ووضعها في فناء مجاور للمنزل الذي نقيم فيه ، استعدادا لتحميلها في أقل وقت ممكن .

كانت هناك قافلة من المسافرين ، قد قررت مغادرة الرياض إلى الأحساء بعدنا بأيام قلائل . وأشاع أبو عيسى أنه على استعداد لمرافقة هذه القافلة إلى الهفوف ، في الوقت الذي كنا نود السفر عن طريق المسار الشمالي أو أن شئت فقل : طريق سدير ، هو نفس الطريق الذي سلكه النائب مؤخرا ، بعد أن ودعناه وودعنا ، وأكـدنا له وأكد لنا على صداقته الدائمة ، إذا ما شاءت الظروف أن نلتقيه مرة ثانية . وكان مبيريك Mobey reek ، الخادم الأسود الذي يستلم أجره من أبي عيسى ، يشغل نفسه بتغذية الإبل ، على البرسيم والبيفية اللذين يجودان في الرياض ، استعدادا لرحلتها الطويلة ؛ في حين واصلنا نحن تقديم خدماتنا الطبية ، في هدوء ، دون أن نترك المنزل . كان القصر كله مشغولا بسفر قوات الحريق ، التي كانت قد اتجهت إلى عنيزة عن طريق شقراء ، ولكن هذه القوات رحلت ، على العكس مما كنا نتوقع ، بدون عبد الله ، ذلك الأمير الذي أخَّر نفسه لحين وصول المدفعية ، التي كانوا ينتظرون وصولها في أي يوم من الاحساء ، تحت قيادة محمد السديري . ووسط هذه التحركات والجلبة لم يكن هناك

متسع من الوقت أمام أى أحد كي يسأل أو يستفسر عنا ؛ وأعقبت هبوب العاصفة فترة من الهدوء ، وكان من مصلحتنا أن ننتهز هذه الفرصة ونستفيد منها قبل أن تثور عاصفة جديدة أسوأ من سابقتها .

وفي عصر اليوم الرابع والعشرين من شهر نوفمبر أحضرنا ثلاثة من إبل أبي عيسى وأدخلناها في فناء بيتنا ، وأغلقنا الباب الخارجي ، وحزمنا أشياءنا وحمّلناها على الجمال . ورحنا نترقب دخول صلاة العشاء ؛ ويدخل وقت صلاة العشاء وتنطلق أصوات المؤذنين تدعو الوهابيين الطيبين ، ومعهم حرس المدينة ، إلى التوجه إلى المساجد المختلفة . وبعد مضى عشر دقائق ، التى من المفروض أن يكون الناس قد دخلوا بعدها فى صلاتهم ، فتحنا بابنا . ونظر مبيريك في الشارع ليتأكد من خلوه من المارة ، ثم أخرجنا الجمال . ورافقنا أبو عيسى . وتجنبا منا للشوارع الرئيسية ، سرنا فى الحارات الجانبية والممرات الفرعية قاصدين واحدة من بوابات المدينة ، هي الأقرب إلى منزلنا ، وتؤدى إلى اتجاه الشمال . وصادفنا شخصا تأخر عن الصلاة ، راح يسير معنا فى طريقه إلى المسجد ، وأثناء مروره علينا (دعانا لأداء الصـــلاة . ولكن أبا عيسى أجابه على الفور : " لقد عدنا لتونا من الصلاة ." وتحسباً من مسائلنا الذى خشي أن يكون قد تأخر عن الصلاة مما سيعرضه للتوبيخ والعقاب ، اندفع إلى أقرب مصلىٍّ ، تاركا الطريق خاليا أمامنا. لم يكن هناك أحد عند البوابة . وتجاوزنا البوابة ، ثم اتجهنا شرقا ، وفي ضوء الفجر الكاذب وصلنا إلى سلسلة صغيرة من الكثبان الرملية ، آوينا إليها حتى تطلع النجوم ، والى أن يسدل " جنح الليل " مثلما يقول الشاعر العربى ، سواده على المدينة والبلاد .

والتقطنا أنفاسنا ، كما لو كنا قد خرجنا لتونا من الزنزانة ، وحمدنا الله على كل ما مر بنا . وبعد أن أمضينا أول ساعة من ساعات الليل ، وبعد أن توقف مرور عابرى السبيل ، وبعد أن تحررنا من التحدى والإجابة ، شببنا نارنا ، وشربنا أنعش فنجال من القهوة ، وأشعلنا الغلايين ، ورحنا نضحك من كل ذلك الذى حدث لنا مع كل من عبد الله وفيصل .

ومع ذلك لم أنم إلا قليلا فى تلك الليلة . فقد تزاحمت على ذهنى كثير من الأفكار الخطيرة بل والمحزنة ، عندما كنت أتخيل ذلك السور الخارجى المعتم وذلك البرج الذى يقبع بين ظلال الوادى ؛ ومر على خاطرى أولئك الذين يطوقهم ذلك السور ، كما دار

بخاطرى أيضا ذلك التأثير الذى مارسه ، بل والذى قد يمارسه على شبه الجزيرة العربية كلها ؛ كما مر على خاطرى أيضا حدة ذلك الطغيان وصبيانيته ؛ كما مر على خاطرى أيضا مدى خطورة إشعال ذلك التشدد المحترق ؛ مر بخاطرى أيضا ذلك النبع الجديد الذى ينضح مياها إسلامية مرة؛ ولم يغب عن بالى ذلك الحماس خاطئ التوجه؛ كما مرت بخاطرى أيضا تلك الشجاعة والمثابرة الشديدتين ولكنهما يساء استعمالهما ؛ كما مرت بخاطرى أيضا النهاية التى يمكن أن تؤول إليها كل هذه الأمور ! وفى وسط كل ذلك أمضينا خمسين يوما ، تحت أسقف وعلى موائد أولئك ، الذين لو قدر لهم أن يعرفوا حتى ولو لساعة واحدة ، حقيقة أمرنا ، وحقيقة مقصدنا ، لكانت هذه الساعة قد أنهت رحلتنا وقضت علينا ؛ زد على ذلك ، إننا كنا مثار شك ، ومتهمين ، وكانوا يقاضوننا ، وكنا شبه متهمين ، ومع ذلك فقد هربنا من تلك المخالب ، التى مات بينها أناس آخرون ، وأصبحنا الآن فى مأمن نسبى منها ، وخارج تلك الأسوار المخيفة - وهل مقدر لنا أن نراها مرة ثانية ؟

ومع ذلك ، كانت لا تزال أمامنا بعض الصعوبات . فقد أصبح من الضرورى لنا ، أكثر من ذى قبل ، أن نخرج من نجد دون أن يلاحظنا أحد ، وأن نجعل الصحراء حائلا بيننا وبين كل من البلاط والحاشية الوهابية من ناحية والعاصمة من الناحية الأخرى ؛ وكان من غير الضرورى أيضا أن يبدو أبو عيسى ، بحكم ارتباطه الوثيق بكل من الرياض ، وحكومتها ، متورطا ، بأى حال من الأحوال ، فى رحيلنا غير الرسمى ، أو أن يكون له أيه صلة أو علاقة بتحركاتنا . وخلاصة القول ، لابد أن يكون هناك شكل من أشكال الافتراق الظاهرى أو الشكلى ، بيننا وبينه ، قبل أن نلتقى به مرة ثانيه ونستكمل بقية استكشافاتنا .

وتنفيذا لذلك ، وحفاظا على سلامتنا عن طريق ذر قليل من التراب فى أعين الوهابيين ، اتفقنا على أن يعود أبو عيسى قبل شروق اليوم التالى إلى مدينة الرياض والى المنزل نفسه الذى كنا نسكن فيه ، كما لو أن شيئا لم يحدث ، وأن ينتظر فى المدينة لحين رحيل القافلة التجارية الكبيرة التى أتينا على ذكرها فى الصفحات السابقة ، والتى تتكون فى معظمها من رجال من الاحساء ومن القطيف ، والتى سوف تتجه إلى القطيف تحت إرشاد أبو ظاهر الغنام . كان مقررا لتلك القافلة أن تتحرك خلال ثلاثة أيام على أقصى تقدير .

واتفقنا فى الوقت نفسه على أن يتواجد صديقنا (أبو عيسى) بشكل واضح فى قصر فيصل وفي قصر عبد الله، وإذا سألوه عنا فإن عليه أن يعطيهم إجابات غامضة، وأن يتظاهر بأننا لا نهمه فى كثير أو قليل . كما اتفقنا على أننا ينبغى أن نفيد إلى أبعد حد ممكن من سفرنا خلال هذه الفترة المرحلية ، التى سيقوم خلالها مبيريك بإرشادنا إلى وادى السُّليع ، الذى سنختفى فى مكان محدد فيه إلى أن يلحق بنا أبو عيسى ويتولى أمر إرشادنا بعد ذلك .

وبعد أن اتفقنا على كل ذلك ؛ ومع طلوع الفجر استأذن أبو عيسى ، وركب بركات ومبيريك وأنا معهما ، جمالنا مرة أخرى ، ووجهنا رؤسها صوب الجنوب الشرقى ، وجعلنا سلسلة الكثبان الرملية بيننا وبين الرياض ، التى لم نعد نراها بعد . وأوصلنا مسارنا إلى الأرض الخفيضة المتموجة ، التى تعد استمرارا لوادى حنيفة ، إلى أن أصبحنا بعد ، أربع ساعات من المسير ، على أبواب منفوحة ، تلك المدينة المهمة التى كانت تحيط بها بساتين لا تقل فى مساحتها أو خصوبتها عن بساتين الرياض ؛ ولكن تحصيناتها ، التى كانت قوية فى يوم من الأيام ، تفككت وتحطمت بفعل حسد وغيرة العاصمة المجاورة لها . كانت منفوحة ، من زمن بعيد ، تتبع اليمامة وليس العارض ، كما كان من ضمنتها أيضا وادى الدعَّاس[1] المنافس الأول لـ – ابن سعود . وفيما يتعلق بالمناخ تعد منفوحة أفضل من الرياض ، والسبب فى ذلك أنها تقع على أرض مرتفعة ، وبعيدا عن الشبورة الضبابية التى تتجمع فى منخفضات الوادى ؛ ولكنها من وجهة النظر العسكرية تعد أقل من الرياض ، والسبب فى ذلك أن موقعها أكثر انكشافا وتعرضا وليس من السهل الدفاع عنها . وتجاوزنا منفوحة دون أن ندخلها ، ثم بدأ مسار طريقنا فى الانخفاض من جديد ، ثم وجدنا أنفسنا بعد ذلك فى وادى السُّليع ، وهو عبارة عن وادى طويل ، يبدأ من الصحراء التى بين الحريق واليمامة ، ويتجه ناحية الشمال ، إلى أن ينتهى فى ما بين أراضى الطويق العالية عن مستوى حريملاء ، إلى الخلف من جبل عطا الله مباشرة . ولكن وادى السُّليع ، على العكس من وادى حنيفة ، به آبار قليلة ، ولا يوجد فيه أى شىء سوى بعض القرى الصغيرة غير المهمة . ووادى حنيفة يصل مداه ناحية الشرق إلى ما بعد منفوحة ، يضاف إلى ذلك أن سلسلة الجبال التى اجتزناها تشكل حدا جغرافيا وحدوديا فى الوقت نفسه .

وبعد أن تجولنا هنا وهناك فى وادى السُّليع الواسع ، وصلنا إلى المكان الذى حدده أبو عيسى لنختفى فيه . كان المكان عبارة عن منخفض رملى صغير ، يقع بعيدا

عن المسار المطروق ، وسط الكثبان الرملية وأشجار الآراك ، وخالٍ من المياه : التي ملأنا منها قربا تكفينا ثلاثة أيام . توقفنا في ذلك المكان، وقررنا الاصطبار والانتظار .

وأمضينا في ذلك المكان يومين موحشين تماما . كنا نتشوق خلالهما إلي وصول مرشدنا ، ولم يكن هذان اليومان خاليين من الخوف . ففي إحدى المرات عثر علينا مصادفة بدوى ضال ، اندهش من تخييمنا في ذلك المكان الجاف . وفي بعض الأحيان الأخرى كنا نترك جمالنا ترعي ونختبئ بين الأشجار ، في حين نروح نحن نتجول في الوادى ، ونتسلق صخور جبل الطويق الجيرية العالية ، الموجودة في الناحية الشرقية ، وكنا نتعسس حولنا حتي نكّون فكرة واضحة عن الأرض ، وعن مرتفعاتها ومنخفضاتها ، عن خصوبتها وجدبها ، وإلقاء نظرة علي سلسلة جبال الحريق الزرقاء مثلمة القمم في أقصى الجنوب ، وإلقاء نظرة أيضا علي سلسلة جبال الطويق البيضاء الموجودة ناحية الشمال وناحية الشرق . أو إننا كنا نراوغ قطعان الغزال كثيرة العدد ، لا سعيا إلي الإمساك بها وإنما لمجرد تمضية الوقت ، وشغل أذهاننا التي كانت الظنون تستحوذ عليها . وتمر الساعات على هذا المنوال ، إلي أن بدأ اليوم الثالث الذي قصَّر الانتظار وزاد القلق ؛ ويزداد القلق مع غروب شمس اليوم الثالث ، إلي أن غابت الشمس في النهاية ؛ ومع ذلك لم يظهر أبو عيسى . ولكن بعد أن أطبق الظلام علينا ، بينما كنا نجلس وروحنا المعنوية متدنية ، إلي جوار نارنا الصغيرة ، نظرا لأن هواء الليل كان باردا ، ظهر أبو عيسى فجأة ، وتحول كل شيء إلي تساؤلات وإجابات ، وضحك وسرور .

وحكي لنا أبو عيسى ، من بين النكات والترحيبات ، كيف أنه قام ، في نفس اليوم الذى رحلنا فيه ، بزيارة عبد الله ، وكيف أجاب علي سؤال عبد الله الذى يقول :" ماذا حدث لهذين المسيحيين ؟" بأن أجابه بفرضية غير مبررة مفادها إننا ربما كنا في طريقنا إلي الزبير ؛ وحكي لنا أيضا أبو عيسى أن محبوب سأل عنا أيضا ، وأنه أعطاه إجابة مثل تلك التي أعطاها لـ- عبد الله ، وروى لنا أيضا التعليقات التي سمعها عنا ، وفيها الصالح والطالح ، كما حكى لنا أيضا عن الخرافات المبالغ فيها ، التي دارت بين الناس عن أصلنا وعن أهدافنا ؛ وروى لنا أن البعض ظنوا إننا مبعوثان من القسطنطينية ، وظن بعض آخر إننا من مصر (ومن حسن حظنا أن أحداً لم يتطرق إلي ذكر أوربا) ؛ كما حكى لنا أشياء أخرى كثيرة من القبيل نفسه ، مما أسعدنا وأدخل السرور إلي أنفسنا . كان ظاهر الغنام ، قد توقف مع قافلته علي بعد مسافة قريبة منا ؛ واتفقنا علي أن ننضم إليهم في صبيحة اليوم التالي .

وفي ساعة مبكرة من صباح اليوم الثامن والعشرين من شهر نوفمبر من العام ١٨٦٢ الميلادى ، واصلنا مسيرنا خلال شبورة الوادى غير الكثيفة ، وسرعان ما التقينا رفاق الطريق . كانت القافلة تضم عددا كبيرا وأنا هنا استميح القارئ عذرا فى أن يسمح لى بشىء من الوصف ، نظرا لأن هذه القافلة لا تفرق كثيرا عن تلك القوافل التى سبق أن وصفناها والتقينا بها . وأهم رجال هذه القافلة كانوا ثلاثة ، درسناهم أنا وبركات دراسة دقيقة ، فقد كانوا جميعا من مواطنى وادى الدواسر ؛ كان أحدهم ضريرا ويعمل "مطوعا"؛ وكان جاهلا ، ومتعصبا، ووضيعا بشكل لا يخطر على البال ؛ وكان ثانيهما ، حضريا من المنطقة نفسها ، ولم يكن أفضل حالا من رفيقه ومطوعه ، وكان الشخص الثالث ولد الثانى ، وكان ، مثل غلام فولستاف **Falstaff** ، له بلا أدنى شك ملاكا حارسا ، غير أن الشيطان يتملكه أكثر من أى شىء آخر . ولكن أغلبية أفراد القافلة كانوا من التجار ، ولم يكن لديهم أى شىء يقولونه عن أنفسهم ؛ ولم يكن معنا بدو ضمن هذه القافلة ، ولم نندم على غيابهم .

وبانتهاء اليوم الأول كنا قد تجاوزنا وادى السُّلَيّ ، وعبرنا الحدود الخارجية لمزارع السالمية ، تلك القرية الكبيرة المحصنة ، والتى يصل حجمها إلى حجم المدينة ، والتى كانت فى يوم من الأيام عاصمة لليمامة ومقرا لعائلة الدّعاس . وقرية السالمية اشتهرت باسم الخورج **Khorj** ، كما اشتهرت المنطقة المحيطة بالساليه بهذا الاسم أيضا . وإطلاق هذه التسمية دون تمييز على المدينة الرئيسة فى المنطقة وعلى المنطقة كلها أيضا ، يعد مصدرا لكثير من الخلط والارتباك فى الجغرافيا العربية ، فى كثير من الأحيان . وترتيبا على ذلك فإن كلمة " الشام " تعنى كلا من دمشق وسوريا كلها . زد على ذلك ، أن الأسماء الأخرى مثل تيماء ، ونجران ، والجوف ، والاحساء تنطوى على غموض من هذا القبيل . هذه الأسماء هى والنعوت الوصفية ، التى يتكرر استعمالها ، والتى منها " روضة " بمعنى حديقة أو بستان ، و" قلعة " بمعنى حصن ، وكلمه " ثنية " بمعنى مجاز أو ممر ، تُضْعف الأسماء والمسميات العربية ، وتجعل منها واحدة من أضعف التسميات فى الدنيا كلَّها(١) . إن منظومة الأسماء والمسميات كلها سيئة ، ويبدو أنها تستهدف صعوبة التعرف على الأماكن .

(١) إنى ألمح فى كلام المؤلف هنا أنه يلمز اللغة العربية ويشير إلى فقرها وعدم دقة دلالتها ، وهذا حكم لا يقوله إلا جاهل باللغة العربية واشتقاقاتها ودلالتها فهى من أوسع اللغات فى العالم ومن أخصبها فى الاشتقاق ، وعندما تبحث فى وضعية ، أية كلمة فى اللغة العربية تجد ثروة هائلة من الدلالات والمعانى الدقيقة ، إن فى لسان العرب وحده ثمانون ألف مادة ، وكل مادة تشتق منها عشرات الكلمات - (د. حلمى عبد المنعم) .

والخورج أو السالمية هي المقر المعتاد (للأمير) سعود ، صديقنا السابق ، وولد فيصل من زوجته الثانية ، عندما يكون في هذه المنطقة ، وهذا هو المتبع أيضا في كل من الحوطة والحريق . والريف المحيط بالسالمية هو أخصب أراضي اليمامة ، وهو فردوس نجد ؛ ولكن الحياة النباتية ، والأشجار والنباتات لا تختلف كثيرا هنا عنها في وادي حنيفة ، اللهم باستثناء امتداد الخضرة وعمقها . والقطن وحده هو الذي يشكل استثناء في هذه المنطقة التي تنتشر فيها بيارات النخيل ، وحقول الذرة ، والدخن أكثر من أي مكان آخر . وقد سبق أن وصفت طبيعة السكان في هذه المنطقة ، واتجاهاتهم السياسية والدينية ؛ والسكان هنا ألطف وأرق وآنس من سكان الرياض أو الدرعية . ومع ذلك ، فهم ، باستثناء قله قليلة ، من الوهابيين المخلصين ؛ إذ كانوا في يوم من الأيام أتباعا لـ – مسيلمة المنحوس .

ومما زاد في حزني وأسفي ، أن قافلتنا مرت بالسالمية دون أن نتوقف فيها ، ثم انحرفنا قليلا ناحية اليسار ، لندخل بعد ذلك ، في ممر جبلي بين حوائط جبل طويق المكونة من الحجر الجيري ، ثم صعودنا بعد ذلك مسافة تقدر بحوالي ثلاثمائة قدم ، إلى أن وصلنا إلى طريق واسع منحدر ، حيث كانت توجد مراعي هزيلة متناثرة ، تصبغ لون التربة الجيرية باللون البني هنا أوهناك ، وكانت تربى عليهما قطعان من الماعز الشبيهة بالأغنام ، أو إن شئت فقل الأغنام الشبيهة بالماعز ؛ وقد ذكرتني مرتفعات ومنخفضات هذه المنطقة ببعض مناظر اسكتلنده ، فيما عدا أن المنطقة هنا تفتقر إلى أشجار الصنوبر وأشجار التَّنوب . وقد أمضينا وقتا طويلا في عبور تلك الأرض الجرداء، إلى أن وصلنا قبل حلول المساء إلى بقعة من الأرض أكثر اخضرارا ، وفيها مجموعة من الآبار ، ويطلق عليها اسم اللقيات ، التي خيمنا فيها لنقضي فيها ليلة باردة .

وفي صباح اليوم التالي كانت تلف الريف كله ، بتلاله ووديانه ، وأشجاره وأجماته غلالة من الضباب الكثيف ، تناسب مدينة سيري **Surrey** (البريطانية) أكثر من الجزيرة العربية ، إذ بلغ الضباب من الكثافة حداً جعلنا نضل طريقنا ، ورحنا نتحرك بطريقة عشوائية ، ونحن نصيح ويتنادى بعضنا بعضا ، ونقود دوابنا مرة في هذا الاتجاه ومرة أخرى في ذاك الاتجاه ، فوق أرض مكسرة وبين شجيرات متداخلة ، إلى أن قوى ضوء الشمس ، وقشع بخار الماء ، ويكشف لنا عن المسار الصحيح الذي كان

يقع على بعد مسافة قصيرة ناحية اليمن. وقبل أن نقطع مسافة كبيرة من ذلك الطريق، شاهدنا كتله سوداء قادمة من ناحية الشرق في اتجاهنا . كانت تلك الكتلة السوداء عبارة عن الفرقة الأولى من قوات الاحساء ، وهي في طريقها إلى الرياض ؛ وكان عدد هذه الفرقة لا يقل عن أربعمائه أو خمسمائة مقاتل . ومثل العرب الخلص ، كانت تلك القوات تتحرك بدون أي تنظيم أو انتظام – بعضها يمشي ، وبعضها يجري ، وبعضها يغني صياحا ، وبعضها يسير على انفراد ، والبعض الآخر يسير على شكل جماعات ، كل حسب ما يتراءى له . وتبادلنا بعض الكلمات القلائل مع هؤلاء الشباب المسرعين ، الذين أبلغونا أن قائد اللواء محمد السديري ، ومعه قوة الجيش الرئيسة والمدفعية ، كانوا قد بدءوا التحرك بالفعل ، ولكنهم متأخرون عنهم يوماً أو يومين . وقد أقسم لنا هؤلاء الشباب، بدون خجل أو تردد، أنهم لو كان الأمر بيدهم ، لآثروا البقاء في بلدهم ، وأن الضرورة المفروضة عليهم ، وليس العمل الديني أو العسكري ، هي التي تقودهم إلى ميدان القتال . وضحكنا وتمنينا لهم أن يظفروا برأس الزامل ، أو يظفر هو برؤوسهم ، وضحكوا من أعماقهم وراحوا يصحيون ، ويمضون في طريقهم .

وبينما كنا في تلك المنطقة ، شاهدنا منظرا رائعا لمدينة الحريق ، من الناحية الجنوبية ، وبخاصة إننا كنا مقابلين لها في هذه المنطقة ، برغم أننا كانت تفصلنا عنها سلسلة متتابعة من الصحراوات . ويظهر أن تلال تلك الصحراء كانت من الجرانيت (وأنا استميح القارئ أن يعذرني دوما ، وألا يغيب عن ذهنه أنني لست جيولوجيا أو عالم نبات ، " ولو زاد الأمر عن ذلك فإنه سيدعو إلى الأسف ") وهي تنتشر ناحية الشرق وناحية الغرب على شكل سلسلة مهلهلة غير متصلة ، وقد يزيد طولها على ستين ميلا . ولما كانت الحريق محاطة بالصحراء فلا بد أن تكون منطقة شديدة الحرارة ؛ والواقع أن اسمها يدل على ذلك ، إضافه إلى أن لون بشرة سكانها البرونزي يؤيد هذه الحقيقة . ومن هذه المسافة البعيدة لم نستطع تمييز أية مدينة من مدن الحريق ، أو أية قلعة من قلاعها بصفة خاصة ؛ ولم نميز سوى مدينة الحوطة عاصمة الحريق ، التي حددها لنا ، عن طريق الإشارة ، أولئك العارفون للمنطقة ، والذين كانوا معنا في نفس القافلة. وكان من العجب أيضا أن نرى جبل طويق وهو ينتهي بالاندماج في الصحراء، متحولا إلى سلسلة سريعة من المنحدرات الوعرة الشديدة ، التي يذوب آخرها في الرمال الجدباء . وهكذا يتحول جبل طويق في هذه المنطقة إلى حجر جيري ، ولكن الحديد موجود أيضا في بعض مناطق جبل الطويق ، كما يوجد به أيضا بعض من

النحاس ، وقد أشار أبو عيسى إلى أحد الجبال التى تحتوى على النحاس ، مشيرا إلى أن الأوربيين لو كانوا فى هذه المنطقة لاستفادوا من هذا الخام .

ومضينا فى طريقنا ، خلال منطقة كانت مناظرها أكثر تنوعا عن المنطقة التى سرنا خلالها فى اليوم السابق ، كما تمتعنا " بجمال الموقع فى كل من التلال والوديان "، التى كانت عامرة ببيارات صغيرة من أشجار السدر ، وأجمات من أشجار المرخ كثيرة الأغصان ، إلى أن وصلنا إلى سفح صخرة بيضاء عالية ، تشبه صخرة دوفر ؛ ولكن هذه الصخور ، بدلا من وجود البحر عند سفحها ، كانت تطل على وادٍ واسع مليئ بالأشجار ، وتبدو عليه آثار سيول الشتاء العنيفة التى تتجه من الشرق إلى الغرب ؛ وكانت تلك المجارى خالية من المياه . وتوقفنا فى هذه المنطقة لنمضى فيها ليلة خالية من الهموم ، لم يعكر صفوها " سوى هواء زمهرير شهر نوفمبر " الذى لا يقل عن زمهرير ضفاف نهر إير Ayr ، برغم أن هذا الهواء يهب هنا على خط عرض ٢٥ وليس خط عرض ٥٦ .

وقبل أن يذوى ضوء النجوم مختفيا من سماء الصباح البارد كنا قد صحونا من نومنا وبدأنا تحركنا استعدادا لمشوار طويل ينتظرنا . وبعد تفاوض قصير ، مع الجبل ، إن جاز التعبير ، تسلقناه عن طريق مسار متعرج منحدر ، يَشُقُّ على الجمال تسلقه ، والذى يجيب العرب عندما يسألون عن أيهما أفضل : صعود التل أم نزوله ، بقولهم : " لعنة الله على هذا وذاك ". والإيطاليون يقولون لذلك : Maledetto l'ottimo . وعند شروق الشمس وقفنا على آخر وأعلى صخرة مرتفعة من تلك الصخور البيضاء فى جبل طويق ، تلك الصخرة التى هى عبارة عن جدار طويل من الطباشير، وتحيط بنجد وتحميها من ناحية الشرق ؛ ومن خلف هذه الصخرة ، أو إن شئت فقل : ذلك الجدار الطويل ، توجد الصحراء ومن بعدها ساحل الخليج . كان المنظر من أمامنا مترامياً تماما ، وكان الهواء البارد يجعل ارتفاعنا فوق مستوى السهول البعيدة أمراً حساساً ، وبخاصة أن تلك السهول كانت تبدو لنا كما لو كانت مثل سطح البحر الخالى من الأمواج ناحية الغرب . ولم نر حولنا بشرا أو دوابا أو أشجاراً أو شجيرات ؛ كانت الهضبة كلها مكونة من المرل والحصى ، وكلها جافة وقفر ومكشوفة البرد الشديد والشمس الحارقة .

وبعد أن سرنا ثلاث ساعات في الطريق المرتفع بدأنا ننحدر مرة ثانية ، ولم يكن الانحدار مفاجئا في هذه المرة وإنما متدرجا ، ثم وصلنا عند الظهر ، إلى منخفض عجيب ، هو عبارة عن حوض طبيعي ضخم ، على شكل تجويف في صخور الحجر الجيري ، وبه مسارات تشبه الخنادق العميقة ، تؤدي إليه من جميع الجوانب . وفي قاع ذلك الوادي ، كانت هناك حوالي عشرة آبار أو أكثر ، ماؤها وفير لدرجة أنها كانت تفيض في أحيان كثيرة على المكان كله وتشكل بحيرة صغيرة ؛ وكانت مياه هذه الآبار رائعة وجيدة ، ولكن لم يكن هناك أي شيء ، في المنطقة كلها ، في هذا المسار كله ، سوى هذه الآبار ، وذلك بدءا من هذه النقطة إلى مدينه الاحساء . وعند هذه الآبار التي أكسبها موقعها الجغرافي اسم " الأويسيط " ، وهو تصغير " أويسط " بمعنى "الوسط" تلتقي عدة طرق ؛ منها طريق الحريق القادم من الجنوب ؛ وطريق اليمامة وجنوبي نجد – وهو الطريق الذي سلكناه – من ناحية الغرب ، وطريق جبرين والواب ، المؤدي إلى وادي السُّليع ، والقادم من الشمال الغربي ؛ ومدق جبلي ضيق ، لا يسلكه سوى الرعاة وقله قليلة من الناس ، ويسير بحذاء سلسلة الجبال في اتجاه الشمال إلى أن يتصل بطريق الكويت والزبير ؛ وأخيرا يجيء الطريق المتجه شرقا ، والذي يؤدي إلى الاحساء والهفوف ؛ والذي سوف نسلكه الآن . وتلجأ قطعان الماشية والأغنام من المناطق الجبلية المجاورة إلى هذه المنطقة طلبا للسقيا .

وأخذنا قسطا من الراحة ، وأعددنا فنجالا من القهوة ، وملأنا قرب الماء عن آخرها ، وبمهارة الرجال الذين عقدوا العزم على القيام بمسيرة طويلة ؛ وركبنا إبلنا وخرجنا من هذا المنخفض عن طريق المخرج الشرقي . وقضينا بقية النهار في الهبوط من ذلك المنحدر المتدرج الواسع الذي ذكرني جدبه الشديد ورتابته الميتة بالأراضي المرتفعة المكونة من الحصى بالقرب من مُعَان ،على الجانب المقابل من شبه الجزيرة العربية ،التي عبرناها وتجاوزناها منذ سبعة أشهر . وغربت الشمس ، ثم دخل الليل ، وكان كثير من المسافرين على استعداد للتوقف عن طيب خاطر ، ولكن أبا عيسى أصر على مواصلة المسير . وأصبحنا الآن على بعد عدة مئات من الأقدام أسفل عرف الصخرة التي تقف خلفنا ، وكان الهواء ساخنا ومحملا بالرطوبة ، إلى أن لاحظنا أن الأرض ، التي كانت صلبة من تحت أقدامنا ، بدأت تتحول بصورة متدرجة إلى رمل خفيف بدأ يغطي التربة الصخرية . كانت الرمال ضحلة في البداية ، ثم بدأت تزداد عمقا ، ثم بدأت بعد ذلك بفترة قصيرة تكشف عن سلسلة التموجات الرملية الشهيرة

التي يتميز بها محيط الرمال البرى عندما يصل عمقه إلى عدة فراسخ . وراحت أقدام دوابنا تغوص فى الرمال ؛ وكان الليل مظلما ، ولكن النجوم كانت ساطعة ؛ واستطعنا أن نميز خلال الظل وميضا أبيض لطَيْفًا من أطياف التلال الرملية التى بدأت ترتفع حولنا من جميع الجوانب ، ولكن لم تكن هناك مدقات أو دليل على الطريق .

كان ذلك هو وميض صحراء الدهناء الكبيرة ، أو إن شئت فقل : الصحراء "الحمراء" ، بعبع البدوى الجائل ، ولم يحدث أن عبرها قط عابر سبيل عادى بدون تخوف ، كان يسفر فى معظم الأحيان عن حوادث مميتة . ورمال الدهناء دقيقة جداً ، وكثيرة أيضا ؛ ونسماتها هى التى تشكل تلك الكثبان الرملية وتعيد تشكيلها كل يوم لتحولها إلى تلال ووديان متحركة ، ويترتب على ذلك ضياع آثار الرحالة السابقين التى يمكن أن يهتدى بها الرحالة اللاحقون ؛ فى حين أن الحرارة الشديدة ، والوهج الشديد الذى ينعكس على جميع أجناب هذه الصحراء ، هما والجفاف والجدب يربكان المغامر ويضايقانه إلى أن تضيع منه بوصلته ويسير على غير هدى سيرا عشوائيا . هنا وهناك وسط هذه الأرض الخراب إلى أن تصبح له قبرا . لقد مات الكثيرون بهذه الطريقة ؛ بل إن هناك أنباء أكيدة عن اختفاء قوافل بكاملها فى الدهناء دون أن تترك أثراً واحداً ؛ وقد أدى ذلك إلى ذيوع الحكايات العربية ، المبالغ فيها ، عن الشياطين التى تحمل هؤلاء المغامرين ، أو الغيلان الذين يبتلعونهم ، مما جعل الذين يألفون هذه الأمور فى الأماكن الأخرى ، يضحكون عندما يستمعون إلى مثل هذه الحكايات ويسخرون منها . ومع كل ذلك ، فإن أولئك الذين ينتقلون بين منطقة الاحساء كثيفة السكان ونجد الامبراطورية ، سواء أكانوا تجارا أو مغامرين ، أو مبعوثين أو جيوشا - سوف يتعين عليهم ، شاءوا أم أبو ، أن يعبروا هذه الصحراء ، سالكين فى ذلك خطا محدداً ، نظرا لأن الدهناء كلها وبلا استثناء غير مطروقة إلا من هذا المسار فقط . والواقع أن الطرق على جانبى بحر الرمال هذا ، محددة تحديدا واضحا ويسهل التعرف عليها ، ولكن المشكلة كلها تتمثل فى المسافة الواقعة بين هذين الجانبين . وتخفيفا من مخاطر هذه الصحراء ، قام أبو عيسى منذ عامين ومن منطلق روح الخدمة العامة ، التى يندر أن تجدها فى الشرق ، قام بتحميل عدد من الجمال بالعديد من الأحجار الضخمة ، ونقلها إلى منتصف الطريق فى تلك الصحراء الرملية ، ليكوِّمها هناك على شكل "رجم" كما يسميها العرب ، أو إن شئت فقل : على شكل أهرامات صغيرة ، يصل ارتفاع الواحد منها إلى خمس وعشرين أو ثلاثين قدما ، مشكلا بذلك علامة أرضية مهمة فى

هذه الصحراء الخالية من الدروب . ويصعب على التأثيرات التى تحدثها الريح والعواصف فى الرمال أن تؤثر على هذه الأكوام الكبيرة ؛ وإن حدث وغطت الريح واحدا من هذه الأكوام ، فإن عاصفة أخرى لابد أن تكشف الرمال وتزيلها عن هذه النواة الصخرية ، وقد دعا كثير من الناس بالخير لأبى عيسى لأنه أقام هذه الرجم ، التى أسدت خدمات جليلة للرحالة والمغامرين . والأجمل من ذلك ، أن أبا ظاهر الغنام ، الذى نحن بصحبته اليوم ، والذى تضطره مهمة عمله أن يعبر ذلك المكان الموحش ، تملكته روح التنافس الشريف ، وأقام كومة صخرية أخرى ، أصبحت تعرف باسم رجمة الغنام، مثلما تعرف الأولى باسم رجمة أبى عيسى. وبرغم هذه المواقع الإشارية ، لا يزال طريق الدهناء خطرا ، ولم تكن قافلتنا فى مأمن تماما من إضافة صفحة جديدة إلى فصل الحوادث الطويل .

وبعد أن أمضينا ثلاث ساعات ونحن نسير أثناء الليل ، أو بالأحرى ونحن نخوض فى أمواج الرمال ، إلى أن أوشك الرجال والدواب على حد سواء أن يغوصوا فى الرمال نتيجة التعب والإرهاق ، نشبت مشاجرة حادة بين أبى عيسى والغنام ، فقد كان كل منهما يقترح مسارا مختلفا عن الآخر . وتوقفنا كلنا لحظة واحدة ، وأشحنا بأعيننا التى توحى بالتعب والإرهاق ، لنتبين من من الاثنين على صواب . وأنا لن أنسى ، قبل مضى وقت طويل ، ذلك الانطباع الذى اعترانى فى تلك اللحظة . كانت السماء من فوقنا شديدة السواد ، وتتخللها نجوم ضخمة لها بريق لا يتوفر إلا فى هذه المنطقة العربية ، إضافة إلى أن ما يعد مجرد شعاع من الدرجة الثالثة فى الأماكن الأخرى ، هو هنا من الدرجة الأولى وسط هذا الفراغ الهوائى الخالى من الضباب وبخار الماء ؛ ومن حولنا كانت تلوح لنا سلاسل الجبال المرتفعة ، التى كانت تعزلنا من أمامنا ومن خلفنا بحدودها الخارجية البيضاء التى كانت تتراءى لنا مثل الأشباح ؛ ومن تحت أقدامنا كانت الرمال الخالية من الحياة ، كما كان الصمت يخيم علينا من جميع الجوانب ويبدو لنا كما لو كان من عالم حالم غريب لا يجرؤ أى إنسان على الاقتراب منه . ومد أبو عيسى ذراعه ليحدد اتجاها ، ومد الغنام ذراعيه ليحدد اتجاها آخر ، وكان الاتجاهان خاليين من الممرات أو المخارج . وبعد برهة قصيرة ، حسم أبو عيسى الأمر ، بأن رفع صوته ، مناديا الجميع أن يتبعوه ، ثم قادنا برغم معارضة الغنام الشديدة ، إلى اتجاه على شكل زاوية حادة ناحية اليسار ، إلى أن وصلنا فى النهاية إلى ما يشبه الوادى حيث كانت بعض الأدغال القليلة التى تغير منظر الرمال ، وأنزلنا أمتعتنا كي ننال قسطا من الراحة ؛ وكانت فترة الاستراحة أدفأ من سابقتها .

واستأنفنا مسيرنا في الصباح التالي ، ولكن تحت إرشاد أبي عيسى وحده ، الذي وافقت القافلة بالإجماع على أن تسلم نفسها له ، ثقة منها في قدرته الفائقة على تعرف هذه المنطقة الموحشة ، وإلى أن يصل بنا إلى الجانب الآخر من الدهناء . ومن الصعب عليَّ أن أحكي للقارئ الطريقة التي استطاع بها مرشدنا توجيهنا ؛ موهبة تشمم الاتجاه الصحيح عندما تعجز العينان والأذنان عن تقديم العون، وأنا على يقين ، أن هذه الموهبة ، هي واحدة من القوى الكثيرة الكامنة في الطبيعة البشرية ، ولا يمكن استنفارها إلا عن طريق الظروف والتدريب المطول . وعندما كنا قريبين من منطقة الدهناء ، صادفنا قله قليلة من البدو ، تنتمي إلى قبيلة آل- مُرّه ، التي تسكن وحدها في هذه الصحراء ؛ كان هؤلاء البدو ، يرعون ماعزهم في أماكن صغيرة تتناثر فيها الأعشاب والأدغال ، التي تعيش حياة متأرجحة بين منخفضات الرمال . وقطعان الماعز نفسها ، يمكن أن تصبر على (الماء) بحكم قدرتها على تحمل العطش طوال أربعة أو خمسة أيام ؛ وعندما تصبح سقيا هذه القطعان أمرا ضروريا ، فإن الرعاة يقتادونها إلى الأويسيط أو إلى بعض الآبار المالحة الأخرى الموجودة على حواف جبل طويق ، والتي لا يعرفها البشر العاديون .

ولم أر في حياتي مخلوقات أكثر بدائية من بدو آل – مرة ؛ فشعرهم عبارة عن جدائل مثل جدائل شعر الجن، وملابسهم عبارة عن خرق ، ووجوههم مغطاة بالسخام ، ونظراتهم عبارة عن وحشية متجسدة . ومن حيث الكلام ، تلك الخاصية التي تميز الحيوان الإنساني ، فهم لا يثبتون أنهم بشر ورجال ، وإنما رجال يتميزون أيضا بطلاقة اللسان . ولهجة آل – المرة كانت مختلفة تماما عن لهجة الشمال ، بل وعن لهجة نجد أيضا ؛ وقد أحارتني تلك اللهجة في البداية ؛ وعندما بدأت أتسودها ، اكتشفت أنها تنتمي إلى ذلك الشكل القديم، أو إن شئت فقل البدائي ، من أشكال اللغه العربية ، والذي يجب أن أحيل القارئ للاطلاع على عينات منه ، مثل تلك العينات التي وردت في أمثال الميداني، والتي دونها الباحث فريتاج Freytag بلغة لاتينية غريبة. ولهجة آل – مرة هذه أغنى من حيث المفردات ومفاصل الكلام ، من لهجة القرآن التي تشبه الحديد الزهر ، والتي تشكل دقتها الهندسية ، وقوافيها الرتيبة ، الحدود المميزة للغة العربية الحديثة ؛ وصرفيات هذه اللهجة هي من التعديل القديم الذي سبقت الإشارة إليه في فصل سابق ؛ وجذورها يندر أن تتفق مع جذور اللغة العربية أو السوريانية ؛ وهذه الخصائص الغريبة تتفق وتنسجم مع كل من الأصل الداخلي ، والجنوبي ،

وربما الأفريقي الذي تعزوه الدراسات التاريخية إلى هذه اللهجة ، قبل عصر (سيدنا) إسماعيل وهجرة قبائل الحجاز الشمالية . وقبيلة آل - مرة نفسها واسعة الانتشار ؛ وجزء صغير من هذه القبيلة هو الذي يعترف بالتأثير الوهابي عن طريق جزية يدفعونها من حين لآخر وصلاة مشوهة وغير صحيحة يؤدونها ؛ والجزء الأكبر من هذه القبيلة من الكفار ، وهم فيما يتعلق بأمور الدين والسلوك يشبهون بدو الشرارات إلى حد بعيد ، بالشكل الذي أوردناه في الفصل الأول من هذا الكتاب . وسمرة آل - مرة تكاد تقترب من السواد ؛ وأسلحتهم عبارة عن رماح وسكاكين ، والسبب في ذلك أن بندقية المشاة لم تنتشر بينهم بعد . ولم يتبق لهم من تراث قحطان سوى طلاقة اللسان ؛ وفيما عدا ذلك فهم مجرد أفظاظ ، ولكنهم ليسوا همجًا ؛ وقد اكتشفت أنهم حسنوا الطبع برغم أنهم وقحون وسلابون ونهابون ، مثل بقية البدو .

وصحراء الدهناء التي يعيش فيها آل - مرة هي أكبر الصحراوات في المنطقة الممتدة من نجد إلى حضر موت ؛ وليس معنى ذلك أن آل - مرة يغطون في واقع الأمر هذه المساحة الهائلة ، التي تمثل ربع مساحة شبه الجزيرة العربية ؛ وإنما المقصود هو أن آل - مرة لهم حرية الحركة ولا ينازعهم أحد في الواحات الموجودة في تلك الصحراء ، والتي تتجمع فيها الأعشاب ، والحشائش وأشجار النخيل القزمة حول بعض الآبار التي تنتج ماء مالحا شحيحا . وهذه الواحات كثيرة لكنها لا تكفي سوى بدوي واحد أو اثنين من البدو الضالين ، ولكنها لا تصلح أن تكون نقاطا برية مميزة على طريق منتظم يمر من وسط الدهناء . ويبرز من محيط الرمال هذا ذلك الذراع الطويل العريض الذي نجتازه الآن ؛ وهذا الذراع له سمات وخصائص الصحراء الجنوبية ، وتستمر تلك السمات والخصائص الوهابية إلى أن يصل الذراع إلى الشمال في المنطقة المحصورة بين جبل طويق وساحل منطقة الاحساء ، وينتهي ذلك الذراع بعد ذلك في سهل الزبير خلف الكويت ، ليصبح بعد ذلك موازيا للطرف الشمالي من الخليج الفارسي .

وحصل أبو عيسى من آل - مرة على بعض التوضيحات للطريق الذي ينبغي أن نسلكه ، وبالتالي تمكنت القافلة من التقاط أنفاسها مدة خمس دقائق ، لكن دون أن ننزل من على جمالنا . وبعد ذلك بساعة وصلنا إلى رجم أبي عيسى ، ذلك العمل الذي تكلف جهدا ومالا كثيرا ، وبذلك يكون الرجم قد أكد لنا من جديد أننا نسير في الطريق

الصحيح ، وهنا بدأنا نسرع الخطى ، ونحن مرهقون من شدة الحر ، ومع ذلك لم نكن نود التوقف في تلك المنطقة الخطيرة، وعندما دخل وقت العصر شاهدنا ناحية الشرق ، وعلى مقربة منا من الناحية اليسرى ، شيئا شبيها بقطيع كبير من النمل الأسود ، ويبدأ ذلك القطيع في الاقتراب منا ، وعرفنا أنه القوة الرئيسية القادمة من الاحساء ، وتجر معها خلال الرمال مدفعين ثقيلين مرسلان من القطيف للاشتراك في حصار عنيزه . كان عدد هذه الفرقة ، أكبر بكثير من الفرقة التي شاهدناها من قبل ، إذ لم يكن يقل بحال من الأحوال عن سبعمائة أو ثمانمائة رجل ؛ ولكننا لم نلتق هذه الفرقة ، نظرا لأن طريق سيرها كان يبعد عنا حوالي ربع ميل ناحية الشمال ؛ زد على ذلك ، أن أحدا من الجانبين لم يكن على استعداد أن ينحرف عن مساره طلبا للصخب والهزر .

وبعد غروب الشمس وصلنا إلى الرجم الثاني ، أو إن شئت فقل : الركام الثاني إن جاز لنا أن نطلق هذا الاسم على مجموعة من الأحجار ليس مدفونا أحد تحتها ؛ وهذا الرجم الثاني هو ما يطلق عليه رجمة الغنام . وعند هذه الرجمة بدأ منظر الصحراء يتغير ، إذ أصبحت الرمال تختلط بالحصى ، وبدأت تتماسك من تحت أقدام دوابنا . وتوقفنا لنشب النار كي نتناول العشاء ؛ وهنا يحق لي أن اسميه إفطارا ، نظرا لأننا لم نتناول أي شئ طوال اليوم . وفرح الجميع لأننا تركنا الدهناء وراء ظهورنا . ولكن نجاح أبي عيسى ، الذي أرشد القافلة على نحو أفضل من المرشد الرئيسي ، أوغر صدر الغنام وأتباعه ، وأثار فيهم شعور "الاستحسان ولكن ظلاله كانت تطاردهم" ، على نحو لا مثيل له إلا في الجزيرة العربية . ولابد أن أعترف هنا أن ذلك الشعور الكريه يفسد ، إلى حد ما ، مقارنتي بين العرب والإنجليز – وليس معنى ذلك أن الإنجليز أو الأوربيين ليس لديهم هذا الشعور ، أو أنهم بريئون منه تماما ، ولكن الحسد الغربي لا يقارن بالحسد الشرقي على الإطلاق. وبغض النظر عن كل ذلك، فقد حدث شقاق صريح بين المرشدين المتنافسين ، ونظرا لأن بقية الطريق كان من السهل اجتيازها ، فقد افتعل الغنام ذلك الشجار . ووقف بعض أفراد القافلة إلى جانب هذا المرشد ، بينما وقف البعض الأخر إلى جانب ذاك ؛ وتبادل المرشدان كلمات لا لزوم لها ، وأوشكنا على أن يكون اليوم " يوما " ، مثلما يتحدث العرب عن المشاجرة . وتدخلت أنا وبركات، واقترحنا على أبي عيسى أن من الأفضل لنا أن يواصل هو معنا، مع كل أولئك الذين يودون مرافقتنا ، وأنه إذا ما وصل بنا إلى الهفوف قبل الغنام ، فإنه سيكون قد حقق انتصارا كاملا عليه . وكأمر واقع ، بدأنا نتحرك ومعنا اثنين أو ثلاثه من أفراد القافلة ؛ وخلفنا منافسينا وراءنا في خزيهم يشربون القهوة .

وبدأت الأرض ، التى أصبحت تستحق أن نطلق عليها هذا الاسم نظرا لأنها تتكون هنا من نسب شبه متساوية من الحصى ، والمرل ، والرمل ، تنحدر نحو الشرق وبدأت تتلألأ عند الأفق البعيد على شكل إبيضاض قفر وجدب ، تتخلله هنا وهناك سلسلة من الأدغال الشوكية . وأوينا إلى واحد من هذه الأدغال ، لنقتنص قسطا من الراحة ، التي أعقبها مسير يوم كامل في ذلك السهل الرتيب ، وسط ارتفاعات وطبيعة مشابهة لارتفاعات وطبيعة اللهجة السابقة . والتغيير الوحيد الذى شاهدناه على مدى مسير أربعة عشر ساعة ، كان يتمثل في تلك القلة القليلة من المسافرين الذين التقيناهم وهم قادمون من مدينة جون (١) في الاحساء ، والذين ظنوا أننا لصوصا وكادوا يموتون خوفا . وبطبيعة الحال ، لم نصادف على طريقنا قرى ، أو ظلا أو آبارا ؛ ومن حسن حظنا أن الحرارة هنا كانت أكثر احتمالا مما كانت عليه وسط الرمال .

وأمضينا معسكرا ليليا آخر ، ثم صعدنا بعد ذلك إلى السهل الأبيض المتحدر . ثم بدأ المنظر يتغير بعد ذلك ، فهذه تلال من الحجر الجيرى ، وهذه ممرات ضيقة تحد طريقنا ، إلى أن صادفنا فى قاع أحد المنخفضات شجرة وحيدة كبيرة أشواكها أكثر من أوراقها ، وتعيش وحدة مثل وحدة النسّاك . وأبلغنا أبو عيسى : " في هذا المكان أمر إبراهيم باشا بحفر بئر وصل عمقه إلى ما لا يقل عن ستين قدما ، على أمل العثور على الماء ، ولكن جهود الحفارين باءت بالفشل " . وهكذا بقيت هذه الحفرة الجافة بعد أن امتلأت بالأحجار والرمال لتكون شاهدا على هذه المحاولة . ولو نجحت محاولة إبراهيم باشا ، لقلت مشاكل الاتصالات بين نجد والساحل الشرقى .

وبعد مسافة قصيرة ، دخلنا الوادى الكبير ، المعروف باسم وادى فاروق (٢) . وهذا الوادى ، شأنه شأن الخصائص الجغرافية البارزة فى هذا الإقليم ، سواء أكان جبلا أم سهلا ، يتجه من الشمال إلى الجنوب ؛ والسمة الغالبة على هذا الوادى هى سمة الدهناء ، التي يمكن اعتبار هذا الوادى جزءا منها وموازيا لها . وبحكم أن هذا الوادى عميق وواسع ، فهو يحتوى على متاهة من الكثبان الرملية ، يضل خلالها ، كثير من المسافرين طريقهم ، بل ويموتون فيها بين الحين والآخر . ولكن الذى يسيئ إلى سمعة وادي فاروق بصفة خاصة ، هو وجود أعداد كبيرة من قطّاع الطرق ، الذين ينتمون إلى آل – مرة في بعض الأحيان ، وإلى بدو المناصير فى بعض الأحيان الأخرى ؛ والمناصير قبيلة من القبائل التي سوف نتعرف عليها في المنطقة الشرقية ؛ والبديل

الذى يقدمه "اللصوص الفجرة" لرواد هذا الطريق الشرفاء يتمثل فى العبارة التالية : " أيها الكلاب ، أرواحكم مقابل أكياس نقودكم " . وقد حاول الوهابيون ، الذين يكرهون جميع اللصوص باستثناء أنفسهم ، إخماد عصابات وادى فاروق مرارا ولكنهم لم يحققوا نجاحا كبيرا ، ولا يزال آل – مرة يحتفظون بعصاباتهم الخاصة بهم كما أن جيرانهم يحتفظون بمثل هذه العصابات أيضا ، فى بعض الأحيان .

ونزلنا فى وادى فاروق قبل دخول وقت الظهر، وتجاوزناه كله ونحن نحس بالقلق ، وقبل غروب الشمس صعدنا إلى الضفة المقابلة ، وبدأنا المسير خلال سلسلة الجبال الساحلية فى الاحساء . وتفصل الصحراء عن البحر هنا سلسلة من الكثبان الرملية الجرداء القاحلة ، التى تكاد تحيط بالجزيرة العربية كلها ، بدءا بالعقبة فى الشمال الغربى ، ثم تمتد بعد ذلك بطول البحر الأحمر ، ثم إلى كل من عدن ونقب الحجاز أمام المحيط الهندى ، إلى أن تصل إلى رأس الحضض ، ثم تسير بعد ذلك بحذاء الساحل العمانى والخليج الفارسى إلى أن تصل إلى طرفه الشمالى . وقد توجد ضمن هذا الحزام من الكثبان الرملية بعض الفجوات ، غير أن ذلك أمر نادر تماما ؛ وارتفاع هذا الحزام لا يعتد به فى الجزء الأكبر منه ، ولا يزيد ارتفاعه بأى حال من الأحوال عن ألف قدم ؛ ولكن هذا الارتفاع قد يصل إلى ستة آلاف قدم فوق مستوى سطح البحر ، فى حين تتسع سلسلة هذه الكثبان الرملية لتكون ، فى الوقت نفسه ، منطقة جبلية واسعة . ويصل ارتفاع هذه التلال ، فى المنطقة المقابلة لوادى فاروق ، حسب تقديرى الشخصى ، إلى حوالى ألف وأربعمائة قدم فوق مستوى سطح البحر وإلى حوالى أربعمائه قدم فوق مستوى الصحراء من ناحية الغرب ، وبذلك يصل ارتفاعها إلى حوالى ألف قدم عن مستوى الساحل . وجبال الاحساء فيها قدر من الحجر الجيرى هنا أو هناك ، ولكنها مكونة أصلا من الجرانيت والحجر الرملى ، كما توجد فيها أيضا صخور الكوارتز والبازلت . وفى أغلب الأحوال تتآكل حواف هذه الصخور وتتحول إلى كهوف ، يستثير منظرها الخيال ويوحى بالوحشة .

عند هذا الحد ، كان قدا انقضى على تزودنا بالماء ثلاثة أيام ونصف اليوم ، وكان أبو عيسى يطمع إلى إنهاء الرحلة على وجه السرعة . وكانت هناك أسباب مماثلة تضغط على الغنام ورفاقه ، وبخاصة أنهم استطاعوا عن طريق مضاعفة معدل سيرهم أن يلحقوا بنا ؛ وبدأنا جميعا نستحث الخطى ، وبدأنا نعبر التلال التى كان لها بريق مثل بريق الذهب أثناء انعكاس أشعة الغروب عليها . وعندما أرخى الظلام سدوله علينا

كنا قد وصلنا إلى المرتفعات الأشد بعدا والتى يطلق عليها اسم "ثنية غار "، بعد أن كنا قد انطلقنا نحوها من قرية صغيرة مخبأة بين مرتفعات الجبل . ومن ثنية غار رحنا ننظر إلى سهول الاحساء ، ولكننا لم نستطع تمييز أى معلم من معالمها بسبب أشعة القمر الخادعة ؛ وبدا لنا كما لو كنا نحملق فى محيط لبنى واسع . وبعد أن توقفنا مدة ساعة تناولنا خلالها العشاء ، واصلنا مسيرنا ، مرة إلى الأعلى ، وحينا إلى الأسفل ، ومره عبر الأرض المفتوحة وأخرى عبر الممرات ، إلى أن وصلنا إلى منخفض يشبه المسمار المحوى يؤدى إلى جبل شاطئ الخليج شديد الانحدار ، وبعد أن قطعنا ألف قدم أو ما يقرب من ذلك ، وصلنا إلى مستوى الاحساء المنخفض ، وأصبحنا وسط هواء الساحل الدافئ المحمل بالرطوبة .

كانت الأرض تتلألأ بيضاء بفعل ضوء القمر ، وبدأت تزداد صلابة من تحت أقدام جمالنا ، التى استشعرت خفة حركتها وراحت تشارك راكبيها فرحتهم ، ونفهم أيضا أن موعد الراحة قد اقترب . والواقع أننا جميعا كنا سعداء وتتطلع إلى الراحة المنزلية والأسرية ، ولما كانت مدينة الهفوف ، هدفنا المبتغى ، لا تزال على بعد حوالى خمسة عشر ميلا فى الاتجاه الشمالى الشرقى ، فقد وجدنا أنفسنا لا نلقى بالا لفترات الراحة التى يمكن أن نقضيها فى أكواخ الغوير Ghowger عند سفح الممر ، أو فى قرية الشعابة Sha'abah ، التى تبعد حوالى خمسة أميال ناحية اليمين ، وضغطنا على أنفسنا وواصلنا المسير فى اتجاه العاصمة . والواقع ، أننا ، كان من المقرر لنا ، أن نصل جميعا إلى العاصمة ، قبل طلوع الفجر ، لولا وقوع حادث فريد أدى إلى تأخير الجزء الأكبر من أفراد القافلة .

وبعد أن تجاوزنا الصخور والجروف التى ربما لن نراها بعد سنين أو إلى الأبد ، وبعد أن اختفت عن أنظارنا صحراء ووسط الجزيرة العربية ، وبينما كانت تطالعنا وتنتشر من حولنا أمواج الرمال الواضحة ، وانكسارات سهل الاحساء العظيم ، وبينما كنا نسير على ضفة منحدرة ، شاهدنا ، على بعد مسافة قصيرة أمامنا ، بقعا سوداء كبيرة ، يتناقض لونها مع لون التربة البيضاء التى تحيط بها ، كما استرعى انتباهنا ، فى الوقت نفسه ، أزيزا غريبا يشبه أزيز الزنابير الهاربة ، بالقرب من الأرض ، فى حين راحت الجمال تطفر وهاجت كما لو كانت قد أصابها جنون مفاجئ . وكان سبب كل ذلك ، سرب من الجراد ، كان قد حط فى هذه المنطقة فى رحلته صوب الشمال

قادما من مواطنه في صحراء الدهناء ؛ كان معكسر ذلك السرب من الجراد يمتد هنا وهناك إلى مسافة بعيدة ، وكان مجيئنا قد أقض عليه مضاجعه . ومن المعروف عن هذه الحشرات أنها تحط على سطح الأرض بعد غروب الشمس ، ونظرا لأن برودة الليل تؤثر عليها ، فإنها تظل على الأرض في انتظار أشعة شمس الصباح ، التي تبعث الدفئ في أوصالها وتدفعها إلى التحرك مرة أخرى . ولكن جمالنا قامت بدور الشمس في هذه المرة ، ولا أدرى من الذي كان أكثر خوفا من الآخر : الجمال أم الجراد . وقد ضحكت من أعماقي عندما وجدت حيوانا ضخما مثل الجمل يفقد صوابه خوفا من طيران حشرة لا تلدغ ولا حول لها ولا قوة ؛ "وسفينة الصحراء" هو الأجبن من بين كل المخلوقات الجبانة .

ولكن إذا كانت الإبل قد خافت ، فإن أصحابها لم يخافوا : بل أظن أنهم كادوا أن يجنوا من الفرح . والجراد هنا ، مادة من مواد الغذاء ، بل هو عنصر فاخر من عناصر الغذاء، والناس هنا يتوجهون إلى الله عله يرسل عليهم سربا طيبا من الجراد ، وذلك على العكس من استنكار هذه الحشرة في كل من الهند أو سوريا . ويمكن أن نرد اختلاف هذا الإحساس إلى عدة أسباب ؛ ويتمثل أهم هذه الأسباب في تباين هذه الحشرات نفسها . وجراد وسط الجزيرة العربية يختلف عن كل أنواع الجراد التي شاهدتها في الأماكن الأخرى . وجراد المنطقة الشمالية صغير ، ولونه أخضر شاحب ، ويشبه القبوط في بريطانيا ، إلى حد كبير . وعلى حد معرفتي ، فإن البدو وأهل القرى السوريين وكذلك سكان أراضي الرافدين وأهل العراق لا يأكلون هذا النوع من الجراد مطلقا ، وأنا بدوري لا أحسب أن ذلك النوع من الجراد يصلح للأكل تحت أي مسمى من المسميات أو تحت أي ظرف من الظروف ، اللهم باستثناء حالات الجوع الشديد . والجراد مثل النحل، له ملكة أيضا، ويتناسب حجمها مع جلالها ؛ ولكن ملكات الجراد ، مثل ملكات النحل، ليست هي التي تقود أسراب الجراد ، ولكنها تكون في حالة تقاعد . وجراد الجزيرة العربية ، على العكس من الجراد الآخر ، عبارة عن حشرات لونها بني يميل إلى الإحمرار، ويصل حجم الواحدة منه إلى ثلاثة أضعاف حجم جرادة الشمال، وهي تشبه حبة الجمبري الكبيرة من حيث الشكل . ويصل طول الواحدة من هذا الجراد إلى طول الإصبع الخنصر ، كما يصل سمكها أيضا إلى سمك الإصبع نفسه . وأنا لم أسمع عن ، ولم أر بين هذا الجراد أية ملكة من الملكات ، وهذا العيب يجعلني أصنفها ضمن جراد "الاربه" Arbah الذي ورد ذكره في الإنجيل ، كما ورد ذكره على

لسان (سيدنا) سليمان. إن كان ذلك صحيحا – في القسم الأخير من سورة الأمثال. والعرب لا يميزون بين الاسمين ، جندب وجراد عندما يطلقونهما على هذه الحشرة ، ولكني أعتقد أن كلمة " جندب " هي الشائعة . والعرب يطلقون على رجلي الجراد الخلفيتين اسم " الكراغين " .

ويقال إن هذا الجراد عندما يسلق أو يشوى يكون لذيذ الطعم ، وبناء على ذلك فقد سلقوه وشووه إلى أبعد حد ممكن . ومع ذلك ، لم تطاوعني نفسي على الاقتراب منه ، برغم كل الدعوات التي وجهت إليّ من سكان هذه الأرض ، وهم يمصمصون شفاههم وينظرون إلى تلك الأطباق المليئة بهذا الطعام الفاخر ، أملا في أن يجعلوني أشاركهم الطعام . وخاطر بركات وتذوق واحدة على سبيل التجربة ، وقال إنها شاحمة ومنفره ، وتثير الاشمئزاز ، ولم يتناول بعدها شيئا على الإطلاق : إنها تشبه الكفيار عند أولئك الذين لم يعتادوا أكل هذا النوع من الجراد .

كان سرب الجراد الذي أمامنا الآن ، بمثابة عطية من عند الله لهؤلاء العرب ، ويجب ألا يهملوها بأي حال من الأحوال . ونسي أفراد القافلة عطشهم ، وإرهاقهم ، وقفز الراكبون من فوق جمالهم ؛ هذا واحد يفرد مشلحه ، وهذا آخر يفتح خرج السرج ، وذاك يفرد قميصه من فوق هذه المخلوقات التعيسة على أمل الاستفادة بها في وجبة الصباح . ويطير بعض الجراد مندفعا بين أقدامنا ، في حين أمسك الرجال بالبعض الآخر ويحزمونه في قطع من القماش والجولات ؛ واندفع الغنام ومن معه يحصدون في الجراد . وبرغم كل ذلك ، لم يكن لدي أو لدى بركات أي ميل للاشتراك في هذه المطاردة ، ولم نكن نرغب في تحويل ثيابنا أو ملابسنا الداخلية إلى مستودعات لهذا الصيد الحي . ومن حسن الحظ أن أبا عيسى لا يزال يحتفظ بتربيته التي نشأ عليها في شمالي سوريا ، ولذلك كان رأيه من رأينا . من هنا ، فقد تركنا رفاقنا مشغولين بصيد الجراد ، ووجهنا إبلنا الخائفة ناحية الهفوف ، وواصلنا مسيرنا بأقصى سرعة ممكنة عبر السهل .

وبعد ثلاثة عشر أو أربعة عشر ميلا انضممنا جميعا إلى بعضنا ، ومررنا بقرية عين نجم الصغيرة ، التي كانت ظلال منازلها تنعكس ، بفعل ضوء القمر ، على الصخور البيضاء عند أسفل الغوير . وتوجد في هذه المنطقة عين كبريتية ، شهيرة بأنها تشفي الأمراض الجلدية ، وهذه حقيقة يسهل تفسيرها وفهمها ، كما تشتهر

أيضا بأنها تشفى من الشلل ، برغم أنى أتشكك فى مدى صحة هذه المقولة ؛ وربما تكون بعض حالات الشفاء قد حدثت من قبيل المصادفة ، مما جعل الناس يعزون إلى هذه العين الشفاء من الشلل . وطبقا للمعتقد الشعبى فإن عين نجم دواء عام لجميع الأمراض . وقد شيدت الأجيال السابقة قبة كبيرة من فوق هذه العين ، وانشأوا من حولها أحواضا للاستحمام . وتتدفع الحشود والجماهير إلى هذه العين ، بحثا عن الشفاء والصحة التى ينشدونها فى معظم الأحيان ؛ ولذلك فقد تحولت منطقة العين إلى منتجع وملتقى لكل من يعيشون فى المناطق القريبة ، كما بدأت تستثير شكوك حكومة الرياض . وبناء على ذلك ، صدر أمر ، قبل ثلاث سنوات من تاريخ زيارتنا ، بتدمير القبة ، والحمامات ، وسد فوهة العين بالأحجار ، تحسبا ، وأنا هنا أقتبس كلام مطاوعة فيصل الأتقياء "من أن يثق الناس بالمياه بدلا من الله (سبحانه وتعالى) ، وهذا النوع من عبادة الأصنام" . ونُفِّذ المرسوم الإمبراطورى ، ولا يزال حطام القبة أو إن شئت فقل الضريح ، هى والنبع الحار الذى لا تزال مياهه تتسرب من خلال أكوام الزبالة التى وضعت عليها ، لا يزال كل ذلك شاهدا على قدرة الخالق وعظمته وضيق أفق الوهابيين الغبى ، وحظ هذه الأرض التعيس ، التى يحكمها المتعصبون . وهذه حكاية قديمة ، لا تقتصر على الجزيرة العربية وحدها .

وعن بعد شاهدنا قرية صغيرة أخرى نسيت أن أدون اسمها . ومع أنوار الصباح الأولى شاهدنا أمامنا بيارات النخيل الضخمة التى كانت تحيط بمدينه الهفوف على شكل صفوف سوداء طويلة وواضحة المعالم . وبعد ذلك ، سرنا من بين حقول الأرز والقمح ، وتركنا عن يميننا قلعة مهجورة (سوف نصفها مع طلوع النهار) ، ثم مررنا ببعض الفيلات المتناثرة ذات الحدائق ، لنصل فى النهاية إلى أسوار المدينة المهدمة ، وندخل من البوابة الجنوبية ، التى كانت مفتوحة وبلا حراس . وبعد أن تجاوزنا بعض الشوارع وصلنا أمام منزل أبى عيسى ، ذلك المكان الذى اخترنا أن نحصل فيه على قسط من الراحة .

الفصل الثالث عشر

من الهفوف إلى القطيف

مكان له مثل هذا القوم

أولا لاحظ ، له مثل هذه المكيات التى نشاهدها ؛

لم تبق منها سوى ذكرى كلامية زاوية ؛

اسم فارغ كتابى هو المتبقى ؛

فلتشر

منزل أبي عيسى – الطابع العام لسكان الاحساء – كراهيتهم للوهابيين – نشأة حركة القرامطة وانتشارها فى الجزيرة العربية – طبيعة هذه الحركة ونتائجها – الأنواء التي توالت على الاحساء – المساكن التي أقمنا فيها في الهفوف – وصف المدينة – الكوت – القيسارية – الرفيعية – النعثار – التحصينات – الخطيم – المناطق المجاورة للهفوف – الينابيع الحارة – الزلازل – طبيعة المنطقة – الحياة النباتية – تدهور الزراعة ، والصناعة ، والتجارة – المناخ – الشعر النبطي – الأنباط – أصل الأنباط – ملاحظات عن الخطأ في استعمال الأسماء – الأدب في الاحساء – الملابس والثياب – الزينة – حفلات سمر المغور – حياتنا الخاصة في الهفوف – أمسيات في المجتمع – كراهية الإسلام والحكومة الوهابية – التآمر على الحكومة الوهابية – أبعاد هذه المؤامرة ومدى نجاحها – الجواسيس النجديون – سوق في الهفوف – زيارة الميرز – القلعة والمدينة– منزل من الداخل – بساتين ومزارع – تمر الخلاص – زيارة أم سبع – وصف النافورة – طلعه عربية – مياه الاحساء – النساء – العملة العربية – العملات في الاحساء – التخطيط لزيارة عُمَان – مغادرة الهفوف – حادث – الكلابية – طريق

شمالي الاحساء- خصائص الريف- جبل مُشهَّر - البدو- العازميه - تلال القطيف - السهل - قناة جَرَّ المياه - مدينه القطيف - القلعة - البحر - وصف الميناء - بحريه فيصل - فرحات ، حاكم القطيف - قصر القرموط - قهوة فرحات - المناطق المجاورة للقطيف - الآثار - عشاء شبه فارسي - حياة النجديين في القطيف - الرحيل إلى المُحرَّق .

كان الوقت ما يزال ليلا . كل شيء صامت في الشارع وفي المنزل الذي نقف عند مدخله في هذه اللحظة ، والواقع ، أن من بداخل المنزل لا ينتظرون من أحد أن يطرق بابهم ، في مثل هذا الوقت ، سوى رب البيت نفسه ، يضاف إلى ذلك ، أن أهل الدار لم يكونوا يتوقعون وصول أبي عيسى في هذه اللحظة بالذات . وحاول أبو عيسى ، بصعوبة بالغة ، إيقاظ أهل الدار ؛ وسمعنا بعد ذلك صوت ربة المنزل ينبعث من الداخل ونبراته تحمل إمارات الفرح والترحاب ، وينفتح الباب في النهاية ، ويدعونا أبو عيسى للدخول عبر ممر مظلم لاحظنا فيه مصباحا غازيًا مشتعلاً ، وبواسطة هذا المصباح دخلنا إلى القهوة . وفي القهوة شببنا نارا ، وبعد قليل من الانتعاش السريع ، راح الجميع يغطون في نوم عميق ، ولم يصحوا إلا قبل ظهر اليوم التالي .

كان مقامنا في الهفوف شيقا ومبهجا ، لا بسبب الأحداث الشخصية والنجاة الغريبة - مثلما حدث لنا في الرياض وفي الأماكن الأخرى - وإنما لأن ذلك المقام كان حافلا بالمعلومات التي اكتسبناها هنا ، من ناحية ، وفي الطابع الروائي لكل ما يحيط بنا سواء أكان طبيعة ، أم إنسانا أم فنا . وكان من رأى أبي عيسى أن نشاهد أكبر قدر من الأرياف ، ووفر لنا كل الوسائل اللازمة لتحقيق ذلك ، في حين بددت أقامتنا في منزله ، هي والاحتياطات التي اتخذها أو التي اقترحها علينا ، بددت كثيرا من الأخطار والمضايقات التي سبق أن مررنا بها في مراحل سابقة من هذه الرحلة . زد على ذلك ، أن ميول سكان الاحساء بصفة عامة ، تختلف عن ميول أولئك السكان الذين التقيناهم في نجد بل وفي شومر أو الجوف ، علاوة على أن سكان الاحساء مؤهلون لجعل الغريب يشعر كما لو كان في منزله . ونظرا لأن أهل الاحساء ، هم من سكان السواحل ، فإنهم يتطلعون بصفة أساسية ، إلى البلاد الاجنبية وإلى المحيط طلبا للرزق والتجارة ، ولذلك فقد اعتادوا أن يروا بينهم ، في كثير من الأحيان ، رجالا يلبسون ملابس مختلفة عن ملابسهم ، ويدينون بدين غير دينهم ، وسلوكيات غير سلوكياتهم ، فضلا عن أن الكثيرين من أهل الهفوف أنفسهم من المترحلين والجائلين الذين يسافرون إلى البصرة ، وبغداد والبحرين ، وعمان ، بل وإلى أماكن أخرى أبعد من هذه البلاد ،

ولذلك فهم متحرّرون من مشاعر الدهشة والعجب والشكوك التى يتصادف أن يستثيرها منظر الغرباء في نفوس سكان المنطقة الوسطى المنعزلة التى تحيطها الصحراء من كل جانب ؛ وقصارى القول : أن التجربة والخبرة ، التى هى سيدة الأسياد ، قد لعبت دورها في القضاء على دروس الجهل ، والتشدد ، والكراهية الوطنية . والواقع أن التواصل والاتصال الحر مع الأعراق الأخرى حقق فى جميع البلدان ، اللهم إن لم أكن مخطئا ، هذه النتيجة الممتازة ، التى مفادها أن هذا التواصل ، إذا كان يقلل ، بلا أدنى شك ، بل إنه يقوى المشاعر القومية والوطنية ، فهو يشجع ، فى ذات الوقت ، على نشوء أسلوب فكرى وطريقة عمل أكثر كرما واعتدالا مع الأفرع الأخرى فى العائلة الانسانية الكبيرة ، إضافة إلى أن مثل هذا التواصل ، يضفى على الناس المزيد من النزعة الاجتماعية ، دون أن يؤدى إلى إحداث تفكك بين أفراد الشعب الواحد أنفسهم . وأكبر دليل على ذلك ، هو تاريخ الأمم التجارية والمدن البحرية ، سواء أكان هذا التاريخ مسجلا فى المضابط أو مقروئا بواسطة المراقبين فى كتاب الحياة الكبير الذى تشكل الدول صفحاته .

فى الاحساء أيضا ، وبغض النظر عن الظروف الخارجية والظروف المحيطة التى سبقت الإشارة إليها، نجد طبيعتهم النفسية تميل إلى الخصوصية والقسوة إلى حد ما. والمذهب الوهابى موجود بالفعل ، ولكنه لا ينتشر إلا بين تلك القلة القليلة التى تكّون الطبقة المهيمنة المكروهة من الناس ؛ فى حين أن وجود المذهب الوهابى يساعد ، بحكم رد فعله الطبيعى ، على جعل السواد الأعظم من الناس يعادونه ، من منطلق أنهم لا يعرفون شرور هذا المذهب من الناحية النظرية فقط ، وإنما من واقع خبرتهم المريرة الطويلة معه . بل إن عقيدة محمد نفسها ، برغم إنها تلمع على السطح ، فإنها ليست فى أعماق الناس، إضافة إلى أن أعداد أولئك الذين يكرهون الإسلام فى شكله المعتاد، لا تقل عن أعداد من يكرهون الإسلام فى شكله الوهابى ، كما أن هؤلاء وهؤلاء لا يلبسون ذلك القناع السطحى . إذَنْ ، ما هى النغمة السائدة والاتجاه العقدى الذى تجرى ممارسته هنا ؟ الاجابة على هذا السؤال ليست سهلة ، علاوة أيضا على أن الاجابة نفسها قد يصعب فهمها ، دون أن يكون لدينا قدر معين من المعلومات والأبحاث السابقة ، وتشمل على قدر كبير من التفاصيل الدقيقة لأبعاد هذا العمل . وعلى كل حال ، سوف أبذل قصارى جهدى ، برغم أن ذلك سيكون بطريقة مختصرة ، لأكشف للقراء مجموعة من الخيوط التى سوف تشكل عبئا ليس بالقليل على الذهن .

منذ فترة الانقسام الكبير التي أسفرت ، خلال القرن الهجرى الأول ، عن تقسيم أمة محمد إلى قسمين مختلفين - هما على وجه التحديد السنة ، أو السلفية والشيعة أو إن شئت فقل حزب علي وأسرته ، أي الحزب الذي يضم كل أولئك الذين ينتمون إلى ذلك العرق ، وينخرطون ضمن عقيدته التصوفية العجيبة - نجد أن الاحساء ، ومعها جميع الأراضي المجاورة لها والتي تمتد شمالا بطول ضفاف الفرات ودجله ، قد ألحقت نفسها بالقسم الثاني أو إن شئت فقل الحزب الشيعي ، وشاركت ، إلى حد ما ، في التقلبات الفكرية والمراحل الفكرية التي مرت بها الأسرة الفاطمية هي وأتباعها ومريدوها . ولكن إذا كانت جيوش الأمويين ، هي وقسوة الحجاج ، مصّاص الدماء ، سيئ السمعة ، قد تمكنا من قمع الشيعة وكسر شوكتهم في كل من الكوفة والبصرة ، إلا أن الاحساء ، وهذا من حسن حظها ، استطاعت بفضل احتمائها بالصحراء التي كانت تفصلها عن أهل السنة ، أن تبقى على حالها ، كما احتفظ سكانها أيضا بأحكامهم وأساليبهم المميزة دون تحرش من أهل السنة المنتصرين . وبناء على ذلك ، فقد لجأ إلى الاحساء كل أتباع مسيلمة الذين تم نفيهم ، كما لجأت إليها أيضا كل قوات أبو النعامات[1] القطرى المدحورة ، كما لجأ إليها أيضا جنود شبيب أبو الذُّوقحاك ، كما لجأت إليها أيضا فلول معجزات وقلعة عطا الخرساني الذي اشتهر باسم المقنَّع ، أو إن شئت فقل النبي المقنَّع) - كما لجأ إلى الاحساء أيضا أناس كثيرون لهم أيضا عقائد ومصائر مماثلة ، ومعروف أن كل جماعة من هذه الجماعات التي توالى وصولها إلى الأحساء كانت تحمل المزيد من العداء للإسلام بصفة عامة ، وكراهية البدو أمرٌ العقيدة المحمدية والحكم المحمدى .

وقد شجع أيضا اختلاف الأصل القومي على انفصال الاحساء عن الجسم الكبير الذي كان عرب الحجاز فيه بمثابة المنظرين والعمود الفقري . والمعروف أن أول من استوطن هذه السواحل هم بنو خالد وبنو هجر ، وكلتاهما من القبائل القحطانية ، وبالتالي فهم لا يتعاطفون مع العرب الذين ينسبهم التاريخ أو الأساطير إلى إسماعيل[1] . وأضيفت إلى هاتين القبيلتين عائلة الفزاره **Fezárah** كثيرة العدد ، وهي من أصل

(١) إن نسبة العرب إلى قبيلة جرهم العربية والتي تزوج منها إسماعيل عليه السلام ، وكان منها النسل العربي أمر ثابت تاريخياً وليس من قبيل الأساطير ، وفي الحديث النبوي الشريف الذي يقول فيه الرسول عن نفسه "أنا ابن الذبيحين" ما يثبت ذلك - (د. حلمي عبد المنعم) .

نجدى ، ولكنها طردت من نجد بسبب الحروب الطويلة وعداء أهل نجد المرير لها ، علاوة على أن هذه العائلة لم يكن لديها أى ميل لمؤاخاة الحجازيين وخلفائهم أو القحطانيين أنفسهم . أخيرا فإن عشائر كلب (أعداء قريش اللدودين) وقبائل البيلى Belee ، وقبائل تنوخ ومختلف فروع قضاعة ، التى تمثل أنبل وأرقى أبناء قحطان ، كانت قد انتشرت فى كل أنحاء الساحل الشرقى فى المنطقة من قطر إلى البصرة ، بل أنها وصلت إلى أبعد من ذلك فى اتجاه الشمال . وكانت هذه القبائل ، دونا عن سائر القبائل العربية الأخرى ، آخر من دخل فى الإسلام ، وأول من ارتد عنه ، يضاف إلى ذلك ، أن مجاورة الاحساء لبلاد فارس ، جعلها تستشعر الجو المسمم والتصوف الغريب الذى كان يجرى فى هذه البلاد ؛ ويبدو أن ذلك كان هو الجو السائد فى الأزمان القديمة التى يلقى عليها وميض الشك الأسطورى كثيرا من الضوء الذى يخلصها من الشك والغموض . وقصارى القول ، أن الاحساء ، التى كانت من قبل مثل عمان معقلا من معاقل السبئية ، وأصبحت الآن راعيا من رعايا الإسلام ، ولا أقول : دخلت فيه ، لم تكن قبل ذلك سوى تربة خصبة للعقيدة والولاء المحمديين .

وقد حدث فى هذه المنطقة اختمار للأفكار ، كما حدث أيضا كثير من الحركات الجزئية ، التى لم يكن لها فاعلية كبيرة ، وذلك خلال القرنين الهجريين الأولين ؛ ولكنى سوف أتجاوز هذين القرنين لأصل إلى الثورة الأولى التى قادها أبو سعيد الجنابى الذى كان الناس يعرفونه باسم القرموط ، ذلك الاسم الذى يجمع العالم كله على غموضه ، وعدم معرفة أصله ، ومن ثم جاء المصطلح الأوروبى "Carmathian" ولم تنجح الحملة التى أرسلها خليفة بغداد ، المعتضد بالله ، فى العام ٢٨٧ الهجرى ، فى القضاء على هذه الثورة ، برغم أن تلك الحملة كانت تضم أشجع القادة والجنود ؛ وتقطعت أوصال جيوش المسلمين ، فى معركة جبل مغازى على أيدى القرامطة الغاضبين ، الذين دفعتهم كراهيتهم لعقيدة محمد ، إلى إحراق جميع الأسرى ، ولم يستبقوا منهم سوى ضابط واحد فقط ، طردوه ليعلن على بغداد المصير الذى آل إليه رفاقه. ويندفع أبو سعيد القرموط ، الذى لم يعد يخشى العسكرية العباسية أو يخافها ، قدما نحو الاحساء ومعه أتباعه ، ليمتد تخريبه وسلبه ونهبه ، إلى جزء كبير من بلاد الرافدين وإلى سوريا نفسها . والناس يعزون إلى هذا الأمير تشييد القلعة الكبيرة والقصر الكبير فى منطقة القطيف ، بعد أكثر من ثمانمائة عام على غرار معقل عرقه الذى ينتمى إليه . ولكن الحملات التى قام بها ولده أبو طاهر سليمان ، حجبت ظلالها الحملات التى قام بها والده .

ونشبت بعد ذلك تلك الحروب الهائلة والمدمرة التى اختتمت انهيار العقيدة المحمدية وسقوطها فى حوالى ثلثى الجزيرة العربية ، بل وهددت وجود هذه العقيدة فى بقية العالم الشرقى . ويستل أبو طاهر القرموط سيف سلفه جاعونات القطرى (أول رئيس للخوارج فى العام الستين من الهجرة)، ويتسلح بأشعار هذا الجاعونات - تلك الأشعار التى قال عنها ابن خلّيكان "إنها تبث الشجاعة في أعظم جبان خلقه الله (سبحانه وتعالى)" - ويحتجز أبو طاهر القرموط الخليفة ، الذى كان يرتعد خوفا ، أسيرا فى بغداد ، ثم يتوجه لتهديد قلعة حلب ، ويملأ أروقة الكعبة وبئر زمزم بجثث أتباع محمد . وقد حاولت فى فصل سابق أن أعبر بالانجليزية عن بعض أصداء أغانى الحب العربية . وأنا لا أعتقد أن القارئ سيعترض على بعض الأبيات القليلة التى اقتطعتها من صرخة الحرب التى كان يطلقها كل من جاعونات وأبو طاهر سليمان ؛ وهذا يزيد أيضا فى أهمية الشعر التاريخية :

قلت لنفسى عندما ضربها الخوف لحظة (١)
فى وجود السرايا المعادية ، عار عليك ، لماذا تخافين ؟
أليس عليك أن تبذلى قصارى جهدك لتطيلى حياتك يوما واحدا
إلى ما بعد الزمن المخصص لك ، ضاع كل ذلك هباءً ؛
تشجعى ، عندئذ ، وسط دوامات الموت ، تشجعى ،
خلود الحياة رغبة لا تتحقق .
طول الأيام ليس عباءة شرف لمن يرتديها ،
ولتكن هذه العباءة رداء يلف خافت القلب ، الجبان ؛
الموت هو هدف الحياة ، وجميع مساراتنا توصلنا إليه ؛
الموت ملك ، ومناديه ينادى الواحد والجميع ؛
ومن لم يمت فى الدم يحمل الخطأ والضعف ،
إلى أن يبتره الموت من الحياة ومن الوجود .
الحياة ليست بركة للإنسان ، ولا تستحق الاقتناء ،
عندما تضعه الشيخوخة ضمن الأشياء التى لم يعد لها نفع أو فائدة .

ومع ذلك ، فإن الحروب ، والنجاحات والانتكاسات التى أصابت ذلك المذهب القوى الذى سمى باسم القرموط ، تدخل فى نطاق التاريخ العام . ويمكن الوقوف عليها ودراستها دراسة مستفيضة من مضابط الحوليات التاريخية فى الشرق . لقد بذل العقل البشرى جهدا كبيرا كى يحطم الشكلية الدينية والقدرية الدينية ، ويعيد من جديد تأكيده على حريته الوطنية وحركته غير المقيدة ؛ وقد تجاوز ، هذا الجهد العقلى البشرى ، مثل سائر الجهود الأخرى ، الهدف المحدد له . ولكن بعد صراع دام أكثر من مائة عام ، وبعد أن أصبحت يد الإسلام هى العليا ، وبعد أن تم غسل الحجر الأسود فى ماء الورد وإعادته إلى الكعبة ، وبعد أن انتصرت عقيدة التوحيد على عدوها العقلانى الشرس ، بعد كل ذلك كان من الطبيعى أن ينجم عن ذلك الصراع ، الإطاحة بكثير من الأشياء ، التى لم يمكن استعادتها فيما بعد ، إضافة إلى ذلك الدمار الكثير الذى لا يمكن إصلاحه عن طريق السلطة أو التشريع . وعلى رأس كل ذلك ، ظلت بؤرة الثورة أو إن شئت فقل مركزها ، مثلما يحدث غالبا فى مثل هذه الظروف ، ضائعة طوال حركه الإنقاذ الثانية . ويمكن لنا هنا أن نستشهد بكل من جبال فاليز ، وغابات بوهيميا ، وشمالى سكسونيا ، وكذلك المناطق المجاورة لباريس باعتبارها أمثلة لأوطان حديثة ليس لها تاريخ طويل ، مثل الأماكن التى نتحدث عنها هنا . وفى الجزيرة العربية اعترفت كل من الاحساء والقطيف بقانون مجريات الأحداث . وبقيت منطقة الاحساء والقطيف غريبة على الإسلام ، مجرد كومة من الحطام الدينى والأخلاقى ، مجرد كومة من المعتقدات القرموطية والمعتقدات السرية ، تم فيها خلط النزوع الطبيعى أو إن شئت فقل العمل الطبيعى ، إن جاز لى أن أستعمل مصطلحا حديثا لأعبر به عن شيء قديم ، بالنزوع المادى أو العمل المادى ، وتشويش كل ذلك بخلطه أيضا مع التقمصات والمجسدات الدينية الشيعية ، كما جرى تشويش ذلك أيضا بخلطه بآثار السبئية القديمة التى أخذت تنتعش من جديد ، واختلط كل ذلك أيضا بالفتشية[1] التى بدأت تنتشر بين الطبقات الدنيا غير المتعلمة فى كل أنحاء الدنيا ، برغم أن ذلك قد يتباين من حيث الشكل والتسمية ، من مكان إلى آخر . ولم يحدث قط أن وضعت المسيحية أقدامها على أرض الأحساء ، ولكنها غزت جزر البحرين المجاورة وسيطرت عليها فى يوم من الأيام ؛ ومع ذلك فنحن لا نستطيع أن نتبين سوى بعض الآثار المسيحية الطفيفة ، فى تاريخ هذا الساحل ، أو بين السكان الأصليين الذين يعيشون عليه .

(١) الفتشية : الإيمان بالافتاش والبرود ، والفتش : شئ كانت الشعوب البدائية تعتقد أن لها قدرة سحرية على حماية صاحبه أو مساعدته – (المترجم) .

وفي الوقت ذاته انتعشت الصناعة ، والتجارة ، والزراعة ، والفن ، واستفادت من موقع الاحساء الجغرافي ومواردها المحلية ، واستحوذت هذه الأنشطة على عقول السكان ، الذين كانوا راضين عن انفصالهم عن كل من مكة وبغداد ، وراحوا يتمتعون بمزايا الاستقلال الديني والسياسي . والآثار التذكارية ، التي يرجع بعضها إلى تاريخ سابق والبعض الآخر إلى تاريخ لاحق ، تغطي منطقة الاحساء ، وتشهد على الازدهار المادي الذي شهدته منطقة الاحساء ، في الأزمان الخالية . والوهابية عندما ظهرت أول مرة في نجد ، كان ألد أعدائها وأبعدهم نظرا ، هم حكام الساحل الشرقي ، كما سبق أن أوضحنا. ولكن نظرا لعدم قدرة هؤلاء الحكام على التعامل مع القوات الأكثر عددا ، وافتقارهم إلى المهارة العسكرية ، انهزموا في النهاية ، ولجأ الرؤساء المحليون الذين نجوا من سيف بن سعود ، إلى إيران ، ومنهم من لجأ أيضا إلى الصحراء المجاورة للكويت ، ولاذ جزء كبير منهم بمنطقة الحريق ، وتركوا بلادهم وراءهم بلا حول أو قوة نهيبة لأهل الداخل متسلقي الجبال الأشداء . وهنا أصبح الإسلام أمرا مفروضا في كل أنحاء الأحساء والقطيف ، وشيدت المساجد في كل مكان ، وأقيمت الصلاة بواسطة أولئك الذين ولوا وجوههم شطر مكة ، وارتفعت أصواتهم بتلاوة آيات القرآن ، في حين كانت قلوبهم مليئة باللعنات للنبي ، وكتابه ، ودينه[1] ؛ – وكانت الهمسات تنكر ما تؤكده الكلمات .

وما إن بدد إبراهيم باشا ذلك الشيء النجدي الضخم ، حتى أعادت الاحساء التأكيد من جديد ، على استقلالها المدني والديني . وبعد أن اطمأن سكان الأحساء ، إلى ضمان حريتهم المدنية والدينية ، من خلال الحماية المصرية ، أصبحوا على استعداد للتحالف مع إسماعيل باشا ، أثناء قيامه بزيارة الساحل الشرقي . ولكن حكام الأحساء الجدد ، غرهم النجاح ، ونسوا في الجزيرة العربية ، دروس الاعتدال ، التي وعتها القاهرة ، وأسسوا في الأحساء نظاما يشبه إلى حد كبير نظام المماليك وليس نظام محمد علي . وراحوا يعاملون السكان كما لو كانوا عبيدا مهزومين ، وليسوا رعايا طائعين ، وفرضوا عليهم رسوما عرفية ، وجردوا المنازل من ثرواتها ،

(١) هذه جرأة من المؤلف في التعبير بتلك العبارات الجارحة وقد خرج من أسلوب المؤرخ إلى أسلوب الحاقد الحانق على الإسلام ونبيه ، وفوق ذلك فإن هذا الوصف ليس دقيقا فإن المسلم حينما يدخل قلبه الايمان يمتلأ بحب الله ورسوله وكتابه وكيف بمن يقرأ القرآن ويتوجه إلى الكعبة في صلاته يكون كما وصف المؤلف ؟ إن وصفه بتلك العبارات فيه مبالغة حاقدة – (د. حلمي عبد المنعم) .

وسجنوا أعيان البلاد بسبب أعذار واهية ؛ ولم يقفوا عند هذا الحد ، إذ كانوا يتباهون بفرض القيام بالأعمال الوضيعة التي تحط من القدر ، على وجهاء القطيف ، كما أنهم كانوا يسبون النساء ويلعنوهن في شوارع المدينة . ولم يدم ذلك النظام طويلا . فقد أدى التمرد الدموي الذي حدث هناك ، إلى طرد المصريين إلى الأبد من تلك المنطقة التي كانوا قد بدءوا ينشرون طغيانهم فيها ، واستردت الاحساء استقلالها السابق ، ولكن لفترة قصيرة .

وبعد ذلك بسنوات قلائل بدأت الأسرة المالكة الوهابية التي أعاد تأسيسها (الأمير) تركي ، وبعد أن أعاد إليها استبداد فيصل الحذر شيئا من طاقتها الأولى ، بدأت تتطلع من جديد ، بل واستطاعت في النهاية إخضاع الأحساء ، ولكن بعد حرب طويلة دامية ، أتذكر بحق ، أن فيصل شخصيا ، ناصر فيها ولده عبد الله في العمليات العسكرية التي قام بها . وهُدّمت أسوار القطيف هي والمدن الأخرى ، في بعض أجزائها ، وفككت القلاع ، ودمرت قرى بأكملها . وفي مقابل ذلك ، أعيد بناء المساجد ، وشيدت مساجد جديدة ، ونُشِرَ طلاءَ الدين الأبيض من فوق العرى الديني في هذه البلاد . وبقيت الأمور على ما هي عليه منذ ذلك الحين . وفي الوقت ذاته ، كانت نيران رد الفعل القرموطي تستعر سرا من تحت الرماد ، وكانت تنتظر فرصة سانحة تندلع من خلالها لهبا حارقا يكفي ، وربما للمرة الأخيرة ، للقضاء على البنية الفوقية لكل من الوهابية والإسلام . وبحكم أن اتساع الجزيرة العربية كلها كان يفصل الأحساء عن مصر ، وبحكم عدم تعاطفها مع الحكم التركي في بغداد ، وبحكم يأسها من الحصول على العون والمساعدة من الفوضى الفارسية العاجزة ، كان لابد على رؤساء الأحساء أن ينتظروا الوقت الملائم ، وأن يكونوا على استعداد للترحيب بمن يخلصهم ، والذي لم يكونوا يعرفون ، على وجه اليقين ، من أين سيأتي ، وأن يدرسوا ويتأملوا خطط الثورة والتحرر ، التي تجعل قوةُ نجدٍ الغالبة تنفيذها أمرا مستحيلا في ظل انعدام العون والمساعدة . وأنا أرى أن ما قدمته هنا يكفي أن يكون إطارا عاما المنطقة فيما يتعلق بخصائصها وسماتها الهائلة ؛ ولكن التفاصيل التي حصلنا عليها أثناء مقامنا ، في هذه المنطقة ، سوف تجعل الصورة أكثر اتضاحا واكتمالا .

بعد أن استيقظنا على إفطار فاخر- ذلك الترف الذي لم نره منذ أن كنا في غزه- مكون من دجاج مشوي ، وأرز ، وحلوى ، قامت بإعداده ربة المنزل الحبشية الماهرة في

طهى الطعام ، زوجة أبى عيسى تلك السيدة حلوة الطبع الطائشة مثل سائر نساء الريف ، رحنا ننظر حولنا ، ووجدنا أنفسنا فى منزل مريح ، يناسب تماما طبيعة الحياة الهادئة التى اعتزمنا أن نحياها هنا بضعه أسابيع . كانت قهوة أبى عيسى صغيرة ، ومغطاة بالهباب، ولا تتسع لأكثر من عشرين فردا ؛ وإلى جانب هذه القهوة ، كان هناك ملحق كبير ، خصصه أبو عيسى لنا ، كى نقيم فيه بطريقتنا الخاصة ، وكان مدخل هذا الملحق يفتح على حوش المنزل ؛ وكانت تتصل بهذا الملحق غرفتان واسعتان ، وضع أبو عيسى واحدة منهما تحت تصرفنا ، فى حين كانت الغرفة الأخرى مخصصة للطفل ، وكانت أيضا بمثابة المسكن الذى تعيش فيه هذه السيدة السمراء مع طفلها المولَّد وولى العهد . وكان فى المنزل أيضا مطبخ وغرفتان منفصلتان لم يكن مسموحا للجنس الخشن بالاقتراب منهما ؛ وبذلك يكون الدور الأرضى قد اكتمل ؛ وكان الطابق العلوى يحتوى على ثلاثة غرف مؤثثة ، إضافة إلى سطح واسع ، كان يطيب لنا أن نجلس عليه فى الصباح والمساء . وكنا فى وقت فراغنا نتأمل " تلك الجمال الصَّبُورة وهى تجتر طعامها " . مثلما وصفها سوزى Southey فى إحدى قصائده الشهيرة التى استطاع خياله الحى فيها أن يستعيد شوقه إلى تجربته الشخصية مع كثير من المشاهد الشرقية . أخيرا ، كان الهدوء التام يخيم على المناطق المجاورة كمنزل أبى عيسى ، ولم يكن محطا للشكوك مثل الأماكن الأخرى .

ومدينة الهفوف ، التى كانت تحتوى خلال الجيل الأخير على ما يقرب من ثلاثين ألف نسمة ، انخفضت الآن إلى ما يتردد بين ثلاث أو أربع وعشرين ألف نسمة ، تنقسم إلى ثلاثة أحياء أو إن شئت فقل مناطق - هى حى كوت Kot، أو إن شئت فقل القلعة (وأظن أن القراء الهنود من منطقتى بومباى أو مدراس سوف يتعرفون هذه الكلمة ، التى استوردها الناس فى هذه البلاد من شواطئ كشنا Kishna والتبتى Taptee) ، التى يسكنها الحاكم الوهابى ومعه حاشيته وأتباعه ؛ وحى الرفيعية ، الذى يسكنه قسم كبير من أسر الأعيان العريقة ؛ وثالثا ، حى النعاثار[1] Naáthar ، وهو أكبر هذه الأحياء الثلاثة ، ويضم تشكيلة مختلطة من الحضر ، ومن الأثرياء ، والفقراء ، والتجار والحرفيين . كان المنزل الذى نقيم فيه يقع فى هذا الحى ؛ زد على ذلك ، أن المنزل كان يقع فى الجزء البعيد عن الكوت وعن آثاره السيئة ، فى حين أنه كان يبعد أيضا مسافة لا بأس بها عن منطقة المتاعب القريبة من حى الرفيعية ، والتى تمثل مركز الحركات المعادية للوهابية ، والتى يثير مجرد ذكر اسمها الشك والقلق فى أذهان النجديين .

والشكل العام للمدينة بيضاوى كبير . والساحة الرئيسة ، التى هى عبارة عن مستطيل طوله حوالى ثلاثمائة ياردة وعرضه حوالى ربع هذا الطول ، هى بمثابة النقطة التى تلتقى عندها الأحياء الثلاثة التى سبقت الإشارة إليها ؛ والكوت ، أو القلعة ، تقع في شمال شرقي هذه الساحة ، والرفيعية في الجنوب الغربى والغرب ، فى حين يقع حى النعثار ناحية الشرق والجنوب .

والكوت ، عبارة عن قلعة ضخمة ، يحيط بها خندق عميق ، وأسوار وأبراج ارتفاعها غير عادى وسمكها غير عادى أيضا ، وهى مبنية من اللبن الذى تتخلله الأحجار من حين لآخر ، وهى من عمل الحكام القرامطة ؛ والكوت ، القلعة ، مربعة الشكل تقريبا ، ويصل طولها إلى حوالى ثلث ميل تقريبا وعرضها يصل إلى حوالى ربع الميل . وثلاثة من أجناب هذه القلعة مزود كل منها ببوابة رئيسة ؛ وفي الجانب الرابع ، أو إن شئت فقل: في الجانب الشمالى توجد قلعة صغيرة أخرى متينة تستعمل حصنا ؛ وهذا الحصن مربع الشكل ، ويصل ارتفاع أبراجه إلى أكثر من أربعين قدما ، أو حوالى ستين قدما إذا ما قسنا المسافة من قاع الخندق الذى يحيط بالكوت . ويسكن هذه القلعة الحاكم النجدى ؛ وقد كان محمد السديرى حاكما ، قبل الحاكم الحالى ، الذى هو واحد من عبيد فيصل اسمه بلال ؛ وهو عبد جيد ولكنه حاكم سيئ ، إن صح الاستياء الذى يعم المدينة . وفي حى الكوت يقع أيضا المسجد الدينى النموذجى ، الذى تجرى الصلاة فيه على الطريقة الوهابية الصحيحة ؛ كما يسكن فى هذا الحى أيضا المطاوعة ورجال الدين الموفدون إلى هذه المدينة ، من الرياض ، كما يقيم فى هذا الحى أيضا بعض النجديين من أهل العارض ، ومن الوشم ، ومن اليمامة . ويسكن داخل القلعة بشر يتراوح عددهم بين ألفين وثلاثة آلاف نسمة ؛ والمكان كله ، بما فى ذلك الخط الداخلى للأسوار ، يزدحم بالسكان ؛ وحى الكوت مقسم عن طريق شوارع طولية تمتد من بوابة إلى أخرى ، ومن جانب إلى آخر .

ويتردد عدد الأبراج على كل جانب من جوانب القلعة ، بين خمسة عشر وستة عشر برجا ، وهى فى معظمها مستديرة الشكل ، ومزودة بدرج لولبى ، ومزاغل ، ومتاريس مُكوَّاه توجد أسفل الشرُف المفرَّجة التى تستخدم فى إطلاق النار ؛ والجدران التى تتوسط المسافة بين الأبراج توجد بها تحصينات دفاعية من هذا القبيل أيضا . والخندق الخارجى يظل فارغا معظم الوقت ، ولكن يمكن ملؤه بالماء ، إذا دعت

الضـرورة لذلك ، من آبار المياه الموجـودة فـي البـسـتـان الموجـود فـي الخلف ؛ وبوابات القلعة متينة وعليها حراسة جيدة .

وعلى الجانب المقابل من الساحة ، وبالتالي يتبـع حي الرفيعية ، يوجـد السوق أو إن شئت فقل " القيسارية " ، وهذا الاسم هو الذي يطلق على الأماكن التي من هذا القبيل اعتبارا من هذه المنطقـة إلى أن نصـل إلى مدينـة مسقط نفسهـا ، برغم أني لا أعرف الطريقة التي شقت بها هذه الكلمة اللاتينية طريقها عبر شبه الجزيرة العربية لتصل في النهاية إلى مناطق لم تكن لها سوى علاقة تجارية طفيفة مع الإمبراطورية الرومانية أو البيزنطية . وهذه القيسارية من حيث الشكل عبارة عن مبنى مقنطر يشبه البرميل ، له بوابة في كل من واجهتيه ؛ والأبواب المنطوية التي من المفروض أن تحمي هذه المداخل ، منزوعة في الهفوف ، وذلك على العكس من الأماكن الأخرى . وجوانب هذه القيسارية مكونه من دكاكين ، مقسمة ومخصصة للبضائع غالية القيمة ، أو لكل ما ينظر إليه على أنه غالي القيمة ؛ والسلع المتداولة هنا في القيسارية هي من قبيل : الأسلحـة ، والاقـمشة ، والمطرزات ، والذهب والحلي الفـضـيـة والذهبيـة . ومن حـول القيسارية توجد عدة شوارع وحارات ، مسقوفة بجريد النخيل منعا للحرارة ، وهي موازية لبعضـها ؛ وفي دكاكين هذه الشوارع والحارات نشاهد البضائع البحرينية ، والعمانية والايرانية، وكذلك البضائع الهندية ، وكلها معروضة للبيع بالمنتجات المصنوعة محليا ؛ كما نشاهد في هذه الدكاكين أيضا الورش ، وورش المعادن ، وورش النجارين وصناع الأحذية ، وما إلى ذلك . وفي السـاحة العـامة نفسها توجد أكشـاك صغيرة لا تحصى ولا تعد ، تبيع التمور ، والخضراوات ، والخشب ، والجراد المملح ، وكثيرا من السلع الصغيرة متعددة الأنواع . وعلى كل حال ، فإن التبغ (الدخان) الذي كان في وقت من الأوقات واحدة من السلع الشائعة التي تباع وتشترى ، أصبح محرما من قبل رجال الدين الوهابيين ، وأصبح يؤذي العين ؛ ومحـلات الدخان وتجارته تجـري في الخفاء ؛ وطبقا للمثل الذي يقول : " الماء المسروق حلو " أو إن شئت فقل :" الممنوع مرغوب" ، فإن الدخان يوجد بكميات كبيرة وسوقه تعج بالنشاط والحيوية . والمزادات العامة تقام بصفة دائمة في هذه الساحة العامة ؛ وفي هذه الساحة العامة أيضا نجد الحلاقين وهم يمارسون مهنتهم ، كما يكثر الحدادون وصناع الأحذية . في هذه المنطقة أيضا ، وذلك بالرغم من وجود الحدادين وصناع الاحذيه في أجزاء أخرى من المدينة . ومع ذلك ، وبرغم الآثار القاتلة للاستبداد والطغيان والتعصب ، فإن الكثير من النشاط والحيوية يدب بين هؤلاء السكان المهرة والمجدين .

وتغطي الرفيعية ، أو حي الأعيان ، مساحة كبيرة ، من المساكن المقبولة ، والتي يتسم بعضها بالأناقة في بعض الأماكن . ويرجع جمال العمارة المنزلية في الهفوف إلى استعمال العقود ، التي اختفت على امتداد المسافة من مُعَان إلى الأحساء ، ثم يبدأ في معاودة الظهور مرة ثانية ، لتضفي على الانشاءات في هذه المنطقة خفة وتنوعا لم تعرفهما المنشآت الثقيلة والرتيبة والتي تشبه الأكوام في كل من نجد وشومر . وثمة فارق آخر يتمثل في أن الجدارن في الهفوف سواء أكانت مصنوعة من اللبن أم من الحجر أم من خليط منهما ، وهذا هو الأغلب الأعم ، تغطي بقشرة من المصيص الأبيض ، الأمر الذي يجعلها تشبه " الشونام " في جنوبي الهند ؛ كما يجري في الهفوف أيضا تزيين مداخل المنازل ، والنوافذ التي لها رؤوس تشبه حرف الـ S ، وقد يتم الاستغناء عن هذه الزينة في بعض الأحيان . وشوارع حي الرفيعية ، في هذه المدينة الحارة ، واسعة ونظيفة جدا ؛ وشوارع دمشق أو بريده لا تصل إلى ربع هذا الاتساع أو النظافة . وحي الرفيعية صحي تماما ؛ وهو يقع على ربوة مرتفعة نسبيا ، وبذلك يكون اسما على مسمى ، ويهب عليه نسيم الخليج ، الذي ينشط هنا بشكل ملحوظ في بعض الأحيان .

وحي النعثار ، هو أكبر الأحياء ؛ وهو يشكل نصف المدينة تقريبا ، ويكمل شكلها البيضوي . وفي هذا الحي توجد أنواع كثيرة من المساكن - منها بيوت للأثرياء ومنازل للفقراء ، وأخرى لعلية القوم وبعض آخر لعامة الناس ، وفيها القصور وفيها أيضا الأكواخ . وفي هذا الحي ، ولكن بالقرب من الكوت ، أمرت السياسة الدينية بتشييد المسجد الكبير ، الذي تضفي عليه العقود المعمارية المغربية ، والأروقة الخفيضة المعمَّدة ، والمصيص الناعم ، والحصير المفرود على أرضية المسجد ، مظهرا أكثر وقارا من كاتدرائية الرياض ، إن صح التعبير . ومع كل ذلك ، فإن عدد أتباع المذهب الوهابي ، في حي النعثار ، ليس كبيرا . ويسكن في هذا الحي كثير من التجار والحرفيين ورجال المال والأعمال ؛ كما يسكن في هذا الحي أيضا الغرباء الذين جاءوا من بلاد فارس ، أو من عمان ، أو من البحرين ، بل ومن الحريق وقطر أيضا ؛ كما يعيش في حي النعثار أيضا النساجون وأصحاب الحرف اليدوية ويزاولون فيه أعمالهم. ومن المهم للقارئ أن يعرف أن الرحالة الدرويش سيئ الحظ ، الذي سبق أن وصفت مشهد وفاته في الدرعية ، أمضى بضعة أسابيع في منزل من منازل حي النعثار ، وقد أشار لنا أبو عيسى إلى المكان الذي عاش فيه ذلك الرحالة تعيس الحظ .

وقد كشف ذلك الرحالة التعيس نفسه عندما اختار لنفسه أن يقيم في أحد المنازل ، والمعروف أن الدرويش الحقيقي ليس له مكان يقيم فيه سوى المسجد :

غريب ، ولا أبحث عن مُضِيف ؛

غريب ، ولا أمضى ليلى داخل جدران المنازل .

غريب ، وليس لى عيال أو أطفال ،

وليس لى من يقودنى إلى مأوى الإنسان ،

المسجد الضيق ، هو ملجئى ومكان ارتياحى ،

ذلك هو مبتغى قلبى ، هو قدرى ومصيرى إلى الأبد .

هذا هو ما يتغنى به الشحاذ فى الإسلام .

وفى حى النعثار ، دونا عن الحيين الآخرين ، قد نجد بستانا صغيرا هنا أو هناك بين منازل الحى ، وقد تصادف من حين لآخر شجرة تضفى حياة على جانب الطريق بفضل مجموعها الخضرى واسع الانتشار . وأكثر الأشجار شيوعا هنا هى أشجار التين وأشجار الفواكه .

كانت تحصينات مدينة الهفوف ، قوية وعالية فى يوم من الأيام ، ولكنها الآن لا تعدو أن تكون مجرد أكوام من الحطام ، والأبراج المهدمة ، والدرج الحلزونى الذى لا يُوَصِّل إلى شئ . ويحيط بهذه التحصينات خندق ، مملوء بالماء من ناحية حى النعثار ، ولكنه جاف من ناحية حى الرفيعية ، والسبب فى ذلك أن القنوات التى تصل بينه وبين آبار المياه فى الخلف كانت قد قطعت أو ردمت ، وربما كان ذلك عن قصد ، وربما كان أيضا بسبب الإهمال . وخارج أسوار المدينة توجد البساتين والمزارع ، التى تمتد ناحية الشمال وناحية الشرق على امتداد البصر ؛ وتكون هذه البساتين حلقة ضيقة من ناحيتى الجنوب والغرب . وعلى مقربة من البوابة الجنوبية توجد تلك القلعة المنعزلة التى كنا قد مررنا بها ليلة وصولنا إلى مدينه الهفوف ؛ وهذه القلعة عبارة عن مبنى جيد الإنشاء ، وقد اختير موقعها بعناية كى تشرف على جميع مداخل المدينة من ناحيتى الجنوب والغرب ؛ ويطلق على هذه القلعة اسم " خطيم " الذى يوضح طبيعتها والهدف منها . وهذه القلعة حديثه العهد ؛ فقد شيدها رئيس الهفوف فى القرن الماضى كيما

تكون كابحا لجماح الهجوم الوهابي الطائش المتهور ، عندما تتدفق جحافل نجد عبر ممرات الغوير الضيقة ، وتقترب من عاصمة المنطقة من هذا الاتجاه نفسه . ولكن وا .. أسفاه ! فقد انكسر الخطيم ولم يفد اللجام . وهاهي القلعة ، وقد تفككت ، وأصبحت مجرد صفحة من صفحات السياسة القديمة، شأنها شأن قلعة كونوى **Conway Castle** ، أو إن شئت فقل الدراشنفلز **Drachenfels** .

وهناك قلعة أخرى أصغر من تلك القلعة ، أو بالأحرى برج من أبراج المراقبة ، في هذه المنطقة أيضا . وهذا البرج مبنى أيضا من اللبن ، مثل قلعة الخطيم ، وقد زادت صلابته بمرور الزمن إلى أن أصبح يشبه الحجر . فقد تحملت تلك الجدران ، على امتداد ما يتردد بين سبعين وثمانين عاما ، أمطار الشتاء ، وعواصف الربيع ، دون أن تفقد بوصة واحدة من ارتفاعاتها أو يحدث ثقب واحد في جوانبها .

من هذا المكان ، وفي اتجاه الجنوب المنظر عبارة عن أرض جرداء صحراوية ، تنحصر بين منطقتي الاحساء وقطر ، وبذلك تصبح هذه المنطقة حداً طبيعيا لا يتفق مع الحدود الصناعية التي تفصل بين منطقتي نجد وعُمان المتعاديتين . ولو قدر أن يكون هناك خط للحدود ، فإن ذلك الخط لا بد أن يصل إلى حوالي عشرين ميلا جنوبي الهفوف . ومن ناحية الجنوب الشرقي نجد أن الكثبان الرملية تحجب الرؤية عن كل من خليج البحرين وميناء العجير ، الذي لا يبعد كثيرا عن خليج البحرين ؛ وفي الناحية الجنوبية الغربية توجد مرتفعات الغوير ، ومن خلفها عين نجم وقرية أخرى . وقرية شقية نفسها بعيدة عن مرمى البصر ، ولكننا نستطيع أن نميز فوقها آخر نتوءات المنحدر الجبلي في سلسله الجبال الساحلية ، التي تنخفض في هذه المنطقة لتكون بحرا متموجا من الرمال ثم تميل بعد ذلك ناحية الشرق لتتصل بعد ذلك ، بكثبان قطر الرملية ، ثم تستمر بعد ذلك إلى أن تصل إلى عمان دون أن يعترضها أي شيء .

وإذا ما اتجهنا غربا ، نجد أمامنا العديد من المجاري المائية ، التي لا تشبه آبار نجد ، وإنما هي مجاري مائية حية تنساب بين بيارات النخيل العميقة ، كما نجد أيضا حياة نباتية من النوع شبه الهندي الذي يقتصر على هذا الجزء من الجزيرة العربية . وهناك كثير من القرى الصغيرة التي تنتشر في هذا السهل ، إلى أن تتصل ، بعد مسافة تتراوح بين خمسة وستة أميال في اتجاه الجنوب الغربي ، بكهوف صخور جبل المغازي ، أو إن شئت فقل " جبل الحملات العسكرية " ، الذي اندحرت فيه جيوش العباس ، القائد العام في عهد الخليفة المعتضد بالله ، أيام أبو سعيد الجنابي ،

أول ملوك القرامطة ، الذى سبقت الإشارة إليه منذ قليل . ومع ذلك ، فإن سلسلة الجبال هذه تمتد إلى ما لا يقل عن مائة ميل ناحية الشمال ، وتنتهى هذه السلسة فيما وراء مدينة الواب Wâb بمياهها الوفيرة . وتوجد شمال وشرق الهفوف كتلة خضراء من النباتات الزينية المتمايلة ، وذلك باستثناء المناطق التى يشكل فيها فيضان هذه المياه ، بين الحين والآخر ، تلك الظاهرة التى لا تخطر على بال رجل إنجليزى مقيم بالشرق - مستنقعا حقيقيا ، ينمو فيه القصب ، والسَّمار[١] والطيور المائية السابحة طويلة الأرجل . بارك الله فيها جميعا ! وأنا لا أستطيع التعبير عن سعادتى عندما رأيت هذه المخلوقات بعد فراق طويل ؛ ومن حول حواف هذه المستنقعات والبحيرات تقف أشجار النخيل شامخة ، محملة بأفضل رطب الجزيرة العربية ، أو بالأحرى أفضل رطب الدنيا كلها . وهذه تلة رملية وحيدة مخروطية الشكل ، فلتة من فلتات الطبيعة ، ترفع نحو الأعلى ناحية الشمال الشرقى ، من أرض هذا السهل المنبسط غزير المياه ؛ وعلى قمة هذه التلة يوجد أثر يذكرنا بالتحصينات القرموطية . وأنا على يقين ، أن هذه التفاصيل تعطى القارئ فكرة معقولة وجيدة عن مدينه الهفوف والمنطقة المجاورة لها . والشكل العام لمدينه الهفوف يشبه عقيقة يمانية تجمع اللونين الأبيض والأصفر ، موضوعة فى إطار من الزمرد الأخضر ؛ إن اسم "الهفوف" شأنه شأن الاسم ونشستر الذى تحمله جزيرتنا ، معناه التلألأ والجمال .

وربما يكون القارئ بعد أن وصل برفقتى إلى هنا ، قد بدأ يتعطش إلى الحرارة ، حتى فى شهر ديسمبر ، الحرارة شبه الخانقة ، وإلى السماء الصافية كما لو كنا فى شهر يونيو أو شهر يوليو . لذا ، هيا بنا ندخل إلى تلك المزرعة المعشوشبة ، التى يوجد بها ست من الجاموس يرطبن جلودهن فى ماء البحيرة وتشربن من النبع الذى يزود هذه البحيرة بالماء . ولكن تصور ! أن ماء البحيرة دافئا ، بل يكاد يكون حاراً ، لا تندهش ، فكل عيون وآبار الاحساء من هذا القبيل ، تقريبا ؛ ويصعب على الإنسان أن يضع يده فى بعض هذه العيون ؛ وبعض آخر منها تصل درجة حرارة مياهه إلى ما يزيد على درجة الحرارة المعتادة ؛ ومن حين لآخر يظهر طعم الكبريت بشكل واضح فى هذه المياه . والواقع أن هذه النار الجوفية يمكن أن تقف عليها فى أى مكان من الهفوف بدءا من طرفها الشمالى عند حدود الكويت إلى أقصى حدودها الجنوبية عند

(١) يقال له أيضا الأسل وهو نبات تستعمل أوراقه الأسطوانية الطويلة فى صنع مقاعد الكراسى - (المترجم) .

مدينة شعبة . وتختفي تلك النار الجوفية مرة ثانية في قطر وعلى طول الساحل إلى منطقة رأس مسندم ، ولكنها تعاود الظهور من جديد ، إلى أن نجدها أيضا في باطنه Batinah ، أو أن شئت فقل في المنطقة الخفيضة في عُمان . وقد سبق أن تحدثت عن عين نجم وحماماتها . وسوف يتعين علينا أن نزور أم السباع[1] ، تلك المدينة الأقل شهرة . والصخور هنا أيضا يغلب عليها أن تكون من صخور التوفا المسامية أو من البازلت ، وهذه دلالة أخرى على الأصل الناري لهذه الصخور . أخيرا ، لقد أبلغني السكان أن الهزات الزلزالية الطفيفة – وهذه ظاهرة غير معروفه ، على حد معرفتي ، في سجلات نجد العليا التاريخية أو الموروث الحي لهذه المنطقة – غير شائعة هنا بأي حال من الأحوال . ومن بين الأخطار غير المعتادة ، ذلك الخطر الذي تعزى إليه الشقوق والصدوع التي أصابت الجدران العالية والطوابق العليا في كثير من المنازل التي لا تزال تقف شاهدا على ذلك ، ويقال أن ذلك الخطر حدث منذ حوالي ثلاثين عاما . وربما صادفت تلك الهزة ، الكارثة الشهيرة التي وقعت في العام ١٨٣٦ الميلادي ودفنت سكان مدينة صافد تحت أنقاض المدينة ، وتسببت في انهيار الأحجار في قلعة الجيش (جيسكالا) وسقوطها في الوادي ، وتسببت في زلزلة أسوار قلعة حلب المتينة . والواقع أن الاحساء بموقعها الساحلي ، بحذاء الخليج الفارسي ، تدخل ضمن ذلك الوادي الكبير ، الذي ينزل في بعض أجزائه إلى ما تحت مياه الخليج نفسه ، والذي يرتفع في بعض أجزائه الأخرى ليكوّن حوض نهر دجلة والفرات ، ويمتد من شواطئ بلوخستان وعمان حتى يصل إلى قاراداغ K.ara Dagh وجبال أرمينيا ، إلى أن يصل إلى طرف المنطقة التي يشيع فيها حدوث الزلازل بشكل كبير . ووحدة مناخ هذا الوادي هي التي تشهد على امتداده واستمراريته ؛ ومناخ هذا الوادي يشكل مدخنة هائلة من الهواء الساخن ، وترتكز قاعدة هذه المدخنة على المناطق المدارية ، في حين تصل أطرافها إلى ٣٧ درجه شمالاً . ومن هنا ، فإن ريح السموم ، التي لا تعرفها الأجزاء البعيدة من المناطق الجنوبية في كل من سوريا وفلسطين (وأنا على ثقة أن القارئ ، لديه من العلم ما يجعله يقع في الخطأ الشائع الذي يخلط بين رياح السموم الغازية ورياح الشيلوك أو السيروكو التي تهب على كل من سوريا ومالطة ، بل وعلى إيطاليا أيضا) ، تهب من حين لآخر على كل من الموصل وجزيرة عمر ، في الوقت الذي يسجل فيه مقياس الحرارة ، في بغداد ارتفاعا ، في فصل الصيف ، يكفي لزعزعة اعتقاد الشخص الهندي الحقيقي ، وبخاصة إذا كان من بومباي على أقل تقدير .

ومسألة حدوث وحدة طبيعية في جوف الوادى وتكون مماثلة للوحدة السطحية ، ليس فيها ما يتعارض مع الإطار النظرى ، علاوة على أن جميع الحقائق التى سبق أن أشرنا إليها تدعم ذلك وتؤكده ولكن ينبغى أن أسلم هنا ، بأن ذلك هو مجال الجيولوجيين ، وأننى يجب أن أسير على هداهم ، وأترك لهم مسألة البحث فى هذه الدلائل ، وربما يرفضونها ؛ وعلمى أو جهلى لا يمكن أن يصل بى إلى أبعد من ذلك .

ومنتجات الاحساء كثيرة ومتنوعة؛ الحياة النباتية العربية الرتيبة، بنخيلها الأبدى ، وإثلها ، أو الأثل والنخيل ، تتباين هنا فى الهفوف تباينا واضحا إذ نشاهد غطاء نباتيا جديدا ونباتات غير معروفة فى نجد أو شومر . صحيح أن النخيل لا يزال هو السائد فى الهفوف ، بل انه هنا يصل إلى ذروة اكتماله وكماله . ولكن شجرة النبق ، بأوراقها المستديرة ، وثمرتها التى تشبه التفاح ، والتى تعد مجرد دغل فى وسط الجزيرة العربية ، تتحول فى الاحساء إلى شجرة فارعة ضخمة ؛ كما توجد فى الاحساء أيضا ، شجرة البابای التى يذيع صيتها فى شرقى شبه الجزيرة العربية ، وهى تظهر ، برغم ندرتها ، وبرغم تبعثرها ، ضمن بعض الأشجار الأخرى التى يشيع نموها على الساحل فى المنطقة من كتش Cutch إلى بومبای ؛ وسوف أعدد هذه الأشجار هى وأوصافها فى فصل لاحق . كما تزرع هنا أيضا أشجار النيلة ، ولكنها لا تصلح لاستغلالها على نطاق تجارى ؛ كما يزرع القطن على نطاق واسع فى اليمامة ؛ وتكثر أيضا حقول الأرز ، علاوة على زراعة قصب السكر ؛ برغم أنى أعلم ، أن ذلك لا يدخل فى صناعة السكر ، ويبيع الفلاحون فى الاحساء ، أعواد القصب على شكل حزم فى الأسواق، والناس يشترونه ويعودون به إلى منازلهم كى يمصوه ، فى وقت فراغهم . والقمح ، والذرة ، والدخن ، والسليقة بكل أنواعها ، والفجل ، والبصل ، والثوم ، والبازلاء ، أو اختصارا كل الخضراوات والحبوب باستثناء الشعير (لأنى لم أر أو أسمع عن أى شىء منه) ، تغطى السهل ، ويمكن أن تصل إلى عشرة أضعاف إنتاجها ، فى ظل الاداره الجيدة . ولكن الضرائب الثقيلة والمساهمات العرفية هى التى أحبطت كلا من المزارع والتاجر . ولقد شاهدت ، بنفسى مساحات كبيرة من الأرض ، يمكن أن ينفجر منها الماء غزيرا ووفيرا بمجرد الحفر فيها بالفأس أو الكوريك ، ولكن الناس يتركونها جافة جرداء . وعندما سألت الناس عن أسباب عدم القيام بهذا الجهد البسيط الذى سيعود عليهم بعائد ثمين ، كانوا يجيبونى قائلين :" ما الذى سيعود علينا من ذلك؟ إن كل ذلك سيؤول إلى خزانة فيصل" أو " الأفضل أن نترك الأرض لخالقها ، بدلا من أن نفلحها لصالح أولئك الوهابيين الكلاب" .

وعلى كل حال ، إذ كان الفلاح لديه من الأسباب ما يجعله يصرخ ويصيح ، فإن التاجر لديه من هذه الأسباب ما يجعله يعوى ؛ والسبب فى ذلك أن التاجر هو الأكثر معاناة. وقد ظلت الاحساء، على امتداد قرون ، تتجر اتجارا مزدهرا مع كل من عمان ، وإيران والهند على الجانب الأيمن ، والبصرة ، وبغداد على الجانب الأيسر ، بل كانت تتجر مع دمشق نفسها برغم العداء السياسى وبعد المسافة . والسبب فى ذلك أن الشالح المصنوعة فى الاحساء ، وكذلك المطرزات التى تدخل فى صناعتها وهى أيضا من إنتاج الاحساء ، ولا مثيل لها فى أى مكان آخر ، زد على ذلك أن هذه الدقة فى العمل ، وروعة التصميم ، لا مثيل لها إلا فى كشمير فقط . والصوف الذى يستخدم لإنتاج المشالح من النوع الفاخر جداً ، وعندما يجرى تطعيمه بالحرير ، يشكلان نسيجا متينا يقاوم البلى ويسر الناظرين ؛ فى حين أن حاشيته المكونة من خيوط الذهب والفضة التى تنسجم مع الألوان المرحة ، تثير حسد الحاسدين ، ولكن ليس لها مثيل فى سوريا أو إيران . وفيما يتعلق بصناعة المعادن الثمينة ، وتزيين مقابض السيوف ، أو القوارير ، أو الخناجر أو النراجيل ، فإن حرفيى الاحساء ، برغم أنهم أقل مهارة من حرفيى عمان ، لا يخشون من منافسه دمشق وبغداد لهم . وفى مجال مشغولات النحاس الأحمر والنحاس الأصفر ، يعرف سكان الاحساء أيضا كيف يمزجون الاناقة بالاستعمال ، ومن هنا فإن دلال القهوة المصنوعة فى الاحساء تفوق تلك الدلال التى نصادفها فى شمال البصرة . كل هذه المنتجات هى وأشياء أخرى مماثلة كانت ، فى يوم من الأيام ، سلعا رائجة وصالحة للتصدير ، ونحن عندما نضيف هذه المنتجات إلى تجارة تمور الخلاص التى لا تخسر مطلقا ، والتى تقتصر على منطقة الاحساء وحدها ، ويسيل لها اللعاب فى المنطقة ما بين الموصل وبومباى ، إضافة إلى حزم قصب السكر وما إليها ، كل ذلك كان يشكل تجارة تصديرية ممتازة . وفى مقابل الصادرات كانت تصل الاحساء واردات من قبيل الأقمشة العادية تماما ، والسكاكين ، والمشغولات الحريرية ، والسيوف ، والرماح ، والأوانى الفخارية ، والحرير، وخيوط الذهب ، وخيوط الفضة ، وأكثر من مائة سلعة أخرى من هذا القبيل . ومن هنا جاءت ثروات تجار الاحساء الكبيرة ، وثروة الحكومة المحلية ، ومن هنا أيضا جاءت تلك التذكارات التى تقف شاهدا على هذه الثروة . لقد ضاع كل ذلك ؛ أن النجدى يأكل شحم ونخاع هذه الأرض ؛ فى حين أنه ، عن طريق حربه الطائشة التى يشنها على من يود أن يصب عليه جام تعصبه ، باسم محاربة الترف – الحرب على الدخان والحرير ، والزينة

والثياب – يبتر فرعا مهما من فروع التجارة المفيدة ، كما يتحين الفرص كي يزجر ويحبط التاجر غير المتدين الذى يفضل السفن على المساجد ، ويفضل بالات البضائع على " الله " وعلى " القرآن "[1] . وتنفيذا لهذه الغاية النبيلة ، فإن المهنا الذى أتينا على ذكره في الفصل الذى أوردته عن القصيم ، كان كلما صدر أمر بتجهيز حملة من الحملات، أو بالتجنيد ، يبدأ فى تطبيق سياسته المؤذية على نطاق واسع فى الاحساء ، التى كان أول من يحمل البندقية فيها ، وأول من يضع الرمح على كتفه هم التجار الأثرياء ، وأصحاب المحلات الرابحة ، والحرفيين الأجواد ؛ مما كان يتسبب فى كساد الأعمال التى كانوا يقومون بها . كان ذلك هو النظام الذى انتهجه فيصل عند حدوث الحرب ؛ وعندما وصلنا الهفوف وجدنا أن أكثر من نصف سكانها المفضلين ، قد أجبروا على الاشتراك فى حرب تتمثل نتيجتها الوحيدة فى إحكام النير الوهابى الكريه على أعناقهم هم أنفسهم .

سبق أن قلت ، إن مناخ الاحساء مختلف تماما عن مناخ الأراضى المرتفعة وأنه ليس مناخا صحيا أو صالحا للنشاط البدنى . ومن ثم ، فإن طبيبا مثلى ، وأنا هنا استميح القارئ أن يسمح لى باستعمال هذا اللقب ، سوف يجد الكثير من العمل ويحصل أيضا على الكثير من الأتعاب المجزية ؛ ومسألة الأتعاب المجزية هذه ترجع إلى حجم النقود السائلة التى يجرى تداولها هنا ، كما ترجع من ناحية أخرى إلى القيمة المرتفعة التى يحددها للطبابة هنا أناس هم أرقى فكرا من أولئك النجديين الذين يجاورونهم . وسكان الاحساء من حيث المظهر ، بنيتهم قوية بشكل عام ، وأجسامهم متناسقة ، ولكن وجوههم شاحبة إلى حد ما ، وليسوا مفتولى العضلات مثل بقية السكان فى الداخل ؛ وبرغم أن قسماتهم من النوع المعتاد ، إلا أنها ليست محددة وواضحة تماما مثل قسمات النجديين ، ولا تظهر عليهم تلك السحنة التى تشبه سحنة اليهود إلى حد ما ؛ وسكان الاحساء ، على العكس من أهل نجد ، فيهم شئ يذكر الناظر إليهم بالراجبوت **Rajpoot** أو الجوزيراتى **Guzeratee** . وأهل الاحساء متيمون بالأدب والشعر ، سواء أكان عموديا أم نبطيا ، أو إن شئت فقل الشعر النبطى .

(١) وهل الإسلام يمنع العمل والسفر والتجارة ، وهل الإسلام يطلب من المسلم الانقطاع فى المسجد أو الرهبنة ، إن هذا الكلام يدل على جهل بالإسلام وتعاليمه ، فالإسلام يرفض الرهبانية ، ويحث على العمل ويجعل تسعة أعشار الرزق فى التجارة ، والمسلم أثناء عمله هو عابد لربه فى كل حركة وفى كل مكان – (د. حلمى عبد المنعم) .

هذا الشكل الأخير من أشكال الشعر ، الذى نصادفه فى نجد بين الحين والآخر ، بل ونادرا ، يكثر هنا فى الاحساء ، بل إنه فى واقع الأمر أكثر من الشعر العمودى ، الذى يختلف عنه من حيث التقطيع العروضى والوزن والقافية . ففى الشعر النبطى الذى يحكم التقطيع العروضى هو النبر، وليس الكم؛ والوزن متغير فى الشعر النبطى ، حتى فى داخل المقطوعة الواحدة ؛ والقافية تبادلية وليست مستمرة . وخلاصة القول ، إن هذه النوعية من الشعر بينها وبين الاغنيه الشعبية Balled الانجليزية تشابه قوى من حيث الشكل ؛ والشعر النبطى شأنه شأن الأغنية الشعبية الانجليزية ، هو الأسلوب الشعبى السائد فى الريف .

ولكن كيف التصق الاسم " نبطى " بهذا النوع من الشعر ، وما هى الفترة وما هى الظروف التى واكبت دخوله إلى الجزيرة العربية ، ومن هم هؤلاء الأنباط ، وما هى علاقتهم بهذا الجزء من العالم ، لم يستطيع أحد أن يقول لى شيئا عن هذه الأمور . وهذه نتيجة مؤسفة وشائعة جدا من نتائج التقصى التاريخى فى الشرق . وفى الوقت نفسه، فإن هذا الشكل الأدبى العجيب وغير العربى، والذى يمكن العثور عليه فى نجد ، ويكثر فى الاحساء ، يصبح شائعا ومهيمنا فى عمان ، التى لا نجد فيها أى شىء غير الشعر النبطى ، وإذا أردنا أن نجد لهذا النوع من الشعر وطنا فإننا نقول : إن الشعراء ، فى عمان ، يستعملونه فى كل من الباطنة وجبل أخضر .

سأل الحجاج السفاح المؤرخ العربى تعيس الحظ أيوب بن القَرِّيه ، وهو يمسك بخناقه معلقا بين الحياة والموت :" ما جنسية سكان البحرين ؟" ورد عليه المؤرخ العربى قائلا :" إنهم أنباط تحولوا إلى عرب " . وسأله الحجاج :" وما جنسية سكان عمان ؟" فأجابه المؤرخ قائلا :" عرب تحولوا إلى أنباط " . دار هذا الحوار ، مع أكبر قدر من الاهتمام ، وبصورة مطولة يتعذر إيرادها هنا ، فى العام ٧٠٠ الميلادى ، إن صح ما قاله ابن خليكان ، أى فى العام الرابع والثمانين الهجرى ، وهو ما يترتب عليه الرجوع بالعرق والنفوذ النبطيين على هذه الشواطئ ، إلى تاريخ بعيد جدا . ويجب ألا يغيب عنا أن هؤلاء الأنباط ، أو إن شئت فقل " النبّاط " أيا كان نوعهم ، كانوا ، من ناحية ، ينتمون إلى تلك الفئة من الناس التى كانت تعبد النجوم أو الشمس ، وأن كلا من الأحساء وعمان ، كانتا من الناحية الأخرى ، فى عهد محمد (ﷺ) ، موطنا أكيدا لذلك الشكل من الدين فى الجزيرة العربية ، علاوة على أن لدينا شاهدا آخر غير مباشر ، على التأثيرات التى أحدثها الأنباط فى هذه المنطقة .

وإذا كـان من حق كل إنسـان أن يدلك على صـدق نظريتـه ، فـأنا على يقين أن القارئ لن ينكر عليّ هذا الحق الكوني . هؤلاء الأنباط الذين توجد آثارهم في المنطقة التي تمتد من ضفة نهر الأردن الشرقية إلى ضفة نهر دجلة ، ومن شمالي الرافدين ، تلك المنطقة التي لا يزال يمثلهم فيها "الشمسية" أو بالأحرى عبدة الشمس في ماردين – إلى راس الحصن .Ras-el-h.ad.d، وما بعدها ، إلى أي عرق ينتمون ؟ وإلى أي أسرة من أسر الجنس البشري ينتسبون ؟ إن التحزير المضحك الذي يحدد هؤلاء الأنباط على إنهم هم النيباجوث الذين ورد ذكرهم في الكتاب المقدس (الإنجيل) لا أساس له من الصحة تماماً ، وتشهد على ذلك أوليات علم أصول الكلمات في اللغة السامية : والكلمتان الساميتان .Naba.t (نبط) و Nebajoth (نيباجوث) تمثلان اختلافاً مزدوجاً من حيث الصوامت والصوائت ، ولا يمكن تسوية هذا الخلاف مطلقاً عن طريق رده إلى أصل هذه الطائفة Community؛ ناهيك عن ذكر أسباب أخرى هي واضحة وبينة أمام أعين الباحثين المدققين . هذه النظريات الانجيلية المبالغ فيها – وأنا لا أجد لها اسماً أفضل من ذلك – تليق بتلك الأذهان التي تبحث عن أبناء هاجر ، خليلة إبراهيم[١] ، بين بنو هاجر في الأحساء ، وتقرأ أسفار موسى الخمسة على صخور صحراء سيناء . إن أحلام اليقظة تفيد أصحاب الخيال الخصب أكثر من معرفة أولئك الذين يعيشونها أو الأحكام التي تصدر عنهم . هناك بعض آخر من الباحثين الأكثر علماً الذين يميلون إلى دمج الأنباط مع الكلدانيين ؛ بعض ثالث من الباحثين يجعل الأنباط شعباً متميزاً ، والمقريزي ، يصنفهم ، في واحد من كتبه ، مع الفرس .

وأنا من جانبي ، ينبغي أن أتعامل مع الاسم نبط أو نبطي على إنه اسم يصطبغ بالصبغة التقليدية أكثر من الصبغة الوطنية أو القومية ؛ والواقع أن هذا الاسم عبارة عن تسمية عامة ، يندرج تحتها ، في واقع الأمر ، سكان كل من سوريا ، وفلسطين ، والجزيرة العربية ، الذين كان يندرج ضمنهم مختلف السكان الذين كانوا يعيشون في مناطق دجلة والفرات ، سواء أكانوا من أصل آشوري ، أو كلداني أو بابلي ؛ وتأسيساً على ذلك فإن الكلمة (نبط) .Nabat يمكن أن تشتمل على العديد من الأسر المالكة ، ومن الحكومات ، والأعراق ، المتميزة عن بعضها ، ولكنها متجانسة بالقدر الذي يجعلها

(١) هذا تدليس وكذب وجهل ، فإن هاجر لم تكن خليلة وإنما كانت حليلة نَبِيّ الله إبراهيم عليه السلام وولدت له إسماعيل جدَّ العرب – (د. حلمي عبد المنعم) .

تكوِّن كلا واحدا عندما نقابل بينها وبين أولئك الذين يطلُّون عليها من الخارج . وسوف أحاول تفسير ذلك .

أنا أرى أن العالم الشرقي ، يمكن لنا أن نتحدث عنه بلا تهور أو اندفاع على أنه قد انقسم في التاريخ القديم على أساس من الدم ، والدين ، والجغرافيا ، إلى ثلاثة قطاعات رئيسة . ففي الغرب يوجد السوريون ، واليهود ، والعرب - أمم قريبة الشبه ، برغم وجود فروق ملحوظة فيما بينها ، ويجمعها إلى بعضها العديد من نقاط التشابه أو إن شئت فقل : الوجه ليس واحدا للكل ، ولا هو مختلف عن ذلك . Faces non omnibus una, necd iversa tamen وفي أقصى الشرق كان يسكن الفرس والفرس الميديين medo-persians الذين قدر لهم أن يمتزجوا سويا ليكونا إمبراطورية واحدة قوية ، ويختلفون تماما من الناحية البدنية والاخلاقية عن الأعراق الغربية . وبين هذين الشكلين من أشكال الاتحاد ، إذا ما أخذنا المصطلح هنا بمعناه الواسع ، كانت توجد منطقة كبيرة ، تسقى من فرعي الشط ، دجلة والفرات ، وكانت فيها عائلة ثالثة ، على العكس من العائلتين السابقتين ، مقسمة في واقع الأمر تقسيما داخليا ، إلا أنها كانت تمثل في إطار المحددات الأوسع للدين ، والمؤسسات والسياسة ، والأخلاق مجتمعا له من الحدود الخارجية ما يجعل هذه المجتمعات الثلاثة تبدو في أعين جيرانهم الغربيين على إنهم عرق واحد ، أو كُلٌّ واحد على أقل تقدير . وهذا على النقيض تماما من جميع النواحي بالنسبة إلى أولئك الذين يعترفون لسيدنا إبراهيم والدا ونسيبا لهم ، فهم خصومهم الدائمون في الحرب ، وفي العبادة ، وفي المشاعر الداخلية ، وفي التنظيم الاجتماعي ، وهذا العداء وتعميم الكراهية الفطرية قد يبدوان فرقين صغيرين في إطار العداء الكلي ، ويحددان اسما واحدا عاما لأولئك الذين أدرجهم ذلك العداء ضمن خوف وعداء مشترك . وبمرور الزمن ، وهذا يتضح في الاستشهاد المأخوذ من ابن خلِّيكان ، فإن المصطلح " الأنباط " الذى كان غريبا ، في البداية على فرع بعينه من السلالة الكلدانية ، أصبح ساكنو سوريا يتصلون به اتصالا وثيقا ومتكررا ، ثم امتد ذلك المصطلح بعد ذلك ليشمل كلا من القوميتين الآشورية والبابلية ، إلى أن أصبح وبالإمكان تطبيقه على أولئك الذين اندرجوا تحت التصنيف الأول ، بحكم أن ذلك المصطلح يمكن أن ينطبق على كل أولئك الذين لهم نفس العادات والتقاليد التى نشأت أساسا في بابل ؛ وبذلك يصبحون مقلدين لعبادة النجوم عند الكلدانيين ، أو مقلدين لأعمال مماثلة ، هي عند العرب وطبقا لأفكارهم تكون مساوية لأن يكون المرء نبطيا

أو انباطيا . ويغض النظر عن كل ذلك ، فإن الاستدلال التاريخي ، برغم أنه ليس له سند من الوثائق الدقيقة ، يسلم بوجود مستوطنة كلدانية ، ومستوطنة قاصدية Casdee ، أو إن شئت فقل مستوطنة كوشية ، وربما أيضا مستوطنة كردية curdee في البحرين ، تلك الجزيرة التى ترتبط ارتباطا وثيقا بمصبات الشط (شط العرب) بحكم موقعها وعن طريق التجارة ؛ وليس من الصعب علينا أن نتصور الطريقة التى استطاع بها أولئك المستوطنون أن يشقوا طريقهم إلى الأحساء ، بل ويتغلغلون في داخل الجزيرة العربية ، في الوقت الذى انتشروا فيه على ساحلها الشرقى . والشعب التنظيمى يمارس سيادة فريدة على الشعب الذى تكون ملكاته الخيالية أكثر من ملكاته التركيبيه (وأشهر مثال على ذلك فى الغرب يتمثل في الساكسون من جانب ، والسيلت Celts في الجانب الآخر) ، ومن هنا فإن ذيوع صيت التجارة الكلدانية أو النبطية ، وانتشار النفوذ الكلدانى أو النبطى ، وربما الدين النبطى أيضا ، لابد وأن يعقبه تعديل مماثل فى كل من الأدب والشعر ، اللذين يبدأ توظيفهما ، لتحقيق أهداف جديدة ، أو استعمالهما ، على أقل تقدير ، فى التعبير عن أفكار جديدة ، وتحولات فكرية جديدة أيضا . والأصمعى أعلم علماء عصره يقول : " الشعر هو أدب العرب " ؛ من هنا فإن الشعر لابد أن يكون أول من يستشعر انطباعات ذلك العمل الأجنبى أو " النبطى " ، وهو أيضا الذى يداوم على تسجيل هذه الانطباعات ، والاحتفاظ بالاسم ، بل انه يصبح في النهاية مخطئا في استعمال الاسم ، برغم أنه استعمل فى البداية تعبيرا عن حقيقة .

ولدينا أمثلة كثيرة ، في أيامنا هذه ، على تسميات من هذا القبيل ، وبخاصة فى الشرق غير الدقيق . من ذلك ، على سبيل المثال ، أن سكان كل من سوريا والجزيرة العربية ، بعد كل تلك الخبرات التى اكتسبوها ، خلال قرون من الاتصال ، يصرون على أن يطلقوا على جميع الأمم المسيحية التى فى الغرب كله ، اسم " الإفرنج " ، وهذه التسمية ترجع فى أصلها إلى الفرنكيين Franks أو إن شئت فقل الفرنسيين French من الصليبيين crusades . ومع ذلك ، فإن مواطنى ناينيفه Nineveh لم يكونوا يختلفون كثيرا عن سكان شينار Shinar أو سنعار Sena'ar البابلية ، أو عن اختلاف الفرنسيين عن الألمان أو الإنجليز أو الإيطاليين . لا تقلق ؛ فكل هؤلاء " إفرنج "، عند العرب . وفى المقابل ، فإن الغربيين يضعون تحت اسم " العرب " ، كل الأعراق التى تعيش فى الإقليم أو المنطقة التي تمتد من حلب إلى أسوان Asowan ، ومن البحر المتوسط والنيل

إلى نهر دجلة والخليج الفارسي ؛ برغم أن الأراضي الداخلة في هذه المنطقة أو هذا الإقليم – مصر ، سوريا ، الرافدين ، العراق ، الجزيرة العربية .... الخ .... الخ تسكنها قبائل وسكان يختلفون عن بعضهم البعض من جميع النواحي النَّسَبيَّة ، والتاريخية ، والقومية ، وهذه التصنيفات الكاسحة التي تشيع بين الناس وتنجم عن أسباب كثيرة توجد في كل العصور ، القديمة والحديثة . ومن المحتمل أن يكون مغزى كلمة " نبطي " من هذا القبيل أيضا ، معنى ذلك ، أن هذه الكلمة ربما كانت ، في الأصل ، اسما لعلم ثم تحولت إلى اسم جنس من حيث التطبيق . ويتشابه مع ذلك تماما ، التصنيف الذي اتبعه المؤرخ شمس الدين الدمشقي ، عندما يؤكد لنا أن الكلدانيين ، والقاصديين **Casadees** ، والجرامهة **Djerámihah** ، والجنبان **Ganban** ، وكذلك الكنعانيون كانوا جميعا سبئيين ، ويردف هذا المؤرخ قائلا : ذلك يعني أن كل هؤلاء كانوا يعبدون النجوم . زد على ذلك أن مصطلح " سبئي " **Saba'I، Sabaean** ينطوي أصله على دلالة محلية مجددة إذ لم يكن يدخل ضمنه الكلدانيون أو الكنعانيون، الذين دخلوا ضمنه بعد ذلك بحكم استعماله استعمالا عاما في فترة لاحقة .

وبوسعنا أن نضيف المزيد إلى هذا الموضوع الذي استحوذ على اهتمام العديد من المستشرقين البارزين ، ولن يكلفنا ذلك مالا أو جهدا ؛ ولكن عذري الوحيد هو أن الصفحة سوف تتحول إلى فصل ، والفصل إلى مجلد . وربما يوحي ما أوردته هنا ، برغم عدم اكتماله ، بمفتاح يساعد على تذليل الصعوبات التي تلازم تحريا واستقصاء هو معقد بحد ذاته ، بل إنه يزداد تعقيدا بحكم طابع المذكرات العربية غير النقدي بشكل عجيب ؛ وأنا لن أندهش أو أتعجب إذا ثبت أن ما قدمته كان مجرد اقتراب من الحقيقة .

وأنا أود هنا أن أضيف بضع كلمات على مثال له علاقة بتلك التناقضات الفنية التي تحدث في أغلب الأحيان ، ويترتب على حدوثها أخطاء غريبة وكثير من التطبيقات الضارة . والجمهور الأوربي غارق في طوفان حكايات العادات العربية ، والتقاليد العربية ، والصفات العربية ، والمنازل العربية ، والملابس العربية ، والنساء العربيات ، والمحاربين العرب ، وأشياء أخرى كثيرة ، والجزء الأكبر من مادة هذه الحكايات مأخوذ من سوريا ، ومن بلاد الرافدين ، ومن مصر ، ومن العراق ، وربما من تونس ، والجزائر والمغرب ؛ أو في أفضل الأحيان من جدة على شاطئ البحر الأحمر .

وفي بعض الأحيان ، نجد أن الروح الرومانسية تقدم بعض المشاهد بين بدو بالميرا Palmyra المولّدين ، على اعتبار أن تلك المشاهد عبارة عن صور من الحياة العربية ؛ وفي بعض الأحيان الأخرى تدعونا هذه الحكايات إلى دراسة المجتمع العربي من خلال ديوان في القاهرة أو حلب . والحكايات التي من هذا القبيل ، مهما كانت دقيقة ، فيما يتعلق بالأماكن والأعراق التي تتحدث عنها ، لا يمكن أن تنطبق على لقب العرب المحدد تحديدا صحيحا وكذلك العادات العربية المحددة أيضا تحديدا صحيحا . والمسألة تبدو لي كما لو كنا نورد وصف ساكن الغابات النائية في أوهايو لنقول إنه صورة أمينة لفلاح من يوركشير Yorkshire ، أو نقول عن عادات وتقاليد كونوت Connaught إنها صورة عامة للحياة والسلوك في نورفولك Norfolk والمعروف أن مصر، وبالميرا، وبغداد ، والموصل والجزائر إلى حد ما ، ليست هي الجزيرة العربية . والسكان الذين أشرنا إليهم هم خليط من الأكراد والتركمان ، والسوريين والفينيقيين ، والأرمينيين ، والبربر ، والإغريق ، والأتراك ، والأقباط ، والألبان ، والكلدانيين ، ناهيك عن بقايا الأعراق القديمة ، مع قليل ، بل وقليل جداً من الدم العربي ، بنسبة واحد إلى عشرين ، في أفضل الأحوال ، بل إن هذه النسبة القليلة من الدم العربي قد خُفِّفت بفعل التأثيرات المحلية والإقليمية . وكون هذه البلاد كلها تقريبا تتكلم اللغة العربية لا يعطيها الحق في أن تدرج نفسها ضمن العرب ؛ شأنها في ذلك ، شأن من يتكلم انجليزية سيئة ويزعم أنه من مواطني كونوت Connaught أو تكساس . ويجب أن أضيف إلى الشكل العام البدوي ، إنه إن قدر له أن تُصَوَّر . وهذا يندر أن يحدث – على انه من بدو الجزيرة العربية الحقيقيين ، فلن يكون من العدل أن نقدمه (البدوي) على أنه مثال للحياة العربية والمجتمع العربي ؛ وبذلك نكون كمن ينشر رواية " بيكويك " أو " نيكولاس نيكلبي" ونضع على الغلاف اسم " مشاهد في الحياة الراقية " أو " حكايات آل – هوارد " . والواقع أن أولئك البدو التعساء الذين يجري الحديث عنهم كثيرا في الصحراء السورية التي ، يطلق عليها من باب الخطأ أيضا ، اسم الصحراء العربية ، ليسوا سوى سكان مولّدين ، هم سكان خلاسيين عن طريق التهجين بين القبائل التركمانية والقبائل الكردية ، وليس فيهم سوى القليل جداً من الدم العربي ، بل إن هذا الدم العربي ليس من النوع الممتاز ، والحال هنا يشبه كأسا من نبيذ البورد الفرنسية ، تم سكبها على كأس من الماء . وخلاصة القول ، إنه لا يوجد عرب خلَّص بين هذه الأعراق ، سواء أكانوا بدواً أم حضرا . والمعروف أن الجزيرة العربية والعرب يبدأون

من جنوبى سوريا وفلسطين، ومن غربى البصرة والزبير، ومن شرق كيراك والبحر الأحمر . وإذا رسمت خطا يمتد من قمة البحر الأحمر إلى قمة الخليج الفارسى ، فإن كل الذى سيكون أسفل ذلك الخط هو العربى فقط : بل إن حتى طريق الحج لا يدخل ضمن هذه المنطقة أيضا ، لأن نصف هذا الطريق تركى ؛ ولا تدخل المدينة (المنورة) ضمن هذه المنطقة أيضا ، لأنها مركز حضرى ؛ ولا يدخل الساحل الشرقى لليمن ضمن هذه المنطقة أيضا لأنه هندى - حبشى ؛ بل ومكة أيضا لا تدخل ضمن هذه المنطقة ، والمعروف أن مكة هى الملتقى العام لأتباع محمد من جميع الأنواع ، ومن جميع الأمم ، والبلدان ، وأن كل أثر من آثار الشخصية العربية - قد انمحى من هذه المدينة بفعل فسوق وفساد الأجيال المشوشة ولابد هنا من وضع مسقط والقطيف مع المخا وعدن ضمن قائمة الاستثناءات .

ولكن هيا بنا نعود إلى الأحساء ، التى سَحَبَنَا الأنباط منها إلى طريق طويل وغير مباشر . وشكل الشعر المعتاد فى الأحساء هو الذى دفعنا إلى تتبع أثر هؤلاء الأنباط . وبينما كنت فى الهفوف ، استمعت إلى كثير من القصائد النبطية ، وقليل من الشعر العربى العمودى ، الذى لا يزال مؤلفوه على قيد الحياة ، والواقع أن هذه القصائد والأشعار كانت على درجه كبيرة من الأصالة والجودة . فقد استمعت إلى قصيدة يرثى صاحبها فيها قرية عين نجم والدمار الذى حل بها ، واستمعت إلى قصيدة عن الحملة التى قامت على البحرين ، واستمعت إلى قصيدة ثالثة من الشعر القطربى ، الذى يعرفه الباحثون العرب ، وقد شدت تلك القصيدة انتباهى باعتبارها من المؤلفات التى لها قيمه حقيقية ؛ كما استمعت أيضا إلى قصائد وأغانى عن الحب ، وهذه بدورها كانت كثيرة جدا وجميلة جدا . وقد دونت أنا وبركات سبعاً أو ثمانياً من هذه الأغانى ؛ ولكن يا أسفاه ! فقد ابتعلت مياه المحيط الهندى ، بعد ذلك بثلاثة أشهر ، كل كنوزى ولم تترك لى شيئا . وقد ظهر لى أن مستوى الشعر فى الأحساء أعلى بشكل قاطع ، عنه فى نجد . وعلى الجانب الآخر ، فإن لغة التخاطب العادية فى الأحساء ، هى دون اللغة السائدة فى الأراضى العليا الداخلية من حيث الغزارة ، والنقاء والمرونة . واللهجة السائدة على هذا الساحل الشرقى لا هى باللهجة الاسماعيلية السائدة فى نجد أو اللهجة القحطانية السائدة فى عُمان ، وإنما هى خليط من اللهجتين ، الأمر الذى يضر بهذه وبتلك ؛ زد على ذلك أن الأذن المدربة تستطيع أن تميز فى هذه اللهجة شيئا طفيفا من الامتزاج الفارسى ، ذلك العنصر الفاحش من عناصر الكلام فى الأفواه العربية ،

والذى يتجلى بشكل واضح فى كل من القطيف والبحرين . وعلى كل حال ، فإن انحطاط لغة الاحساء يعوضه تفوقها من ناحية الفكر ؛ كما تفوق أهل الهفوف على أهل الرياض وأهل حائل فى ذلك الذى يمكن أن نسميه الحديث المنطقى وكذلك التفكير المرتب . وإذا كان اتصال أهل الأحساء بالأجانب ، قد تلف قدرتهم النحوية ، إلا أنه ارتقى بفكرهم ؛ وربما كانت دقتهم هذه شيء فطرى وراثى فيهم ، برغم أن الظروف المحلية هى والظروف الأخرى قد دعمت وأيدت هذه الدقة .

والملابس والثياب التى يرتديها الناس هنا متنوعة الأشكال والألوان ، وتبعث على الملل والسأم بسبب الأعراف الرتيبة ، السائدة بين الرجال والنساء على حد سواء ، فى المنطقة من الجوف إلى اليمامة . ففى الهفوف ، والقرى المحيطة بها ، نجد أن السكان يستبدلون ، فى أغلب الأحيان القميص الأبيض الواسع ، أو أن شئت فقل السَّمق[1] بالصُّدْره العمانية المجسمة ، المصبوغة باللون البرتقالى الأصفر ، والمطرزة بالحرير ، وهذه الصدره تعيد إلى أذهاننا الآنغى **Anghee** أو إن شئت فقل الآنغوركا **Anghurka** التى يشيع ارتدؤاها بين الناس فى غربى الهند ؛ كما يلبس الناس بدلا من القفائية ، عمامة ، تكون كبيرة وبيضاء حينا ، وملونة وضيقة الثنيات حينا آخر ؛ ومبلغ علمى ، أن المشلح الأحمر الخفيف يقتصر على الساحل الشرقى ، ولذلك فهو يختلف عن المشلح العربى الأسود ، فى حين يستعمل الناس هنا النعال البحرينية أو العمانية الانيقة حمراء اللون بدلا من النعال النجدية الرديئة والتى تجمع بين اللونين البنى والأصفر . كما نشاهد هنا بين الحين والآخر ، الخناجر المعقوفة ، ذات المقابض الفضية وهى تتدلى من أحزمة الناس ؛ ويشيع استعمال هذا النوع من الخناجر كلما اقتربنا من الحدود العمانية . وقد استحوذ ذلك على إعجابنا ، نظرا لأن ذلك يعطى شكلا واحدا وموحدا ، برغم أنه بسيط وبدائى .

وقبل إخضاع الأحساء للحكم الوهابى ، كان التزين والاستعراض هو الأساس فى هذه المنطقة ، بل إن الحرير ، إلى الآن ، هو والمطرزات ، يظهر فى كثير من الأحيان ، وذلك على العكس من تعاليم الإسلام . وخلال فترة الإصلاح العظيم الذى حدث فى الرياض فى العام ١٨٥٦ الميلادى ، قامت مجموعه من الوعاظ المتشددين بزيارة الهفوف ، وردوا احتمال انتشار الكوليرا إلى تجاوزات السكان ومخالفاتهم

(١) السَّمق : ثوب خارجى فضفاض يُرْتدى لوقاية الملابس من الاتساخ - (المترجم) .

وعصيانهم ، وراحوا يلقون خطبهم ويركزونها على الملابس والثياب المرحة ، وعلى غرور الدنيا . وعندما وجد هؤلاء الوعاظ أن هؤلاء الخطائين لم يستجيبوا لهم ، امتدت الأيدى لتحقيق ذلك الذى عجزت عنه الأفواه والألسن . وفى الوقت الذى تردد فيه فقه الأحساء ومجرميها فى تمزيق أشيائهم التافهة الرخيصة الآثمة والتخلص منها ، ساعدهم على ذلك النجديون المتدينون ، وهذا نقلا عن ما أكده لى أحد شهود العيان ، على فعل ذلك ، إلى أن غطت أشلاء الحرير الممزق والمطرزات أرضيات الشوارع . وجرى ، فى الوقت نفسه أيضا ، شن حملة ضارية على الدخان ، الذى بدأ يقتصر ، منذ ذلك الحين ، على دوائر الحياة الخاصة .

وفى الوقت نفسه ، جرى إلى حد ما ، القضاء على عمل آثم آخر ، كان شائعا بين طبقات المجتمع الراقية ، ومع ذلك لم يتم القضاء عليه قضاء مبرما . فقد كان من عادة التجار والحرفيين فى كل من الهفوف والمبرز – اعتقادا منهم أنهم ليسوا حيوانات أو آلات ، وبالتالى يستطيعون أن يتمتعوا بأشياء أكثر تنوعا من تلك التى أقرها النبى لأتباعه – من قديم الأزل أن يقيموا حفلات للسمر ، وبخاصة خلال أيام العطلة التى لا يمارسون خلالها أعمالهم . كانت فترات الاسترخاء الاجتماعى هذه تستمر ، فى أغلب الأحيان ، أسبوعا أو أسبوعين فى المرة الواحدة ، وكانت تقتصر على فصل الربيع فقط . وفى شمال شرقى الأحساء كانت هناك سلسلة جبال طويلة متعزلة ، مكونه من الكثبان الرملية وصخور البازلت ، ويصل ارتفاعها إلى حوالى أربعمائة قدم ؛ كما كانت تتخلل هذه الصخور كهوف طبيعية كبيرة ، كانوا يطلقون عليها اسم " المغور " أو إن شئت فقل " الكهوف " ، إلى حد أن الجبل نفسه كان يسمى بهذا الاسم . والهواء ، داخل هذا المغور ، بارداً ، فى أحَرِّ شهور السنة ؛ كما أن الماء العذب ينساب ، بكميات وفيرة عند سفح هذا الجبل . ومن ثم ، فإن تجار الاحساء ورجال الأعمال فيها كانوا يذهبون إلى تلك الأماكن ، كلما أرهقتهم حساباتهم ودفاترهم ، ويقضون فيها مع بعضهم أياما قلائل ، يتجاذبون خلالها الأحاديث الودية ، على الموائد الحافلة ، وعلى أنغام الموسيقى ، والرقص ، وما إلى ذلك من المتع التى تبيحها العقول المفكرة لأصحابها عندما ترهقهم أعمالهم الشاقة التى تتطلب الجلوس فترات طويلة . وهنا يتضح ، أن ما سبق أن قلته يصلح أن يكون دليلا وبرهانا ، أن هذه المتع تتعارض تماما مع روح الإسلام النقى الصحيح ؛ ومن ثم فإن النجديين كانوا ينظرون إلى حفلات السمر التى كانت تقام فى جبل المغور نظرة تخوف لا تقل عن تلك الإثارة التى

تحدث في جلاسجو نتيجة لما يسمعه اللاهي أو السامر في الشوارع العامة ليلة الأحد . وهنا أصدر فيصل أوامره بالقضاء تماما على تلك الأشياء البغيضة ؛ وألقى القبض على بعض هؤلاء المجرمين ، وفرضت الغرامات على البعض الآخر ؛ ولكن بقايا هذه المخالفات ، لأنها ما تزال مستمرة إلى الآن ، تدور في الخفاء ، أو بالأحرى لا يقبل عليها سوى القلة القليلة ، ولكن في ظل احتياطات مشددة . وسوف يهيئ لنا مقامنا في الهفوف رؤية مناسبة من تلك المناسبات .

كان هناك تطلع إلى أن تنتصر الفضيلة بفضل هذه القوانين والقواعد المنظمة . ولكن تأسيسا على ما سمعته عن الفضائح الخاصة والأعمال الداخلية المشينة ، لا يبدو أن هؤلاء " القدِّيسين " قد حققوا هدفهم على نحو أفضل مما فعله إخوانهم الذين سبقوهم في عهد كالفن في جنيف ، أو في عهد رمب Rump في لندن . هذا هو القانون العام ؛ ولكن الاستفادة من الخبرة والتجربة يندر أن يكون من نصيب الحكومات أكثر منها الأفراد .

سبق أن قلت إننا كنا نحاول جاهدين في الأحساء أن نلاحظ ونراقب دون أن يلاحظنا أحد أو يراقبنا ، وأن لا نُضَيِّع وقتنا في الأحداث والنوائب . وهذا لا يعني أننا ذهبنا إلى الاتجاه المعاكس ورحنا نعيش حياة تقاعد تام خالية من الأحداث . وقد حاول أبو عيسى منذ البداية أن يجعلنا على اتصال بأفضل عائلات المدينة وأكثرها تقدما ، زد على ذلك أن مهنتي الطبية لم تحظ ، في أي مكان آخر ، بمثل ما حظيت به من انتشار ، وممارسة ، أو نجاح في منطقة الهفوف ، وكانت تنهال علينا كل يوم دعوات لتناول الغداء أو العشاء ، وجلسنا على موائد كانت تحفل بالأسماك – ولم نعد نتناول الجمبري المملح ، التي كانت توحي لنا أننا أصبحنا على مقربة من الساحل ؛ وقد أوحت لنا الشعيرية ، هي وأنواع الحلويات والمعجنات الأخرى ، بتأثير الفن الفارسي على المطبخ في الهفوف. زد على ذلك ، أن التدخين كان شائعا داخل المنازل ؛ ولكن النرجيلة كانت تحل هنا محل الغلايين العربية القصيرة ؛ كما يشيع أيضا استعمال الطيب هنا على نحو لا يقل عن استعماله في نجد . ويجب أن أنوه هنا إلى أن الأثاث المنزلي أكثر تنوعاً ورقيا من ذلك الأثاث الذي يزين منازل سدير والعارض ؛ إذ توجد هنا المقاعد المستديرة ، وموائد الطعام المنخفضة ، صوانات الأكواب ، والأرفف ، وبدائل الأسِرَّة ، التي تشبه إلى حد كبير تجهيزات منزل هندي في بارودا أو في جامباي Gambay . ويشيع في الأحساء أيضا حفر الأخشاب ؛ الذي يشيع

استعماله فى أبواب المنازل وإطارات النوافذ ؛ أخيرا ، فإن الأشكال الزينية التى ترسم على الجدران ، والتى لاترقى إلى مستوى الصور الجدارية الجصية ، عند كل من جيوتو Giotto أو جيرلانداجو Ghirlandajo ، تضفى على الغرف مزيدا من البهجة ، وأنا استميح القارئ أن يأذن لى باستعمال التعبير ، الذى يقول إن هذه الصور تضفى على الغرف مسحة مسيحية أكثر من تلك الطبقة الجصية التى تجمع بين اللونين البنى الكالح والأبيض ، والتى تزين بها جدارن الغرف فى كل من العارض والقصيم . وقبل كل شئ ، وبغض النظر عن التذوق الفنى بشكل أو بآخر ، ما هى منازل الرجال ، الذين يندرج السواد الأعظم منهم تحت مسمى الوحوش أو البهيميين ؟ ولكنى لن أثقل على القارئ بالمزيد من التأمل والتفكير ، خشية أن أستوقفه فى قراءة هذه الرحلة فترة أطول من تلك التى أمضيناها فى القيام بها .

وعلى كل حال ؟ فإن ما يميز منازل الأحساء بصورة قاطعة عن منازل وسط الجزيرة العربية هو استخدام العقود، التى لا يمكن أن يتحقق البناء أو الإنشاء بدونها. والعقد الحساوى سواء أكان كبيرا أم صغيرا ، مقتصرا على نافذة ، أو يشمل المسكن بأكمله ، لا يمكن أن يكون قوسا من دائرة واحدة بأى حال من الأحوال ، وإنما هو قوس من دائرتين ؛ وهذا العقد وَسَطٌ بين العقد التيودورى القوطى Tudar Gothic والعقد البلانتاجينى[1] . وأنا لم أشاهد هنا منحنى حدوة الحصان الذى يطلقون عليه اسم العمارة المغربية Moresco ؛ والعقد الحساوى عبارة عن عقد بسيط وعريض ولكنه مدبب ، داخله عبارة عن مثلث متساوى الأضلاع ، وأحيانا مثلث منفرج الزاوية ، ولكن يستحيل أن يكون مثلثا حاد الزوايا . ويصاحب استعمال هذا العقد مزايا أخرى كثيرة؛ أولها أن المنزل بكامله يصبح أكثر انتظاما ، وتصبح غرفه أكثر اتساعا ، ويصبح ترتيبه العام أكثر تناسقا ، ويتدفق عليه الضوء والهواء بكميات كبيرة وبطريقة سهلة ؛ فى حين يتسم السقف بشىء من الخفة والزنبركية التى تسر أعين رجل وصل لتوه من الرياض ، بدلا من أن يكون مجرد كتلة ثقيلة من الخشب محملة من منتصفها على أعمدة تشوه المنظر .

تحت أسقف هذه المنازل ، وبالقرب من النار المشبوبة ، وأثناء دوران فناجيل القهوة ، وإلقاء الشعر ، وسرد الحكايات عن هذه البلاد ، والذى كانت تتخلله النكات

(١) نسبة إلى الأسرة المالكة التى حكمت إنجلترا من عام ١١٥٤ – ١٤٥٨ – (المترجم) .

التى كانت تضحكنا من الأعماق من حين لآخر، كانت تمضى بنا ساعات الليل سراعا ، وتتهيأ لنا فرصة الوقوف على ذلك الذى نسميه ، فى بعض الأحيان " الوجه الآخر من الميدالية، وذلك أيضا الذى أتفق مع العرب فيه، ويطلقون عليه "ما تحت البساط ". هنا ، فى الهفوف ، يكيل الناس لفيصل عشر لعنات مقابل كل ثناء واحد عليه ؛ وفى مقابل كل تمن طيب " للمسلمين " هناك ، تجد فى مقابله هنا لعنات مريرة . وقد سمعت فى الهفوف ، ولأول مرة فى الجزيرة العربية ، وليست آخر مرة ، مجملا للشعور المعادى لـ- محمد (ﷺ) فى عبارات من قبيل :" بغضنا الله والإسلام "، والتى معناها الحرفى " كرهنا الله والإسلام "، وهو ما يقابل فى الانجليزيه العبارة التى تقول " يسقط "Downwith أو العبارة التى تقول :" الموت : لـ ..." Death to ؛ وكانوا يشفعون هذه العبارة بقولهم : " تفُو على المسلمين" (الذى يعنى بانجليزيه بسيطة " ابصقوا على المسلمين ") ، كانوا يطلقون هذه العبارات ، وهم يعضون أسنانهم ، ومصحوبة بإشارات لا يقل معناها عن معانى هذه العبارات . كانت كلمة " لا اله إلا الله " لا وجود لها هنا تماما ، كما أن كلمة "الإسلام " كانت مرادفا للعيب والعار ، بل إنها كانت تثير الرعب والفزع Horresco referns ، وغالبا ما كان الناس يشفعونها هنا بذلك الخبر البذىء " الكلاب"[١]. وكان الناس هنا يكيلون الثناء والمديح للنظام الجيد والرفاه السائد فى كل من بومباى وكراتشى ، هاتان المدينتان اللتان زارهما كثير من أهل الاحساء ؛ وكانوا يشفعون هذا الثناء بمقارنات أبعد من أن تكون فى صالح الحكم الوهابى أو الحكم التركى . زد على ذلك ، أن الزيارات التى كان أهل هذه المنطقة يقومون بها إلى كل من البصرة وبغداد قد مكنت الكثيرين منهم من التعرف على الإدارة العثمانية ، وأن يقيموها تقييما صحيحا .

وفى أحيان كثيرة ، كانت تنعقد تحت جنح الليل ، فى بعض المنازل البعيدة عن الطريق العام ، أو من حول مدفأة أبى عيسى اجتماعات كثيرة كان يحضرها قدامى

(١) لقد خلط المؤلف بين علاقة الناس بالإسلام وعلاقتهم بالقادة والحكام فى الرياض . نعم قد يتذمر الناس من حكامهم ، لكن هل ذلك مرده إلى الدين ؟ إن الإسلام ينبذ الظلم ، وينبذ التكبّر والقهر على الناس والإسلام جاء ليخلص الناس من كل أنواع الشرك والقهر ويقر بالحرية والعدل والمساواة ، وإذا كان المؤلف قد سمع فى حينه وفى أحد المجالس هذا السب واللعن للإسلام فالحال بين أمرين إما أنه خلط بين تذمر الناس من حكام الرياض وإما أن هؤلاء فسقة وفجرة وأهل نفاق وشرك لا يريدون الانصياع لهذا الدين وتعاليمه لأنه يكبح جماح شهواتهم وينقى المجتمع من رذائلهم وهم أصحاب فطر فاسدة يكرهون الحق والخير – (د. حلمى عبد المنعم)

الرؤساء هم وأتباعهم . وقد حضرت اثنين من هذه الاجتماعات بوصفي ضيفا عابرا ، ومن هذه الاجتماعات استطعت أن أقف على مدى تشعب التآمر على الوهابية ، أو إن شئت فقل التحالف ضد الوهابية . والقوة الرئيسية في هذا التآمر ، تتمثل في كل من الأحساء وعمان ؛ زد على ذلك ، أن طلال بن الرشيد ، وكل المتعاطفين معه في كل أنحاء جبل شومر على استعداد لتقديم العون من الناحية الشمالية ، وهناك أيضا أنصار عديدون أيضا لذلك التآمر في كل من الحريق وسدير ؛ وثلاثة أرباع سكان القصيم يرحبون بهذا المشروع . والبدو يشاركون أيضا في هذه الحركة وبلا استثناء .

ومن السهل على الشعراء الذين أمكنهم ، عن طريق الدراسة والملاحظة ، الوقوف على مدى وعمق الشعور القبلي والوراثي بين أفراد العرق العربي أن يفهموا ، في سهولة ويسر ، الأسباب التي تجعل هذه الحكومة - التي جردت أكبر أعيان الجزيرة العربية من ممتلكاتهم ، وطردتهم أو قتلتهم في كل مكان - وهذا مجرد سبب واحد ، ناهيك عن الأسباب الأخرى التي سيكشف عنها هذا الكتاب - محطا لحقد وكراهية لا نظير لهما ، وهدفا لانتقام أولئك الذين يطغى ويتجبّر عليهم : والعربي لا يعفو حتى إلى الجيل العشرين أو ما بعد ذلك ، عن تلك المظالم التي حاقت بأسلافه . زد على ذلك ، الكراهية القومية والتراثية Hereditary ، تلك الخاصة Crasis من خصائص الدم إن جاز لي أن أستعمل هذا التعبير- وهذه مسألة فسيولوجية بحق وليست لمجرد التوكيد ؛ يضاف إلى ذلك ، الضغط الناشئ عن الإخضاع الفعلي والحكم السيئ الواضح في معظم الأحيان ؛ وأخيرا يجيء العداء الفطري العربي لكل ما هو متشدد ، وكل ما يُعبِّر عنه بالصيغ والتراكيب الحرفية، والقارئ ربما يندهش ، لا من مدى رد الفعل الوهابي ، وإنما لأن رد الفعل هذا لا يكون على نطاق واسع ؛ ولا من حدة هذا الرد ، وإنما لأنه لا يمكن أن تمر عليه ساعة واحدة حتى يبدأ عمله من جديد . والبدو شأنهم شأن الحضر ، فيهم أيضا الكثير من الدم الذي يحضهم على الانتقام من ناحية والتأكيد على حقوقهم الكبيرة من الناحية الأخرى ؛ وإذا كان حب الحرية هو الذي يبث الحياة في سكان الاحساء والقصيم الأكثر ذكاء ، فإن حرية العمل والتصرف تتقد داخل كل من العجمان وبنو خالد . ومن ثم إذا ما حدث شئ من التمرد أو العصيان فإن العجمان وبنو خالد سيكونون سببه الرئيسي . وبرغم أن التمرد أمر مؤكد ، إلا أنه ليس أنحاء قيمه ، وذلك للأسباب التي سبق ذكرها ، وبخاصة تلك الأسباب التي أوردتها في الفصل الخامس . والإكراه والتهديد والوعيد هم الذين يحققون مثل هذا

التمرد ، ويكفي أن يقوم البدو بذلك ؛ فأنا لم أسمع قط مثل ذلك السب واللعن الذي كالوه لكل من فيصل وحكومته .

وإن جاز لي أن أعكس العبارة التي استعملها الكلبي فأنا أقول : إن الرجال جاهزون ولكن الساعة لم تحن بعد . وبرغم كل أسباب هذا الاستياء وعناصره فإن الخوف الحقيقي من القوة المتمركزة في نجد ، وبخاصة عندما تكون بين يدي عبد الله بن سعود المخيف ، الذي يجري الهجوم عليه مرارا ، والذي يداوم الهجوم بصورة مستمرة ، والذي ينتصر دوما ، سواء أكان قاتلا أم مقتولا ، هذا الخوف الحقيقي هو الذي يقيد ذلك التمرد المنتظر ويكبح جماحه ، ولا تزال الجماعة الرجعية تنتظر في صمت اللحظة التي يدب خلالها الوهن في الداخل أو عندما يجيئ عدو قوي من الخارج ، ويستحوذ علي انتباه الطاغية الحاسد ، وبالتالي يخفف من وطأة سلاحه . ولقد سبق أن قلت ، وأنا أقولها هنا مرة ثانية ، إن العرب ، أولا وقبل كل شئ ، عرق حصيف وحكيم، وتنفيذ عمل من هذا القبيل لا يحتاج إلي كثير من هذه الحصافة وتلك الحكمة . زد علي ذلك ، أن جواسيس فيصل ، الذين ينتشرون في كل أنحاء الجزيرة العربية من الجوف إلي مسقط ، لا يسهون عن مراقبة أية حركة وأي عرض والتبليغ عنه . وبالتالي ليس أمام أحباء الحرية من شئ سوي الأمل ، والكراهية والخضوع .

كان قد مضي علينا في مدينة الهفوف ، أسبوع ، عندما دخل علينا أبو عيسي من الباب الجانبي ، حيث كنت أجلس مع بركات ، نتمتع بلحظة من لحظات الهدوء ، ونحن ندوِّن بعضا من الشعر "النبطي" ، ثم قفل أبو عيسي الباب خلفه . وأبلغنا أبو عيسي ، ونبرات صوته وقسمات وجهه ، تعبر عن قلق بالغ ، أن اثنين من الأتباع النجديين في حي الكوت ، قد دخلا القهوة ، منذرين بأنهما جاءا لتوقيع الكشف الطبي عليهما ، ولكنه قال ، إنهما جاءا أصلا بهدف التحقق من شخصية الغرباء . وهنا ارتدينا مشالحنا – إجراء مبدئي من إجراءات اللياقة يشبه غسيل الوجه والأيدي في أوربا – ومثلنا أمام الباحثين عنا ونحن تبدو علينا البراءة والجدية العلمية . ودار بيننا وبينهم حديث ؛ وتناول حديثنا الذي تكلمنا خلاله ، من واقع علمنا عن البشرة الصفراوية والبشرة الحمراء القانية ، وتكلمنا أيضا عن عروق الرأس ، وعن العقاقير الهندية ، وكنا نستشهد بالقرآن ، ونطلق العبارات التي تنم عن الولاء لـ – فيصل ، إلي حد أن أبا عيسي نفسه كاد يطير فرحا ؛ وبعد أن تلقي الجاسوسان شيئا من الوصفات الطبية

المكونة من أقراص الخبز والماء المعطر ، غادرا وهما لا يقلان عقلا عما كانا عليه . وراح أصدقاؤنا ، وهم كثيرون الآن ، يتفكرون فيمن نكون ، وذلك من منطلق مظهرنا ، من ناحية ومن منطلق شخصية مضيفنا المعروفة ، من الناحية الأخرى (والذى ينطلق عليه مقولة هوميروس الشهيرة : "إن الرَّب دائماً يوجِّه المثيل إلى المثيل(*)" وراحوا يفعلون كل ما فى وسعهم كى يذروا التراب فى أعين الوهابيين ، وسارت الأمور سيرا طبيعيا هينا . ومن نعم الطب ! أنه لا توجد مهنة أخرى غيرها تشيع الثقة والصداقة فى كل مكان .

وثمة عادة غير معروفة فى شومر أو نجد ، ولكنها تشيع فى أجزاء أخرى كثيرة من الشرق ، هى تحديد أيام بعينها من أيام الأسبوع لإقامة أسواق شعبية فى هذا المكان أو ذاك ، والتى تقصدها السكان أو بالأحرى القرويون ، من جميع المناطق المجاورة لكى يبيعوا ويشتروا ، كما تقام فيها المزادات العامة ، والألعاب الرياضية ، وإلقاء الشعر ، والسباق ، وما إلى ذلك من طيش البشر . وهذا عمل جيد بشكل عام ، وهذا ليس بالشىء الغريب على أوربا . وهذه الأسواق ، كانت تقام فى الجزيرة العربية منذ زمن بعيد جدا ، وكانت تستمر أسبوعين ؛ ويشهد على ذلك سوق عكاظ ، الذى يقال عنه إنه شهد إلقاء المعلقات السبع أول مرة ؛ وكان هناك أيضا سوق صنعاء فى اليمن ، وأسواق أخرى ورد ذكرها عند المؤرخين القدماء .

هذا الاقتناء نفسه موجود منذ الأزل فى منطقة الاحساء ؛ إذ نجد أن سوق الهفوف الأسبوعى يقام يوم الثلاثاء ، من كل أسبوع ، أما سوق المبرز تلك القرية الكبيرة التى تقع إلى الشمال من الهفوف ، فيقام يوم الاثنين . وقد حرص أبو عيسى الذى كان يود أن يعطينا فكرة جيدة عن بلده الثانى Adopted ، ومن ثم راح يتحين الفرص كى يطلعنا على الجزء الأكبر منه وأحسن ما فيه على أن يجلعنا نتعرف كل أنحاء السوق . وقد ذهبنا إلى ذلك السوق ، وأمضينا فيه عدة ساعات بين الكيائن التى كان الناس يقيمونها فى مثل هذه المناسبات ، وكنا نتناقش مع الحضر ومع القرويين ، وسط مشاهد حية تضارع مشهد إبسوم فى اليوم الذى يقام فيه سوق ديربى Derby ، أو مشهد فرانكفورت أثناء انعقاد " المسوش " Messwoche . كان مكان السوق على

(*) ترجم هذه المقولة الشهيرة من مقولات هوميروس الأستاذ ديمترى من سفارة اليونان بالقاهرة – (المترجم) .

الأرض الواسعة الموجودة خلف البوابة الشمالية ؛ وإلى الخلف مباشرة من أسوار الكوت . كان الباعة معظمهم ، إن لم يكن كلهم ، من القرويين ، الذين أحضروا معهم بضائع تغرى الناس بشرائها لرخص ثمنها بدلا من أناقتها : فها هى نعال ثقيلة ، وهذه مشالح مخاطة بطريقة بدائية ، وتلك بنادق عتيقة وخناجر عتيقة أيضا ، وهذه أوانى مستعملة مصنوعة من النحاس الأصفر، هذا إلى جانب الجمال والإبل، والذلول ، والحمير، وقليل من الخيول . وهاهم، أناس آخرون ، يمتهنون البيع عن طريق التجوال ، ولا يغيبون مطلقا عن التجمعات التى من هذا القبيل ، وهذه أساور مصنوعة من الزجاج معروضة فى الكبائن ، وتلك خلاخيل للأذرع ، وهذه خلاخيل للأرجل ، وهذه أختام من النحاس ، وتلك عقود من الخرز مخصصة لأعناق البنات (ويؤسفنى أن أقرن الاسم التالى بأسماء البنات) والحمير ، ونرى بين الحين والآخر بعض كؤوس الشراب الأوربية ، جرى استيرادها عن طريق الكويت أو البصرة ، وتلك مرايا ، ربما وفرت انعكاساتها المشتتة ، على النسوة الجميلات ، مشقة قلب شفاهن تعبيرا عن الاحتقار والازدراء . كانت هذه الكبائن مرتبة ترتيبا نمطيا على وجه التقريب ، وكانت منظمه على شكل شوارع وساحات ؛ ففى الساحات كانت توجد أكوام كبيرة من الخضراوات والتمور ، على شكل أكوام أمام الباعة والبائعات ، وهذه أكياس من الجريش وتلك أكياس من الدقيق ، وهذه أكوام من فحم الخشب ، وتلك أكوام من الحطب ، وهذه حزم من قصب السكر، من أجل الأسنان الجميلة فى الهفوف . ومن حول هذا المكان توجد ، الحمير المقيدة ، وهاهى الجمال سخيفة المنظر ترفع رؤوسها فى الهواء ، وهؤلاء ست من شباب المدينة يثيرون الغبار عن طريق الجرى بالخيول متذرعين بأنهم يجربونها استعدادا لشرائها . كانت الطرف والنكات تنبعث من هنا ومن هناك ، ونسيت الصرامة العربية نفسها وسط هذا الجمع المختلط فى العراء .

وعندما حل يوم الاثنين ذهبنا إلى سوق المبرز ، على ظهور الحمير المزودة بسروج جانبية – وأنا أجد لزاما على هنا أن أعتذر للقارئ عن هذا الظرف ، تحسبا منى أن يعتبروا ذلك اعتداء صارخا على حقهم وامتيازاتهم ؛ ولكن يجب أن يكون معلوما أن السرج الجانبى هو الذى يستعمله راكبو الحمير فى كل أنحاء الأحساء ، سواء أكانوا رجالا أم نساء . وبعد أن ركبنا الحمير على هذا النحو ، اتجهنا صوب القرية ، التى يطلق عليها ما لا يقل عن عشرين ألف من السكان اسم المدينـة . ولكن هذه القـرية بلا أسوار ، كما أن قلعة هذه القرية مبنية على ربوة عالية تقع على بعد مسافة قصيرة

ناحية الغرب . وقد أعجبت بموقع هذه القلعة ، والمجهزة على نحو يمكن من اكتشاف رصد العدو القادم من أى اتجاه من السهل المستوى الذى يحيط بها ، أو لقمع أهل القرية نفسها فى حالة الهياج ؛ ومزاغل القلعة فى متناول طلقات البنادق التى تنطلق من المنازل الموجودة أسفل القلعة . ومبنى القلعة مربع الشكل ، وهو يشبه كوت الهفوف من جميع الجوانب ، فيما عدا الحجم والمساحة ، التى لا تزيد على ربع أو خمس مساحة القلعة الموجودة في العاصمة .

كان السوق يقام بالقرب من تلك القلعة ؛ والتشابه الذى بين هذه القلعة وقلعة الهفوف يجعل وصفها أمرا لا لزوم له . والشيء المهم والرئيسي في مدينة المبرز هو ذلك المسجد الكبير الأنيق ، الذى أقامه مؤخرا (الملك) فيصل بسبب خوفه وقلقه على الرفاه الروحي لرعاياه . وقد أنشئ هذا المسجد على حساب الملك الخاص ؛ ولكن المساهمة غير العادية التي تم تحصيلها في العام التالي ربما تكون قد عوضت خزانة الرياض بأكثر من ذلك الإنفاق الديني . وشكل مدينة المبرز غير عادى ، فهى تحتوى على الكثير من المنازل الأنيقة ، التى تتخللها الأكواخ البائسة ؛ وسكان المبرز يختلفون إلى حد ما ، عن سكان الهفوف ، باستثناء أن فئة ملاك الأرض أكثر من أولئك الذين يمارسون التجارة . ومن بين أفراد المجموعة التى كانت معنا ، هناك شخص يدعى عبيد ، كان له قريب حضرى فى تلك المدينة ، حضر إلينا وانتهز هذه المناسبة ليدعونا إلى تناول الغداء على مائدته ، التى شاهدت عليها عسل النحل للمرة الأولى بعد غياب طويل . كان منزل مضيفنا من قبيل منازل أفراد الطبقة المتوسطة فى كل من حمص أو حماه ، وكانت غرف المنزل من النوع الصغير المفروش بالحصير ، أما نوافذه فقد كانت من النوع المنخفض ، وكان حوشه صغيرا ، كما كان به بئرا أيضا ، وكان مظهره يوحي بالعزلة والخصوصية ، برغم أنه كان فى منتصف الشارع ، مما يثير دهشة القراء الذين قدر لهم أن يدخلوا منزلا من منازل الأصدقاء (الوطنيين بطبيعة الحال) فى سوريا ، أو فى الموصل ، أو بغداد . والواقع أن منطقة الأحساء ، تقترب مما يمكن أن نسميه الحى المختلط ، برغم أن العنصر العربي هو الغالب فيها .

والمسافة التى تفصل الهفوف عن المبرز ، وتقدر بحوالي ثلاثة أميال ، عامرة بالبساتين ، والمزارع، وينابيع الماء الفاتر . وفي هذه المنطقة وعلى امتداد عدة فراسخ ، يزرع نخيل تمور " الخلاص " ، – تلك الكلمة التى تدل ترجمتها الانجليزية الدقيقة على

"الخلاصة " Quintessence – وهو نوعية تقتصر على الأحساء وحدها ؛ كما أنها فريدة في نوعها . وثمرة تمر الخلاص أصغر من ثمرة تمر القصيم ، ولونها كهرماني ثرى ، يميل إلى الاحمرار وشبه شفافة . ومن الصعب ، بل ومن السخف أيضا أن أحاول وصف مذاق تمور الخلاص عن طريق الكلمات ؛ وأنا أرجو القارئ الهندى أن يصدق أن مانجو " الماسيجوم " Massigaum ليست أرقى من المانجو "الجنجلى" Junglee ، على أن يصدق أن تمور الخلاص أرقى وأحلى من التمور الموجودة فى كل من الأسواق السورية والأسواق المصرية . وخلاصة القول : إن تمور الخلاص هى أفضل أنواع التمور . والنخلة التى تنتج هذا النوع من التمور يمكن التعرف عليها من جذعها ، الذى يعد أنحف من جذع النخلة العادية ، كما أن مجموعها الخضرى أقل من مجموع النخلة العادية أيضا، أنحاء إلى أن لحاءها أنعم من لحاء النخلة العادية. وهناك نوعية أخرى ، من التمور تقتصر على هذه المنطقة أيضا هى تمور الركاب ؛ وهذه النوعية تجيئ على رأس التمور كلها فى كل المناطق الأخرى . وطوال مقامى فى الجزيرة العربية أحصيت حوالى اثنى عشر نوعا من التمور ، التى يتميز بعضها عن البعض الآخر ؛ وأنا لا أشك فى أننى لو طال مقامى فى الجزيرة العربية لتعرفت على اثنى عشر نوعا آخر . وفيما يتعلق بتمر الخلاص بصفة خاصة ، فإن زراعته تعد من أهم الأعمال الزراعية التى يمارسها سكان الأحساء ؛ ومحصول نخيل الخلاص يعد مصدرا من مصادر الثروة ؛ زد على ذلك ، أن تصدير تمور الخلاص ، الذى يمتد من الموصل فى الشمال الغربى ، إلى بومباى فى الجنوب الشرقى، بل، حسب اعتقادى ، إلى ساحل زنزبار فى أفريقيا ، يشكل فرعا أساسيا من فروع التجارة المحلية .

هيا بنا مره أخرى إلى طريقنا : فهو عبارة عن طريق مرتفع يقع بين منطقتين من مناطق الرى العميق على الجانبين ، وتتخلله من حين لآخر برك أو مستنقعات صغيرة . وإذا كان أحد من القــراء قد تجول فى المنطقــة المجاورة لكل من فيلور ، وتانجور ، أو نيجابتام ، فلربما ذلك بالطرق السريعة هناك ، وبالتالى يكوِّن فكرة معقولة عن طرق الأحساء . والعجيب أن نرى ، وسط كل هذه الخصوبة والنماء ، وعلى مقربة من المبرز ، بحيرة صغيرة ، ماؤها منقوع ، أو إن شئت فقل مشبع بالملح ، لدرجة أن الملح يغطى حواف هذه البركة، أنحاء إلى أن الأرض المجاورة لهذه البركة تكاد تكون جرداء تماما . وتتناثر هنا وهناك بصورة متكررة ملاحات أخرى ؛ والغريب فى الأمر ، أن التربة التى تتخلل المسافات التى بين هذه الملاّحات من النـــوع الخصب وخالية من الأمـــلاح .

وعلى مسافة حوالى مائة ياردة ، إلى الخلف من المبرز ، فى الناحية الشمالية ، توجد عين جميلة ، تشكل بحيرة صغيرة عميقة ، أضفت عليها سخونتها اسم " السخنة " وماء هذه العين ليس له مذاق المياه المعدنية ، ولكن درجة حرارة هذه البحيرة الصغيرة لا تقل عن ٩٥ْ إلى ٩٠ْ درجة فهرنهيتيه . ويجيئ أهل المبرز إلى هذه البحيرة طلبا للاستحمام ؛ ولقد حذونا حذوهم ، وبعد أن أخذنا حماما جيدا عدنا لتناول الغداء فى منزل قريب عبيد ، عمه على ما أعتقد . وكان المنزل مفروشا بالسجاد .

وفى يوم آخر اقترح أبو عيسى علينا أن نقوم برحلة إلى أم سبع . قد يتخيل القارئ أننا سنقوم بزيارة لعقيلة محترمة لها أسرة كبيرة ؛ ولكن فى الأحساء أيضا ، وبرغم أن القيود المفروضة هنا على الجنس اللطيف ، أخف من تلك التى فى نجد ، فإن القيام بزيارة أية امرأة زيارة خاصة يعد أمرا غريبا . والواقع أن اسم أم سبع عبارة عن عين ساخنة كبيرة، تنبثق من أعماق الحوض الطبيعى ، وتتفرع منها سبعة ينابيع ، هن بنات هذه الأم المثمرة ؛ وهذه الينابيع تنساب فى اتجاهات مختلفة وتنشر الخصب والنماء على نطاق واسع . وأم سبع تبعد حوالى ثمانية أميال عن مدينة الهفوف ، ناحية الشمال . وعندما حان الموعد تجمعنا ، حوالى اثنى عشر رجلا ؛ وكان رفاقنا من بين كبار الشخصيات ، وميالين إلى البهجة والسرور . كانت القائمة التى تضمنا على النحو التالى : بركات وأنا ومعنا خمسة رجال أجواد (وهم يستحقون هذه الصفة) من الهفوف ، ورجلين خلاسيين أو مولدين ، وعبد ، وصبيين . وبقى أبو عيسى فى الهفوف ليتولى أمورنا المنزلية ؛ كما قامت زوجته بتزويدنا بالدجاج المسلوق ، والفطائر، والمولاس، والقهوة وأشياء أخرى جيدة . وركبنا الحمير ، وسرنا فى طريقنا ، وحرصنا على أن لا نمر من وسط البلدة حتى لا يرانا أحد من المراقبين النجديين . وبدلا من السير فى الشوارع ، اتجهنا إلى خارج أسوار المدينة ، وسط الحقول وخزانات المياه ، وكدنا نخاطر بالوقوع من الطريق المرتفع على ظهر واحدة من الجاموس الذى كان يتمرغ فى الوحل ، ويسابق الحيوانات التى كنا نركبها ، ويثبت عن طريق التجربة الواقعية أن العرب ، فى حفلات المرح ، بوسعهم أن ينافسوا تلاميذ الغرب فيما يقومون به أثناء العطلات . وتجاوزنا المبرز ، بقلعتها وعينها ، فى جانب من الجوانب ، ثم قطعنا بعد ذلك مسافة تقدر بحوالى ثلاثة أو أربعة أميال على السهل الواسع ، الذى كانت أشجار النخيل تحيط به من الناحية اليمنى ، فى حين كانت سلسله جبال الأحساء الجرداء الرائعة على الجانب الأيسر ، وكنا نشاهد ، بين الحين

والآخر ، على الطريق ، أبراجا للمراقبة ، وقلاعا مهجورة ، يفعل الزمان فعله فيها . ثم يبدأ الطريق يضيق بعد ذلك ، ويمر بنا بين قريتين متوسطتين ، ثم يمتد بعد ذلك إلى الأمام ، وسط المزارع وخزانات المياه ، إلى أن تصل في النهاية ، عن طريق اندفاع المياه ، إلى مجرى مائي تكسو الحشائش ضفتيه ، أوصلنا هو بدوره أيضا إلى أم سبع .

هذه النافورة ترتفع على شكل تجويف دائرى قطره حوالى خمسين قدما ، وعميقة جدا ، وتنبثق من مركزها مياه حارة ، لا يجرؤ أحد على الغطس المفاجئ فيه دون أن يؤذى قدميه وذراعيه بسبب سخونة المياه . وحوض هذه النافورة مملوء حتى حوافه ، كما تنبثق من الفتحات السبع في الحافة الصخرية سبعة ينابيع هى التى أعطت هذه النافورة ذلك الاسم ، وهذه الينابيع واسعة وعميقة وتكفى لإدارة الطواحين المائية لو قدر لها أن توضع في مجراها . وبعض القنوات هنا طبيعية ، ولكن من الواضح أن إجمالي القنوات السبع هو من صنع السحر Art[1] ؛ وأنا لا يمكن أن أقطع إن كان ذلك ، بفعل النجوم أم لا ؛ غير أن شيئا مشابها سوف تراه فيما بعد في أحواض الساحل الفارسي ، وله ، بما لا يدع مجالا للشك ، أصل ديني أو خرافي ، يجعلنا نميل إلى حد ما ، إلى تطبيق الاقتناء نفسه على أم سبع . ومن الواضح أن الأعمال الحجرية التى تحيط بالبحيرة قديمة تماما ، ولكن هذه الأعمال لا تحمل نقوشا تاريخية ، وقد لاحظت أن هذا الشيء يكاد يكون عاما فى وسط الجزيرة العربية وشرقها . ومن حول هذه العين تنمو أشجار النخيل ، وتنتشر ظلال أشجار النبق على شواطئ هذه العين المعشوشبة ؛ والكتل النباتية الكبيرة هنا ، تحول دون رؤية المنظر البعيد ، كما تحجب الرؤية أيضا عن قرية الزَّخَّة الصغيرة ، التى تبعد مسافة ربع ميل تقريبا ناحية الشرق . والماء ينساب من أم سبع صيفا وشتاء على حد سواء ، والسمك والضفادع ، والأحياء المائية الأخرى لا يمكن أن تعيش داخل هذا الحوض الحار ، ولكن هذه الكائنات تتزايد كلما بعدنا عن العين الأم .

(١) ليس شيء من صنع السحر أو النجوم وإنما هى قدرة الخالق الذى جعل الماء يتفجر بين الصخور كما قال تعالى "وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء" وقد حذر الإسلام من السحر وحرّم نسبة الأحداث إلى النجوم وجعل ذلك كفراً صريحاً فقال (ﷺ) "من قال مطرنا نبوء كذا فقد كفر بما أنزل على محمد" - (د. حلمي عبد المنعم) .

الشمس الآن ساطعة في منتصف مسارها ؛ وكان النسيم عليلا ؛ وشاهدنا النافورة الأم بكل خصائصها ، وتحممنا فيها ، وسبحنا فيها ، وتصارعنا ، وشربنا القهوة ، وتحادثنا ، وتناولنا الغداء ، ودخّنا ، ثم نمنا ، ثم تحممنا مرة ثانية . ومر كل شئ مرورا سلسا وجميلا ، إلى أن اكتشفنا أننا ، بحكم النسيان الذى يحدث أثناء القيام بالرحلات ، لم نحضر معنا فناجيل القهوة ، ولم نلاحظ هذا الشئ إلا عندما جهزنا القهوة وكنا قد أوشكنا على أن نشربها ، ولم يكن أمامنا بد سوى أن نشرب القهوة من دلة القهوة التى يغطيها الهباب الأسود . ومن حسن حظ أحد أفراد هذه الجماعة ، ولأنه كان أذكى من الجميع ، فقد خطر بباله أن يختبر كرم بيوت الزخة ، وركب الحمار وخاطر بالاتجاه صوب القرية ، التى عاد منها ومعه حمل حمار من فناجيل القهوة . قد يظن البعض أن هذه أمور تافهة : وأنا أروى ذلك هنا من قبيل الموازنة بين الأوصاف الكثيرة المطوّلة والمبالغ فيها، والتى تنطوى على كثير من الحشو، وتعج بها حياة الشرق بصفة عامة ، والحياة العربية بصفة خاصة . وهنا يدخل وقت العصر ؛ وطبقا للعرف العام كان لابد من إقامة صلاة العصر ، التى ركبنا بعدها حميرنا وعدونا عائدين إلى منازلنا ؛ وقد انقلب البعض منا على الطريق ، ووقف بعض آخر لمساعدتهم ؛ وفى النهاية وصلنا بسلام إلى الهفوف ، متأخرين ومتعبين ، ولكن روحنا المعنوية كانت مرتفعة ، كما سعدنا أيضا بالقيام بهذه الرحلة .

وصفت بالتفصيل اثنين من عيون الأحساء الحارة ؛ وهناك ثلاثمائة عين أخرى من هذا القبيل ، فى المنطقة ، وذلك نقلا عن رواية أبى عيسى . وأنا لا أضمن دقة هذه المقولة العددية ؛ ولكنى على يقين من وجود الكثير من هذه العيون ، وخاصة أننى شاهدت منها قرابة اثنى عشرة عينا خلال مسافة قصيرة ؛ منها عين على وجه الخصوص ، تقع على مسافة ثلاثة أميال شرقى الهفوف ؛ ينبثق منها ماء أكثر من ذلك الذى ينبعث من أم سبع نفسها برغم أن درجة حرارة هذا الماء يمكن تحملها . ودرجه حرارة الماء الذى ينبعث من هذه العيون تتباين من عين لأخرى، ولكنها لا تتوقف مطلقا، وهذا يرجع لأسباب تتعلق بجوف الأرض ؛ ولكن الماء فى الأراضى الداخلية لا بد من الحصول عليه من الأراضى المرتفعة ، ومن الطويق على وجه الخصوص . والبحيرات والسيول التى تتكون خلال فصل الشتاء على هضاب جبل طويق ، أو التى تفيض وتملأ وديان هذا الجبل ، سرعان ما تنتشر بها التربة المرلية والرملية ، وتبدو للناس وكأنها ضاعت إلى الأبد ومعها النماء والحياة . ولكن الأمر غير ذلك ؛ لقد غاصت هذه المياه فى الداخل لتظهر على السطح من جديد ، لتغوص على الساحل ذلك الذى لم تفعله فى الداخل . إن قلة قليلة من الرحالة الذين تنقلوا داخل سوريا ، وبخاصة فى اتجاه

الشرق والجنوب اللذين سبق أن قلت عنهما فى مناسبة سابقة ، إن خصائص تربة الجزيرة العربية تكشف عن نفسها فيهما لابد وأن تكون سرعة السيول ، والمجارى المائية بل والأنهار قد استرعت انتباههما وهى تختفى تحت سطح الأرض فى التربة المتشققة فى الأرض الجرداء . ولكن قد يتبادر إلى الذهن ذلك السؤال الذى يقول : ولماذا لا تتفجر مياه الطويق مرة ثانية بالقرب من سطح الجبل ، بدلا من أن تقطع مسارًا مقداره ستون أو ثمانون ميلا لتظهر من جديد فى الأحساء ؟ وأنا أستطيع أن أجيب على هذا السؤال من باب التحزير الذى له أسسه وقواعده . فالرطوبة التى تنفذ خلال طبقات جبل الطويق الجيرية ، تواصل ضغطها على هذه المياه إلى أن تصل ، على حسب علمى ، إلى عمق كبير ، أثناء انحنائها ناحية الشرق ، إلى أن تصل هذه المياه إلى التركيب الساحلى حيث توجد طبقة من صخور الجرانيت التى لا تسمح بنفاذ الماء ، وهذه الطبقة نفسها ساخنة بفعل ما هو موجود أسفلها . وعند هذه الطبقة ، لا يستطيع الماء أن يصل إلى عمق أكثر مما هو عليه ، فيضطر إلى الصعود مرة ثانية ، بفعل قانون مستوى السائل ، ليتخلل الصخر المكسر الموجود أعلاه ، ويصل إلى سطح الأرض مرة ثانية حاملا معه حرارته إشارة ودليلا على رحلته الطويلة. ومما لاشك فيه ، أن القارئ يعلم ، أن الجرانيت والبازلت تشيع فى التكوينات الساحلية فى الجزيرة العربية ، فى حين أن الحجر الجيرى والطباشير ، وما إلى ذلك من المواد الأخرى هى التى تسود فى وسط الجزيرة العربية .

وقبل أن نغادر الأحساء ، أود أن أضيف بعض الملاحظات كى أكمل بها الصورة التى رسمتها لهذه المنطقة هى وسكانها ؛ ونظرا لأن الفرصة لم تتهيأ لى ، من قبل ، كى أضيف هذه الملاحظات ، فسوف أوردها هنا ، فى هذه المرحلة من الرحلة .

قد يفرح القارئ الكريم عندما يعلم أن الحجاب والقيود الأخرى المفروضة على الجنس اللطيف من قبل التشدد الإسلامى ، ناهيك عن سوئها[1] ، هى أقل شيوعا ومن

(١) كدأب المؤلف دائماً حينما يجئ شئ من تعاليم الإسلام يكثر همزه ولمزه ، وهو هنا يلمز الحجاب للمرأة المسلمة ، ويصفه بالسوء ، وهذا لعمرى مغالطة كبيرة . لأن الحجاب صيانة وتكريم للمرأة ، وقد قال الله تعالى لنساء المؤمنات عامة "ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها" وفسر كثير من العلماء أن الاستثناء هو الوجه والكفان ، وقال تعالى "يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين" وكان تكشف المرأة يسقط من كرامتها ويجعلها عرضة للأذى ، وهذا ما يصدقه الواقع فى الغرب حينما تكشفت المرأة وتعرّت أصبحت سلعة رخيصة ، وفقدت كرامتها وعزتها ، وأصبحت المرأة فى الدرجة الأولى شهوة تقتنص وفريسة لكل صائد وداعر . والحمد لله على نعمة الإسلام وصيانته للمرأة - (د. حلمى عبد المنعم) .

السهل التخلص منها في الأحساء ؛ في حين أن سيدات هذه المنطقة تتمتعن بنصيب وافر من الهبات الطبيعية التي لا يمكن أن تمنحها المركبات أو مستحضرات التجميل لأية واحدة منهن ، وأنا أعني بذلك جمال الوجه ورشاقة الشكل . وإذا جاز لي أن أخاطر بعملية إنشاء مقياس متدرج للجمال في الجزيرة العربية ، وأنا أقول مرة ثانية ، في الجزيرة العربية وحدها ، فإنني أضع البدويات عند الرقم صفر على هذا المقياس ، أو عند النقطة أ على أكثر تقدير ؛ وفوق ذلك بدرجة واحدة أضع النساء النجديات ، وفوق نسوة نجد تجيئ نسوة جبل شومر ، وفوق نسوة شومر تجيئ نسوة الجوف ، ولكن المرتبة الخامسة أو السادسة تحتلها نساء الأحساء ؛ في حين تشغل النساء القطريات المرتبة السابعة ؛ وأخيرا ، وبعد أن ترتفع عشر درجات ، على أقل تقدير على هذا المقياس ، نجد المرتبة السابعة عشر أو الثامنة عشر يتربع عليها الجمال العماني الصارخ . وسوف نتعرف على قطر وعمان فيما بعد . والشعراء العرب يتحرقون شوقا إلى ساحرات الحجاز ؛ وأنا لم أر فيهن أي سحر على الإطلاق ، ولكني لم أتجول إلا على حدود منطقة الحجاز فقط ، وكل شئ يشهد على انعدام الجمال بين النساء في اليمن ؛ وأنا تراودني الشكوك حول ما إذا كانت النساء المولدات أو ذوات البشرة السمراء في حضر موت عندهن من الجمال ما يتباهين به . ولكن الرحال القادم من نجد يستطيع أن يقف على التحسن الواضح الجلي ، في هذا الموضوع ، في منطقة الأحساء ، وسوف ينشرح صدر مثل هذا الرحّال أكثر ، لأنه سوف يكتشف أن الكاليبسيات[1] هنا مختلفات ، وان حديثهن هنا مختلف أيضا عن تلكم اللاتي خلفهن وراءه في سدير وفي العارض .

وفي منطقة يغلب الطابع التجاري عليها أكثر من الطابع الزراعي ، ربما يتوقع القارئ مني أن أورد شيئا عن المحاريث والزحافات والفئوس والمدارس البدوية . ولكن من المعروف أن نيبور العظيم ، وصف في كتابه العظيم عن الجزيرة العربية ، الأدوات المعتادة التي يستعملها الناس في فلاحة الأرض هناك ، وبذلك لم يترك لي شيئا أضيفه عن هذا الموضوع . زد على ذلك ، أنني لست بحاجة إلى وصف الفلاحين ، إذ أنه هو نفس الفلاح الموجود في كل أنحاء العالم ؛ ولست بحاجة أيضا إلى وصف منازل الفلاحين التي هي عبارة عن أكواخ مصنوعة من الطين أو جريد النخيل ؛ وهذا النوع

(١) الكاليبسو : أغنية تغنى ، في ظرف خاص ، والكاتب يشير بهذه الكلمة هنا إلى السيدات - (المترجم) .

الأخير هو الأكثر شيوعا فى الأحساء . ولكنى يجب ألا أمر مر الكرام ، على الماشية المستعملة هنا وأعدادها الآخذة في التزايد ، والماشية ذات الحدبات ، والثيران البراهمانية التي يقدمها الهنود ؛ وهذه الماشية كلها تستعمل في جر المحاريث ، برغم أنها كلها قد تستبدل بالحمير فى بعض الأحيان ؛ ولكنها لا تستبدل بالخيول مطلقا . وفيما يتعلق بالخيول ، ينبغى على أن أورد هنا ، أن السلالة الموجودة في الأحساء ، هي من السلالة نفسها الموجودة في جبل شومر ، أو إن شئت فقل إنها سلالة مهجنة من الخيول النجدية . والإبل ، وبخاصة الذلول موجودة بكثرة في الأحساء وأسعارها رخيصة ؛ ولكن ذروة الذلول الممتاز تتمثل في إبل عمان وحدها .

لم أصادف ، طوال رحلتي ، إنتاجا حقيقيا للعملة المعدنية ، إلا في الأحساء والناس في الجوف وشومر يستعملون العملة التركية أو الأوربية ، وهي تكاد تكون متماثلة تماما مع العملة المدنية المستعملة في كل من سوريا ومصر ، والعراق ، والعملة المستعملة في الجوف لا تعدو أن تكون واحدة من هذه العملات . أما في نجد ، حيث توقف تداول العملات التركية ، وكذلك العملات الفرنسية والألمانية ، التي من قبيل الفرنك والفلورين ، فإن الريال الإسباني والجنيه الإنجليزى هما المفضلان ويحتفظان بقيمتهما النقدية . وأهل سدير ، والعارض ، واليمامة يستعملون على سبيل الفكه الصغيرة ، عملة يطلقون عيها اسم " الجديدة " ، ومما لا شك فيه أنهم يسمونها بهذا الاسم لأنها جديدة عليهم ، رغم أنها موجودة من زمن بعيد ؛ و" الجديدة " قطعة من الفضة المغشوشة ، يصل حجمها إلى حجم قطعة النقود المعدنية التى تساوى ستة بنسات ، وهي تحمل نقوشا خافتة مميزه يتعذر حل شفراتها ، برغم أن مثل هذه النقوش لا يتبقى منها أى شئ فى معظم الأحيان ، ويبدو أن هذه القطعة المعدنية مسكوكة فى مصر في تاريخ سابق لأسرة محمد على . وقيمة الجديدة تساوى "قرشين" سوريين ، ومن هنا فإنها تتراوح بين القطعة الانجليزية التى تساوى أربع بنسات وتلك التى تساوى أربع بنسات ونصف البنس . وأصغر العملات المعدنية في نجد يطلق عليها اسم " خورده " ، والخورده لها عدة أشكال وهى عبارة عن قطع من النحاس الأحمر غير منتظمة الشكل ، وهي تكون مربعة حينا ، ومستديرة حينا آخر ، ومثلثة الشكل حينا ثالثا ، وهى تكون كثيرة الأضلاع فى معظم الأحيان ؛ والخورده من إنتاج دار سك النقود في البصرة ، منذ حوالى مائتى أو ثلاثمائة عام مضت . والنقش الذى تحمله قطعة العملة المعدنية هذه ، مكتوب بالخط الكوفي ، ويدل على اسم الحاكم

المحلى ، وأحرف هذا الخط كثيرة الزوايا وغير مصقولة ، والجديدة تساوى ثلاثين "خورده" ، وبالتالى فإن قيمة الخورده الواحدة تتراوح بين ثلث وربع فارذنج[1] ولكن "الجديدة" والخورده قطعتان من قطع العملات المعدنية الأجنبية ؛ إذ لم يحدث أن كانت للحكومة الوهابية دار لسك النقود .

ولكننا وجدنا فى الأحساء عملات محلية أصيلة ، هى "الطويلة" أو أن شئت فقل القطعة المعدنية الطويلة ، واسمها مأخوذ من شكلها . وهذه القطعة عبارة عن ساق من النحاس الأحمر تشبه المسيمير المتين ، طولها حوالى بوصة ، ومفرجة عند أحد أطرافها ، وهذه الفرجة مفتوحة إلى حد ما ؛ كى تشبه حرف الواى Y المضغوط . وتوجد بعض النقوش الكوفية على وجه واحد من وجهها ، وهذه النقوش تدل على اسم الأمير القرموطى الذى أنتجت فى عهده تلك القطعة التى تنتمى إلى علم النُّميات[2] العربية ؛ ولا توجد أية نقوش أخرى ، غير هذا النقش ، على "الطويلة "، فضلا عن أنها لا تحمل تاريخا أو شعارا . والقرش Gorsh يساوى ثلاثة طويلات ، وبالتالى فإن كل مسمار من النحاس الأحمر قد يساوى ما يقرب من ثلاث فارذنجات . وهذه العملة موجودة فى الأحساء ، موطنها الأصلى ؛ ومن هنا جاء المثل العربى الذى يقول :" زى طويلة الحسا "، بمعنى " مِثْل طويلة الأحساء " ، والذى يضرب للشخص الذى يجعل لنفسه قيمة فى وطنه ". وقد صدرت قطعة الطويلة بشكليها الفضى والذهبى أيام عظمة القرامطة ؛ ولكن هاتين القطعتين بدأ صهرهما منذ زمن طويل . وإلى جانب الطويلة النحاسية ، التى تعد آخر معلم نقدى من معالم أيام الاستقلال ، يوجد أيضا "التُمان" الفارسى ، وهو يصنع من الذهب أو الفضة ، كما توجد أيضا الروبية الانجليزية – الهندية ، والآنه[3]، والبايس[4]، وكلها تقتصر على الأحساء فقط . والنقود التركية أو الفرنسية لا يجرى تدوالها فى الأحساء ، كما لا يجرى أيضا تداول الخورده أو الجديدة اللتان يجرى تداولهما فى نجد . والنقود تتوفر فى منطقة الأحساء بحكم طبيعة سكانها التجارية ، وبذلك تقل قيمتها الاسمية قياسا على المنطقة الداخلية . وهنا قد يستخلص القارئ أن المقايضة أمر شائع فى كل أنحاء الجزيرة العربية وبخاصة بين القرويين ،

(١) قطعة نقد بريطانية تساوى ربع بنس – (المترجم) .
(٢) علم النميات : علم جمع أو دراسة النقود المعدنية – (المترجم) .
(٣) وحدة النقد السابقة فى بورما والهند وباكستان وهى تساوى ١/١٢ من الروبية – (المترجم) .
(٤) البايس : عملة هندية سابقة تساوى ١/٤٦ من الروبية – (المترجم) .

بل وحتى بين فقراء الحضر ؛ وذلك على الرغم من أن ملاحي الأحساء قد يخفقون ، في كثير من الأحيان ، في حساب قيمة التمانات الفضية أو الطويلات المصنوعة من النحاس الأصفر. ومع ذلك، فإن الحساب باستعمال الوسائط الاصطناعية ، بين البدو ، بل وحتى بين القرويين في نجد ، يتفوق تفوقا كبيرا على القدرات البشرية المعتادة .

وخلال مقامنا في الهفوف لم يترك أبو عيسى فنا من فنون البلاغة أو الإقناع العربيين إلا ولجأ إليه كي يحثني على زيارة عُمان ، مؤكدا لي مرارا وتكرارا أن كل ما رأيناه ، حتى في منطقة الأحساء ، لا يعد شيئا إلى جانب ذلك الذي سنراه في ذلك البلد البعيد . وكان رفيقي ، الذي تعب من رحلتنا الطويلة ، وراح يفكر في المسافة الطويلة التي أصبحت تفصله عن وطنه في سوريا ، والتي لم تعد تتحمل أن يضيف إليها مزيدا من الفراسخ، كان رفيقي هذا، غير ميال للقيام بمهمة تكميلية لهذه الرحلة . والواقع أنني ، عندما آخذ بعين اعتباري مسألة الارتباط القوي الذي يشد سكان وسط سوريا ، وبخاصة المسيحيين منهم ، إلى أرضهم الأم ، وصعوبة إقناعهم بمغادرة ذلك الوطن ، حتى وإن كان ذلك ، على شكل رحلة خطيرة مثل التي نقوم بها حاليا ، عندما أضع كل ذلك في اعتباري أجد أن بركات قد وصل إلى مسافة لا يود أن يذهب إلى أبعد منها أو يزيد عليها . والإنجليز ، على العكس من السوريين ، رحالون بحكم سلالتهم وعاداتهم ؛ من هنا كنت قد عقدت العزم على زيارة عمان مهما كانت الأخطار المترتبة على ذلك ، وسواء صحبني بركات أم لم يصحبني في هذه الزيارة . وفي الوقت ذاته كنا قد رسمنا خطتنا للقيام بالمرحلة العاجلة التالية من المسار الذي نسير فيه . كنت قد قررت أنا ورفيقي أن نغادر الهفوف سويا ، تاركين أبا عيسى خلفنا مدة أسبوع أو أسبوعين في الأحساء ، على أن نتجه شمالا إلى القطيف التي نستقل منها سفينة إلى مدينة المنامة في البحرين . وكان مقررا لأبي عيسى أن يلحق بنا في هذه المدينة ، لا عن طريق القطيف ، وإنما عن طريق العجير ، ذلك الميناء القريب من الهفوف ؛ وبخاصة أن هذا الميناء البحري يبعد مسافة سير أربع وعشرين ساعة جنوب شرق ثم شرقا على شاطئ الخليج . وكان السبب الرئيسي وراء هذا الانفصال في التحركات ، من حيث التوقيت والتحركات ، هو تحاشي انكشاف أمر تنسيقنا بشكل صارخ في وقت كنا لا نزال فيه على أرض تحكمها حكومة وهابية ، ومليئة بالجواسيس الوهابيين والمخبرين الوهابيين ، وبخاصة بعد الشكوك التي بدأت تدور من حولنا في الرياض . وقررنا تأجيل الترتيبات الخارجية بزيارة عمان إلى أن نجتمع سويا في

المنامة . وكانت طبيعة أبي عيسى ، بصفته مرشداً للحجاج تسمح له بزيارة البحرين أو التردد عليها ، كي يقوم هناك بعمل الترتيبات اللازمة لنقل رفاقه في المستقبل . ومن البحرين كان ينتقل، عن طريق البحر ، إلى بوشهر ، الملتقى المعتاد للحجاج الإيرانيين ، والنقطة التي ينطلقون منها إلى مكة . والزمن الذي تستغرقه قافلة الحجاج لتصل من بوشهر إلى مكة ، عن طريق نجد ، يقدر بحوالي شهرين ، بما في ذلك عبور الخليج من الشاطئ الإيراني إلى شاطئ الجزيرة العربية ؛ وهذا يحتم تجميع الحجاج واستعدادهم في ابوشهر مع نهاية الأسبوع الأول من شهر شوال (الشهر التالي لرمضان مباشرة) على أكثر تقدير .

أعددت العدة ، أنا وبركات للرحيل ؛ واشترينا لذلك قليلا من الأشياء المحلية التي تثير الفضول، وحصلّنا على مستحقاتنا عن الخدمة الطبية التي أديناها لبعض الناس ، وقمنا بالزيارات المعتادة التي تجرى قبل الرحيل ، بل وقدمنا شكرنا واحترامنا لحاكم المدينة الزنجي الذي يدعى بلالا ، الذي كان يجلس عند باب قصره في الكوت ، حيث كان يعقد اجتماعا عاما ، وكان يبدو عليه مهندما مثل سائر السود الآخرين . ولم يكن الأمر يحتاج منا إلى تقديم جوازات السفر كي نسافر إلى مدينة القطيف ، التي كانت من وجهة نظر الحكومة تشكل امتداداً لمنطقة الأحساء ، برغم أنها كانت تختلف عنها ، في واقع الأمر ، اختلافا كبيرا . والطريق إلى القطيف آمن تماما ، كما أن البدو النهابين ، وكذلك قطاع الطرق ليس لهم وجود هنا بالمرة . ومع ذلك ، فقد كنا بحاجة إلى بعض الرفاق ، لا ليرافقوننا في السفر وإنما ليردونا على الطريق . وبدأ أبو عيسى يبحث لنا ، في المدينة ، عن مثل هؤلاء الرفاق ، إلى أن عثر على ثلاثة منهم تصادف أنهم كانوا على وشك أن يتجهوا إلى مدينة القطيف . كان واحد منهم نصف بدوى ، أو إن شئت فقل إنه واحد من تلك الطبقة التي يطلقون عليها في سوريا اسم " عرب الديرة " ، وكان من بني هجر ؛ أما ثانيهما فقد كان عجمانيا حقيقيا ؛ أما الثالث فكان حضري من مدينة الهفوف ، ووافق ثلاثتهم على أن ننضم سويا لنكون جماعة واحدة أثناء سيرنا على الطريق . وقامت مضيفتنا الحبشية (زوجة أبي عيسى) بتزويدنا بجوال كامل من المؤن، وزودنا أصدقاؤنا في الهفوف بالإبل . وبعد أن تزودنا ، وركبنا إبلنا ، ودعنا زوجة أبي عيسى الطيبة وداعا مؤثرا ، وقبّلنا الطفل ، وقلنا لوالده "إلى الملتقى" ؛ وبدأنا المسير عصر اليوم التاسع عشر من شهر ديسمبر ، تاركين وراءنا كثيرا من المعارف الحلوة ، الذين تلقينا منهم رسائل وخطابات عندما كنا في

البحرين . وفيما يتعلق بالسكان ، فأنا لا أجد من بين مدن الجزيرة العربية كلها ، مدينة مثل مدينة الهفوف ، التى حيانا تجارها بتحية صادرة من أعماق قلوبهم واستقبلونا استقبالا حارا كله ود وحب .

وغادرنا مدينة الهفوف عن طريق البوابة الشمالية الشرقية ، المؤدية إلى الرفيعية ، التى كان أصدقاؤنا ، قد تجمعوا عندها ، طبقا للأعراف العربية ، على شكل موكب ، ليودعوننا ويتمنوا لنا رحلة طيبة ، ثم يعودون إلى بيوتهم . كان طريقنا ، منذ البداية ، يخترق متاهة فاخرة من بيارات النخيل جيدة الرى ، وكلها من صنف الخلاص ، سرنا خلال طرقها المتعرجة قرابة الساعتين وسط المجارى المائية المتدفقة ، وعبر الجسور الضيقة ، إلى ما قبل غروب الشمس حيث بدأنا نسير حول مستنقع كبير من القصب ، فيه متسع يسمح لجمل واحد بالمسير بين الأشجار والمستنقعات ؛ ثم يتجه الطريق بعد ذلك ، إلى منطقة رملية صغيرة ، تفصل منطقة الهفوف تماما عن الكلابية . والكلابية قرية صغيرة متوسطة الحجم ، تقع على مسافة سبعة أميال شمال شرقى العاصمة . وهنا عسكرنا فى العراء على تلة رملية نظيفة صغيرة، بحيث كانت الكلابية عن يميننا ، وخط غابات الهفوف الأسود عن يسارنا ، فى حين كنا نسمع من أمامنا ، على بعد مسافة قصيرة ، صوت نافورة ينبعث منها ماء غزير ، كنا نسمع خريره أثناء سكون الليل ، ويروى بستانا يجدر به أن يكون فى دمشق أو انتيوش **Antioch** . كان هواء الليل معتدلا - فلم يكن باردا مثل هواء نجد أو خانقا مثل هواء جنوبى الهند ؛ كما كانت السماء صافية والنجوم ساطعة . ومن هذا المكان الحاكم كنت أستطيع أن أرى سُهيل **Soheyl** أو كانوبس **Canopus** الذى بدأ يسطع الآن ؛ ومن خلف سهيل ، وبالقرب من الأفق ، توجد النجوم الثلاثة التابعة لـ - صليب الجنوب **Southern Cross** ، ذلك الصديق القديم الذى كان يرافقنى فى الهند ؛ وبعد ذلك بشهرين بدأت أشاهد كل نجوم تلك الكوكبة أو إن شئت فقل : مجموعة النجوم .

وبينما كنا نتمتع بالراحة التى دامت بضع ساعات ، صحونا من نعاسنا على خطو بعض الإبل التى كانت تقترب منا - كانت هذه الإبل تحمل بعض المسافرين القادمين من القطيف . وتوقف هؤلاء المسافرون إلى جوارنا ونزلوا عن إبلهم حيث تبادلنا معهم الحديث مدة نصف ساعة ؛ ترى ، كيف يمر العربى على العربى دون أن يتبادل معه الأخبار ؟ وقد علمنا من هؤلاء المسافرين أنباء حادث ذلك اليوم ، وكان

حادثا غريبا لأنه يوضح عداء العرب للحكم الوهابي . إذ يقال أن واحدا ، من أهل القطيف ، استطاع أن يمسك بشاب صغير من المنطقة نفسها ، كان قد اغتصب شقيقته الصغيرة غير المتزوجة . وطبقا للأعراف العربية ، فإن هذه الفضيحة لا يمكن غسل عارها إلا بسفك دماء الطرفين المذنبين ؛ من هنا فإن القطيفي ، الذي كان يعطيه العرف ، بحكم ما تعارف عليه الأسلاف ، الحق في أن يقوم أقرب أقارب الفتاة بالثأر لكرامة العائلة ، بأن يقوم بقتل كل من أخته وعشيقها . والوهابيون ، طبقا لنصوص القرآن ، يحددون عقابا أكثر اعتدالا للزاني غير المتزوج والزانية غير المتزوجة ؛ وبناء عليه ، عندما وصلت هذه الأنباء إلى الرياض صدرت الأوامر بإلقاء القبض على ذلك القطيفي الغيور ، وإحضاره إلى الرياض لمحاكمته على القتل العمد الذي لا مبرر له . وقد عهد بتنفيذ هذا الأمر إلى بلال ، حاكم المنطقة كلها ، الذي حول بدوره تنفيذ هذا الحكم ، إلى فرحات حاكم مدينة القطيف . وأرسل فرحات أفراد الشرطة لإلقاء القبض على المجرم؛ ولكن كل جيرانه اتحدوا فيما بينهم لإخفاء هذا القاتل والعمل على تهريبه . وأخيرا ، وبعد بحث دام عدة أسابيع ، اكتشف أمر هذا القاتل ، وعثر عليه في منزل أحد الفلاحين ، وتم القبض عليه ، وإرساله إلى مدينة الهفوف . وقد أثارت هذه العملية استياء كثيرا في كل أنحاء القطيف ، التي كان الرأي العام فيها لصالح هذا الأخ ، كما كان الرأي العام يدين الحكومة الوهابية لأنها فتحت الباب أمام التساهل في الأخلاقيات العائلية .

كنا ما نزال مشغولين بالاستماع إلى هذه الأخبار والتعليق عليها ، عندما وصل إلينا مواطن آخر من الهفوف كان مسلحا ويركب ركوبة جيدة ، جاء من الناحية الجنوبية ، وطلب إلينا أن نسمح له بالانضمام إلى قافلتنا ، وسرعان ما وافقنا على هذا العرض . وفي صباح اليوم التالي كانت جماعتنا قد زادت من خمسة أفراد إلى ست ، وبدأنا مسيرنا ؛ ومررنا بالقرب من سفح التل الذي تقع عليه قرية الكلابية . وهذا الاسم يدل على أن سكان هذه القرية هم بنو كلاب ، وهي إحدى القبائل العربية التي انحدرت عن قيس ، واستقرت في هذه المنطقة منذ زمن بعيد . وأرجو ألا يخلط القارئ بين كلمتي كلاب وكلب ، إذ أن بني كلب ينتمون إلى عشيرة مختلفة من أصل قحطاني ، ومعروف أن بني كلب أعداء ألداء لبني كلاب من ناحية وكل ذرية قيس - عيلان من الناحية الأخرى . ومع ذلك ، فإن الإقامة الطويلة في الأحساء لم تمحو ذلك العداء القومي ، إلى حد أن سكان الكلابية ، لا يزال السكان المحيطون بهم ينظرون إليهم نظرة شك وازدراء، ويتفاخرون بنسبهم القحطاني عن طريق مضج ، وقضاعة ، وكنده .

وبعد أن تجاوزنا الكلابية ، عبرنا سهلا واسعا تربته من النوع الرملي الخفيف ، الذى يتخلله البازلت والحجر الرملي . كانت دلائل الرطوبة موجودة في كل مكان وعلى عمق طفيف تحت السطح ؛ وعلى مسافات قصيرة كانت تتناثر هنا وهناك أشجار النخيل القزمة ، والحشائش ، بل ، والقصب ، والسَّمَّار أيضا ؛ وكنا نمر بين الحين والآخر على بحيرات وبرك صغيرة فى بعض المنخفضات ، وكانت تحيط بها الأدغال التى تتدلى أغصانها على الماء ، فى حين كان هناك حطام قريتين كبيرتين ، هجرهما سكانهما ، مثلما فعل سكان أوبرن Auburn ، يشهد على اندحار هذه المنطقة تحت وطأة الحكم النجدى. وقد رحل عن هاتين القريتين مئات ومئات من السكان المهاجرين : فقد رحلت بعض عائلات هاتين القريتين إلى المناطق الشمالية ، ولكن القسم الأكبر من هؤلاء السكان هاجر إلى الجزر المجاورة للبحرين ، وإلى الشاطئ الإيرانى ، وإلى أبناء سلالتهم فى الممتلكات العمانية . ولا يزال الحكم الجائر يمارس سطوته على أولئك الذين تبقوا فى هاتين القريتين ، وذلك باستعمال الأساليب التى لجأ إليها العثمانيون عندما أرادوا أن يخلقوا منطقة صحراوية بين كل من بغداد والموصل ، وعندما قلصوا عدد سكان سوريا إلى حوالى ثمن عدد السكان الأصليين .

واصلنا سيرنا طوال النهار ولم نقابل أيا من البدو ، ولكن صادفنا القليل من المسافرين . وعندما جاء المساء ، عسكرنا فى واد ضحل ، قريب من مجموعة من الآبار المترعة ، بعضها عذب ، وبعضها مالح ، وحيث كانت آثار المجارى المائية المهملة ، وبقايا جدران المنازل المهدمة تدل على وجود قرية ، من قبل ، فى هذا المكان ، ولكنها أصبحت مهجورة بعد أن تخلى عنها سكانها . وأمضينا ليلة مريحة احتمينا خلالها ، بأشجار النخيل وبالأعشاب الطويلة ، التى كانت تتخللها نباتات الصَّبر والنباتات الزنبقية العملاقة ؛ واستيقظنا مبكرين فى صبيحة اليوم التالى لنواصل مسيرنا . ومع شروق الشمس وبينما كنا نعبر إحدى المناطق الرملية ، شاهدنا على بعد مسافة قريبة ناحية اليسار ، قرية الهيدية Heedeyah ، ومن هذه المنطقة شاهدنا سلسله جبال الأحساء لآخر مرة ، والتى بدأت تبدو لنا ، من هنا ، أكثر انخفاضا عما كانت عليه ، ونحن فى الهفوف ، ومع ذلك كانت لا تزال تحتفظ بشكلها الخارجى الرائع . وواصلنا المسير فى الاتجاه الشمالى الشرقى . وفى عصر ذلك اليوم ، بدأنا نرى جبل مُشَّهر لأول مرة ، وهو عبارة عن قمة هرمية يصل ارتفاعها إلى حوالى سبعمائة قدم وعلى مسافة حوالى عشرة أميال جنوبى القطيف. وجبل مشهر ينتمى إلى سلسلة من التلال ،

هو الأشهر من بينها (وهذا الاسم يذكرني أيضا بجبل آخر في مالطة له الاسم نفسه Canspicua) ، وهو أيضا الذي يسترعي الانتباه من بين هذه التلال ؛ وهذه السلسلة المتوسطة تفصل منطقة القطيف عن منطقة الأحساء ، التي ترتفع مائتي أو ثلاثمائة قدم عن مستوى سطح المحيط .

كان الريف الذي سرنا خلاله طوال ذلك اليوم مثل ذلك الريف الذي سرنا خلاله في اليوم السابق – تلال رملية وسهول ، تتخللها الصخور من حين لآخر ، ومجموعات من النخيل ، أو القرى المدمرة ، التي كانت تقطع هذه الرتابة بين الحين والآخر ، وكانت المياه الجوفية الوفيرة تحيط بنا من كل جانب، إذ كانت تنساب من بين حبيبات التربة ، وكانت عذبة وجيدة بشكل عام ، ولكنها عديمة النفع نظرا لعدم وجود الأيدي التي تستطيع أن تفيد منها في إضفاء الخصوبة والنماء على أراضي هذه المنطقة . ولو قدر لحكم أفضل أن يأتي بعد هذا الطغيان الفعلي ، لأمكن أن تكون في هذه المنطقة خمسمائة قرية أو مدينة بدلا من خمسين ، وهو الرقم الذي نقدر به عدد القرى في منطقة الأحساء . ومن أبرز ملامح الحياة النباتية في المنطقة المحيطة بنا هنا أشجار الصَّبر الضخمة ، التي سبقت الإشارة إليها ، إذ يصل ارتفاع أوراقها الشوكية وفروعها الكثيفة ، في كثير من الأحيان ، إلى الحد الذي يمكن المسافرين والجمال بل والجميع ، من الجلوس تحتها ؛ وهذا النبات من أبرز النباتات التي تنتشر في منطقة الأحساء ، ومع ذلك فأنا لم أشاهد هذا النبات في داخل الجزيرة العربية أو في الأراضي المرتفعة .

وليس من قبيل التأدب أن أترك رفاق قافلتنا دون أن أتعرض لهم بالوصف . وبنو هجر ، وبنو خالد ، والعجمان هم أرقى الناس روحا وأكثرهم أدبا من بين جميع البدوان الذين صادفتهم خلال تجوالي قديما وحديثا ؛ فالصفات التي تلتصق بالبدو الرُّحَّل ولا تنفصل عنهم ، تجدها أيضا في هؤلاء الناس ولكن على مستوى أكثر تحضرا وأقل فظاظة . ولعل ذلك يرجع ، من ناحية ، إلى اتصال هؤلاء الناس المستمر بأهل الأحساء المتحضرين ، الذين اقتبسوا بدورهم أساليبهم الدمثة واللطيفة . وهذه العشائر أفضل تسليحا وتهندما عن معظم إخوانهم البدو ، برغم أن الأجزاء الرئيسة من ملابسهم تكاد تكون واحدة ، إذ لا تختلف في الشكل أو الصنعة ، اللهم باستثناء نوعية الاقمشة المستعملة والألوان البهيجة . وكل هذه العشائر مسلحة بالبنادق ،

كما أن العديدين منهم ، يعلقون فى أحزمتهم الخنجر العماني المعقوف ، إلى جانب الرماح التى يحملونها .

وقبيل المغرب بدأنا نتسلق بالتدريج سلسلة تلال القطيف الرملية الواسعة ، بعد أن بعدنا عن جبل مشهر مسافة كبيرة فى الناحية اليمنى . ولكن البحر ، برغم أنى كنت أنظر ناحيته وأتطلع إليه بشغف يشبه شغف العشرة آلاف عندما اقتربوا من مدينة إيوكسين Euxine ، كان لا يزال محجوبا عنى بفعل استمرار سلسلة المرتفعات . وعند هذه المنطقة ، بدأنا نجوس خلال أرض صخرية يميل لونها إلى الاسوداد ، بدلا من رمال الأحساء . وكان الهواء بارداً وحاداً ؛ ولم أشعر بالندم عندما توقفنا ، عند حلول المساء ، بالقرب من مجموعة من الأشجار تقع على حدود منطقة القطيف . وتتميز هذه المنطقة أيضا بوجود قرية العازمية Azmiah ، شبه الجرداء حاليا ؛ وكانت مناظر البيوت المأهولة توحى بالتعاسة والإحباط مما جعلنا نفضل التوقف لنيل قسط من الراحة إلى جوار شجرة من أشجار الصبّر ، وأن نتناول عشاءنا من المؤن التى نحملها معنا . وأطلقنا ذلولينا (هذان المخلوقان اللذان يسرا الناظرين) يرعيان ، ولكن وا أسفاه ! لقد استغلا الغسق وكادا يهربان لولا أن أمسكنا بهما بصعوبة بالغة ؛ وبذلك أكدا لنا ذلك الذى ذكرته عن الإبل فى الفصل الأول ، والذى مفاده أن الجمل عندما يستشعر أنه أصبح سيد نفسه ، فإنه لا يفكر مطلقا فى العودة إلى موطنه ، إلا إذا كان ذلك قسرا .

وفى اليوم التالى استيقظنا مع طلوع الفجر ، وعبرنا تلال القطيف سالكين فى ذلك مسارا متعرجا طويلا، إلى أن بدأنا بعد ساعات طويلة من المسير فى تلك المتاهة ، نشاهد خط المزارع المعتم الذى يطوق منطقة القطيف نفسها من ناحية الأرض . كان البحر يقع بعد ذلك الخط مباشرة ، وكنا نعرف ذلك تماما ، ولكننا حتى الآن لم نحظ بعد ولو بنظرة واحدة إلى مياهه والسبب فى تلك الستارة المخضوضره التى تمتد بيننا وبينه .

وقبيل الظهيرة أنهينا المنحدر الأخير ، الذى كان عبارة عن بقعة مرتفعة من الحجر الرملى ، يبدو أنها كانت حدا لمياه البحر فى فترة سابقه . ومستوى ارتفاع هذا المنحدر يكاد يكون نفس مستوى الخليج الذى يقع بعده مباشرة ؛ إذ أن أية زيادة فى المد بحوالى أربعه أقدام عن المستوى المعتاد تكفى لغمر هذا المنحدر بكل أجزائه المرتفعة .

ومن ثم فإن هذه المنطقة ليست صحية ، برغم خصوبتها وكثافة سكانها ؛ ولكن سكان هذا المنحدر في معظمهم، ضعاف البنية وتميل بشرتهم إلى الإصفرار . وكان طريقنا ، أو إن شئت فقل : طريق القطيف السريع ، يمر مسير ساعة أو ما يزيد على ذلك ، عبر أرض هي امتداد لنوع من التربة يميل لونها إلى الابيضاض ، والتي كانت حوضا جافا من أحواض المستنقعات المالحة الضحلة ؛ ولكن كانت تمتد من أمامنا ، وعن يميننا كتلة مستمرة من بيارات النخيل ، التي كانت تمتد فيما بينها أقواس ومجارى ذلك الممر المائي الملتوي القديم المتعرج ، الذى أنشأته الأسرة المالكة القرموطية . وكان الهدف من إنشاء ذلك الممر المائي هو إمداد المدينة بقدر كاف من الماء وليس لمجرد أن يكون مجاوراً للمدينة ، ولابد أن طول ذلك الممر كان يصل إلى حوالى خمسة أميال . وبعد أن كانت المياه الجارية تصل إلى نهاية مجاريها ، كانت تنطلق بعد ذلك انطلاقا عشوائيا فى هذه المنطقة ، أو تتحول إلى برك من المياه الراكدة . كان الجو فى هذه المنطقة رطبا وخانقا، كما كانت درجة الحرارة مرتفعة، وكانت الحياة النباتية ثرية وكثيفة من حولنا ؛ وراح رفاقنا يتحدثون عن الاختناق ، وهنا طرأ على بالي الساحل الهندى . وعندما وصلنا إلى ظلال الأشجار المتجاورة ، كان لابد لنا أن نسير فى طريق مرتفع وضيق مثل ذلك الطريق الذى أطلق عليه جون بانيان اسم طريق وادى القفر والجدب ، غير أنه لم يكن مستقيما مثل ذلك الطريق ، والذى ربما تخوف " كريستيان " Christian نفسه من الدخول إلى طينه ومياهه التى تنساب على جانبيه . ومن حسن حظنا ، وبدلا من أن نلتقى العفاريت والشياطين أو ملائكة الهاوية والجحيم ، كنا نمر عند كل منعطف ، على فلاحين وحرفيين لا حول لهم ولا قوة ، كانوا يجيئون ويروحون ، ويزداد عددهم كلما اقتربنا من المدينة ؛ وبعد مسير ساعة أخرى من فترة العصر وصلنا إلى مدينة القطيف نفسها ، وإلى بوابتها الغربية ، كانت تلك البوابة ، عبارة عن قوس عال من الحجر جميل الشكل ، ويتصل بها من جانبيها الأسوار والأبراج ، ولكن كل هذه الأشياء كانت مفككة ومخرّبة . وكانت توجد على مقربة من تلك البوابة مقبرتان ، أحدهما لأهل القطيف ، والثانية للحكام والمستعمرين النجديين – وهكذا يظهر أن العداء والكراهية أديا إلى التفرقة بينهما حتى بعد الوفاة ، وهذا ، إن شئت ، هو ضرب من ضروب الحماقة ، غير أن هذه الحماقة لا تقتصر على الشرق وحده .

ومدينة القطيف نفسها مزدحمة بالسكان ، ورطبة ، وقذرة وكئيبة الشكل ، ونظرا لأننى لا أستطيع العثور على الكنية أو الوصف الصحيح الذى يمكن أن أطلقه عليها

فإننى سوف أكتفى بالقول بأنها : متعفنة Mouldy ؛ وذلك يعنى أن كثيرا من أعمال المال والتجارة كانت تجرى فى سوق المدينة وفى شوارعها ؛ ولكن نظرة الإهمال والنظرة غير العربية التى ينظرها أصحاب المحلات والعمال ، إلى هذه المدينة ، تؤكد كل ذلك الذى يرويه التاريخ عن الاستعمار الفارسى لهذه المدينة . والواقع أن سكان هذه المنطقة كلها ، وسكان العاصمة بصفة خاصة ، هم من الجنس المغولى ، الذى يجرى فى عروقه الدم الفارسى ، كما يختلط به أيضا دم البصرة وبغداد والعراق . وأثناء انتصار بنى العباس ، وطوال اضطهادهم للشيعة ، كان الشيعيون يلوذون بأعداد هائلة إلى مدينة القطيف ، كى يحميهم الأمراء القرامطة ؛ وقد ساهمت هذه الهجرة إلى حد كبير فى حركة الصناعة ونشاط المدينة بصفة خاصة ؛ ولكنها ساهمت أيضا فى إفساد أخلاقيات المدينة والإخلال بشجرة نسبها . إذ نجد أن العرب من القرويين فى القطيف يشكلون الجزء الأكبر ؛ ومع ذلك فإن العرق الفارسى يظهر هنا أيضا بشكل واضح . والمعروف أن أهل القطيف جميعا من الشيعة ، أو إن شئت فقل من " الخوارج " أو " المفكرين المتحررين " ، بمعنى أنهم من أولئك الناس الذين مروا بكل مراحل العقيدة الفاسدة فى الشرق ، بدءا من محمد (ﷺ) وانتهاء بعلى[1] ، ومن على إلى الأئمة : إسماعيل ، وموسى ، وأبو القاسم ؛ ومن الأئمة : قائم الزمان ، ومن قائم الزمان إلى وحدة الوجود[2] والمذهب المادى[3] ، أو إن شئت فقل البيرُوويه Pyrronism[4] : وهذه المرحلة من الفكر الإنسانى تحتاج إلى مزيد من الدرس المتأنى . وأنا أحيل القراء الذين لديهم مثل هذه الرغبة فى الدرس والتقصى فيما يتعلق بالتنوير والإظلام فى الشرق ، إلى المقدمة التى كتبها المرحوم البارون سيلفستر دى ساكى Baron Sylvester de Sacy ، فى كتابه الذى كتبه عن الدروز ، إذ تحتوى هذه المقدمة على كثير من المعلومات المهمة والقيمة فى الوقت نفسه. وأرض مدينة القطيف منخفضة، وأشجارها كثيفة . ولكن بعد أن استدرنا مرة أو مرتين أصبحنا نسير بجوار أسوار

(١) ما أقبح هذا الوصف الذى يدل على فساد طوية المؤلف وحقده على دين الإسلام ، وهل ما جاء به سيدنا محمد من عقيدة صحيحة وتشريعات نشرت الأمن والعدل والرحمة فى ربوع الأرض هو أمر فاسد وعقيدة فاسدة . إن الفاسد هو ذلك المؤلف الحاقد - (د. حلمى عبد المنعم)

(٢) المذهب القائل بأن الله والطبيعة شئ واحد وبأن الكون المادى والإنسان ليسا إلا مظاهر للذات الإلهية - (المترجم) .

(٣) كمظاهر أو نتائج للمادة - (المترجم)

(٤) مذهب الشك عند الفيلسوف الإغريقى بيرو (٣٦٥ - ٢٧٥ ق . م تقريبا) وأتباعه - (المترجم) .

المدينة ، تلك الأسوار التى تنتمى إلى قلعة القرموط الضخمة ، التى كشف لنا الوادى الفسيح الذى يقع بعدها مباشرة ، عن مسطحات الخليج الضحلة الميتة التى أصبحت تحت أقدامنا . عجبا إن مياه الخليج مختلفة تماما عن مياه البحر المتوسط الرقراقة ، التى تنبض بالوميض والحياة ، والتى ودعناها عند غزة منذ ثمانية أشهر . كان الخليج أمامنا مثل لوح من الرصاص ، شبه ردغي ، يكاد يكون مليئا بالبردي ، وكان يبدو لنا بلا أمواج ، بل وبلا حراك أيضا ؛ وعن يسارنا كانت أسوار القلعة الضخمة تكاد تصل إلى حافة الماء ، ثم كانت تنحرف بعد ذلك ، لتترك أرضا مستوية بين دائرة القلعة والخليج . كانت توجد على سلسلة الصخور هذه بعض المدافع كبيرة العيار التى علاها الصدأ ، مما يدل على صلابة الدفاع الذى كان يحيط بهذا المكان ؛ ومن أمام البوابة الرئيسية ، كان هنا تحصين خارجى ، تستطيع دانة واحدة أن تسويه بالأرض ، ويضم ستة قطع من المدفعية الشبكية ، وكانت فوهات تلك المدافع موجهة إلى البحر . وأسوار القلعة مرتفعة وقوية ، وهى مبنية من الأجر والصخور ؛ وبوسع هذه الأسوار أن تقاوم موجات الهجوم الأولى ؛ ومدخل القلعة له بابان وعلى جانبيه توجد الأبراج ، والمقاعد الموجودة خارج القلعة ، أغرتنا بالجلوس عليها ، بعد أن تركنا جمالنا باركة فى الأرض المستوية ، وبعد أن حصلنا على قدر قليل من الراحة ، التمسنا إلى حاكم القطيف أن يستضيفنا مدة يوم وأن يسمح لنا بالعبور إلى البحرين .

تقع قلعة القطيف عند أقصى طرف منحنى الخليج الصغير ، والقلعة نفسها تشبه إسقلوبا[1] صغيرا يقع داخل قاعدة اسقلوب كبير ، وفى ناحيتى الشمال والجنوب يوجد بروزان طويلان ، مثل القرنين المشهورين ، وتقع قلعة داريم عند نهاية أحدهما ، وقلعة الدمام عند نهاية البروز الآخر ، وإذا ما رسمنا خطا مستقيما فإن المسافة بين هاتين النقطتين تقدر بحوالى اثنى عشر ميلا ، غير أن المسافة أكبر من ذلك إذا ما تتبعنا المنحنى شبه الدائرى للخليج ؛ وفى هذا المنخفض الضحل تتعطن مياه الخليج ؛ وعندما يزحف المد على هذه المنطقة ، فإنه يجعلها تبدو عميقة ، ولكن الجزر عندما يحدث يتركها وفيها الكثير من الأماكن الضحلة، والجزر، وخصل من النباتات البحرية ، وضفاف من الرمال ، تتخللها مجارى مائية ضيقة ، مليئة بالوحل والطين . وشاطئ الخليج ، فى هذه المنطقة ، يذوب بطريقة تلقائية فى مياه البحر ، وذلك باستثناء بعض

(١) الاسقلوب : محار مروحى الشكل - (المترجم) .

الأماكن القليلة جداً ؛ وقد يكون الشاطئ هنا قاحلا ورمليا فى بعض أجزائه ، وفى بعض الأماكن الأخرى تنمو أشجار النخيل ومن تحتها كثير من النباتات الأرضية . والناظر إلى هذه الأماكن يعرف ، من الوهلة الأولى ، الأسباب التى تجعل بعض أماكن هذا الشاطئ غير صحية ، وجديرة بسمعتها السيئة وتنوع أمراضها .

وفي الخليج الداخلى ، الموجود أمامنا ، يوجد حوالى عشرين أو ثلاثين بركاً[١] عربيا ، تتروح أحجامها بين السكّونة[٢] وقارب الصيد المفتوح ، ومع ذلك فإن كل هذه البركات لها أشرعة مثلثة الشكل ، والسبب فى ذلك أن هذا هو النوع الوحيد المعروف من الأشرعة فى هذه المنطقة . وهذا هو بدن إحدى السفن الكبيرة يسترعى انتباهنا إذ إنه لا يبعد كثيرا عن اليابسة ، وقد انتابنا خوف شديد عندما علمنا أنها واحدة من سفن أسطول (الملك) فيصل ، الذى تستطيع به نجد فى بعض الأحيان أن تقاوم وتهزم ، على شكل صف أو طابور (شأنها شأن الجندى الشجاع الذى يشكل مربعا كى يتلقى طعنات العدو) كل الأساطيل المعادية مثل أسطول البحرين ، وعمان ، وإنجلترا بل وكل هذه الأساطيل مجتمعة ، إذا ما تجرأت على الهجوم على البلاد . كانت هذه السفينة المهمة ، أو إن شئت فقل الأسطول ، أو البحرية ، من حيث الحجم لا تعدو أن تكون سفينة من السفن المعتادة التى تنقل الفحم فى نيوكاسل **New Castle** ومزودة بمعدات للقيام بمناورات شبه عسكرية ، وقد استقيت كل ذلك من الطريقة البدائية التي بنيت بها هذه السفينة . ومع ذلك ، فقد كان أهل هذه البلاد ينظرون إلى هذه السفينة بكثير من الخوف ، ولم يكونوا يذكرون اسمها إلا همسا . كانت السفينة فى تلك اللحظة تطوى شراعها ، وتستكمل بقية تجهيزاتها بالأحرى . كان الجمرك يقع على مقربة من الشاطئ القذر وبطارية المدافع الساحلية التى سبقت الإشارة إليها ؛ كان الجمرك عبارة عن كوخ مصنوع من جريد وسعف النخيل ، وكان طويلا وضيقا ويطلقون عليه اسم " المعاشر " أو إن شئت فقل " العشارية " ، نظرا لأن النظام العشرى المئوى تقوم الحكومة بتطبيقه هنا على الرسوم التى تُحصَّلُ عن التجارة مثل الزراعة تماما . ومن أمام وبالقرب من الجمرك كانت هناك بيارات نخيل شديدة الرطوبة، ومستنقعات من المياه المالحة ؛ كان المشهد موحشا ، وربما أوحى للشاعر شيلى

(١) البرْك : مركب بثلاث صوار - (المترجم) .
(٢) السكونه : مركب شراعي ذو صاريين أو أكثر - (المترجم) .

بقصيدة أخرى من طراز قصيدته "مادالو" Madalo، ولكن فى القطيف ، بدلا من البندقية ، هذه المرة ، ولم يكن هناك سوى ضوء الشمس الساطع ، الذى بذل كل ما فى وسعه ، برغم أنه لم ينجح تماما فى ذلك ، فى سبيل توضيح الموقع .

وجلست أنا وبركات بلا حراك نحملق ونطيل النظر إلى ما هو أمامنا ، ونتأمل مليا اختلاف جزئى الجزيرة العربية . ولكن أصدقاءنا ، شأنهم شأن العرب الحقيقيين ، وجدوا أن الوقت مناسب ، للحصول على " وجبة خفيفة " ، ولذا راحوا يبحثون عن الحاكم بالقرب من بوابة القلعة ، أملا فى السلام عليه والتحدث معه . وفجأة شاهدوا ! الحاكم المناب من صاحب الجلالة الملك فيصل ، يظهر بشحمه ولحمه من داخل قصره ليقوم بزيارة المحارب الجديد . وهنا يجب على أولئك ، من أصدقائى ، الذين يؤيدون إلغاء مبدأ الاسترقاق والاستعباد ، أن يشعروا بالرضا والارتياح نظرا لأن هذه الشخصية الموقرة ، شأنها شأن شخصية الهفوف ، كانت شخصيه زنجية أيضا ، تربت فى قصر (الملك) فيصل ، وتحولت من عفريت صغير مجعد الشعر إلى عبد أسود صدفى الشعر ، يحتل فى الوقت الراهن منصب رئيس أهم الموانئ النجدية على الخليج الفارسى ، وحاكما لمدينة كانت ، فى وقت من الأوقات ، عاصمة لأشرس أسرة مالكة قامت بتسوية الكعبة بالأرض ، وملأت القطيف بالمسروقات والمنهوبات التى أتت بها من اليمن ومن سوريا . كان فرحات وهذا هو اسم الحاكم ، ذائع الصيت بين أبناء جلدته، وكان عبدا زنجيا فارع الطول يقدر عمره بحوالى خمسين عاما ، حسن الطبع ، كثير الكلام ، كريما ، كما كان ذكاؤه وفكره يزيد قليلا على ذكاء وفكر الشخص العادى . كان يرتدى ثيابا أنيقة أكثر من تلك التى يرتديها الوهابى الملتزم ، ولكن طبيعته كعبد أو زنجى هى التى تغفر له مثل هذا الخطأ ؛ زد على ذلك ، أن الوهابيين ، فى المواقع البعيدة، يكونون ميالين إلى نسيان قيود التعاليم المحلية. ومن حول فرحات ، كانت تقف حاشيته المكونة من نجديين سمر البشرة ، يعانون من تضخم الطحال نظرا لتكرار إصابتهم بنوبات الملاريا ، ووجوههم أكثر تجهما مما لو كانوا يتلقون ، فى الرياض ، خطابا من عبد الكريم أو عبد اللطيف ، عن انصراف الناس عن الدين وابتعادهم عنه .

كان أبو عيسى ، الذى له معارف وأصدقاء فى كل مكان ، والذى جعلته أخلاقه الدمسة محبوبا من الزنوج كبارا وصغارا ، قد زودنا بخطاب يقدمنا إلى فرحات ،

ويشرح الاستقبال الرائع والمعاملة الطيبة التى لقيناها من قبل الملك فيصل فى العاصمة ، ولكنه لم يتعرض من قريب أو بعيد إلى مسألة مغادرتنا الرياض بصورة مفاجئة . كما لم تتعرض الرسالة إلى المكان الذى تنوى الوصول إليه ، ولكن خطتنا كانت تقوم على أساس أننا سوف نتوجه إلى الكويت أو البصرة ، فى حين أننا كنا ننوى فى حقيقة الأمر ، الاتجاه إلى المنامة ؛ وكان هدفنا ، من وراء كل ذلك ، تحاشى إثارة شكوك الحاكم ، عندما نتكلم عن البحرين بدون مناسبة .

ولكن طبيعة الأمور ، فى هذه المنطقة ، لم تكن تتطلب مثل هذا الحذر . وقد أقنعتنا الريح الشمالية التى بدأت تهب مصادفة على الخليج ، بعدم ركوب مركب متجهة إلى البصرة ، وإنما مركب متجهة إلى البحرين ، التى نود فى الحقيقة الوصول إليها . ومن الشائع تماما عند من يسافرون بالبحر ، ويقصدون الوصول إلى ميناء أو آخر من موانئ الخليج الفارسى ، أن يمضوا يوما أو يومين فى مينائى المنامة والمحرق انتظارا لانقضاء الريح غير المواتية . زد على ذلك ، أن فرحات نفسه ، الذى كان رجلا سهلا وبسيطا ، كان قد فض ، منذ فترة وجيزة ، رسالة (الملك) فيصل ، وطلب من أحد أفراد حاشيته أمامنا أن يقرأ له منها السطرين الأولين (نظراً لضعف بصره بسبب إصابته بالرمد) ، ومن ثم راح يرحب بنا ، على الفور ، ترحيبا حارا ، خاليا من الشك أو التحايل ، كما أصدر أوامره بإحضار متاعنا إلى داخل مبانى القرامطة ، وطلب منا الدخول كى نشرب القهوة ، وننتظره إلى أن يعود من زيارته التفتيشية اليوم ، إلى أسطول فيصل المصغر ، لنستأنف معه الحديث .

نحن الآن داخل القصر ، تلك البناية التى تعزى إلى أبى سعيد الجنابى أو إن شئت فقل القرموط ، نفسه ، برغم أنى أكاد لا أصدق هذا التاريخ القديم ، وأعزوها إلى القرن السادس أو السابع الهجرى . وهذا يتضح من الأسلوب المعمارى السائد فى هذه المنطقة ، والذى يعد أخف وأرق من تلك الآثار التى تخلفت عن القرن الثالث بعد الهجرة ؛ كما يتضح ذلك أيضا فى استعمال الزينيات فى المبنى والإسراف فى استعمالها ، والتى تدل على سلطة مستقرة دامت طويلا ، وليس أسرة ملكية ثورية دامت سنوات قليلة ، وتهيئ لها الحصول على كل شئ وفعل أى شئ . وربما يكون جزء من أساس القرامطة والطابق السفلى منها ، من صنع أبى سعيد الجنابى ، فى حين قام من جاءوا بعدة بإكمال بنائها .

وسور القلعة الخارجى مربع الشكل ، وتحيط به من الخارج تلك الأسوار العالية التى مررنا بها ونحن خارج القلعة ، كما توجد فى السور الداخلى أبراج عالية عند الأركان ، كما يوجد خندق أيضا فى الأرض ؛ والبحر هو الذى يحمى الواجهة الأمامية للقلعة . ويقع قصر الحاكم فى الطرف الجنوبى الغربى من القلعة ، وهو أبعد أجزائها عن مدخلها . والقصر بصورته الحالية ، وبخاصة إن بعضه منهار ومهدم ، وبعضه الآخر تم ترميمه ترميما بدائيا فى أزمان لاحقة ، لا يساعد على تعرف التفاصيل الدقيقة لمخططه الأساسى . فنحن نرى فى البداية رواقا مقنطرا ، من الطراز المغربى Moresco ، محمول على سلسلة من الأعمدة الخفيفة ، عمقها ثلاثة عقود ، وطولها ، إن لم تخنى ذاكرتى ، خمسة عقود ، ومن فوق هذا الرواق المقنطر ، توجد عقود متصالبة ، مزينة بنقوش جصِّية ، وزخارف عربية ، انمحت الآن . ومن ثم دخلنا إلى ذلك الذى كان فى يوم ما ، رواقا طويلا مغطى ، برغم أنه حاليا ليس سوى مجرد حوائط ودعائم جانبية ، مع بروز كتف هنا وكتف هناك يوحى بعقد مهدم من فوقه . وبالقرب من هذا الكتف ، يوجد حوش داخلى ، توجد على جانبيه مجموعة من الشقق ، بحالة جيدة ؛ وعلى أحد جانبى هذا الحوش توجد صالة استقبال ، وهى عبارة عن غرفه صخرية ، كبيرة ، واسعة ، فى وسطها أعمدة أنيقة ، ونوافذ من الطراز الفارسى ، ومقسمة إلى كبائن بواسطة أعمدة صغيرة ؛ وفى الطرف البعيد من الصالة توجد منصَّة مرتفعة ، كان يجلس عليها ملك فى يوم من الأيام ، ويجلس بدلا منه اليوم عبد من العبيد . وخلف هذه المنصة توجد متاهة كبيرة من الغرف والممرات ، والصناديق ، والطرقات ؛ فى الطابق الأول ، والثانى ، والثالث ؛ وأنا أشاهد هنا درجا مهدما ، وهناك أرى بابا يفتح على الخلاء . والنوافذ فى الأجزاء السليمة منها ، مملوءة بالتعاريش الحجرية الجميلة ، التى تختلف عن سائر التعاريش الأخرى الموجودة فى سائر أنحاء القصر ، وتكشف عن عبقرية وذوق رفيع . أخيرا ، وعلى بعد ياردات قليلة من غرفة الاستقبال ، أو إن شئت فقل : القهوة ، وعلى مستوى الأرض ، يوجد شئ يبدو أنه كان يستعمل حوشا أو ميدانا للاجتماعات ، ويحتوى على أعمدة كبيرة مستديرة ، وتحمل نقوشا زينية تشبه إلى حد بعيد ، تلك النقوش التى يشيع استعمالها فى منازل بغداد ، والتى نجد فيها النقوش الضئيلة تحل محل الألوان . وقد تحول هذا الجزء من البناية إلى مسجد وهابى ، كما تم تنظيمه ليكون محرابا إضافة إلى أحداث كثير من التعديلات التى تتفق مع العقيدة المحمدية . وهذا هو كل ما أبقاه الزمن والحرب من المقر الملكى

القرموطي القديم . وكانت أول ملاحظة أبداها رفيقي تقول :" إن هؤلاء الذين بنوا هذا المكان لابد وأنهم كانوا أكثر تحضرا عمن يشغلونه الآن " . وا أسفاه ! إن ذلك لم ينطبق على القطيف وحدها ، وإنما على إمبراطورية كاملة تمتد من الدانـــوب إلى نهر دجلة .

ويجدر بنا أن نلاحظ هنا ، أن العقود برغم شيوع استعمالها بين أهل الأحساء ، إلا أن استعمال القناطر ليس شائعا ، اللهم باستثناء أشكالها البسيطة أو إن شئت فقل : الشكل البرميلي : والشئ نفسه يمكن أن تقوله عن الممرات المسقوفة الموجودة في قلعة الجوف ؛ هذا يعني أن تلك الممرات المسقوفة ، في قلعة الجوف تستعمل فيها أيضا القناطر البرميلية فقط . كان قصر القرموطي أول المباني التي شاهدناها ، منذ أن تركنا غزة ، التي تظهر القناطر المتصالبة في منازلها ، مما يدل على تقدم حقيقي في فن العمارة ، وهو ما سوف نشاهده من الآن فصاعدا في البحرين على الساحل الفارسي ، وفي عُمان . وفي كل من البحرين وعمان نجد تقدما آخر في فن العمارة ، يتمثل في الإكثار من استعمال القباب ، التي يجري صنعها باستعمال الأحجار التي يجري تشكيلها على شكل قوس مزدوج ؛ وكل هذه الأشياء تدل على تأثيرات فنية أجنبية . والسبب في ذلك ، أن العرب لو تركوا لأنفسهم لما استطاعوا من الناحية المعمارية ، أن يركبوا قوسين بسيطين مع بعضهما ، أو أن يصنعوا قنطرة أو قبة ؛ وأكبر دليل على ذلك ، يتمثل في بيوت العرب الموجودة في كل من جبل شومر ، وفي القصيم ، وفي نجد ، سواء أكانت هذه المنازل قديمة أم حديثة . ولكنهم عندما تعلموا من مشاهدة المباني الاغريقية والفارسية ، أصبحوا على استعداد لمحاكاة النماذج المعمارية الراقية في كل من إيران وسوريا ، إلى أن أصبحوا في النهاية إنشائيين معقولين ، ولكنهم ليسوا من الطراز الأول . زد على ذلك ، أن الآثار المعمارية الحميرية في كل من حضرموت ، ونقب الحجار ، على سبيل المثال ، بل وفي الألوان الأخرى ، تنتمي إلى عرق مختلف آخر ، هو العرق الحبشي ؛ وسوف أناقش هذه النقطة بكثير من التفصيل والتحري في الفصل التالي .

وفي الحال أدخلوني أنا وبركات إلى القهوة ، وأجلسانا فيها ، أمام موقد أشعلوا فيه النار في بعض أخشاب النخيل ، كي تقلل من برودة هذه الخرائب الرطبة القديمة . كان أثاث المكان معقولا ، كما كانت القهوة ممتازة . وبعد أن عاد فرحات من جولته ،

دخل معنا في خطاب ودى عن الرياض ، وعن فيصل ، وعن عبد الله ، وعن حصار عنيزة ، ... الخ . وكان من الطبيعي أن نقول له أحسن ما لدينا وأن نتخلى عن كل ما يغير التدرج اللونى فى الزهور ، طبقا لما أوصى به كبار رجال السياسة والديبلوماسية . كان معنا في الحجرة حوالي عشرون أو ما يزيد على ذلك ، من النجديين ، الذين ينتمون إلى حامية القلعة العسكرية ، التى يصل إجمالي عدد أفرادها إلى حوالي مائتين وخمسين أو مائتين وستين رجلا ؛ وعلى الجانب الآخر من القهوة كان هناك بعض من سكان المدينة ، لاذوا بالصمت ، وكانوا يرتدون عمائم كبيرة ، وصدريات فارسية ؛ والحب كان مفتقداً بين هذه المجموعة ومجموعة العرب التى جاءت من الأراضى المرتفعة . كان فى المقهى أيضا ثلاثة من " ربابنة " المراكب ، الذين كانت لهم سفن فى الميناء ، وكان يسود بينهم ذلك النوع من المزاح ، الذى يرافق مثل هؤلاء "الربابنة" عندما يكونون على اليابسة ، ودار بينهم حديث كثير وطويل ؛ وفى خلفية كل ذلك ، كانت هناك مجموعة كبيرة من الخدم البيض والسود .

وقدموا لنا عشاء جيدا ، سمكا ولحما ؛ وبعد أن ختمنا العشاء كالمعتاد بالقهوة والطِّيب ، تكلم فرحات بأدب أدهش الجميع ، وأشار إلى أن متاعنا كان قد تم نقله إلى الطابق العلوى ، فى غرفة أعدت خصيصا لاستقبالنا ، وأننا بحكم إرهاقنا ، ربما كنا على استعداد للحاق به . بل إنه تصرف تصرفا متحضرا وأمر لنا بإنارة الدرج ، وهذا إجراء له معناه ، إذا ما وضعنا فى اعتبارنا الحال الذى كان عليه الدرج ، الذى كان مصنوعا من الحجر ولكنه كان مهشما ومحطما .

وربما اندهش القارئ ، مثلنا تماما ، لهذه المبالغة فى التأدب ، من جانب شخصية من هذا القبيل . ولكن المعروف ، أن كل ما يحدث على هذه الأرض ، لابد أن يكون له سببٌ ، والسبب وراء كل هذا الأدب كان معروفا . كان جوهر ، مريضى القديم ، الذى كان قد غادر الرياض ، بعد أن استرد عافيته ، فى مهمته الرسمية ، قبل فترة طويلة من رحيلنا عن العارض ، وعندما كان المد داخل القصر الملكى لصالحنا تماما ، عرَّج على القطيف وهو فى طريقه إلى البحرين . وبعد أن استقبل فرحات جوهرا استقبالا يليق بوزير الخزانة ، قام جوهر بإعطاء أخيه العبد ، فرحات فكرة طيبة عنا ، إلى حد أننا عندما وصلنا ، ومعنا التوصية التى كتبها لنا أبو عيسى ، وجدنا الجميع يرحبون بنا بشتى الطرق ، كما كان فرحات على استعداد أن يفعل كل ما يسرنا ويرضينا .

والواقع ، أن فرحات تحرك فى تلك الليلة ليقدم لنا كل ما فى وسعه من خدمات ، بأن أجرى تحريات جادة عن السفن أو القوارب التى يحتمل أن تسافر إلى البحرين خلال فترة وجيزة . وأردف فرحات قائلا : " برغم أنى ، لو أن الرأى رأيى ، أود ألا تغادرا هذا المكان قبل أن تمضيا معنا هنا ثمانية أيام على أقل تقدير " . وشكرناه على هذه المشاعر ، وسرنا خلف المصباح نصعد الدرج الملتوى ، إلى أن وجدنا أنفسنا داخل غرفة ربما كان الملك يرتاح فيها فى يوم من الأيام ، وكانت أرضيتها مفروشة بالحصير والسجاد ؛ وكان فى الغرفة نافذتان تطلان على فناء داخلى ؛ يضاف إلى ذلك أن جوانب الغرفة الخالية ، التى كانت مشغولة من قبل بحيوانات الأوانى الزجاجية ، كانت توحى بأن هذه الغرفة ، كانت ، من قبل ، مخصصة للحريم . والمعروف أن الجماع ، أو إن ذلك كذبا وافتراء عليهم ، كان شيئا شائعا بين الأمراء القرامطة . وأغلقنا الباب خلفنا ، وأشعلنا غليونينا ، ودخنا ما شئنا (مستهدفين بذلك إبعاد البعوض عنا) ، ثم نمنا بعد ذلك .

وأمضينا اليوم التالى ، بين قهوة فرحات ، والتجوال فى القلعة ، وفى مدينة القطيف ، وفى البساتين ، وعلى شاطئ الخليج ، وكنا طوال الوقت نستفسر بطريقة عشوائية عن السفن وعن البحارة . والقطيف تشكل ما يمكن أن نعده تناقضا تاما مع الخصائص والسمات العامة السائدة فى الجزيرة العربية . ذلك أن الحياة النباتية الفاخرة فى بساتين القطيف تفوق بكثير مثيلتها فى حدائق وبساتين الهفوف جيدة الرى ، يضاف إلى ذلك أن أوراقها النباتية الغزيرة التى تتدلى فى الهواء الرطب أثارت فىَّ ذكريات فصل المطر فى كونكان Concan ، كما أيقظت فىَّ أيضا تلك الأحاسيس التى كانت نائمة فى داخلى منذ سنوات طبيعية . والمياه التى تتغذى عليها أشجار النخيل طعمها مالح ، والسبب فى ذلك أن الأرض هنا ترتفع ارتفاعا قليلا عن مستوى سطح البحر ، مما يسهل على مياه المد أن تصل إلى مسافة بعيدة خلال المزارع ، وتجعل ماء البحر يختلط بمياه الينابيع الغزيرة التى تنحدر من التلال إلى ناحية الغرب . والغريب فى الأمر ، أن أشجار النخيل ، شأنها شأن أشجار جوز الهند ، تترعرع على المياه المالحة التى لا تسبب لها أى ضرر من الأضرار . وبيارات النخيل فى القطيف تمتد عدة فراسخ على شكل حزام عريض يمتد بطول الساحل ، وإذا كان إنتاج نخيل القطيف يقل جودة عن إنتاج نخيل الاحساء ، فإنه يتفوق عليه من حيث الكمية . كما تنمو فى القطيف أشجار الليمون والحمضيات ، إضافه إلى الخضروات بكل أنواعها ؛

كما ينمو القمح أيضا في القطيف ، برغم أن الغذاء الرئيسي للسكان في هذه المنطقة هو السمك والأرز . والأرز رخيص في القطيف ، والسبب في ذلك يرجع ، إلى الاتجار في الأرز الهندي عن طريق البحرين .

ومدينة القطيف ، برغم زيادة الرطوبة فيها ، غير جاذبة للزوار ، وليس فيها ما يمكن أن يضيفوه إلى ثقافتهم . وقد لاحظت شريطا من الأرض ممهدا ، كان يقع بالقرب منه عقد ، يبدو أنه كان ينتمي إلى تلك الأيام الخوالي التي كانت القطيف فيها عاصمة لهذه المنطقة . وقد ظن أهل المدينة أننا نجديون بحكم الثياب التي كنا نرتديها ، وكانوا يأتون ببعض الحركات التي تنم عن سوء الطوية ، عندما كنا نمر عليهم ؛ وأهل القطيف نشيطون ولكنهم ليسوا بشوشين . وأنا لا أعتقد أن موقف أهل القطيف من اختيارهم . ونظرا لأن مناخ القطيف غير صحي ، ونظرا أيضا لافتقارها إلى المواصلات الجيدة مع الداخل ، فإنها تستعيض عن ذلك بميناء يملأ الطين نصفه ، ولا يستقبل سوى أصغر المراكب البحرية ، بل إنه لا يستقبل هذه السفن إلا أثناء حدوث المد فقط . زد على ذلك ، أن الضفاف الرملية ، التي تندفع في كل الاتجاهات ، تجعل الدخول إلى الميناء عملية صعبة ومحفوفة بالمخاطر . وعلاوة على ذلك ، فإن البروزين الشمالي والجنوبي يحميان الخليج ، ومعه كلا من جزيرة طاروط وجزيرة سويق .Soweyk ، وهو يناسب تماما التجارة مع البحرين ، ومع أبو شهر ... الخ . ولو قدر لهذا الميناء أن يُطَهَّر وينظم ، فربما تحول إلى مرفأ يجدر به أن يحمل مثل هذا الاسم ؛ ولكن التحسينات التي من هذا القبيل ، يندر أن تتحقق في ظل الحكم الوهابي .

كنا في وقت الظهيرة عندما عثرنا على ربان أحد المراكب ، التي كانت ستبحر في الليلة نفسها ، نظرا لأن الريح والمد كانا يسمحان بذلك . وكان رجال فرحات قد تحدثا إلى ذلك الربان ، وأعرب عن موافقته على سفرنا معه . واتجهنا بعد ذلك إلى مأمور الجمرك لندفع رسوم السفر عن الأفراد والبضائع . وقد ثبت أن مأمور الجمرك ، وأنا لا أدري إن كان ذلك بتعليمات من فرحات أم بمحض إرادته وميوله هو - كان رائعا للغاية ، وأبلغنا أن تحصيل ولو فارذنج واحد على سبيل الرسوم ، من خدم مفيدين للشعب مثل الأطباء ، سيكون " شين وخطأ " . والمؤسف ، أن موظفي الجمارك الأوربيين بعيدون تماما عن هذه المشاعر الوطنية الطيبة ! وأخيرا ، قام مأمور الجمرك ، من تلقاء نفسه ، بإرسال بعض الرجال ليحملوا متاعنا وينقلوه عبر المياه العميقة وعبر

الوحل إلى ذلك المركب الصغير الذى يطلقون عليه اسم القطر ، الذى كان يبعد عن الشاطئ حوالى خمسين ياردة عن الشاطئ . ويحل المساء ، ويرسل فرحات فى طلبنا ، كى يحيينا ويودعنا ، وكله أسف لأنه عثر بمثل هذه السرعة ، على المركب المطلوب . كما أبلغنا فى الوقت نفسه ، أنه كان معزوما على تناول العشاء مع أحد تجار البلدة الأثرياء ، وأننا مطلوب منا أن نحضر العشاء معه ، وأننا يجب ألا نقلق على رحلتنا ، نظرا لأن ربان المركب كان هو أيضا معزوما على العشاء ، فضلا عن أن المركب لن تبحر قبل أن يكتمل المد عند منتصف الليل .

وبناء على ما تقدم ، اتجهنا بعد غروب الشمس ، على شكل موكب ، على رأسه حاكم مدينة القطيف ، إلى منزل المضيف . كان المسكن مكون من ثلاثة طوابق ، وكان أثاثه ، ومحتوياته ، وترتيباته ، وغرفه الصغيرة ، ونوعية السجاد الذى كان مزينا بحليات صغيرة ، تعكس ذوقا فارسيا أكثر منه عربيا . وكانت النرجيلات جاهزة ومستعدة وموضوعة فى نيش جانبى لمن يريد أن يستعملها ؛ وبينما كان فرحات وكبار رجال حاشيته ، ونحن معهم ، نجلس فى الديوان المزود بالحَشيَّات أغرقنا المضيف بماء الورد ، "أربع مرات" ، وقدِّم لنا الشاى فى فناجيل خزفية جميلة ، بواسطة صبية من الخدم المهندمين على الطريقة الشيرازية والإصبهانية . ومع كل ذلك ، فقد كان الحديث كئيبا إذ كان يدور حول بالات القماش وأكياس الأرز ؛ وكان أهل المدينة الذين كانوا يشكلون ثلثى الحاضرين ، غير مهتمين بما يدور فى الرياض وعنيزه ؛ الواقع أنهم كانوا مهتمين بما يمكن إخفاؤه أكثر من ذلك الذى يمكن كشفه ، فى الوقت الذى كان يراعى فيه فرحات وجماعته الالتزام بالجدية والصرامة التى تليق بالمؤمنين الحقيقيين فى حضرة الكفار أصحاب الفكر الحر . وقد استغرق العشاء وقتا طويلا ؛ إذ كان مكونا من خمسة أصناف ، إضافة إلى بعض الأطباق الفرعية الفارسية الصغيرة من الحلويات غير المعروفة فى هذه المنطقة ، علاوة على أدوار لا نهاية لها من الشاى ، ولم ننهض من على العشاء إلا عند منتصف الليل . وهنا تمنى لنا فرحات رحلة طيبة ، وأصر على أن نرسل له خطابا من البصرة نبلغه فيه بوصولنا إليها سالمين . وأنا لم أرسل ذلك الخطاب قط ، لسبب بسيط ، وهذا عار علىّ أنا ، مفاده أننى لم أتذكر قط ذلك الطلب حتى هذه اللحظة (٢٠ يوليو من العام ١٩٦٤ الميلادى) ، عندما كنت أجلس على شاطئ إحدى البحيرات الألمانية وسط أشجار الصنوبر وأشجار الزان ، وخطر

ببالي شاطئ القطيف الطيني العامر ببيارات النخيل الكثيف . وهكذا " فإن الأزمان تتغير ونحن نتغير فيها " Tempora mutantur et nos mufamue inillis . وليكن الأمر كذلك ؛ ومع ذلك قد تختلف القشرة الخارجية ، ولكن جوهر الحكومة البشرية واحد في كل مكان .

وقبل أن أغادر القطيف أود أن أضيف شيئا عن حاميتها النجدية . إن هذه الحامية شئ كئيب ، وتقل كثيرا جدا عن حاميتنا الموجودة في عدن من حيث الأفراد والضباط . وحامية القطيف معزولة عما حولها بسبب عداء الناس لها من ناحية ، وبسبب المخاوف التي تنتاب أفراد هذه الحامية داخل الأسوار التي يحرسونها ، في ظل مناخ غير مناسب ، وأجور لا تختلف عن تلك التي يحصلون عليها من منتجات أراضيهم ، في حين أن التقشف الشديد يحرم عليهم ألعاب تزجية وقت الفراغ ، ويحرّم عليهم شرب الدخان ؛ وأنا لم أر في حياتي مثل هؤلاء العرب الذين يعانون من الاكتئاب ومن "الضجر والملل والسأم" ، أو من الأشياء الأخرى التي تدعو إلى " التثاؤب "، الذي لا يستطيع النوم أن يضع له حدا ". وكثير من أفراد هذه الحامية مرضى ؛ وجميعهم روحهم المعنوية متدنية . وتتراوح مدة إقامتهم هنا بين عامين ، وثلاثة أعوام ، ولكن بعضهم قد يستمر فترات أطول من ذلك . وأفراد الحامية غير مسموح لهم هنا بالزواج من إناث المدينة ، كما أنهم لا يشاركون ، في معظم الأحيان ، في التسلية ، التي تنجم عن الاتصالات الاجتماعية . ومن ثم ، فأفراد هذه الحامية يعدون فريسة لـ "الهموم" Heimweh ، ولا عجب في ذلك وأنا لن أنسى مطلقا مدى الحزن الذي كان يعتصر شابا مسكينا من شباب العارض ، أنهكه الحنين إلى الوطن هو والحمى ، وهو ممدد على فراش مرضه في قلعة القطيف . وكان حزنه الشديد ينصب على جبال العارض ، وأعلن على الملأ ، أن كل همه يتمثل في رؤية هذه الجبال مرة ثانية ، تصبح بعدها مسألة الحياة والموت عنده أمرا واحدا ؛ غير أن فكرة وفاته في هذه الإثارة الكريهة إليه ، كانت تسبب له حزنا لا يطاق . والواقع أن الرجل الإنجليزي الموجود في هونج كونج لا يحس الغربة أو يشعر بها مثلما يحسها نجدي مغترب في القطيف . وقد جلست ساعة أو بعض ساعة بجانب ذلك الصبي ، وحاولت أن أواسيه عن طريق الأخبار السارة التي كنت أحملها من الرياض ؛ ولم أقو على التخلي عن توسله لي بأن أظل إلى جواره وأن أطيل حديثي معه عن نجد .

وعدنا بعد تناول العشاء على أضواء المصابيح إلى القلعة ؛ وكان متاعنا قد تم نقله بالفعل إلى البوابة البحرية ، التي كان يقف أمامها اثنان من رجال القبطان ينتظراننا . وهبطنا بصحبتهما إلى الشاطئ ، ثم رفعنا ملابسنا إلى وسطنا ورحنا نخوض خلال الماء نحو المركب ، وسط صعوبات بالغة ، نظرا لأن المد كان يتزايد بشكل سريع جدا ، وكدنا أن نسبح كي نصل إلى المركب . وأخيرا وصلنا السفينة ، وقفزنا على جانبها ، وشعرت بمنتهى السعادة عندما وجدت نفسي في البحر مرة ثانية وعلى الجانب الآخر من الجزيرة العربية .

الفصل الرابع عشر

البحرين وقطر

عندما تخلَف الليل وراءنا
فى القرب السحيق ، معتمًا وأعمى ،
وعندما يكون الظهر الأزرق فوقنا ،
والنافيخ
العديدة تهمهم تحت أقدامنا ،
حيث الأرض والمحيط يلتقيان ؛
والأشياء كلها تبدو واحداً فقط
فى هذه الشمس الكونية .

شيلى

طاقم بحارة بحرينى - البحارة العرب - ميناء القطيف - عيد الميلاد فى البحر - مسافرون نبلاء - صورة عامة لعائلة خليفة - زنجى متعلم - جزيرة البحرين - المحرق والمنامة - شكلهما العام - الوصول إلى المنامة - اليوم الأول فى المنامة - استئجار مسكن - المسكن البحرينى - المنامة -المنامة من الداخل - ميناء المنامة - القلعة الداخلية - البحرين - سكان البحرين - أهل المنامة - الغرباء - حال الجزيرة - التغييرات التى حدثت مؤخرا - صيد اللؤلؤ - الحرف الأخرى - الثروة الحيوانية - حال الحكومة الحالية - ملاحظات عن التسامح- عاصفة شتوية - وصول أبى عيسى - خطة زيارة عمان - يوسف بن خميس - الفراق - الوصول إلى المحرق - قلعة المحرق

- مدينة المحرق من الداخل - رئيس من آل خليفة - مغيث القادرى - مفاهيم ومبادئ القادرية - عينة من شعر القادرية - عاصفة عند منتصف الليل - الإبحار إلى قطر - الماء العذب ينبثق من البحر - شواطئ البحرين وقطر - رأس ريكان - البداع - وصف قطر - مصايد قطر - حكومتها - بدو المناصير - أبراج المراقبة - بنو ياس - آل مرة- محمد بن ثانى- مسكنه وشخصيته - الحياة فى قطر - البداع من الداخل - المساجد - زيارة الدوحة - زيارة وكره - جماعة من الصقارة العرب - "أسدان" بدويان - الدهناء- اتساعها وطبيعتها- الحميريون- تاريخ الحميريين - مغادرة قطر - سفينة وطاقم بحارة من بر فارس - الكرم البحرى - وصف بر فارس وسكانه - صخور هلول - عاصفة - النزول فى شاراك - العادات السائدة على الساحل - زيارة الرئيس - آخر أخبار عنيزة- مصير هذه المدينة ومصير التاميل- نزهة فى الشاراك - الإبحار إلى لنجا - شكل البحر المضيئ - التفسير الوهابى - مقدمة لتاريخ عمان .

كان مجموع أفراد طاقمنا ستة أفراد ، هم الربان وخمسة من الرجال ، وكانوا جميعا من جزيرة المحرق ، التى نتجه إليها الآن ، وكانوا جميعا لهم سمات سكان هذه الجزيرة . إذ كانوا يميلون إلى القصر ، والنحافة ولكن بنيتهم كانت قوية ، وبشرتهم داكنة ، ووجوههم من النوع المعتاد الذى يسر الناظرين ، وكانوا جميعا بلا لحى ، وبشرتهم ناعمة مثل بشرة الهندوس ، لقد كانوا عينات جيدة من ذلك العرق الغريب - الأنباط ، إذا صح ما يقوله الموروث المحلى ، ولكنهم تهجنوا مع كل من الفرس ، والعرب وكذلك الدم العمانى إلى أن أصبحت لهم سمات خاصة بهم ، مع سمة شخصية تميز كل فرد على حدة . وأفراد هذا الطاقم ملاحون أجواد ، ورجال مال وأعمال من نوعية جيدة أيضا ، والجانب الذى يهم كل من يسافر معهم ، هو أن هؤلاء الناس مؤدبون ، ومتمدينون ، وبشوشون ، ومرحون فى أغلب الأحيان ، ولذلك يمكن مقارنتهم ، من الناحية الاجتماعية ، وليس من الناحية البحرية أو الملاحية ، بكثير من أطقم سفن السكُّونه[1] الشراعية الأوربيه . وثياب هذا الطاقم غريبة جداً ؛ إذ تتكون من إزار كبير من القماش الملون يلف حول الوسط ، يربط بإحكام بين الرجلين أثناء أداء العمل ، ولكنه يترك فوق الركبتين فى غير أوقات العمل ، ويلبسون بدلة شغل من فوق هذا الإزار ، ومنديل كبير يعقد حول الرأس ، أو قد يلبسون العمامة بدلا من المنديل عند اعتدال الطقس وأثناء فترة الراحة عندما يتجولون على ظهر المركب ؛ أخيرا

(١) السكُّونة : مركب شراعى ذو صاريين أو أكثر - (المترجم) .

فهم يتشحون بمشلح كبير لونه بني مائل إلى الإحمرار يضعونه على أكتافهم ، ويعدونه مكملا لعداتهم ومستلزماتهم البحرية ، وهذا الزى أخف وأسرع من الزى الذى ترتديه أطقم فان ترومب Van Tromp والذى يتكون من سبع سترات يصعب وصفها أو الحديث عنها وست سترات أخرى من النسيج الصوفي الغليظ . وأطقم هذه السفن البحرينية لا تستطيع أن تفرقهم عن أهل البلاد عندما ينزلون إلى البر . وأفراد هذه الأطقم على علم تماما بكل مداخل ومخارج ، وخلجان البحر الضحلة في البحرين ، وإذا ما خاطرت إحدى السفن الغربية بالدخول إلى متاهة الممرات ، دون عون من البحارة الوطنيين ، فإن ذلك سيكون من قبيل التهور والاندفاع .

وسوف يتضح لنا ، من بقية هذا الكتاب ، أن البحارة العرب كثيرون ؛ ولكنهم لا يشكلون طبقة متميزة من طبقات المجتمع ، ولا يمكن وضع حد فاصل بينهم وبين سكان اليابسة . وابن نبتيون[1] Neptune هنا لا يسخر من مَنْثُور سيريس[2] أو من مَنْثُور مركيورى[3] ولا يعتبرهما عدوين له ، مهما قل شأنهما ؛ إضافة إلى أن البحار الغر لا يسخر من الملاح العربي أو يحتقره ، نظرا لأنهم جميعا مشاعرهم واحدة وعاداتهم واحدة أيضا . والسبب الرئيسي وراء انعدام هذا الانغلاق الطبقى يرجع من ناحية إلى الفترات الطويلة التي يقضيها هؤلاء البحارة على البر وقصر المدة التى يقضونها فى الإبحار على مياه هذا الخليج ؛ وهذه الظروف هى التى تقلل من هذه النزعة الانغلاقية عند البحارة ، وتجعلهم يقتربون من أهل البَرِّ . ولو قدر للعربى أن يبحر فى المحيط الأطلسى ، أو بين مجموعة جزر المحيط الهادي ، لأصبح شبيها " ببحارتنا " وملاحينا سواء أكانوا فى البحر أو على البر . ومع ذلك فإن واقع الأمر يقول : إن سلوكيات كل منهما الثابتة ، هى التى تشكل القاسم الأخلاقى المشترك بينهما .

رحب بنا رباننا ، مُليك Moleyk ، على ظهر مركبه ، وصنع لنا على الفور دورا من القهوة . ورحنا ندخن ونحن على يقين أننا أصبحنا بعيدين عن نطاق الأراضى الوهابية، وبعيدين أيضا عن متناول القواعد التى تقول :" ممنوع التدخين" ، ثم دلفنا بعد ذلك ، وبلغة البحارة ، إلى إحدى الكبائن بالقرب من مؤخرة المركب ، ورحنا فى ثبات عميق ؛ وفيما يتعلق بى أنا شخصيا ، فأنا لم تزعجنى كل تحركات البحارة ، أو عَدْوِهم ، أو أصوات أقدامهم ، أو صياحهم وهم يعِدون المركب للإبحار .

(١) اله البحر عند الرومان – (المترجم) .

(٢) سيريس Ceres إلاهة الزراعة عند الرومان – (المترجم) .

(٣) رسول الآلهة وإله التجارة والفصاحة والمكر واللصوصية عند الرومان – (المترجم) .

وفى صباح اليوم التالى ، الموافق الرابع والعشرين من شهر ديسمبر ، اكتشفنا أننا أصبحنا على بعد عدة أميال فى عرض البحر ، ونتمتع بمنظر الساحل ، وشواطئه المستوية ، وبيـــارات النخيل ، "ورماله الوامضة وابيضاض خلجانه "، كما تمتعنا أيضا بمنظر الجزر الصغيرة التي تنتشر هنا وهناك ، ومنظر قلعتي دامان Damàn وداريم Dareem المتقدمتين ، ومن خلفهما الحدود الهرمية الخارجية لجبل مُشَهَّر ، الذى كان يمثل الأرض المرتفعة الوحيدة ضمن هذا المنظر . كانت القطيف نفسها تقع عند قاع الخليج ، وقد بلغت من الانخفاض مبلغا تعذر معه علينا أن نراها . ومع ذلك ، فإن خطوط القلعة كان لها تأثير مشهود على رأس التنورة ، وأعادت إلى أذهاننا أيام الحملات البرتغالية والهولندية التي نزلت على هذه الشواطئ ، التى تركوها الآن لمواردها الخاصة الهزيلة .

كان مركبنا قد تجاوز تماما أطراف الخليج المستدقة ، وتمنيت مع بركات أن نواصل إبحارنا في مرح وسرور ، إلى قناة البحرين ، وفجأة خاب أملنا ، عندما أبلغنا الربان أنه سوف يأخذ بعض المسافرين من قرية السويق . Soweyk ، التي استطعنا تمييز حدودها الخارجية البيضاء ، على الطرف الجبلى المستدق الذى تقع عليه قلعة داريم ، كما أبلغنا أيضا أننا يتعين علينا الاقتراب من البر لنُقَلّ هذه الحمولة قبل أن نواصل السير فى مسارنا المعتاد إلى ميناء الوصول . والربان فى مركبه ، هو الملك المطلق ، والقوانين البحرية كلها لا تعترض على ذلك ، سواء أكانت قوانين أوربية أم شرقية . واستسلمنا في صمت ، وعند الظهر لففنا أشرعتنا فى عكس اتجاه السويق ، ونحن على مسافة تقدر بحوالي مائتي يارده من ذلك الذى نعتبره براً أثناء المد ، ولكنها كانت تشكل حاجزا من الطين والوحل والرمل أثناء الجزر . ورحنا ننتظر ، فى هذا المكان ، وصـــول مـــعـــارفنا المرتقـبين ، الذين حـــافظوا على وقـــارهـم ، لكونهم من الشخصيات البارزة ، بأن جعلونا ننتظرهم أربعا وعشرين ساعة ، قبل أن يتكرموا علينا بصحبتهم .

وبذلك يحل علينا عيد الميلاد دافئا وساكنا فى المكان الذى كنا فيه " بلا عمل مثل سفينة مرسومة على محيط مرسوم " ، نتطلع بين الحين والآخر إلى وصول أولئك المعارف المسافرين، الذين يبدو أنهم قد نسوا تماما ارتباطاتهم السابقة . وفى النهاية ، نفذ صبر الربان نفسه ، ورفع ملابســـه وخاض فى الماء إلى أن وصـــل إلى البر ،

الذى عاد منه بعد الظهر ، ومعه هذه الشحنة الإضافية من البشر ، وأصبح اللون الرمادى يرقش اللون الذى كان سائدا على المركب من قبل .

كان أول هؤلاء المعارف رئيسا شابا من أسرة آل – خليفة ، ابنا وحيدا ، ووارثا لثروة كبيرة ؛ وكان برفقته عمه الصارم المحترم ، يليه بعد ذلك خادم عبد مهندم ومثقف ؛ وكان معهم أيضا اثنان من أقارب الرئيس غير المباشرين ، وكان معهم سيدة داكنة البشرة بلغ بنا الأدب مبلغا جعلنا لا نسأل عن وضعها المنزلى ، وبذلك يصل إجمالى عدد هؤلاء المعارف إلى حوالى ستة أفراد . ولكن قبل الدخول فى المزيد من التفاصيل ، قد يكون من المفيد أن أجعل القارئ يتعرّف ، بشكل عام ، على عشيرة خليفة الأرستقراطية ، ذلك الاسم الذى يعرفه القاصى والدانى فى هذه المنطقة ، ولكنه ربما كان أقل ذيوعا فى آذان الأوربيين .

وأسرة آل – خليفة هى نفسها من أهل الأحساء ، وليست من الهفوف ذاتها ، وقد ظلت هذه العائلة طوال قرنين من الزمان على أقل تقدير (وأنا أعتقد أن الفترة كانت أطول من ذلك) ، ولكنى لم أستطع العثور على بيان دقيق يحدد ذلك التاريخ القديم) تتمتع بالسيطرة على جزر البحرين ، حينا باسم حكام القطيف من القرامطة ، وحينا آخر بدعم من السلطة الفارسية ، وحينا ثالثا باعتبارها تابعا لـ – عُمَان . ولكن بغض النظر عن تبعية آل – خليفة الاسمية ، فإنهم كانوا يحكمون البحرين نفسها حكما يكاد يكون مطلقا ، دون أن يتخلوا عن أراضيهم الجميلة وتراثهم الجميل فى الأحساء وعلى ساحل القطيف . وبعد حوالى عشر سنوات من الاضطراب الذى حدث بين آل – خليفة نتيجة الصراع العائلى ، الذى قام خلاله ، فرع صغير من فروع العائلة ، يتزعمه محمد الخليفة (الذى يشغل منصب حاكم البحرين حاليا) بطرد أقاربهم من الجزيرة ، بعد أن ظلوا فترة من الزمن يشغلون منصب الحاكم المناب ، وأجبروهم على الرحيل إلى الأرض الأم ، ليصبحوا فيها رعايا لـ – فيصل مع بقية سكان الاحساء . ونشبت الحرب في أعقاب ذلك ، وتعقدت الأمور بسبب التدخل الإيرانى ، والتدخل العمانى ، وكذلك التدخل النجدى ، علاوة على الرسائل التى كانت تصل ، بين الحين والآخر ، من الحكومة التركية فى بغداد ، إلى أن أمكن فى النهاية تسوية الموقف عن طريق وضع دفة إدارة أمور البحرين بين يدى محمد الخليفة على شكل إقطاعى تابع للسلطان الثوينى ، حاكم عمان ، والتزام بأن يدفع لـ – نجد جزية سنوية مقابل الهدوء وراحه البال .

وحصل أبناء عم محمد الخليفة ، المنهزمين ، على بعض الامتيازات من الحكومة الوهابية ، التى ساندتهم فى المعركة السابقة ، ولكنهم اضطروا ، منذ ذلك الحين فصاعدا ، إلى الاكتفاء بممتلكات الأسرة فى المنطقة المحيطة بكل من داريم وسويق ، وتنازلوا عن مطالبتهم بالمياه وبالبحرين . وقد بدأت هذه الحرب بمعركة بحرية كبيرة سبقت الإشارة إليها ، والتى تحول الوهابيون فيها إلى بحارة ، وأغاروا على البحرين وهاجموها باستعمال السفن ؛ وقد أدى انهزام هذه الحملة ، التى كانت تهدف إلى إعادة فرع ابن خليفة إلى العرش ، كذلك والاستفادة الجيدة من النصر الذى حققه محمد الخليفة ، إلى إبرام المعاهدة التى سبقت الإشارة إليها .

وعائلة الخليفة ، باستثناء بعض عادات الإسراف فى الشراب ، والتى تعزى – برغم أن ذلك لا يمكن أن يكون عذرا أو مبررا – إلى الثروة والسلطة ، عبارة عن مجموعه مقبولة من الرجال ، الذين لا تسيطر عليهم النزعات الدموية التى تسيطر على الرؤساء النجديين والوهابيين . وبناء على ذلك ، فإن آل – خليفة تحولوا ، عقب أن وضعت الحرب أوزارها ، إلى أصدقاء من جديد ، ولم يحاول أحد منهم الإخلال بالترتيبات الجديدة التى تم التوصل إليها – كانت الشخصية النبيلة التى معنا على ظهر المركب رئيسا للحزب المنهزم ، وكان يقوم بزيارة إلى عمه المنتصر محمد الخليفة ؛ الذى كان يسكن فى مدينة المحرّق ، التى لا تبعد كثيرا عن مدينة المنامة ، برغم أن ذراعا بحريا ضيقا يفصل بينهما .

ومع وجود هذه الشخصيات المهمة على ظهر المركب ، تنازلنا ، من منطلق أننا كنا من المحترفين العارفين بمثل هذه الأمور ، لهذه الشخصية النبيلة ومن معها ، عن الكابينة الموجودة على ظهر المركب ، واتخذنا لأنفسنا مكانا فى وسط المركب . ولكن صديقنا الوسيم ، عروس ، لم يسمح لنفسه بالانهزام فى مباراة المجاملات هذه ، ودعانا إلى أن نشاركه المكان الذى يجلس فيه ، ونشاركه طعامه أيضا ، وقبلنا دعوته بكل سرور ، والسبب فى ذلك أن المكان الذى كان يقيم فيه والطعام الذى يأكل منه كانا أفضل بكثير مما لدنيا . ودار بيننا بعد ذلك حديث طويل ، وعمنا كثير من المرح والسرور ؛ غير أن النكات والطُّرف المحلية تفقد مغزاها إذا ما أعدنا إلقاءها على بعد يتردد بين أربعة أو خمسة آلاف ميل ، وبعد انقضاء عامين على إلقائها أول مرة .

ودار بينا وبين العبد الخادم ، الذى كان يدعى ظاهل ، حديثا "مفيدا" ومهما . ومن الواضح أن الخادم كان ذكيا ، ومتحدثا بارعا رغم هدوئه ؛ وكان ملما بكل الموضوعات التى تطرق إليها الحديث ، سواء أكان ذلك من الناحية النظرية أم العلمية ، بين الوهابيين وجيرانهم . وكان من الواضح أن ظاهل ، شأنه شأن غالبية " أبناء جلدته " ، أو إن شئت فقل الزنوج (العبيد) كان يعارض الأحكام الصارمة والمميتة معارضة شديدة ، كما أنه لم يخف انحيازه إلى مسيلمة ، الذى جزم بأنه كان رجلا " لطيفا " وكريما ، وشجاعا .. وما إلى ذلك ؛ كما أنه لم يخف أيضا استياءه من الأحكام التى سادت الرياض مؤخرا . ونقلا عن ظاهل ، فإن تعاليم مسيلمة كانت أساسياتها تتفق مع أساسيات أبو سعيد الجنابى القرموط ؛ وأن الحقيقة التى مفادها أن أساسيات أتْباع " النبى الكذاب "(مسيلمة) ، الذين فضلوا ، بعد أن نجوا من سيف خالد بن الوليد ، النَّفى على اعتناق الإسلام ، والذين انسحبوا بصفة أساسيه إلى كل من الأحساء والقطيف ، هذه الحقيقة ، ربما ترجح أن الثورة القرموطية التى اندلعت بعد ذلك فى منطقة الاحساء ، والقطيف ، ربما كانت امتدادا ، برغم التغييرات والتعديلات التى طرأت عليها بحكم الزمن ، لتلك الحركة التى ابتدأها مسيلمة . ومن هنا ، يتوفر لنا دليل آخر على كراهية القرامطة المريرة لكل من يحملون اسم الإسلام من ناحية ، وعلى انتقامهم الذى لا يعرف لينا ولا هوادة من سكان المناطق التى كان يعيش فيها أتباع محمد ، وفى مقدمة كل هؤلاء أحفاد تميم ، الذين كان القرامطة يعدونهم مرتدين عن القضية الوطنية النجدية القديمة .

وبينما كنت أتحدث مع ظاهل ارتفع المد ، وطفى مركبنا مرة ثانية على الماء . ولكن ريح الشمال ، أفضل صديق لنا فى طريقنا من القطيف إلى المنامة ، لم تهب ، وأعقبتها عواصف عاتية ، وضقنا على امتداد أربع وعشرين ساعة فى حركه متعرجة إلى الأعلى وإلى الأسفل ، دون أن نصيب أى تقدم . أخيرا طالعتنا فى عصر اليوم التالى جزيرة البحرين ، ومع دخول المساء كنا قد اقتربنا تماما من هاتين الجزيرتين اللتين تحملان هذا الاسم . والجزيرة الأكبر من هاتين الجزيرتين ، هى الجزيرة الجنوبية ، ولذلك فهى التى يطلق عليها اسم البحرين ، فى معظم الأحيان ، مع استبعاد الجزيرة الشمالية من هذه التسمية ، إذ أنها يطلق عليها اسم المحرق . والجزيرة الجنوبية يطلق عليها اسم البحرين نظرا لوقوع العاصمة على أرضها . ويفصل بين الجزيرتين ذراع بحرى ضيق يقل اتساعه عن ميل واحد ، ومياهه ضحلة تماما .

وقد شاهدت الخيالة ، وشاهدت المشاة أيضا (برغم أن الماء كان يصل إلى صدورهم فى بعض الأماكن) وهم يعبرون هذا الذراع أثناء الجذر . والبحرين هى والمحرق منخفضتان إلى أبعد حدود الانخفاض ؛ والواقع أن المحرق ليست سوى أرض منخفضة ضحلة تبزغ فوق مستوى سطح البحر مباشرة ؛ وعلى كل حال ، فإن تربة المحرق من النوع الخفيف ورملية ، ومن ثم فإن تربة المحرق تعد أجف وأصح من تربه جارتها البحرين ، التي يعد الجانب الغربي منها أرضا منخفضة أيضا ، ولكنه مكون من تراب لزج داكن اللون ، درجة رطوبته عالية جداً مما يجعله يشبه الإسفنج تماما . وجزيرة البحرين تأخذ في الارتفاع في اتجاه الشرق ، بل إنها قد تبدو مثل ذلك الذى يمكن أن نطلق عليه من باب التأدب اسم " الجبل " أو " المرتفعات " – والواقع أن هذه الجبال والمرتفعات ليست سوى تلالا ، يقل ارتفاعها عن ارتفاع سلسلة تلال جرامبيان Grampian ، غير أن سلسلة هذه التلال منعزلة مما يجعلها تفيد من المسطحات المحيطة بها .

وقبل أن ننزل إلى البر ، يجب أن أضيف هنا أن المواقع المسبورة فى الماء المالح فى المسافة ما بين القطيف والبحرين من النوع الضحل ، إذ لا يزيد عمقها على ست قامات[1] إلا فى بعض الأماكن القليلة جداً ، فى حين أن السواد الأعظم من المواقع عبارة عن أماكن ضحلة جداً يظهر قاعها عند حدوث الجذر . والأمواج المتكسرة هنا لا خوف منها ، كما أن الناس هنا لا يخشون عنف الموج فى هذه المنطقة ، وإنما هم يخشون الارتطام بالأرض ، الذى يتعرض المرء له فى كل لحظة . ومن هنا جرى العرف أن تلقى السفن مراسيها أثناء الليل وتبحر أثناء النهار فقط – مما يشكل حذرا مرهقا للمسافر العجل .

ومدينة المحرق ، التى تقع فى الجانب الأيمن من الجزيرة التى تحمل اسمها ، تشبه شريطا أبيض طويلا على شاطئ القناة التى تفصل مدينة المحرق عن مدينه المنامة ، التى تحتل مبانيها موقعا متوسطا على الحافة الشمالية للجزيرة الكبيرة .

ومن هنا فإن هذين المرفأين البحريين يواجهان بعضهما ، شأنهما شأن مينائى دوفر وكاليه Calais ، برغم أن مشاعر الود تسود ، من حسن الحظ ، بين هذين

(١) القامة : مقياس لسبر الأعماق طوله ستة أقدام – (المترجم) .

المرفأين ، نظرا لأن الأمر لا يتطلب ، في حالة نشوب الحرب ، من أسطول بولونيا أن يعبر قناة البحرين . والمحرق هي أجمل المدينتين وهي التي تسر الأعين ؛ ومنازل مدينة المحرق البيضاء ، التي تبرزها أكواخ النخيل داكنة اللون (والسبب في ذلك أن اعتدال المناخ هو الذي يجعل هذا الأسلوب من أساليب السكنى أمرا شائعا ، بل ومطلوبا) ، وكذلك قصور آل - خليفة الكبيرة المنخفضة ، والتي تشبه إلى حد بعيد أفضل أنواع الكبائن الموجودة في ملابار پوينت **Malabar Point** أو بريش كاندى **Breach-Candy** (وأنا أضرب هذا المثل من قبيل توضيح الأمور أمام قرائي في مدينة بومباى ، ولكي يكون ذلك من قبيل تكريمهم) ، وكذلك القلعتان أو الثلاث القريبة من شاطئ البحر ، وكذلك البطارية الساحلية الطويلة ، التي تصلح للاستعراض من مسافة معينة ؛ كل هذه الأشياء مجتمعة ، تشكل طاقما واحد يجدر به أن يكون رسما تخطيطيا ، إن لم يكن صورة . ولقد ندمت في تلك الليلة ، لأنني لم يكن معي أدوات الرسم ، برغم أنه لو قدر لتلك الأدوات أن تكون معي ، لكنت قد أسأت استعمالها في حضرة عروس الخليفة ومرافقيه .

وترتفع على طول الخط الرملي المنخفض ، الذي يكمل الجزيرة مجموعات كثيرة منفصلة من الأكواخ المصنوعة من منتجات النخيل ، والتي يتخللها ، من حين لآخر ، منزل أبيض اللون ، أقيم وسط أشجار النخيل الطويلة ؛ والمنطقة كلها يخيم عليها الهدوء والسكون . وبعد ثلاثة أسابيع من الآن ، سوف تنزل على أرض جزيرة المحرق ، ولذلك فأنا أؤجل وصف هذه الجزيرة لحين القيام بهذه الزيارة .

ومع أن المنامة أكبر من المحرق ، إلا أن شكلها غير ملفت للأنظار ؛ والمنامة مركز للتجارة ، كما أنها مقر للحكومة أيضا ؛ ومن هنا ليس في المنامة سوى عدد قليل من القصور ، إضافة إلى قلة المظاهر المعمارية الدفاعية فيها . وعلى كل حال ، يوجد بالقرب من الطرف الغربي من المنامة ، بناية كبيرة بيضاء مربعة الشكل ، موزع فيها بعض المدافع على شكل بطارية من أمام تلك البناية البيضاء ، توضح أن هذه البناية هي مقر إقامة علي الخليفة ، شقيق محمد (الخليفة) والذي يشغل منصب الحاكم المناب في المنامة . ومدينه المنامة ذاتها لا يشرف منها على البحر سوى جزء صغير ؛ والسبب في ذلك أن النسق الأول من المنازل والمتاجر هو الذي يحجب بقية منازل المدينة عن رؤية البحر ؛ وباستثناء القصر ، الذي يقيم فيه علي الخليفة لا توجد أية منازل

أخرى مهمة بالقرب من حافة المياه . والواقع أن منظر المنامة يوحى بالقذارة منذ الوهلة الأولى ؛ والسبب في ذلك أن البحارة والصيادين يشغلون ثلاثة أرباع الشاطئ ، علاوة على أن منازل هؤلاء البحارة والصيادين تفتقر إلى المسحة الجمالية . زد على ذلك ، أن الشاطئ نفسه مكون في معظمه من الحصى القذر . ومن حول مدينة المنامة ، وبخاصة في الناحية الغربية والجنوبية من المدينة ، توجد البيارات النباتية الكثيفة ، كما تتميز هذه المناطق أيضا بالحياة النباتية شديدة الاخضرار التى توحى بخصوبة التربة ، وتحل محل البريق الخاص بمدينة المحرق ، في حين تشكل صوارى قوارب صيد السمك الكثيرة هي والأطواق الصغيرة التى أمام المدينة شكلا من أشكال الحسيكة[١] التي يغلب عليها اللون البنى ، مما يزيد من دكانة Duskness منظر البحر .

ورحنا نبحر ببطئ بمساعدة ريح جانبية ، إلى أن أرسينا مراسينا أمام المحرق قبل غروب الشمس بفترة قصيرة . وفي الحال وصل إلينا من الشاطئ أحد القوارب ، وقام بنقل رفاقنا المسافرين إلى منزل قريبهم الحاكم المناب ؛ في حين بقينا نحن ، لقضاء الليل على ظهر المركب ، نظرا لأننا لم يكن لنا أى هدف من النزول إلى البر . وفي صبيحة اليوم التالى ، استأجرنا واحدا من قوارب الصيد الخفيفة العديدة ، التى كانت تقوم بالصيد فى المياه الضحلة فى قناة البحرين ، وسرعان ما بدأنا نتراقص أمام النسيم ونحن – نتجه صوب المنامة . وبعد حوالى ساعة من شروق الشمس نزلنا إلى البر المنخفض المقابل لجمرك المعاشر .

ومسألة وصول الأغراب إلى هنا، سواء من الشمال أو الجنوب، تعد أمرا متكررا ؛ ومن ثم فإن نظرة عابرة ، أو " تحية الصباح " العابرة كانت كل ما يمكن أن يسترعى الانتباه هنا ، فى مكان النزول ، الذى يعج بالبشر . ونحن من جانبنا لم نفقد الأمل فى أن يكون أبو عيسى قد سبقنا إلى هذا المكان ، وأنه ربما كان ينتظرنا فى حى من أحياء هذه المدينة . وتأسيسا على ذلك ، وضعنا متاعنا الهزيل فى حراسة أحد موظفى الجمرك ، الذى كان عبارة عن مجرد تعريشة صغيرة ، مليئة بالتجار ، والربابنة ، وما إليهم (كل يدخن غليونا إلى حد أن الدخان بدأ يخيم على أجواء هذا المكان الضيق ، وبدأ يتسرب متموجا من خلال فتحات السقف المصنوع من جريد النخيل) ، وبعد أن

(١) الحسيكة : بفتح الحاء وكسر السين ، سياج من أوتاد خشبية مستدقة – (المترجم) .

تجاوزنا بوابة منخفضة ، قصدنا أقرب وأكبر المقاهي الموجودة في هذه المنطقة ، التي يجرى فيها، مثلما كان الحال في دكاكين الحلاقين في الأزمان القديمة، تصيُّد الأخبار ، والبحث عن الزائرين الجدد . كانت ثمانية أشهر قد مضت علينا ، منذ آخر جلسة جلستها في مقهى عام ، في أحد أحياء غزة ، في فلسطين ؛ وكنا قد أمضينا بقية رحلتنا خلال مناطق بلغت من التخلف من الناحية الحضارية أو التقدم من حيث التعصب الديني ، أو الجمع بين هذا وذاك ، مبلغا جعل هذه المناطق لا تسمح بقيام مثل هذه المؤسسات الحضارية . ولكن البحرين تقع خارج نطاق الدائرة الوهابية ، وتشيع فيها إلى حد ما ، أجواء كل من البصرة وإيران . وجلسنا في مرح على المقاعد العالية المفروشة بالحصير ، وسط أهل المدينة المعممين وأصحاب المحلات الذين يرتدون ثيابا مرحة ، حتى يتسنى لنا السؤال عن آخر من وصلوا من ميناء العجير ، الذي كان من المفروض أن يبحر منه أبو عيسى ، وفقا لما اتفقنا عليه قبل أن نفترق عنه . وفي هذه الأثناء ، قام النادل الذي كان يلبس صديرية بيضاء بتجهيز القهوة وتقديمها لنا ، بعد أن قام بتعمير النرجيلات الكبيـــرة هنا بالدخان العماني القـــوى بعبع الرياض ، أو إن شئت فقل : مصدر الفزع والقلق في الرياض ؛ ولكن هنا تغيرت الأمور تماما .

وعلى كل حال ، لم نستطع الحصول على أية معلومات عن ذلك الشخص الذي كنا نبحث عنه ؛ كانت الرياح الشمالية ما تزال تهب ، تلك الرياح التي ساعدتنا في رحلتنا التي بدأناها من القطيف إلى البحرين ، وكانت أيضا غير مواتية لكل أولئك الذين يودون الوصول إلى المنامة قادمين من العجير . وغادرنا المقهى ورحنا نتجول خلال الشوارع والحارات نبحث هنا ونبحث هناك ، وكنا نقدم أنفسنا لكل امرئ من أولئك الذين كنا نظن أنهم قـادرون على تقديم أقل المعلومـات التي يمكن أن تعيننا على الوصول إلى ما نريد ، إلى أن بدأنا نشعر بالحرج من كثرة تساؤلاتنا ، وبدأنا نتخلى عن هذه المهمة الكاذبة ؛ والأكثر من ذلك أننا بدأنا نبحث عن مكان نمضي فيه الوقت طوال إقامتنا المؤقتة ، إلى أن يصل صديقنا قادما من الاحساء .

ولم تكن مسـألة العثور على مكان الانتظار أمرا سـهلا . والسبب في ذلك ، أن البحرين شأنها شأن معظم مدن الشرق ليس فيها لوكاندات بمعنى الكلمة ؛ زد على ذلك ، أن الخانات هنا ، ، مثل أي مكان آخر ، تفتقر إلى مثل هذه اللوكاندات ، علاوة على أن مظهرها غير الآمن لا يجعلنا نسمح لأنفسنا بالسكنى أو الإقامة في أي منها .

وأمضينا ساعات كثيرة في البحث عن مكان ننزل أو نقيم فيه ، وندمنا كثيراً على أن اللافتة المكتوبة بإنجليزية سليمة والتي تقول " للإيجار " لم نشاهدها هنا داخل فترينات المحلات . وفي النهاية دخلنا مقهى جميلا ، يشبه " بيت البحارة " إلى حد بعيد ، وبالقرب من الشاطئ ، من ناحية الحجم ، وطريقة التعامل مع الزبائن . ويتولى صاحب هذا المقهى ، والذى كان رجلا حضريا ، موضوعنا بنفسه ، ويطلب إلى رئيس العمال أن يحل مكانه فترة من الوقت ، ويخرج على إثر ذلك ، يبحث لنا عن مكان ننزل فيه ، وبصحبته بركات ، فى حين بقيت أنا أتبادل أطراف الحديث مع البحارة ، وانظر إلى البحر من خلال تلسكوب مثبت بطريقة خاطئة فى نقطة المراقبة . ويعود الاثنان عند غروب الشمس ، بعد أن عثرا على ما يمكن أن يصلح للإقامة فترة قصيرة ، وهذا هو ما كنا نتمناه . وأعقبت ذلك عقدة صعبة ، كان لابد من حلها فى الجمرك الذى كان فرض على أمتعتنا فيه خمسة ثمان فضة ، وذلك إعمالا لمبدأ "فرض الرسوم الجمركية على الأجانب" ؛ برغم أن المبلغ المستحق كان أقل من ذلك بكثير . ولعل القارئ يلاحظ أن النقود الإيرانية تحل هنا محل النقود العربية ؛ وهذا التغيير مفيد نظرا لسهولة تعرف التسلسل النقدى الشاهى (نسبة إلى الشاه) أكثر من القيم المعقدة المتغيرة لكل من الريال "والقرش" . والملاحظة الثانية ، أن الأجانب يعدون صيدا ثمينا فى كل أنحاء الدنيا . ولكننا أصبحنا الآن أكثر قوة بسبب تحالفنا مع مالك القهوة ، إضافة إلى أننا كان يدعمنا أيضا بحار شاب ، تصادف أن يكون جار لنا فى السكن الذى وافقنا على الإقامة فيه . من هنا ، وجد ذلك الجار ، إنه يتعين عليه أن يتحمل مؤنة الدفا ع عنا ، ولذلك رفضنا أن ندفع أكثر من الرسوم المستحقة ؛ إلى أن تمكنا فى النهاية ، من إجبار الموظفين على التسليم بموقفنا ، لنخرج بعد ذلك متجهين إلى منزلنا قرب حلول الليل . وحملنا متاعنا على حمار ، وعبرنا مكان السوق ، ومعنا صاحب المقهى ، والشاب الذى سبق الإشارة إليه ، وتجاوزنا بعض الحارات الملتوية ، وغير المألوفة ، إلى أن وصلنا فى النهاية إلى المنزل المقصود . ثم دخلنا من باب ضيق ، لنجد أنفسنا داخل مُسَوّر واسع كبير مصنوع من جريد النخيل يصل ارتفاعه إلى حوالى ثمانية أقدام ، والجريد مثبت فى الأرض جنبا إلى جنب ، ومجدول إلى بعضه بإحكام ؛ وكان بداخل هذا المسوَّر كوخان طويلان مصنوعان من سعف النخيل ، وتفصل بينهما مسافة قصيرة ؛ وكان أحد هذين الكوخين لنا ، والآخر للبحار الذى سبقت الإشارة إليه ومعه أسرته . كان طول كوخنا يصل إلى حوالى ثلاثين قدما وعرضه عشرة أقدام ، وكان

سقفه من النوع المنحدر المصنوع من القش ؛ ومن الداخل كان هناك حاجز على شكل عائق يقسم الكوخ إلى كابينتين غير متساويتين ؛ خصصنا الصغيرة منهما لتكون مستودعا ، والثانية للمعيشة . وكانت أرضية الكوخ مفروشة ، وهذا عرف عام هنا ، بطبقة كثيفة من الأصداف الصغيرة جداً ، تكاد تكون كلها من فصيل الأصداف اللولبية ، التي لا يتجاوز طول الصدفة الواحدة منها ثمن بوصة ؛ والصبية هم الذين يجلبون هذه الأصداف من الشاطئ باستعمال السلال ، لتكون بمثابة دواسات عند مداخل الأبواب في المنازل؛ ومن فوق أرضية الكوخ كان هناك حصير كبير من القصب. وبدأنا بعد ذلك ، في اتخاذ الترتيبات الأولية اللازمة لتجميل وترتيب المكان الذي نقيم فيه ، وسرعان ما شرفنا بحضور مالك هذا المكان ، الذي جاء إلينا من منزله الجميل المصنوع من الآجر والجص ، والذي يقع بالقرب من الكوخ ، ليطمئن علينا ، في حين كان خدمه يحملون إلينا ، طبقاً للعرف السائد هنا ، عشاء التحية المكون من الأرز والسمك والجمبرى والخضراوات . وكان من الطبيعي ، أن ندعو أصدقاءنا الذين سعوا كي نعثر على هذا المسكن ، إلى تناول العشاء معنا ؛ وأمضينا سويا أمسية سعيدة ، كنا نشعر خلالها بالأمان والاطمئنان ، ذلك الشعور الذي لم ننعم به منذ أن غادرنا يافا أول مرة .

وفي صبيحة اليوم التالي رحنا نبحث ، من جديد عن أبي عيسى ولكن دون جدوى . فقد قيل لنا : إن أحدا لم يصل من ميناء العجير خلال الأيام القليلة الماضية ، وكانت الريح الشمالية لا تزال غير مواتية وتحول دون تهيئة الفرصة . كان اليوم يوافق الثامن والعشرين من شهر ديسمبر من العام ١٨٦٢ الميلادي ، وكان علينا أن ننتظر بين الأمل واليأس كل يوم إلى اليوم الثامن من شهر يناير من العام ١٨٦٣ الميلادي . وفي الوقت نفسه ، ونظرا لأننا لم تكن لدينا مشاغل كثيرة (إذ أعطيت لنفسي ، وأنا في البحرين ، إجازة من العمل الطبي ، وتحولت إلى جنتلمان) فقد تعرفنا على المدينة ، وتعرفنا على الجزيرة هي والسكان ، وعاداتهم ، التي سأقوم بتدوينها هنا بشكل مختصر ، برغم أني لا أتصور أن هذه الجزيرة تصلح لأن تكون موضوعا لرواية وصفية أقصها على القراء ، وبخاصة بعد أن قام عدد كبير من الأوربيين ، وبخاصة أولئك الذين جاءوا من بريطانيا ، بزيارة شواطئ هذه الجزيرة . ومع ذلك ، هناك أيضا الذين يزورون ، ولا يكتبون أو يصفون ، أو يصورون على الإطلاق . وفيما يخصنا ، فإن التجوال في الشوارع والأسواق ، والثرثرة هنا ،

والجلوس هناك ، وحينا مع صديق موال ، وأحيانا في شجار ، كل ذلك جعلنا أقل حميمية مع المنامة وعالمها الصغير ، مما لو كنا ولدنا وتربينا على أرضها .

والمنامة ، شأنها شأن معظم المدن الساحلية ، طول شاطئها أكثر من عرضه ، برغم أنه يعد عريضا نسبيا ، وعرض الشاطئ فى اتجاه البحر يزيد على ميل وربع الميل ، فى حين تمتد المنازل إلى حوالى ثلث الميل نحو الداخل . ويصل متوسط ارتفاع الأرض ، التى تقع عليها مدينه المنامة ، إلى حوالى اثنى عشر قدما ، بل أقل من ذلك ، فوق مستوى ارتفاع المد ؛ والساحل بعد ارتفاعه الطفيف عند الشاطئ نفسه ، ينحدر مرة ثانية نحو الداخل ، إلى أن توحى المياه المالحة التى تَنَزُّهنا وهناك ، بأن الشاطئ ، شأنه شأن شاطئ هولنده ، لابد أن يكون فى بعض أماكنه أكثر انخفاضا عن البحر الذى يحيط به . والجزء الأكبر من المنازل عبارة عن أكواخ مصنوعة من جريد النخل ، كل منها له مُسَوَّره الخاص ؛ والوصف الذى قدمناه عن المنزل الذى نقيم فيه يصلح أن يكون وصفا عاما لجميع المنازل التى من هذا القبيل . وهذه الكبائن تختلف من حيث الحجم ، ويجرى إنشاؤها على شكل شوارع وصفوف دون مراعاة للقوانين الهندسية . ونصف المنازل التى من هذا القبيل ، يعيش فيها أبناء نبتون[1] الشرقى : الصيادون ، البحارة ، الربابنة ، وما إلى ذلك ؛ ومن ثم فنحن نشاهد عند كل جملون ، وعند كل ناحية خرقة طويلة ترفرف مربوطة على سارية على شكل علم بحرى مثلث الشكل ، لتبين اتجاه الريح ، وبالتالى يتمكن السكان من تنظيم مهامهم ومهنهم . وتختلط بهذه المنازل الحقيرة ، أو قد تنفصل عنها ، تلك المنازل المبنية من الآجر ، أو من الأحجار ، التى أنشئت، بدون لف أو دوران ، طبقا لما يمكن أن أطلق عليه اسم العمارة الفارسية؛ وهذه المنازل ، تكون فى أغلب الأحيان ، أنيقة وواسعة ، وتحتوى على أقواس قوطية ، وبالكونات ، وشرفات ، وأروقة معمدة ، ونوافذ لها شعريات شبكية ؛ وفى هذه المنازل يسكن الأعيان والأثرياء ، والتجار ، والمُلاّك ، والعاملون فى الحكومة . ولكن نصف هذه المنازل آيل للتحلل والسقوط ، كما أن التعقيدات الحالية فى القناطر إضافة إلى النفايات ليست سوى دلائل وإشارات حزينة إلى التحلل الذى سوف أورد أسبابه، حالا، فالسوق، الذى لا يبعد كثيرا عن البحر ، والذى يشكل مكانا فى منتصف طول المدينة ، ليس سوى متاهة من حوارى المحلات الضيقة ، بعضها مقنطر ، وبعضها محمى من

(١) إله البحار عن الرومان – (المترجم) .

أشعة الشمس بواسطة أسقف من القش ؛ وفي وسط هذه المحلات توجد ساحة مربعة الشكل مسقوفة ، يقع فيها المقهى الرئيسى فى المدينة ؛ وهناك أيضا ما لا يقل عن عشرين مقهى آخر بالقرب من الشاطئ . وفى أجزاء كثيرة من المنامة يوجد العديد من المساجد ، القليل منها لأهل السنة وغالبيتها لأتباع المذهب الشيعى .

وفى الطرف الجنوبى الغربى من المدينة ، وعلى شاطئ الخليج مباشرة ، يقع المنزل الفاخر الفخم الذى يقيم فيه على الخليفة ، حاكم المنامة المباشر ومن حول المنازل توجد بعض الحدائق التى تحتوى على قليل من المزروعات ، والسبب فى ذلك أن التربة التى أقيمت عليها المدينة غير صالحة للزراعة ؛ ومع ذلك فإن أشجار النخيل وبياراته الكثيفة توجد بكثرة على بعد ربع ميل فقط من هذه المدينة ، ومن أمام المنازل يمتد الخليج على شكل طبق ، يستحم فى المياه المتلاطمة ، ويتحول فى بعض الأحيان إلى مسطح رملى منخفض ، وتغطيه الأمواج العميقة فى أحيان أخرى ، والذى يصل فيه الفرق بين المد والجزر إلى مستوى ينافس مستوى المد والجزر فى مدينة ووش **Wash** أو فى كلبى **Kelpie** فى "برايد لاميرمور" **Bride Lammermmoor** . ونستطيع أن نتبين هنا كثيرا من السفن التى لا تحصى ولا تعد ، التى تتراوح بين السفن الكبيرة والسفن الصغيرة العربية الصنع ، كما نشاهد أيضا مراكب القطر ، تلك المراكب الشراعية الصغيرة وحيدة الصوارى ، كما نشاهد أيضا مراكب السَّمَاك ، وهى أيضا من المراكب وحيدة الصوارى ، ونشاهد أيضا قوارب صيد السمك ، وكل أنواع المركبات البحرية ، وبعض هذه المراكب مسحوب إلى البر ، وبعضها جانح فى رمل البحر ، وبعض ثالث منها يطفو فوق مياه البحر العميقة . وعلاوة على كل ذلك ، فإن المناخ هنا معتدل والسماء صافية بشكل عام ؛ والناس هنا لا يعرفون البرد ، نظرا لأن السائد هنا هو الدفء المقبول ، برغم أن ذلك يتحول فى فصل الصيف إلى أيام طويلة من الحرارة الشديدة الخانقة .

وإلى الخلف من المدينة ، يوجد سهل واسع مستو تربته مالحة ، قفر دائما تغطيه المستنقعات فى أغلب الأحيان . وعند الطرف البعيد من هذا السهل ، تقع قلعة كبيرة مستديرة الشكل ، ربما تذكر أسوارها وأكتافها ودعائمها صبيه يارموث **Yarmouth** بقلعة رومان بورو **Roman Borough** ، فيما عدا أن قلعة البحرين تعد أكثر أناقة إلى حد ما . ويبدو أن هذه القلعة كانت تستعمل فى الأزمان ، القديمة معقلا وحداً دفاعيا

ضمن خطة الدفاع عن المنامة ؛ والقلعة بالصورة التي هي عليها الآن ، مفككة ومهدمة في كل مكان . وقد سمعت كثيرا من الأساطير التي يرويها الناس عن هذه القلعة ولكني أرى أنها لا تستحق الإشارة إليها أو إيرادها في هذا الكتاب ؛ والموروث الوحيد الذي يستحق الإشارة إليه ، هو ذلك الذي يعزو بناء هذه القلعة إلى الأمراء القرامطة خلال فترة ازدهارهم . وتمر بذلك السهل مسارات كثيرة تتقاطع في اتجاهات مختلفة ، وتؤدي إلى القرى الصغيرة التي توجد خلف ذلك السهل ؛ وهذه القرى ليست سوى مجرد مجموعات من الأكواخ المصنوعة من القش ، ولكنها كثيفة السكان ، وتشبه إلى حد كبير الأكواخ الموجودة في كل من جزيرة سيلان وجفنبتام Jafnapatam ويطلقون عليها اسم " جنوز " Ganws. وبعيدا عن مدينة المنامة ، يرتفع الجبل الوحيد الذي ينقذ البحرين من أن يطلق عليها الناس اسم الضحل البحري المنخفض .

والجزيرة نفسها يصل طولها إلى حوالي خمسين ميلاً ، ويصل عرضها في أوسع أجزائها إلى ثلاثين ميلا . وباستثناء ميناء المنامة ، فإن الغرباء لا يزورون هذه المدينة إلا قليلا ، بالإضافة إلى أن هذه الجزيرة ليست مصدرا لجذب الغرباء . ومراعي نجد أفضل من مراعي البحرين ، ومزارع الاحساء أفضل من مزارع البحرين ، ومناخ الاثنين أفضل من مناخ البحرين أيضا . يضاف إلى ذلك أن الخمسين أو الستين كَفْراً التي تنتشر داخل الجزيرة ليست لها اتصالات كثيرة بالسوق الرائجة التي في الشمال الغربي ، لذا نجد أن مظهر سكان هذه الكفور يوحي بالهمجية ، والذهنية غير المتحضرة ، التي تنتج عن الانعزال . وسكان هذه الجزيرة وهذه الكفور معظمهم ، إن لم يكن جميعهم ، من الشيعة ، وتعتمل في داخلهم كراهيتهم الشديدة لأهل السنة والوهابيين ، ولا يجرؤ أي شخص نجدي على العيش أو الحياة وسط هؤلاء السكان . والعمل بالزراعة وفلاحة الأرض ، يوفر لهؤلاء السكان كل ما يحتاجونه ، بل إنه يحقق لهم فائضا يتجرون به في أسواق المنامة ، ولكن ليس لديهم ما يصدرونه إلى الأسواق البعيدة . وسكان السواحل، في هذه الجزيرة، هم من صيادي السمك ، بطبيعة الحال ؛ وقد بلغني أن قلة قليلة من هؤلاء السكان تعيش بالقرب من سفح الجبل الذي سبقت الإشارة إليه ، وتعمل بالقنص ، الذي يعد مصدرا هزيلا في هذه البلاد ، ويقدر إجمالي عدد سكان الجزيرة بحوالي سبعين ألف نسمة أو ما يقرب من ذلك ؛ ومع ذلك فإن هذا العدد أخذ في النقصان .

والسكان الحضر ، الذين ينبغي أن ينصب كلامي عليهم بصفة أساسية ، وبغض النظر عن حقيقة أصلهم ، سواء أكانوا أنباطا أم غير ذلك ، هم فى الوقت الحالي عبارة عن عرق مولَّد تماما ، ومع ذلك نجد أن لهذا العرق طابعا عاما ومميزا . ولو قدر لى أن أقول ، عن هؤلاء السكان : إنهم بين بين من السلالة العربية والجوزيراتية Guzeratee ومظهرهم ينم عن البرود – الذى هو أمر طبيعي فى تلك المخلوقات البحرية – الذى يتجلى في ملامحهم العامة التي توحى بالهدوء التام ؛ لو قدر لى أن أقول ذلك ، فإننى ربما أكون قد اقتربت من وصف هؤلاء السكان وصفا دقيقا . وهؤلاء السكان ليسوا طوال القامة أو أقوياء الأطراف ، فضلا عن إنهم ليسوا بيضاً تماما أو سمراً تماما ، ولا هم بالأصحاء تماما أو المرضى كلية ؛ ومع ذلك فإن مظهر هؤلاء السكان يدل على سرعة البديهة ، والرشاقة ، وحسن الطبع ، وقدر معلوم من الروح الطيبة مما يجعلنا نطلق على هؤلاء السكان من قبيل الاختصار اسم "العرق الصنَّاع" ، المحب للازدهار ، الذى يصلح للسلام أكثر من الحرب ، وللتجارة أكثر من الزراعة ، وربما للبحر أكثر من البر . وإنها لحقيقة غريبة ، يصعب تفسيرها ، أن أهل السنة فى المنامة ، وهم يشكلون سدس سكانها تقريبا ، ليسوا من الحنابلة ، مثل جيرانهم في الجزيرة العربية ، أو الأحناف شأنهم شأن البلوش والأفغان عبر الخليج ؛ ولا شافعية ، مثل أتباع محمد فى كل من البصرة وبغداد ؛ وإنما هم من المالكية ، ذلك المذهب المنتشر فى كل من مصر[1] وشمالى أفريقيا . ومع ذلك فليست هناك صلة دم بين تونس والبحرين . أما الأسداس الخمسة المتبقية من سكان المنامة فهم من الشيعة طبقا للمذهب الإيرانى .

وتختلط بهؤلاء السكان المتجانسين أعداد كبيرة من الغرباء والمستوطنين ، بعضهم يقيم منذ أجيال كثيرة فى جزيرة المنامة التى جاءوا إليها من بلادهم ، بفعل الأرباح التجارية أو لصيد اللؤلؤ ، ولكنهم ما يزالون يحتفظون بسماتهم المميزة لهم ، وثيابهم التى يرتدونها فى أوطانهم . ومن هنا نستطيع أن نشاهد هنا ، فى معظم الأحيان ، الثياب القصيرة زاهية الألوان التى يرتديها الناس فى جنوبى إيران ، كما نشاهد أيضا الصديرية العمانية المرقشة باللون الأصفر البرتقالي ، كما نشاهد أيضا الثوب الأبيض النجدى ، والرداء البغدادى المقلَّم ، كل ذلك نشاهده مختلطاً بالثياب البحرينية ،

(١) إن المذهب الشافعي هو الأكثر انتشاراً في مصر والمذهب المالكى ليس له انتشار إلا فى صعيد مصر فقط – (د. حلمى عبد المنعم) .

وعمامتها المكونة من اللونين الأزرق والأحمر ، والفوطة ذات الحواف الحريرية التى تُلَفُّ حول الوسط ويطلقون عليها اسم النبيان ، علاوة أيضا على الرداء السروالى الذى يشبه رداء الرهبان ؛ ونجد هنا أيضا مجموعة صغيرة من الهنود ، الذين يعملون بالتجارة ، والذين جاءوا أصلا من جوزيرات ، وكوتشن ، والمناطق المجاورة لهما ، ولا تزال تحتفظ بخصائصها المميزة وثيابها المميزة ، وسلوكياتها المميزة أيضا ، وتعيش وسط هذه الجماهير المختلفة ، وأنا أقول إنها "تعيش بينهم ، ولكنها لا تعيش معهم" .

وبعد اندحار الأسرة المالكة القرموطية فى القطيف تحولت البحرين إلى تابع من توابع بلاد فارس ، وظلت فترة طويلة لا تعترف بحكم أو تدخل غير الحكم والتدخل الفارسيين. ومع مطلع القرن الماضى، وبعد أن تخلصت عمان من نير الحكم الفارسى ، بدأت تتزايد أهميتها ، وفرضت على البحرين جزية وحماية مساوية تماما لتلك التى فرضتها عليها حكومة شيراز . فى نفس هذا الوقت ، كانت أسرة خليفة قد بدأت تقوى ويشتد عودها ، إلى أن استطاعت فى النهاية أن تفرض سيطرتها على البحرين ، رغم أن ذلك لقى معارضة ، فى البداية ، من الشاه ثم بعد ذلك من سلطان عمان ، وقد رأينا أيضا أن عبد العزيز بن سعود قد ضم البحرين أيضا إلى الممتلكات الوهابية ؛ وأنه لمن نافلة القول أن النجديين فرضوا بكل قسوتهم المعهودة ، وليست قسوة المذهب نفسه ، طقوسهم ومرعياتهم الدينية ، مما أدى إلى أن يبدو النجديون غرباء تماما على ذلك الشعب الذى كان التسامح – الذى يعد نتيجة طبيعية للتجارة الحرة والاتصال الحر – هو سمة العصر ، ذلك الشعب الذى كان ميالا لحب الترفيه ، واللهو ، والتمتع الاجتماعى ، بكل صنوفه ، برغم كونه شعبا ممتازا من رجال المال والأعمال . وعندما تحطم القيد الوهابى مع سقوط الدرعية ، عادت البحرين إلى سلطة آل – خليفة ومعها النظام الإقطاعى الفارسى . ولكن بعد فترة قصيرة من تولى سعيد ، الذى اشتهر بلقب سلطان عمان ، والذى راح يتحرش بكثير من الممتلكات البحرية الفارسية ، بدأ يزعم ويطالب – وربما كان ذلك أقوى طلب وأقوى زعم ، بالبحرين بل إنه اعتبر الجزيرة امتدادا لعرشه وصولجانه . وبعد سنوات قلائل من عودة النسر الوهابى إلى الحياة ، وبعد أن فرد جناحيه من جديد على منطقة الأحساء ، هجم وأحكم قبضته على البحرين من جديد . ولقد أعجبتنى تلك الروايات التى رواها لى شاهد عيان عن المعارك البحرية التى دارت بين الغازى النجدى وسكان هذه الجزيرة ؛ إن هذه الروايات ، فى نظر راويها ، تجعل معركة اكتيوم تتضاءل أمامها فى نظر بحارة الطرف الأغر **Trafalgar**

ومن الواضح أن الشجاعة الفائقة كانت على الجانب النجدي ، ولكن العدد والخبرة البحرية جعلت كفة الميزان ترجح لصالح الأسطول البحريني . وبعد اشتباك حاد بعيد عن داريم ، تم فيه إحراق بعض القوات النجدية ، وإصابة البعض الآخر بالأعطال ، نجحت واحدة من مفارز قوات الملك فيصل ، في خداع يقظة العدو ، واستطاعت النزول على منطقة خالية من الحراسة والحراس في أرض الجزيرة . وبعد أن نزلت هذه المفرزة إلى أرض الجزيرة ، هجمت مباشرة على المنامة ، ولكن هذه المفرزة وجدت نفسها ، عندما وصلت المنامة ، محاصرة كما لو كانت في شبكة ، بفضل الترتيبات الماهرة التي اتخذها على الخليفة ، كما وجدت هذه المفرزه نفسها معزولة وغير قادرة على العودة إلى سفنها ، التي كان أهل الجزيرة قد استولوا عليها . وعامل على أسراه معاملة حسنة ، وبالتنسيق مع أخيه محمد الخليفة ، قام بإعادة هؤلاء الأسرى إلى الاحساء ، لا بدون أذى وإنما محملين بالهدايا ، وبصحبتهم أيضا عروضا بالسلم والمسالمة . ونتيجة لذلك الظرف سارع آل – خليفة بالطريقة التي سبق أن أشرنا إليها إلى تسوية منازعاتهم التي اتخذها فيصل ذريعة لغزو البحرين ، ولكن محمد الخليفة ، بدأ منذ ذلك الحين فصاعدا ، يدفع جزية سنوية للرياض ، من منظور أن تلك الجزية إنما هي ثمن للتحالف والمساندة ، برغم أنه عندما يتطلب الأمر ذلك ، كان يطلب الحماية الفارسية حينا ، والحماية العمانية حينا آخر ، أو حتى الحماية التركية في بعض الأحيان ، عندما يضيع الأمل ويسيطر الخوف . وقد أثر التدخل البريطاني إلى حد ما ، في السنوات الأخيرة على الوضع السياسي للجزيرة ، ولكن دون أن يترتب على ذلك أية فائدة للسكان ، بل بالأحرى ، جاء ذلك في غير مصلحة السكان ، ولكن بطريقة غير مباشرة .

وشاطئ اللؤلؤ ومصايده ، تبدأ بشكل محدد ، في البحرين ؛ ويمتد هذا الشاطئ حتى شرقي جزيرة البحرين إلى أن يصل إلى الرَّعن[1] القطري ومنه إلى الخليج الجنوبي الكبير في الخليج الفارسي ثم يمتد بعد ذلك إلى حدود كل من الشارقة وعمان. وصدف اللؤلؤ يغلب عليه أن يوجد في شمالي البحرين على طول سواحل القطيف والجزر المجاورة لها ، إذ يوجد في هذه المنطقة أحد مصايد اللؤلؤ غير أنه ليس وفير الإنتاج ، ولا يمكن مقارنته بأي حال من الأحوال ، بمصايد البحرين ، والشاطئ

(١) الرَّعن : بتشديد الراء وفتحها هو قُنَّةُ الجبل الخارجة منه والداخلة في البحر – (المترجم) .

الشرقي من الخليج الفارسي. ويكثر وجود مصايد اللؤلؤ حول جزيرة البحرين نفسها ، مما يوفر عملا لنصف سكان هذه الجزيرة على وجه التقريب . ويعد محمد الخليفة هنا محتكرا للؤلؤ ، فهو يحصل على ضريبة محددة من كل القوارب التى تبحر فى مياه الخليج بحثا عن اللؤلؤ، إضافة إلى نسبة مئوية يجبيها على ما تصطاده هذه القوارب ؛ وكل من يحاول صيد الأصداف دون موافقة من الحكومة يعرِّض نفسه للمحاكمة والمساءلة طبقا للقانون ؛ وهذا بطبيعة الحال طبقا لأهواء الحاكم النبيل . وعدد قوارب صيد اللؤلؤ التى تجوب شواطئ البحرين بحثا عن اللؤلؤ ، لا يمكن أن يقل ، بحال من الأحوال ، عن ألفى أو ألفى وخمسمائة قارب على وجه التقريب ، ومع ذلك ، فالناس لا يشكون من أن عدد الباحثين عن اللؤلؤ يفوق عدد اللآلئ التى يصطادونها . وموسم صيد اللؤلؤ يبدأ فى شهر إبريل ويستمر حتى شهر أكتوبر من كل عام ؛ والعبيد والزنوج هم الذين يستخدمون بصورة خاصة ، فى عملية الغوص . إذ بوسع هؤلاء العبيد ، من منطلق أنهم ، غواصون أجواد أن يبقوا تحت سطح الماء مده تقرب من الدقيقتين ؛ ولم أسمع قط أن أى واحد منهم استطاع أن يبقى تحت سطح الماء مدة أكثر من ذلك . نسيت أن أقول إن هؤلاء الناس أصحاب البشرة الداكنة ، موجودين بأعداد كبيرة فى البحرين ، التى يقومون فيها ، بحكم تحررهم من القهر الوهابى "بالعزف على التانجو ، وعلى الناى" ، ويرمزون إلى أنفسهم بخصائص صبيانية غريبة ؛ وهذه الخصائص والخصال القريبة عزيزة إلى قلب العبد الحقيقى أكثر من حريته الوطنية .

وإذا كانت الطبقات الفقيرة تشتغل بأعمال الصيد ، فإن الطبقات الغنية عن بكرة أبيها ، تشتغل بالتجارة والاتجار ، سواء داخل حدود الجزيرة نفسها أو عن طريق التعامل مع الغرباء الذين يصلون إلى الجزيرة ، أو عن طريق الترحل إلى الشواطئ البحرية المحيطة بالجزيرة ، بدءا من البصرة إلى بومباى ، ومن كراتشى أيضا إلى زنجبار . وعلى كل حال ، فإن البحارنة (إن جاز لنا أن نسمى سكان البحرين باسمهم الجماعى ، كما هو الحال ، بالنسبة "للزحالنة" نسبة إلى زحلة وكذلك "الكراكنة " نسبة إلى كراك) بشكل عام لا يرقون إلى مستوى العمانيين والهنود الذين يعيشون بينهم ، فيما يتعلق بإمساك الدفاتر والأعمال المتعلقة بالمال والأعمال . أما فيما يتعلق بالحرف اليدوية فإن البحرانيين ليس لهم مثيل فى كل أنحاء الشرق – وبخاصة النساجين ، والعاملين فى مجال المعادن ، والخشب ، والجلد ، والخياطين ، والصباغين ، أو إن شئت

فقل الحرفيين بكل أنواعهم ، والذين يوجدون بكثرة فى المنامة ، ويتفوقون ، إذ أنهم يصلون إلى مرتبة الامتياز فى المصنوعات اليدوية الشرقية (والتى يتفوق فنها وذوقها تفوقا كبيرا على الفن والذوق الأوربى) ، فى العديد من الحرف . وعلى كل حال ، فإن الحرف الأخرى التى تعتمد على العلم أو الدراسة فى حال يرثى له ، قياسا على الحرف اليدوية . والزراعة ليست مهملة كلية داخل الجزيرة ، ولكن فقر التربة هو الذى يعد عائقا كبيرا ؛ وباستثناء ثمار الحمضيات الضخمة (إذ لم أر فى حياتى حمضيات بمثل هذه الأحجام في أيٍ مكان آخر) ، فإن إنتاج الخضراوات في البحرين ، برغم تنوعه بحكم العمالة ، يُعدُّ دون المتوسط بشكل عام . وزيادة نسبة الرطوبة تساعد على النمو ، ولكن النوعية لا تتساوى مع الكمية ؛ من هنا فإن النخيل يكثر فى كل أنحاء الجزيرة غير أن نوعية التمر سيئة جدا .

وإذا أردنا أن نضيف شيئا عن الثروة الحيوانية فإننى أقول : إن الإبل جلبها أهل البحرين إلى بلادهم ، من ساحل الجزيرة العربية ؛ ولكن "هذه المخلوقات المسكينة تبدو عليها التعاسة والحـــزن" ، نظرا لأن تربـــة البحرين الرطبـــة ومناخها الرطب أيضا لا يناسبان بنية هذه المخلوقات الجسمية التى تعتمد على الجفاف . والثيران والأبقار ليست نادرة في البحرين ، رغم أن أجسامها ، ضعيفة ، ولحومها من النوع الهزيل ، وهذا من واقع خبرتنا وتجربتنا لهذه اللحوم ؛ والضأن قليل فى البحرين ؛ ولكن الحمير أفضل من كل ذلك بكثير ، وهذا هو حالها في كل مكان من الجزيرة . ولكن السمك بكل أنواعه القشرية ، والجلدية والصدفية يملأ أماكن العرض في السوق : وأنا أشك أن هناك أية منطقة أخرى فى العالم غير البحرين ، فيها مثل هذا القدر الوفير من الأسماك . من هنا ، يعد السمك الغذاء الرئيسى لسكان البحرين ؛ ومن ثم فإن الصوم الكبير ، الذى ورد ذكره عند بيبو Beppo ، يستمر على مدار العام فى هذه الجزيرة . وقد اكتشفت عن طريق الحساب الدقيق ، أنا وبركات ، أن متوسط سعر السمك في سوق المنامة يصل إلى حوالى واحد على عشرين ، ولا يزيد عن ذلك بأى حال من الأحوال ، من أسعار السمك على شواطئ البحر المتوسط فى سوريا ، أى فى كل من بيروت وصيدا ، والموانئ المحيطة بهما . ولعل هذا هو واحد من الأسباب التى ساعدت على إهمال تربية الماشية والأغنام . وخلاصة القول ، إن البحرين هى ابنة البحر ، كما أن البحر ، سيظل دوما بمثابة أمها الرءوم ؛ والواقع أن السباع الطرية التى ورد ذكرها عند القديس مارك فى البندقية هى التى تشكل المعيار الرئيسى لرفاه البحرين ومواردها .

وحكومة البحرين تستحق شيئا من الثناء . فقبل الغزو الوهابي الأول كانت البحرين تتمتع بمستوى من الرفاه أكبر بكثير مما هي عليه الآن ، وهذا نقلا عن الموروث المحلى (نظرا لندرة الوثائق التاريخية)، وهذا هو ما تشهد به المنازل المدمرة والخانات المنهارة . والسبب في ذلك ، أن القيود الغبية والسياسة غير المريحة التى اتبعها الوهابيون النجديون كان يغلب عليها تدمير التجارة والقضاء عليها وطرد التجار إلي مكان آخر . وعندما تخلصت الجزيرة في العام ١٨١٨ - ١٨١٩ من الضغوط الاجنبية ، ودخلت ضمن الحركة العمانية التقدمية ، ضمن امبراطورية نشأت من عشيرة واحدة ، بدأت البحرين تستأنف جزءا من نشاطها القديم ، إلى أن بدأت الصراعات تتفاقم بين أفراد العائلة المالكة ، مما أدى إلى التدخل الفارسي ثم بعد ذلك التدخل الوهابي ، الأمر الذى بدأ يعرقل تقدم البحرين من جديد . زد على ذلك ، أن الطابع الشخصي للحاكم المناب الحالى ، محمد الخليفة ، يزيد فى سوء الحال فى البحرين . وهذا الحاكم من النوع السيباريسى[1] الذى ، إن صح القول ، يتزوج بطريقة التجريب ، أى كل أسبوعين ؛ معنى ذلك أن كل أربعة عشر يوما نشهد حالة طلاق تعقبها حالة زواج ، ومن الطبيعي أن يكون كل ذلك مصحوبا بالبذخ والإنفاق والتبذير تعويضا للحب القديم وشراء للحب الجديد ؛ ناهيك عن الإعلان المشين عن هذه الأعمال : "إن لم يكن من حقنا أن نتزوج" **Nec nisi legitimé vult nubere** والمعروف أن مثل هذه الأعمال تكفي لأن تجعل كلا من روم ومالينا يحمر وجهيهما خجلا . زد على ذلك ، أن محمد الخليفة ، يبدو عليه أنه لا يفكر مطلقا فى رفاه رعاياه ؛ وهو يشبه شارل الثانى تماما ، فكلاهما كان مبذرا ومسرفا وأحمق ، فقد بذل محمد الخليفة قصارى جهده في سبيل الخضوع للخارج ، وراح يجبى من الداخل الضرائب والإتاوات ، والمكوث والغرامات التى كان يستعملها كلها فى دعارته الخاصة والعامة ، وفي تدمير بلاده وإجبار رعاياه على الهجرة إلى خارج البلاد على غير رغبة منهم . وقد تزامنت عملية التحلل والتفسخ هذه مع النفوذ الوهابى ، الذى لم يكن له حول ولا قوة فيما يتعلق بالأخلاق وبالخير ، وإنما كان جبروته قويا فيما يتعلق بالتعصب والتحلل ، وبخاصة أن هذا النفوذ كان السكان يستشعرونه بقوة فى البحرين (ويرجع الفضل فى

(١) السيباريسى : أحد أبناء سيباريس وهى مدينة إغريقية قديمة فى جنوب إيطاليا اشتهرت بالثراء والترف ، والمقصود هنا ، هو الشخص المترف المنغمس فى الملذات - (المترجم) .

ذلك إلى ضعف محمد الخليفة) وبخاصة في العاصمة في المنطقة المحيطة بالقصر ، التى كان "الشعب المختار" يشاهد فيها بكثير من الغيرة الدينية ، تلك الأفعال الكريهة التي تدل على الإلحاد والكفر الشيعي والهندى ، والتى كان يجرى التسامح معها بالقرب من بلادهم وأرضهم الطاهرة . وكانت هناك مستوطنة يهودية صغيرة ، أولئك الرجال الذين ينظر إليهم في أغلب الأحيان على إنهم مؤشر على حسن التصرف ، قام الناس بمداهمتها ، إلى أن اضطر أولئك الإسرائيليون إلى مغادرة المنامة ، بحثا لأنفسهم عن مكان آخر ليِّن اللاهوت كثير الذوق . وكان البنيانيون الهنود قد اضطروا أكثر من مرة إلى اتخاذ قرار مماثل . وفى الوقت ذاته ، كان السكان الوطنيون ، أو إن شئت فقل البحارنة ، قد نزحوا عن بلادهم ، ولا يزالون يفعلون ذلك يوميا ، بالعشرات بل وبالمئات ، الأمر الذى أفاد الموانئ التى رحلوا إليها واستقروا فيها فائدة كبيرة وأضر ، في ذات الوقت ، بجزيرتهم . انتشروا في المنطقة من البصرة إلى مسقط على شاطئى الخليج الفارسي ، (باستثناء بر فارس ، الذى كان ينتشر فيه المذهب الوهابى) التى يسكنها بصفة أساسيه أناس من البحرين ، وتجار من البحرين ، ورعاة محلات ودكاكين من البحرين ، وحرفيون ، وصيادون من البحرين ، وعمال المياومة ، وإناس آخرون كثيرون ؛ فى حين قام مائتان أو ثلاثمائة من البحارنة خلال السنوات القليلة الماضية بتحويل جزيرة الجعر Ge's ، التى لم تكن مأهولة بالسكان ، إلى واحدة من أهم المناطق التجارية في هذه البحار . غير أن هذه الجزيرة تتبع الحكم العمانى ، الذى ربما يكون أرشد نظم الحكم ، فى الشرق ، فى هذا الصدد ، إلى حد أن المنفيين البحارنة قد لجأوا إليها ووجدوا فيها مأوى وتشجيعا لهم .

وقد أكسب السلوك الذى سبقت الإشارة إليه ، أحمد بن الخليفة عداءًا واحداً من رعاياه وعداءين من الوهابيين . ولكن نظرا لأن مواطنى البحرين من النوع المسالم الذى يقدم التنازلات ، فإن تعبيرهم عن استيائهم يكون على شكل شكاوى من ناحية وعن طريق الاغتراب فقط ؛ وتعد الثورات الشعبية على الطريقة الأوروبية ، أمورا قليلة ، وذلك تمشيا مع الوجدان الآسيوى أو إن شئت فقل الضعف الآسيوى ؛ ولذلك فإن الثنائية الشعرية المأخوذة من قصيدة "الرحال" Traveller ، تعد أردأ الاستشهادات التي تنطبق على الشرق –

يا لصغره ، بين كل ما تتحمله القلوب الإنسانية ،
ذلك الجزء الذى يتسبب فيه أو تشفيه القوانين والملوك .

والشاعر في هذين البيتين ، اللذين يجريان مجرى الحكمة ، ربما كان يفكر في أوربا ، أو ربما إنجلترا ، وهذان البيتان يصعب أن يصدقا على العالم الغربي . ولكن ، إذا ما نحى القارئ أوربا جانبا ، فإنه يستطيع أن يتبين بسهولة إن كانت الملوك والحكومات قادرة أو غير قادرة على "التسبب" Cause و "الشفاء" Cure ، أو كليهما معا ، إذا ما أرادت ذلك في بلاد الشرق .

ويدور في المنامة حديث طويل ، وكذلك أيضا في الاحساء عن ذلك الذى يطلق عليه دبلوماسيونا اسم "الضم" إلى شكل من أشكال الحكم الليبرالي . وعلى كل حال ، فإن كلا من طهران والقسطنطينية لا تفكران في هذا الأمل المرتقب ؛ كما أن عمان التي تعد أكثر تأهلا لذلك ، ليست ، في الوقت الراهن ، بالقوة التي تسمح لها بذلك ؛ وربما يحدث ذلك – ولكن التحزير والتلميح لا مجال لهما هنا . وأنا أستميح القارئ ، أن يأذن لي بتقديم ملاحظة واحدة . إن كل من يصبح حاكما في الشرق ، كائنا من كان ، ويجد نفسه بين أهل السنة ، والشيعة ، والوثنيين ، والله أعلم بما يتبقى ، يُحْسِنُ صنعا إذا ما جعل " التسامح التام " معيارا له ، وشعارا يضعه على رايته في كل ما يتصل بالعادات الوطنية ، والأديان ، بل وحتى في الإساءات ؛ وهذه الكلمات الثلاثة (العادات والأديان ، والإساءات) تتماثل تماما في آسيا ، تحت أي ظرف من الظروف . وأنا لا أعني بذلك أن الأجنبي يتحتم عليه أن يُزَيِّن الـ Somnauth (الضعف والاستكانة) ، أو يكرِّم موكب القوة الساحقة (عند الهنود) Juggernath بتواجده ضمن هذا الموكب ، كما أنني لا أعني بذلك أيضا ، أن يقوم الأجنبي بتقديم الشموع والورود . (فقد شاهدت بعيني بعض الناس الذين فعلوا ذلك) لتمثال جونيشوا Goneshwa الذى له بطن على شكل مزهرية ؛ ولا أعني بذلك أيضا أن يرى الأجنبي أن من الحكمة محاكاة أولئك الذين يوجهون أموال الدولة لبناء المساجد في الجزائر ، وأولئك الذين يضعون صيغا إسلامية على رأس التصريحات الأوربية . (إن التسامح الذى أقصده هنا هو الذى ينصب على ترك كل شئ لسبيل حاله ، وعدم التدخل ، وعدم الملاحقة والتدقيق ؛ وخلاصة القول هي ، النظر إلى فلسفة الرعايا وإلى دينهم باعتبارها أمورا لا يسعد الحكومة معرفتها أو الوقوف عليها ، وأنها لا تدخل في نطاق اهتماماتها أو ملاحقتها . والسلوك الذى يكون من هذا القبيل يتسم بالعقلانية والسلامة . والمعروف أن التقدم الفكرى والتقدم الديني يشقان طريقهما عندما يتحرران من كل من المعينات التي لا لزوم لها ومن المعارضة المشينة . والحقيقة شأنها شأن الفضيلة ، في أشعار دريدن

Dryden" ليست بحاجة إلى سيف ، وإنما هى تسطع بفعل نورها الذاتى" ، فى حين نجد ، إذا جاز لنا أن نستعير تعبير اللورد ماكولى **Macaulay** الأقل ذيوعا ، أن "البهتان" على العكس من ذلك "برغم أنه ليس ندا للحقيقة وحدها ، قد أثبت فى أحيان كثيرة أنه كان أكثر من ند للحقيقة وللسلطة مجتمعين" . الأجداد يغلب عليهم الميل إلى الخداع ؛ والحكومة التى تلتزم بذلك دوما وتحافظ عليه ، لن تحقق فقط هدفها الأول والأساس ، والذى يتمثل فحسب فى النظام ، والهدوء ، والرفاه الاجتماعى ، وإنما سوف يتعين عليها خلال فترة قصيرة أن تعود إلى هدفها الثانوى ، الذى يترتب على الهدف الأول ؛ وأنا أعنى بالهدف الثانوى هنا التقدم الأخلاقى ، والتقدم الدينى وكذلك التقدم الفكرى . ولكن الحكومة التى تخلق الأساسى من الطارئ ، والتى تحاول فرض ذلك يجب أن تشجعه ، فى أحسن الأحوال ، بطريقة غير مباشرة ؛ مثل هذه الحكومة سوف تضحى بكل من الهدف الرئيسى والهدف الثانوى ، وهذا لا يقل عن أولئك الحكام الذين يندفعون فى اتجاه معاكس تماما ، ويعتبرون ذلك نقطة سياسية حتى يمكن الحفاظ على الجهل والخطأ . وتاريخ المستعمرات الأوربية فى كل من الشرق والغرب مليئ بالبراهين والأدلة التى تؤيد هذه الفرضية المزدوجة . والواقع أن خط السلوك الذى ينبغى الحفاظ عليه ، إنما هو خط ضيق ، بل ربما يكون أضيق من الممر الموجود بين سكيلا **Scylla** وشارميديس **Charybdis** ؛ ولكن ذلك الذى يبحر بسفينته فوق الصخور ، أو الذى يدفع بها ناحية فوهة الدوامة ، يثبت أنه بحار سيئ فى الحالين ، وأنه هو الذى سوف يتحمل مسئولية الحطام الذى سينتج عن ذلك[١]) .

كنا طوال الأيام العشرين التى انتظرنا خلالها وصول أبى عيسى ، نزجى معظم وقتنا فى المقاهى المختلفة ، وبخاصة فى ذلك المقهى ، الذى أتينا على ذكره فى الصفحات القليلة السابقة ، والذى يطلقون عليه اسم " بيت البحار " ، الذى ساعدنا

(١) إن فكرة المؤلف وفلسفته فى طريقة تعامل الحكام مع المعتقدات والأديان وعدم ملاحقة الحكومة لمعتقدات الناس الدينية ، هى فكرة تحسب للمؤلف ، والإسلام يقرر مبدأ حرية الأديان حيث يقول سبحانه "لكم دينكم ولى دين " ويقول سبحانه "لا إكراه فى الدين" لكن فى تعامل حكومة الإسلام مع أهل الذمة من الكتابيين ومن لهم شبهة كتاب قد قيدها الإسلام بعدم تطاولهم وإيذائهم للمسلمين يقول تعالى "لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين ؛ إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون " (سورة الممتحنة : ٨ - ٩) فمسألة حرية أهل كل دين مشروطة بعدم إعتداء أهل الأديان الأخرى على الدين الرسمى وهو الإسلام لأنه دين الله الخاتم لأهل الأرض جميعاً - (د. حلمى عبد المنعم) .

صاحبه مساعدة قيمة عندما وصلنا البحرين . في ذلك المقهى ، كنا نلتقي ، في معظم الأحيان، التجار الإيرانيين الذين كانوا يحضرون إلى ذلك المقهى لتناول قهوة الصباح ، كما التقينا أيضا فتيانا جاءوا من موانئ كثيرة، فمنهم العمانيين، والبلوشيين والهنود ، وفتيانا آخرين ، الذين كان كل واحد منهم يستهلك ما يزيد على أوقية من التبغ الذى كانوا يدخنونه باستعمال النرجيلات الكبيرة التى لها أنابيب طويلة تشبه عيدان القصب ، وكانت ساعاتنا تمر بلا كثير من الملل ، عما كانت عليه مع غرباء آخرين في مناطق أجنبية أخرى . والقارئ الكريم ، قد يستخلص من موقع البحرين البحرى ومن موقعها المتوسط أن جهل النجديين المطبق فيما يتعلق بالأوروبيين وبتصنيفاتهم المختلفة إنما تحل محله هنا ، في البحرين ، معرفة ودراية جزئية بهذه الأمور هنا ؛ من هنا نجد أهل البحرين ، يسمون "البريطانيين" **English** و "الفرنسيين" **Fernch** : "الإنجليز" **Ingleez** و"الفرنسيز" **Fransees** ؛ وهاتان الكلمتان يشيع استعمالهما في المنامة ، برغم أن الألمان والإيطاليين ، الذين يندر أن تزور سفنهم هذه البحار ، ليس لهم مكان في المفردات البحرينية ؛ في حين نجد أن الهولنديين والبرتغاليين أسدل عليهم ستار النسيان تماما .

ولكن الروس ، أو "المسكوف" **Moscôp** (أى أهل موسكو أو إن شئت فقل : المسكويين **Muscovites**) ، مشهورون هنا أيضا ويخشاهم الناس ، وذلك بفعل الاتصال ببلاد فارس . يضاف إلى ذلك ، أن سياسة كل من القسطنطينية وطهران يجرى ، في بعض الأحيان ، الكلام فيهما بطريقة حرة ، داخل هذه المقاهى ، كما تجرى أيضا مناقشة الدبلوماسية العاصفة التى تنتهجها نجد ، كما تجرى أيضا مناقشة انتهاكاتها وتعدياتها الخطيرة ؛ وكانت بقية الحديث تنصب على أخبار السفن ، والتجارة ، والمال والأعمال، وحكايات البلدان الأجنبية ، وعلى الأدب بين الحين والآخر ، ولم أسمع في مقاهى البحرين مجرد كلمة واحدة عن الجدل الدينى . وخلاصة القول : إننا وجدنا في البحرين ، بدلا من المطوعين والمتزمتين ، والجمّالة ، والبدو ، شيئا يشبه "رجال العالم ، الذين يعرفون العالم بوصفهم رجالا" ، وهو ما يسبب ارتياحا كبيرا للعقل ؛ ومما لا شك فيه ، أن ذلك أراح عقلى إلى حد كبير .

وينبغى على ، أن أضيف إلى قائمة المهن التى امتهناها ، تلك الممارسة الطبية الصغيرة التى اضطررت إليها ، بسبب الإلحاح ، والزيارات الودية ، والزيارات التجوالية التى كنا نقوم بها ، بين الحين والآخر ، إلى السهل وإلى الكفور الصغيرة في

المنطقة المتاخمة له ، والتي شاهدنا في واحد منها سوقا أسبوعيا ، يشبه إلى حد كبير تلك الأسواق التي تقام في كل من الهفوف والمبرز ، والتي سبق أن تناولناها بالوصف في فصل سابق .

وأهم الأحداث التي وقعت خلال تلك الأيام ، إن جاز لنا أن نسمي ذلك حادثا ، كان يتمثل في تلك العاصفة الشمالية العاتية ، التي صاحبها مطر غزير ، ورعد ، في حين بذل البحر قصارى جهده كي يصل إلى قمة غضبه في هذه الأماكن الضحلة . وقد اقتلعت هذه العاصفة الأشجار ، وأطاحت بقمم النخيل برغم متانة جذورها وسيقانها ، كما وصلتنا أنباء عن سفن أغرقت ، وقوارب التهمها البحر ، مما جعلنا نخشى أن يكون أبو عيسى ومن معه ربما أصبحوا على عمق خمسة فراسخ تحت سطح الماء في مكان ما بين العجير والمنامة ، وأنهم أصبحوا يمرون " بتغير البحر " الذي تغني به آريل Ariel والواقع ، أن صديقنا ، ومن معه كانوا قد اتجهوا ، قبل هبوب العاصفة مباشرة ، إلى ساحل البحر في العجير ، وكانوا على وشك الإبحار ، عندما داهمتهم هذه العاصفة ؛ وبعد أن قضى أبو عيسى نصف يوم من الليل الشديد بين التلال الرملية ، على أمل أن تتوقف العاصفة ، اضطر إلى العودة إلى إحدى قرى الداخل ، كي ينتظر فيها إلى أن يتحسن الطقس . وقد عرفنا كل ذلك من أبي عيسى ومن معه بعد أيام قلائل .

ولم نشاهد الحاكم المحلي أو أحدا من رجاله إلا في مناسبات قليلة جداً ؛ والواقع أننا كنا نتحاشى هؤلاء الناس بقدر المستطاع ، بل إننا رفضنا دعوة وصلتنا من علي الخليفة ، يدعونا فيها إلى الذهاب إلى قصره ؛ ظنا منا أن آل – الخليفة في البحرين يكفيهم أن " يسمعوا التقرير السيئ " الذي كتبناه عنهم ؛ يضاف إلى ذلك أنني كنت أتصور أن اقترابي من هؤلاء الناس لن يغير من ذلك الذي اختزنته لهم في ذهني .

أخيرا ، تغير في اليوم السادس من شهر يناير من العام ١٨٦٣ الميلادي ، هبوب الرياح إلى اتجاه الجنوب، وفي اليوم التاسع من الشهر نفسه، وصل صديقنا أبو عيسى الذي دام انتظارنا له طويلا ؛ وكان معه سرب كامل من الخدم : ثلاثة من البيض ، اثنان من السود ، إضافة إلى صبي مولَّد لونه يشبه لون البن المحمص ، وكانوا جميعا يرتدون ثيابا حريرية ، ويحمل كل واحد منهم سيفا مقبضه من الفضة ، في حين كان أبو عيسى يرتدي مشلحا مطرزا ، ويشبه عريسا في طريقه إلى الكنيسة لعمل الإكليل .

ولم نتمالك أنفسنا وانفجرنا فى الضحك من منظر هؤلاء الرجال الاستعراضى ، وتلك الأشياء الفارهة التى يحملونها ويرتدونها ، ولكن ذلك له ما يبرره . وأول هذه الأسباب أن أبا عيسى كان مقررا له أن يواصل مسيره بعد توقفه فى البحرين ، إلى أبو شهر بصفته رئيسا لقافلة الحج الغربية ، الفارسية ، وبالتالى فإن المظهر الذى ينم عن الثراء والمنزلة العالية أمران ملازمان لمثل هذه المهمة ، وحتى يتمكن من المضى قدما فى مهمته بنجاح ، وبخاصة بين الإيرانيين ، وفى أرض يعد التباهى فيها هو كل شئ . والواقع أنه بدون ذلك ، فإن كل براءات فيصل وكل أوراق اعتماد محبوب تكون قد ألقيت هباء على قطيعه الشيعى . وبدافع من حب أبى عيسى لعمليات التهريب ، الذى كان يشكل جزءا من شخصيته ، فقد آثر أن ينزل رجاله وبضائعه (إذ كان يصحب معه قدرا كبيرا من البضائع) ، ليس فى المنامة ، وإنما خلف رعن صغير لأحد الجبال على بعد مسافة قصيرة من الميناء ، وبذلك يكون قد تهرب من دفع الرسوم والضرائب ، برغم أن ذلك كان ينطوى على خطر شديد إذا ما اكتشف خفر السواحل التابعين لـ — محمد الخليفة ، أمر هذا التهرب . وما أن وصل أبو عيسى إلى الشاطئ حتى استأجر لنفسه ولخدمه سكنا فى منزل كبير فى الناحية البعيدة من المدينة ، ويبعد حوالى نصف ميل عن السكن الذى نقيم فيه ، وراح يعيش عيشة أبهة فى هذا المسكن ، الذى فتح مجلسه لاستقبال جميع الزائرين ، وليصبح مركزا مؤقتا لكل من يود شرب القهوة ولناقلى الأخبار من المناطق المجاورة . وخلال ساعات الهدوء ، كنا نرتب معه أمورنا الشخصية الخاصة بالجزء المتبقى من رحلتنا .

وتبلورت لدينا بعض الخطط التى ناقشناها ورفضنا بعضها وأعدنا مراجعة البعض الآخر ، إلى أن انتهينا إلى اتباع الخطة التى كان صديقنا قد وضعها وحدد معالمها أبو عيسى عندما كنا فى منزله فى الهفوف ، والتى كان قد اشترى من أجلها جزءاً كبيرا من البضائع التى أحضرها معه . ولم تكن هذه الخطة سيئة ، برغم أن ظروفا خارجة عن نطاق الحسابات العادية تضافرت على عدم إنجاح تلك الخطة بالصورة التى كنا نتطلع إليها وننتظرها .

كان أبو عيسى قد أحضر معه ما يزيد على عشرين حملا من أفضل تمور الاحساء ، تمر الخلاص الحقيقى ، كانت كلها معبأة تعبئة جيدة فى زنابيل بيضوية الشكل مصنوعة من السمّار ، وكان قد اشترى لنا أيضا أربعة مشالح أنيقة من صنع الهفوف ، نسجتها وطرزتها أيادى ماهرة . كان ثلاثة منها يستحقون أن يوضعوا فى

خيوان ملابس الحكام المنابين ؛ ولكن المشلح الرابع كان فاخرا وجميلا بشكل غير عادي ، وكان يحتقر جميع الأكتاف باستثناء كتفى الملك . كان مقررا لكل هذه البضائع أن تظل فى حوزة واحد من خدمه وأن تقدم باسم ابن عيسى شخصيا ، وكان أبو عيسى قد أحضر أيضا ثلاثة ثياب لعدد مماثل من الرؤساء الذين تقع ممتلكاتهم بين البحرين ومسقط ، وكان من المفروض أن يكون بصحبة كل ثوب من هذه الثياب عدد مناسب من زنابيل التمر ، كى تزيد الهدية حلاوة على حلاوتها . ولكن الثوب الرابع الذى كان أغلى الثياب ، ومعه ثلث زنابيل التمر ، كان مقررا له أن يكون من نصيب سلطان عمان نفسه ، وفاء لاهتمامه بأبى عيسى فى إحدى المرات السابقة . ولعل القارئ يعلم أن مسألة تقديم الهدايا ، برغم أن ذلك يكون مجرداً من الأهداف العامة والخاصة ، وإنما من قبيل الذكرى ، والتعبير عن حسن النية ، تعد أمرا عاما وشائعا فى الشرق . زد على ذلك ، أن تقديم الهدايا علاوة على نتيجته الفورية التى تتمثل فى تقديم هدية فورية للمُهْدى ، من قبل المُهْدى له ، فإنها تضمن للمهدى العون والمساندة المستقبلية إذا تطلب الأمر ذلك . وطبقا لحسابات أبى عيسى ، فإن الأتعاب المنتظرة كانت تكفى لمكافأة خادمه على مشقة وأخطار هذه الرحلة الطويلة . وفى الوقت ذاته ، كان يتحتم علىَّ أن أرافق هذه الهدايا وحاملها ، باعتبارى شخصية علمية غزيرة المعرفة فى مجال الطبابة ، وأننى أبحث عن أعشاب وعقاقير ، أنا لا أعرفها شخصيا ، والتى أزعم أنها يمكن اكتشافها فى المناطق الجنوبية الشرقية ؛ وأننى تحت هذا الستار ، وفى ظل حسن النية الذى سوف يترتب على ذلك ، أكون قد نجحت تماما فى دراسة الأرض وأهلها ، على أن أعود مع رئيس الحمالين بعد ذلك إلى أبى شهر ، التى سيكون بركات قد وصلها ، منذ فترة ، بصحبة أبى عيسى . والسبب فى ذلك ، أن أبا عيسى سوف يتعين عليه أن يمكث فى أبى شهر مدة ثلاثة اشهر ، يقوم خلالها بتجميع وتنظيم قافلة الحج استعدادا للسفر إلى مكة عبر الجزيرة العربية .

وكان من رأى أبى عيسى ، أن مسألة مرافقة بركات لى كانت محفوفة بالمخاطر ؛ إضافة إلى أن بركات لا يمكن أن يحل محلى ، فى القيام بهذه المهمة ، كانت الخطة بارعة بكل تأكيد ، وربما كانت لها قيمتها ومغزاها عند أولئك الباحثين ، إذا ما سمحت ظروفهم لهم باتباع الخط نفسه ، ومع ذلك فإن الخطة تنطوى على كثير من المخاطر ، وتحتاج إلى قدر كبير من التخطيط الفكرى الناضج المسبق والحرص فى عمل الترتيبات اللازمة . أضف إلى ذلك أن صديقى السورى وأنا لم تكن تروق لنا فكرة

الانفصال برغم أن اتصالنا لم يعد يتبقى منه سوى ما يقرب من شهرين – التى ربما كانت تبدو لنا (وقد ثبت ذلك فعلا) أطول بكثير مما كنا نتوقع ؛ والواقع أن فكرة اتصالنا كانت أبدية ومستمرة طوال هذه المرحلة من الرحلة . وكنا قد قررنا أن أبدو كما لو كنت مرافقا عابرا وغير مهم لمندوب أبى عيسى ؛ وبالتالى فإن وجود شخص ثالث معنا ربما كان يتطلب منا تقديم تفسير لوجوده معنا) وأن ذلك ربما يؤدى إلى إثارة الشكوك . ورأينا أيضا أن مسألة تعرضنا نحن الاثنين لخطر تحطم المركب ، هى من قبيل التسرع والتهور ؛ نظرا لأن هذا الفصل من العام لم يكن مناسبا تماما للملاحة ؛ وخاصة أن نصف الطريق ، يجب أن نقطعه فى البحر ، علاوة على أن الملاحة فى الخليج الفارسى تشكل نوعا من الخطر إلى حد ما للسفن الشراعية الأوربية فى فصل الشتاء وأوائل الربيع ؛ وهذا الخطر أيضا قد يحدق بالمراكب العربية ، وعلى كل حال ، فقد رحت أنا وبركات نشجع بعضنا بعضا ونتمنى الخير فى جميع الأحوال ، كما خطر ببالى أيضا ألا أضيِّع هذه الفرصة التى قد أستطيع من خلالها ، اكتساب معرفة جديدة ، أتعرف من خلالها ، إن جاز لى أن أستعمل العبارة ، على عُمَان ، برغم أنى أعلم أن ذلك التصرف قد يكون سطحيا فى هذه المرة ، ومع ذلك فقد يكون هذا التصرف سبيلا إلى حميمية أكثر اكتمالا وديمومة .

كان يوسف بن خميس ، وهذا هو اسم الشخص الذى تقرر أن نذهب إليه ، شخصيه عجيبة جدا ، ويشبه بعضا من شخصيات شكسبير الثانوية . كان يوسف بن خميس واحداً من أهل الاحساء ، نصفه مزَّاح والنصف الآخر وغدا ؛ وكان ذكيا ، ومتهورا ، وطائشا إلى أبعد حدود الطيش ، لديه الكثير من القصص الهزلية أو إن شئت فقل الحكايات التى تستثير الشفقة ، وكان أيضا يحفظ الكثير من الشعر ، والموروثات ، وكثيرا من الطرف والظّرف على اختلاف أنواعه ، سواء أكانت فظة أم رقيقة . ولكن ابن خميس كانت فيه خصلة فريدة ، تتفوق ، فى مثل هذا الموقف الذى نحن بصدده هنا ، على كل ما يرجح كفة الميزان المعاكسة ، وكانت تلك الخصلة تتمثل فى ولائه وارتباطه غير المحدود ، بأبى عيسى ، وإخلاصه الحقيقى له ، ولم يكن هذا الولاء أو الإخلاص يقل عن إخلاص وولاء ايفان ماكوميشن لـ – فيرجوس **Fergus** ، أو ولاء وإخلاص كالب **Caleb** لـ رافنسوود **Ravenswood** . وعلى كل حال ، فإن أصل ذلك الشعور لم يكن يمثل فى الصداقة أو القرابة أو النسب ، وإنما كان يرجع بالدرجة الأولى إلى طيبة قلب أبى عيسى وسخائه ، الذى أنقذ يوسف بن خميس من فقر مدقع ، وضمن له منزلة كريمة طوال فترة طويلة من الزمن . ولكن مسألة تعارفهما أول مرة

يطول شرحها ؛ ويكفى أن نقول هنا : إن أبا عيسى طوال السنوات الخمس أو الست التى أمضاها فى الهفوف ، كان بمثابة أفضل الأصدقاء عند ابن خميس ، إذ كان بحق صديقا عند الحاجة ؛ إضافة إلى أن إسراف وتبذير ابن خميس ، الذى كان يبدد كل ما يعطيه له أبو عيسى ، لم يمنع الأخير من مواصلة العطاء والإغداق .

كان يوسف ، عندما كان صبيا ، قد حمل السلاح ، رمحا فى أضعف الأحوال ، فى الصراع الذى أسفر عن تفوق فيصل وهزيمته لابن الثنيان . علاوة على أنه كان أيضا ركنا أساسيا من أركان الحملة البحرية الكبيرة التى شنها فيصل على البحرين وسبقت الإشارة إليها ، والتى فشل النجديون فيها فى إنشاء امبراطورية بحرية ؛ وبعد أن حاكى ابن خميس هوراس فى معركة اكتيوم Actium ، لم يستشعر عارا أو خجلا فى أن يفعل مثلما فعل ذلك الشاعر عندما راح يحدث الناس ويروى لهم جبنه وخجله . وبرغم أن ابن خميس كان مقداما فى نواحى أخرى كثيرة إلا أن سفك الدماء كان يصيبه بالرعب والفزع ؛ بل إنه لم يكن يجرؤ على مشاهدة شاه أثناء ذبحها . كان عمر يوسف بن خميس فى تلك الأثناء حوالى ستة وثلاثين عاما ، وكان فارع الطول ، وأنيقا (برغم ملامحه المضحكة) ، كما كانت له لحية قليلة الاسوداد ، تتخللها بعض الشعيرات الرمادية التى ظهرت قبل أوانها ، نتيجة الفزع والرعب اللذين كانا ينتابانه عندما كان يرى رفيقا تعيسا يقتل وهو إلى جواره فى معركة البحرين ، وذلك على النقيض تماما من مظهره الشاب ، الأمر الذى كان يجعل الآخرين يطلقون عليه الطُّرف والنكات، ويجعله هو نفسه يطلق النكات على نفسه أيضا. والسبب فى ذلك أن يوسف ، شأنه شأن فولستاف Falstaff قديما ، لم يكن مجرد داهية فى حد ذاته ، وإنما كان سببا للدهاء عند الآخرين " ؛ برغم أنه فى حالة المواجهة الفعلية ، يصبح على النقيض تماما من فارسنا الجوبيترى[1] ، نظرا لأنه كان نحيفا تماما وشكله هزيلا .

وقد سبق لى أن تعرفت على يوسف فى الهفوف ، التى كان يوسف فيها يزور منزل أبى عيسى بصورة مستمرة ، أو بالأحرى واحدا من أتباعه ، وكانت صلاتهما على أحسن ما يرام . ولذلك لم أجد صعوبة مطلقا فى الموافقة على أن يكون هو مرشدا لى خلال هذه الجولة ، ولم يمانع هو أيضا فى مصاحبتى ، برغم أنه لم يكن يعرف أى شئ عن هدفى الحقيقى .

(١) جوبيتر : كبير الآلهة عند الرومان – (المترجم) .

وبعد أن رتبنا أمورنا على هذا النحو ، رحنا ننتظر اللحظة المواتية التى تتهيأ لنا خلالها فرصة الإبحار . ولكن الريح كانت معاكسة ، وينصرم يوم بعد يوم إلى أن وصلنا إلى اليوم الثالث والعشرين من شهر يناير ، وفيه أصبحت الريح مواتية ؛ وتزامن ذلك مع سفينة جيدة حملت أبا عيسى هو وخدمه ومعهم بركات إلى مدينة أبى شهر، فى حين تعين عليَّ أنا ويوسف أن نعبر القنال فى اليوم التالى إلى مدينة المحرق، ومنها إلى ميناء البداع على الساحل القطرى ، الذى يقيم فيه محمد بن ثانى ، أول وأقرب الرؤساء ، الذى سنقوم بزيارته ونقدم له الهدايا التى اصطحبناها معنا . وقد راودنى حدس داخلى من ذلك النوع الذى لا يمكن أن يكون له تفسير واحد ، فى معظم الأحيان ، عند أولئك البشر الذين يمرون به ، وكان يتعلق باحتمالية تحطم المركب التى سنستقلها ، مما جعلنى أعهد إلى بركات بالاحتفاظ بكل أوراقى ، ومذكراتى ، وكل ماله قيمه عندى ، ولم أحتفظ معى سوى بمبلغ صغير من النقود لأواجه به طوارئ الرحلة . وقد جاء ذلك تحوطا حسنا ، إذ لـــولاه لضاع هذا الكتـــاب وهو ما يزال جنينا ، ومعه أشياء أخرى كثيرى ، على جزر السُّواده Sowadah .

كان عصر ذلك اليوم صافيا وشمسه مشرقة ، وبعد أن تمنينا لبعضنا تمنيات طيبة وتجمعا سريعا ، وبعد أن تبادلنا التوصيات ، كما هو الحال بين الأصدقاء عندما يفترقون ، ذهب كل منا لحال سبيله – فقد صعد أبو عيسى هو وخدمه ومعهم بركات إلى ظهر سفينتهم المتجه إلى أبى شهر ، فى حين بقى يوسف بن خميس وأنا معه لنقوم على أمر المنزل ، وأمضينا فترة المساء فى وحدة وصمت نسبى . وطوال الأسبوعين اللذين تولى أبو عيسى فيهما شئون المنزل ، جعله بكرمه وعاداته المظهرية محطا مستمراً للحديث والنقاش ، ومحطا أيضا للزائرين ولمن يريدون شرب القهوة ؛ وهذا على النقيض تماما من الصمت الذى هو عليه الآن ، وهذا لا يليق ببيت كبير على العكس من الأماكن الأخرى . وتناولنا العشاء سويا على أفضل نحو مستطاع ، وتجاذبنا أطراف الحديث طوال ما تبقى من فترة المساء . كنت أشعر بالوحدة بشكل غير عادى ؛ ولكن تطلعى إلى رحلة مهمة وناجحة ، ومصحوبة بعود ناجح ، كان هو عزائى الوحيد . وراح يوسف أيضا ، برغم أنه كان حزينا مثل قط مخصى أو دب مترنح بسبب رحيل سيده ، يضلل خياله عن طريق التبشير برحلة سعيدة لأبى عيسى ، وتمنى له أن تكون خالية من دوار البحر ومن أخطاره. ولكن الأمل خدعنا نحن الاثنين ، كما ستكشف الأحداث بعد ذلك .

وفى صبيحة اليوم التالى استقبلنا قاربا صغيرا ، دون أن يضايقنا موظفوا الجمارك هذه المرة ، نظرا لأن شغلهم الشاغل هو الواردات ، ثم عبرنا إلى المحرق ، وفى المحرق ، عثرنا بعد البحث ، على تلك السفينة المتجه إلى قطر ، والتى سبق أن رتب معها أبو عيسى مسألة انتقالنا ومعنا بضائعنا ، والتى كانت تلقى مراسيها بعيدا عن القلعة فى الناحية الشرقية من مدينة المحرق . وحتى يتسنى لنا الوصول إلى تلك السفينة ، كان يتحتم علينا أن نسير مسافة ربع ميل تقريبا فى الرمال الرطبة ، وعبر رَعن يشبه الهويس ، يشكل اتساعه طريقا بين الرَّدغة على الجانبين ، إلى أن وصلنا القلعة الكبيرة المربعة ، متينة البناء والمزودة بالمدفعية ، برغم أنها ليست من طراز قلاع وولوتش **WoolWich** ، وهذه القلعة الكبيرة المربعة تقع عند أقصى الرُّعن ، ويحيط بها من الخارج سور خارجى طويل . كانت توجد فى هذا المكان ثكنات حامية بحرينية ؛ ولكن المبنى يستعمل حاليا إسطبلا لخيول محمد الخليفة الأنيقة . كان هناك ذلولان يرعيان خارج السور ؛ وكان سلطان عمان قد أرسلهما قبل أيام قلائل ، هدية إلى محمد الخليفة ، اعترافا منه بسداد الجزية المعتادة . كان هذان الذلولان بمثابة عينة ممتازة من سلالة الذلول العمانية الخالصة ، زد على ذلك أن رشاقة شكل هذين الذلولين التى تشبه رشاقة الزراف ، وبريق عيونهما وذكائهما ، ووبرهما الناعم الذى يشبه لونه لون الفئران بنية اللون ، وكذلك خطوهما الخفيف والرشيق ، كل هذه الأشياء هى التى تميز هذه الحيوانات عن أية سلالة أخرى ، وتجعلها ذائعة الصيت .

كانت السفينة التى سنستقلها قد ألقت مراسيها بعيدا عن منطقة القلعة ، وكانت مركبا سيئ الصنع، سيئ الأشرعة ، فضلا عن أن طاقمه كان شيئا أيضا ؛ ومع ذلك ، فإن هذه العيوب لم يكن يعول عليها كثيرا ، نظرا لأننا لن نستقلها إلى أبعد من قطر ، وهى مسافة قصيرة ؛ زد على ذلك أن أية سفينة ، أيا كان ضعفها أو هزالها ، تستطيع تحت قيادة الربان العليم المجرب ، أن تبحر فى مياه هذا الخليج الهادئة ، الذى أطلق العرب عليه اسم " بحر البنات " ؛ سواء أكان ذلك ناتجا عن رؤية جنيات البحر – التى لا تقل عن " الجنِّيات التى ورد ذكرها عند بريست **Brest** ، والتى تحظى بتصديق شعبى كبير ، أو ربما تكون هذه التسمية قد نشأت من طبيعة هذا الخليج اللطيفة المسالمة المتبسمة دائما (والتى تتمثل فى الخليج ما عدا الأماكن الضحلة منه) ، ولذلك فهم يشبهونه بصبية شابة محبوبة . ونقلنا بضائعنا وأشياءنا إلى ظهر المركب ، تحت رعاية الربّان ، الذى كان "رجلا ملتحيًا كبير السن" ، وكان يمكن لهذه اللحية أن

تكون فى "بياض الثلج" لو أن صاحبها غسلها ومشّطها ؛ وبعد أن أكد بقية البحارة للريان أن المركب بكل ما يحمل سيكون جـاهزاً للإبحار فى صبيحة اليـوم التالى ، مع شروق الشمس ، قمنا بالعودة إلى مدينة المحرق مرة ثانية .

وبصفة عامة ، فإن المحرق عبارة عن مدينة غريبة تستحق الزيارة ، برغم أنها ليس فيها واحد ذو أهمية تذكر . والمدينة عجيبة من منطلق مظهرها الغربى – الفارسى ، ومنازلها الصغيرة الأنيقة ، وسوقها المعبّد ، ورفوف العرض العالية التى تمتد بطول الجدران ، فى كل مكان ، مما يوحى بالحياة والحيوية خارج المنازل ؛ زد على ذلك ، أن درجة الحشد فى مدينة المحرق ، تختلف عن أسلوب الانتشار المتبع فى معظم البلدان العربية ، التى تجئ قيمه الأرض فيها ، فى آخر القائمة ، بمعنى أن الأرض فى هذه البلدان هى مجبرد متسع لأسلوب الانتشار نفسه. ومن حيث التجارة ، فإن المحرق تجيئ فى المرتبة الثانية بعد المنامة ، وسوق المنامة أقل ازدحاما ومساحة ؛ وعلى الجانب الآخر ، فإن المحرق هى أنظف وأجمل المدينتين ؛ وربما كان ذلك طبقا للمثل الذى يقول :" الزريبة نظيفة فى الأماكن التى لا يوجد فيها الثيران " . وتنتشر فى المحرق قصور كثيرة يعيش فيها أعضاء مختلفين من أسرة الخليفة . وقد اقتادنى يوسف الخميس، اعتماداً منه على معرفة قديمة ، أقامها تحت جناح سيده أبى عيسى ، لزيارة أحد الرؤساء ، اسمه حميد ، وهو عم حاكم البحرين الحالى . واستقبلنا حميد بأدب جم ؛ ولم تختلف مراسم ذلك الاستقبال عما وصفته من قبل . وعندما تحولت حرارة الحديث إلى ود وألفه وحب ، كنت أجد صعوبة بالغة فى انتحال بعض الأعذار المهذبة لرفض عروض الرعاية التى قدمها لى حميد ، لو أننى وافقت على البقاء فى المحرق ، والإقامة فيها بصفتى طبيبا للأسرة المالكة ؛ وهذا العرض يبلغ من التكريم ومن المنفعة حداً يصعب معه الرفض ، لو قدر لى أن أكون ذلك الذى كنت أبدو عليه . وبعد برهة من الوقت استأذنا وانصرفنا لنمضى فترة المساء ، فى منزل صغير لرجل يدعى مغيث ، هو من أصدقاء يوسف الخميس ، ومن مواطنى الأحساء . كان مغيث رجلا أديبا ، وكان يكسب عيشه من العمل بالتدريس أو كخطاط . ومهنة التدريس والخطاط ترتبطان ببعضهما فى الشرق ؛ والنساخون يحققون أرباحا كبيرة فى غياب المطابع والناشرين ، ومستحيل أن نجد أحداً منهم متعطلا . زد على ذلك ، أن مغيثاً كان صوفيا ، ينتمى إلى الطريقة القادرية ، التى تحتاج مبادئها الغريبة ولاهوتها الذى تدور من حوله الشكوك ، إلى كتاب آخر غير هذا الكتاب ، حتى يتسنى لى شرحها

شرحاً وافيا. ويكفى أن أقول هنا: إن عبد القادر الجيلانى ، مؤسس الطريقة القادرية ، إذا لم يكن (وهذا أكثر من محتمل) قد ادعى لنفسه مكارم مقدسة ، فإنه قد أعطى نفسه ، على أقل تقدير ، بين أتباعه ، منزلة أعلى من منزلة محمد (ﷺ)[1] ؛ كما ترك لأتباع القادرية موروثا عبارة عن مذهب فارسى شبيه بمذهب وحدة الوجود[2] ، صنع قناعا من الاسم الإسلامى الذى أطلقه عليه .

وأعضاء هذه الطريقة العجيبة (وبخاصة أولئك الذين أسعدنى الحظ بالتعرف عليهم) يميزون أنفسهم عن طريق التحضر الكامل مع الغرباء والتعاطف معهم ؛ ولذلك فإن مضيفنا القادرى كان مثالا يحتذى فى هذا الصدد . وسرعان ما دخل مغيث معنا فى حوار دينى ؛ والواقع أننا لم تكن نتوقع غير هذا الحوار فى منزل ذلك الرجل ؛ وقد سعدت عندما اكتشفت أن صديقى الجديد كان حساسا فى أفكاره وأمينا فى قناعاته ، التى كانت ترتكز فى أساسها على أساس عريض من الروحية يمكن تكييفه ليناسب مختلف البلدان والعصور ، نظرا لأن هذا الأساس يقوم على تذوق معقول لكينونة الإله وكينونة الإنسان . يضاف إلى ذلك أن استنتاجاته الأخلاقية لم تكن أقل من معاييره النظرية ؛ وأنا هنا ، أحيل المستشرق فيما يتعلق بهذه الاستنتاجات وهذه المعايير إلى القصيدة الشهيرة التى تحمل اسم " الطَّيِّعات الكبرى " ، التى كتبها الشاعر القادرى العظيم عمر بن الفارض .

وعلى كل حال ، ولما كنت قد حاولت ، فى مناسبات سابقة ، تقديم عينات قليلة من الشعر العربى فى موضوعى الحب والحرب ، فأنا أرى أن القارئ يود أن يرى موزية[3] الشرق وهى تحلق بجناحيها فى اتجاه السماء . وبناء على ذلك ، سوف أورد هنا قصيدة قصيرة أملاها علىّ مغيث ، خلال حوار دار بيننا عن موضوع " ذلك البلد المجهول الذى لا يعود منه من يرحل إليه " ؛ برغم أن صديقى كان له موقف أكثر استبشارا – إن لم يكن أقل وضوحا – من موقف كلوديو Claudio شقيق إيزابيلا Isabella ،

(١) هذه مبالغة من المؤلف ولو فعل ذلك أى مسلم على ظهر الأرض فادعى لنفسه قدراً يعلو على قدر رسول الله محمد (ﷺ) أو على قدر أى نبى من أنبياء الله ورسله فإنه يكفر كفراً بواحاً – (د. حلمى عبد المنعم) .

(٢) وحدة الوجود : المذهب القائل بأن الله والطبيعة شئ واحد وبأن الكون المادى والإنسان ليسا إلا مظاهر للذات الإلهية – (المترجم) .

(٣) الموزية : إحدى الإلاهات التسع الشقيقات اللواتى يحمين الشعر والغناء والفنون والعلوم عند الإغريق .

أو موقف هاملت نفسه . زد على ذلك ، أن الأبيات نفسها توضح تماما اتجاها فكريا شائعا بين أتباع القادرية ، برغم أن هذا الاتجاه الفكرى يقتصر عليهم وحدهم .

وروى لى مغيث ، على عهدة الموروث القادرى ، كيف أن أحمد الغزالى ، أحد أبناء طوس الشهيرين فى بلاد فارس (لعل القارئ المثقف يعرف أن هذا الرجل هو مؤلف كتاب : " لباب الاحيا " وأن صيته قد ذاع فى العام ١١٨٠ الميلادى[١]) ، قال لتلاميذه وأتباعه ومريديه ذات يوم : "اذهبوا وأحضروا إلىَّ ثيابا بيضاء جديدة ، نظرا لأن الملك قد استدعانى للمثول أمامه" . وينصرف هؤلاء الأتباع والمريدون ؛ وعندما عادوا إلى أحمد الغزالى ومعهم الثياب المطلوبة ، وجدوه ميتا ؛ وكانت إلى جواره ورقة كتبت عليها المقطوعات التالية :

قل لأصدقائى ، الذين سيرونى ميتا ،
يبكون ويحزنون هنيهة على خسرانى ،
لا تظنوا أن هذا الجثمان الذى أمامكم هو أنا ،
هذا الجثمان جثمانى ، ولكنه ليس أنا •
أنا حياة لا تموت ، وهذا ليس سوى جسدى ،
السنين الكثيرة دارى وثيابى التى تتغير ؛
أنا طائرٍ ، وهذا الجسم كان قفصى ،
لقد جنحت طيرانى إلى مكان آخر ، وتركته إشارة .
أنا لؤلؤة ، وهذه محارتى ،
انفتحت عنوة ، وهُجرت للعدم ؛
أنا الكنز ، وهذا كان العزيمة
ألقيت علىَّ ، إلى أن دخل الكنز فى الحقيقة .
شكرا لله الذى أسلمنى ،
وحدد لى مسكنا أبديا فى الأعلى .

(١) الصواب أن اسم الكتاب الذى اشتهر به أبو حامد محمد الغزالى هو "إحياء علوم الدين" وقد توفى عام ٥٠٥ هجرية - (د. حلمى عبد المنعم) .

هناك أنا الآن أمضى اليوم فى الحديث مع السعداء ،
وأرى الإله وجها لوجه وبلا قناع ؛
واتامل المرآة التى أرى وأقرأ فيها
الماضى والحاضر ، وكل ذلك الذى يتبقى أن يكون .
الطعام والشراب أيضا لى ، إلا أنهما اثنان فى واحد ؛
والأسرار معروفه لذلك الذى يجدر به أن يعرفها .
أنا لا أشرب " نبيذا حلو المذاق " ،
لا ، ولا " ماءً " ، حليب الأمِّ النقى .
افهم ما أعنيه جيدا ، لأن السِّر
تَدُلُّ عليه كلمات الرمز والمحسنات البديعية .
لقد مضيت فى رحلتى ، وتركتك ورائى ؛
كيف أتخذ مسكنا من مسرحك المتوقف
إذن حَطِّم منزلى ، وكسِّر قفصى إربا إربا ،
واترك المحارة تموت ومعها أخدوعات نسبية ،
مزق توبى ، ذلك القناع الذى ألقى علىّ ذات مرة ؛
ثم ادفن كل ذلك ، ودعه كله فى طى النسيان ،
لا تعد الموت موتا ، لأنه فى الحقيقة
حياه الحياوات ، هدف كل استباقاتنا .
فكِّر بحب فى الرب ، الذى اسمه الحب ،
الذى يفرح بالعطاء ، ويهب لتطمين الخوف .
من حيث أكون ، أراك أيتها الأرواح التى لا تموت مثلى تماما ،
وأرى أن مصيرنا واحد ، وأراك مثلى أنا[1] .

(١) أنا أشكك فى نسبة هذا الكلام الذى سماه المؤلف بالقصيدة ، أشك فى نسبته إلى الغزالى ، لأن الغزالى كان موسوعة علمية وكان متقناً للعربية فكيف يقول هذا الكلام الذى يهبط إلى مستوى العامة أو أقل - (د. حلمى عبد المنعم) .

وينبغى أن أشير هنا أن " الماء " والنبيذ " اللذين أنكرهما الشاعر فى هذه الأبيات سيكونان من بين مباهج الحالة المستقبلية التى يؤكد عليها القرآن ؛ كما أن البعث الجسدى الذى يؤكد عليه محمد(ﷺ)، لا يظهر بشكل واضح في مقطوعات الغزالى ، الذى تبدو كل أفكاره ، بالشكل التى هى عليه فى هذه الأبيات ، معادية للإسلام تماما . وبينما كان مغيث يلقى هذه القصيدة ، فى تنكر شرقى أصيل ، دخل فى شكل من أشكال الانجذاب ، وانفجر فى البكاء ، ولقى كثيرا من المصاعب فى استكمال إملاء القصيدة علىّ . وفى نفس هذا الوقت ، كان يوسف قد راح " يغط فى نوم عميق " شأنه فى ذلك شأن الضيف فى رواية " ماجدان من فيرونا " عندما بدأت أغانى ثوريو Thurio وخطابات سلفيا Sylvia . وفى ساعة متأخرة من الليـل دخلت أنا ومغيث فى ثبات عميق أيضا .

وبعد منتصف الليل استيقظنا جميعا على أصوات الرعد المدوية التى كانت تنذر بهبوب عاصفة شديدة ومطر غزير ؛ وعندما طلع النهار ، لم يكن مجرد إنذار بضياع فرصة إبحارنا ، وانما كان من المستحيل علينا أن نخطو خطوة واحدة خارج المنزل ، لأن العاصفة كانت مستعرة مثل وحش كاسر . كانت العاصفة تهب من ناحية الشمال . ورحت أنا ويوسف نتبادل الآمال غير المؤكدة التى مفادها أن أبا عيسى ومن معه ربما يكونوا قد وصلوا إلى أبى شهر بطريقة أو بأخرى قبل مجيئ ذلك الإعصار . ولكن الواقع ، وهذا هو ما عرفناه بعد ذلك بثلاثة أشهر تقريبا ، هو أن هذه العاصفة فاجأتهم ، قبل أن يبحروا من رأس خليلة ، على الخليج ، وأعادتهم من جديد إلى منطقة قريبه من البحرين ، وأن ذلك لم يكن خاليا من الأخطار والإزعاج . وأنهم لم يستطيعوا شق طريقهم مرة ثانية إلى أبى شهر إلا بعد أيام من التأرجح والقلق .

وفيما يخصنا ، فقد تصرفنا تصرف العقلاء ، وبقينا فى مأوانا ، إلى أن هدأت العاصفة ، بعد أربع وعشرين ساعة ، وطلعت الشمس من جديد ، وهنا استدعينا الربَّان واقترحنا عليه أن يبحر بالسفينة . ولكن الربان العجوز جزم أن البحر كان ما يزال هائجا على نحو لا يسمح لسفينته بالإبحار (وأنا أعتقد أنه كان على حق فيما ذهب إليه) ، واقترح علينا أن ننتظر إلى اليوم التالى . ولم يكن أمامنا شيئ نفعله سوى التجوال في الشوارع ، والجلوس فى المقاهى والسير على الشاطئ الرملى ، وزيارة قرية صغيرة بالقرب من مدينة المحرق ، والتي سمحت تربتها الهزيلة لواحد من

أهل المحرق بإقامة مزرعة عليها ، إلى أن عدنا فى النهاية إلى المنزل ودخلنا فى خطاب عميق مع مضيفنا الفيلسوف الزاهر . كان مغيث يكره الوهابيين من أعماق قلبه ، والواقع ، أن مجيء الوهابيين إلى الاحساء كان السبب المباشر فى تركه لها ؛ فقد اعتبره الوهابيون مهرطقا ، فى حين كان ينظر هو إليهم ، باعتبارهم متعصبين متشددين لا يرحمون ؛ وهذه الاتهامات يفترض وجود أى منها وجود الآخر فى كل بلاد الدنيا .

أخيرًا ، ظهرا الربان من جديد ، فى اليوم السادس والعشرين ، ودعانا إلى ركوب مركبه الذى كان يقف عند رعن الجبل الذى كانت القلعة مقامة عليه . وأعربت لـ - مغيث عن أملي فى أن ألقاه مرة ثانية عندما نعود من عمان . ورد على مغيث قائلا : " دعنا نتطلع إلى اللقاء فى عالم آخر ؛ إذ ستكون هناك الديمومة الأكبر " . وبعد أن قال لى ذلك شد على يدى ثم افترقنا .

وحَمَلَنا قارب خفيف إلى السفينة . وبالقرب من السفينة شاهدنا تلك الظاهرة العجيبة غير الفريدة ، فقد شاهدنا نبع مياه عذبة ينبثق من بين مياه البحر المالحة . كان ذلك النبع يبعد حوالى ستين ياردة عن علامة الجذر ، وشاهدنا نساء المحرق وهن تخضن وجرارهن على رءوسهن إلى أن تصلن إلى صخرة صغيرة ، أو إن شئت فقل العلامة الأرضية . (أو العلامة البحرية إن شئت) التى تدل على النبع ، الذى كان ينبثق من الأسفل إلى الأعلى بقوة كانت تطرد الماء المالح من جميع النواحى ، تاركة حولها دائرة كبيرة من المياه الصالحة للشرب ، كانت النسوة تغمرن جرارهن فيها ، وتعدن محملات بذلك الذى يظنه المشاهد الجاهل مقدارا من الماء المالح ، الذى عادت به هذه النساء إلى أحد الحمامات المالحة على البر . كانت سفينتنا التى كانت تتساوى ، من حيث الحجم ، مع السفينة الشراعية ذات الصاريين ، محملة بالثروة الحيوانية ؛ كما كان على ظهرها أيضا مسافرون من الجنسين ، ومن مختلف الأعمار ، غير أن حالهم كان متدنيا ، وكانوا جميعا مسافرين إلى قطر ، وكان على ظهر المركب أيضا ست أو ثمانٍ من البحارة ، كما كان بصحبتنا على ظهر السفينة عشرات من الغنم . (لم يكن لهذه السفينة كابينة على الإطلاق) . وشغلت مع يوسف أعلى الأماكن وأكثرها احتراما ، وكان ذلك الموقع على ظهر المركب بالقرب من مؤخرتها ، ثم بدأنا نحس ، قبيل الظهر ، بتثاقل المركب . كان البحر لا زال هائجا ، وشعر رفيقى بدوار البحر ،

ومبلغ علمي أن نيلسون **Nelson** ، كان يصاب بدوار البحر من حين لآخر ؛ ولكنى كانت لدى مناعة ضد هذا المرض ، وقد اكتسبت هذه المناعة من الرحلات البحرية الكثيرة ، ومن الطقس السيئ الذى واجهته على سطح المحيط .

ومضينا فى إبحارنا " ، وتجاوزنا كثيرا من الأماكن الضحلة ، وكثيرا من الحيود[1] البحرية ، التى كنا نلاحظها عن طريق تغير اللون على صفحة الماء أو حدوث تموج خائن طويل . وقرب حلول الليل بدأنا نشاهد الطرف الغربى من قطر ، والذى يطلق عليه فى كثير من الخرائط اسم بحران **Bah.ran** ، وأنا لا أعرف الأساس الذى اعتمدوا عليه فى إطلاق هذا الاسم على هذا الطرف الغربى ، والمؤكد أن الناس هنا لا يطلقون هذا الإسم على هذا الجزء ، والمعروف أن " بحران " هى صيغة الرفع ولكن "بحرين" هى صيغة الإضافة أو صيغة المفعول ؛ ولذلك فأنا أرى أن جغرافيينا ربما يكونون قد تجاوزوا الصواب نتيجة وقوعهم فى خطأ نحوى . كان ساحل قطر يبدو صخريا من أمامنا ، ولكنه لم يكن مرتفعا ؛ كان يبدو لنا قفراً تماما ، وكنا نرى على بعد مسافات أبراجا للمراقبة ، من قبيل تلك الأبراج التى شاهدناها فى مناطق مختلفة من الشاطئ السورى ، والتى يعزوها الموروث الشعبى إلى الإمبراطورة هيلينا ، زوجة قسطنطين الأعظم .

وصحونا منزعجين أثناء الليل، على صوت احتكاك الكِيْلة[2] بأحد الحيود البحرية ، الأمر الذى ترتب عليه كثير من الاضطراب والفوضى والصراخ، وارتباك عمل البحارة ، إلى حد أن خروجنا من ذلك الحيد كان من قبيل المصادفة الحظيظة وليس بفعل مهارة البحارة . وفى اليوم التالى ، كان علينا أن نتحمل الرياح غير المواتية والمطر المتساقط بلا أى شيئ نحتمى به ، فى حين كانت السفينة تشق طريقها أسفل رأس ريكان **Ras Rekan** ، أو إن شئت فقل : الرأس الموجودة عند أقصى شمال الرُّعن القطرى ؛ وهذا الرِّعن عبارة عن لسان جرىء يمتد داخل البحر ويتردد ارتفاع صخوره بين ثلاثين أو أربعين قدما ؛ وقد استغرقنا وقتا طويلا فى الدوران حول هذا اللسان . وقد لاحظت قلعة كبيرة الحجم فوق تلك الصخور ؛ وهذه القلعة تتبع إحدى القرى الواقعة على إحدى الكتل القريبة التى تسد المجرى ، ولكنى نسيت اسمها .

(١) الحيد : مجموعة من الصخور البحرية القريبة من السطح - (المترجم) .

(٢) الكِيْلة : بكسر الكاف وتسكين الياء ، سفينة مسطحة القعر - (المترجم) .

وفي صباح اليوم الثامن والعشرين كنا قد درنا حول رأس ريكان واتجهنا جنوبا ، ومن ورائنا العاصفة ، صوب مدينة البداع 'Bedaa . كان الشريط الساحلى كله منحدرا ، ولكن ارتفاعه لم يكن كبيرا ، وشاهدنا على ذلك الشريط الساحلى خمساً أو ستاً من القرى ، أو إن شئت فقل : مساكن الصيادين ، التى تقع بين رأس ريكان والبداع ، والتى أصبحنا مقابلين لها قبيل حلول المساء . ونزل بن خميس إلى البر ، وقصد إلى منزل رئيس المدينة ليقدم له تحياته ويستأجر لنا سكنا ؛ ولكن الوقت كان متأخرا ولذلك آثرت قضاء الليل على ظهر السفينة . وفى صبيحة اليوم التالى عاد ابن خميس ليأخذنى معه ، وخضنا سويا خلال منطقة رملية إلى أن وصلنا ، فى النهاية ، إلى مدينة البداع ، التى تعد حاليا ، المدينة الرئيسة فى قطر .

ومدينة البداع هى العاصمة البائسة لمنطقة بائسة أيضا . وإذا أراد القارئ أن يأخذ فكرة عن قطر ، فله أن يتصور أميالا وأميالا من الكثبان الرملية الجرداء المكشوفة ، التي أحرقتها الشمس ، ويندر أن تجد فيها شجرة واحدة تكسر رتابة الحدود الخارجية الجافة : وعند أسفل هذه الكثبان يوجد شاطئ من الوحل يمتد قرابة ربع الميل في اتجاه البحر علي شكل وعث[1] له حافة من الوحل والرواسب الطينية والعشب والطحالب البحرية . ونحن إذا ما نظرنا فى اتجاه البر وأسفل هذه الكثبان الرملية ، نرى ذلك الذى يمكن أن نطلق عليه ، من قبيل الأدب الجم ، اسم المرعى ، الذى هو عبارة عن منخفضات جرداء تحتوى كل واحدة منها على عشرين حصوة مقابل كل عود من الحشائش ؛ ومن فوق هذا المنظر الأرضى الحزين ، وعلى مسافات متباعدة ، توجد مجموعات صغيرة من الأكواخ الطينية البائسة ، بل وشديدة البؤس ، والأكواخ المصنوعة من سعف النخيل ، الضيقة ، الكئيبة ، المنخفضة ؛ وهذا هو ما يطلقون عيه اسم القرى ، أو بالأحرى "المدن" (لأن هذا هو الاسم الذى يطلقه السكان هنا على هذه الأكواخ) ، القطرية . وبرغم فقر وجدب هذه المنطقة ، إلا أنها فيها شيئاً آخر أكثر فقرا وأكثر جدبا ، هذا الشيئ يقع إلى الخلف منها ، وليس فيه من الموارد شئ سوى الشاطئ نفسه ، الذى ينشد سكانه ، عن طريق العنف ، ذلك الذى لم يستطيعوا الحصول عليه من الداخل . والسبب فى ذلك أن قرى قطر عن بكرة أبيها مسورة تسويرا جيدا ، كما أن المنخفضات التي توجد تحت هذه القرى تحيط بها

(١) الوعث : الرمل اللين تغيب فيه الأقدام - (المترجم) .

أبراج المراقبة ، وتتناثر فيها هنا وهناك قلاع "ضخمة مربعة الشكل" ، توحي نوافذها الصغيرة ، وأبوابها الضيقة بالقوة ، التي تتضاءل ، كما يبدو أمام قوة برج لندن في القرن التاسع عشر . ولكن هذه القلاع ، هي في واقع أمرها ، قلاع سطحية وشكلية ، والسبب في ذلك أن ثروة قطـــر وفيرة ، وأن هناك لصوصاً لابد من حمـــاية هذه الثروة منهم .

ولكن من أين تجيئ هذه الثروة وسط كل هذا الفقر ، ومما تتكون هذه الثروة ؟ إن ما وصفته ليس ، إلى حد ما ، سوى أكوام القمامة ، وأكواخ الصيادين من حول اسطوانة العمود الرئيسي ؛ وبالقرب من هذه الأكواخ يوجد المنجــم ، ذلك النبع الذي لا ينضب . هذا المنجم ليس سوى البحر ، الذي يعد جارا حانيا على سكان قطر أكثر من أرضهم القاحلة الجرداء . ففي هذا الخليج ، توجد أغنى وأغزر مصايد اللؤلؤ في الخليج الفارسي ، إضافة إلى وفرة العطايا الأخرى التي يجود البحر بها عليهم . معنى ذلك أهل قطر إنما يعيشون من البحر وليس من البر ، معنى ذلك أيضا أنهم يسكنون بالقرب من البحر ، ويقضون على صفحات أمواجه ومياهه نصف العام تقريبا في البحث عن اللؤلؤ ، في حين يقضون النصف الآخر في صيد اللؤلؤ وتجارته . من هنا فإن منازل هؤلاء السكان تتمثل في القوارب التي لا تحصى ولا تعد التي تطفو على سطح البحيرة الهادئ ، أو التي تقف على شكل صفوف سوداء طويلة على الشاطئ ؛ في الوقت الذي لا يلقون فيه بالا لتزيين مساكنهم التي على البر ، المنازل التي يعيش فيها أطفالهم وزوجاتهم في الأغلب الأعم ، وكذلك الصناديق المتينة التي لا تسر الناظرين ، والتي يخزنون فيها الكنوز التي يجمعونها . وقد حدثني ، ذات مساء ، محمد بن ثاني حاكم البداع قائلا : " نحن جميعا من أعْلاَنا إلى سافلنا عبيد لسيد واحد هو اللؤلؤ" ، ولم يكن كلام محمد بن ثاني في غير محله . إذ أن كل الأفكار ، وكل الحديث ، وكل العمالة تدور من حول هذا الموضوع وحده ؛ بل إن كل شيئ آخر عدا هذا الموضوع هو من قبيل التسلية وتزجية الوقت ، ويجيئ في المرتبة الثانية .

كنت قد أشرت إلى اللصوص واحتمال السلب والنهب . والواقع أن أهل قطـر لا يخافون بعضهم بعضا . ولما كان القطريون مشغولين إلى الحد الذي لا يجعلهم يفكرون في الشجار والتناحر ، فهم يعيشون حياة تتسم بالوئام السلبي الذي يستغني عن الآلة الحكومية المعتادة نفسها . والواقع ، أن ابن ثاني ، حاكم البداع يعترف به

الجميع رئيسا للمنطقة كلها ، والتى تتبع بدورها سلطان عمان ؛ ومع ذلك فإن ساكن البداع ، ليست له ، في واقع الأمر ، سلطة كبيرة على القرى الأخرى ، التى يقوم سكانها بتسوية أمورهم مع رؤسائهم المحليين ؛ وابن ثانى بالنسبة للمحيطين به ، ليس سوى محصل مُناب ، أو جابيا للدخل العام ، تتمثل مهمته فى جباية الإتاوة السنوية المفروضة على صيد اللؤلؤ . ومحمد الخليفة ، له أيضا شكل من أشكال السلطة والسيطرة أو الرئاسة فى قطر ، ولكن ممارسة هذه السلطة تقتصر فقط على أن يختار من حين لآخر فتاة جميلة (نظرا لأن الجمال العمانى يمتد، ولكن بدرجه أقل ، إلى قطر) يعقد عليها مدة أسبوعين أو شهر على أكثر تقدير، ثم يطلقها ويمنحها معاشا بعد ذلك. وبينما كنت فى البداع قام محمد الخليفة المزواج بزيارة إلى مدينة الدوحة المجاورة ، وتزوج من حورية من حوريات تلك المدينة ، ثم طلقها أيضا قبل عودتى من عمان .

ولم يفرض على هذه المناسبة أى نوع من السرية ؛ فقد أحضر المأذون والشهود ، ودُفع الصداق، وأقيمت الأفراح والاحتفالات الشعبية، وانفجر الضحك الشعبى تلقائيا ؛ فيما كان محمد الخليفة يبدد الثروة التى جمعت بشق الأنفس ، فى كل من المنامة والمحرق ، على أبهة الرذيلة العلنية[1] .

تعد زبارة **Zabarah**، أكبر المدن الجزيرية، المدينة الوحيدة التى لها أهمية إقليمية، وهى تعد مقرا لواحد من آل - خليفة ؛ ومع ذلك فهى لا تدعى لنفسها سيادة من نوع خاص على الأماكن الأخرى داخل هذه المنطقة .

ولكن إذا كان أهل قطر يتمتعون بالسلام فيما بينهم إلا أنهم معرضون من ناحية البر إلى الغزو الداخلى بصورة مستمرة ، من جيرانهم البدو ، أو إن شئت فقل : من المناصير وآل - مرة . والمناصير قبيلة كثيرة العدد ومحبة للحرب ، ويمتد مدى مرعاهم المفضل من حدود الأحساء إلى حدود عمان بالقرب من الشارقة . وعدد قليل من هذه العشائر المترحلة هو الذى يسبب الكثير من القلق والاضطراب للمناطق المأهولة بالسكان ،

(١) لقد أباح الإسلام الزواج بأى عدد ما دام هذا العدد فى حدود الأربعة فى وقت واحد بحيث لا يجمع الرجل تحت عصمته أكثر من أربعة فى وقت واحد ، فإذا طلق إحداهن وتزوج بأخرى فلا مانع شرعاً ، وما ذكره المؤلف من وصف الزواج الشرعى الحلال بأنه رذيلة علنية فهذا غير صحيح ، وما دام الزواج يتم برضا الطرفين ويستوفى شروطه الشرعية فلا مانع منه شرعاً ، والتعدد مباح فى الإسلام بضوابطه وشروطه - (د. حلمى عبد المنعم) .

يضاف إلى ذلك أن مجموعة قليلة أخرى ، إن صحت التقديرات ، من هذه العشائر ، جمعت ثروة طائلة عن طريق السلب والنهب وسفك الدماء . وهؤلاء الغزاة يمتلكون قطعانا كبيرة من الإبل والأغنام ، التى تقتنى وتزداد على حساب القرويين ؛ والمناصير عندما يضطرهم الخطر إلى التخلى عن الصحراء الجرداء القريبة منهم ، ينقلون حيواناتهم ، لكى ترعى على الشريط الضيق من الأرض المرتفعة ، والذى يقع بين التلال الساحلية والدهناء . ومن هنا برزت الحاجة إلى وجود أبراج يلوذون بها على طول هذا الشريط الساحلى الضيق : وهذه الأبراج عبارة عن مبانى دائرية صغيرة يتردد ارتفاعها بين خمسة وعشرين وثلاثين قدما ، ولكل منها باب فى منتصف جانب البرج وحبل يتدلى ناحية الخارج ؛ والرعاة القطريون ، يستطيعون عن طريق هذا السلم المختصر ، وفى حالة خوفهم من الهجوم المفاجئ ، إلى هذه الأبراج طلبا للحماية ، وبعد أن يدخلوا الأبراج يسحبون هذه الحبال ، وبذلك يحافظون على حياتهم وحياة من معهم ، فى جميع الأحوال ، وبغض النظر عما يمكن أن يحدث لمواشيهم . والسبب فى ذلك أن مسألة تسلق حائط يصل ارتفاعه إلى خمسة عشر قدما تصعب على أكثر البدو عبقرية ومهارة . وفى بعض الأحيان ، قد يتشجع بدوى المناصير ، بحكم هذه المنعة (نظراً لأن أهل قطر ليست لديهم مظاهر قتالية كبيرة) ، على مهاجمة القرى الرئيسة ، وينقل منها كثير من الغنائم الأفضل من الماشية والأغنام . ومن هنا نشأت فكرة النقاط القوية أو إن شئت فقل المعاقل ، داخل المدن نفسها ، وفكرة الأسوار التى تحيط بهذه المدن .

وفى أقصى الساحل من ناحية الشرق ، تبدأ مستوطنات بنى- ياس **Beno-yass** ، تلك العشيرة سيئة السمعة، التى يتكون نصفها من البدو والنصف الآخر من القرويين ، وكلهم من القراصنة ، لصوص البحار؛ وبنو - ياس هم أنفسهم أولئك الذين أطلقوا ، فى الأزمان القديمة ، اسم " ساحل القراصنة " على هذه المنطقة . والمنبت أو المركز الرئيسى لـ - بنى - ياس هو صور **S.oor** ؛ وصور هذه ، كما قيل لى ، ليست سوى مجموعة من الأكواخ ، تجمعت أسفل بعض القلاع القديمة المخربة ، أو إن شئت فقل إنها أوكار للصوص . وبنو - ياس ينتسبون إلى سكان عُمان الأصليين ، ومع أنهم لم تمتد إليهم حضارتها ، إلا أنهم يشاركونها فى مشاعرها السياسية والوطنية ؛ من هنا فإن بنى - ياس ليسوا فحسب كارهين لكل المسلمين والوهابيين ، بل إنهم أعداء ألدّاء وغزاة أشداء إذا ما سمحت لهم الظروف بذلك . وعندما يسود السلب والنهب

تجدهم يضعون أيديهم فى أيدى المناصير ، برغم أنهم يختلفون عنهم اختلافا كبيرا من ناحية الأصل ومن حيث المظهر . والسبب فى ذلك ، أن المناصير ، بحكم الموروث والعادات والتقاليد ، وبحكم البنية البدنية ، وبحكم لهجتهم أيضا ، هم فرع من أسرة عبس الكبيرة ، التى منها "عنترة بن شداد" الشهير ، ومن ثم فإن المناصير من الناحية العرقية ، هم نجديون من قبيلة قيس – عيلان ، فى حين يرجع أصل بنو – ياس من الناحية العرقية إلى الأسرة القحطانية من قبيلة مضج ، ولكنهم رحلوا عنها فى اتجاه الشمال قادمين من حضر موت ، كما جاء فى الرواية . وعلى كل حال ، فإن الأرباح ، شأنها شأن البؤس أيضا ، توحد رفاق المضجع الأغراب . وقد قام أحمد السديرى مؤخرا بكسر شوكة كل من المناصير وبنى – ياس ، والمعروف أن أحمد السديرى ، هو المقيم النجدى فى البريمة Bereymah (وأحمد السديرى هو شقيق عبد المحسن السديرى الذى أكرم وفادتنا فى المجمعة) ؛ فى حين شجبت ، فى البحر ، حمرة بيرق قراصنة عُمان أمام صليب القديس جورج الأكثر احمرارا ، وليس هنا ، فى هذا المنعطف من الخليج الفارسى أحد يعانى من أى شكل من أشكال العنف ، سوى محار اللؤلؤ هو والأسماك .

وقد سبق لى أن تناولت العشيرة الثالثة الكبيرة فى هذه المنطقة ، وبالتحديد آل – مرة ، الذين يقيمون فى الدهناء نفسها ، ولا تزال أعدادهم كبيرة وينتشرون على مساحة واسعة ، ومع ذلك فهم أقل مشاكسة من المناصير وليسوا مولعين بالقتال أو الخصام . ويبدو هذه القبيلة ، الذين يزورون قطر وعمان حينا للتجارة ، وحينا آخر للسلب والنهب ، لا يعترفون بالسيادة الوهابية ، ولكن بعضا منهم ، طبقا لعرفهم غير العادى ، يخضعون لسلطان عُمان ، فى حين يخضع البعض الآخر منهم لأمر ونهى الرؤساء المحليين فى مناطقهم .

ومناخ قطر جاف تماما ، ومع وجود الصحراء التى تحيط بقطر ، فإن هواء البحر يفقد كل ما يحمله من رطوبة على بعد أميال قليلة نحو الداخل . وتربة قطر من النوع الفقير ، وهى عبارة عن حصى ومرل مختلطين بالرمل ؛ وينابيع المياه التى تظهر بين الحين والآخر هى التى تزود بالمياه الآبار التى يجرى حفرها عن طريق اختراق قشور الطبقات العليا . وبساتين قطر من النوع الصغير غير المنتج ، وأنا لم أشاهد فى قطر ،

حقول القمح أو بيارات النخيل التي تستحق الذكر. ويقال أيضا أن هواء قطر غير نقي ؛ وربما كانت برك مياه البحر المتعفنة الراكدة التي توجد على طول الساحل ، هي السبب في ذلك .

هذا هو مخطط قطر ، بشكل عام . وعندما نزلنا في ميناء البداع اتجهنا مباشرة الواقعة القريبة، ذلك المعقل الذي يشبه البرج المحصن ، الذي له مراحيض عند سفحه ، ويصلح أميالا يكون مستودعا للبضائع بدلا من الأفراد . وفي فناء هذه القلعة ، كان يجلس تحت حصير مفرود ، وحصير معلق ، الرئيس محمد بن ثاني ، ذلك العجوز الحذر الداهية ، البدين إلى حد ما ، والذي اشتهر بحكمته وبساطة سلوكه الذي يدل على خفة ظله ، ولكنه بخيل وعنيد في المساومة ؛ وبشكل عام ، فإن مظهر محمد بن ثاني كان يشبه تاجر اللؤلؤ البخيل (وهذا هو واقعه فعلا) أكثر منه حاكما عربيا . ومن حول هذا الرجل يجلس بعض الأفراد شاحبي الوجوه ، وبشرتهم مشبعة بالماء لكثرة غطسهم في الماء ، ووجوههم متجعدة على شكل تقديرات وحسابات . وعلى كل حال ، وبرغم أن ابن ثاني كان رجلا " عمليا " في المقام الأول ، إلا انه استطاع تحويل عاداته الجلوسية إلى أرباح ذهنية وفكرية ، فقد استطاع عن طريق الدراسة أن يجعل من نفسه خبيرا مقبولا في المعرفة الأدبيه والشعرية ، وكان يجد متعة كبيرة في مناقشه الموضوعات التي من هذا القبيل. بل إنه كان يتظاهر أيضا بشيئ من المهارة في الطب، ولقد كان لديه بالفعل ذلك القدر من المعرفة الطبية ، التي تتباهى بها امرأة عجوز في قرية من قرى لانكشير **Lancashire** أهل إيسكي **Essex**. يضاف إلى ذلك أن ابن ثاني كان محبا للنكتة ، ويستطيع تبادلها مع الآخرين بقدر كبير من الخفة والرشاقة .

وسألني ابن ثاني عن رحلتي . وأبلغته أنني ليس لي عمل محدد في قطر ، وأنني كنت في طريقي إلى مسقط بحثا عن الأعشاب والعقاقير . في حين كان ابن خميس ، الذي تحول إلى شخصية مهمة ، بفضل الهدايا التي كان يحملها إلى ابن ثاني ، يجلس بكل الأبهة والعظمة مرتديا مشلحا جديدا أسود وغترة مصنوعة من الحرير ، زوده بهما أبو عيسى . وكان محمد بن ثاني يلبس عمامة بنغالية ، من أيام سراج الدولة ، وهذا من واقع شكلها الذي يشبه الناقوس ؛ أما ثوبه فقد كان عبارة عن ثوب فوقي ، أو من النوع الذي يلبس فوق ثوب آخر ، والذي يشعر معه البقال الدمشقي بالخجل إذا ما ظهر به خارج منزله .

واعتذر ابن ثاني عن عدم وجود مكان مناسب نقيم فيه في القصر . وألقيت على القصر نظرة تجولت ببصري خلالها في مبانيه الضيقة ، وأسواره الحجرية التي توجد فيها مزاغل ، ووافقت تماما على العذر الذي أبداه الرجل . وكان ابن ثاني قد أصدر أوامره بإفراغ أحد المخازن القريبة من القصر من التمر المخزن فيه ، وتجهيزه على الطريقة القطرية حتى يمكن استقبالنا فيه ؛ بمعنى أن أرضيه المخزن جرى فرد الحصير عليها ليس إلا . وأعربنا ، له بطبيعة الحال عن شكرنا لهذا الكرم الذي يعتبر استقبالا رائعا بالمقاييس المتبعة هنا ، وشربنا القهوة ، وتحدثنا بعضا من الوقت ثم خلدنا بعد ذلك إلى الراحة .

عند هذا الحد كان ابن خميس قد أطلق قذيفته ، بمعنى أنه كان قدم هداياه بالفعل . ولكن المهدى له (محمد بن ثاني) صياد اللؤلؤ العجوز ، لم يعجل بدوره باتخاذ القرار المناسب الخاص بمقدار الهدية التي ستقدم ردا للهدية التي تلقاها ، ومضت مدة لا تقل عن ثمانية أيام قبل أن يتخذ ابن ثاني هذا القرار ويقبله المُهْدى . وكان هذا التأخير ، وبخاصة في ظل هذا السكن غير المناسب ، مزعجا تماما لنا ، وبخاصة أننا كان أمامنا الكثير الذي كان من الأفضل لنا أن نشاهده ، نظرا لأن أربعة أيام كانت تكفي تماما لمعرفة ذلك الذي يجب أن نعرفه في ذلك البلد الممل . وعلى كل حال ، فإن الأيام لم تمر دون فائدة ، إذ سنحت لي الظروف بالقيام ببعض الرحلات إلى المناطق المجاورة .

وسرعان ما قمت باستكشاف مدينة البداع كلها . وسوق مدينة البداع من النوع الطويل الضيق القذر ، ويمارس فيه بعض أصحاب المحلات البحرانيين Bahreyn والحرفين البحرانيين أيضا نشاطاتهم المالية والأعمالية على نطاق صغير ؛ أما الجزء المتبقي من البداع فهو عبارة عن كتلة من المنازل الضيقة الصغيرة التي تشبه النواقيس ، والتي تفصلها عن بعضها حارات ضيقة غير منتظمة . ويصل إجمالي عدد سكان البداع ، عندما يكونون على البر ، وهو ما لا يحدث في معظم الأحوال ، إلى حوالي ستة آلاف نسمة ، ويأتي إلى البداع ، قادمين من الأحساء بعض المستوطنين كي يجربوا حظهم وهم يتذمرون من هذه البلاد . والمرء هنا يلتقي زوجات الصيادين في كل مكان ، هن وأطفالهن المزعجين ، وهن أكثر اتساخا وضجيجا من أهل "حي جراب" Grabbe's Borough (في إنجلترا) ، كما يشاهد المرء هنا أيضا كثيراً من الرجال

غير المهندمين الذين يرتدون ثيابا سيئة ، والذين أرهقتهم الهموم إلى حد القضاء على النزعة الاجتماعية عندهم . وعندما نقترب من الشاطئ ، نشاهد هناك صفا بعد صف من القوارب السوداء الضخمة ، التي توضح حوافها المقَّررة اتجاه حبال الغطاسين ، والسبب في ذلك أن الحبل يربط دائما في وسط الغواص ، في حين يمسك رفاق الغواص بالطرف الآخر من الحبل ، وبذلك يستطيعون سحب الغواص ، إلى أعلى إذ تطلب الأمر ذلك . وأنا اعتقد أن القارئ ، عند هذا الحد ، أصبح قادرا على تصور منظر البداع ، والمباهج التي تسببها البداع للأعين ، والروائح التي تشمها الأنوف ، من منطلق أن البداع ميناء بحرى ، مثل سائر الموانى البحرية الأخرى . بقى أن أقول إن أهل البداع كرماء وأسخياء ، ولكن مشكلتهم الوحيدة تتمثل فى أن حرفهم تستحوذ عليهم وتشغلهم تماما ؛ زد على ذلك ، أن الغوص لفترات طويلة ، مصحوبا بكل العوائق والمصاعب المصاحبة له وعلى مدى أسابيع وشهور فى عرض البحر ، يجعل الرجال يبدون كما لو كانوا مهزومين ومدحورين كلية .

كانت مدينة البداع إلى وقت قريب جدا بلا مساجد أو أى مكان آخر من أماكن العبادة ، ونحن نتمنى أن يكون كل امرئ هنا يؤدى مناسكه على انفراد . ولكن اعتبارا من الغزو النجدى ، وتنصيب أحمد السديرى على بريمة **Bereymah** ، حدثت "صحوة" إسلامية فى بعض مناطق قطر، وأصبح هناك مسجدان يزينان مدينة البداع . وأحد هذين المسجدين كبير ، ولكنه مسجد عادى خال من النقوش الزينية ، تمشيا مع الذوق الوهابى ؛ ويقع هذا المسجد الكبير شمال القلعة . أما المسجد الثانى فيقع فى الطرف المقابل من المدينة (القرية) وهو أصغر من المسجد الأول ، ولكنه أكثر أناقة ، وله مدخل عبارة عن عقد مفتوح من الطراز الفارسى . ومحمد بن ثانى رجل متدين جدا ، وأنا لا أعرف إن كان ذلك التدين ناتجا عن دوافع سياسية ، أو عن اقتناع تام ، أو ربما كانت دوافع هذا التدين خليطا من هذا وذاك ؛ وهو يقوم بدور الإمام فى معظم الأحوال فى المسجد الكبير ، نظرا لعدم وجود الشخصية المناسبة لذلك ، فى المدينة ، التى يقدم بعض أهلها القرابين للإلاهة منيرفا ، ربة الحكمة عند الرومان . و"المسجد" الصغير لولده قاسم ، وارثه الأكبر وولى عهده ، وقاسم هذا شخصية متهورة أكثر من والده ، ولكنه بخيل مثل والده تماما . وقلعة قاسم أو إن شئت فقل : مسكنه ، عبارة عن بناية بيضاء مربعة الشكل لها شرفات مفرَّجة ، ونوافذ مدببة ، تشبه النوافذ القوطية ، وهى تقع فى الطرف الجنوبى من مدينة البداع : ومن خلف هذه القلعة توجد صخور منخفضة تغطيها مياه الخليج .

وسرعان ما سئمنا شرب القهوة السيئة ، نظرا لأن بن اليمن هنا يحل محله البن الهندى ، تلك المادة التى لا مذاق لها عند أولئك الذين اعتادوا أن يشربوا بن المخا ؛ كما سئمنا أيضا سماع أو نسج الحكايات الطويلة فى ديوان بن ثانى ، وسئمنا فوق كل ذلك ، رائحة الهواء الفاسد على الشاطئ القذر الموحل . من هنا ، اتخذنا قرارا بتنويع تواجدنا فى قطر وذلك عن طريق القيام ببضع رحلات قليلة إلى المناطق المجاورة . وكانت أولى الرحلات التى قمنا بها إلى مدينة الدوحة ، وهى عبارة عن قرية تقع شمالى مدينة البداع ، ويصل حجمها إلى نصف حجم مدينة البداع ؛ والدوحة كما يوحى اسمها تقع فى خليج صغير ، تضفى صخوره التى يتروح ارتفاعها بين ستين وثمانين قدما ، وتقع إلى الخلف من القرية ، منظرا فريدا إلى حد ما . ولكن منازل الدوحة ارتفاعاتها أقل من ارتفاعات منازل مدينة البداع ، إضافة إلى أن منازلها أحقر أيضا من منازل البداع ، علاوة على أن سوقها أضيق وأقذر من سوق البداع . وفى هذا المكان توجد قلعتان : إحداهما مقامة على الصخرة المجاورة للقرية ، والثانية مقامة داخل مدينة الدوحة نفسها ؛ ورئيس المدينة ليس إلا جابيا من الباطن لحساب محمد بن ثانى . وقد وصل إلى مدينة الدوحة ، قبل رحيلى عن قطر بثلاثة أيام ، حاكم البحرين صياد الزوجات بحثا عن هيلين مؤقتة ، كما سبق أن أوضحنا .

كانت رحلتى الثالثة إلى وكرة Wokrah ، تلك المدينة التى تتساوى مع مدينة البداع فى الحجم ، ولكنها تقع على منطقة مرتفعة من الشاطئ ، وطبيعتها أكثر إشراقا . وقد أثبت رئيسها الشاب ، واسمه أيضا محمد ولكنه ليس ابن ثانى ولا ينتمى إلى الأسرة نفسها ، أثبت ذكاءه وأدبه ، إضافة إلى أنه كان أكرم بكثير جدا من سَمِيِّه فى مدينة البداع . ومدينة وكرة مستقلة عن بقية المدن الأخرى فيما يتعلق بالحكم والشرطة . وبرعاية من رئيس وكرة ، استطاع العديد من التجار - البحرانيين الصغار والحرفيين البحرانيين أيضا ، أن يمارسوا أعمالهم فى هذه المدينة ؛ وعلى كل حال فإن مظهر وكرة يوحى بالازدهار والثراء بشكل عام . والطريق الذى يربط وكرة بالبداع جدب وغير معبد ، يسير بطول الساحل . وقد قطعت هذه الرحلة على ظهر حمار استأجرته من البداع ، ومعروف أن الحمير فى قطر هى وسيلة الانتقال المعتادة فى مثل هذه المسافات القصيرة ؛ كان الحمار الذى استأجرته مزوداً بسرج جانبى ، مما جعلنى لا أبدو مثل رجل كريم المحتد ، وإنما مثل سيدة من السيدات على أقل تقدير ، فى حين كان قميصى العربى الطويل يوحى بأننى معتاد على مثل هذا الركوب . زد على ذلك ،

أنني لم اصطحب معي رفيقا في هذه الرحلة ، والسبب في ذلك هو توفر الأمن في الطرق الساحلية علاوة أيضا على كثرة الغادين والرائحين في هذه المنطقة التي تطغى فيها نشاطات المال والأعمال أو إن شئت فقل ترجئ فيها نشاطات المال والأعمال كل الأعمال المخلة بأمن وسلامة الناس .

ولكن رفيقي بن خميس ، الذي كان يبحث عن الفائدة أكثر من المتعة ، تخيل أن قاسم أكبر أبناء محمد بن ثاني يمكن أن يقبل بضع زنابيل قليلة من التمر ، ولذلك أراد أن يجرب حظه في هذا الاتجاه ، برغم أني ذهبت إلى عكس ما كان يتخيله . كان قاسم ، في ذلك الوقت ، خارج مدينة البداع في رحلة الصيد بالصقور في منطقة تبعد اثني عشر أو أربعة عشر ميلا في اتجاه الجنوب الغربي . واستأجرنا ذلولين ، وركبناهما ، ومضينا في طريقنا ، عبر أراض صحراويه مرتفعه ومدقات كلها من الحصى . ومررنا ببعض النسوة اللائي كن يُحْضِرنْ الماء من الآبار البعيدة ؛ وشاهدنا أيضا قطعان الأغنام ، أو بالأحرى قطعان الماعز ، نظراً لأن هذه السلالة من الماعز كان لها شكل خادع ، ويقوم على رعيها عدد كبيرة من الرعاة ، وكنا نلتقي بين الحين والآخر مسافرا كان يحمل رمحه على كتفه تحسبا لأخطار بدو الحدود . ولم نشاهد أي نوع من الأشجار ، اللهم باستثناء بعض الأعشاب الصغيرة ، كما هبت علينا أيضا ريح صرصر شديدة من ناحية الشمال .

وأخيرا وصلنا إلى الموقع المقصود ، وكان عبارة عن واد مليئ بالحشائش وسط أمواج الرمال والكثبان الرملية على حافة "البرية الجرداء التي يكثر فيها العواء" . كان الرئيس الشاب ومعه حاشيته، يقيمون هنا في الخيام ، خلال رحلة تستمر يوما واحدا ، يصطادون فيها الحبارى والسمان ، الذي لم يصطادوا منه سوى أعداد قليلة جدا ؛ كما أنهم كانوا يصطادون الأرانب البرية أيضا ، أو بالأحرى كانوا يصطادون تلك الحيوانات التي تتشابه مع هذه الأرانب ، أو إن شئت فقل أشباه الأرانب البرية ، أو الأرانب المنزلية والتي توجد بأعداد كبيرة في الأرض العربية الأم . كان في صحبة قاسم حوالي عشرون خيالا ، وصقارا وحوالي ستة صقور إضافة إلى كلبين من كلاب الصيد (الذي يسمونه هنا " السّلاقي ") ؛ كانت جماعه المقناص مكتملة فيما عدا أنهم لم تكن معهم بندقية خفيفة لصيد الطيور . وبقينا نصف يوم ضمن جماعه سموه ، وتمتعنا "بطلعة" عربية ، حفلت بالصيد بالصقور . وإذا ما أراد القارئ وصفا لهذه الرياضة وطريقة ممارستها في الشرق ، فأنا أحيله إلى الكتاب الشهير والدقيق الذي ألفه ليارد **Layard** بعنوان "تنفه" **Nineveh** .

وفي منطقة المقناص التقيت اثنين من البدو ، أحدهما من المناصير ، والآخر من بني مرة ؛ وقد اشتهر هذان البدويان بأنهما عبرا الصحراء الكبرى من هذا الجانب من الجزيرة العربية إلى اليمن ، واللذان أصبحا ينظر إليهما ، عقب ذلك ، على أنهما "أسدان" ، في نظر أهليهما . ونقلا عن هذين البدويين ، فإن الإنجاز الذى حققاه تم بلا أى تخطيط من جانبهما ، فقد قاما بزيارة لـ "الأقحاف" Ak.h.af ، وهى عبارة عن سلسلة مختلفة من التلال الجيرية ، والوديان المعشوشبة ، والتى تشغل الموقع الذى يسمونّه فى بعض الخرائط اسم " وادى جبرين " ويقع فى جنوبى اليمامة ، حيث كانت لديهم بعض الأمور المطلوب تسويتها فيما يتعلق بالعشيرة أو الإبل . ولما كانا قد ضلا طريقهما تماما فى اتجاه الجنوب ، فقد ترتب على ذلك أن ضلا طريقهما إلى "الأقحاف"، وراحا يتجولان من سلسلة إلى أخرى من سلاسل الجبال الرملية ، ومن وادٍ إلى وادٍ ، ومن حسن حظهما أنهما كانا يقعان بين الحين والآخر ، بالمصادفة على بئر من آبار الماء المالح ، كانا يملآن منها قربهما المصنوعة من الجلد ، كما كانا يعثران بين الحين والآخر على نخلة قزمة يأخذان منها شيئا لم يكن "يستعصى تماما على الأكل" ، إلى أن استطاعا بعد مسير دام شهرين ، وفقا لطريقتهما فى حساب الزمن ، والحفاظ على السير فى الاتجاه الجنوبى الغربى بصورة دائمة ، أن يصلا فى النهاية إلى مأرب على حدود اليمن .

وعندما عاد هذان البدويان إلى قطر ، رجعا باستخدام الطريق الطويل المأهول بالسكان والذى يمر عبر أراضى حضرموت ، ثم يتجه بعد ذلك إلى ساحل البحر حتى عُمان . وعندما سألت هذين البدويين بطريقة تلقائية ، وأجابونى بطريقة تلقائية أيضا (نظرا لأن الشك وسوء النية ليس لهما نصيب هنا) ، عن ذلك الخط أو الطريق الساحلى الطويل ، الذى يطلقون عليه فى أغلب الأحوال اسم "المهرا"Mahara ، وعن سكانه قالا : إن الجزء الأكبر من ذلك الطريق خلو من المدن بل وحتى القرى ، ولم يكن فيه أى شيئ سوى أكواخ مصنوعة من الطين ، وأكواخ أخرى مصنوعة من سعف النخيل ، تعيش فيها قبائل داكنة البشرة ، قالا ، إنها تتكلم لغة حبشية . ومبلغ ظنى ، أن هؤلاء هم الحميريون ، وأنهم هم أنفسهم أول الذين دار حولهم كثير من التحريات العلمية الراقية ، والذين يبدو أنهم كانوا يشكلون ، فى واقع الأمر ، مستعمرة حبشية من زمن بعيد ، قبل الغزوة الشهيرة التى قام بها إليسبان النجاشى Elisbaan the Naja shee ، فى القرن السادس ؛ ولكنهم استطاعوا إلى يومنا هذا الحفاظ على ذلك الشكل القديم

من أشكال لغتهم الأم ، شأنهم فى ذلك شأن المستوطنة التركية القديمة فيما بين بغداد وكركوك والتى ما تزال تتكلم لهجة من لهجات اللغة التركية الأم ، التى ترفقت فى الأماكن الأخرى واختلطت بعناصر أخرى غريبة ، كما هو الحال فى أناضوليا والقسطنطينية على سبيل المثال . كنت أتمنى من كل قلبى أن أزور المنطقة الحميرية ، ولكنى عجزت عن ذلك لعدة أسباب، فضلا عن أنى لم ألتق أحدا من سكانها الحقيقيين. ولكن المعلومات التى حصلت عليها عن طريق السماع فى عمان ، تؤكد فى معظمها ذلك الذى قاله البدويان . وعرب هذه الطائفة ، برغم أنهم ليسوا جيدين فى الاستنتاج والاستقراء، إلا أنهم مراقبون سطحيون ممتازون للبشر، وللعادات والتقاليد والأعراف ، زد على ذلك ، أننى لم أجد أى مبرر للشك فى كلامهم وبخاصة عندما يتعلق بالمسائل الشكلية فقط .

الموروث (ولن أقول التاريخ) يجعل من حمير ، المؤسس المفترض لهذا العرق ، حفيدا من أحفاد قحطان الكبار ، كما يجعل حمير أيضا شقيقا أصغر لـ - سبأ Saba ، الملك اليمنى الشهير . ولكن فى المواقع التى يبرز فيها مثل هذا الاختلاف الواضح للعيان والذى يتجلى فى كل من البشرة واللغة ، يصبح من حقنا أن نشك فى عدم دقه الشجرة النسبية ، برغم أن حالات التزاوج (بين القبائل) قد ، بل تسد بالفعل ذلك القصور فى قرابة العصب الأولية . ويجوز لنا أن نعزو إلى هذه المصاهرة وإلى تأثير الروح التنظيمية نسبيا التى يتحلى بها الأحباش ويفرضونها على العرب الرحل ، انتشار كل من الاسم الحميرى واللغة الحميرية فى اتجاه الجنوب ، ودخول هذا الاسم أيضا إلى حد ما ، إلى كل من الصحراء الشمالية والصحراء السورية تحت اسم أسرة الغساسنة الملكية اليمنية . ويجب أن نلاحظ هنا أيضا أن العرب إلى وقتنا هذا لا يتزوجون من أى أحد عن طيب خاطر سوى من الأحباش : نظرا لأن العرقين يشتركان فى أشياء كثيرة .

ومؤلفوا الحوليات التاريخية العربية ، مدعومين بالنتائج المهمة للأبحاث الحديثة فى هذا الصدد ، يعزون للأسرة المالكة الحميرية دورا مهما فى قصة جنوبى الجزيرة العربية؛ يضاف إلى ذلك، أن الأبحاث والتقصيات التى قام بها كل من ولستد Welsted وآخرون فى منطقة حضرموت ، لا تترك مجالا لأى شك فى الطابع الحميرى الذى لهذه المنطقة . وليس هناك ما يدعو إلى العجب أو الدهشة من الحقيقة التى مفادها أن سلالة نسبية مفترضة لابد وأن تكون قد حاولت مزج العرق الغازى ، أو رؤسائه على أقل تقدير ، بالعرق المغزو ، ولقد وقفنا بالفعل على مثال لذلك فى محاولة استقاء أو اشتقاق

السلالة العربية الشمالية ، المتمثلة في (سيدنا) إسماعيل ، من سلاله قحطان ؛ ومن هنا ربما يكون الغرور اليمنى قد راح يعزى نفسه بالخضوع إلى الحكم الأجنبى ، وذلك عن طريق الدمج الخيالى للحكام مع الرعايا . زد على ذلك ، أن عرب الجنوب ، أو إن شئت فقل اليمن ، هم فى أساسهم ، وهذا احتمال كبير جدا ، من أصل إفريقى ، برغم أن ذلك يمكن أن نعزوه إلى تاريخ سحيق جداً؛ إضافه إلى أن التحالفات العائلية، قد ، بل لابد أن تكون قد أسفرت فى النهاية عن شكل من أشكال المصاهرة الجزئية ، التى تعد بمثابة الأساس فى تلك الهوية الكونية التى يتباهى المؤرخون المحمديون (الإسلاميون) بتقديمها . وتأسيسا على ذلك لو قدر أن يكون هناك شخص يحمل اسم - حمير ، فإنه ربما ، بل ومن الأفضل له تدعيما لحكمه ، أن يكون قد تزوج واحدة من بنات " قيل " ، أو إن شئت فقل " ملكا " من ملوك اليمن ؛ وإذا لم يكن هو قد تمكن من فعل ذلك ، فلا بد أن يكون قد فعله واحد من أولئك الذين انحدروا من سلالته . ونظرا لأن الحميريين كانوا يتفوقون على العرب المحيطين بهم ، فى فن الحكم ، وعلم القوة المستعدة المستقرة، ونظرا أيضا لتفوقهم عليهم فى العمارة وبعض الفنون المتصلة بها ، نظرا لكل ذلك ، استطاع الحميريون أن يصبحوا فى النهاية سادة على جزء كبير من شبه الجزيرة العربية ، وأسسوا أيضا مملكة اشتهرت باتساع أصقاعها ومتانتها النسبية غير المطلقة . ونحن نجد محاولة مماثلة فى غزو حدث فى جنوبى الجزيرة العربية وقام به الأحباش المحدثون فى القرن السادس ، بقيادة أبرهة ، وأعقبه نجاح كامل ؛ بل إن الرئيس القحطانى ، سيف يزن Sefyezen ، لم يستطع التخلص من نير الحكم الأجنبى ، إلا بمساعدة من السلاح الفارسى والأموال الفارسية . يضاف إلى ذلك أن مسألة تباهى المؤرخين العرب . بزعمهم أن المنتصر كان من أقاربهم ، وبذلك يمكنهم تحاشى عار الاعتراف بأن الأجانب كانوا أقوى منهم وأكثر تحضرا ، تصبح أمرا طبيعيا تماما . بل إن الفرس فى أيامنا هذه قد يقنعون أنفسهم أن الإسكندر الأكبر لم يكن سوى ولد من أبناء داريوس Darius الذى أطاح به فى أربيلا Arbela ؛ والفرس قد يقنعون أنفسهم أيضا بان الغازى المقدونى كان " قد ربَّتْه ، امرأ ٢٨٠ة شحـ ذة ، سُرِقت " من قصره الإيرانى ، شأنها شأن جاك كيد Jack cade ، الذى سرق من منزل مورتيمر Mortimer ، ثم عاد مسلحا ليطالب بحقه ؛ كل ذلك من أجل ألا يظهر الفرس وكأنهم قد استسلموا لغير الفرس . وأنا لا أعفى المؤرخين الغربيين من مواطن ضعف شبيهة بذلك .

يكفي ما قلته عن الحميريين ، أو إن شئت فقل "الحمر" ، وليكونوا من يكونوا . ومع ذلك ، فإن الحميريين ليسوا السكان الوحيدين الذين يعيشون على الساحل الجنوبي الشرقي ، الذي يستوطنه (كما يقول التقرير) الزنوج السود المترحلين ، سكان زنزبار والمنطقة المجاورة لها ، وبخاصة في المنطقة القريبة من جزيرة ماسورا Massora ورأس الحضض .H.ad.d . ترى كيف وصل هؤلاء الزنوج إلى هذه المنطقة ، وما هو الدور الذي لعبه هؤلاء الناس في الأحداث العامة في هذه المنطقة ، هذا هو ما سوف أوضحه فيما بعد . *ولقد سعدت كثيرا في المناسبة التي نحن بصددها الآن ،* بهذا الراوي الذي ينحدر من المناصير ، الذي زادت جرأته وجسارته بسبب مغامرة وحيدة أقبل عليها ، وانتهى الأمر بأن عرض عليّ ذلك المناصيري القيام برحلة ثانية داخل مجتمعه عبر الصحراء الكبرى ، كما عرض عليّ أيضا أن يقوم معي ، يدا بيد ، إلى كل من ظفار وحضرموت . ولكن يكفيني ما حدث لي بسبب الماء والرمل ، في تلك الأيام المرهقة التي أمضيناها في كل من الدهناء "و" النفود " ؛ من هنا فقد أجلت القيام بالرحلة المقدمة إلى أجل غير مسمى . أن مثل هذه الرحلة لابد أن تكون متعبة وليست خاليه من الأخطار ، ومع ذلك ، فان القيام بها ليس أمراً مستحيلا ، وقد يسفر عن اكتشافات مهمة .

وقدم يوسف بن خميس هداياه ، ولم يتلق في مقابلها سوى حلو الكلام ليس إلا . وقد رأيت في قاسم شخصية أقل وداعة ومسالمة من شخصية والده ؛ فقد كان ضيق الأفق ، وقليل المعرفة عن الرجل العجوز ، في حين أنه كان أكثر تباهيا وتعاليا . وهو يقلد النجديين في الملبس وفي السلوك ، غير أنه يكن في أعماق قلبه لحب المال ولاء أكبر من ذلك الذي يكنه لأحكام القرآن . وحاشية قاسم ، شأنهم شأن أهل العدالة الضحلة Justice Shallow ، لهم "ارتباط شبيه بروحانيات سيدهم" ، مما جعل جماعتهم تتسم بالجفف وغير مفيدة .

وفي صبيحة اليوم التالي استأذنا من قاسم ، وعدنا من نفس الطريق الذي سلكناه في الذهاب ، لنأكل سمكا ونشرب قهوة سيئة مع ابن ثاني . وانتظرنا يومين أملا في هبوب ريح مواتية تنقلنا عبر الخليج إلى عُمَان . ولو سافرنا بالبر لاستغرقت الرحلة منا فترة لا تقل عن أسبوعين ، بل وربما أكثر من ذلك ؛ يضاف إلى ذلك أن الأخبار الذائعة في قطر عن جشع بني - ياس وسلبهم ونهبهم ، وخيانتهم ، وخصالهم السيئة ، لم تشجعنا على اختبار كرم هؤلاء الناس ، وبخاصة أننا كنا نحمل معنا

هدايا يوسف وكذلك الهدايا التى أهديت إليه . هذا فضلا عن أن الجميع أكدوا لنا أن الطريق البرى أكثر قفرا ورتابة عن قطر نفسها ، وأننا لن نستفيد أى شئ نظير الجهد والتعب الذى سنبذله فى قطعه . ورمال الدهناء تصل إلى حافة البحر فى هذا الطريق : والقارئ إذا ما ألقى نظرة على الخريطة فإنه سوف يتمكن من فهم هذه المنطقة فهما جيدا .

وبناء على ما تقدم فقد نوينا أن نبحر على شكل شبيه بقطر الدائرة عبر الخليج ، مفضلين ذلك على محيط الدائرة الرملى ، وبذلك نصل مباشرة إلى الشارقة ، أول مدينة لها وزنها تقع داخل المنطقة العمانية . ومن أجل هذا الغرض عرض علينا ربان بحرى شاب ، أحد مواطنى شاراك Charak على الساحل الفارس المقابل ، سفينته وخدماته ، ولكن المستقبل كان يخفى لنا اشياءً لم ندخلها فى حساباتنا أو نأخذها بعين اعتبارنا . وهناك مثل عربى قديم يقول : " المسافر لا يعرف سوى موعد سفره ولا يعرف موعد عودته " ؛ وهذا المثل يمكن أن يضرب فى مواضع كثيرة ، ولكنه يشيع ضربه فى الشرق .

واستعد رباننا للإبحار ومعه بحارته خلال فترة وجيزة . وبعد أن اتخذنا ترتيبات المغادرة ، وفى اليوم السادس من شهر فبراير ، وبينما كان المساء يوحى بصباح صاف مشرق ، وبينما كانت ريح غربية خفيفة توحى لنا برحله طيبة وسريعة إلى مدينة الشارقة ، ودَّعْنَا محمد بن ثانى ، الذى زادت حميميته معنا ، كما ودعنا أيضا ثلاثا أو أربعا من الأصدقاء الذين اتخذناهم من مدينة البداع ، ثم أسلمنا أنفسنا لقارب صغير ، جاء به فارس ، وهذا هو الاسم الحقيقى لربان السفينة ، ومعه أخيه أحمد واثنان من طاقم السفينة ، لينقلونا من البر إلى السفينة . وعبرنا إلى السفينة وقطعنا مسافة تساوى تلك المسافة التى مشيتها أنا على الرمال قبل ذلك ببضعة أيام ، ولكنى قطعت تلك المسافة خلال فترة الجذر ، أما الآن فالمد على أشده ويصل عمق الماء إلى عشرة أو اثنى عشر قدما . ويعد الماء وجذره هنا يصل معدله مرة واحدة كل ثلاث وعشرين ساعة ، معنى ذلك أن الدفق وانحسار الدفق يحدث بواقع فترة واحدة بين كل فترتين ؛ ولكن المد والجذر على شواطئ كل من إيران وعمان بواقع مرة واحدة كل أحد عشرة ساعة . ولعل موقع قطر العجيب هو ومنطقة بنى – ياس فى قاع خليج عميق ، يفسر للقارئ الفاحص هذه الظاهرة من ظواهر الأرصاد ؛ والعرب يكتفون بملاحظة هذه

الظاهرة والاندهاش لها . وبعد أن أبحرنا قرابة ربع الساعة ، وصلنا إلى السفينة ، كانت السفينة من النوع الكبير جيد الصنع ، مزودة بكابينة جميلة للربان ، وكابينة أخرى عند مقدمة السفينة ، فضلا عن بعض الترتيبات البحرية الأخرى ؛ وخلاصة القول ، أن هذه السفينة كانت أفضل بكثير من تلك السفينة البائسة التى كنا قد استقلناها من البحرين. كانت السفينة مبنية على نحو تتمكن معه من الإبحار السريع، وكان لها صاريان ، وأشرعه مثلثة الشكل ، فضلا عن شراع للسارية الأمامية ؛ وكانت مقدمة السفينة ومؤخرتها منحوتتين نحتا جميلا ، والواقع أن مقدمة السفينة كانت تركب الأمواج كما لو كانت واحدة من حوريات البحر ؛ وهذا الرمز لا يتفق مع المحرمات الإسلامية، التى تحظر تقليد أو محاكاة كل ما تدب فيه الحياة ، فى مجال فن التزيين .

وعندما ركبنا على ظهر السفينة ، استقبلنا البحارة والذين كانوا جميعا من أبناء عموم الربان وأقاربه ، استقبالا حارا جدا . وهذا عرف متبع فى غالبية سفن الخليج ، إذ ينظر البحارة إلى المسافرين ، سواء أكانوا كبارا أم صغارا ، وبلا تمييز ، على أنهم ضيوف على الربان طوال فترة الرحلة ، ومن هذا المنطق يكون لهم الحق فى الجلوس إلى مائدته والأكل من طعامه ، دون أن يدفعوا عن ذلك أية مبالغ إضافية . ولعل القارئ يكون قد لاحظ قبل الآن بفترة كافية ، أن الوضع النسبى للمسافرين فى الشرق ، سواء أكانوا مسافرين بالبر أو بالبحر ، ووضع أولئك الذين يقومون بإرشادهم ، يتسم بالحميمية الشديدة ، بل إنه يتسم بالطابع العائلى تماما ؛ والسبب فى ذلك أن الجميع يعتبرون أنفسهم كما لو كانوا أسره واحدة طوال الرحلة . زد على ذلك أن الروابط التى تنشأ بينهم وتتوطد لا يمكن أن تنفصم عراها عندما يفترقون فى نهاية الرحلة ؛ ولذلك تدوم هذه الصداقة والزمالة الخاصة سنين كثيرة ، وقد يجددها أى من الطرفين كلما دعت الحاجة إلى ذلك ، وكلما أوحت النية الحسنة بذلك أيضا ، ولا أظن أن مثل هذا الطلب يمكن رفضه أو التخلى عنه أو حتى التفريط فيه . وأسباب ذلك من السهل تفسيرها تماما ؛ ومعروف أن السكك الحديد هى ووسائل الاتصال الجماعية الأخرى تقضى على مثل هذه المشاعر ، إذا أنها تقضى على الأسباب التى تولد هذه المشاعر فى البلدان غير المتحضرة .

ولما كنت أنا ويوسف بن خميس ، قد اتفقنا على أن الأخذ دون العطاء ، يحط من كرامتنا ، فقد احتفظنا فى البحرين بمخزون من أفضل أنواع البن لنقدمها مقابل الحب والصدقة أو لبيعها بالثمن ، ولذا تمكنا إلى حد ما من تقديم شيئ مقابل الأرز ، والسمك ،

والشعيرية (طبق شائع فى هذه المنطقة) ، الذى كان يقدمه لنا مضيفونا البحارة .
ولكن قبل أن أقدم للقارئ العزيز بر فارس هو وسكانه ، الذين ينتمى إليهم طاقم بحارة
السفينة ، أجد لزاما علىّ أن أحاول إعطاء القارئ فكرة عامة عن هذه الأرض وسكانها .

وفى المنطقة التى تمتد من رأس نابند غـــربًا إلى رأس بستانة ناحيـــة الشـــرق
(إذ توجد هاتان المنطقتان على الجانب الشمالى من الخليج الفارسى) ، يوجد شريط
ساحلى من الأرض الخصبة ، محصورًا بين الجبال المرتفعة من ناحية والبحر من
الناحية الأخرى . وقد استطاعت المغامرة والشجاعة العربية ، انتزاع ذلك الشريط
البرى منذ أجيال كثيرة من قبضة حكم طهران الضعيف ومن ممثل ذلك الحكم فى
شيراز . وفى هذا الشريط الساحلى تأسست مستعمرة من الرؤساء العرب ، ومعهم
حاشيتهم ، وكانوا فى معظمهم من شرقى نجد ، وأفلحوا عن طريق السيف حينا ،
وعن طريق التزاوج حينا آخر ، إخضاع سكان القرية الأصليين أو دمجهم معهم ،
وانبثق عن هذه العناصر الموحدة نوع من أنواع الاتحاد ، وكان بين هذه العناصر
تحالف متبادل ضد مزاعم حاكم شيراز ، الذى كان يبسط نفوذه وسلطته (وهذا
موجود فى سجل الوحدات العسكرية الفارسية) على بر فارس والقرى الداخلة فى
زمامه . وإلى جانب عداء السكان المستمر لـ - بلاد فارس ، فهم مفككون فيما بينهم
فى معظم الأحيان بسبب السلب والنهب المتبادل بينهم من ناحية والصراع الدولى من
الناحية الأخرى ؛ والذى تعطى القسوة الفارسية ، المستوردة من المناطق المجاورة لبلاد
فارس ، والتى تبدو كما لو كانت إيران قد تشربتها من الجو العام فى هذه القارة ،
تعطى اللصوصية العربية صورة أكثر اسودادا منها فى أى مكان آخر . ومع بداية
قيام الإمبراطورية الوهابية الأولى ، وإدراكا من رؤساء بر فارس لأصولهم ، راحو
يرحبون بطلوع فجر السيادة النجدية ، التى كانوا على ثقة بأنها ستكون حليفا قويا فى
مواجهه القهر الشيعى ؛ ومن أجل ضمان وتعزيز التعاون الوهابى معهم بدأ هؤلاء
الرؤساء يتبعون مبادئ ذلك الإسلام الجديد أو إن شئت فقل الإسلام المُجدَّد ، بكل ما
فيه من تعصب وتشدد وحشى . ولا يزال سكان هذه المنطقة إلى يومنا هذا يتمسكون
بالكثير من التعاليم والمشاعر الوهابية الحقيقية ، باعتبار ذلك نقطة انطلاق فى مواجهة
أعدائهم الفرس ، برغم أن الزمن نفسه قد خفف بعض الشيئ من مغالاتهم فى
تشددهم .

ورؤساء بر فارس يزعمون أنهم ينحدرون مباشرة من عشيرة مطير العظيمة ، أولئك الذين تعرفناهم من قبل في نجد العليا ؛ ومن بين هؤلاء الرؤساء اثنان أو ثلاثة يزعمون أنهم ينتمون إلى سلالة بني الخالد النسبية، سادة الأحساء الذين زالت دولتهم. وإذا كانت روح الانقسام ، وروح الحقد والسلب والنهب ، وروح الأخذ بالثأر والانتقام هي الضمان الوحيد للأصل البدوي فإن هؤلاء الرؤساء لديهم الأوراق الثبوتية التي تؤكد ذلك .

يضاف إلى ذلك أن التقلب المُمَيِّز للعرب لا يزال موجوداً هنا ، برغم مضي سنوات كثيرة من الاستقرار على هؤلاء الناس ؛ إن مشكلة هؤلاء الناس لا تزال تتمثل في لعنة الترحال وعدم الاستقرار التي عرقلت ، بل سوف تستمر في عرقله البدو - مهما زادت أعدادهم ومهما تهيأت لهم الظروف المناسبة - وحرمانهم من التمتع بمزايا السلام ، والاستفادة من الانتصارات في الحروب .

هذا هو حال الرؤساء : أما رعايا بر فارس فيمثلون كل مراحل التدرج بين السلالة الفارسية والسلالة العربية، وهم يمثلون جنسا مولدا من حيث الشكل والسمات، إلى حد أن من ينظر إليهم يعجز عن تمييز النجدي من الشيرازي منهم . وزي هؤلاء الرعايا ، برغم كل ذلك ، يكاد يكون زيا فارسيا خالصا ، وهذا ينسحب أيضا على الجزء الأكبر من تصرفاتهم وسلوكياتهم المنزلية . ومن ذلك على سبيل المثال ، أن كرم الجزيرة العربية وسخاءها ، يتحول على هذا الساحل إلى شكل من أشكال التصرف البارد الذي يتسم بكثير من الحيطة والحذر ، يضاف إلى ذلك ، أن الحديث مع الضيف الغريب يكون مقصوراً على الشكليات ، في معظم الأحيان ؛ كما أن من يقيم إقامة مؤقتة في بر فارس ، قد يسيطر عليه ، في أي مكان يذهب إليه ، شعور بالوحدة لا يعرفه المُسَاكِنُ في ايه قرية من القرى العربية . والحال العام للمنطقة هنا بعيد تماما عن الازدهار . فقد أسهمت الهجمات المتكررة من إيران على جانب هذه المنطقة ، والنزاعات الداخلية المريرة ، وذلك بالتضافر مع التعصب الديني المتزمت والضار ، أسهمت إلى حد كبير في تدمير التجارة التي تعد المورد الوحيد المفيد على هذا الساحل . يضاف إلى ذلك أن محار - اللؤلؤ يغيب عن المياه العميقة التي تغمر الشاطئ في هذه المنطقة ، بل إن الأسماك هنا ليست وفيرة كما هي في الجزء الجنوبي ، أو إن شئت فقل الجانب العربي من الخليج ؛ في حين أن الزراعة في هذه التربة الفقيرة والصخرية

إلى حد ما ، في ظل عدم توفر مياه الري ، لا يمكن أن تكفي الإعاشة ، ولا يمكن أن تكون مصدرا للثروة بأي حال من الأحوال . من هنا ، نجد أن كل طاقة بر فارس ، تحولت في الأزمان القديمة إلى التجارة ، التي أصبحت مناسبة لهذه المنطقة تماما بفضل كل من الموانئ الممتازة الموجودة على هذا الساحل ، ووسائل الاتصال البرية والبحرية ؛ يضاف إلى ذلك ، أن سكان هذا البر كانوا متفوقين في حرفة البحر والمرور البحري ، كما أن جميع السفن التي كانت تعمل بين البصرة Bos.ra، ومسقط هي وبحارتها ، لم تكن أجرأ أو اجسر أو أكثر قبولا للمخاطر ، أو أعلى قيمة من تلك السفن الفارسية . ولا تزال هذه السفن وهؤلاء البحارة يحتفظون بشيئ من سمعتهم البحرية القديمة ونشاطهم القديم ؛ وقد أوردت بالفعل ملاحظة مفادها أن معارضة عقيدة محمد، شأنها شأن النظام الإقطاعي بكل أشكاله، للعنصر الحر ، وعدد السفن ، وكذلك معارضتها لجسارة البحارة قد بدأت في التناقص هذه الأيام[١] . وفي هذا المكان المناسب استطاع المذهب الوهابي أن يضرب جذوره وتتضح أثاره المؤذية . ولكن هيا بنا نعود إلى سياق رحلتنا .

كانت السفينة تبحر على ما يرام ، ولكن نسيم الصباح غيَّر اتجاهه صوب الجنوب وأبعدنا ، إلى حد ما ، عن مسارنا المحدد ، في حين كانت حرارة النهار الشديدة تنذر بعاصفة شديدة . كانت السماء ملبدة بالغيوم في فترة العصر ، كما كان النسيم يهب على شكل نفثات متقطعة ، عندما شاهدنا أمامنا قبل غروب الشمس ، وتحت جزيرة حالول كتلة من الصخور يبدو عليها أنها من الصخور البركانية ، وتبزغ أمامنا ، من وسط الماء ، بصورة مفاجئة ؛ وكان يوجد بين كتل الصخور ، ينبوع طيب ، وأنا أقول ينبوع واحد فقط ، من ينابيع المياه العذبة؛ وجزيرة حالول Halool ، مدينة لهذا الينبوع ، بالزيارات المتكررة التي يتردد أهل قطر خلالها ، على هذه الجزيرة خلال موسم اللؤلؤ . وعلى كل حال ، فإن حشائش قليلة تنمو على صخور هذه الجزيرة السوداء ، التي لا يقيم السكان فيها بصورة دائمة . وجزيرة حالول ، إذا ما ألقى القارئ عليها نظرة في الخريطة ، هي مجرد جزيرة واحدة ، من الجزر الصغيرة التي

(١) ما هذا الهراء من المؤلف ؟ هل عقيدة الإسلام تعارض روح الجرأة والشجاعة وتحدٍّ منها ، إن عقيدة الإسلام تحرّم على المقاتل أن يفر من المعركة وتجعله يحارب بشجاعة طلباً للشهادة ، فقد ربت عقيدة الإسلام أقواماً يحبون الموت في سبيل الله أكثر من الحياة، فكيف بالمؤلف يقول إنها تعارض جسارة البحارة ؟ فإن هذا تحليل غير سليم واتهام لا أساس له من الصحة - (د. حلمي عبد المنعم)

تتكدس في هذا الخليج ؛ وقد بلغني أن عدد هذه الجزر يصل إلى حوالي ست وثلاثين جزيرة ، وذلك نقلا عن أحد ربابنة السفن الذى أبلغنى أنه شاهد هذه الجزر ونزل عليها كلها . ولكن معظم هذه الجزر عبارة عن حيود مرجانية، خالية من الماء والحياة النباتية ؛ وأن خمسا أو ستاً من هذه الجزر هي التى تستحق أن تسمى بهذا الاسم ، كما تستطيع أن تفى ولكن بشق الأنفس ، بضروريات شكل من أشكال الحياة البائسة التي تحياها أطقم القوارب أثناء صيد اللؤلؤ ، وذلك عندما تلقى هذه القوراب مراسيها وتنزل أطقمها إلى هذه الجزر بحثا عن الماء ، أو لإحضار عنزة هزيلة من المراعى .

ها هي الشمس وقد غربت الآن وسط كتل كبيرة من البخار ، وهبت طول الليل ريح جنوبيه شرقية ؛ ودفعتنا تلك الرياح أمامها ، وعندما طلع الفجر على الأمواج المتلاطمة كنا قد ابتعدنا كثيرا جدا عن الشارقة ، ودخلنا إلى المياه العميقة التى يطلقون عليها اسم " عبَّة فارس " بمعنى " العمق الفارسي " ، وهو خارج نطاق عودتنا إلى قطر ، أو وصولنا إلى عُمَان ، فضلا عن أننا ، على العكس من كل ذلك ، كنا نقترب من الساحل الشمالي . وبذل ربان السفينة ، كل ما في وسعه ، من المناورات البحرية ، على أمل إعادة السفينة إلى اتجاهها الصحيح ، ولكن ذلك كله باء بالفشل ، إلى أن اضطر في النهاية إلى الكف عن هذه المحاولات ، ويتجه مباشرة إلى بر فارس . قبيل الظهر ، كشفت لنا وميضة بيضاء جاءت من جهة الشمال ، عن جزيرة جعز Ge's المنخفضة الرملية ، التى أقام التجار البحرانيون فيها مستوطنة لأنفسهم ، ازدهرت لأنها كانت تنعم بالحرية . وفي الوقت ذاته ، كانت الحدود الدائرية الخارجية لـ – جبل أترنجه أو إن شئت فقل : جبل الأترج ، الذى يعلو خليج شاراك نفسه ، قد بدأت تظهر أمامنا ، وعقب ذلك اتضح لنا خط الساحل الفارسي كله .

والساحل الفارسي على النقيض تماما من الساحل العربي . وجبال الساحل الفارسي مرتفعه ، إذ يصل ارتفاعها في معظم الأحيان إلى ألفى قدم ، وإطارها الخارجي وعر ، إلا أنها أقل جدبا من سلسله جبال الساحل العربي . وفي بعض الأماكن تصل الجروف المنحدرة إلى البحر ؛ وفي بعض الأماكن الأخرى يوجد شريط ساحلى ، حفرته سيول الشتاء العنيفة ، ولكن لا يوجد مجرى للرى ، ويمتد مسافة ثلاثة أميال نحو الداخل ، إلى أن يختفى داخل الممرات الجبلية الضيقة . ويوجد ممر واحد شبه حالم ، يقع إلى الشرق قليلا ، وإلى الخلف من شاراك ، ويؤدى إلى شيراز ؛

وكانت جيوش فارس الغازية تصل إلى بر فارس عن طريق هذا الممر . وتتناثر على جوانب هذا الجبل أشجار التين ، وأشجار البرتقال ، والنباتات الخشبية الأخرى ؛ كما تتناثر الزراعة الخفيفة هنا وهناك ؛ كما توجد بيارات النخيل فى السهل الذى يقع إلى الخلف من هذا الجبل ، ومع ذلك فإن إنتاج هذه البيارات من التمور هزيل ، كما توجد بعض الزراعات الأخرى التى تحمى السكان من الموت جوعًا .

كانت شاراك ، ذات يوم ، مدينة معقولة الحجم ، وهذا مما يؤكده امتداد أسوارها المهدمة ، غير أنها تحولت الآن إلى ما يشبه الكفر الذى لا يصل عدد سكانه إلى ألفى نسمة أو ما يقرب من ذلك . وكفر شاراك هذا يقع عند أسفل خليج شبه دائرى محمى حماية جيدة ، وتشكل الرِّعن البارزة ، من حوله سورا ؛ وهذا الخليج بحد ذاته يعد فجوة عميقة ضمن تجويف كبير ، تصل قمته الجبلية المستدقة إلى مدينة شيرو Chiro، فى حين يشكل طرفه الشرقى رأس بستانة Ras Bostanah ؛ ومَطَلُّه العام ينحصر بين الجنوب ، والجنوب الشرقى . ومدينه شاراك ، نظرا لأن سكانها يصرون على تسميتها بهذا الاسم ، مكونة من منازل صغيرة ولكنها أنيقه ومطلية بالجص ؛ وهذه المدينة ترجع إلى تاريخ الأسرة الملكية الوهابية الأولى . وعلى بعد مسافة قريبة نحو الداخل ، يرتفع مرقب أو أن شئت فقل برج ، مقام على تل صغير منعزل ؛ وقد كانت تتمركز هنا ، فى الأيام الخوالى ، حامية من البلوش . والبلوشيوون هم سويسريى هذه المنطقة ؛ ولكنى سوف أتحدث عنهم كثيرا فيما بعد .

وقبل غروب الشمس بساعتين تقريبا دخلنا الميناء وأشرعة السفينة مفرودة أمام العاصفة الجنوبية ، ونزلنا بلا أية صعوبة على الشاطئ الرملى المنحدر . ودعانا ربان السفينة ، الذى كان له منزل وأسرة فى المدينة ، أن ننزل عليه ضيوفا فى منزله مثلما كنا ضيوفا عليه على ظهر سفينته . ولكن أعراف شاراك ، التى تخف فيها تقاليد الكرم العربى بفعل الشح الفارسى الممزوج بالفظاظة الوهابية ، لا تسمح بإدخال الغرباء تحت سقف الأسرة بصورة مباشرة . وتمشيا مع هذه الأعراف أمر فارس بكنس وفرش غرفة صغيرة كانت تجاور المسجد، ومخصصة لاستقبال المسافرين من أمثالنا ؛ وبعد أن فرشوا الغرفة بالحصير أحضروا لنا الوسائد والقهوة، ثم أرسل لنا فى النهاية، على أيدى إخوته الصغار، عشاءً طيبا يحتوى على كثير من المطبوخات الفارسية . والتدخين محظور تماما فى بر فارس كما هو محظور فى نجد ، وقد اضطررنا ،

على إثر ذلك، أن نبحث عن أركان وأماكن منعزلة حتى يتسنى أن نتمتع فيها بالتدخين. ولم يحضر أحد من أهل المدينة لزيارتنا ؛ ولكن العيون كانت "تتفحصنا" فضولا عندما كنا نجلس عند بوابة المسجد ، أن لم يكن "حبا ، فإلى أعين كانت ترد الكلام" ؛ وكنت أنا وبركات ، تدور بخلدنا أفكار كثيرة عن الفرق بين أرض وأرض والفرق بين بشر وبشر آخرين .

وفي صبيحة اليوم التالي كانت الريح ما تزال غير مواتية ، وحالت بيننا وبين الإبحار . ولتزجيه الوقت ، اصطحبنا فارس معه للقيام بزيارة مجاملة للرئيس المحلي ، عبد العزيز المطيري ، ورحنا نتجول خلال جزء من المدينة ، إلى أن وصلنا إلى بقعة معشوشبة من الأرض ، فيها بعض الأشجار العالية ، لا اعرف لها نوعا (كانت تشبه أشجار الزان ، غير أن مجموعها الخضرى كان مختلفا عن المجموع الخضرى لأشجار الزان) ، وكانت لها ظلال تسمح للزائرين أن يستظلوا بها . وفي هذه المنطقة توجد قلعة عبد العزيز ، وهي عبارة عن مبنى صغير ولكنه قوى ، وله فناء على شكل رباعى الأضلاع ، وبوابة عالية قوطية الشكل .

وعند بوابة القلعة وجدنا العديد من القبعات المدببة المصنوعة من اللباد وكثيرا من الثياب الفارسية الحقيقية التى يرتديها سكان المناطق الداخلية فى إيران ؛ وكان لابسوا هذه الثياب وتلك القبعات عبارة عن وفد من شيراز أرسل إلى شاراك ، قبل يوم أو يومين، لتحصيل أو جباية جزية متعثرة عن ولاء مشكوك فيه من جانب حاكم المنطقة، وسيده الشاه . وقد أصاب هذا الوفد ، طبقا لما قيل لى بعد ذلك ، قليلا من النجاح ، نظرا لأن عبد العزيز ، رئيس شاراك ، كان وهابيا متصلبا ، كما كانت تبعيته بحكم كونه نجديا أقل مما لو كان نجديا خالصا ، ورفض رفضاً قاطعا أن يسمح " لأعداء الله " بالمشاركة فى خيرات الأرض . وطلبنا الدخول إلى القلعة وأجابونا إلى طلبنا . وفى ديوان قريب من البوابة ، تعرض فيه السيوف ، والرماح ، والبنادق ، شاهدنا رئيسنا ، ذلك الشاب شديد الأناقة ، الذى كان يرتدى ثيابا نجديه الطراز ؛ وهو يزعم أنه ينحدر عن سلالة نسبية نقية تنتمى إلى بنى تميم وطابيخة **T. abikhah**، وقد همس لى ابن خميس ونحن على انفراد قائلا : "أبدا ، إنه مثلى ومثلك تماما ، لا علاقة له بهذه القبيلة أو تلك". وبغض النظر عن أسلافه، فقد كان عبد العزيز ملتهب الحماس، ومنفعلا تماما بالأخبار الجديدة التى جاءت من عنيزة. وهذه أول مرة، منذ أن غادرنا الرياض ،

نسمع فيها أشياءً مهمة عن تلك المدينة المنكوبة . وسوف أروى هنا ذلك الذى حكاه لنا عبد العزيز ، ثم أنتهز الفرصة بعد ذلك لأروى باختصار تلك الأحداث التى وقعت بعد ذلك ؛ وإذا كانت هذه الأحداث محزنة فى حد ذاتها ، إلا أنها تنذر بكثير من الأذى والإزعاج .

عندما وصلت فرقة الاحساء إلى الرياض ، وبصحبتها المدفعية ، كان عبد الله ، نجل فيصل ، قد جهَّز نفسه ليكون على رأس هذه الفرقة على وجه السرعة ، وأن يتجه بها مباشرة إلى عنيزة. ولكن والده العجوز الحصيف والحريص، أجبر الأمير المتعجل ، على انتظار وصول عُبيد من جبل شومر . وكان طلال قد استدعى ليحضر بشخصه ، ويحتل مكانه بين القادة النجديين ؛ ولكن عبد الله رفض الانصياع لأوامر والده من ناحية ، وأنه كان لا يود ، من الناحية الأخرى ، أن يترك مسألة ، هو ، حسب تصوره ، أستاذ فيها ، كي يقوم غيره بالبت فيها ، في حين أنها من اختصاصه هو ، أو إن شئت فقل " عندما يزهو الأقرب" Tua res agitur paries cum proximus ardet . ولم يكن عُبيد معارضا لذلك : ونظرا لأنه كان فرحاً بالفرصة الجيدة التى تهيأت له كى يذبح من خلالها أتباعه باسم خالقهم ، فقد سارع إلى تجميع رجاله وذخيرته ، وحضر إلى القصيم فى حوالى منتصف شهر ديسمبر . وأصدر فيصل أوامره ، إلى عبد الله ببدء التحرك ، الذى اصطحب معه قوة الأحساء عن بكرة أبيها ، إضافه إلى قوات العارض ، فضلا عن البقية الباقية من القوات التى جاءت من المنطقتين الوسطى والجنوبية ؛ وبذلك أصبح تحت قيادة عبد الله حوالى خمسة عشر ألف مقاتل أو ما يقرب من ذلك ؛ وهذه القوة ، إذا ما أضفناها إلى قوة الجيش الذى كان يحاصر المدينة بالفعل نجد أن إجمالي عددها يصل إلى حوالى ثلاث وعشرين أو أربع وعشرين ألفا ، علي أقل تقدير ، من القوات النظامية ، علاوة على أربعة أو خمسة آلاف من البدو ، الذين قرروا بعد كثير من التردد ، أن ينضموا في النهاية إلى المنتصر الأكيد . وهكذا تُركت عنيزة لحال سبيلها ومواردها الخاصة ، التى قد تصل إلى حوالى أربعة آلاف مقاتل على أكثر تقدير .

وبعد كثير من المناوشات والمصادمات دارت معركة حاسمة في شهر يناير . ويقال إن الزامل والخياط قاما بأعمال شجاعة ، وأنهما أوشكا أن يطوقا عبد الله هو وقواته ويقتلانه ، وبخاصة ، ويا للأسف ، أنه لم يكن جاداً أو متحمسا لهذه المعركة .

ولكن عندما تكون نسبة المقاتلين خمسة إلى واحد ، فإن المعركة المتعادلة أفضل من الهـــزيمة ، عند الطرف الأقل عددا ؛ ونظرا لأن رجال عنيزة ، أصبحوا على علم كاف بتفوق قوات العدو عليهم تفوقا ساحقا ، وأنهم لا طاقة لهم بخسارة رجل واحد ، فقد حبسوا أنفسهم داخل أسوارهم ، وبذلك كانوا في عرف المحاصرين من حيث الشكل .

كان هذا هو الحال عندما روى عبد العزيز آخر الأنباء التي وصلته . أما بقية الأحداث ، التي وقعت بعد ذلك ، فقد وصلتني في شهر أبريل ، عندما كنت على وشك مغادرة حدود الجزيرة العربية إلى بغداد . وبعد اكثر من شهر من الحصار المحكم ، انهارت الأسوار الخارجية ، ثم بعد ذلك الأسوار الداخلية أمام المدفعية الوهابية ، وأمكن الاستيلاء على المدينة عن طريق الاقتحام . وحارب أهل المدينة حتى النهاية ؛ وعندما تبددت الآمال ، شق كل من الزامل والخياط طريقهما وسط المهاجمين ، ولاذا بالفرار إلى ملجأ في الجنوب في وادى نجران ، يقال إنهما اختبأ فيه تخوفا من ثأر المنتصر منهم . ولكن الغازى قتل ، في الحال ، حوالي سبعمائة رجل ، من بين مواطني عنيزة البارزين ، فضلا عن إقامة مذبحة دامية لأهل البلد العاديين ؛ وجرى في النهاية سلب المدينة ونهبها وتخريبها تخريبا تاما ، على ألا تقوم لها قائمة بعد ذلك ، طوال حكم الوهابيين لهذه المدينة . وبذلك تكون جميع العوائق قد أزيلت من أمام الجيوش الوهابية في الطريق إلى مكة ؛ وهنا بدأت الاستعدادات اللازمة لتحقيق الحكم الكبير للطموح النجدى ، والذى يتمثل في فرض السيادة النجدية على المدينة المقدسة . هذا الهدف الذى طال انتظاره ، هو وعظمة ودمار عبد الله الأول ، ربما يكون من المحتمل تماما ، تنفيذه الآن بواسطة عبد الله الثاني . كان السلطان العثماني قد أهدر الفرصة الممتازة التى تهيأت له وكان يستطيع من خلالها وقف المتشددين النجديين ، عن طريق مساعدة عنيزة وتقديم يد العون لها ، ولم يكن أمام شريف مكة من شيئ يفعله ، بالتعبير العام ، سوى أن يغلق باب الاصطبل بعد أن سرق اللصوص الحصان ، اللهم إلا إذا تدخلت مصر ، أو أية قوة أخرى ، في محاولة منها لإنقاذ شبه الجزيرة العربية من الدمار والتخريب الوهابي ، ذلك الدمار الذى بدأ يخيم على كل شواطئ البحر الأحمر وشواطئ الخليج الفارسي . وسوف يتعين علينا الانتظار كي نرى ما سيحدث ؛ والسبب في ذلك أنني ومعى القارئ العزيز يتعين علينا أن نعود الآن إلى شاراك ، التي تركنا فيها عبد العزيز هو وحاشيته وهم يفرحون بانتقام الله من كفار القصيم ، ويعيدون ويكررون أمجاد مذهب محمد بن عبد الوهاب الديني .

وشربنا القهوة وغادرنا المجلس . وعرض عليَّ فارس ، بكثير من الأدب وإحساس أكيد يدل على الفهم ولا يعد شائعا في الشرق ، عرض عليَّ أن يصحبني في نزهة سيرا على الأقدام يطلعني فيها على كل ما يستحق أن أراه . ولم تكن هذه النزهة كبيرة ؛ وعلى كل حال ، فقد أشار لي فارس ، خلال هذه النزهة ، إلى آثار السور الخارجي المهدم ، كما أشار لي أيضا إلى اتجاهات هذه الأسوار بين الحقول والأشجار ، وكان يبدو عليه الاهتمام كما لو كان خبيرا من خبراء شراء العاديات والآثار يقف أمام آثار الحرس البريتوري الإمبراطوري الروماني القديم . ومن ثم فقد اقتادني فارس إلى سفح مخروط صغير من الرمل كان يقع على قمته ذلك البرج المدمر الذي سبق أن أشرت إليه ، والذي يعد منافسا لقلعة كيستور في نورفلك في بريطانيا ، من حيث الحجم والشكل . وهذا البرج موجود خلف التحصينات القديمة ، التي تمتد على شكل شبه دائرة محيطها حوالي ميل ونصف الميل ، في حين يشكل شاطئ الخليج أساسا لهذا المحيط : وهذا الأساس عبارة عن مجرى للسيول ومختزن لأمطار الشتاء التي تنساب إليه من جبال فارس ، وتخترق وسط هذا الفراغ ، اختراق السهم وهو يمر خلال قوس مفرود . والمسافة فيما بين سور مدينة شاراك ومنازلها تنمو فيها أشجار التين ، وأشجار البرتقال ، والليمون فضلا عن الأشجار البستانية الأخرى ؛ وخارج سور المدينة توجد بعض بيارات النخيل غير الكثيفة ، كما لو كانت رجالا تجمعوا للتدريب على استعمال السيف ؛ ومن خلف هذه البيارات توجد بعض الحقول القليلة التي تتناثر خلالها قطعا من الصخور إلى أن تصل إلى سفح الجبل . وتتناثر في هذه المنطقة الأكواخ التي يراها الرائي هنا وهناك ، ولكن الريف هنا مخلخل السكان ، والقرى الوحيدة التي لها حجم يذكر هي تلك القرى التي تقع على شاطئ الخليج نفسه. والآبار ليست قليلة في شاراك وهذه ميزة تنفرد بها هذه المنطقة عن سائر مناطق بر فارس ، ومع ذلك فإن طعم الماء هنا يميل إلى الملوحة . وأمضينا مع فارس ، في هذه النزهة ، مدة تتراوح بين ساعتين أو ثلاث ساعات ، عدنا بعدها إلى المنزل وأمضينا بقيه اليوم في البحث عن وسائل تمكننا من مواصلة رحلتنا . وحركة المرور صغيرة بين بر فارس والشارقة ، التي نريد أن نيمم مسيرنا إليها ، والتي نصحونا ، إن أردنا أن نصل إلى الشارقة ، أن نستقل السفينة شيرو Chiro ، التي كانت راسية في ميناء شاراك ، والتي كانت على وشك أن تبحر إلى ميناء لينجا أو إن شئت فقل لينيا ، إن أردنا أن نطلق عليها الاسم الذي يطلقه عليها أهل شاراك ، وهذا يعني أن الناس هنا

يرققون الجيم العربية الجافة ويحولونها إلى "ياء" ؛ وهو خطأ محلي في النطق يترتب عليه أن تتحول كلمه " مسجد " إلى "مَسْيِد" Masyid وكلمة "عجمان" إلى "عيمان" Ayman وهلم جرا . ويقع ميناء لينجا على بعد مسافة تقدر بحوالى عشرين ميلا على نفس ساحل شاراك ، وأننا عندما نصل إلى لينجا فلن نجد صعوبة فى العبور إلى الشارقة . وفى نفس الليلة قام ربان سفينة الشيرو ، ذلك البحار صاحب البشرة الداكنة ، بزيارتنا فى المكان الذى كنا نقيم فيه بالقرب من المسجد ، وساومناه واتفقنا معه على أن نعبر معه إلى الشارقة فى اليوم التالى .

وفى صبيحة اليوم التالى ، الموافق لليوم العاشر من شهر فبراير ، ذهبت للاستحمام فى مياه البحر الرائقة ، والسبب فى ذلك أننى لم أخاطر بالاستحمام بعيدا عن شاطئ قطر . ولكنى فى هذه المرة ، كنت على وشك أن يقع لى حادث نتيجة اندفاع واحدة من أسماك الرأى اللسَّاع ناحيتى ، والتى كانت قريبة جدا منى لحظة إفلاتى منها . وفى هذا الخليج يعيش ويترعرع كثير من الوحوش البحرية مثل البولب ، الذى هو شكل من أشكال الحياة المائية البسيطة ، والقُرَّاص البحرى ، والرخويات ووحوش بحرية أخرى كثيرة ، كما تشيع هنا أيضا أسماك القرش ؛ إلى حد أن من يسبح بعيدا عن الشاطئ من ناحية بر فارس يتعين عليه أيضا أن يتأكد من خلو المكان الذى يسبح فيه من سمك القرش .

وعند الظهر ، ركبنا على ظهر السفينة ، وسرعان ما فردت السفينة أشرعتها متجهة إلى لينجا ، وكان بصحبتنا على ظهر المركب بعض أماجد مدينة شاراك ، الذين كانوا يرتدون ثيابا جيدة ، والذين كان يبدو عليهم أنهم أغنياء بالمال أكثر من الكلام ؛ وينبغى علىّ هنا أن أضيف أن أهل هذا الساحل تصل صرامتهم إلى حد الكآبة ، فهم من النوع قليل الكلام ، وليس لديهم ما يقولونه ؛ وغادرنا الميناء ، ومع غروب الشمس كنا لا نرى من رأس بستانة سوى لسان يمتد داخل البحر، مع قريتين أو ثلاثة فى المنطقة المجاورة لها ؛ فى حين كانت الحدود الخارجية الداكنة والحالمة لجزيرة فارور Faroor ، وذلك الحيد المرجانى الذى لا يختلف عن حيد حالول ، تقطع عن بعد حافة البحر من الناحية الجنوبية . ومع حلول الليل تجاوزنا رأس بستانة . كان لون البحر فسفوريا ساطعا ؛ إذ كان كل تموج مصحوبا بومضة ضوئية ؛ وكنا نشاهد أيضا كتلا كبيرة

وهي تضيئ ، ورخويات أيضا من النوع المضيئ ، وهي تطفو كما لو كانت كرات من الحديد الساخن ، على أعماق صغيرة تحت سطح الماء . ومن باب الاستطلاع سألت أصدقاءنا الوهابيين الذين كانوا معنا على ظهر المركب، عن سبب هذا المظهر النارى ، وقالوا لى بكل ما لديهم من جد ، أن ذلك إنما يرجع إلى الوميض المنعكس من جهنم ، التي يفترضون وجودها أسفل الخليج مباشرة . وبجدية مماثلة سألتهم أيضا إن كانت مناطق جهنم شفافة أم لا ؟ وهل هذه الشفافية يمكن أن تكون من قبيل الحجر الزجاجي ؟ وأوحيت إليهم أنه فى غياب مثل هذا الوسيط فإن الماء الموجود فى الأعلى قد تشتعل فيه النار . ولكنهم أجابوني أن القدرة الإلهية قادرة على تحاشى كل ذلك ، وأن إرادة الله تكفى الإنسان كي يتوقف عن المزيد من التقصي والبحث . وزاد هؤلاء الوهابيون على ملاحظتى الثانية عن درجة الحرارة الطفيفة الناتجة عن ذلك التوهج الأبدى الذي يبدو وكأنه ليس له أى تأثير ، من أى نوع كان ، على تسخين مياه البحر الفوقية ، ردوا على هذه الملاحظة بنفس الرد المقتضب أيضا ؛ وقالوا لى أيضا أن هذه الظاهرة إنما هى أيضا ناتجة عن قدرة الله وإرادته ، وأن هذه الحرارة لا وزن ولا قيمة لها ، ولا تساوى شيئا أمام نار جهنم . وهنا وجدت من الأفضل ومن الحرص ألا أواصل الخوض فى هذا الموضوع . وأنا أتمنى لأولئك الذين يجدون متعة فى إعلاء أو تنزيه المفاهيم المحمدية الروحية والدينية أن يمضوا شهوراً قليلة بين الوهابيين فى كل من بر فارس أو في نجد[1] : لأن الحميمية سوف تلعب دورا كبيرا فى تعديل مثل هذه الآراء .

(١) أنبّه هنا إلى ملاحظة هامة عن الإسلام والمسلمين . فالإسلام كدين بنصوصه الشرعية من كتاب وسنة والتطبيقات الفعلية في عهد رسوله وأصحابه الأكرمين له كل الإكبار والإجلال لأنه قوام الحياة الصحيحة ، ولا يوجد خلل ما فى تعاليم الإسلام يتنافى مع العقل السليم والفطرة السليمة كما قال تعالى "إن هذا القرآن يهدى للتي هى أقوم" وينبغى أن نفرق بين الإسلام كدين وبين المسلمين ، فقد يوجد من بين المسلمين من لا يفهمون هذا الدين ، ويجهلون أحكامه وقواعده فيطبقونه خطأ . وهذا ليس عيبا فى الدين وإنما هو عيب فى سلوك المسلمين وإذا كنا نريد أن نحاكم المسلمين على سلوكهم فهذا أمر لا خلاف عليه أما أن يهاجم الدين ويزدرى به بسبب سلوك المسلمين فهذا أمر لا يجوز ، وهذا شأن المؤلف دائما فهو يصب جام غضبه وازدرائه بدين الإسلام بسبب ما يراه من سلوك بعض المسلمين حكاماً ومحكومين ، وهو هنا يتندر بالإسلام بسبب إجابات بعض المسلمين عن ظاهرة الوميض الضوئى فى البحر وهل جهل الناس ببعض الأمور وعدم قدرتهم على تفسيرها تفسيراً صحيحاً فى ضوء الإسلام يعد عيباً فى الإسلام - كما قلت سابقاً - ينبغى على من يتناول هذا الدين أن يفرق بين الدين كدين وبين التطبيقات له على أيدى المسلمين - (د. حلمى عبد المنعم) .

وعند منتصف الليل ، كنا قد وصلنا إلى خليج لينجا أو لينيا ، حيث راحت الأضواء العديدة المتلألئة الصادرة عن الشاطئ ، تقشع الظلام ، مما جعلني أتوق شوقا إلى اكتشافات الفجر . ويطلع النهار لنرى أن سفينتنا قد رست على بعد حوالى مائتي ياردة من البر ؛ وأن ما يفصل بيننا وبين البر هو عبارة عن سفن ، من الأنواع الصغيرة والأنواع الكبيرة ، كما رأينا أيضا مدرجا من المنازل البيضاء وسط الأشجار والبساتين التي كانت تنتشر إلى مسافة طويلة على الشاطئ على جانبي الميناء .

ولينجا تتبع الحكومة العمانية في الوقت الراهن - وهذا ظرف طيب ، ومصدر من مصادر ازدهارها المرموق . وساحل الخليج كله في المنطقة من رأس بستانة إلى حدود جسك Djask يتبع الحكومة العمانية . أما كيف حدث ذلك ، وما هي الظروف التي ساعدت عليه ، وما هي النتائج التي ترتبت على ذلك ، فتلك أمور لا يفهمها إلا أولئك الذين لديهم ، على أقل تقدير ، فكرة عامة عن تاريخ عمان وأسرتها المالكة . وأنا بدوري هنا سوف أسرد هذا التاريخ ، أو أرسم له صورة عامة ، وذلك على سبيل التقديم لتلك المرحلة الأخيرة من روايتي . إن الموضوع مهم ، ويحتاج مني إلى فصل مستقل .

الفصل الخامس عشر

عُمان

أنا أصف باستفاضة الشاطىء السعيد
الذى أتوق إلى الوصول إليه قبل فترة طويلة ؛
التربة تبدو جميلة من بعد ، ومملوءة بالمخزون
بكل ما هو حي وعزيز ولذيذ .

سبنسر Spencer

حدود عمان الجغرافية – طابع عمان العام – تاريخ عمان القديم والمصادر السكانية – المستعمرات اللاحقة – السبئيين من منظور المصادر العربية – سبئيي عُمان – عقيدة محمد فى عمان – انحرافها خلال القرن الأول – النبض القرموطى – المرحلة اللاحقة من مراحل العقل في عمان – البياضية – أصل أسم البياضية – النجم القطبى – الصيام السنوى – الظروف الاجتماعية والنساء – ممارسة التخفى – نيبور فى مسقط – مدى الخطأ في معلوماته – الطابع العام للسكان – التسامح – السحرة والمشعوذون العمانيون – قصة ساحر بأهله – الزنوج فى عمان – عدد الزنوج ، أحوالهم ، ونفوذهم – تاريخ القرون الثلاثة الأخيرة فى عمان – البرتغاليون – الهولنديون – الفرس – استعادة عمان لاستقلالها – أسرة ابن سعيد المالكة – اعتلاء السلطان سعيد للعرش– سياسته ونجاحاته الأولى– الغزو الوهابى – قمع القراصنة – الهزائم التي وقعت بعد ذلك وحكومة السلطان سعيد– زيارة السلطان سعيد إلى مكة – وفاة السلطان سعيد – الانقسام الثلاثى للمملكة – الحرب بين الثوينى وماجد – الحرب بين ثوينى وأمجد – التدخل الإنجليزى – الثورة الشعبية – استدعاء ثوينى للنجديين –

حمله عبد الله بن سعود – خالد بن صاقار – تاريخه – سلبه ونهبه في باطنة – وصول عبد الله إلى بريمة – الحملة على جبل أخضر بقيادة زامل العطية – التقدم – النتيجة – الهدنة العامة – الأحوال المفروضة – تصرفات ثويني اللاحقة – "إمام مسقط" – مدى خطأ هذا الإمام – إدارة المملكة – تصرفات أحمد السديري هو ونجديون آخرون – الساحل الفارسي – النزول إلى أرض لينجا – مدينه لينجا – ميناء المدينة ، التجارة ، والسكان – الأديان – الإدارة العمانية – الدعيج ومنزله – لينجا من الداخل وسوق لينجا – النيابة الفارسية – الرحيل إلى الشارقة – عاصفة – يومين في أبي موسى – الوصول بعيدا عن الشارقة .

عَمّان كما ينطقها العرب ، أو عُمان حسب نطقنا المغلوط لها نحن الإنجليز ، عبارة عن اسم مستقر بلغ من الشيوع والذيوع حدا يصعب معه ألا نقول عنه شيئا ؛ وهذا الاسم من واقع السواد الأعظم من الخرائط ينطبق على المنطقة الساحلية المحصورة بين رأس سندام ورأس الحض ، أو إن شئت فقل أقصى الكتف الشمالي الشرقي من شبه الجزيرة العربية . والعرب ينسبون إلى عمان ، برغم كل ذلك ، مساحة أكبر من تلك التي ذكرناها ، وتمتد من أبي ظبي ، تلك القرية التي تقع على الحدود الشرقية للمنطقة التي يحتلها بنوياس في الوقت الحالي، إلى حدود منطقة ظفار نفسها، عند أقصى الساحل الجنوبي ، كما يتبع عمان أيضا جميع الأراضي الواقعة بين هاتين النقطتين . وبذلك نجد أن عمان ، على هذا النحو ، تشتمل على منطقة المهرة وهذا نقلا عن علماء الجغرافيا الإنجليز ورغْم راس الحض ، ثم كامل المنطقة التي تمتد إلى "ساحل القراصنة" ، علاوة على جميع الأماكن التابعة لـ – راس مسندم على الجانبين . وعمان الجزيرة العربية ، تلامس ، في ضوء ذلك ، كلا من حضرموت من ناحية الجنوب ، ثم قطر ، أو المنطقة المجاورة لها منها على أقل تقدير ، من ناحية الشمال ، وبذلك نجد أن عمان تشكل هلالا ضخما ، يقع البحر أمامه ، وصحراء جنوبي الجزيرة العربية الشائعة من خلفه . ولكن من منظور المغزى السياسي السائد ، فإن عمان لها امتداد أوسع من ذلك ، نظراً لأنها تشتمل علاوة على ما ذكرناه ، على تلك المنطقة أيضا التي تضم كلا من بني – ياس ، وقطر ، والأقحاف ، وكل جزر الخليج الفارسي التي تقع شرقي البحرين ، وهي على وجه الحصر ، جشم ، وأرموز (أو إن شئت فقل هرمز كما يسميها أهلها) ، وجزيرة لارج Larej ، وجزر أخرى كثيرة قليلة الأهمية ، علاوة على الساحل بكامله من ناحية بر فارس في المنطقة ما بين رأس بستانة وجسك Djask .

وأخيرا ، فإن الحكم العماني يمتد أيضا ليشمل شريطا طويلا من الشاطئ الأفريقي المقابل لـ - زنجبار ، في حين أن الجزيرة التي تحمل اسم سوقطرة أيضا ، هي وكل الأماكن المجاورة لها ، تخضع أيضا للصولجان العماني .

والقارئ إذا ما ألقى نظرة خاطفة على الخريطة سوف يتبين أن عمان هي بالضرورة مملكة بحرية ، وأنا أعني بذلك ، أن عمان مملكة من تلك الممالك التي يتحتم على التجارة والتجارة البحرية أن تلعبا دورا مهما فيها ، وربما أهم الأدوار كلها . إلا أن الممتلكات البرية في هذه المملكة تفتقر في جميع الأحوال إلى الثروات التي تكمن في باطن الأرض . ولكن عمان الاصلية ، نظرا لأن هذا الاسم أصبح يطلق على كل أنحاء الإمبراطورية كلها ، كما يبدو ، هي أغنى جزء من أجزاء شبه الجزيرة العربية ، من حيث الإنتاج الزراعي والكنوز المعدنية ، في حين أن امتدادات هذه الإمبراطورية الداخلية تعد مصدرا سخيا من مصادر العمالة الصناعية على اختلاف أنواعها . ويقال أيضا أن ممتلكات الإمبراطورية العمانية ، في أفريقيا ، شديدة الخصوبة أيضا ، في بعض أجزائها على أقل تقدير ؛ ولكنى فيما يتعلق بهذه النقطة ، أحيل القارئ الكريم ، إلى الاعتماد على مصادر أخرى غيرى ، والسبب في ذلك أني لم أعبر قط هذا الخط في اتجاه الجنوب . ولكن أيا كانت ثروة عمان البرية ، فإنها تتمثل أصلا في ذلك الساحل البحرى الطويل ، والموقع المهم بهذا الساحل نفسه ، وبخاصة أن هذا الساحل الطويل يحتوى على مفاتيح الخليج الفارسي ، علاوة على مرافئه الممتازة التي تتخلل هذا الشاطئ مما يضفي على كل من الشعب والحكومة طابعا فريدا ومحددا .

كان هذا الجزء من الجزيرة العربية ، قد استقبل ، منذ زمن بعيد جدا ، أول المستعمرين الذين وصلوا إليه من اليمن . ويبدو أن أولئك المستعمرين لم يكونوا ينتمون إلى القبائل الحميرية وإنما إلى القبائل القحطانية ، وذلك قبل أن يختلطوا بأي عنصر من العناصر التسبية الاجنبية . ونقلا عن الموروث العماني فإن الأسرة الرئيسية التي ترأس رؤساؤها المستوطنة أو إن شئت فقل المستعمرة الرئيسية ، كانت من اليعاربة ، وأن أحفادهم استطاعوا الحفاظ على سيادتهم المستمرة وغير المحدودة بطبيعة الحال ، على عُمان حتى مطلع القرن الثامن عشر إلى أن استطاع احمد بن سعيد، في النهاية، أن يطيح بآخر هؤلاء الحكام ، والذي كان يدعى سيف بن سلطان . وأحمد بن سعيد هذا من أسرة الغفارى ، ولكنه تحالف ، عن طريق المصاهرة ، مع اليعاربة الذين خلعهم واستأصل شأفتهم ، وبذلك يكون قد استطاع بهذا العمل الشجاع أن يخلص بلاده من نير الفرس الذى فرضه عليها تقى الدين ، وترتب على ذلك ، أن بايعه إخوانه

المواطنين الذين احتشدوا في مسقط ، ملكا عليهم لقاء شجاعته ومهارته . وتلت ذلك معركة لم تدم كثيرا ، دارت بين أحمد بن سعيد وأتباع الأسرة المالكة المخلوعة ؛ وانتصر ابن سعيد في تلك المعركة ، ودانت له في النهاية السيادة على المملكة كلها ؛ في حين رضي اليعارية لأنفسهم بالحكم المحلي على ممتلكاتهم الأسرية ، التي كانت في جبل أخضر ،الذي لا يزالون يتمتعون فيه بسلطات اقطاعية لا ينازعهم أحد فيها ، شبيهة بتلك السلطات التي يتمتع بها أهل كامبل في الأراضي الغربية المرتفعة ، بوصفهم رؤساء أقوياء لعشيرة من العشائر .

والغفاريون شأنهم شأن اليعاربة ، يدعون أنهم ينحدرون مباشرة من قحطان نفسه ، أو إن شئت فقل من أودين[1] Odin الجزيرة العربية ؛ وسكان عمان الحقيقيين يتباهون بصلتهم النسبية من ناحية الأم ، برغم أنهم ليسوا من أصل ملكي . ويبدو أن قبائل جيلاندي ، وثوعال، عذرا، ويشجار، هي وقبائل أخرى من الأسرة القحطانية قد التجأت إلى هذه المنطقة في زمن بعيد جدا ؛ ومن الجيلاندي تفرع بنو- ريام Banoo - Ryam ، الذين يسكنون المرتفعات الموجودة فوق نزوة Nezwah . ولكن علاوة على هؤلاء السكان الأول لهذه المنطقة ، كانت هناك أيضا قبائل أخرى شمالية أو إن شئت فقل من سلالة إسماعيل ، انصهرت وتكاملت ، بمرور الزمن ، مع هذه السلالة القحطانية . من ذلك مثلا ، أن عشيرة الفزارة Fezarah كثيرة العدد ، والتي طردت من نجد بسبب الحروب والاشتباكات والصدامات المستمرة التي كانت تدور بين كلاب وتميم ، اتخذت لنفسها من هذه المنطقة مقاما أساسيا ، وقد انحدر عنهم عدد كبير من هؤلاء السكان الذين يعيشون على ساحل البحر . يضاف إلى ذلك أن كلا من كنانة وحيدال Hedal ، سارا على الدرب نفسه ، إلى أن أصبح حوالي ربع سكان عمان العرب من أولئك الذين لا ينتمون إلى سلالة قحطان ؛ وهذا التحزير يؤكده ذلك الاختلاف الطفيف في اللهجة وفي الملامح ، مع تباين طفيف في المفاهيم والأسس الدينية ، وهذه كلها أمور كافية لتأكيد هذا الفارق وهذا الاختلاف الذي لا يكفي أن يكون الموروث الشفهي وحده دليلا عليه ومؤكدا له . كما يسود العرق الزنجي والحبشي في الجنوب الشرقي .

وفي الجانب الشمالي - الغربي من رأس مسندام ، أي ابتداءً من عجمان إلى شعام ، هناك مستعمرة فريدة تحتوي على سلالة نجدية نقية ، يرجع إنشاؤها إلى تاريخ قريب نسبيا ، هم الجواسمة . والجواسمة شأنهم شأن سكان بر فارس يرجعون

(١) أودين : رب الأرباب في الميثولوجيا الجرمانية - (المترجم) .

أصلهم النسبي إلى المطير ؛ ويبدو أن مستوطنتهم أقيمت خلال القرنين الماضيين . والجواسمة هم وهابيون من الوهابيين، وبالتالى فهم أعداء ألدّاء بكل من يحيطون بهم ؛ يضاف إلى ذلك أن العداء الفطرى الذى يزيد التشدد من حدته ، وكذلك المتاريس والاستحكامات الموجودة فى الجرف الصخرى الذى يعيشون فيه ويضعب الوصول إليه ، فضلا عن تحالفهم الجزئى مع نجد ورعايتها لهم أيضا ، هو الذى يمكن هؤلاء الجواسمة من الدفاع عن منطقتهم ضد أولئك الذين يريدون الهجوم عليها من البر أو البحر .

وبخلاف هذا الاستثناء المحلى ، وقله قليلة أخرى قليلة الأهمية سوف نلاحظها طوال استمرارنا فى سرد تفاصيل هذه القصة ، نجد أن مبادئ ومفاهيم ابن عبد الوهاب ، بل ومفاهيم العقيدة المحمدية نفسها ، تواجه مقاومة ضئيلة فى عمان ، إذ نجد أن هذه العقيدة الدينية التى تمتزج فى عمان ، أكثر من الأحساء ، بحياة الناس المدنية والأخلاقية ، لها طابع غامض ومتعدد الأشكال ؛ وهذا يرجع إلى عقائد جديدة لا يجرى اتباعها بصورة كاملة ويجرى أيضا تطعيم المعتقدات القديمة شبه المهملة بهذه المعتقدات الجديدة . وهذا الأمر له شبيه أيضا يمكن أن نلاحظه فى بعض الأمم الأخرى ؛ والواقع أن هناك قلة قليلة فقط هى التى لم تُرقّع الثوب القديم برقعة من قماش جديد . ولكن مسألة الترقيع هذه تتجلى بشكل أكثر وضوحا فى الركن الشرقى من الجزيرة العربية ، أى فى المنطقة التى تمتد ما بين أبى ظبى ورأس الحض ، بل أن هذه المنطقة تمتد إلى أبعد من ذلك لتصل إلى حضر موت نفسها .

من المعروف أن دين عمان القديم ، كان دينا سبئيا ، بل إنه كان من الطراز الذى كان سائدا ذات يوم لا بين الكلدانيين وإنما فى بلاد فارس أيضا ، ومعروف أيضا أن نظرية الإثنينية[1] كانت قد أفسدت بساطة النظرية القديمة . وأنا لست بحاجة إلى أن أورد هنا أن هذه العبادة الشمسية والنجومية التى ترمز النار إليها ، على الأرض ، فى بعض الأحيان ، مع استبعاد كل الأشكال الفنية ، كانت مختلفة تماما عن عبادة تأليه الفرد عند الآشوريين ، ومختلفة أيضا عن عبادة السَّبَّاع 'Sabba المندى ، أو إن شئت فقل عبادة "المسيحيين أتباع القديس جون ؛" برغم أن كثيرا من المؤلفين الأوربيين ، يشاركون المؤرخ العربى، شمس الدين الدمشقى، فى إطلاق مصطلح "سبئى" على كل

(١) الأثنينية : نظرية تقول بأن ثمة مبدأين أساسين ليس غير ، كالعقل والجسد ، أو أن الكون خاضع لمبدأين متعارضين أحدهما خير والآخر شر ، أو أن الإنسان ذو جسد وروح – (المترجم) .

هؤلاء الذين سبقت الإشارة إليهم وغيرهم أيضا . والسبئية التى يتعين على أن أتطرق إليها هنا كانت أكثر قدماً وأبسط شكلا من السبئية الحالية .

وعن هؤلاء السبئيين ، الذين عاشوا فى أجزاء من اليمن ، وعمان ، وفى أجزاء أخرى من الجزيرة العربية ، هذا إن لم يدعوا أنهم ملكوا الجزيرة العربية كلها فى تاريخها الأول الضارب فى القدم ، عن هؤلاء السبئيين يورد المؤلفون العرب المعلومات الشحيحة التالية . إن السبئيين عبدوا الكواكب السبعة السيارة ، والشمس بصفة خاصة ؛ وأنهم كانوا يصومون صياما مقداره ثلاثون يوما ، وأن ذلك الصيام كان يحدث فى مطلع الربيع ، أى قبل حدوث الاعتدال الربيعى[١] ، وان عيد السبئيين السنوى يصادف دخول الشمس برج الحمل (وهذه الحقيقة تفترض أن السبئيين كانوا ينتهجون الحساب الشمسى وليس الحساب القمرى فى الأشهر) ؛ وان السبئيين كانوا يوقرون الهرمين الكبيرين فى مصر ، اللذين اعتقد السبئيون أنهما ضريحان لكل من سيث Seth وإدريس Idrees ؛ كما أخبرونا أيضا أن صلاة السبئيين كانت سبع مرات فى اليوم (برغم أن هناك بعض المصادر التى تقول إن هذه الصلوات كانت خمساً فقط – وهذا التجاوز فى العبارة يمكن تفسيره بسهوله) ، وان السبئيين أثناء صلاتهم وتضرعهم كانوا يولون وجوههم شطر الشمال ؛ أخيرا ، أن السبئيين كان لهم كتاب ، أو مجموعة قوانين ، كانت تعزى إلى سيث Seth نفسه (ولكن أحدا لم يذكر أى شئ عن اللغة التى صيغت بها هذه القوانين) ، وانهم كانوا يعتقدون أن تلك القوانين إنما كانت تحتوى على معتقدات وقوانين الأب الأول . وهناك أيضا بعض النقاط الأخرى الأقل أهمية ، وأصالة ، ونجدها أيضا فى كتب المؤلفين المسلمين ؛ منها على سبيل المثال ، أن السبئيين كانوا يوقرون الحرم المكى ، كما إنهم يقولون أيضا : إن السبئيين بشروا أيضا بمحمد : والقراء الذين يعرفون أحلام أولئك الذين يجدون متعة فى اكتشاف مسيحية متوقعة فى كل من أضرحة يوكتان Yucatan واللغة الهيروغليفية فى الأقصر ، بوسعهم أن يتخيلوا أيضا كيف يمكن لمثل هذه الأفكار أن تشق طريقها إلى أذهان أتباع محمد (ﷺ) ، فيما يتعلق بأولئك الذين لهم دين مختلف عن دين محمد وأقدم منه أيضا . والمثل الذى يقول :" من يصاب بالدوار يشعر بأن الأرض تدور به " له تطبيقات كثيرة جدا .

(١) المقصود هنا اعتدال الليل والنهار ويكون ذلك حوالى اليوم الحادى والعشرين من شهر مارس – (المترجم) .

والواقع أن هناك نقطتين ، هما سلبيتان في واقع الأمر ، ولكن لهما أهمية كبيرة ، نظرا لأنهما تميزان الشكل القديم من السبئية : وأول هاتين النقطتين ، أن السبئية خالية من عبادة الأصنام ؛ والنقطة الثانية ، هو خلو السبئية من التسلسل الكهنوتي . ويبدو أن الترأس في العبادة، كان دائما للسن الأكبر أو أن شئت فقل: لرئيس العائلة ، وأن هذه الرئاسة الدينية لم تكن تنطوي على تمييز فطرى بين من يترأس هذه العبادة والمحيطين به . وعبادة النار ، بالطريقة التي يمارسها البارسيين[1] في الهند وفي غيرها ، في وجود كهنوت منتظم وطقوس مقدسة ، يبدو أنها اختراع حديث العهد أو تم إدخاله حديثا ؛ والمعلومات والمصادر التي لدينا عن السبئيين الأولين لا تشير إلى وجود مثل هذه الممارسات بينهم .

أخيرا ، فإن الموروث العربي كله يخصص للسبئيين شرقي شبه الجزيرة العربية على أنه كان مقرهم ومعقلهم الأساسي ، في الوقت الذي كان غرب شبه الجزيرة العربية وبعض أجزاء في وسطها ، قد اعتنقا دينا أكثر تعقيدا يقوم على عبادة الأصنام أو ما هو شبيه بعبادة الأصنام . أخيرا ، فإن انتصار الإسلام الدائم والحاسم الذي تحقق في اليمن ، وفي ضوء الحال الأخير الذي كان اليمن عليه ، لابد أن يكون قد اقتلع من هذه المنطقة كل أثر من آثار السبئية ، في شكلها القديم على أقل تقدير. أما مدى استيعاب عمان لهذه العملية أو مدى مراوغتها لها ، وأيضا مدى حفاظها على عاداتها وأعرافها القديمة فيمكن توضيحه فيما يلي .

أذعنت عمان خلال حياة محمد (ﷺ) للدخول في الدين الجديد الذي جاء به النبي ، برغم أن المؤرخين العرب ، عندما يدونون هذه الحقيقة يكادوا لا يقولون شيئا عن وسائل هذا الإذعان أو عن اللون الذي تلون به . وبرغم أن هذا الجزء من الجزيرة العربية كان منفصلا أو معزولا عن بقية القارة بتلك الصحراء التي تقع بينهما ، وبالتالي يصعب الوصول إليه عن طريق البحر ، وذلك المسار الذي لم يطرقه المقاتلون الإسلاميون الأوائل إلا قليلا ، بالرغم من كل ذلك فإن سكان عمان كانوا يفضلون ، اكثر من إخوانهم في الأماكن الأخرى ، الهروب من المضايقات التي تنتج عن التحرش العسكري ، كما كانوا يهربون أيضا من المضايقات التي تنتج عن استجوابهم

(١) البارسيين : أولئك الذين انحدروا من أصلاب اللاجئين الفرس المقيمين في بومباي وغيرها – (المترجم) .

استجوابا دقيقا فيما يتعلق بإيمانهم وتقواهم ، وذلك عن طريق إذعانهم في الوقت المناسب " للقوى الكائنة بالفعل " ، والجزية التي كانوا يدفعونها كلما طُلِب إليهم ذلك ؛ وكان هذا الحل الوسط مرضيا للطرفين . والأحداث المدونة خلال حكم عمر ، تدل على أن سريان الدين الإسلامي في عمان ، طوال حكم ذلك الخليفة ، كان سريانا شكليا – وحدث بعد ذلك الصراع الكبير الذي دار بين عثمان وعلي[1] وترتب عليه أن الجزيرة العربية كلها ، ومعها جميع البلدان القريبة التي كانت في ذلك الوقت ، قد انصهرت وذابت في الامبراطورية المحمدية (الاسلامية) ، ترتب على ذلك أن انقسمت كل هذه الامبراطوريه إلى جزئين بينهما عداء مميت ، مما أسفر عن نشوء صراع دموي طويل ، لم تستطع اثنا عشر قرنا من الزمان أن تضع له حدا . فقد وقف شرقي الجزيرة العربية مع علي ؛ أما غربها فقد كان معظمه يساند عثمان[2] . وفي نفس هذا الوقت كان أهل عمان ، هادئين مرتاحين في ركنهم الذي تحيط به الصحراء ، ولم يتعبوا رؤوسهم أو أيديهم بكل ذلك الذي يدور من حولهم، ولم يرسلوا مقاتلا واحدا لتدعيم هذا الطرف أو ذاك . وهنا أرسل كل من عثمان وعلي رسولا إلى رئيس جبل أخضر ، والباطنة ، يطلبان إليهما ، أن يعلمانهما بالجانب الذي يساندانه ، وما هو الجانب ، من الجانبين المتصارعين الذي يمكن أن يتطلع إلى عون ومساعدة قواتهما الكبيرة له . وأنا هنا يجب ، وهذا بين قوسين ، أن أقرر وأذكر القارئ أنني هنا لا أجزم بأني أورد حقائق تاريخية ممحصة ، أو إن شئت فقل ، حقيقة ترتكز على روايات حقيقية أو برهان أكيد يعتمد على الوثائق ؛ وإنما كل ما أفعله هنا هو رواية ذلك الذي يسجله الموروث المحلي ويتناقله عن طريق المشافهة ، ومن واقع كتابات جرى تجميعها مؤخرا ؛ وان هذه الكتابات تروى هذه الحكاية كما سمعتها من أفواه سكان هذه البلاد ، وبالتالي فإن أي زعم يربط هذه الحكاية بالظروف العقدية المحيطية لا يزيد على زعم أهمية الذين رووا

(١) ما هذا الهراء الذي يذكره المؤلف ؟ ومن أين استقى هذه المقولة ؟ إن العلاقة بين عثمان وعلي رضي الله عنهما كانت على أحسن حال ، وقد بايع علي لعثمان ، وكان محل مشورته حتى قتل ، ثم بويع على بالخلافة بعد مقتل عثمان على أيدي الخوارج ولم يحدث أبداً بينهما صراع – (د. حلمي عبد المنعم) .

(٢) عجباً لأمر هذا المؤلف ، رغم أنه مؤرخ ولكنه قد فاته أبسط قواعد التاريخ وهو التوثيق ، فمن أين جاء بهذه المقولة ؟ ومتى حدث هذا التكتل ، لقد أمضى عثمان فترة خلافته وعلي جند من جنوده ويقيم الحدود بين يديه ، ولم يخرج على طاعته حتى قتله الثوار – (د. حلمي عبد المنعم) .

هذه الحكاية أنفسهم . ولو طلب مني أن أقول رأيي الشخصي ، فإنني أقول إن الإطار العام لهذه الأحداث ربما يكون صحيحا ، وذلك بغض النظر عن البنية الزينية الفائقة التي ربما يكون الخيال العربي قد أضافها إلى المخطط الأخير الضيق . لقد سبق أن أوضحت في إحدى الملاحظات التي أوردتها في صدر تاريخ الأسرة المالكة الوهابية ، الأسباب التي تجعلنا ، دون أن نسيئ إلى تقييمنا الذاتي ، نعزو للموروث المحلي والشعبي هنا قيمة أكبر عنه في أي مكان آخر .

واستمرارا لحديثنا ، فإن رسولي الخليفتين المتنافسين ، واللذين قطعا هذه المسافة الطويلة في رفقة هادئة مسالمة ، وبأدب جم يليق بكل من استولفو **Astolpho** وبرادامانتي **Bradamante** نفسيهما ، جرى إحضارهما سويا أمام المجلس الوطني الأعلى في مدينة باهلة العاصمة القديمة لـ- عمان . وأمام المجلس سلم الرسولان رسالتيهما، وتلقيا عليهما ، من أعيان عمان أعقل الردود التي يمكنهما الحصول عليها ، أعني أن المجلس لعن الحزبين وزعيميهما معا ، وأعلن أن عمان لا علاقة لها بأي منهما أو منازعاتهما[(١)] .

وعلى كل حال ، فإن مثل هذا الرد العادل والسريع ، لم يحظ من علي أو عثمان بالثناء المطلوب . وعلى كل حال ، فإن عثمان ومعه قادته ، العسكريون وأتباعه في هذه القضية ، معاوية وأقاربه ، كانت تفصل بينهم وبين عمان ، مسافة كبيرة ، وظروف ملحة جعلتهم لا يلقون بالا كبيرا لمثل هذه الاهانة . ولكن عليا ، الذي كان مركز قوته وعمله العسكري لا يبعد كثيرا عن هذه المنطقة المرتدة ، كان لديه متسع من الوقت مكنه من إرسال حملة عسكرية إلى حدود عمان ، وإذا كان علي لم ينجح في أن يفرض بقوة السيف ، الولاء الكامل لحقه ، سواء أكان سماويا أم نبويا ، فإنه أنزل بهذه البلاد أذى أكسبه جرعة مضاعفة من الكراهية لم ينسها الناس في عمان ، إلى يومنا هذا ، التي يحظى فيها اسم علي بأولوية الكراهية على اسم غريمه ، حتى يومنا هذا .

(١) مازال المؤلف مصراً على تصوير هذا الهراء وإضفاء الحقيقة عليه ، وهذا خطأ فادح ، ولا يوجد في كتب التاريخ ، ولا في أية رواية من الروايات أن عليا وعثمان تنازعا أمر الخلافة وتصارعا حولها وكما يقول أهل العلم إذا كنت ناقلا فالصحة ، وإذا كنت مدعيًا فالدليل وما أدعاه المؤلف لا أساس له من الصحة ، ولا دليل أو برهان عليه فهي دعوى ساقطة وهي من خيال المؤلف وحده ومن جملة أحقاده وسمومه التي يبثها على الإسلام والمسلمين - (د. حلمي عبد المنعم) .

وعلى كل حال ، فإن انتصارات بنى أمية ، وتأسيس الخلافة الدمشقية بعيدا عن بلدان الشرق الأقصى هذه ، حرر اليعاربة ومريديهم من على ومن تحرشاته . وتذكر حوليات التاريخ فى هذا البلد ، أن عمان شهدت عقب ذلك فترة من الهدوء الكبير . ويقال ، وهذا صحيح بدرجه كبيرة ، أن الأمم شأنها شأن العائلات ، تكون فى أسعد أحوالها عندما لا تعترض مسار تاريخها أحداث كثيرة . وإذا ما صدقت هذه المقولة على عمان ، فإننا ينبغى أن نقرر هنا أن أى جزء من العالم وذلك بدءا من خط طول ١° إلى خط طول ٣٦٠° ، لم ينعم بفترة السعادة التى نعمت بها عمان . وعلى امتداد ثمانية قرون ، لم تحدث حروب أو ثورات ، أن صد غزو أو محاولة غزو ، حتى نقول إن ذلك أدى إلى التمويه على صفحات عمان أن تلطيخها ، ونعمت البلاد بالهدوء ليس طوال أربعين عاما وإنما على امتداد عشرين ضعفا من هذا الرقم . وبعد أن اعتزل العمانيون إجراء المزيد من الاتصال مع العالم المحمدى (الإسلامى) الذى كثرت فيه المتاعب والاضطرابات ، وبعد أن ألغوا أيضا الذهاب إلى مكة للحج ، وبعد أن ألغوا الشريعة الإسلامية ، ظلوا بعيدين عن العالم الإسلامى ، أحرارا فى اتباع الشكل الحكومى والشكل الدينى الذى يروق لهم ، دون أن يصيبهم أى أذى أو إزعاج من جراء التدخل الأجنبى أو فرض المعتقدات عليهم(١) .

وثمة حادثة واحدة ، حقبة لا تنسى فى تاريخ الإسلام ، عاصفة واحدة أثارت غضب كل من حولهم ، هذه العاصفة هى التى أثارت الاضطراب فى سطح عمان الهادئ وغيرت حوليات تاريخها . لم يكن سكان جبل أخضر وسكان الباطنة غرباء على مناطق الاحساء المجاورة ، أو على اندلاع حركة الباطنية ، أو إن شئت فقل المذاهب السرية ، التى انتشرت على نطاق واسع فى الاحساء ، مع انها تبعث فى أساسها من عمان ، تلك المنطقة التى سادت فيها قبل وقت طويل تعاليم القطرى وأتباعه . ومن ثم ، فإن حركه القرامطة عندما هزت وزلزلت الجزيرة العربية ، لم تكن عمان بريئة تماما من التقلبات التى غمرت شبه الجزيرة العربية بالدم ، وجعلت من جبالها ملاذا كبيرا لقوات أبو سعيد الجنابى وابنه أبو طاهر سليمان سعيد الجنابى . وبعد أن تم إخضاع

(١) إن المؤلف هنا يتكلم عن الإسلام فى عمان وكأنه فصل من مسرحية هزلية ولم يكلف نفسه عناء التحقيق التاريخى لما يبثه من ترهات . ومن المعلوم أن النبى (ﷺ) قد أرسل بعد صلح الحديبية عمرو بن العاص بكتاب من النبى إلى جيفر وعبدا بنى الجلندى ، وكانا يحكمان عمان فأسلما وأسلم أهل عمان وكانوا من أحسن الناس إسلاما إلى يومنا هذا - (د. حلمى عبد المنعم) .

القرامطة ، بدأت عمان ترتجف خوفا من انتقام الطرف المنتصر ، ذلك الانتقام الذى نجوا منه بفضل قوة موقع بلادهم . ووجهت إليهم حملة بقيادة واحد من الخلفاء العباسيين (أنا لا أذكر اسمه) ، الذى قام بتدمير قرى قطر ، ومنطقة الشارقة إلى جبل عقدة ، الذى لم يستطع الغزاة أن يتخطونه .

وقد أوحت هذه العداوات من جانب الإسلام ، إلى العمانيين المنشقين ، بالتعجيل باتخاذ إجراءات جديدة ، واتخاذ شعار ، قبل كل شئ ، يكون بمثابة شعار شعبى فى زمن الحرب والخطر . وتحقيقا لهذا الهدف ، فإن رجال عمان ، شأنهم شأن الدروز فى الشرق الأدنى ، جعلوا العمامة البيضاء شعارا خاصا لهم ، ومن هذه العمامة اشتقوا الاسم "أباضية"[1] Abád.eeyah أو إن شئت فقل "بياضية" Biad.eeyah التى تعنى "الأولاد البيض" طبقا للترجمة الايرلندية ، وبذلك يمكن تمييز " البياضية " عن العمامة الخضراء التى يلبسها الفاطميون ، والعمامة السوداء التى يلبسها العباسيون . ومعروف أن لقب " البياضية " كان فى بدايته مقصورا على القرامطة فقط ، وسرعان ما بدأ يشيع بين سكان عمان كلهم ، بل ما يزال هذا اللقب مقصورا عليهم إلى يومنا هذا . والمقريزى يحدد أصلا آخر لهذا اللقب ، ويقول إن هذا الاسم تحريف لكلمة "البيضانية"، او إن شئت فقل اتباع بيدان Beydan ، ذلك المهرطق الفارسى الذى عاش فى القرن الثالث الهجرى . ولكن إذا أردنا تجنب الاعتبارات الأخرى ، التى من قبيل عدم وجود الدلائل التاريخية التى من قبيل أن ذلك البيدان لم يزر الجزيرة العربية قط ، وأنه لم يكن ذائع الصيت فى بلده فارس كى يطلق اسمه على ذلك المذهب، فإننا نقول : إن قوانين الاشتقاق فى اللغة العربية لا تسمح بالتسليم الذى أورده العلامة تاج الدين المقريزى فحرف "الدال" في كلمه بيدان Beydan الفارسية ، لا علاقة له ، كما انه يختلف تماما عن " الضاد " فى كلمة "بياضية" ، زد على ذلك أن حرف " النون " الأخير في كلمه " بيدان " Beydan أو فى كلمه بيضانية " لا يمكن تجاهله بمثل هذه السهولة . ومعروف أن أبحاث العرب في نطاق علم أصول الكلمات فى لغتهم لها وزنها تماما مثل الأبحاث التى قام بها المؤلفون اللاتينيون فى لغتهم ، بل إن الأبحاث العربية

(١) الإباضية هم إحدى فرق الخوارج وأجمعوا على القول بإمامة عبد الله بن أباض ، وربما كان اسم الإباضية راجع إلى إمامهم عبد الله بن أباض ، وافترقت الإباضية فيما بينها إلى أربع فرق وهى الحفصية ، والحارثية ، والزيدية ، وأصحاب طاعة لا يراد الله بها (راجع فى ذلك كتاب الفرق بين الفرق ص ٨٢ لعبد القادر البغدادى وغيره من كتب الملل والنحل للشهرستانى والفصل لابن حزم - (د. حلمى عبد المنعم) .

أقوى من الأبحاث اللاتينية، ولم يحدث قط أن تخلفت أوربا عن الشرق في هذا المجال ، بما في ذلك الفترة الراهنة .

وفي ظل التذكارات المتبقية عن العبادة السبئية ، وفي ظل أسس التفكير القرموطي الحر ، نجد أن البياضية ، شأنهم شأن الدروز ، والاسماعيلية ، والنصيرية ، والطوائف المشابهة الأخرى ، يمزجون مذاهبهم ببعض التعديلات المستقاة من الشريعة الاسلامية ، كي تمكنهم من التستر بها إذا ما اضطروا إلى ذلك ، أو لتكون لهم بمثابة شكل من أشكال الاعتذار في حال وجود المسلمين على أقل تقدير. "ومزارات"البياضية"، أو إن شئت فقل المباني التي يخصصونها للتوقير الديني ، تسد العجز في مسألة "المساجد" ، أو أن شئت فقل " الجوامع " العادية ، غير أن البياضية أنفسهم يندر أن يجتمعوا لأداء أي شكل محدد من أشكال العبادة ؛ وهم في صلاتهم يتمتمون بصوت خفيض غير مسموع ، وتكون هذه التمتمات مصحوبة بتغييرات في مقام الصوت وسجود مختلف عن الركوع والسجود في عقيدة محمد (ﷺ) . وكثير من البياضية ، يتجهون ، عند أداء صلواتهم ، صوب الشمال ، وآخرون منهم يوجهون وجوههم صوب اتجاهات أخرى غير عابئين تماما بالقبلة أو الكعبة . وأنا لا أستطيع أن أقطع بأن الاسم " ياح" Yah أو "ياحي" Yahee (فقد سمعت هذا الاسم يتردد مرة وذاك يتردد مرة أخرى) الذي لا يستعمله البياضية وحدهم ، كما يبدو لي ، أنهم يطلقونه على النجم القطبي ، وله علاقة بإيمانهم أو تعبدهم . يضاف إلى ذلك أنني لم أستطع التوصل إلى مغزى هذا الاسم أو دلالته أو حتى المصدر الذي اشتقه البياضيه منه ؛ وهذا الاسم يشيع استعماله في عمان ، كما يشيع استخدامه على جميع سواحل الخليج الفارسي التي يتردد عليها البحارة العمانيون . والنجم القطبي ، يحظى بين العرب في المناطق الأخرى بلقب " الجدى " أو إن شئت فقل : (ذكر)" العنزة " ؛ كما يطلق عليه ، في بعض الأماكن الأخرى اسم " المسمار " وذلك طبقا " لشكله الحقيقي ونوعيته المستقرة " وهو " لا نظير له في السماء" . وإذا كان العرب يطلقون على "فينوس" اسم "الزهراء" فإن البياضية يسمونها "فرقد " ؛ واسم "فرقد" هذا يطلق في بعض الأماكن الأخرى على نجم السِّماك الرامح Arcturus في مجموعة راعي الشاء Bootes الفلكية . والبياضية ، في بعض الأحيان ، يطلقون اسم " السِّماك " Semak على نجم من النجوم الساطعة في مجموعة العَيُّوق Capella الفلكية ، أو على اركتورس Areturus نفسه في أحيان أخرى ؛ والبياضية يطلقون صيغة المثنى "السِّماكان" على الجوزاء Gemini ،

أو قد يطلقون هذا الاسم على النجمين الكبيرين من كوكبة الدجاجة Cygnus ، وهذان الاسمان الأخيران من الأسماء الثابتة المستقرة ؛ والعرب لا يهتمون كثيرا بالدقة في استعمال الأسماء الفلكية شأنهم في ذلك شأن جميع الأشياء الأخرى .

وصيام البياضية السنوي يستمر شهرا ؛ وصيام البياضية أكثر صرامة من صيام أهل عقيدة محمد (ﷺ) ؛ فهم لا يأكلون أو يشربون إلا بعد ظهور النجوم والبياضية هنا يشبهون اليهود) ، وهم لا يتناولون سوى وجبة واحدة في الأربع والعشرين ساعة) . وقد أبلغني الرواة ، أن مدة الصيام تتحدد بناء على رغبة وإرادة الحاكم ، الذي يتمثل هنا في السلطة الدينية العليا ، والذي يطلق عليه الأوربيون اسم الإمام ، بطريق الخطأ . ومن بين مدن المملكة كلها ، هناك ثلاثة مدن فقط هي التي لها حق إقامة احتفالات الصلاة العامة ؛ والمدن الثلاثة هي العواصم الثلاث : صوحار ، ونزوى ، وباهلة ، ولكن مسقط ، التي ترجع أهميتها إلى عهد قريب نسبيا ، لا تدخل ضمن قائمه هذه المدن .

وتعدد الزوجات ، برغم كثرته في عمان ، يتخذ شكلا مختلفا عن شكل التعدد في الدول التي تعتنق العقيدة المحمدية ؛ إذ أن واحدة فقط من الجنس اللطيف هي التي تحمل لقب "الزوجة" الشرعي وهي أيضا التي تنعم بالحقوق المترتبة عليه؛ أما الباقيات، كثرن أم قللن ، فهن عبارة عن خلائل ومحظيات . يضاف إلى ذلك ، أن قوانين الميراث تختلف هنا عن أحكام المواريث الورادة في القرآن ؛ إذ يتساوى نصيب الأنثى بنصيب الذكر، وليس النصف كما هو وارد في القرآن . وفي مجال العلاقات المجتمعية أيضا ، فإن النساء تتساوى بالرجال في عمان وذلك على العكس من المناطق الأخرى ؛ يضاف إلى ذلك أن النساء هنا لا تلبسن الحجاب الإسلامي . وهذه ميزة حقيقية ، نظرا لأن جمال الإناث في عمان لا مثيل له في أنحاء الجزيرة العربية ، بل وربما في آسيا كلها ؛ وعلى كل حال ، فأنا لم أر قط بين أعراق الشرق الأخرى ، أشكالا بمثل هذه الرشاقة والجمال ، أو بمثل هذه الملامح المتناسقة والجميلة . ومن المؤكد أن الذين تعجبهم العيون السود الواسعة ، والحواجب الهلالية ، والشعر الحرير ، والقوام الممشوق ، والخصور النحيلة ، والسلوك والتحركات الفخمة ، يجدون منهن في عمان أعدادا أكبر بكثير ممن يوجد منهن في نجد ، أو في سوريا ، أو في مصر ، أو ، وأنا على يقين مما أقول ، في بلاد فارس أيضا . بل إن الرجال العمانيين أيضا ، برغم نحافتهم وبشرتهم الداكنة ،

تبدو عليهم الأناقة بشكل عام ، وملامحهم تنم عن الذكاء فضلا عن أن مشيتهم مفعمة بالحيوية والنشاط . ويجب أن أضيف هنا أن النبيذ يشربه الناس هنا بمنتهى الحرية وبلا أى قيود ، وبخاصة فى المدن الداخلية ؛ والكروم التى تنتج هذا النبيذ تزرع فى جبل أخضر .

ولو قدر لى أن أكون في ذلك الوقت ، على معرفة بتلك الملاحظات التى وردت عند المؤلفين المحمديين (الإسلاميين) الذين أشرت إليهم من قبل ، والتى أصبحت على علم تام بها بعد عودتى من رحلتى ، لكانت دهشتى أقل من تلك التساؤلات الكثيرة التى وجهها إلىّ العمانيون فيما يتعلق بأهرام مصر ، تلك الذكرى التى لا تزال سائدة فى عمان ، والتى استقوها من الأزمان السبئية القديمة . ولو استطعت أن أطيل مقامى قليلا ، واستفيد من الود الذى نشأ بينى وبين أهل هذا البلد هنا وهناك ، فلربما تعلمت شيئا مهما عن كتب ست Seth، أو عن الوثائق الأخرى التى لها مغزى دينى ومغزى شرعى . ولكن الأحداث هى التى جعلتنى أتعجل ، كما أنها هى التى حجمت وسائل حصولى على المعلومات ؛ زد على ذلك ، أن الحرص الذى يكمن داخل المتمردين على عقيدة محمد (ﷺ) فى هذا الجزء من الشرق ، هو الذى يجعل سكان عمان يرفضون أن يطلعوا أى شخص غريب على عقيدتهم وممارساتهم العقدية الحقيقية ؛ ولا يزال هؤلاء السكان أقل تحفظا فى ممارساتهم إلى أن يضعوا بين يدى الغريب دليلا مكتوبا عن كود أو نحلة تختلف عن القرآن . وهذا الشعور أقل تجليا بين بدو الأدغال ، وبين أولئك الذين تؤمنهم أوضاع بلدانهم الداخلية وفى المنطقة الوسطى ضد الزيارات المتكررة التى تستهدف القيام بالمزيد من التقصى والتحرى ؛ ولكن هذا الشعور يتجلى تماما هنا فى المناطق الساحلية التى تجذب ، هى والتجارة المستمرة ، إلى عمان كل يوم وكل ساعة ، بعضا من السنة ، والشيعة ، ومن الوهابيين ، وبعضا من أهل اليمن وأهل مكة أيضا . وفى ضوء كل ذلك ، هناك نوع من التشابه بين ما يفعله الناس هناك وبين ما يمارسه ويقول به أتباع عقيدة محمد (ﷺ) ؛ ومن هنا فإن البياضيه ، وهم خليط من السبئيين ، والباطنية ، والقرامطة ، وأتباع المُقَنَّع وأبو طاهر ، يتصرفون فى بعض الأحيان ، كما لو كانوا من أتباع محمد المتسامحين . ولكن من يحاول أن يتعرف هؤلاء الناس عن قرب يجدهم من الكفار ، بل انهم يعدون أبشع أنواع الكفار فى نظر جيرانهم الوهابيين ، وأهل السنة ، بل وحتى الشيعيين ؛ واعتبارا من هذه المنطقة إلى مدينة البصرة لا تجد واحدا من أتباع محمد (ﷺ) يقول أو يتحدث عن

البياضى أو العمانى إلا من منطلق انه "خارجى" أو إن شئت فقل " واحد خارج عن نطاق الإسلام وحدوده " ، ولفظ "خارجى" هو اللفظ الذى يدل على الازدراء والاحتقار لكل من يخرج عن عقيدة نبى الإسلام .

ونيبور Niebur ، الذى لم يزر سوى مسقط فقط عندما كان يجوب سواحل عمان ، والذى تشتمل روايته الأمينة والدقيقة على كثير من التفاصيل المهمة والدقيقة التى استقاها عن طريق الاستماع ، عن هذه المملكة ، التى كانت تعانى من قمع شديد فى ذلك الحين ، وقع نيبور فى خطأ عجيب فيما يتعلق بعادات البياضية وشخصيتهم . ويبدو من كتاب نيبور ، أنه بعد أن تعرف إلى بعض النجديين الذين كانوا يقيمون فى ميناء مسقط – نظرا لأن هذا الميناء يضم دائما عددا كبيرا من التجار وصغار الحرفيين الذين يأتون إلى مسقط من المناطق الداخلية فى ممتلكات ابن سعود ، أو من المناطق الساحلية التى تعتنق الدين الإسلامى ، يبدو أنه وقع فى ، وهذا شئ طبيعى فى ظل مقام نيبور الذى لم يدم طويلا فى هذه المدينة ، خطأ جعله يعزو قسوة السلوكيات الوهابية ، وامتناعهم عن التدخين ، ومداومة حضورهم الصلاة ، وبساطة ملبسهم ، أو إن شئت فقل كل الخصائص المميزة للمذهب الوهابى ، إلى السكان الوطنيين فى هذه البلاد ، وبذلك ينتهى إلى الحكم على البياضية بأنهم ليسوا مسلمين ملتزمين وإنما هم أيضا زهّاد متحمسون . والواقع ، أنه فيما يتعلق بالتبغ (الدخان) فإن كل شعوب الدنيا تقريبا ، ولا يستثنى من ذلك أتراك استامبول ، تستهلك كميات جنونية من هذه المادة أكثر مما يستهلكه أهل عمان المستقيمين ؛ بل إن سكان عمان قد يستهلكون كمية أكبر ، من منظور أن التبغ منتج ثابت ومستقر من المنتجات العمانية ، من حيث الاستهلاك المحلى والتصدير ، علاوة على جودة نوعيته ورخص ثمنه . أما فيما يتعلق بالصلاة : فواقع الأمر أن مسقط يوجد بها ثلاثة أو أربعة مساجد مخصصة للعبادة المحمدية (الاسلامية) ، ويرتادها المسلمون ؛ ويجرى فى هذه المساجد إقامة الصلاة والمداومة عليها بصورة منتظمة ، وبخاصة من قبل النجديين ، ولكن من الصعوبة بمكان أن نجد بياضيا واحدا فى أى من هذه المساجد أو فى أى مسجد آخر ، والبياضية هم أهل مسقط الحقيقيين ، وليسوا الأجانب الذين يداومون على الصلاة خمس مرات فى اليوم . أخيرا ، وفيما يتعلق ببساطة الثياب ، وتحاشى التباهى بالزينات ، فأنا أخشى ألا يجد العمانيون زعما أفضل من ذلك الذى ورد ضمن توصيات نيبور ، والذى يقول فيه إن ملابس العمانيين المزينة أفضل من ملابس سكان فيينا وباريس ؛ وسوف يقف القارئ بنفسه على ذلك بعد صفحات قليلة .

ويبدو من رواية نيبور ، انه هو ورفاقه ، كانوا يرتدون الثياب التركية ، وكانوا يدعون أنهم جاءوا من القسطنطنية . وهذا التصرف كفيل بأن يضمن للرحالة أن يجد العقيدة المحمدية في كل مكان ، حتى بين أولئك الذين يعادونها في واقع الأمر . وفي الوقت الراهن فإن المواطن التركي ، أو أي مواطن آخر يعمل عميلا للحكومة التركية يلتقي في أغلب الأحيان اعتناقا مظهريا فرضيا للإسلام في المناطق التي تكاد تكون مقصورة تماما على الدروز ، والإسماعيلية ، وما شابههما ، بل إنه قد يجد ذلك الاعتناق الظاهري المرضي بين السكان المسيحيين في المدن الداخلية . كان هذا هو الحال السائد في منتصف القرن الماضي، أي في الفترة التي قام خلالها نيبور برحلته أي في الفترة التي كان الاسم التركي له تأثير أبلغ وأقوى مما هو عليه الآن . ومعروف أن النفاق إنما يكون نتيجة حتمية من نتائج التعصب في الحكومات ، وأن هذا النفاق يظل مصاحبا لسلوكيات الأعراق الرعايا، حتى بعد أن تزول أسبابه الحقيقية والخاصة. ولكن دعونا نعود مرة أخرى إلى نيبور : لابد أن يكون نيبور قد وقع في شراك مستوطنة نجدية حقيقية في مسقط، وربما كانت هذه المستوطنة وهابية خالصة ، وكانت لا تزال في بداية نشأتها ؛ وأن هذا الرحالة الألماني العظيم ، ربما يكون قد اعتبر هؤلاء النجديين أنفسهم ، والذين رآهم في زيارته العابرة ، مجرد عينة لشعب لا يشترك معهم في أي شئ سوى محل الاقامه والكراهية المتبادلة . وأنا لا أقول ذلك استهدافا للإساءة إلى نيبور ؛ نظرا لأن الظروف لم تسمح له باكتشاف خطأ محتمل تماما ، وقع فيه أناس كثيرون آخرون غيره .

وهناك علاقة سرية وحميمة ، واتصال قائم واسع الانتشار بين الباطنية (وأنا أظن أن القارئ أصبح على علم بدلالة هذا المصطلح) في كل من الاحساء وعمان؛ ومعروف أن الباطنية في الاحساء تفرعت عن باطنية عمان . ويمكننا الوقوف على ميول واتجاهات هذا التنظيم الماكر المخادع ، وأولئك الذين يقومون على أمره ، وعدائهم اللدود للإسلام ، ومعارضتهم الشديدة للإسلام ، وبخاصة في شكله الوهابي ، كل ذلك يمكن الوقوف عليه ، إلى حد ما ، فيما سبق أن أوردناه عن هذا التنظيم .

وفيما يتعلق بالشجاعة والتشبث بالهدف فإن أهل عمان لا يقلون في ذلك عن أفراد العرق العربي ؛ كما أن سكان جبل أخضر وجيلان يشتهرون بشجاعتهم العسكرية بصفة خاصة . ولكن التجارة والزراعة تشكل عندهم جاذبية خاصة بحيث

لا تسمح لهم بأن يبددوا هباء ، مثلما يبدد النجديون طاقتهم في الحرب والسلب والنهب .
ومن واقع خبرتي وتجربتي فإن أهل عمان من حيث الميول هم أحسن أفراد العرق العربي طبعا ، وأكثرهم كرما ، بل إنهم أكثرهم أنسا . والتسامح المحدود في أوربا مطلق هنا مع جميع الأعراق والأديان ، ومع جميع التقاليد والأعراف ، فاليهود والمسيحيون ، وأتباع محمد (ﷺ) ، والهندوس ، كلهم هنا يعبدون الله بطريقتهم الخاصة ، ويلبسون ما يفضلون ، ويتزوجون ويرثون بلا أية قيود ، ويدفنون أو يحرقون موتاهم بالصورة التي يرسمها لهم خيالهم ؛ إذ لا تجد من يتساءل عن هذا أو ذاك ، أو يتحرش أو يزعج ، أو يقف عقبة أمام أحد . وإذا كان الوهابيون يستثنون ، في بعض الأحيان ، من ذلك الصبر وهذا التَّجمُّل ، الذي ينظرون إليه من منطلق الاستياء الفعلي والحقيقي ، ويحاولون إحباطه بأفعالهم وتصرفاتهم ، بل أنهم يلعنون هذا الصبر والتجمل ويقتلونه كلما سنحت الظروف لهم بذلك ، فإنهم يتعين عليهم أن يعزو هذه المعاملة إلى روح التعدي على الحرمات المتأصلة فيهم ، وإلى أساليب السيطرة والغطرسة التي يتبعونها . إن هؤلاء النجديين أعداء سافرون للدولة ، وبالتالي لن يكون لهم حق الجأر بالشكوى إذا ما عاملهم الآخرون من هذا المنطلق .

وعمان ، في المقام الأول ، بلاد التسلية واللهو ، والرقص والغناء ، والاستعراض والحياة الحلوة . وعلى كل حال ، فإن ذلك له جانب مظلم فيما يتعلق بالتراخي الخلقي ، الذي يشارك فيه أيضا جمال النساء العمانيات وخفة ظل رجالها . زد على ذلك أن التشدد فيما يتصل بالفضيلة العذرية أو الوعد بالزواج لا يعد ملمحا أساسيا في عمان . ومن بين الوصمات التي توصم بها عمان أيضا ، وصمة انتشار الفن الأسود (السحر) سواء أكان حقيقة أم ادعاء ، والإيمان إيمانا خرافيا بالسحر ، أو إن شئت فقل الشعوذة ليس إلا ، ومع ذلك فالناس يعتقدون فيها ويمارسونها علانية . وهذا بحد ذاته عرض أو مظهر سيئ . والسبب في ذلك ، أن هذه الممارسات هي التي دفعت الآخرين أن يطلقوا على عمان ذلك الاسم الشائن المدوي " بلاد السحرة " والأجانب هم الذين يطلقون هذا الاسم على عمان؛ وإن كان البعض يفسرون ذلك على أنه نوع من التحوط، الذي يلجأ إليه السحرة العمانيون ليواجهوا به ، الأسحار التي تفد إلى شواطئ بلادهم من حين لآخر ، برغم أن هذا الزعم خال من الاستقامة والحكمة . وليكن هذا السحر ما يكون ، وبغض النظر عما هو عليه ، فهو يمنع كثيرا من النجديين من المخاطرة بالسفر إلى عمان تخوفا من أن تمسخهم عيون امرأة شابة، أو العصا السحرية لامرأة عجوز ،

إلى شياه محبة أو أحياء مرتبكين حائرين . وهناك قصص الرجال " المترجمة " ، التى تمسخ ، بمقتضى عملية السحر هذه ، " الحيوان إلى إنسان " إن صح ما يقوله فولستاف Falstaff : "وتمسخ الرجل إلى حيوان فى أحيان أخرى" ، وهناك أيضا الروايات المخيفة التى تتردد عن سحرة غير منظورين ، وعن عمليات مسخ تحدث عن طريق السحر ، وعن أنواع من الشراب ، السحرى تفوق تلك التى ورد ذكرها فى ألف ليلة" أو فى " قصص جريم " Grimm ، كل هذه الأشياء تنتشر فى هذه البلاد ؛ ولو قدر لـ - أوفيد ، ذلك الشاعر اللاتينى العظيم ، أن يعاصر تلك الفترة فلربما أضاف اثنى عشر كتابا آخر إلى مؤلفه الكبير الذى أطلق عليه اسم " الأنمساخات " Metamor Phoses ، مستقيا مادة تلك الكتب الجديدة من سجلات عمان التاريخية وحدها .

ولكن الناس يعزون قوى أكبر وأفظع من تلك القوى التى تحول الإنسان إلى شاه ، أو التى تمسخه إلى حمار جسدا وعقلا ، لا إلى عجائز عمان من النساء فقط ، وإنما يعزونها أيضا إلى حواة وسحرة رجال ، يقال إنهم من أخطر من يمارسون هذا الفن الأسود . وقد استمعت إلى كثير من هذه القصص التى كان أصحابها يروونها بصوت خفيض ينم عن اقتناع مخيف ؛ ومع ذلك ، فأنا أخشى ، أن يظن القراء أن المكان المناسب لمثل هذه القصص والروايات هو كتاب كروكر المعنون " أساطير الجن "، بدلا من إدراجها ضمن رحلة جادة قام بها صاحبها فى القرن التاسع عشر. ومع كل ذلك ، فإن هذه الروايات توضح تماما عقيدة واتجاهات عادات وسلوكيات تلك الأمم التى تضفى على هذه القصص وتلك الروايات " طابعا محليا واسما محليا أيضا " . وسوف أورد هنا ، على سبيل الحادث العارض ، رواية من تلك الروايات بلغت غرابتها الذاتية ، وغرابة الظروف المصاحبة لها مبلغا يضفى عليها شكلا من أشكال الأصالة التى لا يمكن اكتسابها فى أمور أخرى مشابهة . ويزعم من يروون هذه القصة ، أنهم كانوا ، أو قيل إنهم كانوا ، موجودين أثناء التحقيق القانونى ، الذى سوف أورده فى سياق الرواية ذاتها .

حدد راوى القصة مسرح أحداثها بحوالى أربعة عشر عاما مضت ، وبالتحديد خلال حكم السلطان سعيد ، ملك عمان ، الذى اشتهر بنجاحه الكبير فى السلاح ، وفى مهارة الحكم ، وفى ذلك التاريخ ، كان تاجر شاب ، من مواطنى مدينة مسقط ، والذى كان قد تزوج مؤخرا من فتاة جميلة من المدينة نفسها ، كان قد أبحر على ظهر إحدى السفن فى مهمة تجارية فى ساحل زنجبار . وبعد رحلة بحرية موفقة وصل ، ذلك

الشاب ، إلى السوق الذى كان يقصده ، وبقى فى ساحل زنجبار ثلاثة أو أربعة أشهر ، يبيع بضاعته ، ويشترى حمولة جديدة يعود بها إلى بلده .

وذات مساء ، وعندما كان ذلك التاجر الشاب يقيم فى قرية تقع على الساحل الإفريقى الرئيسى المقابل لساحل زنجبار، كان يجلس فى أحد الأيام على سطح منزله، وكان إلى جواره أحد معارفه ، الذى تعرف عليه فى هذا البلد ، وكان عمانيا أيضا ، ولكنه كان من مواطنى باهلة ، وإنه كان يقيم منذ زمن فى منطقة صواحيل S.owah.il ، التى أطلق العرب عليها هذا الاسم دونا عن سائر الساحل الأفريقى . وقد جمعت المصادفة بين هذين الشابين ، يضاف إلى ذلك أن أُخُوَّة العرق فى البلد الأجنبى أدت بطبيعة الحال إلى قدر معين من الحميمية بين هذين الرجلين . كانت الشمس قد غربت بالفعل ، وكان الصديقان فى شرفة المنزل يدخنان غليونيهما فى متعة هادئة ، وفجأة لاحظ التاجر الشاب تعبيرا خطيرا وغريبا على وجه رفيقه ، وسأله عن سبب ذلك التعبير . ورد عليه الساحر ، لأن هذه كانت طبيعته ، قائلا :" لو رأيت ذلك الذى أراه أنا حاليا ، لبدوت أكثر منى تجهما " . وكان من الطبيعى أن يعقب ذلك الرد مزيداً من التساؤل ، الذى أعقبه الساحر الباهلى ، بشئ من التردد : تخوفا من الأخبار السيئة التى سيذيعها ، ثم قال :" لقد شاهدت فاسقا " ثم سماه بالاسم من بين فسقة مسقط ، " وهو يدخل منزلك فى هذه الساعة ، وعلى وجه التحديد فى الوقت الذى لا يوجد فى المنزل أحد سوى زوجتك ، التى رحبت بزيارته ترحيبا حارا " .

وهنا جاء دور التاجر الشاب المتزوج كى يبدو أكثر تجهما . وبشدة طلب أوثللو Othello من إياجو Iago ، وهو يطبق على حلقه بيده ، ذلك " الدليل العينى " ، الذى يؤكد له هذه الخيانة ، وهنا حصل التاجر من الساحر على سرد دقيق على كل ما سيدور بين زوجته المجرمة وعشيقها . ويصمت الساحر لحظة ، ثم يحملق فى الفضاء ويقول :" انهما يجلسان الآن وقد تشابكت أيديهما ويتبادلان كلام الحب ؛ " ثم استطرد الساحر ليصف بعد ذلك ، مشهدا من قبيل تلك المشاهد التى يتركها دانتى Dante لخيال القراء ، وذلك عندما كان يروى عملا غير شرعى على لسان فرانسيسكاريمينى " . إنها حكاية قديمة حكاها الناس مرارا " .

ويصل استياء الزوج المصاب إلى ذروته . ويتعجب متسائلا :" ليس هناك من وسيلة لإحباط ، أو للثأر ، على أقل تقدير من هذه الجريمة ؟" ويرد الساحر على الفقرة

الأخيرة من السؤال أن لديه بالفعل الوسائل الفعالة التي تحقق هذا الهدف ، وأنه سوف يستعملها . وهنا يقول له التاجر الشاب :" افعل ذلك إذن " . ويرد الساحر عليه قائلا :" ليس بهذه السرعة " لابد أولا من استبعاد النتائج السيئة التي قد تصيبنا من جراء ذلك " . وهنا اقتاد الساحر الزوج ليوقع ، في الحال ، وثيقة تخول لصديقه ، الساحر الباهلي ، سلطة الثأر من الزوجة الزانية هي وعشيقها . وسرعان ما يوقع الزوج تلك الوثيقة ، ويؤرخها ، ويوقعها ، ويضع عليها خاتمه . ويردف الساحر قائلا : "نادى كل أفراد الأسرة التي تسكن في هذا المنزل ، ودعهم يوقعون ويختمون على هذه الشهادة الأصلية ، وسوف أقوم بالتوقيع عليها بعد ذلك ، وعلى الفور" . وأجاب التاجر الشاب الساحر إلى طلبه ؛ والى هنا كان الليل قد أرخى سدوله ، وكانت الجماعة كلها تجلس ، في صمت على سطح المنزل تحت سماء نصف الكرة الجنوبي التي تسطع فيها النجوم ؛ وكانت الوثيقة الممهورة والموقعة في وسطهم . وهنا نادى المواطن القادم من باهلة ذلك المواطن القادم من مسقط قائلا : " ناولني خنجرك " . وهنا تناول الرجل المسقطي خنجره المعقوف ذو المقبض الفضي ، الذي كان معلقا في وسطه ، ويلبسه العمانيون الأحرار ، ثم أعطاه لذلك الساحر الباهلي . ويأخذ الباهلي الخنجر ، ويوجهه صوب الشمال ، وبعد أن يتمتم ببضع كلمات قليلة ، يطعن الهواء بالخنجر مرتين . ويردف الباهلي ، بعد ذلك قائلا للزوج الذي كان يطيل النظر إليه : " نم قرير العين ، الآن ؛ فقد أخذت بثأرك الآن ، إذ مات المجرمان " .

وغادر التاجر زنجبار خلال فترة وجيزة عائدا إلى مسقط . وبعد أن نزلت قدماه على أرض مسقط أبلغوه أن أخاه الوحيد قد أُدخل السجن ، وأنه ما يزال موجودا في السجن ، بسبب الاشتباه في قيامه باغتيال أحد الأفراد . وأبلغني الرجل أن هذا الشقيق قال لأخيه :" إن زوجتك مع فلان الفلاني " (وذكر اسم الشخص الذي اتهمه الساحر في زنجبار) " وُجِدَا مقتولين في غرفة النوم في منزلك ذات صباح ؛ إذ أن خنجرا قد اخترق جسد كل منهما من ناحية الجنب . ولم يتمكن أحد من العثور على القاتل أو السلاح ؛ ولكن نظرا لأن أخيك هو أكثر الناس احتمالا لارتكاب مثل هذا العمل ، فقد ألقى القبض عليه ويجرى استجوابه أمام القضاة . ولم يتوصل القضاة إلى شئ يدين أخاك ؛ وعلى كل حال ، فقد رأت الحكومة احتجازه لحين وصولك ، وان التحقيق في هذا الأمر قد يبدأ من جديد " .

وذهب التاجر على الفور إلى السلطات المدنية وروى لهم حكايته . وبدت هذه الحكاية لي غريبة على نحو لا يمكن تصديقه ؛ وأحيلت هذه الحكاية من محكمة إلى أخرى ، إلى أن أعلن السلطان سعيد أنه يحتفظ لنفسه شخصيا بالبت في هذه القضية .

وأصدر السلطان أوامره بإحضار التاجر وشقيقه إلى مدينه نزوة ، مقر إقامته المعتاد ، واحتجزهما في ظل معاملة طيبة ، على ألا يغادر المدينة . ثم أرسل بعد ذلك رسالة إلى زنجبار ، مؤداها أن كل أولئك الذين وقعوا على الوثيقة أو الذين شهدوا التجمع على سطح المنزل ، لابد من إرسالهم إلى عمان على وجه السرعة . وفي الوقت نفسه تم إحضار الأطراف كلها إلى مدينه نزوة - رب البيت الأفريقي ، أسرته ، وكذلك الساحر . وأمر السلطان بعقد جلسة محاكمه علنية ؛ وأحضرت الوثيقة ؛ وأقر جميع الحاضرين بتوقيعاتهم وصحتها ، وأكد التحقيق صدق أقوال التاجر . وهنا أعلن السلطان سعيد أنه غير قادر على تحديد توجيه قرار الاتهام أو العقاب الذي يمكن توقيعه في مثل هذه الحالة ، وهنا أفرج السلطان سعيد عمن جاءوا من مسقط ومن جاءوا من زنجبار ، بعد أن أعطاهم تعويضا ماليا طيبا عن وقتهم الضائع وعن المتاعب التي سببها لهم . ولكنه نصح الساحر نصيحة مشددة بأن يحرص من الآن فصاعدا وهو يستعمل قواه الخارقة للطبيعة ، وهي الوصية التي جرى تمريرها ، على وجه السرعة ، بعد ذلك إلى كل السحرة والحواة والمشعوذين العمانيين . وإذا كان السلطان سعيد لم يفعل أكثر من ذلك ، فإن الشائعات الشعبية تعزو امتناعه عن ذلك إلى سبب خاص ؛ هو أن زوجته هو شخصيا ، أم السلطان الحالي ، كانت رئيسة للساحرات العربيات ، وأنها كانت تشرف وتحضر اجتماعات العرافة والكهانة والسحر والشعوذة الخاصة بالقطط السوداء ، وعصي المكانس ، وإناث الماعز وغلايات السحرة[1] .

وإلى هنا نتوقف عن الكلام عن السحرة العمانيين وعن أفعالهم . ولكن المصدر الذي استقى العمانيون منه هذه العلوم الغامضة يستحق منا أن نقول شيئا عنه ،

(١) لقد حارب الإسلام السحر والكهانة والشعوذة بكل صورها . وجاء في الحديث النبوي (من أتى عرافا أو كاهنا فصدقه بما قال فقد كفر بما أنزل على محمد) وفي رواية أخرى (لم يُقبل له صلاة أربعين ليلة) وحرّم جمهور العلماء السحر وحرّموا تعلمه ، وحكموا على الساحر الذي يستعين على سحره بالشياطين حكموا عليه بالكفر بالإجماع والساحر الذي يضر الآخرين سحره يهدر دمه ويجب قتله . وبهذا حمى الإسلام الأمة من كل عبث أو خلل بها - (د. حلمي عبد المنعم) .

لا من قبيل أهمية ذلك للموضوع الذى نحن بصدده هنا ، وإنما بسبب مصادفة هذا العمل لبعض الظروف المماثلة ، التى تكاد تجعلنا نصل إلى مرحلة التعميم . هذا المصدر يتمثل فى السكان العبيد ، الذين جرى جلبهم إلى هنا من كل أنحاء أفريقيا . وقد سبق أن تعرضت لتجارة الرقيق التى كانت تجرى بين سواحل أفريقيا الشرقية والموانى العمانية . وأنا هنا لن أدخل فى تفاصيل هذه التجارة ، ولا فى وسائل الإبقاء عليها ؛ كما لن أصف سفن تجارة الرقيق العمانية أو حمولاتها ؛ برغم أن تجارة الرقيق (وأنا أقول ذلك مواساة وعزاء لأولئك المعادين للعبودية – أو إن شئت ، فقل : إن ذلك مواساة للجميع) من بدايتها إلى منتهاها ، وبالطريقة التى تجرى ممارستها بها منذ قديم الأزل ، لا علاقة بينها وبين النظام الجُنَّهمى ، الذى يقوم على القسوة والغطرسة فى نصف الكرة الغربى ، الذى أوشك على الانتهاء بفضل من الله . والموضوع الذى أتناوله هنا هو السكان السود بالشكل الذى هو عليه، بعد أن استقر هؤلاء السكان فى عمان ، والتأثير الذى يحدثه هؤلاء السكان فى ذلك الجزء من الجزيرة العربية ، ذلك التأثير الذى يعجز عن فهمه هؤلاء الأنجلو – سكسونيين المتفرقين ، ولكنه واسع الانتشار بين السكان القحطانيين الذين يسهل التأثير عليهم . وأنا أقول هنا القحطانيين ، ولا أقول العرب ، وذلك على سبيل المقابلة بين أعراق الشمال وأعراق الوسط ، وكلاهما لديه خليط من الألياف الحديدية التى تجعل الأوربى ، وبخاصة السكسونى يعمل Machine (إذا جاز لى أن أفترض عبارة هاملت) بعيدا تماما عن التأثيرات الخارجية . ومن هنا فإن الزنوج ، مهما بلغ عددهم ، بين عرب شومر ، أو بين عرب نجد ، ليس لهم ثقل فى ميزان العادات أو المشاعر الوطنية شأنهم فى ذلك شأن غيرهم من العبيد عندما يكونون فى نورفولك Norfolk أو فى يوركشير Yorkshise . ولكن الحال فى عمان مختلف تماما .

وإذا ما قلنا أنه يجرى كل عام فى عمان استيراد ألف من الزنوج ما بين رجل وامرأه وطفل ، فإن ذلك الرقم سيكون أقل بكثير من الرقم الشائع فى هذه البلاد نفسها . ومن بين كل هؤلاء الزنوج الذين "يُسْحَبُون قسرا من أوطانهم ، وينتزعون من كل مباهجها" أو قد نقول بدلا من ذلك ، إنهم ينتزعون من حياة لا تناسب سوى الخنازير البرية والنمور التى تحيا فى الغابات ، إلى حياة تشبه حياة الآدميين إلى حد ما – لا يتبقى منهم سوى نصفهم أو ثلثيهم كما يقول البعض ، كى يقضوا ما تبقى لهم من حياة داخل حدود عمان والمناطق المجاورة لها . يضاف إلى ذلك ، أن الغالبية العظمى من هؤلاء ، أو بالأحرى كل أولئك الذين لا يموتون فى مطلع شبابهم

(وهذا أمر نادر الحدوث في ظل مناخ صحي من هذا القبيل ، وفي ظل وجود أسياد احتمال القتل من فرط الإحسان عندهم أقرب من العكس) ، يحصلون على حريتهم إن آجلا أم عاجلا ، وبذلك يضيفون عنصرا جديدا يختلط اختلاطا حرا مع السكان الأصليين أو إن شئت فقل : السكان البيض . ومع أن الزنجي قد يكشف وهو ينفذ أوامر سيده ، عن كثير من الصفات الحسنة ، وتصبح له أهمية خاصة ، فإنه يندر أن يتكيف مع أي مركز في المجتمع باستثناء المراكز المتدنية مقاما وفكرا . من هنا ، فإن السود الذين يتحررون يعملون خدما في معظم الأحيان ، وسقّائين ، وبستانيين ، وفلاحين ، وبحّارة ، وغطاسين ، وما إلى ذلك من هذه الحرف ؛ وبرغم كبر عدد هؤلاء العبيد ، الذي يقدر بحوالي ربع عدد السكان تقريبا ، فإنهم لا يضيفون شيئا إلى مسألة الثقافة والتقدم الاجتماعيين . وهؤلاء الزنوج يتفوقون بشكل قاطع في مجالين فقط ، ولكن هذا التفوق له مغزى سيئ ؛ وأول هذين المجالين هو مجال الخرافات ، والمجال الثاني هو الانحلال . والزنوج بحكم أنهم كانوا فتشيين[1] في بلادهم ، يظلون على حالهم هذا في البلاد العربية ؛ وهم يضيفون إلى الفتشية كل مصاحباتها الليبية من الشعوذة ، والسحر ، والعزائم ، واستعمال السموم ، وما إلى ذلك من الأشياء الأخرى ، إلى حد أن هذه الممارسات المشينة انتقلت إلى المجتمع الأبيض وشاعت بينه إلى حد ما ، يضاف إلى ذلك ، أن المدرسين ذوي البشرة الداكنة أصبح تلاميذهم من البيض يتساوون معهم أو يتفوقون عليهم . وخلاصة القول : إن انتشار الخرافات المحلية والمشينة على نطاق واسع ، والتلاعب بالآثار الكونية الضارة والمؤذية ، أيًّا كانت هذه الآثار ، فتشية الأشجار ، وفتشية الحيوان ، والزواحف ، وما لا يعلمه إلا الله -أو باختصار السحر بكل أنواعه وأشكاله ، إنما يعزوه السواد الأعظم من العمانيين (وهذا منطقي تماما) إلى تدفق السكان الزنوج على البلاد، والعدوى التي تنتقل منهم إلى السكان الأصليين . ومع ذلك فإن الإشارات التي وردت عند بعض المؤلفين الإسلاميين ربما تقودنا إلى أن نتصور أن بعضا من ذلك الضلال والإفساد والتحريف والانحراف إنما يرجع ، في حقيقة الأمر ، إلى ذلك النمو القطري الذي طرأ على شرقي شبه الجزيرة العربية ، وأن هذا الإفساد كان موجودا قبل جلب الزنوج الأفارقة ومستقلا عنهم ، برغم زيادته وتعمقه بعد جلب الزنوج .

(١) الفتش : شئ كانت الشعوب البدائية تعتبر أن له قدرة سحرية على حماية صاحبه أو مساعدته - (المترجم) .

والمجال الثانى ، أو إن شئت فقل الانحلال ، لن يدهش أحدا ممن يفهمون ميل السكان العبيد إلى تشجيع انتشار الرذائل الكبرى بين أسيادهم ، فضلا عن العواطف الحية القوية الموجودة في العرق الأفريقي . والمستوى الأخلاقى المتدنى والذى تسوء سمعته فى الولايات الجنوبية من الاتحاد الأمريكى أصدق مثال على ذلك ، فى نظر المراقبين الأوربيين ، وهو يوفر عليّ مشاكل الدخول فى سرد المزيد من التفاصيل عن هذا الموضوع السيئ تماما .

ولدينا الكثير الذى نود أن نقوله عن الخصائص الطبيعية لهذه البلاد وعن إنتاجها ، وهذا موضوع واسع ومليئ بتشكيلة متنوعة من المعلومات ؛ وسوف أوضح هذه الخصائص توضيحا تاما فى ثنايا هذا السرد . ولكن قبل أن أعود إلى استئناف خيط تسلسل الأحداث ، فإننى سوف أثقل قليلا على صبر القارئ ، بان أضع أمامه مخططا مختصرا عن تاريخ هذه المملكة السياسي وعن أحوالها : لأن حذف مثل هذا المخطط سوف يجعل قدرا كبير مما سأورده غير مفهوم بل وغير مفيد أيضا . والترحال ، سواء أكان عن طريق الخيول والجمال ، أو عن طريق كتاب يقرؤه القارئ وهو يجلس إلى جوار المدفأة ، يصبح بلا فائدة فى غياب تاريخ وحكومة البلاد التى يتجول القارئ خلالها . من هنا فإن البحارة الذين يشاهدون الدنيا كلها لا يعرفون شيئا ، وإذا جاز لى أن أستعير التشبيه الذى ورد عند أحد الكتاب الخاملين ، أقول : إن مثل هؤلاء البحارة يكونون مثل أولئك الذين ينظرون إلى الوجه الخطأ من القماش المطرز – الذى يشاهدون عليه كل العقد ، والعيوب وارتباك الألوان ، الذى ليس له مغزى أو معنى .

بعد فترة طويلة تقرب من ثمانمائة عام ، نشأت خلالها بعض الحركات بين القبائل البدوية ذات الصلة بـ – عمان ، نجد أن التاريخ العمانى لا يسجل سوى عدد قليل من الأحداث غير المهمة ذات طابع فردى أكثر منه طابع قومى ، وقدر معين من الجرائم التى ترتبت على التمرد الذى أعلنه القرامطة فى منطقة الاحساء ؛ وقد وضعت الاكتشافات البرتغالية ، وأعمال البوكيرك Albuquerque ، وغزو هرمز ، ثم غزو مسقط بعد ذلك ، مملكة عمان على مسرح التاريخ العام . ويبدو أن عمان لم تستول خلال الفترة السابقة ، على أى من تلك الممتلكات الاجنبية التى تضفى على عمان نصف أو كل الأهمية التى تتمتع بها حاليا ؛ إذ ما تزال بلاد فارس تحتفظ بساحلها وخليجها ، كما امتد حكم القرامطة فى القطيف إلى رأس مسندم؛ فى حين أن أفريقيا ، وزنجبار ،

وسوقطرة ، كانت تعرف العمانيين، في القرن السادس عشر ، على أنهم تجار بسطاء ، وربما كانوا يعملون في تجارة الرقيق . ويبدو أن الحكومة ، داخل البلاد ، كانت تحتفظ بشكلها الأساسي ، الذي كان على شكل اتحاد إجمالي أكثر منه ملكية مطلقة ، كان اليعاربة يحتلون فيـــه المركز الأول واللقب الملكي ، كما هو الحال بالنسبة لأســـرة سعيد حاليا .

ولكن ذلك كله تغير مع حدوث الغزو البرتغالي . لقد جاء الغزو البرتغالي بمثابة إيذان بسلسلة طويلة من الغزوات والحروب البحرية والبرية ، التي شارك فيها البدو وشاركت فيها كل من البرتغال ، وهولنده ، وبلاد فارس ، وحصلت كل منها على مزايا مؤقتة ، في حين أن أيا منها لم تجن أرباحا موثوقة . فقد كانت عمان ، هي وجزرها وسواحلها ، في بدايه الأمر ، مسرحا سلبيا للصراع الأجنبي ، إلى أن صحت على مشاهد الخـــراب والدمار الذي أصابهـــا ، وتحـولت هي الأخرى إلى دولة محاربة ، مما ساعدها على اكتشاف قوتها ، وجعلها تحول خسائرها إلى مكاسب دائمة .

كانت عمان في القرنين السادس عشر والسابع عشر، تبدو وكأنها ضاعت تماما . فقد استولى البرتغاليون على مسقط ، مع بعض النقاط المهمة الأخرى على الساحل . كما استولى البرتغاليون أيضا على هرمز ، مع الجزر الأخرى التابعة لها ؛ وقام الأسطول البرتغالي ، الذي كان سيد البحار في ذلك الحين ، بتدمير التجارة وقطع المواصلات مع شرقي الجزيرة العربية . ثم ظهر الهولنديون بعد البرتغاليين ، وقد كانوا بالطبع أعداءً للبرتغاليين ، كما كانوا أعداء أيضا للسلطان والقوى الوطنية ، وبذلك يكونون قد أضافوا عدوا جديدا ، عندما قاموا بإفشال خطط العدو القديم . أخيرا ، فقد استفاد الفرس من العداء الذي نشب بين الأوروبيين ، وأعادوا من جديد ، ترسيخ أقدامهم في هرمز ، التي نزلوا منها إلى عمان ، التي كانوا يعتبرون أهلها رعايا من رعاياهم ، وراحو يستبدون بهم مثل الأجانب .

والجميع يعرفون الأحداث الرئيسية التي وقعت خلال ذلك الصراع الذي دام فترة طويلة . فقد تم في النهاية ، بعد صراع على الممتلكات دام إلى قرن ونصف القرن من الزمان ، طرد البرتغاليين تماما وإلى الأبد من شواطئ عمان والخليج الفارسي ؛ وغنم الهولنديون ، قلاعا ، ومحطات ، وجزرا ثم خسروا ذلك كله بعد ذلك ؛ في حين استطاع سعيد ، حاكم صوحار ، بشجاعته وحنكته ، أن يطرد الفرس من الأرض الرئيسية ،

ووضع على رأسه تاج الملك . وقد سجل كثير من مؤرخى الشرق هذه الأحداث وجسدوها فى مدوناتهم ورواياتهم . وتعد مدونة نيبور وروايته واحدة من أوضح وأفضل تلك المدونات ، برغم أنها تعد مقتضبة إلى حد ما ؛ يضاف إلى ذلك أن المؤلفين الفرنسيين الذين رجعت إليهم لم يكونوا دقيقين تماما ، كما أن المؤلفين البرتغاليين الذين تناولوا هذا الموضوع كانوا غاية فى الجهل لتماديهم فى المديح الذى لا مبرر له .

وقد نُصِّب أحمد بن سعيد سلطانا على عُمان فى العام ١٧٥٩ الميلادى ، وجلس على العرش إلى العام ١٧٨٠ الميلادى على وجه التقريب . وأصبح حكمه يتسم بالسلام والأمن والازدهار ، بعد قليل من المنازعات المبدئية التى دارت بينه وبين منافسيه بسبب اعتلاء العرش ، والتى يقال إنها كانت محفوفة بقليل من سفك الدماء . وخلال حكم أحمد بن سعيد امتدت حدود مملكة عمان ناحية الغرب حتى وصلت إلى الاحساء والبحرين، كما وصل نفوذ أحمد وسلطته أيضا إلى منطقة ظفار على الساحل الجنوبى . ولا تزال ذكرى أحمد بن سعيد راسخة فى أذهان أهل هذه البلاد ، برغم أنها خبت قليلا أمام ذكرى حفيده السلطان سعيد ، الذى كان رعاياه يحبون أن يضيفوا أداة التعريف إلى لقبه .

وبعد أن توفى أحمد ترك تاجه لولده ، الذى نسيت اسمه . يضاف إلى ذلك أن مدة حكمه لم تقع فيها أحداث مهمة ، كانت فترة حكمه حافلة بالسلام والتقدم برغم أنها لم تكن فترة مجيدة ، إن صح أن نربط المجد بالغزو . وعلى كل حال ، فقد كانت أهمية عمان تتزايد من الناحية التجارية ؛ وكانت فترة حكم ولد أحمد بن سعيد تمتاز بالهدوء الذى مكنها من تنمية مواردها الكبيرة . ومات ابن سعيد هذا ، إن جاز لنا أن نطلق عليه لقب الأسرة ، فى سن مبكرة نسبيا ، خلال العقد الأول من القرن الحالى ، وخلفه ابنه سعيد ، الذى يعد أعظم العظماء الذين حملوا هذا الاسم فى أسرته .

وبرغم أن سعيد كان صغير السن عندما اعتلى العرش إلا انه كان محنكا . فقد أدرك من البداية أن قوة مملكته تكمن فى البحر وليس فى البر ، ولذلك بدأ على الفور تشكيل بحرية قوية تضمن له السيادة على الخليج الفارسى . وخلال فترة قصيرة استطاع أن يحصل على حوالى ثلاثين فرقاطة ويسلحها ، وقد بنيت هذه الفرقاطات على النمط الأوربى ، وفى الموانئ الغربية الموجودة فى الهند ، وزوِّدت بالمدافع : وكان يرفرف عليها البيرق الأحمر العمانى ، الذى استقى من البيرق اليمنى . واستطاع

سعيد بفضل هذا الأسطول أن يستولى على جزيرة ساحل زنجبار ، وعلى الصواحيل ، وعلى سوقطرة ، كما استطاع في النهاية ، عن طريق الحصار البحرى الطويل ، أن يجبر الحكومة الفارسية على التنازل عن ذلك الشريط الساحلى الذى أصبح الآن ملكا لـ - عمان ، كما استولى أيضا على جزر هرمز ، وجشم ، ولارج ، إلى أن استولى في النهاية على البحرين . وقد زار سعيد كل هذه المناطق ، وشجع تجارتها ونظمها ، وفتح خطوط جديدة للمواصلات ، وجعل مملكته أغنى الممالك وأكثرها ازدهارا ، إن لم يكن في آسيا كلها ، ففي الجزيرة العربية على أقل تقدير .

كانت الإمبراطورية الوهابية ، في ذلك الوقت ، في بداية قوتها ، يضاف إلى ذلك أن أخبار الثروات الضخمة التى جمعها جيرانهم الكفار الأقل منهم في فنون الحرب ، بدأت تستفز في أبناء سعود المتدينين الجشع وحبهم للمال . وأعقب ذلك الغزو الكبير الذى قام به عبد الله ثم استولى على مسقط ، وبقيت عمان على إثر ذلك ، تابعا من توابع نجد على امتداد بضع سنوات قلائل . وبعد ذلك بفترة وجيزة حدثت تلك المناوشات المحلية في المناطق المجاورة لـ - رأس الحض والساحل المقابل لـ - ماسورا Massora ، وذلك في الوقت الذى حدث فيه صدام بين القوات الإنجليزية - الهندية من ناحية والمواطنين الذين يعيشون في تلك المناطق من الناحية الأخرى ؛ وقد أعقب ذلك الصدام مباشرة ، القضاء تماما على القراصنة الذين رغم أنهم لم يكونوا يعملون بأوامر مباشرة من السلطان سعيد ، إلا انه كان على علم بذلك ، جعلوا الملاحة في الخليج الفارسى مسألة صعبه بل وخطيرة على السفن الأوربية .

وقد أعادت إطاحة إبراهيم باشا بالوهابيين الاستقلال إلى سعيد مرة أخرى؛ واستطاع خلال المدة المتبقية من حكمه ، الذى دام من بدايته إلى نهايته حوالى خمسين عاما تقريبا ، أن يستعيد كل ازدهار ورفاه مملكته السابق ، بل انه دعم ذلك الازدهار وقوّاه . وتحولت عمان إلى مركز للتجارة الإفريقية ، والفارسية ، والهندية ؛ في حين بدأت مجموعات كثيرة من التجار ، وبخاصة الهنود، تقيم في كل من صوحار، وبركا Bark.a ومسقط وفي الموانئ البحرية الأخرى ، وجلبوا معهم خبرات وصناعات يندر أن نجدها بين العرب أنفسهم .

كانت عمان عندما كانت خاضعة للوهابيين ، تدفع كل عام مبلغا كبيرا من المال تحت مسمى التبعية والجزية لحكومة مكة ، ذلك المنصب الذى كان يشغله ، أو إن شئت فقل اغتصبه ، عبد الله بن سعود . وكان من الطبيعى تماما ، على السلطان سعيد ،

بعد أن تحرر من نير نجد ، أن يتوقف عن دفع تلك الجزية التي كانت قد فرضت عليه تحت مسمى صيانة وإعمار المدينة المقدسة . وعلى كل حال ، فإن شريف مكة كان له رأى آخر ، وهدد بإثارة الكثير من المتاعب مع سلطان عمان ، إذا ما استمر على إصراره على عدم دفع ذلك الذى يمكن أن نسميه مشروع قرش - بطرس العربى . وجرى تبادل الرسائل بين شريف مكة وسلطان عمان ؛ إلى أن استنفدت دبلوماسية المراسلات جهودها ، وقرر السلطان سعيد ، الذى يبدو أنه من المغرمين بالحركة ، ويرغب فى مشاهدة عجائب العالم الخارجى ، أن يقوم بزيارة شخصية إلى شريف مكة يتم خلالها تسوية الأمر .

وأبحر السلطان سعيد ، ومعه حاشية كبيرة فى رحلة بحرية إلى مدينة جدة ، ثم وصل إلى مكة ، التى سبقته إليها ، كما يقول المؤرخ العمانى ، أبهة موكبه وعظمته . وكشف شريف مكة عن أدبه وكياسته ، وسارت الأمور سيرا حسنا ؛ ولم يتبق أى شئ سوى تسوية المطالب المكية تسوية مناسبة ، وهنا التمس السلطان سعيد من شريف مكة أن يصنع فيه معروفا بأن يرافقه إلى البيت الحرام ، أو إن شئت فقل الكعبة ، كى يرى بنفسه البيت الحرام ، الذى طُلب إليه أن يساهم فى زيادة ثروته من ذلك الحين فصاعداً . ووافق شريف مكة ، وذهب ومعه السلطان سعيد إلى البيت الحرام . وسأل السلطان سعيد عن المكان الذى يؤدى فيه المؤمنون ، من المذاهب الاربعة ، صلاتهم ، وأجيب السلطان سعيد إلى طلبه وأوصلوه إلى أماكن الشافعية ، والحنابلة ... الخ . وهنا تساءل السلطان سعيد قائلا :" وأين مكان البياضية ؟" وهذا سؤال يسهل طرحه ولكن ليس من السهل الإجابة عنه ؛ وفى النهاية ، أبلغه شريف مكة أنه لا يوجد مكان للبياضية . وهنا أبلغه السلطان سعيد أنه لا يجد مبررا للاشتراك فى عبادة لا نصيب أو دور له فيها، ثم غادر مكة على الفور ؛ وهنا توقف الحديث عن موضوع الجزية هذه ، طوال المدة المتبقية من حكم السلطان سعيد . وسوف نرى بعد ذلك ، كيف تجددت هذه المطالبة بعد ذلك فى عهد ولده الثوينى .

قسم السلطان سعيد ، وهو فى فراش مرضه ، ممتلكاته بين أولاده الثلاثة . وقد أعطى الثوينى ، ولده الأكبر ، منطقة عمان اعتباراً من البركا **Barka** وما بعدها فى اتجاه الشرق ، كما أعطاه أيضا جبل أخضر والمناطق المجاورة له ، علاوة على التوابع الموجودة فى الخليج الفارسى . وحصل ماجد ، ولده الثانى ، على الممتلكات الأفريقية ، فى حين حصل أمجد ، ولده الأصغر على الجانب الغربى من عمان والذى كان يمتد من

بركا Barka إلى قطر ، على أن تكون مدينة صوحار عاصمة له . وقد مهد ذلك القرار غير الحكيم ، الذى يعزى صدوره إلى نفوذ الملكة الأم ، وحقدها على أبنائها ، الطريق لنشوب حروب طويلة.وحدوث كوارث كثيرة ، إن لم يكن اندحار الامبراطورية العمانية اندحارا كاملا .

ولم يكن توقع النتائج التى ترتبت على ذلك الإجراء الثلاثى ، تحتاج إلى مزيد من التبصر ، وبخاصة أنها بدأت تظهر للعيان ، بعد فترة وجيزة . وبدأت تلك النتائج بالصراع الذى نشب بين الثوينى وماجد ؛ فقد بدأ الأول يطالب بالجزية والولاء ، فى حين رفض الثانى هذا وذاك . وأعقب ذلك ، نشوب حرب بحرية بين الشقيقين استمرت عامين أو ثلاثة أعوام ، إلى أن وضع التدخل الإنجليزى ، وربما أيضا بعد المسافة بين المنطقتين ، حداً لتلك الحرب البحرية . وتحددت بعد ذلك ، جزية سنوية ، حصل ماجد لقاء الوفاء بها ، على سلطه مطلقة وسيادة مستقلة على كل من زنجبار وصواحيل فيما يتعلق بالحكومة والتجارة والسياسة .

أما الصراع الثانى الذى ترتب على تقسيم الملك العجوز مملكته بين أبنائه الثلاثة، فقد كان مؤذيا فى ذاته وفى نتائجه . ولم يقنع ثوينى ، الذى حصل بمقتضى وصية والده على ثلثى الأرض الأم فى عمان ، وفيها أهم المراكز الحكومية والمواصلات ، علاوة على تسيّده أيضا أهم الموانى البحرية أيضا على ضفتى الخليج الفارسى ، وفضلا أيضا عن سيطرته على ثلثى التجارة الوطنية ، لم يقنع ثوينى بكل ذلك ، ولم يكن راضيا عن تقسيم الحكم ، وفكر وسعى فى حرمان شقيقه الأصغر أمجد ، من نصيبه فى هذه التركة ، حتى يخلو له الجو ويصبح حاكما وحيدا لا منازع له فى حكم عمان كلها . ولكن أمجد ، الذى كان أضعف من ثوينى ، من حيث الموارد المادية ، كان يتمتع بسند قوى لقضيته كان يتمثل فى تعاطف كل السكان معه ، فى المنطقة التى تمتد من الشارقة إلى رأس الحض ؛ وقد اكتسب أمجد هذه المساندة بفعل تصرفاته الودية وإدارته الجيدة للمناطق الداخلية . وترتب على ذلك ، أن اكتشف ثوينى ، بعد أن نشبت الحرب بينه وبين أمجد ، أن المسألة أصعب مما كان يتصور ، والسبب فى ذلك أن باطنة ، أكبر مدن المملكة وأكثرها كثافة سكانية ، وقفت ، عن بكرة أبيها ، إلى جانب أمجد فى مواجهه ثوينى ؛ وحذت كل من نزوة ، وباهلة ، وجبل أخضر حذو باطنة ؛ ولم تحقق سيادة ثوينى البحرية شيئا فى مواجهة عدو يمتلك الجزء الأكبر من الأرض الأم بكل عواصمها الثلاثه ، بل إن أمجد هدد بمحاصرة ومهاجمة مدينة مسقط .

وهنا بدأ التدخل الإنجليزى يعلن عن نفسه من جديد ؛ والمؤسف أن ذلك التدخل الإنجليزى كان لصالح الطرف الذى لا يستحق المعونة ، وهو الثوينى . وهنا ، وجه ثوينى ، الأخ الأكبر ، الدعوة إلى شقيقه أمجد ، الذى كان لا يزال يسيطر على الجزء الأكبر من البلاد ، لحضور اجتماع سيجرى عقده فى مسقط ؛ وفى مسقط ، وبرغم كل التعهدات والوعود ، خان الثوينى شقيقه أمجد ، واحتجزه أسيرا ، فى قلعة مُسَوَّرةٍ من قلاع المدينة ، وما يزال أمجد أسير إلى يومنا هذا . وبذلك أصبح الثوينى ملكا وحيدا على كل من البر والبحر ؛ ولكن خيانته لأخيه الذى وثق به ، إضافة إلى سلوكه وتصرفاته المستهترة ، أغضبت رعاياه وجعلتهم يواصلون القتال ضده حتى بعد أن خسروا زعيمهم أمجد ، ولم يستطع السلطان إجبارهم على الخضوع إليه . وبعد أن فشلت محاولات ثوينى لإخماد الثورة ، وفى ساعة جلبت الشر على عمان ، طلب إلى الوهابى أن يقدم له يد العون والمساعدة .

ولم يلق فيصل بالا كثيرا لمسألة من يحمل التاج من الشقيقين ، إضافة إلى أن طلب الكافرين على مساعدته لهما لم يجعله يرجح أحدهما على الآخر . غير أن طلب الثوينى قدم لـ - فيصل الذريعة التى كان يشتاق ويتطلع إليها منذ زمن طويل ، والتى يمكن أن يستغلها للتدخل الذى يسفر فى النهاية عن وضع مفاتيح أغنى أجزاء الجزيرة العربية بين يدى ذلك النجدى ساكن الجبال . يضاف إلى ذلك ، أن الثورة فى عمان نفسها كان لها طابع غريب. لقد كانت هذه الثورة بمثابة حركه بياضية ، برئاسة أمجد، نفسه الذى كان بياضيا خالصا ، وكان الهدف الرئيسى لها لا يتمثل فى تنصيب رجل بعينه على العرش ، وإنما فى كونها مبدءا شعبيا من ناحية ، وتأكيدها ، من الناحية الأخرى ، على الممارسات القرموطية القديمة والممارسات المعادية للعقيدة المحمدية . ومن هنا كانت تلك الحركة تبدو قميئة وقبيحة عند فيصل ، الذى اعتمد صعوده ورفعته داخل مملكته وعلى حدودها ، على قمع العنصر الوطنى وقهره . ومن ثم سارع فيصل إلى تلبية ذلك المطلب السيئ الذى تقدم به الأخوان إليه ؛ وتم على الفور تشكيل جيش كبير فى الرياض ، وقامت منطقة نجد كلها بدءا من القصيم إلى الاحساء بتقديم القوات المجنَّدة ، كما وصل أيضا متطوعون من شومر للإنضمام إلى هذا الجيش ، وأسندت القيادة العليا إلى (الأمير) عبد الله ، ولد الملك فيصل .

ويتقدم الجيش الوهابى سالكا طريق قطر الساحلى إلى أن يصل الشارقة ، التى كان الحليف صاحب المصلحة ينتظره فيها. كان ذلك الحليف، هو خالد بن صقر ، وهو نجدى من القواسمة بحكم مولده ، وقد سبق أن تناولت هذه العشيرة ،

التى استوطنت واستقرت على الجانب الشمالى الغربى من رأس مسندم . وقد استطاع خالد ، عن طريق الصراع الدموى الطويل الذى دار بينه وبين شقيقه وعمه ، أن يصبح فى النهاية سيدا على المدينة وعلى منطقة الشارقة بكاملها ، على شكل إقطاعية له من سلطان عمان . ولعل القارئ يستطيع أن يكوّن فكرة عن هذا الرئيس من حقيقة هى التى أشعلت نار الحرب الأهلية بين خالد وأقاربه . فقد استطاع خالد ، أيام صباه ، أن يطرد عمه بالقوة من الشارقة ، واحتل القصر ليعيش فيه ولكن المالك الشرعى للقصر ، استطاع خلال أسابيع قلائل ، أن يعود ومعه من القوات ما يكفى لتحقيق مطلبه ، وأدرك خالد أنه لن يستطيع الصمود أمام الحصار . ويتراجع خالد ؛ ولكنه أراد أن يثأر من عمه ، فى المقام الأول ، ولذلك أضرم النار فى المدينة ، وأحرق أكثر من ثلث المدينة ، تصميما منه على تخريب ذلك الذى لم يستطع أن يحتفظ به .

ولما كان خالد كارها للحكم العماني وللبياضية، من منطلق كونه وهابيا متشددا ، ولأن الوهابية كانت مذهبه برغم أن فسقه الذى لا يعرف الحدود ورذائله الشخصية حولته إلى فاسق تماما من الناحية الشهوانية والعملية فقد رسم خطته ، منذ زمن طويل ، لفصل منطقته عن جسم المملكة الرئيسي، وبذلك يصبح مستقلا ليس استقلالا – لأنه أصبح بالفعل مستقلا استقلالا اسميا خلال سنوات الفوضى التي أعقبت وفاة السلطان سعيد وإنما استقلالا حقيقيا أيضا . وتنفيذا لهذه الخطة كان من رأيه أن يعتمد ، بكل الثقة والاطمئنان ، على أقاربه الأشداء الذين يسكنون ساحل الجواشمه ، ويشكلون فرقا وهابية خالصة ؛ ولكن هذه الفرق لم تكن كافية لتحقيق الخطة التى وضعها خالد . وهنا أمكن سد العجز عن طريق القوات التى وصلت وعلى رأسها (الأمير) عبد الله ، حليفه الطبيعى من ناحية ، الدم ، والطبيعة ، والدين . وجرت مناقشة خطة عمان والموافقة عليها مع ذلك الأخ النبيل . وهنا عهد عبد الله إلى خالد بإخضاع كل من باطنة وصوحار ، فى حين قام (الأمير) عبد الله نفسه ، ومعه القوة الرئيسية ، بالهجوم مباشرة على جبل أخضر ، وفرض سيطرته على المنطقة الجبلية : وقد حدث كل ذلك باسم الثوينى ، الذى كان يبحث ، مثل الحصان فى الأسطورة ، عن حليف فعثر على طاغية .

وبعد ذلك بأيام قلائل ، قام خالد ومعه قواته الهمجية ، المعززة بقوات نجدية ، بالهجوم على باطنة ، التى أعدم فيها ، بالسيف ، كل أولئك الذين اعترضوه أو وقفوا فى وجهه ، وأحرق القرى ، وخرّب المدائن ، ونشر المذابح فى كل مكان باسم الله

إرضاء لنفسه . وقام خالد بسلب ونهب وتخريب كلا من الفجيرة ، وشيناز ، وصوحار ، وبعض المدن الساحلية الأخرى الأقل أهمية ؛ وواصل خالد مسيرته مكتسحا كل ذلك الذى كان يعترض طريقه ، إلى أن وصل بالقرب من السويق التى أنزل فيها بالسكان الوطنيين ، الذين كانوا قد اتخذوا تشكيل المعركة حتى يتمكنوا من وقف تقدمه ، هزيمة مروعه ترتب عليها أن أصبحت باطنه بكاملها تحت رحمته ، أو بالأحرى تحت رحمة قسوته الضارية .

وفي الوقت نفسه كان عبد الله ، ومعه جيش كبير العدد ، قد وصل إلى بريمة ، التى تبعد مسير أربعة أيام عن الشارقة ، عند سفح جبل عقدة ، التى ترتفع عندها أولى قمم سلسلة جبال الظاهرة ؛ ويمتد الطريق إلى البريمة من الشمال الغربى إلى الجنوب الشرقى ، موازيا لسلسلة جبال أخضر ، ولكنها تمتد إلى الداخل مسافة أطول . وهنا يكون ولى عهد (الملك) فيصل قد وصل إلى مشارف المعاقل العمانية ، ولكنه وجد أن من الحرص ألا يخاطر بحياته وسط شعاب الجبل : من هنا فقد آثر البقاء في بريمة ، في حين أرسل أمامه قوة استكشافية كبيرة بقيادة الزامل ، وهو الشخصية نفسها التى سبق أن تعرضت لتاريخها في عنيزة ، والذى أصبح الآن على ود واضح وبيّن مع حكومة نجد .

كانت الحملة ، شأنها شأن كل الحملات الأخرى الوهابية التنظيم ، تحمل اسما دينيا هو " الغزو " ، وكانت موجهة بطبيعة الحال ضد أعداء الله . وفى الاحساء ألقيت أمامى مقطوعة جميلة من الشعر النبطى، ألفها واحد من المقاتلين الذين يكتبون الشعر، وتنصب كلها على مقابلة تقوى نجد وورعها بكفر عمان ومروقها ؛ ولو أراد محمد (ﷺ) أن يحرض أصحابه لما استطاع بشئ غير هذه المقطوعة . ولكن اختيار الزامل – أل – عطية ليشغل رتبة المشير أثناء غياب (الأمير) عبد الله ، أطفأ الشعلة المقدسة وثنى حد سيف الإسلام . وكان السبب الرئيسى وراء اختيار هذا الرئيس الشاب هو صفاته العسكرية الفريدة ، وشعبيته الكبيرة ، لا فى القصيم وحدها وإنما فى نجد أيضا ، وكذلك أيضا بين أولئك الذين ليسوا من الغلاة أو المتشددين . ولكن الزامل ، في داخله ، كان أيضا معارضا للمعتقدات الوهابية والحكم الوهابى على حد سواء ، وكان ينظر بمزيد من التعاطف والإشفاق على هؤلاء الذين سيقوم بغزوهم ، أكثر من أولئك الذين جهّزوه للقيام بهذا الغزو . ومن هنا كان الزامل لا يطمع فى أى

شئ أكثر من الوصول بالأمور إلى بر السلام ، وبذلك يمنع العارض من اكتساب المزيد من القوة ، ويجعل عمان في مأمن من السلب والنهب والمذابح ، يضاف إلى ذلك أن سلوك الزامل كان ينكر التعصب وكذلك التعصب الديني ؛ وكانت خيمته الحربية الواسعة تغص من الصباح إلى الليل بكبار الضباط وكبار الرؤوساء، الذين كان يضرب أمامهم مثلا واضحا ، بعد التشاور والنقاش العسكري ، لا في المحاضرات القرآنية والإكثار من الصلاة ، وإنما في المرح الذي يكاد يكون فسقا وانغماسا في الملذات ، وفي اللهو والضحك ، بل وفي الرقص والسُكر في بعض الأحيان . ومن الطبيعي أن يسير الجسد في الاتجاه نفسه عندما تكون له رأس لها مثل هذه الميول . وهنا بدأ الجميع ينظرون إلى سكان هذه البلاد ، التي كانوا يتقدمون خلالها ، نظرة كلها ود ، لأن ذلك يناسب مصلحتهم ، ولم يواجه الزامل أية صعوبة في تحقيق ذلك الذي كان يصبو إليه ، ألا وهو ، زحف غير ملطخ بالدماء ، يفضي إلى سلام في الوقت المناسب . وبرغم أن عبد الله استشعر وفهم الخطة التي استطاع مشيره أن يحبط بها سياسة الرياض ، فإنه لم يستطع مواجهة هذه الخطة أو القضاء عليها ، في وقت كانت فيه تسعة أعشار الجيش على استعداد لرفع أسلحتهم في وجه عبد الله دفاعا عن الزامل ، لو تطلب الأمر ذلك . وعلى كل حال ، واستباقا للأحداث ، شوهد رأس الزامل على رمح في البلاط الوهابي ، وكان فيصل ، الذي أُحيط علما بما جرى في عمان ، ينتظر الفرصة المناسبة التي يصب فيها جام غضبه على عائلة آل - عطية كلها . وقد حكى لي كل هذه التفاصيل ، كل من رفيقي يوسف بن خميس وآخرون ، الذين حملوا السلاح تحت قيادة الزامل في هذه الحملة .

ويجتاز الغزاة ، بقليل من المقاومة ، وادى العُبرى ، ويصلون إلى المخنث ، تلك القرية الكبيرة التي تقع إلى الخلف مباشرة من سلسلة جبال أخضر ، التي يتفرع الطريق عندها إلى نزوة ناحية اليسار ، وإلى الباهلة في الناحية اليمنى . وخلف المخنث توجد مضايق أخضر ، التي يصعب اجتيازها ، على الغزاة بصفة خاصة ، والتي يحتلها الآن بعض من سكان الجبال الأشداء في دفاعهم . كان الزامل طوال هذه الحملة يتحرك بطريقة مختلفة تماما عن الطريقة التي تحرك بها خالد في باطنه ؛ فقد كان الزامل ، على امتداد طريقه ، يضمن للسكان الأمن والسلام ، شريطة أن يعترفوا بالثويني سلطانا عليهم ؛ وانطلاقا من هذه الخطة راح الزامل يعامل القرويين معاملة الأصدقاء ، كما منع أتباعه من ممارسة السلب والنهب . وعندما وصل الزامل إلى

المخنث ، وبعد أن عرف العمانيون ذلك الذى يتعين عليهم أن يتعاملوا معه ، رحّبوا به وبجيشه ترحيبا حاراً ؛ وتقدّم رؤوساء اليعاربة ومعهم رؤوساء آخرين من الجبل للقاء الزامل . وفى المؤتمر الذى انعقد بعد ذلك اللقاء ، أكد الزعماء العمانيون للزامل رغبتهم فى إخضاع أنفسهم لحكم الثوينى بشروط مناسبة ، وبالتالى يمكن تحاشى حدوث كثير من أعمال العداء والتحرشات من الجانبين ؛ واحتج العمانيون علاوة على ذلك ، على التدخل الأجنبى ، وانذروا الزامل هو وضباطه ، أنهم إذا ما خاطروا بعبور مضايق باهلة ، فإن قلة قليلة منهم هى التى ستعود لتحكى للناس ذلك الذى حدث .

وفى الوقت الذى بدأ يأفل فيه نجم مارس (إله الحرب عند الرومان) ، بدأت فينوس فى الظهور . ولم تكن عيون الجميلات العمانيات الكبار ، أو خصورهن النحيلة ، وتصرفاتهن الآسرة ، وحديثهن الذى يفيض رقة ، أقل تأثيرا ، ويا حسرتاه على ذلك اليوم ! فى القضاء على نزعات الحرب عند النجديين ، من الإنذارات المقنعة التى صدرت عن الرجال الشجعان أو مفاوضاتهم التى اتسمت بقدر كبير من الدبلوماسية . بل إن الزامل نفسه ، اللهم إن كان ذلك لا يتناقض مع شهرته ، وقع عن طيب خاطر ضحية لواحدة من الجميلات الوطنيات فى ذلك البلد ؛ الذى وضعته ممارسة الحب فيه ، فوق كل اعتبارات الفضيلة الثانوية ؛ فى حين أن عزيمة أخرى فعلت فعلها مع مقاتليه الذين يأكلون النار أكلا ، واضطرتهم إلى أن يحولوا عقدة كيوبيد (إله الحب عند اليونان) غير المحكمة ، إلى رباط قوى من أربطة هيمان ، (إله الزواج عند اليونان) ؛ بل إن الكثيرين من الضباط الشجعان بقوا فى عمان ليلعبوا دور الرجال المسالمين فى قرى الجبل الأخضر الهادئة .

وقصارى القول ، إن الحملة انتهت ، شأنها شأن السواد الأعظم من الروايات ، بالزواج والاستيطان ، إلى أن وصلت الأمور إلى مرحلة أصبح من الصعب معها ، على الزامل أن ينتزع نفسه من براثن كليوباترات **Cleopatras** (جميلات) المخنث ، وأن يعيد إلى البريمة أتباعه الذين استمالهم الإغراء أو إن شئت فقل القوة الرئيسية ، إلى السير ضمن حركته العكسية .

كانت مناورة الإغواء الذى يمكن اغتفاره ، الرائعة والتى سبقت الإشارة إليها من تدبير الثوينى وبأوامر منه ، نظرا لأنه كان قد بدأ يصحو فى ذلك الوقت ، على الخطر الذى جلبه على نفسه وعلى مملكته بسبب طموحه غير المحسوب ؛ وسعيا من الثوينى

نفسه إلى تحاشي ذلك الخطر أو التقليل منه في أضعف الأحوال، قبل أن يفوت الأوان.
وعندما استطاعت المفاوضات أن تحبط ، بالشكل الذي وصفناه ، الهجوم الذي كان موجها إلى قلب مملكة الثويني ، سارع إلى وقف عمليات السلب والنهب التي كان خالد يقوم بها في مدينة باطنه . ولكن خالد وقواته كانت تسري فيهم روح مختلفة تماما عن تلك التي كانت تسري في الزامل هو وجنوده ؛ كان هدف خالد وجنوده يتمثل في السلب والنهب وسفك الدماء ، وليس في المسالمة والولاء ، يضاف إلى ذلك أن الثويني لم تكن لديه القوات الكافية التي تمكنه من الوقوف في وجه تحركات الغزاة الذين استدعاهم هو بنفسه . كان المصدر الوحيد الذي تبقى أمامه هو أن يطلب إلى عبد الله أن يتدخل في الأمر . وتدبر الثويني أمره ، ولم يكن مخطئا في تدبره ، وأدرك أن الذهب ربما ينهي مع الأمير الوهابي ذلك الذي بدأه الجمال والكلام الحلو مع مشيره ؛ وعليه اصطحب الثويني معه مقدارا مناسبا من ذلك "المذيب الكوني" ، واتجه مباشرة إلى بريمة ، حيث كان عبد الله يقيم في مركز الرئاسة .

وعن طريق الهدايا السخية التي كانت معه ، وعن طريق العروض السخية بهدايا أخرى مُسْتَقْبَلِيَّة ، استطاع الثويني أن يقنع ولي عهد نجد أن عمان قد عادت عن طيب خاطر إلى الولاء لمليكها الشرعي ، وأن الحرب والعنف لم يعد لهما ما يبررهما . ومن هذا المنطلق طلب من عبد الله أن يستعيد خالد ويأمره بالرجوع . وهنا "عاد ابن "صقر" (وهذا اسم مناسب) ، وتخلى عن فريسته التي كان قد ابتلع نصفها ، عاد إلى بريمة علي غير رغبه منه، وهو في غاية الاستياء من القيد الذي فرض على نجاحه . ومع ذلك ، فقد كانت أوامر عبد الله موضوعية ، علاوة أيضا على سبب آخر كان له الطابع نفسه كان يستحوذ على تفكير أمير الرياض ، وقد ساعد كل ذلك ، في إقناع حليف عبد الله من القواسمة بالتعجيل بالسلْم . وفي نفس هذا الوقت كان سكان مملكة عمان ، من أقصاها إلى أقصاها ، قد نسوا مشاحناتهم الأهلية ، وبدءوا يَتَّحِدُون مكونين بذلك جيشا دفاعيا قويا ؛ وهنا رأى عبد الله ، الذي كان فيه شيئا من حنكة والده ، رغم شراسته وتشدده ، أن من الأفضل أن يتراجع عن الدخول في صراع مميت في منطقة بعيدة جدا عن بلاده . وتم بناء على ذلك إقرار السلام ، شريطة أن يتم انسحاب الجيش الوهابي من البلاد ، وأن يسحب خالد قواته من مدينة باطنه ، وأن يرضى لنفسه بمناطق الشارقة وقلحاط ، وجبال الرأس ، على أن يدفع جزية سنوية لـ – ثويني ، الذي أصبح الآن ملكا على كل ممتلكات والده في الجزيرة العربية .

ومن جانبه تعهد الملك العماني بأن يقدم هدية سنوية للرياض ، تحت مسمى المساهمة مع شريف مكة ؛ وأن يسمح بإقامة حامية نجدية دائمة في البريمة ، بغرض قمع وإخماد المناصير وآل – مُرّة ، الذين زاد صلفهم خلال الاضطرابات التي وقعت مؤخرا – على أن يقوم الثويني بدفع مرتبات هذه الحامية وأن تكون تحت أوامره مباشرة ؛ وأخيرا ، وافق الملك العماني على السماح لعدد محدد من النجديين (حوالي ثلاثمائة ، حسب اعتقادي) ليكونوا في خدمته هو شخصيا وفي حراسته . وتم التوقيع من الطرفين على هذه الشروط ضمن المعاهدة التي أبرمت بينهما ، وجلي عبد الله بعد ذلك هو وقواته عن عمان ، وخلفوا وراءهم دينا متراكما من الكراهية ، لا تستطيع أن تفي به الأجيال . لقد حدث كل ذلك منذ عشر سنوات مضت .

واعتبارا من ذلك التاريخ لم يحدث المزيد من الصراعات الأهلية التي تثير الاضطراب في عمان . ونظرا لأن الثويني كان سببا رئيسيا في حياته الخاصة ، ونظرا لأنه كان مستهترا جدا في حياته العامة ، برغم أنه لم يكن غبيا بأي حال من الأحوال ، فإنه يهتم بحياته وذلك عن طريق إعطاء الرؤوساء المحليين في البلاد كامل سلطاتهم القديمة التي كانوا يتوارثونها ، وبذلك يتمكن من حكم البلاد من خلالهم ، بدلا من حكمها بصورة مباشرة . وينصب اهتمام ثويني بصفة خاصة وكذلك إدارته على كل من الموانئ البحرية والتجارة ، ولكن مجتمع الخلائل الحبشيات، والمهرجين المرخصين ، وفرق المرح ، وأبهة الخيالة ، وحفلات المتعة ، هي الشغل الشاغل في حياة الثويني .

ولن يكون من قبيل الخطأ هنا أن نورد ملاحظة مفادها أن لقب : "إمام مسقط" لا يستعمل في عمان نفسها ، وأن هذا اللقب ينتمي إلى الأسماء الأوربية وليس إلى الأسماء العربية . والثويني لا يعد إماما بالمفهوم المحمدي المتعارف عليه ، علاوة أيضا على أن مسقط ليست عاصمة له . وكلمة "إمام" هنا تشير إلى أي شخص تكون له الأولوية والصدارة وبخاصة في الحروب وفي الصلاة ، وفي العلم وفي الأدب في بعض الأحيان . وفي نجد ، قد يكنى فيصل بالإمام ، في بعض الأحيان ، ولكن هذه مسألة نادرة الحدوث ، وقد سمعت هذا اللقب مرتين أو ثلاثا ، يطلق على عبد الله من قبل رعاياه . ولكن لقب " سلطان " يشيع استعماله في نجد ؛ في حين يطلق هذا اللقب أيضا على الثويني أيضا . ومن ثم يمكن القول إن لقب الثويني الحقيقي هو " سلطان عمان " . وعاصمة الثويني الرسمية تتمثل في الخيار بين المدن الثلاثة باهله ، أو صوحار ، أو نزوة ، ونزوة هي الأكثر ترجيحا بين المدن الثلاث .

وثمة ملاحظة أسوقها هنا عن الطابع الغريب لهذه الحكومة ، وقد يقول القارئ : إن هذه الملاحظة سطحية ولا تتسم بالعمق . ولعل القارئ يكون قد لاحظ أن الملكية العمانية محدودة ، وأنا لا أقصد إنها محدودة بالقوانين والعهود والمواثيق ، وإنما أقصد أنها محدودة بتواجد طبقة أرستقراطية قوية قادرة على التعايش مع بعضها ، ومحدودة أيضا من منطلق الامتيازات الوراثية ، وتحديد الحقوق العامة . وعمان مملكة أقل منها مجموعة من البلديات ؛ إذ أن كل مدينة وكل قرية تتمتع بوجود مستقل ومجلس بلدي مستقل أيضا ؛ في حين تخضع كل من هذه المدن والقرى إلى رئيس أو آخر من أولئك الرؤساء السلفيين ، الذين يحكمون هذه المناطق بسلطة تكون محدودة في أحد جوانبها بالحصانات التقليدية التي يتوارثها الإقطاعيون الذين يعيشون في هذه المناطق ، ومحدودة في الجانب الآخر بالامتيازات المقصورة على التاج . وتتمثل تلك الامتيازات الملكية في حق التعيين والعزل (بناء على شكوى) ، في المناطق الخاصة بالحكام المحليين ، برغم أن هذا المنصب يظل مقصورا على العائلة نفسها ؛ كما تتمثل هذه الامتيازات أيضا في تحديد وفرض الضرائب والرسوم الجمركية ؛ وفي الاستقلال بإدارة البحرية ؛ وفي الاحتفاظ بجيش عامل صغير ، قوامه حوالي ستمائة أو سبعمائة رجل ؛ كما تتمثل هذه الامتيازات أخيرا ، في تصريف الشؤون الخارجية وإبرام التحالفات والمعاهدات ، وشؤون الحرب والسلام . والإدارة القضائية هي والبت في القضايا الجنائية لا تندرج هنا ، كما هو الحال ، في كل من نجد وشومر ، تحت صلاحية الحاكم ؛ وإنما تترك هذه المسائل للقضاة أو القضاة الملكيين المحليين ؛ وخلاصة القول ، هي أن القضاء كله يعد مستقلا تماما عن الملك ، اللهم باستثناء الظروف شديدة الاستثناء . يضاف إلى ذلك أن الضرائب التي تفرض على الأراضي وعلى البضائع (يستثنى من ذلك تجارة الموانئ البحرية) تعد ثابتة ولا يجوز المساس بها إلا من قبل السلطة المحلية أو البلدية ؛ معنى ذلك أن السلطان يستفيد من هذه الضرائب ولكنه لا يستطيع إلغاءها أو تغييرها . ونحن نستخلص من كل ذلك ، أن الدعم الرئيسي والمساندة الرئيسة للسلطان إنما تنبع من حرصه على رفاهية شعبه وازدهار التجارة البحرية ورواجها ؛ أما إن قدر للحاكم ، أن يكون ، كما هو الحال بالنسبة لـ - ثويني في هذه الأيام ، مستهترا ، فإن الشرور التي تترتب على ذلك تكون غير مباشرة أكثر منها مباشرة ، في حين تسير الأمة في معظمها على هذا النهج بغض النظر عمن يكون على رأسها ؛ وهنا يجوز لنا القول إن الأمة تحكم نفسها

بنفسها . من هنا نجد أن عمان تقترب من ذلك الذى يمكن أن نطلق عليه اسم الحكومة المختلطة أو الحكومة الدستورية أكثر من أية حكومة أخرى فى الجزيرة العربية ، بل وربما في الشرق كله .

يتبقى بعد ذلك أن نقول شيئا عن وضع الوهابيين الحالى فى عمان . لعل القارئ يكون قد أصبح مدركا الآن أن الغزو الأجنبى ، وبخاصة إذا كان من النوع الذى قام به خالد بن صقر ، وتابعه المطيرى ، قاطع الطريق مثل سيده ، لم يفعل الكثير من أجل إيجاد نوع بين المصالحة بين البياضية ومعتقدات ومرعيات ابن سعود . كانت كراهية ألفا Alva شديدة فى هولندا ، كما كانت كراهية كورتز Cortez شديدة أيضا فى المكسيك . وقد بدأ النفوذ الوهابى الذى كان شائعا بين القواسمة من ناحية الغرب ، وبين حامية البريمة ، وبين الأتباع والجنود الآخرين الذين كانوا يساندون هذا النفوذ وينتشر فى المدن الرئيسة مثل باطنه ، وصوحار ، وبركا ، أو الذين كانوا ينتسبون إلى حرس الثوينى الخاص ، هذا النفوذ بدأ يتناقص شيئا فشيئا ، إلى حد أننى أثناء زيارتى لـ – عمان اكتشفت أن هذا النفوذ يكاد لا يذكر وغير ذى بال . وقد ساعدت على ذلك عوامل كثيرة .

وترتيبًا على ذلك ، فإن أحمد السديرى ، الذى عينه فيصل حاكما على البريمة ، وثبته فى هذه المنطقة كى يفصله عن بقية أسرته ، طرد كل حاشيته النجدية بصورة متدرجة، فردا إثر آخر، وهو يعيش الآن عيشة الحاكم العمانى أكثر منه حاكما نجديا ؛ ويحيط بأحمد السديرى مجموعة من المواطنين من أهل هذا البلد ، الذى راح أحمد يراعى فيه مشاعر ود هؤلاء المواطنين على حساب سياسة سيده ، ومبادئه وجزيته التى كان يحصل عليها ؛ فقد أهمل أحمد السديرى سياسة سيده وتجاهلها ، ولم يلتزم أيضا بمبادئ سيده ، وبدد الجزية أو حصل عليها لنفسه بدلا من إرسالها إلى خزينة الرياض . وأثناء مقامى فى عاصمة العارض سمعت كثيرا من الأقوال الجارحة التى قالها بعض رجال البلاط وهم ينتقدون أحمد السديرى وانغماسه فى المعاصى ؛ ولكن بعد المسافة ، وخطر الافتراق عن أحد الرعايا الأقوياء (نظرا لأن أحمد السديرى هو عميد العائلة ، التى تعد واحدة من العائلات الرئيسة فى نجد) ، إضافة إلى احتمال أن يعلن أحمد عصيانه ويجاهر به ، كل هذه العوامل هى التى جعلت فيصل يمتنع ، عند هذه المرحلة ، عن استدعاء أحمد السديرى وإعادته إلى نجد . بعض آخر من

النجديين انطبق عليهم نتيجة أعمالهم المؤسفة ، المثل العربي الذي يقول : "من عاشر القوم أربعين يوما صار منهم" . فقد تخلى بعض هؤلاء المتدينين المتشددين ، علانية عن الشخصية الوهابية ، داخليا وخارجيا ؛ وارتدوا الثياب المرحة ، وراحوا يدخنون مثل البراكين ، ويتكلمون بحرية مطلقة ، ويبتعدون تماما عن العبارات الدينية التقليدية ، شأنهم في ذلك شأن أي بياضي من جبل أخضر ؛ في حين راح بعض آخر من هؤلاء النجديين يضعون ذاتهم القديمة وذاتهم الجديدة حاجزا إضافيا ، وذلك عن طريق إبرام تحالف " كافر " مع سيرانة[1] جميلة ولكن شريفة من سيرانات هذه البلاد . وبالرغم من ذلك ، استوطن التجار المسلمون مدينة مسقط ، ولا تزال الموانئ الكبيرة تحتفظ بكثير من الزينات المعقولة ، بحكم علاقة هؤلاء التجار بمسقط رأسهم من ناحية ، وبحكم احترامهم لذاتهم المفروض عليهم من قبل الجماعة ، من الناحية الأخرى . يضاف إلى ذلك ، أن السنيين من الأسر النجدية القديمة ، الذين استوطنوا هذه البلاد منذ أجيال مضت ، والذين ينتشرون في كل أنحاء باطنه ، وبين القواسمة الذين يعيشون في رأس مسندم ، لا يزالون يتمسكون بمبادئهم الخاصة بهم بكل ما في ذلك من إلحاح وتعصب . إن ما أوردته هنا هو عبارة عن أمثله شاذة ، والواقع أن عمان ، بشكل عام ، لا تميل إلى انتهاج أي مذهب بعينه من المذاهب الإسلامية ، وبخاصة المذهب الوهابي .

وعلى الجانب الآخر من الخليج الفارسي ، الذي نوشك أن ننزل عليه الآن ، ينتشر المذهب الشيعي . والحكومة العمانية ، تترك في هذا المكان ، كما هو الحال في الأماكن الأخرى ، لرعاياها الحرية الكاملة في هذه الأمور ، طالما أن ذلك لا ينطوي على متاعب أو أخطار محددة ؛ ويجري في هذه المنطقة الالتزام بأسلوب الصلاة الفارسية ، والخطبة الفارسية ، وكل ما يتعلق بالشئون الدينية الأخرى ، ويجري كل ذلك بصورة علنية دون تعليق أو تدخل . وسوف أتناول بعض الأشياء الغريبة على هذا الشاطئ أثناء فترة مقامي – ومن حسن حظي أن هذه الفترة لن تطول – الذي سيكون في مدينة لينجا .

وفي صباح اليوم الحادي عشر من شهر فبراير وصلنا إلى الشاطئ في قارب من قوارب السفينة . وعلى طول الرصيف الأوسط ، يوجد حوض صغير ، يكون جافا

(١) السيرانة : واحدة من مجموعة كائنات أسطورية (عند الإغريق) لها رؤوس نسوة وأجساد طيور ، كانت تسحر الملايين بغنائها فتوردهم موارد الهلاك ، والمقصود هنا امرأة مغوية أو خطيرة – (المترجم) .

أحيانا ، وفى أحيان أخر ، يحتوى على مقدار من الماء يكفى لتعويم السفن التى من العيار والمقاييس العربية ، ويتسع هذا الحوض لحوالى ستين أو ثمانين سفينة من هذه السفن ، ويحمى هذا الحوض من الأمام حائط بحرى مرتفع جيد الإنشاء ، وبالقرب منه يوجد كاسر أمواج على الجانبين . والسفن التى لا تستطيع أن تجد لها مكانا على هذا الرصيف ، ترسو فى عرض البحر فى الخليج الرملى الواسع . وقد أحصيت حوالى مائة شراع داخل الميناء عندما وصلت إليه . والميناء بكامله ، تحميه من ناحية الغرب رأس بستانه ؛ ومن ناحية الشرق رعْن مماثل وجزيرة جشم ؛ ومن الناحية الشمالية توجد الأرض الفارسية الأم هى وجبالها ؛ والعاصفة الوحيدة التى يمكن أن تثير الاضطراب فى مياه ميناء لينجا لا تأتى إلا من الجنوب فقط .

ومدينة لينجا نفسها تقع بالقرب من حافة الماء الذى يفصلها عنه شاطئ ضيق من الرمال الجافة البيضاء . ومن هذا الشاطئ تبدأ الأرض فى الارتفاع إلى عشرين أو ثلاثين قدما ، مما يجعل المنازل فى مأمن من الرطوبة إلى حد بعيد ، ويجعلها تتمتع بتجدد هوائها من السهل الواسع الكبير الذى يوجد إلى الخلف منها . ومدينة لينجا القديمة ، وهذا هو الاسم الذى يطلقونه عليها – أى تلك المدينة التى كانت موجودة قبل انتقال حكمها المحلى من شيراز إلى عمان – عبارة عن مدينة صغيرة ومحكمة ، وتتسع لعدد يتراوح بين أربعة وخمسة آلاف نسمة ، ونصف مساحة هذه المدينة عبارة عن أسواق ، ضيقة ولكنها أنيقة ومنظمة – كما تحتوى أيضا على مقاهى ومنشآت أخرى مماثلة ، علاوة أيضا على مسجد كبير أقيم بالقرب من شاطئ البحر . ومنازل المدينة القديمة مبنية بطريقة متينة ، وبعضها مبنى من الحجر والبعض الآخر من القرميد ، وهى مدهونة باللون الأبيض ؛ وشكل هذه المنازل حسن وعليه بعض النقوش الزينية ، وذلك من منظور شخصى وصل إلى هذه المدينة ، منذ فترة وجيزة ، قادما من قطر . والذوق الفارسى توحى به المنحوتات ، التى نراها على أبواب المنازل ، وعلى النوافذ والشرفات ، والعقود المدببة والمزدوجة فى معظم الأحيان ، والشَّعْريات الشبكية ، والمكونات الزينية من حول المتاريس والزوايا . وهذا الجزء من مدينة لينجا تحيط به أسوار منخفضة ، أو هكذا كانت فى يوم من الأيام ، والسبب فى ذلك أن هذا السور قد أنهار واختفى تماما ، فى أجزاء كثيرة من هذه المدينة .

واعتبارا من الفترة التى اتخذ خلالها السلطان سعيد مدينة لينجا مقرا له ، وحولها إلى ميناء حر ، معفى من كل أشكال الرسوم الجمركية ، باستثناء رسوم مينائية طفيفة ، بدأت أهمية لينجا تتزايد بشكل سريع كما تزايدت مساحتها فى

السنوات الأخيرة إلى خمسة أضعاف ما كانت عليه أيام أن كانت تحت الحكم الفارسى السيئ . وثمة سبب آخر من أسباب ازدهار مدينه لينجا ازدهارا حقيقيا ، يتمثل فى ذلك التسامح الحكيم ، الذى حل ، طبقا لمبادئ الإدارة العمانية ، محل التعصب وضيق الأفق الشعبى ، وجذب إلى مدينة لينجا كثيرا من السكان لا من البحرين وحدها وإنما من القطيف ومن الاحساء ، ومن البصرة ، وأيضا من بلوخستان ، ومن لوديانه **Loodianah** ، ومن الهند ذاتها . ونتج عن ذلك ، أن المنازل الجديدة ، التى يوحى انشاؤها السريع ، بالرواج الذى حدث مؤخرا ، بدأت تنتشر فى أقصى الشرق وأقصى الغرب على طول الخليج ، أو تتجه إلى الخلف فى اتجاه الأرض الأم ، إلى حد أن الانتقال من طرف فى المدينة إلى الطرف الآخر أصبح يستغرق حوالى ساعة أو أكثر . ومقابل الحوض أو إن شئت فقل الهويس ، توجد صخرة عالية ، هى الصخرة الوحيدة الموجودة فى هذه المنطقة ؛ وعلى هذه الصخرة توجد قلعة وبرج قديم يبدو أنهما من العصور الوسيطة ، وهما خاليان الآن من القوات ؛ والسبب فى ذلك أن ثوينى يعتمد على الأسوار الخشبية بدلا من الأسوار الحجرية فى الدفاع عن موانئه البحرية . وفى أقصى الشرق ، يوجد قصر الحاكم العمانى ، ذلك الشاب الذى يبلغ من العمر عشرين عاما أو ما يقرب من ذلك ، واسمه سيف ، وهو من أهل باطنه ، وقصر الحاكم عبارة عن مربع كبير ، يصل ارتفاعه إلى أربعة طوابق ، ونوافذه من طراز القوس القوطى ، وتحتوى على كثير من الزينات الفارسية ؛ وقد ذكرنى الشكل العام لهذا القصر ببعض أسوار المدن القديمة فى القارة الأوربية وبخاصة فى كل من بلجيكا وبعض البلدان الأخرى . وعلى مبعدة من ذلك القصر توجد بعض أحواض السفن ، التى يجرى فيها إنشاء السفن على قدم وساق ؛ بعض هذه السفن من الحجم الكبير ، وتصل حمولتها طبقا لحسابات هذه البلاد ، إلى حوالى مائة وخمسين أو مائتى طن . والعاملون فى بناء السفن هم فى أغلب الأحيان من الهنود ، أو إن شئت فقل من نواحى بومباى . وعلى جانبى هذه المدينة ومن خلفها يوجد كثير من الحدائق الخضراء ، ولكن معظم هذه الحدائق للعرض وليس للإنتاج ، والسبب فى ذلك هو عدم خصوبة التربة ، وزيادة نسبة الأملاح فيها ، ولأنها تربة رملية فى المقام الأول ، فضلا عن أن شح الماء يجعل الرى مسألة صعبة . وبطبيعة الحال ، فإن لينجا ليس فيها عيون أو آبار كى تفخر وتتباهى بها ؛ والمصدر الرئيسى الذى تحصل منه لينجا على الماء ، يتمثل فى الخزانات الضخمة التى تتجمع فيها المياه التى تنتج عن سيول الشتاء ، والتى تصل من خلال مجارى السيول فى السهل ،

قادمة من الجبال البعيدة الموجودة فى الشمال ، لتصل إلى شاطئ البحر ، حيث يجرى تخزينها كى ينتفع الناس بها على مدار العام . وهذه الخزانات تكون دائرية فى أغلب الأحيان . ويتراوح قطرها بين ثلاثين وستين قدما ، كما يتراوح عمقها بين اثنى عشر وعشرين قدما ، أو أكثر من ذلك فى بعض الأحيان ؛ وهذه الخزانات تحيط بها أسوار حجرية عالية ومن فوقها قباب للحفاظ على محتوياتها من الجفاف بفعل الشمس والرياح . ومن حول الحافة الداخلية للخزان توجد سلسلة من الأحجار العريضة تحت الماء ، برغم أن هذه الصخور لا توجد فى بعض الخزانات فى بعض الأحيان ، كى تساعد على رفع المـــاء ليصل إلى القبـــة ، ولا يمكن الحصول عليه إلا من خلال باب أو أبواب ، وعن طريق سلم يؤدى إلى قاع الخزان ، كما هو الحال فى الآبار المغطاة فى كل من الجزيرات ، وفى الهند ، بل وفى الشرق بصورة عامة . وكل قبة فيها خمسة أبواب ، وذلك تيمنا بالشخصيات الخمسة العزيزة على الشيعة – على ، ومحمد (ليس محمد النبى المشهور ، وإنما هو ، إن صحت الرواية واحد من أبناء على) ، وفاطمة ، والحسن ، والحسين – ومن هذه الأبـــواب يدخل أولئـــك الذين يأتـــون لجلب الماء ؛ ولا يستبعد أحد من الدخول إلى هذه القباب ، لجلب الماء ، ولا تُحَصَّلُ أية رسوم ، والمنفعة عامة بالمعنى الواسع لهذه الكلمة – وبعض هذه الخزانات على شكل مستطيل ومغطاة بقبو إسطوانى ؛ وهذه الآبار المستطيلة ليس لها سوى باب واحد . والماء الذى فى هذه الآبار أفضل مما كنت أتوقع ؛ وربما كان للبطانة الجيرية فى هذه الآبـــار ، دخل فى نقاء مياهها .

يضاف إلى ذلك ، أن مدينة لينجا تعد واحدة من المدن كثيفة النشاط فى البر وفى البحر : فهذه سفن تلقى مراسيها ، وتلك سفن ترفع مراسيها ، وهذه قطرات ، أو إن شئت فقل مراكب شراعية صغيرة وحيدة الصوارى ، وتلك سكّونات ، مراكب شراعية ذوات صاريين أو أكثر ، وهذه لغر ، مراكب شراعية ذوات أشـرعة رباعيـــة الأضلاع أو أكثر ، وتلك قوارب ، وهذه سفن تجارية ، وتلك مراكب صيد ؛ وهؤلاء بحارة جاءوا من سواحل مختلفة ، ملابسهم مختلفة وملامحهم مختلفة أيضا ، ويتشابهون فى سمنتهم التى لا يخطؤها أحد ، شأنهم فى ذلك شأن النحاس الأحمر ، والفضة ، وكذلك الذهب عندما تدمغ كلها بالخاتم الذى يحمله رأس الملكة . وهذه بضاعة من شيراز ومن أصبهان ، وهذه بضاعة أيضا من السند ومن بومباى ، وتلك بضاعة من عمان ومن زنجبار وهذه بضاعة من الحيرة ومن خراسان . وهؤلاء من الفرس ، وأولئك من التتار ،

وهؤلاء من الهنود ، وأولئك من البلوش ، وهؤلاء عرب ، وأولئك عمانيون (نظرا لأن العمانيين يتميزون في الحديث العام عن العرب ، كما أن بلادهم تتميز أيضا عن سائر بلدان الجزيرة العربية : من هنا نجد أن مصطلح " عربي " يدل في عمان على شخص غريب ، كما أن أهل عمان يتحدثون عن السفر إلى الجزيرة العربية مثلما يتحدث المواطن الإنجليزي عن السفر إلى الدانمارك أو إلى أيرلنده) ، والزنوج يوجدون هنا بأعداد كبيرة ، قد تشاهد بين الحين والآخر ، سوريا ، أو أرمينيا ، أو مصريا ، علاوة على طائفة يهودية مزدهرة الحال ، هنا أكثر من البحرين ، كما نشاهد هنا أيضا أعدادا كبيرة من البحارنة ، الذين يفضلون حكم الثويني على حكم الخليفة . إن مدينة لينجا مثال طيب على مدن الشرق التجارية ، فضلا عن كونها أيضا مكانا ممتازا لدراسة رجال وسلوكيات نصف آسيا .

وينصرف يوسف يبحث عن مسكن لنا نحن الاثنين ، في حين بقيت أنا فترة من الوقت ، جالسا عند سفح البرج القديم المخَرَّب الذي سبقت الإشارة إليه ، وأنا أتأمل المشهد الأول من الازدهار الحقيقي الذي لم أشهده منذ سنوات ، كما رحت أتأمل أيضا فضائل الحكومة التي ترضى لنفسها بمجرد تأمين الأمن والسلامة لرعاياها دون أن تتدخل في أحوالهم الاجتماعية أو شئونهم الفردية ؛ أو إن شئت فقل جنون إتيان الكثير من الأعمال – التي من قبيل القواعد المنظمة ، الاحتكار ، المركزية ، الدين الحكومي ، التعليم الحكومي ، السيطرة الحكومية ، والوصاية ؛ أو باختصار المنظومة "الحمائية" – التي تتغلغل في كثير من البلدان ، شرقا وغربا ، كي تشل حيوية الأمم وتعرقل تقدمها ، وتخرب رفاهها الحقيقي ، ثم تتدخل في النهاية بأعمال الحلول الوسط في حياة هذه الأمم . وقد شاهدنا مثالا فريدا لذلك ، بالمقاييس العربية ، في نجد ، كما يمكن أن نقف على شئ مماثل في التاريخ الماضي والتاريخ المعاصر لكثير من الأمم ذوات الأسماء الأكبر والمزاعم الأكبر من المزاعم العربية . في هذه الأمم بدلا من الطاقة غير المقيدة ، وبدلا من الحرية ذاتية النمو ، وبرغم وفرة النعم التي لديها ، نشاهد جيشا عاملا كبيرا ، وسكانا ينوء كاهلهم بالضرائب ، وعاصمة هائلة ، وأقاليم فقيرة ، وكثيرا من الزخارف والتباهي في أمة من العبيد ، أو تتحول بسرعة لتكون كذلك ؛ كما نشاهد أخيرا تناقص عدد السكان وانحلالهم الذي ينتهي إلى انهيار لا يؤسف عليه . ويجوز لنا أن ننقش على قبور كثير من الحكومات ، وعلى قبور كثير من السُّقماء

الشعار الذى يقول : كان الحال على ما يرام ، ولكنى هنا للأحسن Staca bene; ma per star meglia, sto qu ?. من الطبيعى أن يتكلم المنظرون عن الواجبات الأبوية ، وعن الحقوق المقدسة ، وعن بنية الحكومات ، ومن حق المنظرين أيضا أن يقارنوا الحكومات بالآباء ، وبالمدرسين ، وبالآلهه على الأرض ، وما إلى كل ذلك ، ألا يصح لنا أن نقول إن أول مهام الحكومة ، بل ومهمتها الوحيدة تتمثل فى القضاة : أليست مهمة الحكومات الأساسية هى أن تضمن لرعاياها التمتع الهادئ بذلك الذى يسميه العرب بطريقة خاطئة " الأشياء الثلاثة الثمينة " ، وهى على وجه التحديد ، الحياة ، والعرض والمال[1] ؟ والحكومات مسئولة أمام المحكومين عن هذه الأشياء الثلاثة؛ وفيما عدا ذلك ، يجب أن يترك للأفراد ، وللمجالس البلدية ، والقرى ، والمدن ، والاقطاعات ، والاقاليم ، حرية تنظيم شئونها على النحو الذى تراه مناسبا لها. والمثل الأسبانى الصادق يقول : " الأحمق يعرف الكثير عن منزله أكثر مما يعرفه العاقل عن منزل جاره " ؛ يضاف إلى ذلك أن البشر ، فى أغلب الأحيان ، يعطون أحلى ما عندهم إذا لم يتدخل أحد فى شئونهم . والمطلوب من الملوك ، والأباطرة ، ومن البرلمانات ومن الدول ، بغض النظر عن مسميات الحكم ، أن تبلغ من الرشد والحكمة مبلغا يمكنها من معرفة نفسها معرفة حقيقية – إن مهمة الحكومات هى أن تلعب دور القضاة فى البلاد، ولا شئ غير ذلك ؛ والتعزيز مطلوب ، والتدخل مرفوض – ولكن النظام مطلوب ؛ يجب أن يكون الواقع شعارا للحكومات ، وهنا تربح جميع الأطراف ، ويتحولون إلى رابحين كبار .

وعلى أى حال ، فقد كان ذلك (من وجهة نظرى) ، وذلك باستثناء قلة قليلة من الحالات الشاذة ، هو حال الإدارة العمانية ، ولذلك فقد حظيت هذه الإدارة بالنتائج التى تستحقها ، ففى منطقة تصل مساحتها على وجه التقريب ، إلى نصف المساحة التى يحكمها الوهابى ، نجد أن عدد السكان يكاد يكون ضعف عدد سكان المنطقة الوهابية ، كما أن ثروة عمان ودخلها يقدران بعشرين ضعف من ثروة نجد ودخلها . وإذا كانت صفحات العمانيين لا تشتمل إلا على القليل من حملات الشجاعة العسكرية، وإذا كان عدد أولئك الذين قتلوا فى ميدان الشرف قبل الأوان أقل من أمثالهم فى نجد،

(١) إن ما يشير إليه المؤلف هو ما يعرف فى الإسلام بحفظ الضروريات الخمس وهى : حفظ الدين ، وحفظ النفس ، وحفظ العقل ، وحفظ العرض ، وحفظ المال ، وهى الأمور التى لا تستقيم الحياة إلا بالحفاظ عليها وصيانتها من كل اعتداء ، وقد شرع الإسلام من الحدود والزواجر ما يحفظها من كل معتد عليها وهى : حدّ الردّة ، وحدّ القصاص ، وحدّ شرب الخمر ، وحدّ الزنى والقذف ، وحدّ السرقة والحرابة – (د. حلمى عبد المنعم) .

وإذا كان عدد الأحداث البراقة أو إن شئت فقل الدامية أقل من مثيلتها التى ترمز إلى السلطة المركزة فى يد فرد واحد ، فإن ذلك يعطى ، فى المقابل ، قرونا من العمل الجيد الهادئ ، ومدنا مزدهرة ، وأرضا كثيفة السكان ، وأمراء يحبهم رعاياهم ، ورعايا يتسبب أمراؤهم فى ازدهارهم – وهذه الحقائق سوف تتأكد أكثر طوال استمرارنا فى سرد وقائع هذه الرواية ، أو بالأحرى عندما نختتم هذه الرواية التى بدأت تتضاءل ؛ والسبب فى ذلك أننى فى محاولتى تلخيص التاريخ العمانى فى هذا الفصل وجدتنى أقلد كتاب القضاة Judges ، الذى تقرأ فيه إن " الأرض التى استراحت أربعين عاما " ، تأخذ خطا تصعب ملاحظته بين العصور ، لأنه يكون أوجز فى واقع الأمر ، برغم أنه يكون أطول عند حكيه من جديد ، لأننا فى هذا الحكى نقرأ بالتفصيل عن الصراع الذى دار بين كل من جيفثا Jephtha وأفرايم وعن الغزوات التى قام بها سياسيرا Sisera وميديان Midian .

الخاطر الثانى الذى فرض نفسه علىَّ وأنا أتأمل الأمور والأحوال عندما شاهدت ذلك البرج المهدَّم ، الذى كان معقلا لحامية مسلحة فى يوم من الأيام ، والذى تُرِك الآن فريسة للبلى والتحلل . التوسع فى استعدادات الدفاع العسكرية عبارة عن ترمومتر حقيقى ودقيق ، يسجل ويقيس ضعف هؤلاء الذين يقومون بمثل هذه الاستعدادات ؛ التحصينات هى التى تخون وهن الحكومات الفطرى والحقيقى ، شأنها فى ذلك شأن العكاز الذى يوحى بوهن الساقين والرجلين . وفى الأمم التى تفتقر إلى الطاقة والشعور الوطنى ، نجد أن الأعمال المادية التى من قبيل الإنشاءات الحجرية والمنشآت القرميدية تحل محل هذه الطاقة وذلك الشعور الوطنى ؛ فى مثل هذه الأمم نجد أن راتب الجندى يكون فى أغلب الأحيان دليلا على فتور شعور المواطن ، وإشارة إلى أن الحكومة نفسها ليست وطنية ، أو علامة على تضخم الحكومة وإهمالها لأمتها . وهذا لا يعنى أننا يجب أن نغفل أو أن نتغافل عن كل هذه الأمور كلية ؛ وهذا لا يعنى التسطح والسطحية إذا ما احتفظنا بمثل هذه الأمور لتكون فى إطار الحدود المناسبة ، إذ أن ذلك يجنبنا المزيد من الشرور . ولكن إذا جاز لى أن استطرد فى الاستعارة السابقة (برغم أن مقصدى من ذلك هو الوصف وليس الإثبات ، كما يقول برايور Prior) فإننى أقول : إن العكاز شئ مختلف تماما عن الساق الخشبية ؛ والرحّالة ، قد يفعل خيرا إذا ما حمل معه طوقا محملا بالمسدسات يلفه حول خصره ؛ ولكن ما رأينا فى بلد يتحتم على كل واحد فيه أن يتمنطق بمثل هذا الطوق حتى عندما يكون جالسا إلى جوار المدفأة فى منزله الخاص ؟

ولكنى أتطلع أنا والقارئ – بعد أن قرأ هذه التعميمات ، إلى مجيئ يوسف ومعه أخبار المسكن وطعام الإفطار . وهاهو يوسف قادم من حسن حظنا ، ولكنه لا يسير وحده ؛ ومعه صبي أفطس الأنف ، غليظ الشفتين ، حلو الطبع ، تدل يديه المتسختين ، وثيابه الملطخة بالسناج على أنه حداد . دعيج ، وهذا هو اسم ذلك الصبى (وهو يتطابق مع اسم دوئيج Doeg في زمن سيدنا داود (عليه السلام) ، ولعل القارئ يرى أن اختلاف الشرق عن الغرب طفيف جداً) من أبناء الاحساء ، ولكنه استقر هنا فى لينجا ، ليتعيش من مهنته الشريفة المربحة . ودعيج جاء ليقترح علينا أن نسكن عنده ونقيم معه ، ولذلك فقد جاء بنفسه ليقدم لنا التحية ، ويدعونى لمرافقته إلى منزله الفلكانى[1] . وكان منزل دعيج جيدا تماما ، إذا ما أخذنا فى اعتبارنا وضعه فى الحياة ؛ إذ كان المنزل يشتمل على عدة غرف ، تفتح كلها على حوش واسع ؛ وبالقرب من المدخل الرئيسى للمنزل ، كانت توجد ورشة الحدادة بمختلف أجزائها ، والسبب فى ذلك أن صناعة السفن التى كانت تجرى فى الأحواض القريبة من الورشة كانت تسند إليها كثيرا من الأعمال .

كان شقيقا دعيج يعيشان معه فى هذا المنزل ؛ يضاف إلى ذلك أن عددا كبيرا من البحارنة ، والعمانيين وما إلى ذلك كانوا يترددون على هذا المنزل ، ولكن الفرس لم يكونوا يترددون على هذا المنزل نظرا لأنهم يندر أن يخالطوا السكان العرب. وأمضينا ثلاثة أيام فى منزل دعيج ونحن ننتظر هبوب ريح مواتية تنقلنا إلى الشارقة . ولم يكن هناك مبرر أو ضرورة تجعلنا نزور سيف، حاكم المدينة، ولينجا مدينة تجارية ، وميناء بحرى قلبا وقالبا من العالم الكبير الذى يفد إليه ويخرج منه منفردا ، ولا يبحث فيه أحد عن التعرف إلى الآخرين ، اللهم إلا إذا كان ذلك من أجل سبب أو مصلحة خاصة . وفى دوائر الجزيرة العربية المسحورة ، التى يستمر الرقص فيها منذ أربعة آلاف سنة على أقل تقدير ، داخل دائرة السحر نفسها ، بحيث لا يخرج منها ولا يتخطى حدودها ، أو يسمح حتى بتوسيع تلك الدائرة كى تسمح بدخول بعض الإجراءات الاجنبية ؛ فى هذه الدوائر نجد أن الرؤساء ، والسلاطين ، والحكام ، و"دونات" الأرض الآخرين ، لا يمكن المرور عليهم دون أن نلقى عليهم التحية ، ودون أن

(١) فُلكان : هو إله النار وصانع الأدوات المعدنية عند الرومان ، والتشبيه هنا جميل لأن دعيج يعمل حداداً ويصنع الأدوات الحديدية – (المترجم) .

يسبغوا على من ألقى التحية الدلائل التي توحى بعظمتهم على شكل كرم ؛ وهذا العمل بحد ذاته عمل " أبوى " اكثر منه إجراء شبيها بإجراءات رجال المال والأعمال . ذات مرة وخارج نطاق هذه الدائرة السحرية ، ركبنا ، مثل الآخرين ، من هذا العالم ، الذى يحمل كل إنسان على السير فى الخط الذى سار عليه سواء أكان مستقيما أم منحنيا ، ولكن ذلك الخط لا يختلط بخطوط أولئك الذين يجاورونه ، إلا إذا جمعتهم المتعة والربح إلى بعضهم فترة معينة . والواقع أن الرحالة إذا ما قام بزيارة حاكم لينجا بدون سبب وجيه أو خاص ، فإنه سيصبح مثل ذلك الذى يزور عمدة لندن لأنه تصادف أن سكن مدة ثلاثة أيام فى فليت ستريت Fleetstreet .

ولينجا مكان جميل بمنازلها البيضاء التى تنتشر على طول الشاطئ المفتوح ، الذى تظله أشجار النخيل ، والذى يضفى عليه جدبه رشاقة فى بعض الأحيان - أسواقها المزدحمة - والقباب الكبيرة المتلألئة التى تغطى خزانات المياه ، وصفوف الصبايا اللاتى تحملن جرارهن ومنهن الغاديات والرائحات - والورش الخاصة بمصنوعات سعف النخيل - وأحواض السفن التى تسمع فيها ضربات المطارق ، والتى تفوح منها رائحة بخار الزفت والقار - والقوراب التى تصطف على الشاطئ البراق- وهوائها النقى وشمسها الساطعة . وفيما يتعلق بنا ، فقد أمضينا وقتنا نتجول فى المدينة ، ونتحدث إلى بناة السفن ومع التجار ، وفى زيارة القرى أو بالأحرى ضواحى لينجا ، والسبب فى ذلك أن الوادى ، فى لينجا ، يزدحم بالسكان ، إذا ما أخذنا فى اعتبارنا مسألة افتقار لينجا إلى العيون المائية أو المجارى المائية الدائمة - وأنا أستطيع تعليل ذلك الافتقار إلى العيون المائية ، نظرا لأن جبال فارس العالية تبعد مسيرة نصف يوم نحو الداخل، يضاف إلى ذلك أن الأمطار الموسمية هنا غزيرة جدا . وربما تكون التربة الخفيفة هنا هى التى تتشرب المياه التى تنساب عليها من الأراضى المرتفعة . ومن على شاطئ البحر ، نستطيع أن نرى ، عبر الأمواج فى اتجاه الجنوب الشرقى مرتفعات جشم فوق مدينة باسيدوع 'Basido ، ونرى بعيدا عنها الشكل الخارجى لمدينة رأس مسندم ، وهذا المنظر الجميل ، الذى يسر الخاطر ، يقول : إننا وصلنا إلى مصب الخليج . ومن بين الجولات التى قمنا بها أيضا تلك الجولة التى تجولنا خلالها فى سوق المدينة وتعرفنا خلالها على البضاعة المعروضة للبيع : السجاد العجمى بكل مقاساته ، وأشكاله ، وألوانه ، ورخص ثمنه وتوفره بأعداد كبيرة ؛ والمشالح المنسوجة ، والثياب المصنوعة فى خراسان ؛ وتوفر الأسلحة المصنوعة فى لينجا ،

والأوانى الزجاجية ، والأوانى الفخارية ومثيلاتها من الصناعة الأوروبية والأمريكية ، والتى جاءت عن طريق الهند ، وقبل كل ذلك كانت هناك الأقمشة الإنجليزية ، والكتان الإنجليزى ، مختلطا بالمصنوعات التانيه Tanna ، تلك المدينة القريبة من بومباى ؛ وشاهدنا أيضا مستلزمات الثياب العربية التى جاءت من عمان ومن الاحساء ؛ وشاهدنا أيضا المصنوعات النحاسية التى جاءت من بغداد ؛ وشاهدنا الأحزمة التى جاءت من طرابلس ؛ وشاهدنا أيضا الأرز ، والنيلة ، والتوابل ، والبن ، والعقاقير المغشوشة ، والثمار المجففة ... الخ ؛ وهذه الأشياء تغرى المشترى ، وتفيد البائع . والزحام فى هذه الخلية البشرية يشبه إلى حد ما زحام بابل . وعلى كل حال ، فإن النظام والأمن يسودان فى الحضر وفى الريف ؛ وفُرْسُ الساحل ، إذا ما تركوا لحال سبيلهم ، يتحولون إلى عرق هادئ تماما ؛ وبرغم أن الحكومة أجنبية إلا أنها تحظى بشعبية بين الجميع .

وبينما كنا فى لينجا وصل إليها وفد من شيراز لإجراء مفاوضات بشأن إنشاء جمرك فارسى فى الميناء . وجاءت مناسبة هذه السفارة غير المرغوب فيها بمثابة شئ غريب تماما . إذ كان حاكم شيراز ، قد أرسل قبل ستة أشهر ، مطالبه ببعض متأخرات الجزية المقررة ، التى يقول حاكم شيراز ، إن السلطات العمانية قد امتنعت عن إرسالها. وأنكر سيف أيضا هذه المطالبة ، وأعاد الوفد إلى شيراز خالى الوفاض . وتلى ذلك تلويح شيراز بالثأر والانتقام . وعندما وصلت الأمور إلى هذا الحد ، قام اثنان من أثرياء تجار لينجا ، واللذان كانا حاضرين ضمن مجلس سيف ، قاما بإبلاغ زملائهم التجار بذلك الخطر المحدق. وبناء على ذلك ، عقد أعيان مدينة لينجا اجتماعا ، وافقوا فيه على أن يدفعوا المبلغ المطلوب من أموالهم الخاصة ، بشرط أن تقوم شيراز بسحب هذا الإنذار الرسمى . وتحددت حصة كل واحد من هؤلاء التجار ، وأعدت قائمة بذلك ، وتم جمع المبلغ المطلوب ، وأرسل التجار مبعوثا إلى أصدقائهم فى شيراز كى يتوسطوا لهم عند حاكم المدينة الفارسى وأن يبلغوه أن مطالبه سوف تتحقق ، على أن يتركهم ينعمون بالسلام والهدوء . ولكن سيف عندما علم بذلك ، استدعى أهل المدينة ليمثلوا أمامه ، وأبلغهم أنه لن يوافق أو يسمح بذلك بأى إجراء من هذا القبيل ، وأن المبلغ ، إن قدر له أن يُدْفع ، فلا بد أن يدفع من خزانة الحكومة ، وليس من أموال الناس الخاصة ؛ وبذلك يكون سيف قد عارض إرسال المبلغ المطلوب . وانتظر الفرس فترة من الوقت على أمل أن يصلهم شئ من سيف أو من رعاياه ، ولكن انتظارهم باء بالفشل ؛

وهنا ينطبق مثل المقعدين القديم والنتائج السيئة التى ترتبت عليهما . وعلى كل حال ، فإن الفرس كانوا مصرين على عدم الخروج من اللعبة بمثل هذه البساطة ؛ واستهدافا من الفرس لستر ثوب الابتزاز بإضفاء لون جديد عليه ، تغاضوا عن مسألة الجزية ، وطالبوا بدلا من ذلك بإعادة إنشاء المنظومة الجمركية القديمة ، لصالح الخزانة فى شيراز ، ولكن سيفاً ومستشاريه لم يكونوا ميالين إلى الموافقة على ذلك أيضا ؛ وحدثت بعد ذلك تغييرات وأنا لا أعرف كيف انتهت هذه المشكلة ، لأننا غادرنا لينجا قبل إنهائها . وأنا هنا أجد أن من المفيد إضافة ملاحظة هنا مفادها ، أن هذا الشريط الساحلى برغم ضمه إلى عمان وبرغم أنه ظل تحت الحكم العمانى ثلاثين عاما تقريبا ، إلا أن البلاط الفارسى لا يزال يؤكد أن له شكلاً من أشكال السلطة العامة على الأراضى التى كان غير قادر على الدفاع عنها؛ فى حين ترى مملكة عمان، من جانبها ، الحفاظ على وجود تفاهم قوى بينها وبين طهران يحول دون رفض مطالب طهران ويمنع تدخلها من حين لآخر فى الشئون العمانية . ومن ثم يتم فى مثل هذه الحالات اللجوء إلى الحلول الوسط ، والالتزام بها - بمعنى ، طوال فترة تواجد المبعوثين الفارسيين . كانت الأحداث التى من هذا القبيل ، هى والحديث الكثير الذى دار عن تجارة الهند وتجارة خراسان ، والاستيراد والتصدير، والشحن البحرى ، والمغامرات البحرية بمثابة المادة الرئيسية فى كل الأحاديث التى سمعناها فى لينجا أو شاركنا فيها . وفى الشرق، حيث يتم النقل والاتصالات البرية عن طريق الإبل بطيئة الخطى ، وحيث تنتقل أخبار البحر عن طريق الريح المواتية ، فإن عشرة أميال فى الشرق تساوى مائة ميل فى أوربا بسبب المسافات التى بين المواقع المختلفة ، كما أن المائة ميل فى الشرق تساوى ألف ميل أو أكثر فى أوربا . من هنا أرجو ألا يتعجب القارئ إذا ما قلت إننا لم نسمع على هذا الشاطئ شيئا عن نجد أو عن شومر أكثر مما لو كنا فى جلوسستر شاير - Gloucester shire - بل وربما أقل من ذلك . والسبب فى ذلك ، أن الصحف موجودة فعلا فى جلوسستر شاير، ولكنها ليست موجودة فى لينجا . يضاف إلى ذلك ، أن نشاط المال والأعمال الحالى، والشراء والبيع ، والتهريب، يشغل بال الناس جميعا ، ولا يترك للفضول الأجنبى . زد على ذلك ، أن المسجد برغم كبر حجمه وأناقته ، وكذلك المبانى الأخرى فى المدينة ، لا تسترعى اهتمام الناس . بل إن المناظر فى المناطق المحيطة بالمدينة والمجاورة لها تكاد تكون مألوفة تماما برغم أن سلاسل الجبال تشكل ، عن بعد ، إطارا خارجيا أزرق جميلا ، ولكنه يوحى بالجفاف . وأنا لم أندم مطلقا على

الأيام الثلاثة التى كنت أنتظر خلالها هبوب ريح مواتية ، إلى أن هبت فى اليوم الرابع عاصفة من الريح الشمالية ، حضر على إثرها ربان المركب إلى مسكننا ليعرض علينا السفر على مركبه المتجه إلى الشارقة ، وأن سفينته جاهزة للإقلاع .

والأغنام ، من بين السلع التى يجرى نقلها فى لينجا ، وهى تنقل بأعداد كبيرة من إيران إلى عمان ، التى يندر فيها وجود المراعى ، وأن ما يوجد منها يخصص لتربية الذلول . وهذا هو عباس ، تاجر الأغنام الذى جاء من الشارقة وتربطه قرابة مع الاحساء من خلال جده السابع ، يشحن مجموعه من الأغنام يصل عددها إلى حوالى مائتى رأس بهدف الاتجار فيها . وإلى جانب عباس كانت هناك مجموعة أخرى من الأصدقاء ، جاءوا من الشارقة أيضا ؛ وكان عباس صاحب قلب كبير عامر بالحب ، بمعنى أنه كان عمانيا خالصا ، والواقع ، أننا واجهنا مشقة كبيرة عندما حاولنا منعه من أن يدفع عنا أجرة انتقالنا إلى ربان المركب .

وفى اليوم السادس عشر من الشهر أبحرت السفينة بعد دخول وقت الظهر بفترة وجيزة ، وكان بصحبتنا بعض من سكان جزيرة جشم ، أولئك الرجال الذين يلوذون بالصمت ولا يتواصلون مع الغير ، وقد لفوا أنفسهم بثياب فارسية سميكة ؛ وكان طاقم السفينة كله من الزنوج ، كما كان من بين المسافرين إلى الشارقة ذلك القصاب ، الذى يشهر سكينه تحسبا لما يمكن أن يصيب الأغنام . كانت الريح عالية وسرعان ما تركنا الميناء وبدأنا نمخر عباب الخليج . وأثناء الليل تغير هبوب الريح إلى ناحية الشرق ، وهاج البحر وماج ، ونظرا لأن الأغنام كانت محصورة فى عنبر المركب الذى كان يضيق بها ، فقد مات منها حوالى عشرين رأسا وكان لابد من التخلص منها عن طريق رميها فى البحر . وعند طلوع الفجر كنا قد بعدنا تماما عن جزيرة أبو موسى الصخرية (التى يختصر اسمها على كثير من الخرائط إلى أبى موسى وهذا مثال واضح على ما يعتور الكلمات العربية من تغيير على ألسنة ربابنة البحر الإنجليز) ، وهنا تقرر أن تلقى مركبنا مراسيها ، نظرا لارتفاع الموج ، إضافة إلى أن مواصلة الرحلة يعنى نفوق المزيد من الأغنام . وبحثنا عن خليج صغير ، ألقينا فيه مراسينا انتظارا لتحسن الطقس ؛ وأنزلنا الأغنام إلى الشاطئ ، كى تنعم بشئ من الحرية المؤقتة ، وتأكل من المرعى الموجود على الجزيرة .

وجزيرة أبي موسى عبارة عن قمة مخروطية يتردد ارتفاعها بين خمسة وستة آلاف قدم ، يوحى مظهرها وشكلها بأنها من الصخور البركانية ، وسلسلة من الصخور البازلتية ، أما بقية الجزيرة فهي عبارة عن مرتفعات ومنخفضات تغطيها الحشائش وأشجار الأراك ؛ ويصل طول هذه الجزيرة إلى حوالى خمسة أميال ، ويتراوح عرضها بين ميلين وثلاثة أميال . وفي الطرف الجنوبي الغربي من هذه الجزيرة توجد بعض آبار المياه المالحة ؛ من هنا فإن جزيرة أبي موسى تعد ملجأ وملاذا مستمرا ، ومقاما مؤقتا تلوذ به أطقم السفن في ظل الظروف التي نحن فيها الآن ، ومع ذلك فإن السكان الرئيسيين في هذه الجزيرة هم الأوز البرى والأرانب الأوروبية . يضاف إلى ذلك ، أن جزيرة أبي موسى ، تعد في فصل الشتاء مرعى إضافيا ترعى فيه خيول وإبل خالد بن صقر ، حاكم الشارقة ، الذي يرسل ، في معظم الأحيان ، إلى جزيرة أبي موسى ، جزءا من ثروته الحيوانية كي ترعى هناك طيلة شهرين أو ثلاثة أشهر . وعندما وصلنا إلى أبي موسى ، كان يوجد عليها بالفعل عشرين جواداً من خيول خالد بن صقر ، كانت تتجول في أنحاء السهل عند سفح الجبل ، في حين كان هناك العديد من إبل الذلول التي كانت تتجول هنا وهناك بلا أية ضوابط أو قيود . وكان يرافق هذه الحيوانات ، حوالي نصف دزينة أو أكثر من الرعاة والخيالة ، بصفتهم حرسا ورعاة لهذه الحيوانات؛ كما كانت هناك أيضا سفينة صيد عمانية صغيرة من طراز السّماك ، اضطرت مثلنا إلى اللجوء إلى جزيرة أبي موسى ، نظرا لارتفاع الموج ، وكانت ترسو في خليج آخر بعيد عن الخليج الذي رست فيه سفينتنا. والجانب الشرقي من الجزيرة، الذي رست عليه سفينتنا ، فيه الكثير من الخلجان التي يمكن اللجوء إليها ؛ ولكن الجانب الغربي من الجزيرة وعر وتكتنفه الصخور ، وتتكسر عليه الأمواج الآن على شكل زبد أبيض . وعلى مرمى البصر في البحر وفي اتجاه الجنوب الغربي نستطيع أن نرى صخورا رائعة الجمال قليلة الظلمة تتبع جزيرة صير S.eer ، تلك الجزيرة التي تقع في خليج اللؤلؤ .

وقد أحدثت وحدة هذا المكان النسبية ، تأثيرا كبير في خيال رفيقي يوسف ، الذي لم يتعود على هذا النوع من العزلة ؛ وأبدى ملاحظة ، بضحكة تنم عن الحزن قائلا : "لو قدر لكل أصدقائنا الموجودين على البر أن يخمنوا المكان الذي نحن فيه الآن ، فهل يخطر ببال أحد منهم أننا في جزيرة أبي موسى ؟" أبدى يوسف هذه الملاحظة وهو يقف على الشاطئ ؛ والسبب في ذلك ، أننا بعد أن اكتشفنا أن مقامنا قد يطول على الجزيرة ،

اتفقنا بعد أن تشاورنا على أن نسبح إلى البر ؛ بعد أن نبحر بمركبنا إلى أقرب مسافة من الشاطئ ، والتي لا يفيد عندها استعمال القارب الملحق الذي يسميه الناس هنا جاليبوت ، محدثين بذلك تغييرا طفيفا في تسميته الإنجليزية . وهذا التغيير لا يقتصر على هذا الاسم وإنما ينصرف أيضا إلى بعض الأسماء الأخرى ، فشراع السارية الأمامية الذي يقال له Jib-Sail بالانجليزية يقولون له "جيب" Djeeb ، والصاري الرئيسي الذي يقول له الإنجليز Main mast يقولون له : ميانة ، والشراعية ذات الصاريين التي يقول لها الإنجليز Brig يسمونها Brek ... الخ هذه الأسماء . وحملنا على رؤوسنا الأشياء التي تخصنا ، فهذا واحد يحمل على رأسه سجادة ، وآخر يحمل دلال القهوة ، وذاك ثالث يحمل أواني الطهي ... الخ إلى أن أصبح ما نحمله يكفي لإقامة مخيم بري على الشاطئ المقابل للسفن . أما نحن : أي أنا ويوسف ، والزنوج ، والعمانيين ، الذين غالبيتهم من السباحين المهرة ويتمتعون بهذا النوع من المرح فقد وافقنا على السباحة ، ولكن فيما يخص رفاقنا المتجهمين الذين جاءوا من جزيرة جشم ولا يستطيعون السباحة أو بالأحرى رفضوا أن يسبحوا ، فقد خلفناهم وراءنا كي يحرسوا السفينة من القراصنة ولصوص البحار .

واتخذنا من أبي موسى مقرا لنا على امتداد يومين ، انتظرنا خلالهما أن تهدهدنا الريح ، التي أصبحت مواتية الآن ولكنها شديدة جدا ولتمضية الوقت ، رحنا نتسلق الصخور ، وتصادقنا مع الرعاة والصيادين ، الذين كانوا يتشوقون مثلنا إلى من يبادلهم الحديث ، كما استكشفنا الجزيرة من أقصاها إلى أقصاها ؛ في حين راح يوسف ، الذي لم يكن يعرف أن كل ما يلمع ليس ذهبا ، يجمع قطعا كبيرة من السَّبار[1] ، الذي يوجد هنا بكميات كبيرة ، ظنا منه أن هذه القطع من الأشياء الثمينة جداً . بل ، إن اعتدال الطقس ، برغم أننا كنا في منتصف فبراير ، شجعنا على معاودة السباحة ، مع أننا لم نكن نتوقع أن الفرصة ستسنح لنا خلال أسابيع قليلة ، بتكرار هذه المحاولة .

" يا للعجب لقد أمضى ثلابا Thalaba أياما حلوة ، في مجتمع عامر بالحب ، ووسط أشكال متباينة من التسلية والترفيه ! وفيما يخصني، لم يكن لدي ما أفعله هنا ، على الصعيد الطبي أو غير الطبي ، وكنت أشعر بسعادة بالغة وأنا أسمع زئير الأمواج

(١) السَّبَار : بتشديد السين والباء ، معدن لمَّاع ينقشر بسهولة إلى رقائق – (المترجم) .

وهي تتكسر معلنة ، بين ساعة وأخرى ، استحالة مغادرتنا لهذه الجزيرة العربية . وعلى كل حال ، فإن كل ما هو على الأرض ، وكل ما هو على البحر لابد أن تكون له نهاية ، وفى مساء اليوم السادس عشر من شهر فبراير ، هدأ البحر وتحول إلى أمواج مترقرقة ، يعلوها نسيم غربى ، وسحبت الأغنام والرجال إلى الساطعة مرة أخرى ، وقبل غروب الشمس بدأت أبو موسى تختفى عن أنظارنا ، وربما إلى الأبد ، من منظورنا الشخصى . وهنا ، يتعين على القارئ بل ، وعلينا جميعا أن ننال بضع ساعات من الراحة والنوم الهادئ قبل أن ندخل إلى مشاهد جديدة وأقاليم جديدة أيضا .

الفصل السادس عشر

سواحل عُمان

نعم ، أنا أذكر جيدا
أرض التَّلوُّنات الكثيرة
التى مفاتنها هى كل ما يقوله الثناء
ثناء من ذا الذى يرفضه القلب ؟
سامية ، ولكنها مكشوفة أو جرداء ،
وليست ضبابية الجبال هناك ؛
سامية فى رقة ، وجميلة بعمق ،
مكسوة بالخضرة حتى قممها ،
ومثمرة مثل الوديان التى بينها ،
تتسامق فى خفة
وتطاول السماوات ،
والبيارات والبساتين تستمر فى الزيادة ؛
لأنه حيث لا توجد البادرات
هناك الآخر الذى يضرب الجذور
القمم رفوف ومحاطة بالشرفات .
هـ - تيلور

الوصول إلى الشارقة - خور الشارقة أو ميناؤها - نظرة مركزية على الساحل وعلى المدينة - ياقوب الإنجليزى العميل المعادى للاستعباد - تأملات - مدينة الشارقة - الأعراف العمانية - المسجد - ميول الناس - تجارة الشارقة - المعادن فى

عمان – الكرم – خالد بن صقر وحاشيته – القيساريه والسوق – بقية المدينة – القلعة والبرج – رحلة إلى الداخل – المنظر فى اتجاه جبل عقدة – ضبيع – قصة بحرية ونجاة غريبة – الإقلاع على سفينة من السويق إلى صوحار – طاقم السفينة والمسافرين – الساحل وقراه – رأس الخيمة – ساحل الجبل ورؤوس الجبال – أغاني المراكب العمانية – زيارة شاعام وخبب – طبيعة السكان – أسيعيد – مطوط – رأس مسندم وصخور سلامة – عاصفة – لارج – وصولنا إلى هرمز – الجزيرة – القلعة البرتغالية – برج فاروس – أسباب ازدهار واندحار هرمز – مزيد من التفاصيل عن الجزيرة – أسماك القرش – معنى كلمه "أوّال "– اللغة المختلطة المنطوقة – المرور على رأس مسندم – روبة – ليمة – شخص حقير – ميناء ليمة – المناظر الطبيعية والقرية – مخاوف السكان – معبد – خليج ظبيى – قلحاط – قطّاع اللُّحى – الباطنة – طبيعتها وإنتاجها – الفجيرة – شيناز – آثار الحرب – فَرْقَصة – الأبرار فى صوحار – حاكمها فخار – مضيفنا عيسى – منزله – العمارة المنزلية فى عمان – الظروف الحقيقية للباطنة – الشرطة – قلعه صوحار – الحامية البلوشية – القيسارية والسوق – السكان – البساتين – الأعراف المنزلية والكرم – الميول العامة للناس – مأوه – ميناء ومسمك صوحار – الإبحار إلى مسقط .

فى صبيحة اليوم السادس عشر من شهر فبراير من العام ١٨٦٣ الميلادى ، شاهدنا الساحل العماني المحصور بين أبى ظبى ودبى ، وهو طويل ومنخفض، ورملى ، ولكن تتخلله بيارات النخيل والقرى التى كانت تتناثر على طول الشاطئ المتلألئ ، وشاهدنا من بعد أيضا قمم البريمة أو إن شئت فقل جبل عقدة وهى ترتفع مثل السحاب ؛ وفى يوم صاف آخر شاهدنا قمم رؤوس الجبال ، هى ورأس مسندم . كنا قد يممنا مسيرنا صوب الشارقة ؛ وبعد شئ من اللف وتغيير الاتجاه استطعنا الوصول إلى مدخل ميناء الشارقة أو إن شئت فقل خورها ، وهو عبارة عن خليج ضيق، ينفتح على البحر على شكل زوايا قائمة ، ثم يتجه بعد حوالى أربعين ياردة ، بزاوية حادة صوب الداخل ، موازيا للمحيط الذى تفرع منه ، ليمتد بعد ذلك إلى مسافة فرسخ أو ما يزيد على ذلك ، وذلك على غرار الخط الذى يسلكه نهر يارى متجها من جورلستون إلى يارموث – ولكن وجه الشبه يتوقف عند هذا الحد . وعند مدخل الميناء توجد عقبة يحتاج تجاوزها إلى الخبرة والتجربة ؛ والمنطقة فيما وراء الماء هادئة تماما ، وليست عميقة تماما ؛ وهى تناسب ، فى واقع الأمر ، قوارب الصيد ، والأطواف التى تسير بحذاء الشاطئ ، ولكن السفن الكبيرة لا تجد ذلك الذى تستعين به على الطفو .

والشارجة Sharijah (بمعنى "الشارقة" Sharkah ؛ ولكن حرف الـ لهو خطأ في نطق القاف K. ، وقد ترسخ هذا الخطأ في الاسم ، إلى الحد الذي أعجز معه على التدخل في تدوينه بطريقتي ، وسوف أكتفي هنا بأنني لاحظت هذا الخطأ وحسب) تقع إلى الخلف من الخور مباشرة . والمدينة مسوّرة ، ولكن أسوارها ليست من النوع القوي ، من ناحية البر ؛ أما من ناحية البحر ، أو إن شئت فقل من ناحية الخليج ، فالمدينة مفتوحة وبلا أسوار . وفي مقابل العقبة مباشرة توجد قلعة صغيرة محكمة ، يقيم فيها خالد ؛ ومدينة الشارقة القديمة مكونة أصلا من منازل مبنية من القرميد أو الحجر ؛ في حين تمتد على طول الشاطئ صفوف لا حصر لها من الأكواخ التي صنعها أصحابها من الخشب وسعف النخيل ، ويسكنها بصفة أساسية الصيادون ، والبحارة ، ومن في حكمهم ، وصفوف هذه الأكواخ تمتد في اتجاه الشمال ، لتشكل مع مدينة الشارقة نفسها مساحة إجمالية تكاد تزيد على مساحة لينجا بحوالي الثلث ، وإجمالي سكان المدينة يتروح بين عشرين وثلاثين ألف نسمة .

واستطعنا " تجاوز حاجز الميناء " ، ودخلنا الخور ، ثم نزلنا إلى البر بمساعدة أحد القوارب ، أحضره واحد من معارف عباس لخدمتنا ، وقد شاهدنا هذا العباس ، ونحن على ظهر المركب وتبادلنا معه التحية . وعند هذه اللحظة مرق من جانبنا يخت بريطاني الصنع ، وراح يتراقص عند كاسرات الأمواج عند مدخل الميناء في الجهة الشمالية . وعلى ظهر هذا اليخت كان يجلس رجل متين في مقتبل العمر ، يرتدي الملابس البغدادية، وقد تعرفت في وجهه ، عندما مر اليخت بجانبنا ، الملامح الأرمينية . وعندما سألت عن شخصية فرد يختلف عن بقية أولئك الذين يحيطون به ، أجابوني أن ذلك هو ياقوب ، الممثل البريطاني في الشارقة ، للقضاء على تجارة الرقيق ، وأنه ربما يكون الآن في طريقه لزيارة واحدة من زوجاته الكثيرات الموجودات في قرية مفراز Mefraz الساحلية التي تبعد عدة أميال قليلة ؛ والسبب في ذلك أن ياقوب كان يتمتع بخليط كبير ومتنوع من السعادة المنزلية ، إذ كانت له زوجة في الشارقة ، وأخرى في مفراز ، وخيارات أخرى في أماكن أخرى .

ودارت بخاطري فكرة مفادها أن أهل بلدي ينبغي أن يجدوا وسيلة أفضل يستغلون فيها أموالهم بدلا من أن يملأوا بها جيوب مثل هذا الرجل " ؛ وقد شعرت بسعادة بالغة في ذات الوقت لذلك الحظ السعيد الذي أبعد هذا الرجل عن مدينة

الشارقة في نفس اللحظة التي دخلتها . والسبب في ذلك ، أن عينين متمرستين مثل عيني ياقوب يستحيل أن تفشل في كشف أمري خلال يوم أو اثنين على أكثر تقدير ؛ في حين كنت أنا ، على النقيض من ذلك ، أود الحفاظ على تنكري بكل ما أوتيت من قوة . وليس معنى ذلك ، أن انكشاف أمري في عمان كان سيعرضني لأي شكل من أشكال المخاطر ؛ وإنما كل ما في الأمر هو أن ذلك سيحرمني من حرية التواصل والحركة التي أنا عليها الآن . وفيما يخص ياقوب نفسه فقد سمعت عنه الكثير ، برغم أن ارتباطاته المنزلية عطلته في مفراز إلى ما بعد رحليي عن الشارقة . فقد اقتنعت من اسمه ، ومن قسمات وجهه ، ومن سلوكه أنه لابد أن يكون من أصل أرميني ، وبالتالي لابد أن يكون مسيحيا في الأساس ، برغم أنه ينتحل هنا صفة واحد من أتباع محمد (مسلم) ، ومن المؤكد أنه أراد أن يؤكد ذلك فأخذ بمبدأ التعدد في الزوجات ؛ وأنا أعتقد أن البصرة ، هي بلده الأصلي . وتتمثل مهمته الأصليه في منع استيراد وتصدير العبيد . ولكن ياقوب ، وهو يحتفظ لنفسه بالمال الذي أعطي له لينفق في أغراض الإحسان ، يرى أن من الحكمة ، ولأسباب كثيرة ، أن يبقى على صداقته مع جميع الأطراف ؛ من هنا ، فهو يبلغ تجار الرقيق - لا بعبارات فيها لبث أو غموض ، وإنما بعبارات عربية واضحة ومحددة - أنهم إذا باعوا الرقيق أو اشتروه في الأسواق العامة، فإن ذلك سوف يدفعه بالضرورة إلى التدخل فيما يصنعون ، أو بالأحرى فإن مرؤسيه قد يتدخلون معه ليساندوه . وأنهم إذا ما مارسوا هذه التجارة في أي مكان آخر - المنازل الخاصة على سبيل المثال ، أو الأماكن المستترة ، التي لا يكون مطلوبا منه مراقبتها - فإنهم يجب أن يتأكدوا أنه سوف يتظاهر بأنه لا يدري شيئا عن ذلك ، وألا يخشوا أو يخافوا أي شيئ من جانبه . وهذا السلوك الملزم يقابل بطبيعة الحال بنفحات مناسبة ، وهو ما يؤدي إلى زيادة اليقين والتأكيد ؛ ومن هنا يحقق ياقوب مكسبا مزدوجا ، كما يواصل التجار أعمالهم بصورة منتظمة ومربحة ، برغم وجود ممثل بريطانيا العظمى في الشارقة .

وهل يحق لي أن أضيف هنا ، أنه من أجل عيون بريطانيا ، فإنها إما أن تتخلى كلية عن هذا الأمر ، أو أن تلجأ إلى أساليب أخرى أفضل في تنفيذ هذه الأهداف ؟ وأنا على يقين ، أن بعد المسافة هي وظروف أخرى ، سوف تمنع نشر هذه السطور خوفا من أن يكون لها تأثير ضار على وضعية ياقوب ؛ ومع ذلك فإن ياقوب هذا مجرد عينة واحدة من طبقة كاملة - واحد من بين خمسمائة ، أو من بين خمسة آلاف ،

يجتمعون في الشرق الأقصى حول الراية البريطانية ليقطفوا ثمارها الذهبية ، ويسخرون من الأشجار التى تحمل هذه الثمار . وربما كان الأمر غير ذلك ، وهوراس Horace يؤكد لنا "المنزل يكون حيث لا تبقى أشياء ، ويحيون السيد ويتقدمون صوب الخارج "
Exilis domus est ubi non et multa supersunt, Et Dominum Fallunt et Prosunt Furibus,

ومعروف أن بيتنا كبير على نحو يصعب معه القيام على أمره كله فى البر والبحر. وعلى كل حال ، لابد لى هنا أن أبدى ملاحظة مفادها أن بريطانيا فى الوقت الذى اكتسبت فيه لنفسها شرفا واحتراما كبيرين فى هذه المناطق ، لا بسبب الخوف منها فقط ، وإنما بسبب المعروف أيضا ، وبسبب القضاء على آفة القرصنة البحرية التى استشرت ذات يوم فى هذا الخليج ، فإنها جرَّت على نفسها أيضا قدرا كبيرا من الخزى والعار (ويؤسفنى أن أقول) والسخرية ، والاستهتار ، عندما راحت تعارض وتعترض على تجارة الرقيق الموجودة فى هذه البلاد بالفعل ؛ بل والأكثر من ذلك طريقة تنفيذها لتلك المعارضة وذلك الاعتراض . أنا لست مدافعا ، يشهد الله ! عن العبودية والاستعباد ؛ برغم أن القارئ ربما يكون قد لاحظ من العبارات التى أوردتها فى الفصل السابق ، أن السادة أنفسهم هم فى النهاية أكثر معاناة من العبيد أنفسهم ، فى عمان على أقل تقدير ، وربما فى الأماكن الأخرى أيضا . أما مسألة إن كان التدخل نفسه حكيما أم لا ، فهذه قضيه أخرى . ولكن إذا جاز لى أن أتدخل ، فأنا اقترح أن ستة من الطرَّادات المحكمة تفيد فى تنفيذ هذه الأهداف أكثر من ستين ياقوبا ، وأن الطلقات ستكون أفضل من الجنيهات .

وبينما دارت فى داخلى كل هذه الخواطر والتأملات ، كان ياقوب قد غادر الخور ، ونزلنا نحن إلى البر . وهنا أصبحنا لأول مرة ، فى ذلك المكان الذى يسمونه عمان ، تماما مثل من يعبر حدود القصيم ليجد نفسه داخل حدود نجد . وما أن وطئت قدماى أرض شاطئ الشارقة حتى ذكرنى ذلك بالهند ، وبأكثر من جانب . ومناخ الشارقة اللطيف المعتدل يختلف تماما عن الهواء الخانق فى الطويق أو شومر ، كما يختلف أيضا عن الجو الرطب فى كل من الإحساء والقطيف ؛ وطراز البناء فى الشارقة يشبه طراز البناء فى كل من بارودا وكامباى ؛ والسكان هنا يلبسون فوطة عريضة من القماش الأبيض يلفونها حول وسطهم وتتدلى إلى ما تحت الركبتين ، ويلبسون على رؤسهم عمامة خفيفة أو منديلا هنديا ملونا يلفونه ويعقدونه حول رؤوسهم ؛ وبشرة

السكان هنا داكنة ، وأجسامهم نحيلة ، وهم يمشون بطريقة سهلة ، ليست رسمية تماما ولكنها أكثر رشاقة من مشية بني الطائي وبني تميم - وكل هذه الأوصاف ، وكل هذه التفاصيل ، أوحت لي بفكرة أنهم من الجزيرات أو من المتنصرين أكثر منهم من الجزيرة العربية ، كما أسهمت كل هذه الخصائص وكل هذه السمات في تفسير التمييز الذي يسري بين العمانيين ويميزون به أنفسهم عن بقيه مناطق شبه الجزيرة العربية . وكان عباس ، تاجر الأغنام ، قد أصر على أن ننزل ضيوفا عليه ؛ وكان منزل عباس يقع وسط متاهة من الحارات والطرق الفرعية ، وبرغم أن منزله كان في وسط المدينة إلا أنه كان مبنيا من الخشب والقش فقط . ولكن المنزل من الداخل كان مؤثثا تأثيثا جيدا ويسر الخاطر ، وإذا كان هناك ، أي شيئ من النواقص فذلك كان يستره كرم عباس الحاتمي . ومن المؤكد أن نيبور لو كان معنا ، وتمتع بما تمتعنا به ، لما وسم البياضية بالامتناع عن شرب الدخان والقهوة ، اللذين كان تناولهما مستمرا ولم ينقطع طوال الأيام الثلاثة التي أمضيناها في الشارقة . والمصطلحات الوهابية غير معروفة في الشارقة ، أو لا تستعمل في أضعف الأحوال ، والمصطلح الديني " سم " ، أو إن شئت فقل "سم باسم الله " الذي يصاحب تقديم فنجال القهوة النجدية ، يستبدل هنا بمصطلح آخر أكثر ابتذالا هو "دوك" أو "دووك" ، الذي هو اختصار لمصطلح "دونك" أو إن شئت فقل : "في خدمتك" ؛ في حين أنهم هنا يردون على طرق الباب باستعمال مصطلح "حود" ، الذي يساوي من حيث المعنى " ادخل " ، أما من أين جاءت هذه المصطلحات فهذا هو مالا أعرفه .

وعلى كل حال ، فإن خالد بن صقر ، باعتباره حاليا حاكما للشارقة ، يدين بالإسلام ، وقد أنشأ مسجداً كبيراً بالقرب من السوق ؛ وأنا أشهد أن هذا المبنى (المسجد) يناسب تماما التأمل الديني ، بحكم السكون والهدوء الذي يسيطر على أركانه المختلفة ، التي لا تضار من الضوضاء مطلقا في أوقات الصلاة أو في غير أوقاتها . وقد دخلت ذلك المسجد أكثر من مرة عند رفع الأذان لأرى أولئك الذين ينبغي أن أراهم هناك ؛ وكان يتعين عليّ أن أسارع بالخروج من المسجد تخوفا من أن توجه إلى مسئوليه واتهام مزدوج من كل من الإمام وجمهور المصلين . وسبب ذلك واضح تماما : إذا أن خالد ابن صقر هو وكل قبيلة القواسمة عن بكرة أبيهم مكروهين في الشارقة من السكان العمانيين ، أي من أكثر من تسعة أعشار سكان المدينة ، الذين يعدون غرباء قلبا وقالبا ، عن الإسلام ، ومنشآته ، ومريديه .

ووضع مدينة الشارقة بالنسبة لغربي عمان ، هو نفس الوضع الذي أصبحت عليه مدينة لينجا في السنوات الأخيرة ، بالنسبة للساحل الفارسي المقابل – أي مركزا للاستيراد والتصدير، أو إن شئت فقل نقطة تمر بها وتلتقي عندها خطوط كثيرة من خطوط التجارة البرية والبحرية ، ثم تتفرع منها في اتجاهات مختلفة . والمنطقة من البداع إلى رأس مسندم ، بل وحتى إلى ما وراء رأس مسندم إلى أن نصل إلى ظبيع 'D.obey ، لا يوجد فيها أي ميناء آخر ذو أهمية تذكر ، كما لا توجد فيها أية أسواق أخرى تستحق الذكر . ومدينه الشارقة تأتي إليها كل مصنوعات غربي عمان ، الصوفية ، والقطنية ، والمعدنية ؛ كما تباع هنا أيضا إبل الذلول وكذلك الحمير ، كما توجد هنا أيضا سوق العبيد الرئيسة في المنطقة الداخلية من الخليج الفارسي. يضاف إلى ذلك ، أن المناطق المجاورة للشارقة ، تستطيع أن تحصل من خلال الشارقة ، بصفة أساسية على البضائع الفارسية والبضائع الهندية ، التي يتم إنزالها في الشارقة ، ويجرى توزيعها منها ، بعد ذلك ، على نطاق واسع . وهذا الانسياب التجاري المستمر ، يضفي على الشارقة طابع النشاط والثراء الذي لا يتوافر لأي ميناء آخر من موانئ الجانب الجنوبي ، ويجذب إليها غرباء من بلدان كثيرة ومن أعراق مختلفة ، مما يجعلهم يشكلون مجموعة سكانية خاصة بهم ؛ برغم أن الطابع العماني هو الطابع العام والبارز بشكل قاطع تماما . ولو قدر لهذا الميناء أن يطهر تطهيراً جيدا ، ولو قدر لهذه الحكومة أن تكون في يدي شخص آخر غير خالد بن صقر ، لزادت أهميه الشارقة زيادة كبيرة ؛ ولكن بالشكل التي هي عليه الآن ، فقد بدأت هذه الأهمية تتناقص طوال السنوات الأخيرة الماضية .

وأهل الشارقة بشكل عام عرق أمين ، حسن الطبع ، كريم ، وناجح ؛ والخنجر ، الذي يلبسه الناس هنا ، وفي كل أنحاء عمان حتى رأس الحضض هو لمجرد الزينة وليس للاستعمال . وفي الشارقة شاهدت لأول مرة عينات جميلة من تلك الزركشات الفضية والذهبية الجميلة التي تستعمل في تزيين هذه الأسلحة علاوة على بعض أنواع من الأواني التي من قبيل الأحزمة ، والفناجيل ، والغلايين ؛ وهذه الزركشات تصل من الكمال والدقة حداً يصعب أن تراه في أي مكان آخر . وهذا النوع من الحرف اليدوية يعيش منه عدد كبير من الأسر في المدن الكبيرة . والذهب الذي يستعمل في هذه المشغولات ، يشترى أصلا ، إن لم يكن كلية من الهند ، أو بالأحرى عن طريق الهند ؛ برغم أن هذا المعدن الثمين يقال إنه موجود في المناطق الداخلية من عمان نفسها ،

أو بالتحديد ، في جبل أخضر خلف مدينة باهلة ؛ ولكن أحدا ، لم يستطع ، أو ربما لن يستطيع ، أن يصرح بالأماكن التي يوجد فيها الذهب وكمياته على نحو دقيق وبالصورة التي كنت أتمناها وأتطلع إليها . ومناجم النحاس موجودة في عمان ، ويجرى استغلالها بصورة منظمة ؛ كما يجرى أيضا استخراج الرصاص من المنطقة المجاورة لرأس الحضض ؛ وأنا بنفسي لاحظت آثار الحديد في كثير من المناطق ؛ ولكني لم أر المعادن الأخرى ولم أسمع عنها شيئا . ولكن تشيع في عمان مناجم الملح ، ويجرى استغلالها على نطاق واسع ، لتلبية الاستهلاك المحلي والتصدير ؛ أخيرا ، فإن البحر يلفظ الكهرمان بكميات كبيرة ووفيرة تجعله مصدرا رئيسيا من مصادر الدخل الملكي . ومادة الكهرمان ، هي واللؤلؤ ، والملح والذهب - إذا ما كان الذهب موجوداً بحق ، وهذه النقطة أنا أعتمد فيها على روايات الرواة - هي بمثابة الأشياء التي تحتكرها الحكومة في عمان ، التي لم تحقق السياسة الرومانية فيها سوى تقدم قليل ، بل ربما لا تكون بحاجة إلى أن تندم عليه .

ولكن هيا بنا نعود إلى الشارقة ، التي استطردنا بعيدا عنها . كانت ساعاتنا تمضي هنا بطريقة ودية عجيبة ، إذ كنا نمضيها في الزيارات ، وحفلات الغداء ، وحفلات العشاء ؛ والسبب في ذلك ، أن أهل الشارقة كانوا ينطلقون إلى أن يجعلونا نخبر الحقيقة التي سمعتها مرارا في أماكن أخرى ، عن سلوكهم وميولهم الاجتماعية . والضيف في مدينه الشارقة ، يجد أمامه تشكيلة من الطعام قل أن يجدها في الجزيرة العربية كلها أو بين العرب ؛ فهم يضعون أمام الضيف السمك ، واللحم ، والجمبري ، وسرطانات البحر ، والبيض ، والشعيرية ، والأرز ، والحلوى بكل أنواعها ، والعسل ، والزبد ، والتمر ، والخبز المخمور ، وكثيرا من المأكولات الأخرى - وهذه الأشياء لا تُكوَّم في طبق واحد كبير كما هو الحال في نجد ، وإنما يوضع كل منها في طبق مستقل ؛ وتتزايد دعوات الإلحاح على تناول الطعام بشكل يزيد كثيرا على حاجة من يكاد يموت جوعا . يضاف إلى ذلك ، أن الأمر في كل من الشارقة وفي كل أنحاء عمان لا يحتاج إلى مقدمات من نوع خاص ، ونظام البيت المفتوح هو النظام السائد هنا ؛ وهو ما يقول عنه جوته : لك أطيب تمنياتي اليوم **Viel Güste Uünsch'ich heut** ؛ ومجرد الإشارة ، أو نظرة ، أو مجرد قول صباح الخير ، أو مجرد السؤال عن الطريق هنا أو هناك ، كافية لأن يوجه إليك الطرف الآخر الدعوة ، التي يعقبها استعراض للكرم الذي يتناسب مع الوقت المحدد لهذه الدعوة . هذا يحدث فقط بين العمانيين ؛

والسبب فى ذلك أن أصدقائى من القواسمة كانوا قليلين وكان ارتباطى بهم سطحيا ، إضافة إلى أنى لم يقم بينى وبين خالد بن صقر أى نوع من التعارف ، فيما عدا التحية العابرة التى كنت أحييه بها ويردها عندما يكون جالسا ومجتمعا بالناس أمام باب قلعته . ووجهه الداكن وساقاه الغليظان كانوا يجعلونه يبدو من حيث الشكل مثل ديرك هاتريك Dirk Hatteraick ، وهو مؤيد تماما فى حياته العامة والخاصة بجمهور هو صورة طبق الأصل منه . ولقد أوردت بالفعل عينة من تصرفاته وسلوكه عندما كنت أتحدث عن حملته التى قام بها على مدينة باطنة ، ولكن هذه مجرد عينة فقط . ويقال إن خالد بن صقر يجد متعة خاصة على طريقة جسلر فى التسلية ، عندما يضع ليمونة على رأس أو فى يد واحد من أتباعه ويصوب إليها بندقية ليطيح بها من مكانها ؛ يضاف إلى ذلك أن قسوته المتقلبة التى لا تثبت على حال ، تجعل خطره على أصدقائه لا يقل عن خطره على أعدائه . وعلى كل حال ، فهو لكونه واحدا من إقطاعيى السلطان الثوينى ، فهو يخضع لشيئ من السيطرة المحددة ، فى بعض النواحى ، ولا يستطيع أن يغير شيئا فى النظام التجارى ، أو الرسوم ، أو الجمارك ، أو فى الامتيازات الممنوحة للمقاطعات . وقد جرت عدة محاولات لإبعاده عن منصبه ؛ ولكن حلفاءه النجديين مكنوه من الاحتفاظ بهذا المنصب ، متحدين بذلك كراهية الجميع له .

وفى الطرف الجنوبى من مدينة الشارقة يقع السوق الكبير ، المقسم إلى عدة أسواق ، أو إن شئت فقل أحياء ، وذلك طبقا للعرف الشرقى الموروث . وفى منتصف ذلك السوق توجد القيسارية ، وهى عبارة عن مبنى طويل فخم تعلوه قبة ، مشيد تشييدا قويا ، وله بوابات مصنوعة من الحديد ، تغلق عند حلول الليل لحماية الثروات الموجودة بداخلها . والخزانة الحكومية ، موجودة فى برج مصنوع من الحجر السميك يوجد داخل هذه القيسارية . والمحلات الموجودة فى القيسارية من النوع الأنيق جيد البناء ، وكل المحلات تبدو عليها المتانة والثروة . وبدلا من المتاجر العربية التى نشاهد فيها كلا من البضاعة وصاحبها على مستوى واحد على الأرض ، أو حتى على انخفاض قليل منها ، نشاهد فى القيسارية المحلات المعتادة ، التى تحتوى على مقاعد مرتفعة ، ومناضد ورفوف، مثل تلك التجهيزات المعتادة فى كل من بومباى أو مدراس ، إضافة إلى خزينة متينة ، خاصة بالعملات ، ودفاتر تشبه دفاتر رجال المال والأعمال من حيث الحجم والشكل . والتجار ، وهم هنا أصلا من الهندوس أو اللوثيانيين (نسبة إلى سكان لوديانة) ، يقدمون عروضا فخمة من شيلان الكشمير ، والمصنوعات

البنغالية ، والأسلحة الفارسية ، والمجواهرت على اختلاف أنواعها ، وذلك على العكس تماما مما كنت أنتظره فى الجزيرة العربية ؛ والزبائن هنا كثيرون أيضا . كما أن تجارة الرقيق ما تزال مستمرة هنا ، ولكن قله قليلة من تجار المدينة هى التى تعمل فى هذه التجارة ؛ وهى تجرى هنا داخل المنازل ، التزاما بتوصيات ياقوب .

والحى الشمالى من المدينة به عدد كبير من منشآت النساجين التى تجرى فيها صناعه المشالح الحمراء الخفيفة التى يشيع استعمالها فى عمان ؛ وتجرى فيها أيضا صناعة الثياب القطنية الطويلة التى تختلف إلى حد ما عن الثياب النجدية ؛ كما تجرى فى هذه المنشآت صناعة السجاجيد ، والستائر اللازمة للأغراض المنزلية . وفى بلاد خالية من المصانع ومن الآلات التجارية . نجد أن هذه الأعمال تكون مربحة ، وهى تستخدم كثيرا من الأيدى العاملة . وصناع المشغولات الذهبية والمشغولات الفضية يمارسون هنا عملهم الصبور الدءوب ، والحدادون تراهم هنا عند كل منعطف والشوارع هنا نظيفة ولكنها لا تعرف شيئا عن التوازى ؛ وفى المناطق التى تغلب عليها المنازل المصنوعة من سعف النخيل تجد أن الحارات ضيقة ومتعرجة . ومن الطبيعى أن يكون الفراغ الضيق المتروك على شكل رصيف يفصل المنازل عن الخليج أو إن شئت فقل الخور ، من الطبيعى أن يكون ذلك الفراغ مملوءاً بالقوارب والسفن الصغيرة ، وبعض من هذه القوارب ، حتى هنا فى الشارقة ، جوانبها محززة بفعل تأثير حبال الغواصين ، وبالتالى يمكن القول إنها من القوارب التى تستعمل فى صيد اللؤلؤ . والواقع أن هذا الرصيف هو نهاية الحد الشرقى لساحل اللؤلؤ ، وهو قليل الإنتاج فى المنطقة ما بين أبى ظبى والشارقة ، عنها فى المنطقة الخلفية من الخليج .

وبعد أسوار المدينة مباشرة من ناحية البر يوجد برج حجرى ثمانى الزوايا ، وقلعة مجاورة له ؛ وأنا اعتقد ، أن مسالة وضع اسم "برج الشارقة" على الخرائط ، مستقاة من هذا البرج ، وذلك بدلا من الاكتفاء باسم الشارقة . ومبنى هذا البرج ، اللهم إلا إذا كنت أخلط بينه وبين ما شاهدته فى هرمز التى تبعد مسافة قليلة عن الشارقة ، جميل وأنيق ومزين بأنماط مختلفة من عظام سمك الرنجة ، وتخترقه مزاغل هنا وهناك ، ويصل ارتفاع البرج إلى حوالى سبعين قدما . والقلعة التى توجد بجانب البرج غير منتظمة الشكل ، وهى تشبه ثكنة عسكرية أكثر منها معقلا أو نقطة قوية ، ولكنها أيضا مبنية من الحجر ؛ ويبدو أنها بنيت فى مرحلة متأخرة عن البرج .

ولم أعثر على أحد يحكي لي عن تاريخ البرج أو القلعة ، أو عمن تعهدهما . ولكنهما يستعملان الآن مستودعين عسكريين أو ترسانة ، وأبوابهما تغلق بحرص وعناية بالغين ، وهذا هو السبب الذي حال بيني وبين زيارتهما من الداخل .

وأسوار الشارقة الخارجية مبنية من الحجر - ليست من الجرانيت أو الحجر الجيري ، ولكنها مبنية من الحجر الرملي الذي يضرب إلى الصفرة والاحمرار الذي يوجد بكثرة في المنطقة المجاورة للمدينة . وهذه الأسوار مكسَّرة ومهدمة في كل مكان ، ونقاطها المحصنة صفراء اللون مملوءة بالرمال ، والمسافات التي بين الأبراج في هذه الأسوار تتخللها الثقوب والفتحات التي يتسلل منها الصبية الأشقياء إلى الداخل وإلى الخارج ، في جميع الاتجاهات .

ومن خلف هذه الأسوار توجد مساحة كبيرة من الرمال ، يتزايد ارتفاعها تدريجيا إلى مسافة نصف ميل تقريبا . والمنحدر تتخلله بيارات النخيل ، كما تتناثر هنا وهناك أدغال الصُّبَّير، كما تنبت بعض الأشجار الشوكية في بعض البساتين أو الآبار المهجورة ، ولكن تربة الشارقة من النوع الخفيف جداً الذي لا يصلح للإنتاج . وفي بعض الأحيان ، قد توجد بعض الأدغال المتشابكة الهندية الأصل ، مكونة بذلك هضابا من الخضرة ؛ ومناخ الشارقة مداري ولو كان معي ترمومتر لقياس درجة الحرارة ، لسجل ٨٠ْ فهرنهيتيه في الظل ، برغم أننا في اليوم السابع عشر من شهر فبراير . والمشهد يتباين هنا بفعل وجود بعض الخيام البدوية في عامير Aamir ، ذلك الحي الهادئ المسالم .

والحمير توجد هنا بأعداد كبيرة وهي معروضة للإيجار ، وهي وسيلة نقل جيدة في المسافات القصيرة . وعلى ظهري اثنين من هذه الحمير - الأقل جودة من سلالة الحمير المصرية - قمت مع يوسف برحلة لنشغل بها اليوم الثالث من مقامنا في الشارقة . وكان بصحبتنا في هذه الرحلة حضري شاب كان يرتدي ثوبا خارجيا مرحا أصفر اللون ، ويلف حول عنقه منديلا بنغاليا أرجواني اللون ، في حين كان يزين حزامه بخنجر مقبضه من الفضة . وسرنا خلال هذه الرحلة في الطريق الداخلي الذي يؤدي إلى البوريمي ، أي في الاتجاه الجنوبي - الشرقي ، وسط بيارات من النخيل البري القزم، والذي تنتشر على طوله البساتين المسورة ومجموعات من أكواخ الفلاحين، إلى أن وصلنا إلى أرض مرتفعة ، يتسنَّمُها برج صغير للمراقبة ، من قبيل تلك الأبراج

التي أتينا على وصفها في قطر ، وأصبحنا نرى من أمامنا السهل الداخلي الواسع . وفي هذا السهل الداخلي الواسع كانت هناك في اتجاه الشرق ، قرية يطلقون عليها اسم الحوطة ، في حين كانت توجد في الناحية الجنوبية مراعي واسعة ، كان ينبعث من أحد مخيمات بدو المناصير المقام فيها ، دخانا خفيفا أزرق اللون ومن خلفه السماء المتلألئة. ومن خلف ذلك المخيم كانت هناك سلسلة من التلال المنخفضة ، التي تحتوي ، كما يقول مرافقنا ، على عدد كبير من القرى والكفور الصغيرة ، وتتبع المنطقة التي يسمونها الشِّعاب Sha'ab ؛ ومن بعد كانت هناك سلسلة أخرى من التلال الأكثر ارتفاعا ، والتي تشكل أول جبال جبل عقدة ، الذي يقع البوريمي في وسطه تماما .

كنت قد عقدت العزم على السير في ذلك الطريق بدافع من الفضول وحب الاستطلاع ، وبذلك أعبر عمان من الداخل . ولكن تنفيذ مثل هذا العمل يحتاج إلى فترة أطول مما تسمح به الظروف التي أنا فيها الآن ؛ والواقع أنني لو قمت برحلة برية طولها شهر من الزمان فإن ذلك سيوصلني بالكاد إلى مدينة مسقط ، أو إلى رأس الحضض على أكثر تقدير . ولذلك رأيت أن أؤجل ذلك إلى فرصة قادمة ، ربما تتهيأ لشخص آخر غيري وغير يوسف ، واكتفينا باستطلاعنا حي الشارقة إلى أبعد مسافة ممكنة ، وعندها ، وبعد انقضاء فترة الظهيرة ، أدرنا رأسي حمارينا في اتجاه البحر ، إلى أن وصلنا إلى الساحل بالقرب من دبي قبل غروب الشمس بهنيهات قصيرة .

ودبي شأنها شأن الشارقة لها خور خاص بها ، وخور دبي كبير جداً ، يبدو كما لو كان بحيرة داخلية ، ويفصله عن عرض البحر حزام عريض من الرمل الأبيض . ومدينة دبي ذاتها كثيفة السكان ، ولكنها غير محصنة ، ومبنية بطريقة غير منظمة تماما ، وفيها كثير من البساتين والآبار ، فضلا عن احتوائها على أسطول كامل من القوارب ، ليس الهدف الأول هو العمل في صناعة صيد اللؤلؤ الهزيلة ، وإنما للعمل في الخليج الجنوبي الغربي الواقع خلف أبي ظبي . وشببنا نارنا تحت مجموعة من النخيل التي كانت تُظلُّ بعض المنازل بالقرب من مدخل القرية ، وأخذنا قسطا من الراحة التقطنا خلاله أنفاسنا كما التقطت الحمير أنفاسها أيضا ، في حين راح جيراننا يسلوننا بكثير من القصص التي كانوا يروونها عن بني – ياس وعن أفعالهم . وكنا قد التقينا جماعتين أو ثلاثة من بني – ياس ؛ وبني – ياس ، رجال متأنقين ، داكني البشرة ، توحي نظراتهم بأنهم من القراصنة ، مدججين بالسلاح ، كما يقول المثل ،

وبالبنادق ، وبالرماح القصيرة ، ومسلحين بالخناجر أيضا . وشعرهم الأسود الطويل ، المتدلي على أكتافهم، يضفي عليهم مظهرا رومانسيا متوحشا . ويقال أن بني – ياس ، هم ألد أعداء الإسلام ؛ وأن الدافع وراء حملاتهم القرصانية التي كانوا يقومون بها في الخليج كان نابعا من كراهيتهم الشديدة للربابنة النجديين وللسفن النجدية ، أكثر منه رغبه في الاستفادة وجني المنافع . وأنا أورد هنا واحدة من هذه الحملات التي كانوا يقومون بها .

أراد ستة من النجديين، الذين كانوا قد وصلوا إلى ساحل قطر في رحلة تجارية ، أن ينتقلوا إلى رأس – الخيمة ، التي لا تبعد كثيرا عن رأس مسندم . وعرض عليهم سلُّوب[1] يملكه بحارة من بني – ياس ، ينقلهم إلى رأس الخيمة . ولم يكن النجديون يحملون معهم شيئا ذا قيمة ، وكانوا أيضا مسلحين تسليحا جيدا ؛ وركب النجديون على ظهر السلوب الذي فرد شراعه قاصدا البر الشرقي من الخليج . ولكن طاقم السلُّوب كان قد وافق على نقل النجديين لمجرد أن تتاح له فرصة فش غليله في المسلمين ، وأنه كان يتحين مثل هذه الفرصة . وعند الظهيرة في أحد الأيام ، عندما كان بعض النجديين ، نائمين على ظهرالسلُّوب ، في حين غفل البعض الآخر عن القيام بدور الحراسة ، هجم أفراد الطاقم على النجديين وأخضعوعهم لسيطرتهم . كان من بين الوهابيين خمسة رجال يافعين ؛ في حين كان السادس صبيا . وقيَّد بنوياس الخمسة من أيديهم ومن أرجلهم ، ثم ألقوا بهم في مياه البحر ، الذي سرعان ما لقوا فيه حتفهم ؛ أما فيما يتعلق بالصبي ، وسواء أظنوه غير قادر على السباحة ، أم ربما إحساسا منهم بالتعاطف مع سنوات عمره الأخضر ، ورغبة منهم في إعطائه فرصة الحياة فقد ألقوه غير مقيد في ماء البحر، ثم جمعوا كل متعلقات النجديين، من سلاح ، وبضاعة ، وملابس، وألقوا بها في البحر كي لا يكون أي منها شاهدا عليهم أو يدينهم ، ثم عادوا إلى مدينتهم صور S.oor .

ويستمر الصبي في السباحة بكل ما تبقى فيه من قوة ، برغم أنه كان يسبح بحكم الغريزة أكثر من الأمل ، والسبب في ذلك أنه لم يكن يرى أمامه برا أو سفنا ، اللهم باستثناء سفينة القراصنة إياها ، التي كانت تختفي بسرعة كبيرة أثناء تراجعها ، وأخيرا عجز الصبي عن الاستمرار في مواصلة السباحة ، وخارت قواه وغاص في الماء .

(١) السلُّوب : قارب وحيد الصاري – (المترجم) .

ولكن معروف أن الأطفال خفيفى الوزن ، وسرعان ما طفى على سطح الماء من جديد ، برغم أنه كان فاقد الوعى تماما ، وظل طافيا على سطح الماء الليل بطوله ، ونهار اليوم التالى حتى وقت العصر ، لأن البحر كان هادئا ، إضافة إلى أن دفء الجو بفعل درجة الحرارة جعله يتحمل البقاء وقتا طويلا فى الماء وذلك على العكس مما هو متصور فى أوربا . أخيرا ، تصادف أن سفينة من الشارقة كانت تمر بالقرب من المنطقة التى فيها ذلك الصبى ؛ وشاهد طاقم السفينة الصبى ، وحاولوا انتشاله من الماء ، ولكن هذا الصبى لم يستطع استعادة عقله أو حركة لسانه قبل مضى فترة طويلة ، وأحضروا الصبى إلى الشارقة ، التى حكى فيها حكايته ؛ وشمله بعض المواطنين الأثرياء برعايتهم . وبقى فى مدينة الشارقة ليكون واحداً من أهلها . وعن طريق المصادفة العجيبة التقيت ذلك الصبى فى الشارع ، فى نفس اليوم الذى استمعت فيه إلى رواية مغامراته ؛ وهو الآن شاب بهى الطلعة يبلغ من العمر اثنين أو ثلاثة وعشرين عاما ؛ وعندما وقع له ذلك الحادث كان فى الثانية عشرة من عمره . وقد روى لى هذه القصة من لحظة غوصه فى الماء إلى لحظة انتشاله منه ، وقال لى : إنه لم يكن يحس سوى بشعور واحد فقط – هو بالتحديد ، تخوفه من أن يهيج البحر ، وأنه لم يكن يعرف أو يفكر فى شئ غير ذلك ؛ لم يكن مدركا أو واعيا فى تلك اللحظة لما أودى به إلى هذا الوضع الحرج ، ولم يكن لديه أى أمل أو فكرة عن الطريقة التى سيخرج بها من ذلك المأزق الحرج .

وبعد استراحة قصيرة فى ظل التعريشة التى كنا قد توقفنا عندها ، استأنفنا مسيرنا ووصلنا إلى الشارقة بعد حلول الليل . وفى الشارقة ، شاهدنا ربانا بحريا من مدينة السويق فى مدينة باطنة ، كان يجلس فى غرفتنا ويتحدث مع عباس مضيفنا . كان الربان ينوى الإقلاع فى اليوم التالى ، واتفقنا معه على الإبحار على ظهر مركبه – كان المفروض أن أقول قاربه ، نظرا لأن مركبه لم تكن ذورقا أكبر قليلا من اليخت متوسط الحجم – وتستفيد من الرياح المرسلة فى الدوران حول رأس مسندم ثم الوصول إلى باطنه .

وفى صباح اليوم التالى اقتادنا رباننا إلى مدخل الميناء ، الذى كانت السفينة ترسو فيه . كان طاقم هذه السفينة مكونًا من خمسة من العمانيين ؛ وكان المسافرون على ظهر هذه المركب غيرنا ، رئيس شاب من سلالة الفزارة ؛ وبرغم أن أسرة هذا

الرئيس الشاب كانت من أصل نجدى ، إلا أنها تحولت بحكم العشرة والإقامة الطويلة في عمان ، إلى البياضية ، شأنهم شأن من يحيطون بهم، وهم يحكمون مدينة صوحام S.oh.am الساحلية الصغيرة . وقد زاد زيد ، إن قدر لنا أن نسميه باسمه ، أو إن شئت فقل زويد ، على سبيل التدليل – على كرم المحتد والثروة (إذ أنه كان واحداً من الأثرياء) ، زاد فضائل الأدب والعلم الذى أتيح له فى عمان . ولما كان زيد موهوبا بذاكرة الحفظ ، وهى موهبة تشيع فى الأماكن التى تندر فيها الكتب ، فهو يستطيع أن يلقى عن ظهر قلب مئات الأبيات الشعرية التى تعزى إلى امرئ القيس وإلى شعراء آخرين من فترة ما قبل الإسلام ، وشعراء آخرين معادين للإسلام ، ومن بين هذه الأبيات باروديا[١] مقفاة عجيبة لـ "سورة" "الساعة"، وباروديا أخرى عنوانها "هل أتى"، وهاتان المقطوعتان ساخرتان ، ولكن شعرهما عالى الجودة ، كما أن كل واحدة منهما تشكل وحدة واحدة مؤلفة من المتخيل والمحاكاة الخيالية الساخرة ، وهذا يشبه أشعار بعض مؤلفى المدرسة الإيطالية . يضاف إلى ذلك ، أن زيدا لديه الكثير من القصص التى يرويها وتدور موضوعاتها عن الأرض وعن حكامها ؛ ولقد حصلت منه على أكبر قدر من المعلومات ، أيا كانت قيمتها ، والتى أوردتها فيما يتعلق بالأعراف والمدونات التاريخية العمانية ، أو التى سوف أوردها فيما بعد . كان هذا الرئيس الشاب اجتماعيا ومتحدثا ، ومستعدا للإجابه عن أى سؤال مباشر . وكان برفقته خادمان أو إن شئت فقل اثنان من حاشيته ؛ وإكمالا لمجموعتنا ، كان بيننا أيضا ، على ظهر المركب ، وهّابى متشدد من رأس الخيمة ، تلك القرية التى ظلت حتى السنوات الأخيرة شهيرة بالأعمال القرصانية التى كان يمارسها أهلها – هؤلاء الرجال الذين يتحينون الآن الفرصة المواتية التى يتمكنون من خلالها أن يجعلوا الحاضر مساويا للماضى ، إذا ما سمح لهم علم المملكة المتحدة (بريطانيا) بذلك . ولم يضع هذا الشاب فرصة مناقشة المسائل الدينية ، مما ذكرنى بشخصية جفتد جلفلان Gifted Gilfillan فى رواية "ويفرلى". ولولا الخوف من خالد بن صقر ، ومن القواسمة لكانوا قد ألقوا هذا الوهابى فى البحر ، كى يقللوا من سخونته واحتراره ، ليلقى نفس المصير الذى لقيه كثيرون من أبناء مذهبه عندما يقعون فى أيدى البحارة البياضية .

(١) الباروديا : أثر أدبى أو موسيقى يُحَاكى فيه أسلوب أحد المؤلفين على نحو يثير الضحك والهزء – (المترجم) .

وودّعنا عَباساً وكل من كانوا بصحبتنا إلى أن وصلنا إلى حافة المياه، وداعا وديا، ثم ركبنا المركب . وساعات الإبحار تعتمد على المد ؛ والسبب فى ذلك أنه يصعب حتى على أصغر المراكب العربية ، أن تتجاوز خلال ساعات الجزر العائق الموجود عند مدخل الخور . كان الوقت يقترب من ظهر اليوم العشرين من شهر فبراير ، وكان الماء مرتفعا بفعل المد ؛ "وكانت تهب من بوابات الجنوب ريح خفيفة " ، وتراقص مركبنا ونحن نتجه إلى عرض البحر الأخضر . ورحنا ، أثناء إبحارنا ، نقترب من الساحل ، نظرا لأن الماء عميق هنا على بعد ياردات قليلة من الشاطئ ، وبينما كنا نبحر على طول الساحل ، كنا نشاهد الغادين والقادمين على الطريق الساحلي . وسرعان ما ابتعدنا عن مقراز ، تلك القرية متوسطة الحجم ، التى تقع على بعد مسافة تتراوح بين ثلاثة أو أربعة أميال شمالى الشارقة ، والتى كان يوجد بها بعض القصور الأنيقة مربعة الشكل المملوكة لبعض أفراد أسرة ابن صقر ؛ وكانت المزارع التى تحيط بهذه القصور أكبر من حيث المساحة ، ومن حيث الخصوبة ، عن مزارع الشارقة . وفى فترة العصر هدأت الريح ، ومع حلول المساء رفعنا مراسينا وأبحرنا من عجمان **Ajman** التى يطلقون عليها بصورة عامة اسم عيمان **Ayman** ؛ وعجمان مدينة صغيرة من مدن القواسمة . وفى عجمان نزل صديقنا الوهابى إلى البر لقضاء الليل ، ولكن أحداً من الركاب لم يحذو حذوه ، والسبب في ذلك أن أهل عجمان هم من المتشددين الذين لا يعرفون الحلول الوسط . وفى اليوم التالى تراخى النسيم ، واتجهنا ببطء صوب الشمال ، ومررنا بكل من الحُمَيْرية **Homey Reeyah** ، أم الغوين **el - Ghowyen** (وأنا أجد هذا نطقاً شعبيا خاطئا للاسم أم الأخوين) وحواره **Howárah** (وكلمة حواره **Howarah** تعنى الابيضاض مثلما تعنى الحميرية **Homeyreeyah** الاحمرار) ، كما مررنا أيضا بحوالى ست من الكفور أو القرى الصغيرة التى زرعها أهلها على الشاطئ ؛ وعدد كبير من هذه الكفور والقرى الصغيرة لكل واحد منها خور أو ميناء ، أما بقية هذه الكفور فكل واحد منها عبارة عن مكلاّ[1] . وهذه البلاد من الأمام ومن الخلف ليست قفرا كما هو الحال فى قطر ؛ كما إنها ليست خصبة تماما أيضا . وأهل هذه المنطقة بعد أن حرمت عليهم القرصنة البحرية ومنعوا منها أصبحوا يمتهنون صيد الأسماك بصفة أساسية. ونشاهد هنا وهناك قلعة أو برجًا قديمًا يقع على أرض مرتفعة، أو مقام

(١) المكلاّ : موضع قرب الشاطئ تستطيع السفن الرسو فيه - (المترجم) .

على صخرة منعزلة . يضاف إلى ذلك أن سلسلة الجبال التى تعرف باسم رؤوس الجبال ، التى هى بمثابة العمود الفقرى من الرُّعن ، تقترب من الساحل بصورة متدرجة بكل عظمة وعورتها ، وتمتدُّ أمامها صخور الجرانيت وكتل البازلت ، إلى أن تضيق ، فى النهاية ، الأرض على قرى القواسمة ويتعذر عليها أن تجد لنفسها مكانا بين الجبل والبحر . وفى صباح اليوم التالى ، أى فى اليوم الثانى والعشرين من شهر فبراير ، أبحرنا من رأس الخيمة ، أكبر المستوطنات الوهابية وأسوأها سمعة ، ولكن هى ، لحسن الحظ ، آخر المستوطنات الوهابية على هذا الساحل . ونظرا لأن رأس الخيمة تقع فى خليج (خور) مستور ، يشبه خور مسينا **Messina** من حيث الشكل الدائرى تقريبا ، فهى تبدو للرائى ؛ كما لو كانت كتلة من الأكواخ المصنوعة من سعف النخيل ، معدومة التنظيم والجمال ؛ كما نشاهد أيضا على الجروف المجاورة بعضا من المحاولات الباهتة لإقامة بعض التحصينات ؛ وعدد سكان رأس الخيمة يقدر بحوالى خمسة آلاف نسمة أو ما يقرب من ذلك ، ولكن هؤلاء السكان يعوضون قلة عددهم بشجاعة يبالغ الناس فى وحشيتها وقسوتها .

وهنا غادر الواعظ الوهابى المركب ونزل إلى البر لصالحه وصالح الآخرين ، مما أراح الربان وأفراد طاقمه ، الذى أتبع الواعظ الوهابى بسيل من اللعنات يكفى لإغراق محارب فى عرض البحر[1] . وبعد أن تخلصنا من صحبة هذا الرجل غير المرغوب فيه ، واصلنا إبحارنا فى مرح وسرور ؛ إذ كان الطقس ، صحوا ، والسماء صافية ، والريح لطيفة ، ولكنها مرسلة ، كما كان الساحل فخما ، ولا يقل روعة عن ساحل كالابريا **Ca-labria** وأبروزى **Abruzzi** . وهنا بدأ ذلك السور الجرانيتى يتلاشى ويختفى تدريجيا تحت مياه المحيط الزرقاء ؛ وراح ينتشر على شكل شقوق وتصدعات تجرى خلالها سيول الشتاء وتتخللها قرى صغيرة كانت تشبه أعشاش النسور ؛ وبالقرب من تلك القرى ، كانت هناك بقع وأماكن خضراء تنتشر فوق السلاسل الجبلية لتكشف عن واحد من الوسيلتين اللتين يعيش منهما سكان هذه الأوكار ، فى حين كانت المراكب والقوارب الكثيرة الأخرى المبنية بطريقة الرمث الشهيرة فى مالابار ، والتى تعمل كلها

(١) إننى أتقزز من هذا المؤلف ، الذى يصب جام لعناته على الوهابيين فى كل موضع يأتى ذكرهم فيه ، بمناسبة وغير مناسبة وكأنه يحمل فى داخله حقداً دفيناً على دعاة الإسلام وعلى رجال الإصلاح الدينى الذين تمثلوا أعظم ما يكون فى الحركة الوهابية ، والدعوة الوهابية كان لها الأثر الكبير فى تصحيح التوحيد وتنقية الإسلام فى الجزيرة العربية كلها - (د. حلمى عبد المنعم) .

فى صيد السمك لتبين لنا الوسيلة الثانية . وفى عصر اليوم نفسه وصلنا إلى شعام Sha'am ، تلك القرية الضخمة ، التى تحاذى الشاطئ كثير الحصى أسفل الصخور التى تحيط به من ناحية البحر . وهنا أنزلنا القارب وقصدنا إلى الشاطئ ، وطاقم البحارة يغنى فى فرح وسرور ، وكانت المياه هادئة مثل مياه البحيرة . وجدفنا فترة طويلة قبل أن نصل إلى البر ، وسمعت لأول مرة ، شيئا كنت أسمعه كل يوم تقريبا طوال هذه الرحلة البحرية الشاطئية ، سمعت ذلك الذى يمكن أن أسميه "الترانتيلا"[1] العربية ، أو إن شئت فقل : أغنية هجائية عربية مرتجلة ، مثل الأغانى الايطالية المرتجلة ، والترستفيرينى بصفة خاصة . وأثبت بحارة المركب أنهم يضارعون النُّظامين الغربيين من حيث الخيال والألمعية ؛ وكان الإيقاع متوافقا مع ضرب المجاديف ، وكان كل بيت شفعى يردد كورسا يقول : " يا صباح الخير دائم " . وكانت المقطوعات الأولى من الأغنية عبارة عن تعبيرات مرحة عامة ، وتشجيعا للقائمين بالتجديف ؛ ثم يلى ذلك صورة كاريكاتورية لكل من هم في القارب ، بدءا بالريان الذى يقبل الكلام على سبيل المزاح ومحمله الحسن ، ثم يلى ذلك استعراض مضحك لطاقم البحارة والمسافرين . وعندما جاء دورى كرَّمونى بمقطوعتين ، فى حين كان الوغد الذى يغنى ، يكشر عن أنيابه وهو ينظر ناحيتى ، وهنا دفعنى البحار الذى كان يجلس بجوارى على المقعد ، ليلفت انتباهى إلى ما يقوله المغنى ، وأضاف قائلا : " لا ضير من هذا ، وليس المقصود به الإساءة إلى أحد ؛ وسوف ترى أن كلاً منا سيجيئ دوره" . وقد سمعت الكثير من هذه الأغانى والمحفوظات من أهل صوحار والمدن الأخرى ، فى باطنة ؛ وواقع الأمر ، أن هذه الأغانى شائعة الانتشار فى كل أنحاء عمان . ويبدو أيضا أن هذه الأغانى والمحفوظات تقتصر على عمان وحدها ؛ إذ لم يحيينى أهل شومر أو نجد بمثل هذه الأغانى .

وسكان شعام ورؤوس الجبال يشكلون مجموعة غريبة بشكل عام . ولما كان هؤلاء السكان ينحدرون من أصول قحطانية ويمنية ، فقد عاشوا وسكنوا منذ عصور كثيرة فى هذه الجبال ، وعلى هذا الساحل الصخرى ، الذى لا يغادرونه مطلقا لزيارة أية منطقة أخرى . ولغة سكان شعام ورؤس الجبال هى فى واقع الأمر لهجة عربية ، ولكن العزلة جعلت هذه اللهجة تتسم بالهمجية والبدائية ، إلى حد أن أى غريب من عمان

(١) الترانتيلا : رقصة شعبية إيطالية – (المترجم) .

نفسـها ، ناهيك عن غريب من نجد أو الاحسـاء ، لا يستطيع التنقل في هـذه الأماكن دون أن يكون معه مترجما وبخاصة في رؤوس الجبال . وقد أطلق يوسف على اللهجة السائدة هنا اسم " لسان الطيور " أو إن شئت فقل " لغة الطير " ، وأعلن أنه لا يعرف كلمة واحدة من بين كل عشر كلمات من هذه اللهجة . والكل هنا من البياضية المتشددين ، وهم هنا لا يخشون جيرانهم الخطيرين من القواسمة الوهابيين ؛ وتشبثهم بالجبال يشبه تشبثهم بالبياضية ؛ وفقرهم يشكل لهم نوعا من الحماية التي لا تقل عن تشبثهم بالجبال وبالبياضيه . وهذا الجزء من رأس مسندم ، من أقصاه إلى أقصاه ، يشكل مقاطعة (منطقة) رؤوس الجبال ، وهو أكثر أجزاء عمان قفرا وبوارا ؛ والناس ينظرون إلى سكان هذا الجزء باعتبارهم أناسا غير متحضرين ، والواقع أنهم غير ذلك تماما ؛ وهم يزودون الحكومة المركزية بالبحارة المهرة ؛ وقد قدموا خدمات قيمة في الحرب . وكل قرية من هذه القرى لها رئيسها ، علاوة على أن أحداً لا يتظاهر بأن له سلطة على أي أحد آخر ؛ والواقع أن انعدام الاتصالات الجيدة بين هذه الجبال الوعرة يكفي وحده لعدم وجود أي شكل من أشكال التنظيم الفاعل بينها وبعد أن أمضينا عدة ساعات في شعام ، عدنا لقضاء الليل على ظهر المركب ، والسبب في ذلك أن صيادى القرية المحترمين لم يكن لديهم ، في بيوتهم ، ما يقدمونه لنا ، اللهم إن كان ذلك أحط وأدنى من المؤن التى كانت معنا على ظهر المركب – التي كانت بدورها طعاما سيئا أيضا . وواصلنا إبحارنا صباح اليوم التالى ، ودرنا حول اللسان ، وحول الصخور ، وكنا نمر حينا عبر أعماق خضراء ، تحت ظلال الجدران الصخرية العالية ، وكنا نندفع حينا آخر في ضوء الشمس الساطع ، والمياه المتلألئة ؛ في الوقت الذى كانت فيه قوارب الصيد القريبة منا والبعيدة عنا تمخر عباب البحر ، أو تقف على سطح الماء وهي تلقي شباكها ؛ وكنا نشاهد في بعض الأحيان سفنا كبيرة فردت أشرعتها وراحت تتجه صوب لينجا أو البحرين ؛ ومن فوقنا كانت تمتد الصخور التي تفصل الخليج الفارسى عن البحر الهندى . وقبل حلول الظهر ، دخلنا خليجا جميلا ، عميقا ومعزولا ، ويقع بين صخور مرتفعة على الجانبين ، وله مدخل ضيق واحد متروك للمياه الواسعة الموجودة داخل الخليج ، واستطعنا أن نرى من خلال الماء شديد الصفاء في هذا المدخل أن في أسفله ، قاع الخليج الصخرى ؛ والعواصف هي والأمواج لا تصل إلى هذا الخليج الهادئ . وفي الطرف البعيد من الخليج كان هناك سهل صغير يروى من مجارى المياه الجبلية ، وكان نخيله وبساتينه توحي بجد واجتهاد القرويين الذين

يسكنون قرية خبب Khabb ، لأن هذا هو الاسم غير المتناسق الذى يطلق على هذه القرية الصغيرة التى يشبه موقعها موقع قرى الجن والحوريات . وفى قرية الخبب نزلنا إلى البر وأمضينا فيها ساعتين على الشاطئ ؛ ولم يكن فى القرية ما نتفرج عليه ، وإنما كانت كبائنها مصنوعة من القش ، كما أن سكانها كانوا لا يرتدون ملابس كاملة أو إن شئت فقل كانوا شبه عراه . وكان من قبيل الابتذال أن نقول : إن المساجد – تلك الأشياء التى لا تغيب مطلقا عن أصغر المواقع الوهابية – لا توجد فى أية قرية من قرى رؤوس الجبال – ولكن فى معظم الأحيان ، توجد بدلا من المسجد ، قبة صغيرة ، مسورة تسويرا جيدا ، ومحاطة ببيارة زراعية صغيرة ، وتشكل شيئا من أشياء الولاء المحلى ؛ والسكان المحليون هنا يطلقون على هذا الشئ اسم "مزار"، أو إن شئت فقل "مكان للزيارة" ،.وفى بعض الأحيان يسمونه " سيِّد "، فى حين أن النجديين المستاءين يسمونه " صنما ". وهذه المبانى ، شأنها شأن "المزارات " المماثلة فى كل من المطاولة والناصرية فى سوريا ، تقام فى أغلب الأحيان لتكريم مثوى ، أو على الأقل ، ذكرى ، راع أبو كريفى[1] ، لم يرد ذكره فى السنة المحمدية . كان ذلك هو حال "سيّد" أو "صنم" الخبب ، الذى كان عبارة عن ضريح صغير جدا ، يتوج مُنْشئاً مربعا ؛ وكان اسم ساكنه سواء أكان حقيقيا أم وهميا هو عباس ؛ وقد رووا لى عنه قصة طويلة ، لم أستطع أن أتبين لها بداية أو نهاية ، بل إن ما استطعت أن أفهمه من هذه الحكاية ، أنها كانت من أصل فارسى .

ويجرى صيد السمك بشكل كبير جدا على طول هذا الساحل ؛ وينصب الصيد بصفة أساسية هنا على بعض أنواع الأسماك الصغيرة التى يطلق عليها اسم المطوط وهذا النوع من السمك يشبه البَلَم[2] إلى حد كبير أو الانشوقه الصغيرة الحجم والشكل ولكنه ليس له الطعم نفسه . وهذا النوع من السمك يأكله الناس بلا طهى ، وذلك بعد تمليحه وتجفيفه فى الشمس ، بلا أى تجهيز بعد ذلك . وكان رباننا يود أن يحمل معه حمولة من المطوط إلى السويق ، حيث الطلب شديد عليها جداً ؛ ولكن بعد قدر كبير من المساومة لم يتفق مع القرويين على السعر ؛ وبعد الظهر بفترة قصيرة

(١) الأبوكريفا : أربعة عشر سفراً تلحق أحيانا بـ "العهد القديم" من الكتاب المقدس ولكن البروتستانت لا يعترفون بصحتها . والمقصود هنا أشخاص لم يرد ذكرهم فى السنة المحمدية – (المترجم) .

(٢) البلم : كل صغير من الأسماك – (المترجم) .

بدأنا نبحر من جديد دون أن نحصل على شحنة السمك المزعومة ، ثم أبحرنا على أمل أن ندور حول رأس مسندم في الليلة نفسها . ولكن القدر كان يخبئ لنا زيارة بعض الأماكن الأخرى عن طريق المصادفة . كان الوقت متأخرا فعلا عندما وصلنا إلى اللسان ، وشاهدنا أمامنا الممر البحرى الضيق الذى يجرى بين الصخور البعيدة فى رأس مسندم والأرض الرئيسة التى يقع عليها الرأس . وهذا المضيق يسمونه هنا "باب" ؛ وهذا يمثل منظرا ساحرا ، وتوجد جروف مرتفعة على جانبيه ، والماء ينساب من خلفه عميقا أسود ؛ والصخور هنا جرداء تماما ، وصالحة جداً لشطر المراكب سيئة الحظ بكل أنواعها إذا ما اصطدمت بها . ومن هنا ومن اندفاع الموجات السوداء التى لا تنتهى جاء الاسم مسندم أو إن شئت فقل السندان ، والاسم المناسب الذى يطلق على هذه الرأس فى بعض الأحيان . ولكن هذا ليس هو كل ما فى هذا الأمر ، نظرا لأن هناك صخرة مربعة ضخمة من البازلت تبرز من وسط المياه ، فى عرض البحر ، ويزيد ارتفاعها على مائة قدم أو أكثر ، وتقف وحيدة وسط الماء ؛ وهذه الصخرة يطلق عليها اسم " سلامة " ، وهى طريقة لطيفة فى التعبير عن " الخطر" ، كما هو الحال فى الـ "الأيومينات" **Eumenides** ، فى علم اللاهوت عند الإغريق . هذا الصخرة تشهد وتتسبب فى كثير من حالات تحطم السفن – والواقع أن حالات تحطم السفن هنا بلغت من الكثرة حدا جعل الناس هنا يظنون أن الشيطان هو الذى وضع هذه الصخرة فى هذه المكان عامدا متعمدا ، وأن هذه الصخرة شأنها شأن صخرة الانشيب **Inchape** ، ما يزال يسكنها محطمون من الشياطين الذين لا يراهم الناس . وهناك العديد من القمم المثلمة الصغيرة ، التى تبرز فوق سطح الماء ، على شكل مجموعات بالقرب من هذه الصخرة الأم؛ ومجموعات الصخور هذه يطلق عليها اسم "بنات سلامة" . أخيرا ، فإن ما بين صخور الرأس نفسها ، وقمم رأس مسندم المخيفة ، وسلامه صاحبة الفأل السيئ ، هى وكل أسرتها الخائنة ، التى تستحق بكل المعايير أن يطلق عليها هذا الاسم ، علاوة أيضا على جزيرتى لارج **Larej** وهرمز الصخريتين ، واللتين لا تبعدان مسافة كبيرة عن صخرة سلامة الأم ؛ فى كل هذه المسافة فإن المضيق بعيدا كل البعد عن الانفتاح أو السلامة ، وبخاصة عند الملاحين العرب . يضاف إلى ذلك أن التيارات القوية والمتقلبة التى تكتسح ذلك المدخل الضيق ، وكذلك العواصف المتكررة التى تنشأ وتتولد فوق مرتفعات رؤوس الجبال ، وفى عمان ، أو التى تندفع هابطة من سلسلة مرتفعات الخليج الجبلية الموجودة خلف بندر – عباس على الجانب المقابل من المضيق ، تزيد من أخطار هذه المنطقة .

وهنا جاء دورنا في التعلم ، لا من خلال الخرائط ، وإنما عن طريق التجربة الشخصية . فقبل غروب الشمس بفترة وجيزة ، وعندما كنا نقترب من الباب الذي سبق أن أشرنا إليه ، هدأت الريح ؛ وتلي ذلك هدوء مميت ، دام قرابة الساعة ، حملنا التيار خلالها إلى مكان قصي في اتجاه الغرب ؛ ثم هبت بعد ذلك ريح جنوبية – غربية – عنيفة ؛ والبحر في هذه المنطقة عميق جدا حتى في المنطقة القريبة من الشاطئ ، وبدأ يرتفع على شكل موجات تشبه المنفاخ ، جعلتنا نتجه مباشرة إلى سلامة ، وكنا على وشك أن نتعرف ، خلال فترة وجيزة ، ولولا بضع ياردات ، على هذه الأم وعلى بناتها . وأخذ الربان وطاقمه أقصى حذرهم ؛ وصاح يوسف كما لو كان طفلا ؛ وبدى الوجوم على وجه سيف ؛ أما أنا ، فقد دلفت بين خشبتين تحاشيا مني للتدحرج من هنا إلى هناك ، ثم تصرفت بعد ذلك مثلما فعل (سيدنا) يونس ، ودخلت في نوم عميق لأني لم يكن لدى ما أفعله . وطوال الليل كنا نتحرك ، هنا وهناك وفقا لمشيئة العاصفة[١] ، تحت سماء مظلمة وخالية من النجوم ، في حين كانت الأمواج العاتية تلمع بقممها المتقدة وهي تتلوى وتتحطم من حولنا . ويطلع النهار علينا ونحن وسط السحب ، والضباب ، والعاصفة ؛ وهنا وجدنا أنفسنا أسفل جزيرة لارج وقريبين منها ، تلك الجزيرة الموحشة ، الصخرية التي لا يوجد فيها سوى قله قليلة جدا من السكان . ولم نعثر في هذه الجزيرة على بر آمن ننزل عليه أو مرسى آمن نرسو فيه ، ومن هنا حاول طاقم المركب أن يدور حول جزيرة لارج ، وهنا بدأت الريح تدفعنا بسرعة في اتجاه هرمز ؛ وكشف البحارة عن مهارتهم الفائقة في السيطرة والتحكم في القلع Canvas الصغير أكثر مما كنت أظن .

وأنا لم أندم مطلقا على الفرصة التي تهيأت لي لزيارة جزيرة بلغت شهرتها التجارية ، التي تحدث عنها البرتغاليون الذين احتلوها ، مبلغا لو قدر للعالم معه أن يكون خاتما من ذهب ، فإن جزيرة هرمز ستكون فص الماس الذي يحلي هذا الخاتم . والشكل العام لجزيرة هرمز يوحي بأنها عبارة عن بركان خامد ؛ وأنا أرى أنها كذلك ، ومحيط الجزيرة يتكون من جدار بيضاوي عريض كونته صخور مثلمة شديدة التحدر أحرقته النيران ؛ وتحيط هذه الجروف بحوض مركزي تنمو فيه الأدغال والحشائش ؛

(١) المشيئة لله وحده ، وليس للعاصفة مشيئة ، وإنما هي سبب من الأسباب التي أقام الله عليها حركة الحياة يقول تعالى " وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين" – (د. حلمي عبد المنعم) .

وهذه المنحدرات البازلتية التي في الحاجز الخارجي تنتهي في أجزاء كثيرة منها إلى البحر ، وسط مجموعات على شكل قمم عالية ومثلمات رائعة مختلفة الألوان ، شبيهة بتلك المثلمات التي تبدو عليها الحمم البركانية بعد أن تبرد . وفيما بين الشمال والغرب يوجد رعن مثلث الشكل ، منخفض ومستو ، يمتد مسافة طويلة داخل الماء ، ويضيق ليشكل عنقا من اليابسة ينتهي ببعض الصخور القليلة ، وقلعة حصينة ، بناها البناؤن البرتغاليون ، ولكنها لها مكانتها بين الآثار الرومانية ، وجدران هذه القلعة تبلغ من الصلابة حدا ، وبناؤها بلغ أيضا من الأحكام حداً ، وكذلك الأعمال الاسمنتية ، كل ذلك بلغ من المتانة ومن الإحكام ومن الجودة حداً استطاع أن يصمد على امتداد ثلاثة قرون لتتكسر عليه عواصف البحر دون أن تصيب القلعة بأي أذى ؛ والجزء الأكبر من هذا الرِّعن يغطيه الحطام ؛ في هذا المكان كانت تقوم واحدة من المدن المزدهرة ، التي تحولت الآن إلى أكوام مهجورة مشوشة ، من بينها العديد من بقايا المنازل الراقية والحمامات ، وبقايا كنيس كبير . وهناك منارة (فاروس) منعزلة ثمانية الأضلاع ، تشبه برج الشارقة ، ولكن أسلوبها الإنشائي من النوع الراقي وترتفع إلى حوالي مائة ياردة فوق مستوى نهاية البر ؛ وهذا البرج مبني من الصخور ومن الحجر المرصوص على شكل أنماط مختلفة من عظام سمك الرنجة ؛ وداخل هذا البرج يوجد سلم حلزوني يوصل إلى قمة البرج ؛ ولكن الدرج مهدم ومكسر على ارتفاع اثني عشر أو أربعة عشر قدما من الأرض ، مما يجعل الوصول إلى الجزء العلوي من البرج أمرا مستحيلا في غياب السلم النقَّالي ، تلك الأداة التي كان من الصعب الحصول عليها في هرمز في تلك الأيام . وأنا أستطيع ، من واقع المنشآت المماثلة ، التي شاهدتها في كل من بغداد وكركوك ، أن أقول : إن ذلك البرج كان عبارة عن مئذنة لواحد من المساجد الفارسية ، وأن البرتغاليين استخدموه فيما بعد ليقوم بدور المنارة . وبالقرب من القلعة توجد مجموعة من الأكواخ تقدر بحوالي مائة كوخ مصنوعة من اللبن ، يسكنها الصيادون والرعاة الذين ترعى قطعانهم في المراعي الموجودة في فوهة البركان ؛ ولا توجد سوى تعريشة واحدة يباع فيها التمر ، والزبيب ، والتبغ . ودارت في خاطري خواطر معادة فرضت نفسها على فكري عندما شاهدت ذلك التحلل الموحش . لقد شاهدت إذلال تير Tyre ، واندحار سورات Surat ، كما شاهدت أيضا انحطاط جوا Goa ؛ ولكن ما أصاب هذه الموانى الثلاثة يقل بكثير جدا عن الدمار والخراب الكامل الذي حل بميناء هرمز .

وسبب انحدار هرمز نابع من داخلها . ومعروف أن تجارة هرمز كانت تعتمد من ناحية على التجارة الهندية ، ومن الناحية الأخرى ، على الأهمية المؤقتة التي كانت لهذه الجزيرة باعتبارها محطة برتغالية يوم أن كانت البرتغال من بين أوائل البحارة والتجار في العالم . يضاف إلى ذلك أن الطريق الذي فتحه البحر الأحمر ومصر أعطى التجارة الهندية اتجاها آخر ، في الوقت الذي أدى فيه أفول نجم المشروع البرتغالي والقوة البرتغالية إلى انحطاط التجارة في هرمز إلى أدنى مما كانت عليه في القرن السادس عشر . كانت أهمية هرمز ترتكز ، بدرجة كبيرة ، على النشاط الأوربي الذي تم تعديله ليلبي احتياجات المحطات الأوربية في الشرق ، أكثر من اعتماده على أسباب ثابتة وبالتالي يكون لها صفة الدوام والرسوخ . ولما كان البرتغاليون أقوياء في البحر ، وعاجزين عن التعامل على نطاق واسع ، مع الحكومات الوطنية فقد فضلوا أن يكون لهم جزر بحرية بدلا من الدور القاري البري ، نظرا لأن هذا الدور الجزري البحري يضمن لهم ولبضاعتهم الأمن والسلامة ؛ ومن هنا ، فإن ميناء هرمز ، الذي كان بطبيعته ميناء كبيرا ، كان يناسب احتياجات البرتغاليين أكثر من الموانى الساحلية في كل من لينجا ، وبندر عباس ، وصوحار ، وبقية الموانئ الأخرى التي يصل إليها مد التجارة في هذه الأيام ، بل أن هرمز كانت أنسب وأهم عند البرتغاليين من مسقط ، التي بدأ وجودهم يتأرجح فيها ، كما بدأ الناس هناك يعطلون ويعرقلون إلى حد كبير ، المصالح والتصرفات البرتغالية بدرجة كبيرة . ومن وجهة النظر العسكرية والسياسية ، فإن جزيرة هرمز ، بحكم قربها من مدخل الخليج ، وبحكم سهولة تحصينها في مواجهة أي هجوم عليها ، يجعل لهذه الجزيرة قيمة خاصة . ولكن في الوقت الراهن ، ونظرا لأن الشاطئين الفارسي أو العربي ، يتبعان حكومة وطنية واحدة . في حين أن كلا من مسقط ، وصوحار ، ولينجا وحوالي عشرين ميناء آخر يقـدم كل منها مزايا مساوية أو تفوق تلك المزايا التي يقدمها ميناء هرمز لحركه الملاحة والتجارة ، ومع عدم وجود تجارة برية نجد أن أهمية هذه الجزيرة بدأت تتناقص بشكل كبير ؛ ولولا مناجم الملح الموجودة في الجانب الشمالي الشرقي ، والتي يستطيع القاصي والداني أن يقطع ويحمل منها ما يشاء شريطة أن يدفع مبلغا تافها للخزانة العمانية ، لولا هذه المناجم ، لتحولت جزيرة هرمز إلى شبه صحراء أو إن شئت صحراء خاوية . ولا يسكن في القلعة الآن سوى حاكم عماني صنيع ومعه بعض أفراد حاشيته ليحافظ عليها بالشكل التي كانت عليه ؛ ولتكون ملجأ تلوذ به السفن ، مثل سفينتنا ، عند هبوب العواصف ، طلبا للحماية من الطقس السيئ ؛ كما أشاهد أيضا قليلا من قوراب الصيد التي تتجول في المياه الشاطئية .

وجزيرة هرمز لا توجد بها عيون مائية دائمة ، ومع ذلك فإن مياه الأمطار تزود مستجمعات المياه ذوات القباب ، التى أنشئت هنا على نمط المستجمعات المقامة فى لينجا ، بالماء الذى يفى باحتياجات السكان القليلة منه ، طوال العام . وهناك خندق عميق يحيط بالقلعة من ناحية البر ؛ ولا تزال بوابات القلعة تحتفظ منذ أيام البرتغاليين بأبوابها المجلدة بالحديد ؛ وجدران القلعة ما تزال بحالة جيدة ، إذ لم تصب العقود سوى بقليل من الأضرار ، يضاف إلى ذلك أن القلعة من الداخل لم تتغير كثيرا عما كانت عليه فى الأزمان القديمة . ويبدو أن قهوة حاكم الجزيرة ، أو إن شئت فقل غرفة استقبال الحاكم ، كانت فى يوم من الأيام ، الكنيسة الداخلية ، لحامية القلعة ؛ وهذه القهوة تتسع لحوالى ثلاثمائة شخص . والجزء الأكبر من القلعة غير مأهول الآن ، علاوة على أن حاكم الجزيرة الحالى هو وكل حاشيته يعيشون داخل ركن واحد فقط من أركان هذه القلعة الفسيحة ؛ أما بقية القلعة - الغرف ، والأروقة ، والمخازن ، ومخازن الذخيرة ، فهى متروكة ، كما تقول العبارة المغربية لمشيئة السماء تفعل بها ما تريد .

وميناء هرمز نفسه مكون من خليجين ، كل منهما على شكل هلال ، أحدهما ناحية الغرب والثانى فى شرقى الرُّعن . والمرسى من النوع الجيد الآمن ؛ وفى الوقت الذى يتعرض أحد الجانبين لهبوب العواصف ، يكون الجانب الآخر فى مأمن منها ؛ يضاف إلى ذلك، أن هذا الركن من المضيق ، الغائر على نحو يجعله يعانق الساحل الفارسى ، تقل فيه قوة العواصف المعتادة عنها فى أى مكان من الأماكن الأخرى البعيدة عنه . ومقابل الميناء الشمالى - الغربى يوجد جبل مرتفع ، وعند سفحه توجد مدينة بندر - عباس . والمسافة البحرية بين هرمز والأرض الرئيسة تقدر بحوالى عشرة أميال ؛ وجزيرة جشم توجد فى غربى هرمز، أما جزيرة لارج **Larej** فهى فى الناحية الشرقية ، وهما واضحتان للجميع ؛ وتظهر عند الأفـــق كل من رأس مسندم وسلســـلة جبال رؤس الجبال .

دامت العاصفة التى دفعتنا إلى جزيرة هرمز ثلاثة أيام ، كان من المستحيل علينا أن نبحر خلالها . وأمضيت مع يوسف الجزء الأكبر من وقتنا على البر ؛ ولكن نظراً لأن تسعة أعشار السكان لا يتكلمون سوى الفارسية ، لم أستطع التحدث طويلا معهم . كان حاكم الجزيرة مؤدبا جداً ، ولكنه كان كثير الكلام ؛ وأكرمنا فى ضوء الفاقة التى تعانى منها الجزيرة ؛ وكان طبق لحم الضـأن على مائدة هذا الحاكم ، يبدو نوعا من

الترف والرفاهية بعد لحم سمك القرش الذى اعتدنا أن نتخذه طعاما لنا ونحن على ظهر المركب . وأسماك القرش توجد بكثرة فى مياه الخليج ، وليس هناك أحد يمكن أن يتمنع عن أكل لحومها ؛ برغم أن المتخيل المأخوذ عن هاملت الذى مفاده أن الملك يحدث له نوع من الارتقاء من خلال أكل لحوم أسماك القرش ، يمكن اختصاره بمعدل مرحلة واحدة هنا . ولحوم أسماك القرش مغذْية ، ولكنها فى أفضل الأحوال لا طعم أو نكهة لها ؛ والناس يطلقون اسم الأوال هنا على أسماك القرش ، وهذا الاسم هندى الأصل ؛ أما الاسم العربى الذى يطلق على سمك القرش فهو "كلب البحر" . وقد سعدت كثيرا عندما علمت أن نيبور نفسه ، ومعه بعض الرحالة الآخرين ، ونظرا لقلة تواصلهم مع السكان المحليين والمصطلحات الفنية المحلية ، اعتبروا كلمه "أوال" Awwal اسما لمكان ، وترتيبا على ذلك سموا جزيرة البحرين بهذا الاسم الذى يشيع ، بصدق ، بعيداً عن هذه الشواطئ ، ولكنه لا ينطبق عليها . من هنا فإن البحرين يطلق عليها فى بعض الخرائط اسم " الاوال " أو إن شئت فقل " القرش " ، تماما مثلما يحدث عندما يزور أحد الأجانب ساحلنا الشرقى ، ثم يدون إنجلترا فى ملاحظاته تحت اسم " الرنجة " أو "الماكريل" . وليست هناك جزيرة ، كبرت أم صغرت ، داخل الخليج تحمل اسم "الاوال " .

ومن الأمور شديدة الوضوح التى لا تحتاج إلى أن نشير إليها ، ومع ذلك فإننا يجب ألا نتركها تمر مر الكرام ونسكت عنها تماما ، مسألة لهجة ، أو إن شئت فقل لُغَيَّة ربابنة البحار والبحارة الذين يحيطون بعمان وبر فارس ؛ هذه اللهجة عبارة عن خليط من اللغة العربية ، واللغة الفارسية ، واللغة الهندوستانية ، واللغات الافريقية أو الزنجية من حين لآخر ، إلى جانب قدر معين من الانجليزية الفصيحة ، التى شوهوها كى تكمل قائمة مفرداتهم . وهؤلاء الربابنة والتجار يقضون حياتهم وهم ينتقلون خلالها فى رحلات بحرية إلى الشواطئ التى يتكلم الناس فيها اللغة الفارسية ، أو كراتشى ، أو بومباى ، أو منجالور ، أو كنانور ، أو إلى بعض الموانئ الهندية الأخرى ، وأحيانا إلى زنجبار وإلى صواحيل ؛ وأطقم البحارة نفسها فى مجملها عبارة عن خليط عجيب من الرجال ، الذين يحملون معهم إلى ظهور المراكب لغات غير اللغة العربية . وفيما يتعلق بالكلمات الانجليزية ، فإن القارئ يستطيع أن يقف بسهولة على انتشار " قسم التجارة البريطانية ولهجة الوفرة والثراء " اللذين شقا طريقهما إلى هذه المنطقة . من هنا ، فإن الرحالة الذى لا يحرص حرصا تاما ، ولا يعرف الكثير عن هذه اللغات

حتى يستطيع أن يميز الواحدة عن الأخرى ، وأن يُقَيِّم ويتعرف التطبيقات والاستعمالات المشوهة لهذه المسميات غير المشروعة ، مثل هذا الرحَّالة يمكن أن يقع فى أخطاء كثيرة ، ويخطئ أيضا فى كثير من المفاهيم من حيث الاستماع ومن حيث التدوين أيضا .

وعلى طول ساحل هرمز الشمالى والشرقى توجد بقايا القلاع الصغيرة القديمة ، التى بناها البرتغاليون أثناء تواجدهم فى هذه المنطقة ؛ ولكن التحوطات التى من هذا القبيل تقل ناحية الجنوب نظرا لأن الطبيعة فى هذا الجزء من جزيرة هرمز هى التى تلعب دور الدفاع بدلا من المهندس نفسه . وتجولت فى الجزيرة ، وتفحصت المنشآت المهدمة ، وتسلقت أسوار الطريق ، وألقيت نظرة على مناجم الملح ، وحاولت (بقليل من النجاح) أن أجعل الإيرانيين يتواصلون معى ، كما حاولت شد حاكم الجزيرة إلى التكلم والثرثرة ، ولكنى لم أفلح فى ذلك ؛ إذ يبدو أن حاكم الجزيرة كان قد اتخذ الموقف الذى مفاده " لا تطرح علىَّ أسئلة ، وأنا من ناحيتى لن أكذب عليك " وجعله شعارا له ؛ وقد تنفس هذا الحاكم الصعداء عندما علم أن الجو قد تحسن وأن ريحا شمالية مرسلة بدأت تهب مما سيجعلنا نبتعد عن طريقه .

وأخيرًا بدأت النسمات تهب ، وفى صباح اليوم السابع والعشرين بدأنا نبحر من جديد ، وبدأنا نتجه جنوبا ، إلى أن تجاوزنا سلامة وبناتها مرة ثانية – ولكن بلا خوف فى هذه المرة ، ومن الجانب الشرقى – ثم اتجهنا لنكون مقابلين للمدخل الخارجى لما يسمونه الباب أو إن شئت فقل باب مسندم ، الذى لم نعد بحاجة بعد إلى المرور منه . وواصلنا إبحارنا ببطء أسفل صخور تشبه الأعمدة (التى ذكرتنى بنقوش قديمة منذ عهد كهف فينجال Fingal وممر المارد Giant) ، وفى صباح اليوم التالى توقفنا مدة ساعة أو ساعتين فى خليج من الخلجان المحمية ، الذى كان عبارة عن بحيرة داخلية باستثناء شريط المياه الضيق الذى يصل هذا الخليج بالبحر . وعلى الجانب البعيد من هذا الخليج كانت توجد قرية روباه Roobah ؛ وهذه القرية تتبع منطقة رؤوس الجبال – وهو اسم على مسمّى .

كان الهدف من زيارتنا كما هو لم يتغير ، إذ كان يتمثل فى الحصول على حمولة من أسماك المطوط ؛ ولكننا لم نحصل على هذه الشحنة ، واضطررنا إلى أن نخرج من الميناء الصغير ، وقصدنا ميناء ليمة Leymah الذى لا يبعد كثيرا عن الشاطئ .

واسم ليمة يطلق على خليج صغير ، والقرية نفسها هي أكثر القرى ازدحاما بالسكان وهي أهم القرى الموجودة في منطقة رؤوس الجبال ؛ وهذه القرية هي أقرب القرى التي تقع على الجانب الشرقي من حدود المنطقة . وخلف هذه القرية تبدأ منطقة قلحاط ، أو قلحوط كما يسمونها في أغلب الأحيان ، وهذا الاسم يوضع ، في معظم الخرائط ، على الجزء الجنوبي الشرقي من مسقط ، بالقرب من رأس الحضض . وأنا في استكشافاتي لم أذهب إلى هذا المكان ؛ وعليه فأنا أزعم أنه لابد أن تكون هناك قرية أو مدينة تحمل هذا الاسم ؛ ولكن القلحاط الوحيدة التي سمعت عنها في عمان ، كانت هي المنطقة التي تقع حدودها الشمالية عند رأس ليمة، وتقع مدينة الباطنة في جنوبها .

ودخلنا الخليج ؛ ولكن الليل كان قد بدأ يرخي سدوله ، وكان أوان النزول إلى البر قد فات . وبناء على ذلك ، ألقينا مراسينا عند سفح بروز من بروزات الساحل ، كان مكونا من صخور بارزة تتدلى فوق الماء ، وقررنا أن نبقى في ذلك الماء إلى أن يطلع النهار . ولكن قبل منتصف الليل بفترة قصيرة هبت ريح عنيفة ، من نوعية الرياح التي يشيع هبوبها على هذا الساحل ، جاءتنا من الجبال وتحطمت علينا بشكل اضطر مركبنا أن ترفع مراسيها واندفعت بين الصخور ، وكان البحارة قبل ذلك ، قد استيقظوا مفزوعين من نومهم ، وراحوا يقومون بالمناورات اللازمة للخروج من هذا المكان . وفي الوقت الذي كان الجميع يَجْرُون ويتصايحون خلاله ، اصطدمت مقدمة المركب ، وتلى ذلك الاصطدام ، اهتزاز وارتعاش ، وبعد ذلك بلحظة حدث لقص[1] المركب وقيدومها[2] الشيئ نفسه . وعلى كل حال ، فقد أمكن بفضل الجهود الخرافية ، غير الموفقة ، التحكم في السفينة والاستفادة من هذا التحكم فيما بعد في إعادة المركب إلى داخل الخليج ، لتكون في وضع أفضل تتمكن معه من إلقاء مراسيها مرة ثانية ، وتكون أيضا في موقع محمي من العواصف والأنواء .

وطلع علينا الصباح بمنظر غاية في الجمال . كان المنظر عبارة عن شاطئ خصيب ، من خلفه وادٍ تنمو فيه أشجار الغابات في المسافات ما بين الجبال ، وكان ينتهي بممرات ضيقة ، تكسوها الأشجار أيضا ، برغم أن الجروف الجرانيتية المنحدرة

(١) القصُّ : بتشديد الصاد وضمها ، هو العارضة الرئيسية التي تمتد على طول قعر المركب - (المترجم) .

(٢) القيدوم : بفتح القاف وتسكين الياء وضم الواو ، هو مقدَّم المركب - (المترجم) .

كانت تنتشر هنا وهناك ؛ وعن يميننا كانت توجد قرية ليمة ، على شكل منازل الواحد منها فوق الآخر ، وصف فوق صف ، بصورة متدرجة على جانب التل ، شأنها فى ذلك شأن كثير من القرى التى شاهدتها أيام صباى السعيد ، داخل كانتون تسينو السويسرى ، أو - ولكن فى مرحلة لاحقة وأقل وردية - على منحدرات لبنان . وكانت أكواخ ليمة مبنية من الحجر ، ولها شرفات وأسوار بستانية - كانت تلك الأكواخ تبدو أنيقة ومريحة ؛ وذلك من منظور عدد المنازل ، وإجمالى عدد السكان الذى يقدر بحوالى ألفى نسمة . وفى أعالى هذا التل كانت توجد قطعان الماعز التى كانت تنتشر على حيود الجبل، وكنا نشاهد الرعاة وهم يتنقلون بين هذه القطعان؛ وأسفل هذه القطعان ، كنا نشاهد فى الوادى جماعات من الفلاحات اللاتى كن ترتدين ثيابا زرقاء وهن تتحركن بحثا عن الماء ليجلبنه من الآبار ؛ فى حين كنا نشاهد على الشاطئ زوارق بعضها كبير وبعضها صغير ، موضوعة على الشاطئ أو جاهزة لصيد السمك ؛ وأخيرا - منظرا بهيجا لـ - ربان مركبنا هو وطاقمه - وهذه أكوام كبيرة من أسماك المطوط الطازجة تتلألأ على الحصباء ، فى حين نشاهد أكواما أخرى من هذا السمك يجرى تجفيفها على الصخور فى ضوء الشمس .

ونزلنا جميعا إلى البر ؛ ودخل رباننا هو وأفراد طاقمه فى مساومة على شراء حمولة من أسماك الانكوفا الشرقية ، فى حين راح كل من زيد ويوسف وأنا معهم ، نتجول طوال ساعتين فى أنحاء الوادى ، الذى كان يحتوى على حياة نباتية وفيرة مختلفة الأشكال والأنواع - أشجار البلوط ، النخيل ، وأشجار اللوتس ، وأشجار السنط ، وأشجار لها أوراق لامعة خادعة ، تنتمى إلى الفصيلة التى يسمونها هنا المقساة Mok.sah ، وتحمل نوعا من التوت المستدير الذى يعطى مادة لزجة غروية يستعملها صيادوا الطيور ؛ وهذا المنظر على النقيض تماما من الجدب الذى شاهدناه فى كل من رأس الخيمة وهرمز . والسكان الذين التقيناهم هنا معظمهم من الرعاة أو صيادى السمك ، وهم من النوع الودود جداً ؛ وقد استدرجت بعضا منهم للكلام عن الإنجليز ، الذين يتجسسون عليهم وعلى سفنهم وبواخرهم من الأوكار الموجودة فى أعالى الجبال. ولكن المسئولين شأنهم شأن المستمعين ، لا يسمعون خيرا عن أنفسهم ، وهذا هو ما حدث لى عندما استدرجت هؤلاء الناس إلى الحديث عن الإنجليز . وبالرغم من كل هذه المزايا التجارية ، والحضارية ، والحمائية ، وغير ذلك من المزايا الأخرى ، إلا أنها لا تفوق العداء الوطنى ، الذى يزداد عمقا ، بفعل التخوف من استيلاء الأجانب

على هذه الأراضى – وهذا الخوف له ما يبـرره ، إلى حد ما ، من منطـلق أن سكان هذه البـلاد يرون ويشـاهدون الغـزو الأجنبى للهند ، وممتلكات الأجـانب فى الهند ، والغزو الأجنبى للبنجاب ، والحروب الصينية ، فضلا عن كثير من الامثلة الأخرى لذلك الذى يحدث إن آجلا أم عاجلا عندما يصطدم الحديد بالصلصال – أو عندما تصطدم أوربا بآسيا . وهذه الأحداث التى سبقت الإشارة إليها ، لم تتم فى الخفاء ، ولا تعد من قبيل الأسرار فى عمان ، لقد نشرت هذه الأحداث الخوف ولم تفعل سوى القليل من أجل الحب . ومن هنـا فـأنا أخشى أن يرضى أهل بـلدى ، من الجـيل الحـالى على أقل تقدير ، فى منطقة ليمة بما يسميه تاسيتـوس "دعهم يكرهون طالما يخشوننى" Oderint Dum Metuant Tacitus – وهذه الكلمات تلخص الموقت تلخيصا دقيقا .

وقد كان أصدقائى الصيادون يبدون خائفين ومذعورين ، تخوفا من أن الإنجليز إذا ما عرفوا خيرات رؤوس الجبال وليمة بشكل خاص ، فإنهم ربما يتركون جزيرتهم ، ويعودون كلهم – ملكا ، وملكة ، بل وجميعهم (هذا هو ما رواه لى واحد من أهل هذا المكان) ليستعمروا رأس مسندم . وأنا ليس من حقى أن أعترض على المخاوف التى من هذا القبيل ؛ يضـاف إلى ذلك أن بشرتى الشقراء ووصفى كغريب ربما جعلانى محطا للشك وأنا أدافع عن المسـألة البريطانية . من هنا ، رحت أتنهد فى شئ من القلق التعـاطفى ، وإلى وقتنا هذا فإن قلوب أهل ليمـة ترتجف من فكرة رؤية قصر باكنجهام ، ووستمنستر هول ، وهما ينتقلان فجأة إلى رؤوس الجبال .

وبعد أن عدنا من تمشيتنا قمنا بزيارة القرية . وبحثنا ، دون جدوى ، فى كل حاراتها وطرقنا كل أبوابها ، بلا طائل أيضا ، بحثا عن كرم الظهيرة ؛ ولم نصادف فيها رجلا واحداً ؛ إذ كان الرجال كلهم " خارج منازلهم " – ليس هروبا من المنازل ، وإنما فى أعمـالهم الشـاقة – التى كانت تتمثل فى صيد السمك ، ورعى الأغنام ، وتجفيف المطوط أو بيعها وما إلى هذه المهن . وقد دعتنا امرأة طيبة كانت فى أحد المنازل ، لنشاركها بعضا من الخبز الجاف ، الذى كانوا يرشون عليه شيئا من الماء حتى يلين قليلا ، وكان ذلك يمثل نوع الترفيه الذى يحق لقرية ليمة أن تتفاخر به ، أما القهوة فكانت مسألة لا نقاش فيها . وبالقرب من مجرى السيل خلف القرية كانت هناك قبة صغيرة، تحظى بكثير من التوقير والتقدير ، وكانت تتصل بهذه القبة حكاية طويلة ، حكاها لى رجل عجوز، بلغة عربية ركيكة جداً ، إلا أننى لم أفهم شيئا من هذه القصة ،

فيما عدا أن نارا مقدسة كانت قد أوقدت فى ذلك المكان ، فى يوم من الأيام ، ولكنها اختفت بعد فترة من الوقت ، عندما سمعت هذه الحكاية أشعلت غليونى ، ورجوت صديقى العجوز أن يفيد من هذا الغليون ، فى الاستعاضة به عن نار "القبة" التى أطفئت . وقد ضحك صديقى كثيرا ، وقبل هذه الدعوة .

وفى فترة العصر عدنا إلى المركب من جديد ، وقضينا فترة المساء فى الإبحار على طول ساحل قلحاط أو إن شئت فقل قلحوط ؛ وهذا الساحل صخرى أيضا ولكنه أقل وعورة من ساحل رؤوس الجبال . وفى صبيحة اليوم التالى أبحرنا من خليج ظيبى D.ebee ، ذلك الخليج الرائع ، الذى لا يقل جمالا عن خليج نابلس ؛ وتنتشر على شواطئه مجموعة كبيرة من القرى الصغيرة ، ومن خلف هذا الخليج توجد بانوراما جبلية مثل بانوراما صقلية . وقد راودتنى رغبة كبيرة عن النزول إلى البر والتمشى على الشاطئ ؛ ولكن ربان المركب كان راضيا تماما عن حمولة المطوط ، ولم يكن لديه أو لدى أحد من طاقم المركب سببا أو مبررا يجعله يلقى مراسيه فى ظيبى D.ebee . ومن هنا واصلنا إبحارنا على طول الساحل ، الذى تزداد خصوبته وكثافة أشجاره فى هذه المنطقة ، فى حين تقل الجبال أكثر فأكثر كلما اتجهنا إلى الداخل ، لتذوب بعد ذلك مع سلسلة مرتفعات جبل أخضر خلف مدينه باطنة . وهذه المنطقة ، تتبع ، إلى حد ما ، منذ الحرب التى دارت مؤخرا ، خالد بن صقر الذى يقوم بجمع الإيرادات ، ولكنه ليست له سلطه إدارية ؛ وسكان هذه المنطقة كلهم من البياضيه . ويعيش السواد الأكبر من السكان ، فى هذه المنطقة ، على ساحل البحر ، فى الأماكن التى تسمح فيها الأراضى المستوية بالزراعة ، ويحفز البحر السكان على صيد السمك والتجارة ؛ وهذه هى أهم الحرف عند الرجال العمانيين . وظيبى D.ebee هى المدينة الرئيسية فى قلحاط ، وفيها يسكن الحاكم المحلى ؛ والحدود الداخلية لمنطقة قلحاط الذى يحددها هو سلسلة الجبال التى تفصل قلحاط عن مدينة الشارقة . وعند الظهر تجاوزنا مدينة زبارة ، وهى مدينة صغيرة ، ولكن تحيط بها بساتين مثمرة ؛ وهناك بعض القرى الصغيرة الأخرى التى تشكل سلسلة بطول الساحل ، والسبب فى ذلك أن كثافة السكان فى قلحاط أعلى منها فى رؤوس الجبال، إضافة إلى أن سكان قلحاط أكثر تحضرا من سكان رؤوس الجبال.

وقبل حلول المساء كنا قد أصبحنا مقابلين لواحدة من القمم العالية شديدة التحدر ، التى تبعد حوالى عشرة إلى اثنى عشر ميلا عن الساحل ؛ وهذه القمة تمثل النقطة الجنوبية التى تلتقى عندها سلسلة مرتفعات رؤوس الجبال ، ويطلقون عليها اسم

قَطَّاع اللِّحى ، برغم أنى لا أعرف من أين جاءوا لها بهذا الاسم ؛ ووادى الحمم يمر أسفل قطاع اللحى ، ومن وادى الحمم ، فى هذه المنطقة ، يتفرع طريق يصل مباشرة إلى الشارقة ، التى تقع مقابله لهذه النقطة على الجانب الآخر . ومن قطاع اللحى وفى اتجاه الجنوب ، تبدأ منطقة باطنة التى تمتد بطول الساحل إلى أن تصل إلى برقا ، ثم تتجه نحو الداخل إلى منحدر جبل أخضر .

ومنطقة باطنه هى أغنى مناطق عمان ولكنها ليست أهم هذه المناطق . ولما كانت منطقه باطنه يحدها البحر من جانب وسلسلة جبال جبل أخضر العالية من الجانب الآخر ، فإن سقياها بالماء أفضل من أى منطقة أخرى فى الجزيرة العربية كلها ؛ وتربة باطنه رطبة بفضل العيون المائية من ناحية ، كما تبللها ، خلال شهور الشتاء مياه الأمطار الغزيرة من الناحية الأخرى ، يضاف إلى ذلك أن مجارى السيول الجبلية تخترق منطقة باطنه فى كثير من مناطقهـــا ، برغم أن أى مجـــرى من هذه المجارى لا يمكن أن نسميه نهرا من ناحية الحجم أو الدوام ، أو يستحق أن يجد له مكانا على الخرائط . وهذه المنطقة عبارة عن سهل كبير ، يصل طوله إلى ما يقرب من مائة وخمسين ميلاً ويتردد عرضه ما بين ثلاثين وأربعين ميلاً ؛ ومنطقة باطنه من الداخل ، ترتفع تدريجيا على شكل منحدرات وتلال خضراء ، فى حين أنها ترتفع من ناحية البحر إلى مستوى أعلى من مستوى سطح المحيط مما يجعلها فى مأمن من المناخ غير الصحى الذى تعانى منه القطيف والمناطق الساحلية الشبيهة بها . والحياة النباتية فى باطنه تنافس مثيلتها فى منطقة الكنكان الهندية من حيث الثراء والتنوع ؛ يضاف إلى ذلك أن طابع الحياة النباتية فى باطنه لا يختلف عن طابع الحياة فى منطقة كنكان أيضا . ففيها أشجار المانجو ، وأشجار جوز الهند ، ونخيل التُّنبول ، إضافة إلى العديد من الأحراج الأخرى التى ألم إلماما تاما بأسمائها الهندية أفضل من العربية : ومن بين هذه الأحراج مثلا دغل الأليع Aáley ، وشجرة الكاثول Kathol التى يقول لها الإنجليز Jack - Fruit ؛ وثمرة الجامبلو Jamblu يزينونها هنا ويطلقون عليها اسم "الخوخ" Khowkh ؛ كما توجد هنا أيضا ثمار الباباى Papay التى تشيع فى المنطقة المحيطة بمدينة بومباى ؛ ناهيك عن كثير من الأدغال القصيرة والنباتات التى تنمو على سطح الأرض والتى تنتمى إلى الحياة النباتية الاستوائية ، وهذه الأدغال كلها تختلط بأشجار النخيل وأشجار الأثل ، التى ترفض إلا أن تبقى شاهدة على طبيعة التربة العربية. والإنتاج الزراعى هنا متنوع أيضا . وهم هنا يزرعون القطن الأبيض والأحمر –

والواقع أن القطن الأحمر هو الأكثر شيوعا هنا ، ويكثر الطلب عليه محليا ؛ كما يزرع البن هنا أيضا رغم أنه يشبه البن الهندى ولا يصل إلى نوعية البن اليمنى ؛ وهم يزرعون هنا أيضا النيلة ، وقصب السكر ، والبطاطا أو إن شئت فقل اليام ، والقمح ، والذرة ، والدخن ، وكثير من النباتات البقلية ، علاوة على أشجار المشمش ، والخوخ (الخوخ الفارسى) ، وأشجار المكسرات ، وكذلك التفاح ، على ما أعتقد - برغم أنى غير متأكد إن كان التفاح يجرى استيراده من إيران ؛ والناس هنا يطلقون على التفاح اسمه الفارسى " سيب " . والبساتين المثمرة تكسو جوانب جبل أخضر ، وهذه البساتين تنتج أنواعا ممتازة من الأعناب والنبيذ ؛ وسكان منطقة باطنه سعداء لأنهم من القرامطة ، وليسوا مسلمين ، أو لأن الطبيعة أعطتهم أحلى ما عندها . وأخيرا ، هناك أيضا أشجار السنديان ، وأشجار البلانيرة المائية[1] ، وأشجار النبق ، التى تجود ويكثر نموها هنا ، وهم يستعملون أخشاب هذه الأشجار فى بناء السفن ، والمنازل ؛ كما يجلبون خشب السَّاج من الهند .

ويقال أن عدد القرى والمدن فى منطقة باطنه يزيد على مائة قرية ومدينة ؛ وأنا من واقع ما شاهدت أوافق وأتفق مع من يقول بذلك . والساحل فى باطنه عبارة عن خط متصل من البساتين والمنازل، ابتداء من قرناه K.ornah ، التى تبدأ منها منطقة باطنه ، إلى منطقة برقا Bark.a ، التى تنتهى عندها ؛ وعلى مرمى البصر لا ترى سوى زراعات ومنازل ، لها خلفية منخفضة من الخضرة والنباتات . وصوحار هى عاصمة باطنة؛ وبرقا هى ثانى المدن من حيث الأهمية؛ واللواعوا Lw'wa ، والسويق، والفاجرة Fajirah، وصوحام ، ومضاع ، عبارة عن مراكز سكانية مهمة . ولعلنا نعود الآن إلى سياق رحلتنا ، ونتناول كل جزء منها ، طبقا لترتيبه وتسلسله.

وعند حلول الليل ضعف هبوب النسيم ، واقتربنا كثيرا من الشاطئ . ومع سطوع الزهرة ، التى رحب بها البحارة تحت مسمى الفرخد ، بدأت ريح البر فى الهبوب ، وهنا واصلنا إبحارنا بلطف وانتظام بجوار الساحل ، فى حين راح ربان المركب هو وزيد يشيران إلى قرية إثر قرية ، ومدينة إثر مدينة . هذه هى الفاجرة Fajirah ، مسرحا دمويا من مسارح خالد بن صقر ؛ وهذه شيناز Shinaz ، التى حدثت فيها

(١) شجرة أمريكية صغيرة الأوراق ذات ثمر بيضى الشكل - (المترجم) .

أيضا مذبحة كبيرة ، ولم تمر هاتين المدينتين بلا تعليق من البحارة : وهاتان المدينتان من واقع شكلهما البحرى ما تزالا تبدوان كبيرتان ومزدهرتان . والحرب ، شأنها شأن الطاعون ، يندر أن تترك أثرا على عالم الأحياء ؛ إذ لا يوجد مفيستوفليس **Mephistophles** قادر على عرقلة " الدم الجديد " من التدفق أحمر قانيا ؛ يضاف إلى ذلك أن الربيع العائد إذا لم يحمل معه " عمل السعادة " فإنه سرعان ما يستبدل نفس " أعمال السعادة " التى جناها الخريف بأخرى مماثلة تماما ، ولا يقل وفرة ، أو تهورا عن تلك التى جاءت قبلها . وتصارع الزهور لم يقض على الزهور التى تنبت فى إنجلترا بعد ذلك بسنوات قلائل ، إضافة إلى أن الحروب لم تجرد فرنسا من إمبراطوريتها ؛ إن جيلا واحدا ، بعد الحرب الأهلية الامريكية ، كفيل بأن يزيد من كثافة السكان فى الولايات الأمريكية الشمالية ، أكثر مما كانت عليه قبل أن يصبح لينكون رئيسا للولايات المتحدة . والمعروف أن الحكم السيئ المتدرج يساعد أكثر من الطاعون على تخلخل السكان ، وخلال فترة قصيرة . كان منظر شيناز من أمامنا يوحى بمنظر من المبانى الجميلة ، التى كل واحد منها عبارة عن نصف قلعة ونصف قصر ، وهذا الطراز مقصور على عمان وحدها ، وواجهات المبانى كلها واحدة ومطلية باللون الأبيض ، وعلى جانبى كل منها مزاريب لتصريف مياه المطر ، وفوق كل منها مزاغل ، ولكل منها بوابة رئيسة ، وخلف كل مبنى يوجد برج مستدير ، وكل هذه الأشياء من الطراز القوطى ، وقد أنشئت بغرض المنظر الجميل والدفاع عن المبنى . والواقع ، أن الاعتياد على جو "السلام العريق" والأمن ، يعد ملمحا أساسيا من ملامح الحياة العمانية . من هنا فإن زيدا وأهل بلده كانوا يتكلمون عن الغزو الوهابى الأخير بكلمات وعبارات مختلطة من الفزع ، والدهشة ، والاستياء ، والتى يستعملها الناس عندما يصفون شيئا لم يتعودوا عليه بالمرة : زد على ذلك أن الحرب ، فى عمان ، تعد شيئا خارقا للعادة وغير طبيعى بالمرة ، وذلك على العكس من نجد وغربى الجزيرة العربية اللتين تعدان الحرب أمرا طبيعيا . وعند حلول المساء رفعنا مراسينا وأبحرنا من فرقصة ، بالقرب من سلسلة طويلة من المنازل، وسط مجموعة من البيارات كثيفة الأشجار الممتدة إلى شاطئ البحر– وهذا المكان عربى جيد السقيا ، ولا يختلف كثيرا عن سواحلنا الجنوبية ، ولكنه أجمل منها ؛ وبعد غروب الشمس بساعة سمعنا فى البحر دويّ مدفع المساء ينطلق من مدينة صوحار .

وفى صباح اليوم التالى، كنا قد وصلنا، قبل شروق الشمس ، إلى مكلاً صُوحار ، التى قررت أنا ويوسف أن ننزل فيها ، وأن نواصل المسافة المتبقية عن طريق البر .

وأنا نادم لأننا لم نتمسك بقرارنا - وسوف يعرف القارئ حالا أسباب ذلك الندم . ولكن العبد فى تفكير والرب فى تدبير ؛ وعلى لوح ترد الحياة ، نجد أن الفرصة والظـروف لا تقلان تدبيرا عن التعقل والتروّى والمهارة . وهنا افترقنا عن زيد ، وودعناه ، هو ورفاقه على غير رغبة منا ، بعد أن قدموا لنا كثيرا من الدعوات ، وبعد كثير من الوعود من جانبنا ، بأننا سوف نتصل بهم من صوحام S.oh.am ، ثم نزلنا إلى الشاطئ فى قارب المركب ، الذى يسميه العمانيون "جاليبوت" Jaliboot . وصَحِبَنَا الربان إلى الشاطئ ، واستطاع عن طريق وضع الكلام فى موضعه الصحيح أن يقنع موظفى الجمارك بأن يفرجوا عن أمتعتنا بلا رسوم . وينبغى أن أشير هنا إلى أننا كنا نحمل معنا القسم الأكبر من هدايانا ؛ أو إن شئت فقل كنا نحمل معنا تلك الهدايا التى كانت ستقدم لكل من ثوينى وحاكم صور S.oor .

كان مقصدنا الأول هو رئيس المدينة ، الذى كان اسمه فخار Fakhar ، وكان رجلا مهما . ولكن لسوء حظنا ، لم يكن هناك ، إذ كان مع السواد الأعظم من أسرته ، فى زيارة للسلطان ، ولم يكن هناك من ينوب عنه فى استقبالنا . وانتظرنا لحظة ، لم نكن نعرف خلالها إلى أين نذهب ، وهنا ظهر شاب صغير ، عرف أننا فى ورطة ، فجاء يسألنا عن المكان الذى سنقيم فيه . وتذكر يوسف بن خميس صديقا عمانيـا قديما من أصدقائه ، كان قد نزل عليه ضيفا قبل عدة سنوات ، عندما كان فى رحلة تجارية مع أبى عيسى فى هذه المنطقة ، وسأل ابن خميس ذلك الصبى عن هذا الصديق العمانى . ورد عليه الصبى أنه يعرف ذلك الرجل العمانى ، وعرض علينا أن يدلنا على بيته ، الذى كان فى وسط المحمية .

وذهبنا إلى منزل ذلك الصديق العمانى ومعنا الصبى . كان الوقت لا يزال مبكرا ، وكان عيسى ، ذلك الصديق العمانى ، ما يزال نائما يتمتع بسنة من نوم الصباح ؛ كان حصانه ، ذلك المخلوق الجميل ، يقف مربوطا بالقرب من بوابة منزله ، وصهل الحصان وعندما وصلنا إلى الباب الخارجى وبدأنا نطرقه . وهنا ظهر أحد جيران ذلك الصديق ، وأيقظنا كلنا صاحب المنزل ، الذى استقبلنا استقبالا حارا ، واعتذر عن نومه ، وشرع على الفور فى تجهيز طعام الإفطار ، بعد أن أخذ بعين اعتباره أننا بحكم عودتنا من البحر ، لابد وأن تكون شهيتنا مفتوحة على غير العادة .

كان منزل عيسى مبنيا من القرميد ، ولكنه كان مزوداً بغرف خارجية مصنوعة من الخشب والقش ، وهذا بحد ذاته ترتيب جيد لتمضية ساعات النهار الحارة ، إضافة إلى أن هذا الترتيب من الأشكال الشائعة في عمان ، وبخاصة أن الطقس يكون حارا في عمان ، في مثل هذا الوقت من العام : بل الواقع أن المناخ هنا يشبه مناخ بومباى من جميع الجوانب ؛ وبرغم أن دائرة العرض تنحرف بضع درجات ناحية الشمال ، فإن درجة الحرارة ، لا تقل عن درجة الحرارة في بومباى وذلك راجع إلى أسباب محلية . ومنازل باطنه متينة ، ولكن الناس هنا يهتمون اهتماما كبيرا بانسياب حركة الهواء ؛ ولذلك يستعمل الناس هنا الأبواب الكبيرة ، ويكثرون من أعداد النوافذ المزودة بالشعريات ، ومن الغرف الواسعة . والطلاء الأبيض يحل هنا محل الطلاء النجدى البنى اللون ، وأرضيات المنازل هنا من الطين المضغوط ، الذى يخلط بالرمل فى بعض الأحيان . ومن السمات الخاصة بالعمارة المنزلية فى عمان ، والتى لها قيمتها ، أن الخصوصية لا تراعى فى هذه العمارة المنزلية ، وأنا أعنى بذلك أن الحريم فى المنزل العمانى ليست لهم خصوصية . وقد شاهدنا فى كل من نجد ، وفى الأحساء ، وفى شومر وفى الجوف ، أن هناك نوعًا من التمييز بين أماكن الرجال وأماكن النساء – وأن هذه الخصوصية ليست صارمة كما هو الحال فى مصر وسوريا ، وإنما هى تشير إلى شئ من الغيرة ، أو هى على أقل تقدير ، عدم الرغبة فى السماح للضيف بالاطلاع على الحياة العائلية ، أو حتى مجرد إطلاعه ولو بطريقة عابرة على أسرار الأسرة الخاصة . والعرب بطبيعتهم من النوع الغيور ؛ كما أن عقيدة محمد أضفت على هذا الشعور السيئ حرمة الدين[1] . أمّا فى عمان ، فإن التعامل بين الجنسين والاختلاط بينهما يتخذ الطابع الإنشائى ، ويندر أن يُمْنَعَ الضيف من زيارة الحريم مثل سائر بقية المنزل ؛ فى حين تتحرك النساء ، خلال الحياة اليومية بلا أية قيود ؛ وتكشفن عن أنفسهن ، وتتكلمن ، مثل بقية المخلوقات المعتادة ، وذلك على النقيض تماما من تماثيل نجد والرياض الصامتة الملفوفة . ومن هنا نجد أن الطابق الأرضى فى المنزل العمانى يختلف اختلافا كبيرا عن منزل الشخص المسلم ، بل وحتى عن المنزل العربى المعتاد ، من منطلق أن الغرف كلها تكون على صف واحد ، وتتصل ببعضها ، ولا تكون هذه

(١) هل غيرة الرجل على أهل بيته يُعدّ شعوراً سيئاً ؟ وهل مكارم الأخلاق أصبحت عيباً ؟ اللهم إلا عند من فسدت فطرته – شأن هذا المؤلف – وقد عانت بلاده ، وبلاد الغرب كلها من تهتك المرأة وإباحة المخادنة مما أفسد طبيعة الحياة ، وفشت الأمراض المعدية كالإيدز وغيرها – (د. حلمى عبد المنعم) .

الغرف معزولة على شكل أحواش مستقلة ؛ كما أن القهوة فى المنزل العمانى ، لا تكون قريبة من بوابة المنزل ، كما هو الحال في نجد ، وإنما تحتل مكانها فى الجزء الداخلى من المنزل ، أو قد تكون فى وسط المنزل تماما .

كان صديقنا عيسى ، أو عويسا على سبيل الإعزاز والتقدير ، من طائفة التجار ، ولكنه كان يشغل قبل كل ذلك منصباً فى خدمة الرئيس ؛ ومن ثم كان بوسعه أن يحدثنا عن الأمور الصغيرة فى الحكومة المحلية . وطبقا لرواية عيسى ، فإن الأسرة الحاكمة التى ينتمى إليها فخار Fakhar ، أسرة عريقة ومن أصول عمانية حقيقية ، وأنها انحدرت من اليعاربة فى جبل أخضر . ومع ذلك ، فإن الحاكم الحالى لم يكن يحظى بشعبية بين رعاياه ؛ الذين تقدموا إلى ثوينى بكثير من الشكاوى فى حقه ، عن طريق مجلس المحمية، أو إن شئت فقل كبار صوحار؛ وخلاصة القول أن فخارا Fakhar اضطر إلى القيام بالرحلة التى هو قائم بها الآن كى يكشف عن تواجده أثناء وجود السلطان . وقيل لحاشية فخار إنه جواد تماما ، ولكن جوده يكون على حساب مواطنيه وعلى حساب التجار أيضا ؛ وخلاصة القول ، أن عيسى كان من رأيه أن وضع الحاكم فخار سوف يزداد سوءاً فى الاجتماع الذى سوف يعقده ثوينى ، اللهم إلا إذا أنقذتة الرشاوى من ذلك الموقف الصعب ، وهذه مسألة لم تتهيأ الفرصة لها بعد . وقد هيأ هذا الظرف الأخير الجو لكثير من الشكاوى المتعلقة بإهمال السلطان فى معالجة المظالم التى حلت بالبلاد ؛ فى حين كان نظام السلطان سعيد وأيامه الزاهرة وحكومتة النشطة موضوعا خصبا للحديث والتأسى .

وبالرغم من حدوث شيئ من التدهور فى الإدارة العامة ، إلا أن الشرطة التى تأسست منذ زمن قديم فى كل أنحاء عمان ، ما تزال جيدة تماما . وعلى العكس من "المطاوعة" النجديين فإن هؤلاء الحراس ، إذا ما سميناهم باسمهم العربى ، الذى يساوى " الحراس " (البريطانيين) ، يقتصر دورهم ببساطة على الحفاظ على النظام العام ، ومنع الشغب والمضاربات ، وإلقاء القبض على الجانحين ، وما إلى ذلك ؛ والحراس ليس الهدف منهم التجسس ، سواء أكان رسميا أم غير رسمى ، والمخالفات لا يعتد بها إلا إذا كانت تهدد الأمن العام . والحراس ، أثناء خدمتهم النهارية ، يمكن الالتقاء بهم فى الأسواق ؛ إضافة إلى أن ثيابهم تتسم بالطابع العسكرى بدلا من الملابس المدنية ، كما أن الخناجر التى يحملونها ثرية الزينة ، وقد يحمل الواحد منهم بندقية أيضا، وبذلك يتميزون بملابسهم عن سائر المحيطين بهم.

وأثناء الليل يسير الحراس في الشوراع جيئة وذهابا ، ويعارضون باسم السلطان كل من "يشكُّون فيهم" . والسرقات ، والسطو على المنازل ، أو القتل كلها أشياء نادرة الحدوث في باطنة ، يضاف إلى ذلك ، أن انتشار المسافرين العزل الذين لا يحملون سلاحا في كل أنحاء البلاد يعطي انطباعا بالنظام وكثافة السكان . والمسافة بين جبل أخضر والبحر خالية من القبائل ؛ ولكن البدو الرُّحل القلائل الذين ينتمون إلى عمان ، يعيشون في الناحية الجنوبية من الجبال ، في المنطقة التي يطلقون عليها إسم الظاهرة D.áhirah، كما يعيشون أيضا في الطرف الشرقي من سلسلة الجبال الموجودة في منطقة جيلان . ومنطقه جيلان مشهورة بأفخر أنواع إبل الذلول التي يذيع صيتها في سائر أنحاء الجزيرة العربية كلها ؛ ويشيع في منطقة باطنه استعمال الحمير في نقل الأحمال ، أو في الركوب ؛ ولكن الخيول ، برغم إنها أصغر ، وأدنى منزلة من الخيول النجدية ، تستعملها الطبقات الثرية .

وبعد تناول الإفطار ، وتجاذب أطراف الحديث عن وصولنا أول مرة ، أصبح عيسى ، هو وبعض رجال المدينة الذين حضروا لتحيتنا ، على ودٍّ مع يوسف ومعي ، وعرضوا علينا أن يفرجونا على المدينة ، التي يعرف القراء ، أنها واحدة من أهم المدن العمانية . وقبلنا العرض بكل سرور ، وبدأنا هذه الفرجة بزيارة قصر رئيس المدينة ، الذي كان عبارة عن قلعه من قلاع النبلاء ، لها أسوار على شكل دائرة ثلاثية ، ومزينة بزينات تشبه تلك الزينات التي ربما يكون القارئ قد شاهدها في جامع قصَّاب الكبير في بومباي – وهذا الأسلوب المعماري مكون بصورة أساسية من عقود مدببة ، وأعمدة مستديرة ورفيعة ، وقناطر مستعرضة ، وشرفات بارزة ، ومزاريب ؛ في حين يعتمد هذا الأسلوب أيضا على الجص أو الجص الكثيف في استكمال بقية التفاصيل الأخرى . وقلعة صوحار مقامة على قطعة صغيرة من الأراضي المرتفعة داخل المدينة ؛ ومدخل هذا القلعة عبارة عن قنطرة أو جسر ، يمر من فوق خندق ، ويؤدي إلى بوابة داخليه كبيرة ؛ وعلى أسوار هذا الملجأ توضع قطع صغيرة من المدفعية ، أو إن شئت فقل مدافع قديمة ، إذا ما استعملنا العبارة العتيقة ، كما توجد أيضا أربعة مدافع موضوعة أمام مدخل القلعة . والحراس هنا ، وفي سائر المدن الكبيرة الأخرى في عمان ، وبخاصة مدينة مسقط ، هم من البلوش ؛ وهؤلاء الحراس مشهورين بولائهم لسادتهم ؛ يضاف إلى ذلك أن دين هؤلاء البلوش السنيين ، والذي يحول بينهم وبين الاختلاط الحر مع البياضية في هذه البلاد ، علاوة أيضا على اختلاف لغتهم وأعرافهم

عن لغة البياضية وأعرافهم ، كل ذلك يؤمن هؤلاء البلوش ضد التآمر وارتكاب الأعمال غير المشروعة . يضاف إلى ذلك ، أن البلوش لا يخشى من تآخيهم ، من ناحية أخرى ، مع الوهابيين ، برغم أنهم سنيون أيضا فى مذهبهم ، وهناك عداء وطنى شديد يفصل البلوش عن عرب الشمال الأصليين ، أو إن شئت فقل النجديين . فقد تم خلال الغزو الوهابى الأول ، محاصرة صوحار والاستيلاء عليها ؛ ولكن بعد سقوط المدينة ، صمدت القلعة هى والحامية البلوشية صمودا قويا، إلى أن نفذت جميع المؤن الموجودة داخلها ، ثم حاول الحاكم العمانى ومعه حاشيته الهروب عبر أسوار القلعة ، وتحقق ذلك لهم أثناء الليل . وفى صباح اليوم التالى ، وبعد أن يئست الحامية البلوشية لعدم تقديم العون والمساعدة ، فتحت أبواب القلعة على مصراعيها ، واستلوا سيوفهم استعدادا للموت ، ولكن بعد أن ثأروا لموتهم مقدما ، من محاصريهم . والحاكم الفعلى ثرى جدا ، ويقال أيضا إن الملجأ الداخلى الذى لم يسمحوا لنا بالدخول إليه نظرا لغياب الحاكم ، يحتوى على كنوز كثيرة .

وكما سبق أن قلت فى كل من نجد والأحساء ، أن النقوش هنا لا تزين مدخل القلعة أو جدرانها ، وذلك تأبينا لبانى القلعة ، أو تاريخ إنشائها أو المناسبة التى أدت إلى إنشائها . وهذا ليس راجعا إلى عدم وجود المواد أو العمالة المناسبة لذلك ، والسبب فى ذلك ، أننى أرى هنا حجرا يميل لونه إلى الاصفرار ، ومنحوت بعناية ، ينتشر على نطاق كبير بين الأحجار المستعملة فى بناء هذه القلعة ، علاوة على أن زينات المبنى تكشف عن مهارة طويلة فى النحت . وهذا يمكن أن يكون برهانا إضافيا على أن الحميريين ، الذين كانوا مصابين بجنون النقوش ، لم يحتلوا قط ذلك الجزء من الجزيرة العربية ؛ وربما نجد شيئا من هذه النقوش فى المنطقة الخلفية من جبل أخضر وفى جيلان .

ويوجد أمام القلعة مكان واسع مزروع بالأشجار ويمتد إلى أن يصل إلى أسوار القلعة من جهة البحر ؛ ومتاريس المدينة هنا بحالة جيدة ، ومزودة ببعض قطع المدفعية فى هذا الجزء من المدينة ؛ ولولا كبر حجم صوحار نسبة إلى القوة المدافعة لاستطاعت أن تصمد أمام الحصار الطويل . وغادرنا القلعة إلى السوق والسوق هنا أكبر من سوق السلامة وأكثر تنظيما ؛ والمحلات هنا وكذلك محتوياتها تشبه محلات وبضائع لينجا ، ولكن عدد المسافرين الذين يزورون مدينة صوحار عن طريق البر والبحر يزيدون من أهميه أسواق الخضراوات واللحوم . والقيسارية هنا ، لها قبو كالعادة ، ولها أيضا

أبواب كبيرة تفتح وتغلق ، وهى أيضا مكان واسع ، وفسيح وطويل ، ويتساوى من حيث الحجم مع أى سوق من أسواق بغداد ؛ ولكن محلات كثيرة من السوق كانت خالية وشاغرة . وقيل لى ، أن هذا الوضع قائم منذ أن قام خالد بن صقر باحتلال هذه البلاد ، والذى أحدث ضررا كبيرا ، برغم أنه لم يدم طويلا ، فى التجارة ، وأخاف كثيرا من البنيانين المسالمين . وقد أحدث الوهابيون بعض التعديلات ، فقد أنشأوا مسجداً بالقرب من القلعة ؛ وهذا المسجد مهجور تماما الآن ، وتخيم عليه وحدة كئيبة . وتزدحم بقية السوق بالحرفيين وأصحاب المحلات ؛ والممرات الموجودة بين صفوف المحلات مسقوفة بالقش منعا لحرارة الشمس .

والعمال الذين يغلبون على هذا السوق هم الصاغة الذين يعملون فى المشغولات الذهبية والفضية ، وكذلك الحدادون ، والنحاسون ، ومن حيث الصناعة فإن مهارة الحرفيين فى هذا السوق أرقى وأعلى بكثير عن مثيلتها فى الأحساء ، مثلما يتفوق حرفيوا الأحساء على حرفيى نجد . وقد شاهدت ولاحظت بين المتواجدين فى الشوارع بعض الرجال أقوياء البنية وبشرتهم داكنة ، ويلبسون ثيابا تشبه الكلتيات[1] ويضعون على رؤوسهم غترا بيضاء اللون ؛ وكان كل واحد منهم يحمل رمحا قصيرا فى يده ، ويعلق سكينا فى وسطه علاوة على الخنجر المعتاد . وعندما سألت عن هؤلاء الناس ، قالوا لى : إنهم من جبل أخضر من المنطقة المجاورة لمنطقة عُبْرِى Óbree وأنهم ينتمون إلى أعيان اليعاربة فى هذا الجبل . وعندما مررنا خلف القيسارية ، ودخلنا فناء مربع الشكل تحيط به منازل طويلة ، ومزروع فيه شجرتان أو ثلاثة ؛ وشاهدنا فى هذه المنطقة زوج من ثيران البراهمينى ، يمتلكه بعض البنيانين العاملين فى السوق . ومدينة صوحار لا يسكنها يهودى واحد؛ وقد سمعت عن البارسيين ، ولكنى لم ألتق أيا منهم .

وخرجنا من السوق ، وواصلنا مسيرنا بين المنازل التى يتروواح ارتفاع كل منها بين طابقين وثلاثة طوابق ، وتحت عقود كثيرة توجد على بعد مسافات متقاربة على طول الشارع الرئيسى ، إلى أن وصلنا إلى بوابة المدينة الشرقية ، ومن هذه البوابة الشرقية ؛ عبرنا أرضا رملية واسعة تحيط بأسوار المدينة ، ودخلنا إلى البساتين ، التى جلسنا فيها برهة من الوقت فى ظل الأشجار الوارفة وبجوار المياه الجارية . كان كل

(١) الكلتية : تنوره ذات ثنيات طولية (يرتديها الرجال فى اسكتلنده وأفراد الفرق الأسكتلندية فى الجيش البريطانى) - (المترجم) .

شيء هنا استوائيا – الشمس ، الأشجار ، الأعشاب ، الزهور ، وكذلك الرجال ؛ بل إن الآبار والمجارى المائية نفسها ؛ المزينة " بالشونام "، إن جاز لى أن استعمل الكلمة الإيطالية هنا ، كانت تبدو كما لو كانت منقولة من جوزيرات ؛ وكل ما يعكر الصفو كان عبارة عن مجرد ارتفاع قليل فى كثافة الهواء ؛ يضاف إلى ذلك أن الفلاحين الذين يقومون على أمر هذه الحدائق كانوا أقوياء البنى، مفتولى العضلات، ويتدفقون حيوية ، مما جعلنى أحس أننى لم اكن فى حمام بخارى هندوستانى، وأنا أقف على تربة عربية. وعدنا من البساتين إلى المدينة ، ودرنا حول أسوارها ، مسافة ربع ميل فى طريق يحيط بالخندق ؛ ثم عبرنا بعد ذلك إلى منزلنا فى النهاية . ومحيط المدينة يصل إلى حوالى ميلين ؛ وتحصينات هذا المحيط تشمله بالكامل ، ولكن الخندق لا يمتد ناحية البحر .

كنت أنا ويوسف قد قررنا مغادرة المدينة فى هذه الليلة نفسها ، أو فى الصباح على أكثر تقدير ، إلى مدينه مسقط ؛ وهذا يعنى أن أمامنا مسيرا يقدر بحوالى ثمانية أو تسعه أيام . ولكن ، من حسن حظنا كما تصورنا ، ولسوء حظنا فى واقع الأمر ، أننا فى اللحظة التى كنا نتناقش خلالها مع أبى عيسى ، فيما يتعلق بمسارنا وغدائنا ، دخل علينا ربانا بحريا كانت مركبه متجهة إلى مسقط ، ووعد أن يأخذنا معه فى سفينته ، وقال لنا : إن رحلة بحرية مقدارها يومين سوف تجعلنا نصل إلى الميناء المطلوب ، كما أبلغنا أيضا أن الريح كانت مرسلة ومواتية ، وأن كل شئ كان يوحى برحلة طيبة وسريعة . كنا بالفعل قد أمضينا كثيرا من الوقت فى الدوران حول كل من رأس مسندم وهرمز ، الأمر الذى جعلنا ندرك أن الوقت المتيسر لنا لم يكن يحتمل أى شكل من أشكال الإهدار ، ولذلك أيقنا أن هذه الفرصة المتاحة لم تكن تحتمل الضياع مطلقا ؛ يضاف إلى ذلك أن الممر الساحلى من صوحار إلى مسقط ، لم تكن له أهمية خاصة ، علاوة على أننى كنت أتطلع إلى توفير المزيد من الوقت الذى سوف أنفقه فى زيارة جبل – أخضر ، الذى هو محط اهتمامى ، بعد أن التقى الثوينى شخصيا ، الذى قيل لى أنه فى مسقط . وشاركنى عيسى الرأى نفسه ، وانتهينا إلى قبول العرض المقدم من ربان السفينة .

وبقينا يومين آخرين فى صوحار . وطوال هذين اليومين زرنا العديد من أهل المدينة الطيبين ، وأمضينا ساعات حلوة بصحبتهم ، وسط مسليات متباينة وأكثر رقيا من تلك التى شاهدتها عيناى فى كل من السلامة أو البحرين . والنرجيلة هنا ،

فى صوحار ، تتفوق تماما على الغليون ؛ كما يجرى أثناء الحفلات المسائية توزيع الكعك والمكسرات على جميع الحاضرين ، من حين لآخر ، وهذا يشبه إلى حد كبير ذلك الذى يدور فى غرف الاستقبال الإنجليزية بعد تناول الغداء . ولعل القارئ يذكر أن رفع مائدة الغداء أو العشاء فى كل من شومر ونجد يعد إيذانا ، أو إشارة إلى الضيوف بالانصراف أيضا ؛ وهذه الإشارة ليست سوى إجراء عملى لإبلاغ الضيوف بأنهم جاءوا لمجرد الأكل فقط ، وأنه نظرا لأنهم قد فرغوا من تناول الطعام ، فإنهم طبقا لعبارة الرقيب نيم Nym ، يجوز لهم أن "ينصرفوا". والنظام السائد فى عمان على العكس من ذلك ، لأن الضيوف يتناولون الطعام أولا ، ثم تطول بعد ذلك الأحاديث إلى منتصف الليل ، أو حتى الساعات الأولى من الصباح ، والسبب فى ذلك أن مسألة الفكاك من هؤلاء الضيوف الاجتماعيين ، ليست أمراً سهلا . يضاف إلى ذلك ، أن مباهج الحديث تزداد أنسا عن طريق الغناء، الذى يندر أن يغيب عن الحفلات العربية ؛ والأصوات العربية جيدة بشكل عام ، رغم أن مساحتها ليست كبيرة ؛ يضاف إلى ذلك أن الوزن النبطى هو السائد هنا ، وهو يسمح بكثير من التنويع ، وذلك على العكس من الموسيقى العمانية، ومع ذلك، فهذا الوزن لا يستعمل فى إلقاء أو إنشاد الشعر العربى . وأهل صوحار يتفاخرون ، ويتباهون بصناعة الحلوى والمربى ، وهم يستعرضون منتجات هذه الصناعة ، فى مثل هذه المناسبات ، بأن يواظبوا على توزيع هذه الحلوى على الحاضرين ، بين الحين والآخر ، طوال الوقت ، تحسبا منهم ألاَّ يكون استرضاء الأذن غير كاف .

وتحول حديثنا إلى الكلام عن حال البلاد ، وفاجأنى الحاضرون بأمرين : الولاء الكبير ، الذى يصل إلى حد الولاء التام ، من قبل هذا الشعب ، للأسرة الحاكمة ، ولأعيانهم بشكل عام ؛ والأمر الثانى هو كراهية هؤلاء الناس الشديدة للوهابيين ، وكراهيتهم الشديدة ، وهذا شيئ غريب ، للأتراك ؛ والغريب فى الأمر ، أن الناس هنا فى صوحار ، ليست لهم تجربة شخصية كبيرة مع الأتراك ، ومع ذلك فإن ما لديهم كاف لأن يجعلهم يكرهون العثمانيين ، سواء أكانوا حكاما أم أفرادا . وقد زار كثير من تجار صوحار الهند ، وتعرفوا الشئون الإنجليزية تعرفا تاما . وقد سعدت كثيرا عندما سمعت رجلا من صوحار يقول ، فى لحظة من لحظات الألفة والود : " إذا وصلت الأمواج إلى حد حتمية الاختيار بين المسلمين أو الإنجليز كى يحكموا بلادنا ، فإننا سوف نفضل الآن بلا قيد أو شرط ، أو قد نفضل الشيطان نفسه ، ليكون حاكما لنا ،

بدلا من المسلمين". وفى الوقت نفسه فإن كل إهمال الثوينى لم يفسد الولاء الوطنى لأسرة سعيد ، برغم أن تسعة من بين كل عشرة يريدون أن يكون أمجد هو الحاكم بدلا من السلطان .

والبساتين والزراعة خارج المدينة، تمتد إلى أن تصل إلى القرى المجاورة لها. وقد دخلت اثنتين من هذه القرى : واحدة منهما إسمها مأوه Ma'awh وتبعد مسافة ميلين نحو الداخل ؛ والثانية – التى نسيت اسمها – كانت تقع فى الناحية الجنوبية . ويعيش فى قرية مأوه حوالى خمسة أو ستة آلاف نسمة ، ولكن السواد الأعظم من منازل هذه القرية عبارة عن تعاريش – تفي بالغرض المطلوب نظرا لاعتدال المناخ . ورئيس الغرفة ، هو وقلة قليلة من الأثرياء ، هم فقط الذين يعيشون فى بيوت مبنية من القرميد . وأغلب الناس ، الذين التقيتهم ، كانوا متحضرين وملتزمين ؛ والغريب سرعان ما يجد أنه ليس غريبا فى هذه القرى . واللهجة التى يتكلمها الناس هنا ، ليست عربية خالصة ، ولكنها تنتمي إلى اللغة القحطانية التى سبقت الإشارة إليها ؛ يضاف إلى ذلك ، أن نطق هذه اللغة ليس حلقيا وأقل تؤكيدا عن لهجة نجد ، ولكن هذه اللغة سليمة من حيث نطق " القاف "و "الجيم " أو " الجا " – وهذا يريح المتلقى تماما . وفى المنطقة الواقعة خلف مأوه فإن المنطقة كلها بما فى ذلك جبل أخضر تنتشر فيها الزراعة ومأهولة أيضا بالسكان ؛ والأرض هنا ليست قفرا أو صحراوية . وسلسة الجبال تظهر عند الأفق البعيد ، وتبدو من حيث الشكل ، والطبيعة ، والارتفاع مثل جبال أبينانيز Appennines فى وسط إيطاليا . وهناك طريق واسع يوصل بين صوحار والبريمة والظاهرة ؛ كما أن هناك طريقاً آخر يسير بحذاء الساحل إلى مسقط ؛ وطريقاً ثالثاً يتجه شمالا إلى طيبى D.ebee .

وقبل أن نغادر صوحار ، ينبغى أن أضيف هنا أن عدد السكان الحقيقى لا يزيد ، حسب اعتقادى ، على أربع وعشرين ألف نسمة ، وهناك أيضا العديد من المنازل الخالية ، كما أن هناك أيضا منازل أخرى عديدة مدمرة منذ الحرب الأخيرة . والتجارة أيضا ، التى تعد النشاط الرئيسى فى هذا الساحل المكتظ بالسكان ، انتقلت ، على نطاق واسع ، إلى المناطق المجاورة لمدينة مسقط ، يضاف إلى ذلك ، أن الازدهار ، الذى أضفاه مقام أمجد ، الحاكم الملكى المُنَاب ، على مدينة صوحار ، كان قد ولىَّ بعيدا عن هذه المدينة ، إلى حد أنها تبدو الآن نصف ما كانت عليه من قبل . ولا تزال

مدينة صوحار تحتوى على بعض التجار ، وربما استطاعت ، فى المستقبل ، أن تستعيد بسهولة ، ذلك الذى سلبه منها سوء الطالع الذى حدث لها مؤخرا . وافتقار مدينة صوحار إلى خور ، أهمية ميناء محمى ، يعد نقيصة بكل تأكيد ، ومع ذلك فإن مكلاً ومرسى مدينة صوحار ، جيدان ، ومحميان من ناحيتى الشمال والغرب بواسطة رُعْن فرقصة Fark.as.ah ، ومن جهة الجنوب بواسطة رُعْن سواره Sowárah . وأثناء مقامى فى صوحار ، لم أر قط سوى أقل من عشرين سفينة من الحجم المعقول على الأرصفة ، وربما أكثر من هذا العدد فى بعض الأحيان . والصيد فى المناطق البعيدة عن الشاطئ ممتاز : فالشاطئ تغطيه القوارب ؛ يضاف إلى ذلك ، أن سوق السمك المزدحمة تضارع سوق بيلنجزجيت Billing Sgate مطروحا من ذلك سمعتها السيئة . هذا هو الشاطئ الرملى المنخفض ، وهاهم أبناء البحارة يلعبون على الرمال ، وهذه هى القوارب سحبها أصحابها بعيدا عن علامة المد ، وهاهم الصيادون يتجولون على الشاطئ ، أو يصيحون عندما يلقون أدوات الصيد فى البحر استعداداً للقيام برحلة جديدة ، وهذه مجموعة أخرى من الصيادين ، تخوض فى الماء الذى يحاذى صدورهم ، بحثا عن المحار ، كل ذلك أعاد إلى ذهنى ذكريات بعض الأماكن التى تقع على شواطئ بريطانيا الشرقية - ولكن شتان بين الاختلاف فى المناخ وفى البشر .

وفى اليوم الثالث ، حضر إلى منزل عيسى ، الربان الذى كان قد حمل متاعنا ، منذ اليوم الأول لارتباطنا معه ، إلى ظهر مركبه (مما حال بيننا وبين الفكاك منه ، برغم أننا فكرنا فى فك الارتباط هذا مرات كثيرة) جاء ليبلغنا بموعد إبحار سفينته . وكان اليوم ، الذى أبحرنا فيه ، يوافق اليوم السادس من شهر مارس . كان يراودنى إحساس بأن أمرا سيئا سيحدث ، برغم أننى لم أكن أعرف سببا لذلك الإحساس ؛ وهذا هو ما جعلنى " حزينا مثل الليل " وأنا أودع أصدقاءنا فى صوحار ، هؤلاء الأصدقاء الذين رافقونا إلى أن وصلنا إلى الشاطئ ؛ وكان الشعور نفسه يسيطر على مضيفنا عيسى ، الذى كشف عن ذلك الشعور بأن راح يلح علينا بأن نخبره بسلامة وصولنا إلى مسقط وأن نبلغه بأخبارنا الطيبة . ومع ذلك ، لم يكن هناك أى سبب يدعو للخوف ، فقد كانت الريح مرسله ومواتية ، وكان البحر هادئا ، كما كانت السفينة من النوع الكبير - لقد بلغت هذه السفينة من الكبر حدا اضطرت معه أن تلقى مراسيها على بعد مسافة كبيرة فى عرض البحر ، واضطررنا مع ذلك إلى أن نجدف فى قارب السفينة ما يقرب من نصف الساعة ، قبل أن نصل إليها .

الفصل السابع عشر

تحطم السفينة - مسقط

ثم صاح ربان مركبنا الشجاعة ،
وكان رجلا حسن السمعة :
« نظراً لافتقارنا إلى قارب - طويل فسوف نغرق جميعًا ،
ونغوص إلى قاع البحر » .
- **أغنية شعبية قديمة**

ساحل باطنة - طاقم البحارة والمسافرون - تفاصيل خاصة بالظاهرة ، جبل أخضر ، سكان الظاهرة والجبل الأخضر - بارقا - قلعة بارقا - جزر سواده - عاصفة مفاجئة - الاندفاع أمام الريح - بناة السفن - هروب البعض في القارب وعلى لوح من الألواح - مزيد من أحداث الليل - غرق المزيد من البشر - تجنب قرار بائس - الاتجاه صوب الشاطئ - ضياع القارب - سباحة شاقه - وصول تسعه إلى البر - سلوك هؤلاء التسعة - الأماكن التي ترددنا عليها - صباح موحش - الاتجاه إلى قصر السلطان في بطحات - الفرازة - تأملات - قصر البطحة - ثويني وحاشيته - الاستقبال- المعاملة الجيدة - مسيرة صباحية - المطيري - قاربنا - تلقي الصدقات - لقاء الألبانيين - قصة الألبانيين - تفاصيل خاصة بالثويني - وضعنا الخاص - الرحيل عن البطحة - وادي الفرازة - خبب - مسكن لقضاء الليل - مطرح ، ميناؤها ، سوقها ، تجارتها ، وسكانها - نورق عماني - الوصول إلى مسقط - مضيفنا - صديق بحق - وصف عام لمسقط وسكانها - الدين - القنصل الإنجليزي - المناخ - التشابه بين مسقط وعدن - الشرطة - تغيرات الطالع - الهندوس - خطاب بين نجدي

وبانيانى- السوق خارج المدينة - جولة فى اتجاه الجنوب- التقاء رجال زاقى - جولة - البلاد فى جنوب - شرقى مسقط - سلسله جبال أخضر - قرية بشير - الاستقبال - أمسية مع الرئيس - إدارة القرية - رقصة - العودة عن طريق الكاملى - الحر - التحمم - مزيد من التفاصيل عن مملكة عمان - مناطق المملكة ، سكانها ، قوتها العسكرية ، المتحصلات ، مصادر المتحصلات ومقدارها - الحكومة الحالية - سفينة الكويت - الكويت ـ مغادرة مسقط - النجوم والأجرام السماوية - العودة إلى أعالى الخليج الفارسى - بندر عباس - شيرو - حمى التيفود - الوصـــول إلى أبو شهر - فى البصرة - استقبال طيب على سفينة تجارية بريطانية - الوصول إلى بغداد - التقاء بركات - العودة إلى سوريا - الخاتمة .

كان طريقنا يتمثل فى ذلك الجزء المتبقى من ساحل باطنة فى المنطقة من صوحار إلى برقا . وقد سعدت جدا لأننى اكتشفت أن الربان ، شأنه شأن بقية الملاحين الآسيويين ، كان يحافظ على بقاء السفينة دائما قريبة ما أمكن من الشاطئ وهى تبحر محاذية له ، وكان الهدف من ذلك أن نتمكن ، برغم وجودنا على صفحة الماء ، من ملاحظة كل ما يستحق الملاحظة على الساحل نفسه ؛ والواقع أن منظر الطريق الساحلى بالكامل بما عليه من رجال ، وحمير ، وراكبى خيول ، وراكبى ذلول ، وكذلك المسافرين سيرا على الأقدام على اختلاف أنواعهم وأوصافهم ، كان واضحا جليا أمامنا ، فيما عدا المناطق التى كان النخيل فيها يحجب عنا الرؤية فى بعض المناطق ؛ وكذلك أيضا القرى التى كانت منازلها البيضاء وتعاريشها المورقة بيننا وبين الطريق . كان طاقم البحارة من النوع المسلِّى تماما . إذ كان ذلك الطاقم مكونا من الربان ، وابن أخيه ، وبعض الرجال ، وكان إجمالى عدد أفراد الطاقم يصل إلى حوالى تسعة أفراد ، كان معظمهم من مدينة السويق ، أما بقية أفراد الطاقم فكانت من القرى المجاورة - ومن الطبيعى أن يكونوا جميعا من البياضية . وإلى جانب هذا الطاقم ، كان معنا عشرة مسافرين آخرين : اثنان من جبل عقدة ، من السنّة وليسا وهابيين ؛ وكانا ينتميان إلى إحدى العشائر النجدية التى سبق أن قلت : إنها كانت تنتشر فى أجزاء مختلفة من عمان ، وتكثر أعدادهم فى الظاهرة . وكانت سلوكياتهما من النوع المحبوب كما كانا قارئين جيدين وبخاصة فى مجال الشعر العربى ؛ وكانا على استعداد دوما لعقد صداقات مع كل المحيطين بهما ؛ كان هدفهما هو الوصول إلى مكة ، التى كانا ينويان الوصول إليها عن طريق البحر إلى جدة ومنها إلى مكة ، وبذلك يكونا قد دارا حول ثلثى شبه الجزيرة العربية . وقد كان القدر يحتفظ لواحد منهما برحلة قصيرة .

كان المسافر الثالث نجديا ، من مواليد منفوحة (لعل القارئ يذكر تلك المدينة التى سبق أن قلت إنها تقع بالقرب من الرياض) فى العارض ؛ كان شاباً سيئ الأحوال ، وهو طبقا لما قاله ، تشاجر مع والده ، وهرب من كنف أسرته ، وأصبح الآن مثل المشردين فى أى مكان ، يبحث عن حظه فى هذه الدنيا الواسعة . أما المسافرون السبعة المتبقون فكانوا من أبناء مدينة باطنة ، وكلهم كانوا من الطبقات الدنيا ، ومع ذلك فقد كانوا بشوشين وكثيرى الكلام شأنهم شأن بقية أبناء بلدتهم . كان النجدى وحده، كئيبا وحاد الطبع؛ وأنا لا أعتقد أن أسرته ذرفت عليه دمعة واحدة لغيابه عنها . وفى أقل من ساعة " مرحبا أيها الرفاق ، لقد سعدنا بلقياكم ! " أصبحنا على ألفة وود مع كل من كانوا معنا ؛ كانت السفينة كبيرة ومتسعة ، ولها صاريان ؛ كما كانت على ظهر المركب أيضا أعداد وفيرة من النرجيلات ، وكثير من المؤن تحت تصرف كل من كانوا على ظهر المركب ؛ وتمنينا أن تكون رحلتنا سريعة وبهيجة .

وكنت قد تعلمت من أهل عقدة كثيرا من المعلومات والتفاصيل عن كل من البريمة والظاهرة ، والتى يجوز لى أن أوردها هنا . قالوا لى : أن بريمة نفسها موجودة وسط ممرات جبل عقدة ، وتحيط بها عدة قرى يعيش فيها سكان بعضهم من السنّة والبعض الآخر من البياضية ؛ وقالوا لى أيضا : إن أحمد السديرى ، الحاكم النجدى ، كان قد اتبع منذ وقت طويل كل عادات وأعراف هذه المنطقة ، وأنه لم يعد يود مغادرتها ، بأى حال من الأحوال، ومهما كانت الاستدعاءات التى تصله من الرياض. كما قالوا أيضا : أن جبل عقدة نفسه عبارة عن جبل مرتفع ، يصل ارتفاعه إلى ارتفاع رؤوس الجبال ، وأن التربة حول جبل عقدة من النوع الخفيف ، كما أن الحياة النباتية ، فى جبل عقدة أقل ثراء من الحياة النباتية في مدينة باطنة . كما تمتد ، فى المنطقة الواقعة خلف جبل عقدة ، ناحية الشرق وناحية الجنوب ، سلسلة من التلال التى تسير موازية لجبل عقدة نفسه ؛ وأبلغونى أيضا أن الظاهرة تقع بين هاتين السلسلتين ، وأضافوا أيضا أن الظاهرة عبارة عن رقعة من الأرض تكثر فيها المراعي أكثر من الأراضى الصالحة للزراعة ، ولكنها تحتوى على عدد لا باس به من السكان . وأردفوا قائلين : إن سكان الظاهرة أقل ارتباطا وولاء للحكومة العمانية من السكان الآخرين ؛ وأن نصف سكان الظاهرة من أهل السنة ، أما بقيه السكان فمن البدو ؛ وقالوا أيضا إن ميول أهل السنة الدينية ، وعادات السلب والنهب لدى البدو ، تجعلهما (السنة والبدو) أكثر تعاطفا مع نجد عنهما مع البياضية وحكامهم . من هنا ، فإن عددا كبيرا من عشائر

الظاهرة ، انحازت خلال الغزو الوهابى إلى جانب الغزاة ، وحملوا السلاح لمواجهة إخوانهم المواطنين فى السهول .وإبل الذلول فى الظاهرة من النوع القوى الصبور ؛ يضاف إلى ذلك أن أغنام هذه المنطقة تنافس السلالات النجدية .

واعتبارا من شرقى المخنث تبدأ متاهة من الممرات الصخرية الضيقة التى تنمو فيها الأشجار الكثيفة ، التى تقع بينها مدينتى نزوة وباهلة ؛ وقد وصفوا لى مدينه باهله ، على أنها مدينة محصنة تحصينا جيدا ، يحيط بها سور مزدوج ، ولها بوابات عالية ومنها منازل تتروح ارتفاعاتها بين طابقين وثلاثة طوابق . وإذا صحت الرواية التى أوردها أهل هذه البلاد عن باهلة فذلك يعنى أن هذه المدينة يصل حجمها إلى ضعف حجم كل من الرياض والهفوف مجتمعين ، ومن ثم فهى تستحق الزيارة .

وحكوا لنا أيضا حكايات كثيرة عن بدو المرة ، الذين يترددون على الظاهرة ؛ وحكايات أخرى عن برغاش ، الرئيس الحالى لباهلة ، كما رووا لنا كثيرا من الأساطير عن الدجالين والسحرة والمشعوذين . وحكى لنا البحارة البياضية أيضا الكثير مما عندهم ؛ فمنهم من اشترك فى الحملات البحرية التى قام بها السلطان سعيد ، ومنهم أيضا من شاهد كثيرا من المعارك البحرية التى دارت فى هذه البحار . وأحلى أو أفضل ما لدى الحكومة العمانية هو البحرية ؛ وبرغم الفزع الذى تمثله أو توحى به الفرقاطات والمدافع الإنجليزية ، فأنا أشك فى إمكانية تنازل البحارة الظبيين والبرقيين عن هذه السواحل دون مقاومة أو كفاح . وفى الحرب الضروس التى دمر خالد فيها مدينة باطنة ، كان أول من عارضه ووقف فى وجهه هم أهل قلحاط ورؤس الجبال الذين هم بحارة أصلا ، وتحولوا إلى مشاة خدمه لقضية بلادهم ؛ وبرغم أن عددهم لم يكن كافيا لوقف حدة الهجوم الوهابى ، فقد استطاعوا وقف هذا الهجوم فترة من الوقت ويتباهون بأنهم قتلوا عددا كبيرا من الغزاة .

كنا نمضى الوقت فى مثل هذه الأحاديث ، فى حين كانت سفينتنا تمخر عباب البحر ، متجاوزة كلا من صوحار ، وسويق ، ومضاع ، إلى أن ابتعدنا تماما فى اليوم الثامن من شهر مارس ، عن مدينة برقا . والساحل من المكان الذى أبحرنا منه إلى هذا المكان الذى نحن فيه الآن ، كان مستويا وعلى شاكلة واحدة ، كما كانت تحف به أشجار النخيل ، وأشجار جوز الهند ، كما كانت تتلألأ عليه القرى البيضاء ، التى كانت تبرز من خلالها قلاع الرؤساء المحليين الجميلة كى ينعكس عليها ضوء الشمس .

ولكن بالقرب من برقا توجد سلسلة من الصخور الجرداء التى لها حمرة الحديد ، والتى تبدأ منخفضة ، ثم يتزايد ارتفاعها بعد ذلك ، وتحف بالشاطئ وتمتد بطول الطريق إلى أن تصل إلى مدينة مسقط. كانت برقا تبدو من منظرها البحرى مدينة متوسطة الحجم، لا تقل كثيرا عن صوحار ؛ وبرقا فيها قلعة كبيرة الأجزاء على غير العادة ، وتبدو من بعد ، كما لو كانت منيعة تماما . أنا لم أر منظرا أحلى من هذا المنظر : فأنا أرى أمام القلعة خضرة الربيع الباكرة ، ومن خلفها ، أرى جبال أخضر ، التى يصل ارتفاعها إلى ستة آلاف قدم فوق مستوى سطح المحيط ؛ والتى تسقط عليها الثلوج فى بعض الأحيان ، كما يقول النقيب ولستد Welsted ؛ ولكنى لا أرى الآن أى أثر لهذه الثلوج . ومن جبل أخضر تصل سلسلة مستعرضة إلى ساحل البحر ، لتنهى منطقة باطنة ، فى حين تبدأ أيضا ذلك الذى نطلق عليه فى أيامنا هذه منطقة مسقط ، تلك المنطقة الأقل إثمارا ، ولكنها كثيفة السكان . وقيل لى أن قلعة بارقا كان يسكنها أخ غير شقيق من إخوان ثوينى ، وأن هذا الأخ كان من أمةٍ حبشية تزوجها السلطان سعيد ؛ وأن هذا الشقيق مات منذ فترة غير طويلة . وهب نسيم برى فى ذلك اليوم ؛ ودفعنا إلى عرض البحر ، إلى أن وصلنا عصر ذلك اليوم إلى منطقة جزر سوادة – وهى عبارة عن حيود منخفضة جرداء ، تبعد مسافة ثلاثة فراسخ عن البر ؛ وبقينا فى هذه المنطقة بضع ساعات قلائل ، فى هدوء مطبق ومغزى ينذر بالسوء .

ومع حلول المساء هب نسيم جنوبى غربى خفيف، وفرد البحارة أشرعة سفينتنا ، أملا منا، رغم أن الريح لم تكن مرسلة أو مواتية تماما، فى أن نشق طريقنا الصحيح ، بعد شئ من المحاولة والجهد ، إلى ميناء مسقط . ولكن ذلك النسيم تحول إلى عاصفة شديدة ، ثم تحول خلال نصف ساعة فقط إلى عاصفة هوجاء ، أفسدت كل المحاولات ، التى قمنا بها . وتقطع واحد من أشرعتنا إربا إربا ، وطوى البحارة بقية الأشرعة بصعوبة بالغة ، وعندما أرخى الليل سدوله كنا نندفع بعد طى الاشرعة ، أمام ريح جنوبية غربية عاتية فوق بحر هائج ، فى حين أن السماء ، برغم خلوها من السحب ، كان يغطيها سديم عام ، مثل ذلك السديم الذى يصاحب العواصف العاتية فى معظم الأحيان . وسرى الخوف بين المسافرين ، ولكنى أنا والبحارة كنا نتمتع بهذه المغامرة ، لأننا كنا نعلم أننا بعيدين تماما عن ساحل البحر ، وبعيدين أيضا عن كل أنواع الصخور، وأننا كنا نتوقع أن نمضى يوما أو يومين على أكثر تقدير، فى عرض البحر ، قبل أن نصل إلى ميناء مسقط . ويطلع القمر ، وكان فى تربيعه الثالث ، ويكشف لنا

نوره عن مياه متلاطمة ، كنا نندفع خلالها أمام الريح وحدنا ؛ وها هي السفن التي كنا نراها عند الأفق عند غروب الشمس قد اختفت تماما . أما المسافرون ، ومن بينهم ابن خميس ، الذين أصابهم الفزع من جراء اهتزاز السفينة ، التي لم تعد ثابتة لأننا اضطررنا إلى طي أشرعتها ، والتي كانت تتأرجح أيضا بفعل اندفاع الموج ، وبفعل الفوضى والارتباك اللذين ينجمان عن العواصف ، هؤلاء المسافرون ومعهم ابن خميس جلسوا متكدسين في المنطقة الواقعة خلف كابينة السفينة ، في حين أمسك الربان وأنا معه بحبال سطح مؤخرة السفينة ، وحاولنا البقاء في أماكننا بقدر المستطاع ؛ أما السنيان ومعهما النجدي فقد راحوا يقرؤن آيات من القرآن ؛ ولكن البحارة العمانيين راحوا يضحكون ، أو حاولوا أن يضحكوا ، نظرا لأن البعض منهم بدأ يعتبر الأمر خطيراً ؛ وعلى كل حال ، لم يكن أحد يتوقع حدوث الكارثة المفاجئة التي كانت على وشك أن تقع .

وفي ضوء ارتفاع القمر الذي كان فوق الأفق ، فلربما كانت الساعة تقترب من العاشرة ليلا أو ما قبل ذلك بقليل جداً ، لاحظنا أن السفينة بدلا من تراقصها وصعودها وهبوطها فوق الماء مثلما كانت تفعل من قبل ، بدأت تغوص في الماء أكثر وأكثر ، وكان ذلك مصحوبا بترنح شديد غريب الشكل . وهنا اقترب أحد البحارة من الربان وهمس في أذنه بشيئ ، وردا على هذا الهمس طلب إليه الربان أن يذهب لاختبار جوف السفينة . وقام اثنان من البحارة بهذا العمل . واكتشفا أن الجزء السفلي من السفينة كان مملوءاً بالماء . وبدءا بعد ذلك في رفع بعض ألواح الجنب ليكتشفا سيلا كبيرا ينساب داخل عنبر السفينة من ناحية المؤخرة : لقد خرج لوح ثخين من مكانه .

وانتفض الربان واقفا وصاح قائلا :" ارموا " ، أو إن شئت فقل "ارموا الأشياء من على ظهر المركب" ، طمعا في أن يؤدي تخفيف حموله المركب إلى إنقاذها . وفي لحظات قام البحارة بفتح الأبواب المسحورة المؤدية إلى عنابر السفينة وكذلك الأبواب المسحورة التي في وسط السفينة ، وانهالت الأيدي كلها تعمل في تنفيذ تلك المهمة الأخيرة اليائسة . ولكن بعد أن ألقيت ثلاث بالات فقط في أعماق البحر حتى شاهدنا موجة من الضوء الفسفوري الأزرق تمر عبر الجزء الرئيسي من السفينة ؛ وهنا كان البحر قد ركب ظهر المركب بالفعل . وضاعت منا جميع الخيارات ، ولم يعد لدينا ما نفعله . ويصيح الربان قائلا : "اقحموا "، أو إن شئت فقل" " ألقوا بأنفسكم في الماء " ،

وضـرب للباقين مثلا بأن كان أول من قفز من سطح المركب إلى وسط الأمـواج . حـدث كل ذلك ، فـي أقل من دقـيـقـة واحدة ؛ ولـم تسنح الظروف لأى واحد منا أن يحـافظ أو يحاول إنقاذ أى شيئ .

وأول مـا خطر ببـالى ، كان طريقة النجاة ، أو إن شئت فقل طريقة التخلص من الدوامـة التي سوف تعقب غـرق السـفـينة إلى أعـمـاق اليم . وهنا حـاولت الوصـول إلى سطح مؤخـرة السـفـينة الذى كان يرتفـع قليـلا فوق قـمـة الأمـواج الهـادرة ، ودعوت الله الذى ينقذ من فـى البر ومن فى البحـر ، ثم قفزت فى الماء غـاطسـا ألى أبعـد حد ممكن . وبعـد أن سـبـحت إلى مـسـافـة قـصـيـرة أدرت وجـهى نـاحـيـة السـفـيـنة ، التى وصلت إلى مـسـامـعي منها ولآخـر مـرة أصـوات البكاء والعويل وشـاهـدت فى اتجـاه السـفـينة وسط الأمواج الجزء العلوى من المزِّين[1] الرئيسى قبل أن يختفي تحت الماء بحركة حلزونية بينمـا كنت لا أزال انظر إليه . وغرق مـع السفينة خمسة من المسـافرين وبحار واحد . وبعـد ذلك بدقـيـقـة واحدة بدأت الألواح ، والحـصـيـر ، والصـوارى والقـوائم ، تطفـو على الماء من جديد وسط الأمواج العاتية ، كما بدأت تظهر أيضا رؤوس الناجين الذين كانوا يسبحون ، ثم اختفوا بعد ذلك فى ضوء القمر والظلال الناتجة عنه .

لقـد حـدث كل ذلك فى عـجـالة عـجزت مـعـهـا عن التـخلص من أى قطعة من مـلابسى التى كنت أرتديها ؛ ومع ذلك فقد خلصتنى صدمات الموج من العمامة والحزام . يضـاف إلى ذلك أننى لـم يكن لدى مـتـسـع من الوقت كي أترك الخـوف يتـملكنى ؛ برغـم أنى أعـتـرف أننى تملكتنى قشـعـريرة رعب غـريب عندمـا شـاهـدت تلك الموجـة الفـسـفـورية الزرقـاء وهـى تصل إلى ظهـر المركب ، وبرغـم مـشـاهـدتـى العـابرة لهـا ظلت تتملكنى عـدة أشـهـر بعـد ذلك . ولكن الصـراع من أجل الحـيـاة والبـقـاء لم يتـرك لى حـرية النظر إلى الخلف ، إذ كنت أحـاول بالفعل الوصول إلى قطـعة من الخشب كانت تطفو قريبا منى ، وهنا شـاهـدت قـارب السـفـينة على مـسـافـة بعـيـدة منى ؛ إذ كـانت السـفـينة تقطر ذلك القـارب ، على الطريقـة العـربيـة ، خلفـهـا بحـبل طويلة ، وعلى بعد مـسـافـة كبـيرة منهـا ؛ وكـان حـبل قـارب النجـاة هذا قد انقطـع قبل أن تغـرق السـفـينة ، ودون أن يلاحظه أحـد منا . كـان القـارب قد انجـرف إلى مـسـافـة حـوالى ستين ياردة بعـيدا عن السـفـينة وكـان يتراقص مثل صدفة الجوز الفارغة فوق صفحه مياه المحيط .

(١) المزِّين : بتشديد الزاى وكسرها ، شراع منصوب على الصارى الأقرب إلى مؤخرة المركب - (المترجم) .

ولما كنت كما يقول البحارة الأسبان في رواية " دون جوان " ، "أعرف تماما أن القارب المحكم يصمد أمام البحر الهائج ، اللهم إلا إذا كانت الأمواج العاتية المتكسرة تصطدم بجانبه المحمي من الريح "، فقد تخليت عن لوح الخشب ، ورحت أسبح في اتجاه أمل السلامة الجديد . وعندما وصلت إلى القارب ، كان ثلاثة من البحارة قد سبقوني إلى الاستقرار فيه ؛ وعاونوني في الصعود إلى القارب ؛ وتبعني آخرون ، وقبل مضي وقت طويل أصبح على ظهر القارب تسعة رجال ، علاوة على ابن شقيق الربان ، كانوا كلهم متلاصقين إلى جوار بعضهم البعض . وسرعان ما خطر ببالي ، وأنا في هذا الملاذ ، شعور غريب لا يتعلق بالسلامة والأمن ، وإنما بزميلي يوسف الذي لم أره منذ تحطم السفينة ، لم يكن يوسف من بين أولئك الذين كانوا في القارب ؛ ولكن بينما كنت أفقد الأمل ، صحت مناديا باسمه في عرض البحر كيما يكون ذلك الصياح إشارة له . ورد على ندائي صوت يقول :" ها أنذا ، الحمد الله !" وانتشلناه من الماء إلى القارب .

وصل عددنا في القارب إلى اثني عشر رجلا – هم بالتحديد، الربان، وابن أخيه ، ورئيس البحارة ، وأربع من البحارة ؛ أما الخمسة المتبقين فكان من بينهم مسافر من جبل عقدة ، في حين غرق المسافر الآخر مع السفينة ، وكان معنا أيضا الصبي الهارب من والده في منفوحة ، وواحد من أهل السويق علاوة على يوسف وأنا أيضا . ووصل إلينا في تلك اللحظة ثلاثة كانوا يسبحون في اتجاه القارب ؛ وحاولوا الصعود إلى القارب ، ولكن لم يكن يتسع إلا لثمانية أو تسعة أفراد على أكثر تقدير ، وبخاصة في هذا البحر المائج الهائج ، كما أن مسألة عدم وضع حمولة إضافية في القارب لا تقبل الجدل أو النقاش . وعلى كل حال ، فقد تشبث هؤلاء الرفاق التعساء بطرف من أطراف عارضة الشراع الإضافية التي كانت تطفو من السفينة الغارقة ؛ وربطنا ذلك الطرف ربطا شديدا في القارب بواسطة حبل ، وبذلك نكون قد قطرنا في القارب ثلاثا من ركاب السفينة ، هما اثنان من المسافرين ومعهما واحد من البحارة .

كان القارب يحتوي على أربعة مجاديف وعلى الدفة أيضا ، وكان فيه أيضا مرساة حديدية صغيرة علاوة على لوح ثخين أو لوحين . وهنا قام رئيس البحارة وأنا معه بالتخلص من المرساة باعتبارها وزنا زائدا وألقينا بها في البحر ، كما ألقينا اللوحين أيضا في الماء . وفي الوقت ذاته اقترح بعض البحارة أن نفعل الشيئ نفسه

مع المسافرين ، وأبدوا ملاحظة ، منطقية من جانبهم ، مفادها أنه مع مثل هذا العدد الكبير في القارب ، فإن أمل الوصول إلى الشاطئ يتضاءل أكثر وأكثر ؛ وقالوا أيضا : إن القارب من حقهم أصلا ، وأن البقية يجب أن تستفيد إلى أبعد حد ممكن من عارضة السفينة الرئيسة . ومن حسن الحظ أنني استطعت خلال الرحلة أن أصبح صديقا خاصا من أصدقاء الربان ورئيس البحارة ، علاوة على أنني كسبت أيضا ود بحار شاب قوى كان معنا أيضا فى القارب . وبناء عليه ، قدمت نفسى لهم أولا ، ثم إلى بقيه البحارة ، وقلت لهم إن مسألة الطرد ظالمة تماما وآثمة ، ولا يمكن طرحها وبخاصة عندما نكون جمعيا بحاجة ماسة إلى عون الله وفضله؛ وقطعا للأخذ والعطاء ، قمت بمساعدة رئيس البحارة ، الذى كان يساندنى بشدة طوال حديثى ، بتوزيع المجاديف على البحارة ، وبخاصة أننا كنا فى مسيس الحاجة إلى العمل على الفور حتى نتمكن من تثبيت القارب واستقراره ، وبخاصة أن الأمواج كانت تتكسر على القارب ، الأمر الذى كان ينذر بغرق القارب ليلحق بالسفينة في عمق البحر . وتولى الربان عمله عند دفة القارب ، فى حين بدأت أنا ورئيس البحارة فى تفريغ الماء الذى دخل القارب ، مستخدمين فى ذلك دلوا من الجلد ، حرص أحد البحارة على إحضاره معه من السفينة (بأن وضع مقبض الدلو بين أسنانه بمهارة لا تقل عن مهارة قيصر وهو يبعد سيفه عن فاروس السكندرى) ، أو باستعمال مغرفة القارب ، ورحنا نستعمل هاتين الأداتين بصورة مستمرة ، نظرا لأن كل مغرفة أو دلو كنا نرفعهما من المياه التى دخلت القارب ، كانا يستعوضان بضعفهما بفعل الموجه التالية ، إذ كانت العاصفة تستعر من حولنا .

ووقف السنى الذى جاء من جبل عقدة فى وسط القارب وهو يقرأ بعض آيات من القرآن ، وكان يهتف ، فى بعض الأحيان ، طالبا العون من الله ، وكان يؤذن فى بعض الأحيان الأخرى ، مرددا آذان الصلاة ، الذى يعزو إليه أتباع محمد (ﷺ) فضيلة سحريه كبيرة[1] . وكشف ابن شقيق الربان عن روح معنوية عالية وغير عاديه قياسا على عمره ؛ وراح البحارة يستعملون مجاديفهم بمهارة وشجاعة كبيرة ، مما جعلنا

(١) نعم إن الأذان فيه فضيلة كبيرة حيث يعبر عن كبرياء الله وعزته ويعبر عن ضعف الإنسان واحتياجه إلى ربه ، فوق أنه يطرد الشيطان ، وليس - كما يقول المؤلف - أنه عمل سحرى فقد ثبت فى الحديث الصحيح أنه (إذا نودى للصلاة أدبر الشيطان وله ضراط ...) ألخ الحديث - (د. حلمى عبد المنعم) .

نتحاشى الاهتزازات الناتجة عن البحر ؛ أما باقى من كانوا فى القارب ، ومن بينهم يوسف بن خميس ، فقد انتابهم الخوف والفزع ، إلى حد أنهم فقدوا وعيهم تماما ، واستلقوا مثل الأموات وسط الماء الموجود فى قاع القارب ، ولم يحرك أحد منهم رأسا أو يقول كلمة .

وواقع الأمر ، أن الحال التي كنا عليها ، والتى لم تكن خالية من بارقة أمل ضعيفة ، كانت تدعو إلى اليأس والإحباط . كنا جميعا فى قارب مفتوح ، يحمل حملا أكبر من طاقته ، إضافة إلى أن تحركات القارب لم تكن على ما يرام نظرا للدعامة التى كانت مقطورة به ، وتمشى من ورائه فى عرض البحر ، علاوة على المسافة الكبيرة التى تفصل بيننا وبين الشاطئ ، برغم أننا كنا نرى الأجزاء العالية من الشاطئ ، عن بعد ، فى ضوء القمر، وكانت الريح تعوى من حولنا ، ويزداد عواؤها لحظة بعد أخرى ، كما كانت الأمواج الشرسة الضخمة تندفع نحونا مثل الوحوش كما لو كانت ستبتلعنا – ترى ، ما هى فرص احتمال وصولنا إلى الشاطئ ، وسط كل هذه الأنواء ؟ الكل كانوا يعلقون آمالهم على التجديف ، وعلى التوازن والعون والمساندة المتمثلة فى استعمال المجاديف ؛ بل إن اعتماد الجميع كان ، فى المقام الأول ، على الله الذى خلق هذه الأعماق ؛ ولم يخطر ببالى أن الله الذى أرسلنى إلى هذا المكان يمكن أن يتخلى عنى ويغرقنى فى نهاية رحلتى، وبهذه الطريقة غير المقنعة تماما ؛ ولو قدر لنا أن نغرق هنا ، فكيف كانت أخبار هذا الحادث الذى وقع بعيدا عن سواده ، ستصل إلى بلادى ؟ أو متى كانت ستصل ؟ – من هنا فقد كنت أشعر بالثقة ، أننى سوف أصل إلى الشاطئ بصورة أو بأخرى ، ولكنى لم أكن أعرف شيئا عن الوسيلة التى سيتم بها ذلك . كان المسلمان اللذان كانا معنا فى القارب – اللذان كانت تصرفاتهما توحى بأنهما لا حول لهما ولا قوة – يصليان مثل أناس فقدوا كل الأمل ، وكانا يبدوان كما لو كانا مقتنعين تماما بأن صلاتهما لن يكون لها أى تأثير على تلك الإرادة القاهرة التى يعبدانها تحت اسم الله . أما البياضية فقد لزموا الصمت ، أو كانوا يتبادلون بضع كلمات تتعلق بإدارة القارب ، فى حين راح البحار الصغير ، الذى سبق أن أشرنا إليه ، يلقى النكات والطرف ببرود شديد كما لو كان جالسا في كوخه على الشاطئ ، مجبرا من هم فى القارب على الضحك رغما عنهم ، وبذلك كان يرفع من روحهم المعنوية – وكان ذلك أفضل ما يمكن عمله فى مثل هذه الظروف ؛ والسبب فى ذلك أن فقدان الشجاعة يعنى فقدان كل شئ .

وهنا أوكل لى كل من كانوا فى القارب مهمة تحديد مسارنا الخطير ، وكانت هذه الوكالة نابعة من فكرة مؤداها أن رجلا مثلى على هذا القدر من العلم (فى نظر العربى)، إضافه إلى بعض المكتسبات الأخرى ، لابد أن يكون على دراية بالخريطة أكثر من أى إنسان آخر ؛ وربما جاءت هذه الوكالة أيضا من منطلق أنى لم افقد صوابى مثل السواد الأعظم من الآخرين . واستطعت عن طريق النجوم ، التى حجب ضوء القمر والضباب بعضا قليلا منها، أن أحدد اتجاه الشاطئ. كان الشاطئ فى اتجاه الجنوب ؛ ولكن الإعصار كان قد تغير الآن وبدأ يهب من بين الغرب والشمال ، ومن هنا كان لابد لنا من اتباع مسار جنوبى شرقى ، وذلك تحاشيا منا لتعريض القارب للدمار الكامل بتعريض جانبه للأمواج . وبعد أن تأكدت من هذه النقطة ، جعلت البحارة يحافظون على مقدمة القارب فى نفس ذلك الاتجاه ، وواصلنا التجديف مدة ساعة كاملة فى ذلك الاتجاه، واصلنا خلالها تفريغ الماء من القارب إلى البحر ، وكان كل منا يشجع الآخر ؛ على أمل أن البر لا يمكن أن يكون بعيدا عنا . وأخيرا رأيت فى ضوء القمر صخرة تذكرت أنى شاهدتها فى عصر اليوم السابق ؛ كانت تلك صخرة جين ، وهى عبارة عن نقطة بعيدة عن مجموعة صخور سوداء ، وأصبحت الآن على بعد مسافة من لوح مأوى السفينة الغارقة . وصحت قائلا :" هيا ، يا رجال ، تشجعوا ! " ، "هاهى جين" . وتعجبوا كلهم صائحين :" قلها ثانية ، قلها ثانية ؛ بارك الله فيك !" . كانوا يحسبون أن تكرار العبارة سيجعل منها فألا حسنا ؛ ولكنى كنت أدرك أن أحدا منهم لم تدر بخلده فكرة رؤية تلك القمة السوداء ، التى بدأت تلوح لنا الآن فوق سطح الماء . ويسأل المسافر الذى جاء من جبل عقدة :" أهى قريبة ؟" ورددت عليه ، بشيئ من المبالغة ، التى كانت ضرورية لزيادة همة البحارة ، قائلا :" إنها قريبة " ، " هيا يا رجال ؛ واصلوا التجديف وسوف نتجاوزها حالا " . ولكنى أنا نفسى ، كنت أشك فى ذلك ؛ ويمتلئ القارب بالمياه التى كانت تتناثر من حولنا ، ولو حدث خطأ فى مسارنا لكنا قد أصبحنا جميعا فى قاع البحر .

وبعد ساعة أخرى من النضال والتصارع مع الماء : كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل ، أو ما يزيد عن منتصف الليل بقليل ، وبدلا من أن تنحسر العاصفة ازدادت شدة على شدتها وعنفا على عنفها . وشعر واحد من المسافرين الثلاثة الذين كانوا يتعلقون بدعامة عارضه المؤخرة ، بالخدر فى جسمه ، وعدم قدرته على الإمساك بالدعامة ؛ ويترك الرجل الدعامة ، ثم راح يسبح يأسا فى اتجاه القارب ، واستحلف

من في القارب بالله أن يأخذوه معهم . وقال البعض بقبول توسله ، وقال بعض آخر يرفض هذا التوسل ؛ وفي النهاية تحرك اثنان من البحارة بدافع الشفقة ، وأمسكا بذراعيه في المنطقة التي كان يتعلق بالقارب عندها ، ورفعاه إلى داخل القارب . كان إجمالي عددنا الآن ثلاثة عشر ، وغاص جزء كبير من القارب في الماء ، وبطؤت حركته وزاد تعرضنا للخطر على إثر ذلك ؛ وأصبح الفاصل بين الحياة والموت عبارة عن قبضة يد . وبعد ذلك مباشرة حاول مسافر آخر اسمه إبراهيم ، الشيئ نفسه على أمل أن نسمح له بالركوب في القارب . وأصبحت مسألة الاستجابة لرجائه ضربا من ضروب الجنون ؛ ومع ذلك تعلق هذا الشقي المسكين بشفير القارب وحاول أن يتسلق القارب ، إلى أن قام أقرب البحارة إليه ، بعد أن رجاه مرارا أن يرفع يده عن القارب ، قائلا : "هذه هي فرصتك الوحيدة في النجاة ، فلا تضيعها" ، ورفع يده وأبعدها عن شفير القارب ، طارحا الرجل في البحر ، حيث اختفى إلى أبد الآبدين . وينادي الربان على البحار الذي كان يتعلق بدعامة العارضة قائلا :" هل وصلك إبراهيم ؟" ويرد عليه البحار قائلا : " لقد غرق إبراهيم " وكرر الجميع في صوت خفيض " ونحن أيضا سنغرق حالا " . والواقع أن هذا الحادث كان بمثابة النهاية المحتملة والوحيدة لكل ما جرى من محاولات . ونظرا لتضاعف عنف العاصفة ؛ فإن عملية رفع الماء من القارب لم تكن تتواكب مع معدل دخول الموج إلى القارب ، وترتب على ذلك دخول كمية كبيرة من الماء إلى القارب ؛ وبدأت المياه تتدفق من كل جانب ؛ فقد بدأ القارب يغرق ونحن مازلنا في عرض البحر .

ويصيح الربان مرة أخرى قائلا :" أقحموا " . وخطر ببالي الخاطر التالي : "ليقفز من يقفز ، أما أنا فسوف أبقى في القارب طالما بقي على سطح الماء" . ومن حسن حظ يوسف ، أنه كان يرقد جثة هامدة لا يستشعر خوفا ولا يحرك ساكنا ؛ ولكن أربعة من الجماعة ، بحار وثلاثة من المسافرين ، إيمانا منهم بخيبة أملهم ورجائهم في القارب ، وأنهم لم يعد أمامهم من شئ يفعلونه سوى التعلق بعارضة المؤخرة ، أو إن الله هو الأعلم بذلك الذي سيتشبثون به ، قفزوا في الماء . وأدى قفز هؤلاء الثلاثة في الماء إلى إنقاذ حياة الباقين . وخفت حموله القارب وبدأ يرتفع قليلا من داخل الماء ، في حين رحت أنا ورئيس البحارة ننتشل الماء من قاع القارب : كان كل من في القارب الآن عبارة عن تسعة أفراد ثمانية رجال وصبي صغير ، ابن شقيق الربان .

في ذات الوقت كان البحر يرتفع مثل الجبال ؛ بينما كنا في ذروة مصارعة مياه البحر ، في حين كان القارب يسير بصعوبة بالغة ، انقطع الحبل الذى كان مربوطا فى مؤخرة القارب ويقطر دعامة المؤخرة. لم يكن على لوح دعامة المؤخرة سوى رجل واحد. ولكن بعد فترة وجيزة كشف لنا ضوء القمر عن رؤوس السباحين الخمسة وهم يحاولون العودة إلى القارب ؛ ولو قدر لهم أن يصلوا إلى القارب لغرقنا جميعا ؛ ثم جاءت موجة عاتية عزلت هؤلاء الرجال عنا . ويصيح الربان قائلا :" لعل الله يلطف بهولاء المساكين الذين يغرقون: الذين طرد البحر جثثهم إلى البر بعد ذلك بأربعة أيام فى منطقة سيب Seeb . وأصبحنا نحن الناجين الوحيدين – إن جاز لنا أن نقول ذلك .

وراح رجالنا يجدفون بسرعة وجد ، وأرخى الليل سدوله علينا ؛ وهنا بدأنا ، ثم بدأنا بعد ذلك نرى الشاطئ رأى العين . كانت أمامنا صخرة سوداء كبيرة عالية تنبثق من وسط المياه المزبدة ، كما لو كانت جدارا أو قلعة ؛ وعن يسارنا ، كنا نرى عن بعد وميضا عجيبا وخطا أبيض طويلا من كاسرات الأمواج مما أكد لى وجود شاطئ رملى مستوٍ . وكان من رأى البحارة الثلاثة الذين كانوا يجدفون ، هم والرجل القادم من جبل عقدة ، والذى حل محل البحار الرابع ، وبعد أن خارت قواهم بفعل التعب والشقاء الكبير الذى عانوه فى ظل انتظارهم الموت بين حين وآخر ، ونظرا أيضا لأنهم كانوا يتطلعون لوضع حد لهذا الشقاء المقيم ، كان من رأيهم أن يتجه القارب إلى الصخور ، لأنها تمثل اليابسة الوحيدة الأقــرب إليهـــم ، وبذلك ينتهى كل شئ على وجه السرعة . لو حدث ذلك لترتب عليه دمارنا دمارا كاملا وأكيدا . ولما كان الربان ورئيس البحارة قد قاسيا كثيرا مما مر بهما ، فقد وافقا على ذلك الرأى ولم يعترضا عليه . وكان من رأيى أن نبذل المزيد من الجهد ؛ ولذلك أمسكت بكل من الربان ورئيس البحارة وجعلتهما يفهمان ويعيان تماما ذلك الذى يقـوله البحارة الــذين يجدفون ، وأردفت قــائلا أننا لو تصرفنا كما يقول البحارة فذلك هو الانتحار بعينه ، ولن يغتفر لرجال أنقذهم الله إلى هذا الحد ، وأبلغتهم أيضا أن أمل النجاة الوحيد أمامنا يتمثل فى الاتجاه مباشرة إلى الخليج الرملى الذى أشرت إليه ، وكان يبتعد مسافة قصيرة .

وبعد أن أيقظتهما من غفوتهما وأوهامهما ، نهضا وانضما إلىَّ فى مجادلة البحارة وهنا قال البحارة : انهم لا يستطيعون أن يواصلوا إلى أبعد مما نحن عليه الآن ، وانهم سوف يتجهون إلى الأرض القريبة مهما كانت ، وليحدث ما يحدث ، وبعد ذلك بدأوا يتجهون صوب الصخرة مباشرة .

وهنا وضع الربان الدفة بسرعة فى يد رئيس البحارة ، وقفز على واحد من البحارة ، وأمسك منه المجداف ، فى حين فعلت أنا الشيئ نفسه مع بحار كان على الجانب الآخر من القارب ، ثم وجهنا مقدمة القارب صوب الخليج . وهنا طلب إلينا البحارة المترددون ، الذين استشعروا خجل جبنهم ، أن نسامحهم ، كما وعدوا أيضا بأنهم سوف يمتثلون لأوامرنا من الآن فصاعدا . وأعدنا إليهم المجدافين ، ونحن فى منتهى السعادة ، لإنهاء صراع خطير كهذا ، خلال فترة وجيزة ؛ وجدَّف الرجال بهمة صوب الجهة اليسرى ، برغم أن المسافة بيننا وبين كاسرات الأمواج كانت تقدر بنصف ساعة تقريبا ، إضافة إلى أن المسار الذى يتبقى أمامنا يعد أكثر خطورة عن ذى قبل ، نظرا لأن هذا المسار كان يحتم أن يسير القارب بمحاذاة انحدار الماء واندفاعه : ولكنها نصف ساعة ليس إلا ؛ ومع كل ذلك لم يخطر ببالى قط أننا سنصل إلى المكان المقصود .

واقتربنا أخيرا ، من المكان المقصود ، ولكن برز أمامنا خطر جديد . كان الصف الأول من كاسرات الأمواج ، الذى كان يتدحرج مثل الشلال ، ما يزال بعيدا عن الشاطئ ، بمسافة لا تقل عن مائة ياردة ؛ وظهر فيما بين هذا الصف الأول والشاطئ رغوة بيضاء من المياه المائجة ، والتى كان عمقها لا يقل ، بأى حال من الأحوال ، عن عشرة أقدام أو اثنى عشر قدما ، وكنت أشك تماما فى أن قوانا ستساعدنا على اجتياز هذه الرغوة ، نظرا لأننا كنا متعبين ومرهقين ، وكان الخدر يسرى فى أجسادنا بسبب برودة الليل ورذاذ الماء الذى لم يتوقف عنا لحظة واحدة . ولكن لم يكن هناك بد مما ليس منه بد ؛ ولكننا عندما اقتربنا من الخط الأبيض الذى تلألأ مثل نيران العرافين والسحرة أثناء الليل ، ناديت على كل من يوسف والصبى الصغير ، اللذين كانا يغطان فى ثبات عميق يشبه الموت ، وطلبت منهما أن يستعدا للسباحة التى أصبحت الآن أمرا لا مفر منه . ونهض يوسف ، هو والصبى ، وتخلى البحارة عن المجاديف، وإن هى إلا لحظة أو تكاد حتى ضربت القارب موجة جعلته يغوص إلى القاع كما لو كانت أصابته قذيفة مدفع ، فى حين رحنا جميعا نصارع الموج طلبا للحياة .

ولما كنت واثقا من قدراتى السباحية ، ومتشككا فى قدرات يوسف ، فقد نظرت إلى الخلف كى أرى ما حدث ليوسف ، ولكنى وجدته خلفى فى الماء ، وأمسكت به وطلبت إليه أن يبذل كل ما فى وسعه ، وأننى سوف أساعده على الوصول إلى البر . ولكنه طرح يدى ، وهو فى كامل قواه العقلية وصاح قائلاً : "انقذ نفسك أنت ، فأنا

سباح جيد ، ولا تخف عليّ مطلقا ". وكان الربان هو والبحار الصغير قد أمسكا بالصبي الصغير ، ابن شقيق الربان ، من جانبيه، وراحا يسبحان به صوب الشاطئ . كان الجهد الذي نبذله محبطا ، نظرا لأن كل موجة كانت تغلبنا على أمرنا مع اندفاعها وتسحبنا إلى الخلف مع تراجعها ، في الوقت الذي شربت فيه ، من الماء المالح ، مقدار أكبر بكثير مما هو مطلوب . وأخيرا ، وبعد بضع دقائق ، مرت كما لو كانت ساعات ، لمست قدماي الأرض ، وراحتا تزحفان فوق الشاطئ الرملي ، كما لو كان منتقما يطاردني كي يثأر مني . وبدأ باقي الناجين يصلون إلى البر تباعا الواحد إثر الآخر – كان بعضهم عاريًا تماما ، بعد أن تخلصوا من ملابسهم أو انتزعت منهم بفعل سحب الموج لهم أثناء تراجعه ؛ وكان البعض منهم ما يزالون يحتفظون ببعض قطع من الملابس التي كانوا يرتدونها . وراح الجميع ينظرون حولهم ، ليتأكدوا من وصول رفاقهم ؛ وعندما أصبح الناجون التسعة يقفون على الشاطئ ، سجدوا جميعا على الرمل شكرا لله ، الذي منحهم الحياة من جديد بعد المخاطر الكثيرة التي مروا بها ، والأصدقاء الكثيرون الذين وافتهم المنية غرقا .

وبعد أن فرغ الجميع من ركوعهم وسجودهم ، نهضوا يعانق كل منهم الآخر ، ويضحكون ، ويصرخون ، ويبكون ، ويرقصون . لم أر في حياتي قط أناسا خرجوا عن شعورهم تماما مثلما حدث لهؤلاء الناس خلال هذه اللحظة الأولى من لحظات نجاتهم المفاجئة . وأمسك أحدهم التراب بيديه وهو يصيح قائلا :" أهذا فعلا الذي نقف عليه هو البر؟ " وقال آخر :" أين بقية رفاقنا؟ " وقال ثالث :" رحمة الله على الموتى ؛ ولنحمد الله ونشكره لأنه أنجانا "؛ وهذا شخص رابع وقف مشدوها ؛ وفشلوا جميعا في تمالك أنفسهم . وكان يوسف قد فقد كل ملابسه التي تستره ولم يتبق عليه شيئ منها ؛ ولكني كنت لا أزال ارتدي اثنين من من قمصاني (كان أحدهما ما يزال إلى جواري) ويغطي طوله القدمين على الطريقة العربية . وأعطيت يوسف واحداً منهما ، واحتفظت بالثاني لنفسي ؛ أضف إلى ذلك أن غطاء رأسي الأحمر كان قد تعلق برأسي تماما إلى حد أنني كنت أفضل من كل من هم حولي . وقال البحار العماني الشاب :" يجوز لنا أن نعتبر هذا اليوم ميلاداً لنا ؛ إنه بعث لنا من الموت " . ويردف رئيس البحارة قائلا ، بعد أن خطر بباله أسرته وأطفاله :" هناك آخرون في بيوتنا يصلون من أجلنا ، وقد نجانا الله من أجلهم " . ورددت عليه وأنا أتذكر أولئك البعيدين عني :" هذا صحيح ، وربما هناك آخرون غيرك يعرفون ذلك ".

وبينما كنا نتحدث على هذا النحو ، وعندما بدأنا ننظر حولنا لنتبين المكان الذى وصلنا إليه ، سمعنا صوت أحد المدافع الذى انطلق من مسافة بعيدة ناحية اليمين . وقال الربّان :" لابد أن يكون ذلك هو صوت مدفع الصباح فى سيب " . ولما كانت مدينة سيب ، واحدة من المدن المحصنة ، ومقرا يقيم السلطان فيه فى أغلب الأحيان ، فمن الطبيعى أن تمتاز عن بقية المدن بوجود حامية ومدفعية بها ؛ ويبدو أننا ، وذلك من واقع المنطقة التى تحطمت فيها سفينتنا مقابل سُوَادة ، أننا لسنا بعيدين عن هذه المدينة . وبينما كنا نناقش هذا الموضوع ، سمعنا طلقة مدفع أخرى تنطلق من الداخل . ويرد شخص آخر قائلا : " هذه الدانة لابد أن تكون صادرة عن قصر بطحة – فـارزة "(أو إن شئت فقل وادى فارزة) . " من المؤكد أن ثوينى موجود فى القصر ، والسبب فى ذلك أن المدفعية لا تطلق إلا عندما يكون السلطان فى القصر ومعه بلاطه " .

كانت بشائر الفجر الكاذب قد بدأت فى الظهور ، إضافة إلى أن الريح الكاسحة التى كانت تهب على الشاطئ استلزمت منا أن نبحث لنا عن مكان نأوى إليه ؛ والسبب فى ذلك أن أجسادنا كانت تقطر ماء وكنا نشعر بقشعريرة وبرودة شديدة . من هنا دلفنا لنحتمى بمجموعة من الأدغال ، التى راح كل واحد منا يحفر لنفسه حفرة طويلة بجوارها؛ وبعد أن آوينا أنفسنا بهذه الطريقة، بقينا فى ذلك المكان إلى أن طلع النهار ، الذى ظننا أنه لن يطلع علينا مطلقا . وأخيرا بدأ نور القمر يخبو قليلا قليلا ، ثم طلعت الشمس ، برغم أن أشعتها لم تصل إلينا بالصورة التى كنا نتطلع إليها ، والسبب فى ذلك أن الخليج الذى وصلنا إليه كانت تحفه من الجانبين تلال مرتفعة ، تحجب عنه الأفق . كانت تلك التلال تنتهى بمنخفضات من ناحية البحر ؛ وعلى الناحية اليسرى ، كانت توجد تلك الصخرة نفسها ، التى كاد تسرع البحارة اليائس أن يدفعنا إليها فى الليلة السابقة ؛ كان منظر تلك الصخرة مريعا حقا . كانت الريح ما تزال شديدة ، وكنا بدورنا نرتعد من البرد فى ظل الملابس التى كنا نرتديها . وهؤلاء من أمثالى الذين وصلوا إلى البر وعليهم من الملابس ما يزيد على ستر عوراتهم ، قاموا باقتسام ما زاد عن حاجتهم ، مع أولئك الذين لا يرتدون أى شئ من الملابس . وعندما بدأت أشعة الشمس تسقط على جانب التل الأيمن ، سارعنا جميعا إلى تدفئة أنفسنا وتجفيف ملابسنا – وهذه مهمة سرعان ما أنجزناها لأن خوان ملابسنا كان صغيرا جداً . وبدأنا بعد ذلك نستطلع المكان ، الذى اكتشف بعض البحارة أنهم لا يعرفونه تماما ، كان ذلك المكان يقع فى ناحية الشرق من مدينة سيب ؛ ولكننا كانت تفصلنا عن هذه

المدينة سلسلة عالية وعريضة من الصخور ، التى لم تجرؤ أقدامنا الحافية على الاقتراب منها ؛ ومن ناحية الغرب كان هناك أيضا حاجزا مماثلا . ولكن الوادى ، من ناحية البر ، كان كله من الرمل فى المنطقة ما بين التلال ، وبدا لنا الطريق سهلا فى ذلك الاتجاه ، وأنه يؤدى ، كما قال البحارة ، إلى قصر السلطان الموجود فى هذه المنطقة الريفية – وهو المكان نفسه الذى سمعنا دانة المدفع تنطلق منه الليلة الماضية ، وأن هذا القصر لا يمكن أن يكون على بعد مسافة كبيرة من هنا . وأننا إذا ما وصلنا إلى القصر ، ونظرا لأن الجميع يعلمون مدى كرم ثوينى وسخائه ، فإننا سوف نحصل على عونه ومساعدته لنا . وقررنا الذهاب إلى القصر ؛ ومع ذلك ، وقبل أن ننطلق إلى هدفنا ، استدرنا لننظر إلى البحر من ورائنا ، الذى كان ما يزال هائجا ومائجا . ولم نر أثرا للقارب الذى أنقذ حياتنا ، ولا أى شيئ من شراعه ، برغم أننا فى اليوم السابق (اليوم الذى يبدو لنا كما لو كان عاما مضى) كنا نرى الكثير من بقايا ذلك القارب . لقد غرقت بالقرب من صخور سوادة ، فى هذه الليلة نفسها ، عشر سفن كبيرة ، بعضها ينتمى إلى الساحل الفارسى والبعض الآخر ينتمى إلى الساحل العمانى ؛ وكما عرفت بعد ذلك ، أن ثلاثا من هذه السفن غرقت بكل من كانوا عليها ؛ وأن هناك سفينة واحدة لم ينجو منها سوى طاقم بحارتها ، أما بقية السفن فقيل أن قله قليلة ممن كانوا عليها : ونحن بدورنا ، أصابنا النحس فى بعض رفاقنا . ونظرنا إلى المحيط ، وأطلنا النظر إليه ، وأعلن كل واحد منا القرار المعتاد الذى يتخذه البحارة الذين تتحطم سفنهم ، بألا يعودوا إلى ذلك العنصر الغادر مرة ثانية ؛ هذا القرار ، الذى لم يدم – كما يحدث فى معظم الأحيان – سوى أسبوعين أو ثلاثة أسابيع .

وعقب ذلك بدأنا نشق طريقنا فى اتجاه الجنوب عبر الرمال والمنحدرات سعيا إلى القصر الذى يقيم فيه السلطان . وقلت لـ – يوسف :" إنه لتحطم مؤسف ، أن نمثل أمام جلالته ونحن على هذا الحال ؛ ولو كانت هدايانا معنا ، فلربما كانت زيارتنا أحسن وأوقع " . وتنهد يوسف ؛ إذ تقع مسئولية ذلك الجزء من مغامرتنا الفاشلة على عاتقه . أما فيما يتعلق بى أنا شخصيا ، فقد ضاع منى كل ما تبقى معى ، منذ أن افترقت عن أبى عيسى فى المنامة ، علاوة على بعض الأشياء التى كنت قد اشتريتها ، بدافع من الفضول المحلى – ومن بينها خنجر أنيق ، ومشلح من الصوف الراقى ، وسجادتين عجميتين جميلتين ، بالإضافة إلى بعض التذكارات التى اشتريتها من كل من لينجا والشارقة . والذى أقلقنى كثيرا هو فقدانى لكل ملاحظاتى التى كنت قد بدأت

فى تدوينها اعتبارا من اليوم الثالث والعشرين من شهر يناير ، إلى يومنا هذا ، أو إن شئت فقل إلى اليوم العاشر من شهر مارس ، وأنا هنا ألتمس العذر على الحذف وعدم الاستيفاء الذى قد يلاحظه القارئ ، فى ذلك الجزء من القصة ، والذى يقع بين هذين التاريخيين ، وربما يلاحظ القارئ أيضا بعض الأخطاء غير المقصودة . وأنا لم أهتم كثيرا بضياع النقود التى كانت معى ، برغم أن الأمر قد يبدو طريفا إذا ما وجد الإنسان نفسه مفلسا مع رفيق شبه عار ومفلس أيضا ، وفى بلاد غريبة ، وبعيدا عن الأصدقاء والموارد . ولكن كل ذلك كان تافها إذا ما قارناه بما حدث للربان - الذى خسر السفينة ، وحمولتها ، بل وخسر كل شيئ باستثناء القميص الذى كان يرتديه ؛ ولم يكن باقى أفراد الطاقم أحسن حالا ، قياسا على ما نحن فيه . وعلى كل حال ، فقد فقد الكثيرون منهم ما هو أهم من كل ذلك بكثير - أرواحهم ، وبالتالى فنحن عندما نقارن أنفسنا بهم ، نجدنا أوفر حظا ؛ من هنا بدأنا نشعر بالارتياح ، واتفقنا جميعا على أن نشكر الله ونحمده على ما مضى ، وأن نوكل إليه أمرنا ، ونثق به فيما نحن مقبلون عليه .

ولم ألاحظ سوى من خلال هـــذه الأحداث ، الفــرق بين المسلمين وغير المسلمين (وهذه الحقيقة لم ألاحظها من قبل ، ولكنها اتضحت لى تماما من خلال هذه الأحداث) فى طريقة نظرهم إلى تلك الكينونة العليا ، التى يشيع اسمها بين الجميع ، باعتباره محطا للتأليه . فالبياضية الذين كانوا معنا يتكلمون عن الله مثلما يتكلم عنه المسيحيون العاقلون، يتكلمون عنه باعتباره الحاكم الأحد والموجه الأحد ، ولكن حكمه لخير البشر ، والتى شاءت مشيئته الحياة وليس الموت ، والغوث والرحمة بدلا من المعاناة ؛ وبهذا الفكر راح البياضية ، يفعلون ، عن طيب خاطر ، ذلك الذى ينبغى عمله ، تاركين كل ماعدا ذلك بين يدى الله ، وهم يحدوهم أمل طيب فى النتيجة . أما المسلمون ، هؤلاء المساكين ، الذين غرقوا جميعا إلا واحداً منهم ، فإن رؤيتهم للأمور كانت أقل بشْراً ، وكانوا على قناعة كاملة أنهم بين يدى قوة عرفيه مطلقة ، هى القادرة على إنقاذهم إن شاءت وإغراقهم إن شاءت ، وأن صلواتهم واحتياجاتهم لا تؤثر على هذه القوة من قريب أو بعيد . وليس هذا هو حال كل أتباع محمد ؛ فقد شاهدت بنفسى حالات كثيرة لفكر مناقض لذلك ، ناتجة عن ذلك التضارب السعيد الذى لا يُعْمِلُ البشر بمقتضاه مبادئهم النظرية أو ينصرفون طبقا لها . يضاف إلى ذلك ، أن المسلمين فى البلدان المشتركة مثل تركيا ، وسوريا ، ومصر يقترضون الكثير ، فى معظم الأحيان ،

وبلا وعي من النِّحل والنظم المختلفة المحيطة بهم . ولكن النجديين بحكم انعزالهم عن التأثير الأجنبي ، ومن واقع تمسكهم ، نتيجة لذلك ، بالفكرة التي تقوم عليها كل حياتهم وروحهم ، يَرَون نفس الإله أمامهم في الفعل وفي القول ؛ من هنا فقد راح رفاقنا التعساء في السفينة ينتظرون مصيرهم مثل حيوانات الذبح ، عندما يتم إحضارها أمام القصاب وسكينه مشهور في يده[1] .

أرجو أن يغفر لي القارئ ، هذا الاستطراد القصير . وأنا (من منطلق ثقتي بنفسي) لا أركز هنا ، على هذه النتيجة الأزتيكية Azote الغربية ولكنها طبيعية ، لا أركز عليها من منطلق العداء اللاهوتي ، أو الوطني ، أو حتى من منطلق العداء الشخصي ، وإنما من منطلق الاقتناع الناشئ عن ما شاهدته من الممارسات الإسلامية الطبيعية في كثير من البلدان وبين كثير من الأعراق والأجناس .

وواصلنا المسير وبعض منا سعيد ، وبعض آخر حزين ، وبعض ثالث دب فيه الوهن والضعف إلى ما قبل ساعة أو نحو الساعة ، من حلول وقت الظهيرة . وأخيرا بدأنا نعبر سلسلة من الجبال بدأت الأشجار تختلط فيها ، مع الأدغال الشاطئية المنخفضة ، ثم بدأنا نرى فجأة ، البطحة Bat.h.ah من أمامنا . كانت تلك البطحة (الوادي) عبارة عن تجويف عامر بالأشجار ويقع وسط تلال قممها من الجرانيت ؛ فكان قاع أو الجزء الأسفل من ذلك الوادي ، شديد الاخضرار ، اللهم باستثناء جزء واحد من الوادي ، الذي كان جزء منه عبارة عن رقعة من الرمل النظيف . كان قصر السلطان يقع إلى جانب هذا الجزء من الوادي ، وكان يشبه ، بصورة واضحة تماما ، قصرا من القصور التي أنشئت في عهد لويس الثالث عشر ، مثل تلك القصور التي شاهدتها في وسط فرنسا . والقصر مكون من مقصورة مركزية ، لها أجنحة جانبية مرتبة ترتيبا متناسقا ، والطابق الأول من القصر تحيط به شرف مفتوحة ، وله سلَّم يؤدي إلى مدخل القصر الرئيسي؛ وخلاصة القول ، إن هذا القصر يعد أكثر المنشآت ، التي شاهدتها اصطباغا بالصبغة الأوربية في الجزيرة العربية . والذي شيد هذا القصر هو السلطان سعيد ، وفي اعتقادي أن الذين بنوه هم البناءون الغربيون بناء

(١) إن دين الإسلام يحث الإنسان على الأخذ بالأسباب ، إلى آخر نفس في الحياة ، ولكنه مع ذلك يعلّق آماله على الله القادر الذي خلق الأسباب والمسببات ، فإن نجح فهذا فضل الله ، وإن خسر فهذا قدر الله ، وليس الأمر – كما وصفه المؤلف – بأن المسلمين فيهم سلبية نتيجة هذا الدين وتمسكهم به ، كلا – فسلوك الناس شئ وتعاليم الدين شئ آخر – (د. حلمي عبد المنعم) .

على أوامر من السلطان سعيد نفسه . وتحيط بالقصر سلسلة طويلة من الإسطبلات والمراحيض . وفى هذا المكان ، ومن أسفل أحد أجنحة القصر ، وبالقرب من أحد مداخله الخاصة ، كان يجلس السلطان ثوينى نفسه ، وسط حاشيته ، ليستنشق نسيم الصباح المنعش وهو جالس فى الظل ؛ وكان يقف أمامه حوالى ثلاثمائة خيال كانوا جميعا منهمكين فى مسير وتطورات إحدى المعارك الهيكلية . وكانت الخيام منصوبة ، بين الأشجار ، هنا وهناك ؛ كانت الحياة تدب فى كل شيئ ، وكان الجميع يشعرون بالحيوية ، والبشر والأمان ؛ وهذا مشهد مختلف تماما عن ذلك المشهد الذى شاهدناه مؤخرا وشاركنا فيه .

وتوقفنا خلف ستار أوراق بعض النباتات ، استطعنا منها أن نرى السلطان نفسه ومعه أفراد حاشيته . وينتهى العرض بعد فترة قصيرة ، ثم ينصرف الخيالة بعد أن يحيوا سلطانهم ، عائدين إلى ثكناتهم التى تبعد عن القصر مسافة قصيرة . وهنا واصلنا المسير من جديد ؛ وبعد أن سرنا خطوات قليلة رأنا بعض الواقفين ، الذين اتجهوا إلينا مباشرة . وقالوا لنا : " أكيد ، أنكم من بين أولئك الذين تحطمت سفنهم الليلة الماضية ؛ لقد كنا نتحدث عن احتمالية تحطم عدد كبير من السفن فى تلك العاصفة ، وها أنتم تشهدون بصحة ما توقعناه ". وبعد هذه التحية ، اقتادونا على الفور وبلا أية مقدمات لنمثل أمام السلطان ثوينى .

وأنا لم أتمالك نفسى من الضحك من الشكل الذى كنت عليه فى ذلك الوقت ؛ ولكن هذا من حسن حظى فيما يتعلق بمسألة تنكرى أمام السلطان ثوينى ، الذى لابد أن تكون عيناه الملكيتان قد شاهدتا مرارا أعدادا كبيرة من الأوربيين من مختلف الفئات ، والذى ربما استطاع أن يتعرَّف فىّ الرحالة الإنجليزى لو أننى كنت متنكرا فى زى افضل من الذى ارتديه الآن ، وفى ظل ظروف تلعب الشكليات فيها دورا أكبر . أما مسألة التقاط رجل إنجليزى من بين مجموعتنا عارية السيقان فتحتاج إلى واحد من الحواة ؛ يضاف إلى ذلك ، أن ثوينى نفسه ، بغض النظر عمن تكون أمه ، لا يمكن أن يكون ذلك الحاوى . ومثلنا أمام ثوينى . كان السلطان يرتدى ملابس أنيقة ، بل وغاية فى الأناقة ، وبيضاء اللون ، ومطرزة تطريزا خفيفا بما يشبه الورود ، بينما كان يضع على رأسه عمامة كبيرة بيضاء من الكشمير ، تعلوها ماسة ، ويتدلى من حزامه الذهبى خنجر رائع مُذَهّب . وجسم السلطان ثوينى ممتلئ إلى حد ما ، وملامح وجهه

تدل على الأناقة؛ وقسمات وجهه تدل على الحذق والمهارة ولكنها توحي أيضا بالتشتت ، وشكله بالصورة التي هو عليها يوحي بأنه واحد من أتباع أبيقور[١] ، ولكنه كان يمكن أن يكون أفضل مما هو عليه لو أنه أراد ذلك . وهو تبدو عليه الحصافة ، وحسن الطبع ، وحبه للمتعة يظهر على وجهه ، وفي سلوكياته ، بل يبدو إنه يشكل جزءا من شخصيته أيضا . وكان يجلس إلى جانب السلطان ثويني صبي غامق الملامح ، ولكنه كان يرتدي ملابس رائعة ، وكان غطاء رأسه مرصعا بالأحجار الكريمة ؛ هذا الصبي ، هو أكبر أبنائه الذي أنجبه من خليلة[٢] حبشية . وبالقرب من السلطان كان يجلس رئيس الوزراء ، الذي هرب اسمه من ذاكرتي ، وكان يجلس معه أيضا العديد من أصحاب الجاه والمناصب العالية ، الذين كانوا كلهم متشحون بالبياض والذهب ؛ في حين كان هناك حراس عديدين ، مسلحين بالسيوف والخناجر جالسين أو واقفين من حول السلطان .

كان من الطبيعي أن يقوم الربان بدور الناطق باسمنا – واستقبلنا السلطان استقبالا فيه كثير من الود والتعاطف ، وسألنا عن الميناء الذي تنتمي إليه سفينتنا ، وسألنا أيضا عن الحمولة التي كانت تحملها السفينة ، وعن الميناء الذي كانت تنوي الوصول إليه ؛ كما سألنا أيضا عن طريقة غرق السفينة ، وعن عدد الذين لقوا حتفهم ، وكيف استطعنا نحن أن ننجي أنفسنا ، ثم أصدر أوامره ، بعد أن وعد بتعويض صاحب المركب التعيس عن سفينته ، بتسكيننا والاعتناء بنا في القصر .

وتمنيت لو أن يوسف هو الذي تكلم بعد الربان ، ولو أن يقول شيئا عن الهدايا التي كان يحملها معه ، وعن الشخص الذي عهد إليه بهذه الهدايا . ولكن يوسف كان يحتاج إلى من يشجعه كي يتقدم لمثل هذا العمل ، من ناحيتي أنا ، فقد كنت أرى أنه ليس من الحصافة والحرص أن أجذب إليّ الاهتمام ، وبخاصة أنني لمحت بين أفراد الحاشية بعضا من الناس الذين تشبه وجوههم وجوه أهل الشمال . من هنا أبقيت نفسي في خلفية الصورة ، ورحت أنتظر النتائج . وفي ذات الوقت ، تقدم أحد الحراس

(١) الفيلسوف الإغريقي الذي قال بأن المتعة هي الخير الأسمى ، ونادى بالانغماس في الملذات الحسية – (المترجم) .

(٢) ليست خليلة ، ولكنها قد تكون أمة ، فليس في الإسلام خلائل ولا أخدان ، وإنما زوجات وإماء ، وأما الخليلات فلا تعرف إلا في الغرب المتحلل من القيم والفضائل – (د. حلمي عبد المنعم) .

ناحية يوسف وناحيتي وعرض علينا أن يستضيفنا ؛ وجرى التعامل بالطريقة نفسها ، مع بقيه البحارة . وسرنا مع مضيفنا إلى منزله ؛ الذى كان يقع ضمن المنازل التى تقع خارج نطاق مبانى القصر ؛ كان المنزل عبارة عن مبنى جيد وكبير يسكن فيه حوالى ستة من حملة السيوف الملكيين . وفي هذا المبنى بدأ الجميع يعملون على راحتنا . وسرعان ما قدموا لى بنطلونا خفيفا وعمامة . وارتدى يوسف أيضا ثيابا جيدة ؛ وشب أهل البيت النار التي بعثت فينا الدفء ، وأشعلت الغلايين ، وأعدت القهوة ، فى حين راحوا يجهزون لنا كميات إضافيه من الغذاء . وأثناء قيام هذه العمليات على قدم وساق ، كنا نعيد قصتنا ونكررها مرة بعد مرة ، وتعاطف الجميع معنا وواسونا ، وتمنوا لنا الخير ، وقالوا لنا .. كل ما يمكن أن يقال فى مثل هذه المناسبات . وتناولنا وجبة طيبة شهية من اللحم والأرز الملون بالزعفران ، ومعه الزبيب ، والتمر ، وكل ذلك الذى استطاعت أيدى المضيف الوصول إليه ، ثم خلدنا إلى الراحة لنأخذ سنة قصيرة من النوم ، – وهى المرة الأولى التى ننام فيها بعد أن تحطمت سفينتنا ، والسبب فى ذلك ، أن البرد لم يسمح لنا بأن نغمض أعيننا عندما كنا على الشاطئ فى فترة الصباح .

كان وقت العصر ، عندما استيقظت ، قد دخل منذ فترة طويلة . ولكننى وجدت يوسف مستيقظا ، واقترح على أن نقوم بتمشية نتفرج خلالها ، على القصر والمنطقة المجاورة له . وبالقرب من القصر كانت هناك عين جارية ، ماؤها دافئ ويستعملها السلطان حماما له أثناء إقامته فى منزله الريفى ؛ بل إن هذا الماء نفسه ، بعد أن يجرى تبريده فى قنوات مفتوحة من الجص ، يروى بستانا كبيرا من أعشاب الطعام ، تنتشر على اتساع الوادى وتشغل مساحة كبيرة منه ؛ وخلف هذا البستان يمتد هذا النهير ليروى مزارع مختلطة من أشجار النخيل وجوز الهند . وفى المساء يمتلئ هذا الوادى عن آخره بالمتنزهين ، الذين يبرز من بينهم الضباط الخيالة ، وضباط المدفعية وهم يرتدون زيا شبيها بالزى الأوربى ؛ وعلى كل حال ، لم يكن فى البطحة أحد من الحراس البلوش . وقبل الغروب بوقت قصير شاهدنا مجموعة كبيرة من الخيالة ، وهى تتجه صوب الوادى ، إلى أن توقفت أمام باب القصر . كان قائد هذه الجماعة رجل عريض المنكبين ، غليظ العنق ، كبير الرأس ، متين يلبس مشلحا أحمر ، ويركب جوادا رائعا ، بل إنه واحد من أحسن الخيول التى شاهدتها فى الجزيرة العربية ، ويكفى وحده للتدليل على أهمية راكبه . لم يكن هذا الرجل ، غير المطيرى الشهير ، أو إن

شئت فقل المطيرى سيئ السمعة ، الذراع اليمنى لـ - خالد بن صقر بكل عنفوانه وقسوته ، والذى اشتهر بأنه أعظم رجال العصابات فى عصره . وبينما كان ينزل من على ظهر الحصان ، استثار من حوله فيضا من الكراهية ، وسارع خدم القصر كى يرافقوه وهو يصعد السلم ، كما أنه وكل الذين كانوا يقفون إلى جوارنا انسحبوا قليلا إلى الخلف وراحوا يتمتمون باللعنات والشتائم . كان ثوينى نفسه يتمنى ، كما يقول الناس ، وحسب اعتقادى أنا شخصيا ، أن يرى حليفه الخطير على بعد مسافة كبيرة ، ولكن السياسة هى التى تضطره إلى مسايرة الظروف : ويبقى المطيرى ثلاثة أيام بطولها ضيفا على السلطان ، يعود بعدها إلى قائده (سيده) المباشر خالد بن صقر فى الشارقة . وأنا لم أستطع أن أعرف شيئا عن المهمة الخاصة التى كان مكلفا بها أو النتيجة التى انتهت إليها هذه المهمة ؛ وربما كان هدفه الرئيسى هو الروغان والتمويه .

ومن منطلق الفضول الطبيعى ، فى مثل هذه الأحوال ، قام اثنان من البحارة بزيارة الشاطئ فى اللحظة نفسها ، حيث عثرا على ألواح قاربنا المكسرة بعد أن تحطمت إلى قطع صغيرة بفعل ماء البحر . ولم نر أو نسمع أى شيئ عن السفينة - فى المكان الذى غرقت فيه ليس على عمق خمسة فراسخ ، وإنما على عمق سبعين أو ثمانين فرسخا تحت الماء ، إذا ما صحت الأعماق المسبورة عند صخور سواده .

ورحت أنا ويوسف نتسكع فى البطحة إلى أن بدأت الشمس فى الغروب ، وعندها قدم لنا ولأصدقائنا واحد من حاشية القصر مبلغا صغيرا من النقود لتلبية احتياجاتنا الضرورية ، ووعدنا بالمزيد إذا ما فضلنا البقاء فى ضيافة السلطان يوما أو يومين آخرين . وتسلم ابن خميس وأمسك كل منا ثمانا ذهبيا فى يده ، والذى تقل قيمته قليلا عن عشر شلنات إنجليزية ، وهذا الثمان يكفى للمغامرة بالمضى قدما فى الرحلة ، وقررنا البقاء انتظارا للمزيد من كرم ابن سعيد ، وفجأة وقع ظرف حتم علىّ مغادرة القصر والمنطقة المحيطة به على وجه السرعة .

كنا قد انتهينا من تناول العشاء ، وكان الليل قد أرخى سدوله علينا ، فى حين كنا كلنا ضيوفاً ومضيفين نجلس حول النار نحتسى القهوة ، وفجأة يدخل علينا زنجى مهندم ، وبعد تبادل التحية ، أبلغنى تحيات سيده ودعوته لى بتشريفه بصحبتى . ونهضت من مكانى ، وسرت مع دليلى الأسود ، الذى أوصلنى إلى خيمة أنيقة منصوبة على بعد مسافة قصيرة . وفى الخيمة شاهدت اثنين كانا من قبل ضابطين تركيين

سابقين ولكنهما الآن يعملان في خدمة السلطان، وأنهما لأسباب تتعلق بهما شخصيا ، وجدا أن سخونة الجيش العثماني وكذلك الأراضي العثمانية ، بلغت حداً لم يطيقانه ، وأنهما بلغة إنجليزية واضحة ، تخليا عن الجيش . فقد وصل أحدهما مباشرة إلى عمان ؛ أما الثاني فقد تجول في العالم إلى أن وصل إلى بومباى ، وكلكتا ، بل إنه وصل أيضا إلى سنغافورة وملقا ؛ وقد تعرف خلال ارتحالاته على كثير من الإنجليز ، والهنود ، والملايين وعلى تشكيلة كبيرة من البشر . بل إنه هو نفسه كان ألباني الأصل ، برغم أنه كان يشغل منصبا قياديا في الجيش العثماني . قال لي هذا الرجل ، بلغة عربية مكسرة تقتصر على هذه الفئة من الناس ، والتي يمكن تعرفهم عن طريقها :" لقد لاحظناك ، وعرفنا من مظهرك ، أنك على العكس من رفاقك ، لست من هذه البلاد ." قال الرجل لي هذا الكلام بمنتهى الأدب ، وأعقبه بتقديم نرجيلة مفضضة ، مصحوبة ببعض مظاهر الأدب الشرقي الآخر ، مما جعلني أستشعر الارتياح التام ، برغم ملاحظة أبديت كان الهدف منها أن تكون مقدمة لمزيد من التحري والاستفسار . ودخلنا بعد ذلك في حديث طويل اتسم بالحيوية ، قلت له فيه ذلك الذي ينبغي عليّ قوله ؛ وراح هذا الرجل بعد أن أنعش نفسه بشئ أفضل من القهوة ، كان يتمثل في مشروب الكونياك Cognac ، الذي كان يحتسيه من زجاجة سوداء ، التي كان يتناوب الشرب منها هو وزميله ، والتي لابد أن أعترف أني لم أرفض تناولها معهم في هذه الظروف ، راح هذا الرجل يحكي لي عن تاريخه الماضي وعن مغامراته في البر والبحر كما حكى لي أيضا عن ظروف دخوله في خدمة السلطان ثويني ، وما إلى ذلك من هذه الأمور ، بقليل من الطلاقة وقليل من الدقة أيضا . " وللحقيقة " أقول : إن العكس قد يكون صحيحا في بعض الأحيان . ونقلا عن أقوال هذا الرجل فإن السلطان الحالي لديه حوالي ستمائة خيَّال ، إضافة إلى عدد معقول من رجال المدفعية الذين يعتمد عليهم اعتمادا كبيرا . وأنه في حالة نشوب الحرب يمكن أن يعتمد تماما على الضرائب التي يجبيها من الرؤساء المحليين في بلاد صور ، وبلاد جيلان ، وجبل أخضر ، بل وحتى من الجزء الأكبر من باطنة ، رغم أنه ما تزال هناك بعض البلاد التي لا تنصاع لمثل هذا الأمر . كما أبلغني هذا الرجل أيضا أن السلطان ثويني لديه وتحت إمرته ما يزيد على ثلاثين سفينة كلها إنجليزية الصنع ، وإن بعضا من هذه السفن يحمل ما لا يقل عن خمسين مدفعا ؛ وإنه في المحصلة الأخيرة ، يمكن اعتباره مساويا لوالده من حيث القوة والموارد ، إذا ما أولى التجارة والمال والأعمال المزيد من اهتمامه ووقته ، وقلل من اهتمامه بظرفاء البلاط والخليلات .

وبدلا عن هذه المعلومات ، كان يتمنى أن يعرف المزيد عن شئوني ، وكان ميالا إلى أن يوحي إليّ بأنه يعرف أن رحلتي إلى هنا كانت لها أهداف أخرى غير جمع الأعشاب أو التحرى الطبى . ولكن القيل والقال وكذلك الوقت المتأخر إضافة إلى التعب والإرهاق كل ذلك أعطى مبررا لاستئذانى وانصرافى إلى حال سبيلى ، ولذلك استأذنت من مضيفى الذى أكد لى أنه سوف يرد الزيارة فى اليوم التالى ، وأننا سوف ندخل فى المزيد من الحديث .

ومع كل ذلك ، فقد كنت بعيدا جدا عن مطامح تلك الراحة الموعودة ، وليس معنى ذلك أننى كنت أهتم كثيرا بما إذا كان ثوينى ، أو وزيره (الذى عرفت فيما بعد أنه بدأ يثير شكوكه من حولى ، وربما يكون هو الذى أعطى الألبانى أمرا بان يستقصى ويتحرى كل شيئ عنى) ، بل وعمان كلها بدءا من رأس مسندم إلى رأس الحضض ، قد عرفوا من أكون وما هى مهمتى ، وكنت على يقين أيضا من واقع ما رأيت وما سمعت ، أن هذا التعرف لن يتسبب لى فى أى ضرر أو عرقلة . ولكن المطيرى هو والنجديين الذين كانوا معه ، كانوا ما يزالون فى حضرة البلاط الملكى ، ولذلك خشيت أن تنتقل الأخبار ، فى ظل التضخيم العربى ، الواسع النطاق ، إلى البريمة ومنها إلى نجد، وتتمخض عن نتائج سيئة، لأبى عيسى على أقل تقدير ، والذى يمكن أن يعدونه ، فى مثل هذه الحالة سواء أكان ذلك بطريقة مباشرة أم غير مباشرة ، أو عن طريق رجاله شريكا لذلك الشبح المخيف الذى يطلقون عليه اسم جاسوس . يضاف إلى ذلك ، أننى كان ما يزال أمامى موعد سوف ألتقى فيه أبا عيسى على ساحل الخليج الفارسى؛ علاوة على أن بركات كان ما يزال مع أبى عيسى ، وان النتائج التى قد تترتب على انكشاف أمرى قبل الأوان ، قد تكون وخيمه تماما .

من هنا ، وبدون أن اشرح لـ - يوسف أمورا لا تهمه ، أبلغته أننى يسعدنى أن أترك ثوينى هو وبلاطه وحاشيته لحال سبيله ، وأن أواصل السفر فى صبيحة اليوم التالى إلى مسقط ، التى ربما نجد فيها ما يخدمنا ويكون لصالحنا ؛ وزدت على ذلك أشياء كثيرة عن وهم الثقة بالأمراء وما إلى ذلك . واقتنع يوسف اقتناعا سهلا ؛ والواقع أن يوسف ، لم يشده ما حدث فى الليلة السابقة مما جعلنى أحركه هنا وهناك كما لو كان طفلا صغيرا .

وفى صبيحة اليوم التالى بحثنا لى عن حذاء نظرا لأن قدمى لم تتعودا السير على حبات الحصى الحادة وكذلك القواقع التى كانت تنتشر على الأرض فى معظم أنحاء

مسقط . ولكننا لم نعثر على الحذاء الذى كنا نبحث عنه ، ولذا واصلنا مسيرنا ونحن حفاة الأقدام ، تاركين مضيفينا خلفنا وقد انشغلوا بمهام الاستعراض الصباحى ، بل وربما كان السلطان ثوينى ما يزال نائما . وقام فلاًح من قرية الفرازة المجاورة بإرشادنا إلى المسار الذى يصل بين البطحة وهذه المنطقة . وبعد أن تجاوزنا حافة الجبال فى الناحية الجنوبية الشرقية ، سرنا فترة من الوقت ، خلال مدق ضيق يقع بين الصخور التى يميل لونها إلى الاحمرار ، التى كانت أشجار السنط والبلوط دائمة الخضرة ، تنمو فى الفجوات التى تتخللها ؛ إلى أن وصلنا إلى طريق عريض واسع بدأ يتفرع إلى قسمين قسم منهما يتجه يمينا إلى فرازة والقسم الآخر يتجه إلى مسقط . وكل ما كان يحيط بنا ، كان عبارة عن متاهة من التلال البرية ، وأنها فى معظمها كانت مكونه من صخور الجرانيت ، وتوجد فيما بينها وديان مخضوضرة ، تتناثر فيها هنا وهناك مجموعة من المنازل ، علاوة على حديقة ، وقليل من الحقول المنزرعة ، التى وصل ارتفاع المزروعات فيها إلى منتصف طول الإنسان ، نظرا لأن حصاد هذه المحاصيل يكون فى شهر أبريل . وينساب بطول وادى فرازة ، خلال شهور الشتاء ، مجرى مائى واسع ، ولكنه كان شبه جاف فى ذلك الوقت من العام ، وأنه لابد أن يجف تماما فى شهور الصيف .

وبعد أن توقفنا فترة قصيرة سرنا فى الطريق المؤدى إلى مسقط وواصلنا مسيرنا الشجاع فوق الحصى ، والقواقع والصخور المدببة ، إلى أن تجاوزنا ، قبل دخول وقت الظهر ، قلعة الخبب البيضاء . وقلعة الخبب ليست سوى مبنى زينى فقط - وخلاصة القول ، هى عبارة عن فيلا وليست قلعة كما يعتقد البعض ، وهى تقع فى وادى منخفض بالقرب من هذه القلعة ، وفيها كثير من الماء وتحيط بها الزراعة من كل جانب . ولكننا لم نكن نود التأخير ، ولذلك واصلنا مسيرنا بلا توقف ، إلى أن أنفقنا ثلاثة أو أربع ساعات فى المسير وصلنا بعدها إلى ريعان ، ذلك الكفر (الهجرة) الذى يصغر خبب ، والذى اضطررنا إلى الجلوس فيه لنأخذ قسطا من الراحة . بعد أن تورمت أقدامنا وهدَّنا التعب . وفى الرِّعان Ri'án تكرم القرويون علينا بهدية يقبلها الجوعان تماما - كانت عبارة عن بعض عيدان من قصب السكر وملء حِجْرٍ من النبق الذى يوجد هنا بكميات كبيرة وأحجام كبيرة شبيهة بحبات التفاح البرِّى ؛ وأكلنا هذه الأشياء مع شئ من الخبز الجاف ، الذى حملناه معنا على سبيل المؤن ، عندما كنا فى بطحة .

وبينما كنا نستلقى إلى جوار البئر ، أرجو أن يسمح لى القارئ بأن أبدى قليلا من الملاحظات عن نظام الرَّى ، الذى يختلف هنا وفى أجزاء كثيرة أخرى من عمان عن نظام الرَّى المتبع فى وسط الجزيرة العربية . والماء فى وسط الجزيرة العربية يجرى رفعه هناك باستعمال الجمال أو الحمير ، وغالبا ما يجرى رفعه من أعماق كبيرة وبخاصة فى كل أنحاء جبل شومر . وفى الأحساء ، التى تكثر فيها الآبار ، التى تمتلئ عن آخرها بالماء ، يشيع وجود تلك الآبار التى تسمى فى بعض أجزاء الشرق ، باسم "الجعَّه" Swipes ، كما يمكن أيضا عن طريق البشر رفع المـــاء لرى حقل من الحقول أو لاستعماله فى الأغراض المنزلية . وفى عمان ، ما تزال الجمال والحمير تستعمل فى عمل من هذا القبيل ؛ برغم توفر الماء وَقُرْبِه من سطح الأرض . كما نصادف هنا بين الحين والآخر الروافع الطويلة التى يطلق عليها اسم "سوايب" Swipe ، ولكنهم هنا يستعملون ، فى هذه الروافع الحبال الطويلة ، والبكر Pulleys كما هو الحال فى الأماكن التى يتعذر فيها استعمال المضخات فى بلادنا . وعمان هى أفضل مناطق الجزيرة العربية ريًّا ، وهى أولا المكان الوحيد الذى تكثر فيه آبار المياه وعيونها – وهذا سبب من أسباب وجود الجبل الأخضر وارف الظلال وسلسلة الجبال الداخلية التابعة له، كما يرجع السبب الآخر إلى الرياح الموسمية السنوية التى تهب من المحيط الهندى على سواحل عمان . ومع ذلك ، فإن زيادة مسامية الأرض فى هذه المنطقة تتسبب فى منع تكون الأنهار؛ إذ تتسرب سيول جبل أخضر خلال المسايل الصغيرة شديدة الانحدار ، ثم تعود إلى الظهور مرة أخرى على شكل نوافير وعيون عند سفح هذه الجبال ، ثم تنساب إلى مسافة قليلة بعد ذلك ، ثم تتشربها التربة مرة ثانية ، لتظهر فى النهاية بالقرب من الساحل ، ومع ذلك لا يتخذ الماء لنفسه مساراً منتظما فوق سطح الأرض . وثمة ملاحظة أخيرة تتصل بهذا الموضوع هى أن الآبار نفسها جيدة الإنشاء ، وجيدة الصيانة أيضا .

ومن الكفر (الهجرة) الذى أخذنا عنده قسطا من الراحة ، تفرع الطريق إلى قسمين . القسم الأول يؤدى إلى مسقط ، التى تبعد حوالى خمسة عشر ميلا ؛ ولكن هذا القسم يمر عبر ارض صخرية ووعرة ، كنت أخشى السير عليها حافى القدمين ، وبخاصة أن قدمىَّ لم تكونا تصلحان للطريق الذى قطعناه بالفعل . أما القسم الثانى ، وهو القسم الأيسر ، والذى يؤدى إلى مدينة مطرح Matrah ، ذلك المرفأ البحرى الذى يقع ناحية الغرب من مسقط ؛ ويمر هذا الطريق الشمالى عبر أرض رملية مستوية .

وكنا قد قررنا بالفعل السير في الطريق الشمالي ؛ وبناء على ذلك ، وبعد أن رفضنا الدعوات المتكررة التي وصلتنا من القرويين ويطلبون منا فيها قضاء الليل معهم في منازلهم ، واصلنا مسيرنا ، برغم التعب الشديد ، إلى أمسكت وصلنا إلى مجموعة صغيرة من المنازل تقع داخل خط التحصينات الذي يمتد بطول خمسة عشر ميلا ، أو ما يزيد على ذلك قليلا ، من الشرق إلى الغرب ، ويستعمل للدفاع عن المنطقة الواقعة بالقرب من مسقط مباشرة من ناحية البر . وفي هذه المنطقة تنتشر ، من قمة إلى أخرى ومن جرف إلى جرف ، الأسوار والأبراج الدائرية ، متينة الإنشاء ، التي تستطيع الصمود أمام المدافع الثقيلة بفضل مزاغلها ؛ وهذه الأسوار والأبراج تمتد على طول نقاط الاقتراب من هذا الميناء البحري الكبير ؛ والذي أنشأ هذه الأسوار وتلك الأبراج هم البرتغاليون ، الذين حصّنوا ذلك الجزء من الساحل أثناء احتلالهم له ، مثلما فعلنا نحن البريطانيين في ميناء عدن عندما كنا نحتله ؛ مع أن خطوط مسقط ، برغم روعتها من حيث المنظر ، تعد غير كافية من منظور مبادئ الدفاع العسكري الحديث . وهذه الأبراج والحصون تبدو ، في بعض الأحوال ، بيضاء اللون على القمم الطبيعية ، كما تختبئ في بعض الأحوال ، بين المسايل السوداء ، والصخور الطبيعية الرائعة ، يضاف إلى ذلك أن منظر هذه القلاع والحصون الرائع هو الذي جعلني أتمتع بهذه الأشياء برغم تعبي الشديد . ومن ناحية البر ، التي كان البرتغاليون مستبعدين منها تماما ، نجد أن الأرض لها طبيعة جيدة ؛ وتغطيها النباتات ، ولكن من ناحية البحر نجد أن الصخور جرداء وحدودها الخارجية تتسم بالطابع البرّي .

ومن خلال ممر ضيق دخلنا إلى منطقة التحصينات ؛ ولو كانت هناك حاميات متمركزة في هذه الحصون والأبراج لما كان دخولنا إلى هذه المنطقة أمراً سهلا . كانت الشمس قد غربت على قمم هذه الجروف قبل أن نصل إلى المنازل ، تلك الضاحية الطويلة من مطرح ، أو إن شئت فقل : مطرح بعينها ، والسبب في ذلك ، أن هذه الوديان والجروف تزدحم بالسكان إلى الحد الذي ، يصعب معه تعيين الحدود التي تفصل المناطق عن بعضها . وصفوف الأكواخ تمتد من منطقة إلى أخرى ؛ وهذه الصفوف هي التي تصل المناطق بعضها إلى بعض، وذلك على العكس تماما من الهجر التي سبق أن شاهدناها في كل من شومر ونجد. وما أن توقفنا هنا ، وبعد أن شاهدنا أمامنا منزلا جميل الشكل ، مبنياً من الحجر، ويشتمل على طابقين ، وله مدخل كبير ، استأذنّا وذهبنا لنقدم أنفسنا لأهل ذلك المنزل على أننا اثنان من الذين تحطمت

سفينتهما التى كانت متجهة إلى مسقط . ورأى صاحب المنزل ، الذى كان تاجرا ثريا ، فى الملابس التى كنا نرتديها ما يؤكد صدق أقوالنا ، ولذا بادر إلى إعطائنا الملجأ والمأوى الذى كنا نبحث عنه ، كما قدم لنا أولا عشاء جيدا ، تحدثنا بعده عن التجارة فى هذا المكان وأحواله الراهنة . وتجارة العبيد هنا تقوم على قدم وساق وهى فى أوج رواجها ؛ وبرغم أن تجارة العبيد هنا تعد شبه مشروعة مع أنها تشيع فى العالم كله ، برغم كل ذلك، فإن قرون وحيد القرن وجلوده، وكذلك العاج ، والأخشاب ذكية الرائحة ، يجرى إحضارها بصورة مستمرة من الساحل الأفريقى ؛ فى حين يجلب الناس من الهند تلك السلع والبضائع التى سبق أن أشرنا إليها عندما تكلمنا عن تجارة كل من الأحساء والبحرين، ولكن على نطاق كبير جدا . وفى مقابل ذلك يجرى تصدير الخيول ، والحمير ، والجمال ، والتمور ، والأسلحة ، والمشالح والسجاد ، واليام ، والنحاس الأحمر ، وخام الرصاص إلى أنحاء كثيرة . وكان مضيفنا يشعر بالقلق إزاء واحدة من سفنه التى كان يتوقع يوميا ، وصولها قادمة من بومباى ، وكان يخشى أن تكون العاصفة المميتة التى تقضى على كثير من السفن فى خليج عمان ، قد هبت أيضا على المحيط الهندى . والواقع أننا سمعنا بعد ذلك عن كثير من الخسائر التى حدثت فى ذلك المكان ، فى تلك الليلة .

وفى صباح اليوم التالى أستأذنا من مضيفنا ، ويممنا مسيرنا إلى بلدة مطرح نفسها . وإذا حكمنا على هذه البلدة من واقع ما كتبه نيبور عنها ، وأنها عبارة عن قرية قذرة صغيرة ، نجد أن هذه المدينة قد طرأ عليها كثير من التحسن خلال السنوات الأخيرة ؛ فهى تشتمل حاليا على صفوف كثيرة من المنازل ، وأن هذه الصفوف تتساوى من حيث الطول ، والانتظام ، ومن حيث التجميل أيضا مع صفوف المنازل فى الموانئ البحرية الإنجليزية – الهندية ؛ والسوق فى مدينة مطرح واسع وفسيح ، ولكنه يزدحم كثيرا جدا عن أسواق كل من الشارقة أو لينجا ، فى حين تنتشر من حول الخليج منازل التجار ، وربابنة البحر ، وأصحاب الأملاك الأثرياء والتى يطل بعضها مثل منازل مرسيليا على أرض مرتفعه ومفتوحة ، فى حين ينخفض البعض الآخر من هذه الصفوف نحو حافة الماء ، وتختلط بأكواخ البحارة ، والصيادين ، وأصحاب القوارب ، والزنوج وما إلى ذلك ، كما تتوغل إلى مسافة طويلة نحو الداخل . وأنا لا أستطيع القطع بالعدد الحقيقى لسكان مطرح ، ولكن من وجهة نظرى ، فهم لا يقلون عن خمس وعشرين ألف نسمة ، وقد يزيد عددهم عن ذلك . والميناء آمن ولكنه ضحل

إلى حد ما ، ولكنه تحيط به من الجانبين ، الأيمن والأيسر ، صخور بركانية عالية ، تقع على قممها أبراج الحراسة ؛ ولا يوجد فى هذه المنطقة ممر برى يؤدى إلى مسقط مباشرة ، وهذه ميزة كبير لهؤلاء البحارة كثيرى العدد الذين يدورون حول الرأس الشرقية التى تمتد إلى مسافة طويلة بين الميناءين وتفصل بينهما . وبينما كان يوسف وأنا نتجول في السوق ، وبينما كنا نشترى بعض السلع الغذائية وبعض الملابس (إذ أن مضيفنا فى الليلة السابقة ، قد أعطانا بعض الصدقات علاوة على تلك التى كنا قد حصلنا عليها من باطنة) ، التقينا حاكم المدينة ، ذلك الشاب الوسيم جدا ، الذى كان يرتدى الثياب البيضاء التى يشيع استعمالها فى هذه البلاد ، وكانت معه حراسة جيدة تماما ولكنهم جميعا كانوا من المشاة والراجلين . لم يكن هذا الرئيس ينتمى إلى العائلة الجعفرية ، أو إلى فرع ابن سعيد ، الذى لا يعد كثير العدد ، وإنما كان ينتمي إلى اليلقيين Yelek.s من أهل باطنة ، واليلقيين هم عشيرة عريقة من العشائر القحطانية .

ومطرح ، أكبر من مسقط ، من منطلق أنها سوق للمصنوعات الداخلية ؛ فمن يريد الحصول على مشلح عمانى الصنع ، أو خنجر عمانى الصنع ، أو سجادة عمانية الصنع لا يجد صعوبة فى الحصول عليها من مدينه مطرح . وفي يوم الإثنين من كل أسبوع ينعقد اجتماع عام للقادمين من الريف ومن القرى الداخلية ، ومعهم الفواكه والخضروات ، والبطاطا ، والباذنجان ، والشمام ، والقرع ، والمشمش ، والخوخ ، والمانجو ، أو إن شئت فقل فاكهة وخضروات الموسم . والمانجو الذى يزرع هنا من النوع الذى يطلق الهنود عليه اسم " الجنجلى " . كما يباع هنا أيضا وعلى نطاق واسع نوع كبير من المكسرات ، يصل طول الواحدة منه إلى بوصتين أو ثلاثة بوصات ، وهو مثلث الشكل ، وبنى اللون ؛ وأنا لم استطع التعرف عليه أو تحديد نوعه . والتمور ، فى عمان ، تجيئ فى المرتبة الثانية على قائمة المأكولات ؛ وجودتها أقل بكثير من جودة التمور النجدية أو تمور الأحساء . ومن هنا فإن العمانيين يستوردون كميات كبيرة من تمور الخلاص من منطقة الأحساء ، لتوضع على موائد الأغنياء فى عمان ضمن ترف وأبهة لا مثيل لها فى هذه البلاد . ومسقط تتفوق على مطرح فى تجارة المنسوجات الهندية والأرز الهندى .

وبعد أن شاهدنا ذلك الذى ينبغى أن نشاهده ، وبعد أن ابتعنا بعض الأشياء ، قصدنا شاطئ الخليج ، حيث يوجد العديد من القوارب ، التى يتكون كل واحد منها من

جذع شجرة تم تشكيله على شكل قارب ، بطريقة أنيقة ، وتجويفه أيضا من الداخل ، وجرى تشكيل مقدمته مثل مؤخرته تماما حتى يمكن التجديف منه في اتجاه الأمام أو الخلف ، شأنه في ذلك شأن الإسكفات[1] الشهيرة في مدينة أكسفورد ، وجاهز لنقل التجار وأصحاب الأعمال إلى مدينة مسقط . وهذه القوارب نظيفة من الداخل ومفروشة بحصير من النوع الخفيف، من النوع الشائع في الهند، الذي يسمونه فيها "التاتيز" Tatties . وأبحرنا في واحد من هذه القوارب ومعنا رجل فارسي ، واثنان من البنيانيين ، مع كل واحد منهم "شاتي" Chatti أصيله ، أو إن شئت فقل مظلة من تلك التي يستعملها أهل بومباي ، كما كان معنا أيضا حوالي أربعة أو خمسة مسافرين آخرين ؛ وكان المجدفان زنجيين .

وأنا هنا لابد أن اعترف بمسئوليتي عن ضعفي وترددي في إسلام أمري إلى البحر مرة ثانية ، حتى وإن كانت الرحلة قصيرة مثل تلك التي نحن بصددها هنا ؛ كان يبدو على يوسف بن خميس أنه لم يكن راضيا أيضا عن مثل هذه الرحلة البحرية القصيرة . وبرغم كل ذلك ، لم يكن لدينا سبيل آخر يوصلنا إلى مسقط غير هذا السبيل ؛ من هنا فقد أكملنا حمولة القارب وبدأ الزنجيان يجدفان إلى أن درنا حول الرأس الطويلة الأولى واتجهنا ناحية الشرق ؛ ومن خلف هذا الرأس الطويل شاهدنا خليجا صخريا صغيرا ، شيدت عليه بعض المنازل ؛ ثم شاهدنا بعد ذلك رعنا جرانيتيا أطول من تلك القمة الصخرية ، يمتد إلى مسافة طويلة داخل البحر . وتجاوزنا ذلك الرعن . ثم دخلنا بعد ذلك إلى ميناء مسقط مباشرة . كان الميناء مليئا بالحركة الملاحية ، ويعج بالقوارب والبَحارة ؛ وكانت في الميناء أيضا أربع فرقاطات معقولة الحجم ، ومسلحة بالمدافع ، والتحصينات ، ومجهزة ، تجهيزا أوربيا كاملا ، مما جعلني أحسب أنها سفنا أوربية خالصة ؛ ولكن علم ثويني الأحمر اللون ، ذلك البيرق السليل اليمني الأصيل ، الذي كان يرفرف فوق ساريات تلك الفرقاطات ، كان يدل على أن هذه السفن مملوكة للحكومة العمانية . وجدفنا إلى أن وصلنا إلى مكان قريب من النقطة الجمركية؛ ونظرا لأننا لم يكن معنا أية أمتعة، فقد أعفينا من كثير من الرسميات، علاوة أيضا على أن جوازات السفر لم تكن شيئا ضروريا في هذه المنطقة .

(١) الإسكف : بتسكين السين وكسر الكاف ، قارب صغير ذو مجاديف - (المترجم) .

وقد سبق أن وصفت كلا من مسقط ، أو مينائها ، وقلاعها ، ومبانيها ، على أقل تقدير ، وصفا مستفيضا فى كثير من المواضع . زد على ذلك أن كلا من نيبور ، وولستد Wolsted وآخرون قضوا فى هذه المنطقة أوقاتا طالت أو قصرت ؛ ناهيك عن البواخر الإنجليزية التى كانت تمر بهذا الميناء وهى فى طريق ذهابها وعودتها بين كل من بومباى ، والبصرة ، بمعدل مرتين فى الشهر الواحد ، برغم أنها كانت ترسو فى ميناء مسقط بضع ساعات قليلة . وأنا استميح القارئ عذرا بأن يعفينى من الدخول فى المزيد من التفاصيل الخاصة بالمكان ، نظرا لان اهتمامى بالدرجة الأولى ينصب على كل ما هو حى ، ويتحرك أكثر من المدن المبنية من الصخور والأحجار ، إضافه إلى تسجيل الأحداث (وهى ليست كثيرة) العامة المهمة التى وقعت لى هنا ، هى وتفاصيل تلك الرحلة الصغيرة التى قمت بها هنا فى المنطقة المحيطة بميناء مسقط .

وقد أسفر كرم أستار Astar ، ذلك التاجر الحساوى ، الذى استوطن مسقط منذ زمن طويل ، عن توفير المأوى والطعام والكساء لكل من يوسف بن خميس وأنا معه . وبقيت طيلة ثلاثة أيام متعبا وغير قادر على التحرك هنا أو هناك ؛ زد على ذلك أن انشغال مضيفنا هو وأصدقاؤه الذين كانوا يترددون على منزله ، لم يترك له متسعا من الوقت الذى يسمح لنا بالتحدث معه فى الأمور العامة . الأهم من ذلك أن أستار كان مسلما ، ولم يكن من حسن الحظ وهابيا ، وكان شهر رمضان قد حل على المسلمين ، الذين يصومون هذا الشهر ويبدو عليهم الوجوم خلاله ، أو إن شئت فقل : يغلب عليهم الصمت والسكون . وفى اليوم الرابع من وصولنا ، وبعد أن حصلت على رداء خارجى وقور أحمر اللون ومصنوع من القطن ، ومن الطراز العمانى ، وحزام كبير أبيض ، وعمامة ، وحذاء ، وعصا نباعية 'Nebaa ، نتوكأ عليها ، وتعد من مستلزمات الوقار والاحترام ، شرعت فى زيارة الأسواق ، والميناء ، والأماكن والأشياء الأخرى التى استرعت فضولى فى تلك المدينة . وخلال جولتى الأولى التقيت أحد معارفى القدامى من مدينه بومباى ، والذى قدم لى خدمات جليلة أثناء مقامى هنا ، برغم أن دوافع الحرص اضطرتنا أن نحافظ على قدر من السرية نستر به المقابلات التى كانت تجرى بيننا . ولو هيأت الفرصة لذلك الصديق الهندى مسألة الاطلاع على ما فى هذه الصفحات ، فانه قد يتأكد أن اعترافى بالجميل إنما هو محدود أيضا بتلك الإشارة الضمنية السريعة التى تمثل كل ما هو متاح لى فى مثل هذه المناسبة .

وسكان مسقط هم سكان أُصلٌ من شرقى بابل ، الذى يقوم فيه البانيانيون من غربى الهند ، بحكم كثرة عددهم ، بالدور الرئيسى فى مجال التجارة والمال . وفى مسقط أيضا ، هناك بعض التجار العمانيين الأثرياء أصحاب المشروعات التجارية الكبيرة ، وهم يتساوون مع التجار الهنود الذين جاءوا من كل من بومباى ومنجالور . وأغنى سكان هذه المدينة ، فى اعتقادى ، هو ذلك الرجل الذى يدعى سيف Seyf ، الذى شرفنى بمعرفته أثناء مقامى هنا . ومنزل هذا الرجل ، الذى يقع بالقرب من الشاطئ ، قد يبدو جميلا ، حتى عندما يكون فى بريش كاندى Breach-Candy أو ملبار بوينت Malabar - Point ؛ زد على ذلك ، أن مائدته الممتازة العامرة بما لذ وطاب تتفق تماما مع طراز منزله . وفى هذه المنطقة ، وبصورة أكبر من المناطق الساحلية الأخرى ، نجد أن المنازل من الداخل ، تتطبع بالذوق الفارسى ، فى معظم مكوناتها ، برغم أن أهل هذه البلاد يعتبرون الفرس أغرابا عليهم ، وهم لا يحظون بشعبية بين السكان ، والأكثر من ذلك أن حب الناس هنا للأزياء الأجنبية ، والأوبرا الأجنبية ، وكذلك الطهى الأجنبى والمطبوخات الاجنبيه يتزامن أيضا مع كراهية حقيقية من طراز كراهية جون بولش John Bullish ، للأعراق وللبلاد الأجنبية .

ومن حيث دماثة الخلق والتحضر بشكل عام ، ومن حيث جمال الأثاث وجمال الملبس ، فإن أهل مسقط يتفوقون بدرجة كبيرة على كل سكان الموانئ العربية الأخرى التى زرتها ؛ يضاف إلى ذلك أن أهل مسقط لا تنقصهم صراحة العرب وكرمهم الحاتمى ، برغم أن ذلك يكون مصحوبا بذلك التحفظ الطبيعى من قبل أناس اعتادوا رؤية الغرباء وألفوها إلى الحد الذى يجعلهم لا يستقبلونهم بمثل الحيوية أو الاهتمام اللذين يبديانهما أهل حائل أو أهل الرياض عندما يستقبلون الغرباء . ومع ذلك ، فمن العجيب أن نلاحظ كيف أن كل طبقة من الطبقات التى يتكون منها السكان – العمانيون ، العرب ، اللوثيانيون ، الفرس ، اليهود ، الهندوس ، تكوِّن جالية مستقلة ، يندر أن تختلط بها الجاليات الأخرى؛ وبرغم أن الاختلاط فى الأسواق يعد أمرا شائعا، إلا أن الحميمية المنزلية تعد شيئا نادرا . وأهل البحرين وحدهم ، والذين تكثر أعدادهم هنا ، هم الذين لديهم ذلك الامتياز المولِّد الذى يمكنهم من الاختلاط بجميع الطبقات ، فى حين أن طبيعة البحرانيين السلسة ، غير العرقية والتى لا تعرف التفرقة تسهل لهم الاتصال ببقية الطبقات ، فى حين نجد أن ضيق صدر الفرس ، وشذوذ الهنود ، وتعصب النجديين ، وانعزال اليهود لا يسمح لهم بالاتصال والاختلاط ببقية

الطبقات : وسكان مسقط ، يمكن أن نسميهم مالطيى الشرق ، ومع ذلك فهم أكثر أنسا ولطفا من سكان جزر البحر المتوسط ، وربما كانوا أكثر منهم أمانه وولاء ، والزنوج هم والقبيلة المولدة يشكلون خمس سكان المدينة ، ولكنهم يحتلون أدنى مراتب المجتمع ؛ يضاف إلى ذلك ، أن الإهانات الخاصة أو التعالى من أولئك الذين يحيطون بهذه الفئات لا تمنعهم من أن يكونوا أصحاب جاه أو مال ، وإنما الذى يحول بينهم وبين تحقيق ذلك هو الكسل والتواكل ، وعدم الكفاية والفسق والفجور . وهذا هو حال الزنوج الأحرار ؛ أما هؤلاء الذين يعيشون فى كنف أسيادهم ، فيتفوقون على إخوانهم الأحرار من جميع النواحى ، شأنهم فى ذلك شأن التلميذ المدرب عندما يتفوق على ابن الشوارع المتشرد المهلهل .

والدين فى مسقط مختلف الأنواع ومختلف النِّحل أيضا ؛ ولكن ، مبلغ ظنى ، أن العجل الذهبى ، يحصل فى مسقط ، على أكبر عدد من العبَّاد المخلصين ، عن أى معبود آخر مهما كان . وعلى كل حال ، ومنذ بداية الاحتلال الوهابى ، فقد أنشأ الوهابيون ثلاثة مساجد كبيرة ، كى يذهب إليها ويتعبد فيها أولئك الذين لديهم الوقت أو الميل إلى الصلاة خمس مرات فى اليوم . والذين يرعون أماكن العبادة الإسلامية هذه ، هم التجار المسلمون الذين جاءوا من مختلف نواحى الخليج الفارسى ، ومن البصرة ، ومن اليمن ، بل ومن نجد نفسها ثم استقروا فى مدينه مسقط ؛ ولكنى لم أر قط عمانيا أصيلا داخل جدران هذه المساجد[1] . والسكان السُّنة من أهل مسقط ، عن بكرة أبيها ، لا يزيد عددهم على عشر سكان هذا البلد ؛ والمذهب الشائع بينهم هو المذهب الشافعى برغم أن هناك بعض الوهابيين المتشددين الذين يتبعون المذهب الحنبلى . أما الفرس والبحارنة فهم يتمسكون بشعائرهم الشيعية ؛ غير أن "التقية" ، أو إن شئت فقل : ذلك الاتفاق الظاهرى مع أولئك الذين يختلف المرء معهم فى باطنه ، والتى يلجأ إليها الشيعة كلهم بما فيهم الدروز والإسماعيلية وكل إخوانهم ، لا من منطلق كون هذه التقية مسألة شرعية وإنما باعتبارها شيئا مرغوبا ومطلوبا ؛ هذه التقية تضفى على جزء كبير من هؤلاء الشيعة مظهر السنيين ؛ وهم فى أغلب الأحيان

(١) هذه مبالغة من المؤلف ، وكونه لم ير بنفسه ، فليس معنى ذلك أن أهل عمان لم يصلوا ، ولكنها عادة المؤلف دائماً فى الهجوم على الإسلام واللمز به على أنه عدو الناس، وأنه أمر ثقيل عليهم، يتمنون أو يجاهدون أنفسهم للفرار منه ، وهذا غير صحيح – (د. حلمى عبد المنعم) .

يقفون إلى جانب البياضية من الناحية الشكلية على أقل تقدير . ويجب علينا أن ندرج ضمن أهل السنة كلا من المواطنين الذين جاءوا من بلوخستان (البلوش) ، والمواطنين الذين جاءوا من بخارى ، وكذلك البلخ ومن المناطق المجاورة : والسبب في ذلك أن هؤلاء المواطنين كانوا أحنافا في بلادهم ، وتحولوا هنا إلى شافعية ، تمشيا مع أو مسايرة لأولئك التجار الأكثر منهم ثراء الذين جاءوا من البصرة ومن الغرب . من هنا فإن العنصر الإسلامي في مسقط ، بما في ذلك الشيعة والسنة أيضا لا يقل ، بحال من الأحوال ، عن خمس إجمالي السكان في هذه المدينة ؛ في حين يتكون الخمس الثاني من الهندوس ، والوثيانين ، والسيخ ، مع قليل من اليهود والبارسيين ؛ ولكن الأخماس الثلاثة الأخرى من البياضية ومن الزنوج .

وسوف يلاحظ القارئ من هذه الحقائق ، ذلك الذي يوحي به القياس ، قبل كل شئ ، وهو أن مسقط ، من بين جميع الأماكن الداخلة في دراسة عمان ، هي أبشع وأردأ هذه الأماكن كلها ، نظرا لأن نصفها من الدخلاء عليها ، كما أن الجزء المتبقى منها يقع تحت فعل التأثير اليومي لهؤلاء الدخلاء . والشخص العاقل لا يمكن أن يرسم صورة لفرنسا من زيارته لمدينة بولونيا Boulogne التي تقع على البحر ، أو يرسم صورة لإنجلترا من زيارته لمدينة سوثهامبتون Southhampton ، أو صورة للهند من زيارته لقلعة بومباي . ومع ذلك فان مسقط لا تعد عينه للقارة التي تنتمي إليها أكثر من الأماكن التي ذكرناها ؛ زد على ذلك ، أن من يعرف ذلك الميناء والمناطق القريبة منه ، ما يزال خارج أبواب عمان، وبوسعه أن يكوّن فكرة كاملة عما يدور خلف هذه الأبواب، سواء فيما يتعلق بالرجال أو الأشياء .

ومسقط يسكن فيها قنصل إنجليزي ، يبدو أنه يحيا حياة منعزلة وغير مريحة ؛ ويسكن فيها أيضا شخص أوربي آخر يعمل فيها وكيلا بحريا وهو أيضا يلقى مصيرا لا يحسد عليه . ومن المعروف أن عدن قريبه جدا من مسقط بشكل لا يجعل حكومة مسقط بلا مخاوف مؤكدة فيما يتعلق بالمخططات الأوربية المحتملة في هذا الساحل ؛ إضافه إلى أن إنجلترا ، دونا عن سائر أوربا كلها ، هي المصدر المحتمل للقلق . من هنا فإن الناس ، في مسقط ، ينظرون إلى الإنجليزي نظرة شك وارتياب ، الأمر الذي يضيق مجال الاحترام واللياقة ، ومع ذلك فهو لا يمنع المعاملات التجارية والمالية . زد على ذلك ، أن مناخ مسقط لا يناسب الأوربيين . ومع أن مدينه مسقط تقع على حافة المنطقة الاستوائية ، إلا أنها أكثر حرارة من المناطق الأخرى الأكثر قربا من خط الاستواء .

ويقال إن الصيف لا يطاق فى هذا البلد ؛ وأنا أشهد على أن مسقط فى شهر مارس تضارع بومباى من حيث الحرارة فى شهر أبريل بل وفي شهر مايو أيضا . ولا يقضى الصيف داخل هذه الدائرة من الصخور ، سوى أولئك الذين تضطرهم ظروفهم ، من بين هؤلاء السكان غير المتجانسين ، إلى القيام بالأعمال المالية والتجارية الملحة ، أو أولئك الذين يحتجزهم الفقر داخل هذه المدينة ، أو الزنوج الذين يجدون فى مناخ هذه المدينة تشابها لذيذا مع مناخ أفريقيا الحارقة التى جاءوا منها . وما أن يدخل شهر مايو ، حتى يعهد التاجر بمكتب حساباته إلى كاتب بانيانى ، ويواصل التاجر أعماله عن طريق المراسلات عن بعد ، كما أن الحكومة كلها هى وأعيان البلدة ، ومعهم الكثير من أصحاب المحلات والحرفيين ، ينطلقون تاركين المدينة خالية نسبيا إلى منازلهم الريفية العديدة التى أقاموها فوق مرتفعات سماعيل ، ونزوة ، وجبل أخضر ، تاركين مسقط مهجورة إلى أن يدخل أكتوبر حيث تعود إليها حياتها وبرادها من جديد . ويمكن للقارئ أن يأخذ فكرة عن الحرارة هنا فى شهرى يوليو وأغسطس ، من مسألة بيع المشمش الناضج (أول الفواكه التى شاهدتها أنا بنفسى هنا) فى أواخر شهر مارس ؛ هذا فى الوقت الذى أصر فيه أصدقائى العمانيين على تمديد إقامتى شهرا واحدا فقط كى أتمتع بالعنب الذى ينضج هنا فى النصف الثانى من شهر أبريل .

والتشابه بين ركنى الجزيرة العربية القصيين واضح تماما ؛ وهذان الركنان هما مسقط وعدن . فكلاهما عبارة عن مجموعة من الصخور البركانية ، التى ألقت بها إلى ساحل البحر بعض التقلبات القديمة التى حدثت فى جوف الأرض . وكلاهما أيضا عبارة عن فوهة بركان قديمة ومجوفة ، تحيط بها قمم سوداء تضرب إلى الحمرة ، وكلاهما أيضا عبارة عن صدع ، وهما أيضا عبارة عن جدران عمودية لجرف من الجروف . والحرارة فى هذين الركنين توحى للإنسان بأن اللهيب الذى انبثق من جوف الأرض وتسبب فى وجودهما ، قد انتقل منذ ذلك الحين إلى طبقه الهواء فوق هاتين المنطقتين. ومنظر هذين الركنين من ناحية البحر طارد وقحل وخال من الحياة النباتية ، وإذا كانت هذه القحوله أمر حقيقى وفعلى فى عدن فهى فى مسقط ظاهرية فقط ، إذ توجد خلف هذه الجروف أفضل أراضى الجزيرة العربية وأكثرها إنتاجا وخصوبة — ففيها البيارات ، والعيون الجارية ، والقرى كثيفة السكان ، والبساتين الخضراء . أما فيما يتعلق بمدينة مسقط نفسها ، فهى ليست مدينة صحية ؛ والواقع ، أننى عندما كنت فى هذه المدينة، كانت حمى التيفود تنتشر بين سكانها، مما جعلنى أصاب بهذه الحمى؛

كما أبلغني السكان أيضا أن الأوبئة التي من هذا القبيل يشيع انتشارها في مدينة مسقط . والتجارة وحدها هي التي تجذب الناس إلى مسقط والى مينائها الممتاز ، وهي أيضا التي تتسبب في زيادة الكثافة السكانية في هذه المدينة ؛ والتجارة هي أيضا التي تزيد من أهمية مسقط ؛ ولكن قرى الصيد الصغيرة ، كثيرة العدد التي تنتشر على الساحل ، تتفوق على مسقط في كل ما لا يتصل بالتجارة .

ومن بين الخصائص التي تنفرد بها مدينة مسقط ، من المنظور الأخلاقي ، أن شوارعها من النوع الآمن تماما ، وأيضا نظامها الشرطي الممتاز ؛ والمرء ، في هذه المدينة ، يستطيع أن يسير ليلا أو نهارا ، في حاراتها وأزقتها بلا حراسة ، ودون أن يتعرض لأي خطر من الأخطار ، برغم أن الخرائب المسوَّرة داخل محيط أسوار هذه المدينة الواسع ، قد تبدو مكانا مناسبا لإيواء الأشقياء واللصوص . واللصوص والأشقياء يندر وجودهم في مسقط ، كما أن عادة لبس الخنجر التي تشيع بين أهل مسقط ليس لها من هدف سوى الزينة والاستعراض . ولكن يستثنى من ذلك أن أهل مسقط إذا كانوا لا ينشلون كيس النقود فهم يعرفون كيف يفرغونه من محتواه ، والسبب في ذلك ، أن أهل مسقط مهرة تماما في المساومة وإبرام الصفقات .

وقله قليلة من مدن الجزيرة العربية ، بخلاف مسقط ، هي التي تكشف عن التغيرات التي تطرأ على الثروات . وبقايا الكنيسة الكبيرة ، التي تقف الآن داخل حدود منطقة القصر ، تعد شاهدا على الفترة التي قضاها البرتغاليون في هذه المنطقة ، كما تشهد أيضا على أن كثيرا من التحصينات التي تحرس الميناء والتي توجد على قمم المناطق المرتفعة المحيطة به ، وإنما يرجع تاريخها إلى الوجود البرتغالي في هذه المنطقة . هناك صفوف طويلة من المنازل الجيدة ، التي بدأ التحلل ينخر في عظامها ، وتشهد على الاحتلال الفارسي وعهد تقي الدين ؛ في حين تشهد الخانات الكثيرة وكتل الأبنيه التي تشبه الأديرة ، والتي أهملت ويبدو عليها الخراب والدمار ، على مقام البنيانيين ، واللوتيانيين ، والتجار الآخرين الذين من أصول هندية أو شبه هندية ، الذين حضروا إلى هذه المنطقة في عهد السلطان سعيد ، ثم بدءوا ينسحبون منها ويرحلون عنها في ظل الآثار التي ترتبت على التشدد الوهابي حينا ، وعلى إهمال ثويني حينا آخر ، وعلى الظلم الجائر الذي كان يمارسه بعض المرؤسين . ويبدو أن العصر الذهبي الذي شهدته مسقط هي وكل سكانها كان منذ حوالي عشرين أو ثلاثين عاما ؛

كما يبدو أيضا أن عدد سكان مسقط في تلك الفترة ، بما في ذلك الزنوج ، وبما كان يصل إلى ستين ألف نسمة أو أكثر . وعدد سكان مسقط ، خلال زيارتي لها ، كان يقدر بحوالي أربعين ألف نسمة كانوا يعيشون داخل المدينة نفسها : يضاف إلى ذلك أن الأكواخ المصنوعة من سعف النخيل وتحيط بمدينة مسقط تأوي عدة آلاف أيضا . والقيسارية الكبيرة ، ذلك المبنى الفخم الذي تعلوه خشخاشة ، والذي يضم عددا من الصفوف المقنطرة ، وعددا من الدكاكين والمحلات ، لا تقل عن مثيلاتها في كل من بومباي أو مدراس ؛ هذه القيسارية هجرها ثلث العاملين فيها تقريبا ، برغم أن الأسواق ، وأماكن البيع والشراء التي تحيط بهذه القيسارية ، والتي يعيش فيها عدد كبير من أصحاب المحلات والدكاكين العاديين ، وكذلك الأعمال التجارية الوضيعة والصغيرة ، ما تزال تزدحم بالسكان . وكان السلطان سعيد قد أدرك ، أن طاقة رعاياه المالية هي ومعاملاتهم التجارية ، لا يمكن أن تكون لها أهمية حقيقية إلا من خلال التعاون مع التجار الهنود وبقيادتهم ، ولذلك راح السلطان سعيد يبذل كل ما في وسعه كي يجذب البنيانيين من كل من كوتك Cutch ، وجوزيرات والكنكان إلى مدينة مسقط، وذلك عن طريق التسامح الكامل ، والحصانات الخاصة ، ورعايته الدائمة لهم ، مما حوّل الميناء إلى مستعمرة شبه هندية . يضاف إلى ذلك أن البنيانيين اثبتوا للحكومة العمانية أنهم محميون نافعون ، ومسالمون ، ومنتظمون في عملهم : إذ كانوا لا يتدخلون في شئون أحد من الناس ، ولا يسعون إلى أي شئ سوى ما يخصهم مباشرة ، ولم يكونوا فضوليين ، بل كانوا من النوع المؤدب ؛ وفوق كل ذلك ، كان هؤلاء البنيانيون في فنون القيود والحسابات أمهر من العرب ، مما جعلهم يجمعون ثروات طائلة في مسقط ويصبحون عبقريتها المفضلة . ولما كان هؤلاء البنيانيون قد طردوا من مسقط طوال سنوات الاستبداد ، أيام حكم الأميرين عبد العزيز وعبد الله ، فقد عادوا إلى الظهور في مسقط مرة أخرى بعد أن تخلصت من هذا النير الكريه ، وبدأوا يزدهرون أكثر من ذي قبل . ولكن منذ أن اعتلى ثويني العرش ، بل وقبل كل شئ ، منذ الحملة التي قادها عبد الله بن فيصل ، فإن شجرة ازدهار البنيانيين ، إن جاز لي أن أقترض هذا التشبيه الشرقي ، كانت قد توقفت عن النمو ، وتحولت مدينة مسقط إلى "ورقة صفراء ذاوية " ، برغم أن هذه المدينة مع قليل من الرعاية والحكمة يمكن أن تورق من جديد ، وتعود مرة أخرى إلى ربيعها السابق .

وفى اعتقادى أن القارئ لن يمانع فى أن أورد هنا قصة صغيرة حدثت لواحد من هؤلاء البنيانيين فى مدينة مسقط ؛ وقد سمعت هذه القصة من واحد من البياضية المحترمين ، كان يملك محلا فى القيسارية ، وقد حكى لى هذه القصة أثناء حديث دار بينى وبينه عندما كنت أشترى قطعة من قماش ألتنا Tanna ، بينما كنا نجلس سويا ونعلق على المارة . حكى لي بالح Bálih ، ذلك الصديق التاجر ، أنه خلال فترة الهيمنة النجدية ، التي أعقبت الغزو الذى قام به الأمير عبد الله بن فيصل ، كان يتمشى ذات يوم فى القيسارية ومعه ثلاثة أو أربعة من معارفه ، الذين كان من بينهم رجل وهابى متشدد كان قد وصل لتوه قادما من نجد . وأثناء مسير هذه الجماعة وصلوا النقطة أحد المحلات الذى كان يجلس أمامه رجل بنيانى فى مقتبل العمر ، كانت بدانته ، كما هو شائع بين الهندوس ، تنبئ عن ثروته ، كان مشغولا بسجل قيوده وحساباته . ولما كان النجدى غير متعود على رؤية أصحاب الأجسام البدينة أو منظر الهنود ، فقد وقف يحملق فى البنيانى ويطيل النظر إليه ، ثم قال لرفيقة بصوت عالٍ : "يا لها من كتلة تصلح لنار جهنم ! " كان البنيانى يعيش فى مسقط منذ فترة طويلة ، ولذلك كان يفهم العربية ويتكلمها ، ولكن على نحو متكسر كما هو الحال بين عامة الهندوس فى المدينة ، والذين يبدو أنهم لا يتسودون هذه اللغة مهما كانت الظروف . ورفع البنيانى رأسه ونظر إلى الوهابى ثم قال : " ولماذا ، كتلة تصلح لنار جهنم ؟" ورد عليه النجدى قائلا : " لأنك كافر " . ورد عليه البنيانى قائلا : " حقا ! ألهذا تظن أن كل من ليسوا وهابيين فهم كتل تصلح لنار جهنم ؟" ويرد عليه الوهابى بتوكيد لا يقبل الشك . ثم يرد الهندوسى ، دون أن يلقى بالا لغمزات بالح أو البياضية ، الذين كانوا يخشون أن يسفر الحديث عن نتيجة غير طيبة من جانب هذا المسلم الغاضب – " تقول أن هذا من قرآنكم ؛ تقول إن هذا من قرآنكم ؛ ولكن انتظر قليلا حتى أقول لك كيف ستسير الأمور فى يوم القيامة ، وأخبرك أيضا بالكتل التى تصلح لنار جهنم . هل لك أن تنصت وتستمع إلىَّ فى هدوء ؟" . قال البينانى ذلك ، فى الوقت الذى امتدت فيه يد النجدى إلى مقبض سيفه . وتدخل الواقفون لكى يمنعوا وقوع العنف ، فى حين واصل البنيانى حديثه بلغة عربية مكسرة ولكنها مفهومة من كل الحاضرين قائلا : " سوف أخبرك بما سيحدث يوم القيامة . سوف يجلس الله (سبحانه وتعالى) على عرشه ، وسوف يُحْضَرُ الخلق أمامه (سبحانه وتعالى) قبائلا وشعوبا ثم ينادى (سبحانه وتعالى) قائلا: "من هؤلاء ؟ " عندما تعرض عليه مجموعة من الوهابيين . ويُقال : "هم مسلمون".

ويرد الحَكَمُ (سبحانه وتعالى) قائلا : أتدرون ، بعضهم قتلة ، والبعض الأخر سلاَّبون ونهابون ، وبعض ثالث منهم لعن جيرانه ؛ وهذا سارق ، وذاك زانٍ : ألقوا المذنبين منهم في جهنم ؛ وإن تبقى بريئا منهم فادخلوه جنتي ، وبالطريقة نفسها سوف يجرى غربلة اليهود، والمسيحيين ، والبارسيين ، بل وكل الأجناس الأخرى ، كل سوف يُنْتَخَلُ بدوره ؛ ومنهم من سيدخل النار ، ومنهم من سيدخل الجنة . وفي الوقت ذاته سوف نجلس نحن البنيانيين على شكل مجموعة ، فوق تلة صغيرة على جانب من الجانبين دون أن نشغل أنفسنا بشئون غيرنا . وهنا سوف يرانا الله ، ويقول لأولئك الذين هم قريبون منه (سبحانه وتعالى) : "من هؤلاء الذين يجلسون وحدهم ويبدو عليهم الهدوء ؟" ويُقالُ له (سبحانه وتعالى) : "إنهم البنيانيون" . ويقول الحكم (سبحانه وتعالى) : "آه ! حسن ؛ يا لهؤلاء البنيانيين المساكين الذين لا حول لهم ولا قوة ! إنهم لم يَقْتُلُوا قط ، ولم يسلبوا أو ينهبوا ، ولم يسُبوا جيرانهم قط ؛ أدخلوهم جميعا الجنة - بلا حساب !" وهنا سوف ندخل ، وأنا معهم ، الجنة ، أما أنت ومن هم مثلك فسوف تنالون جزاءكم في ذلك اليوم" . وهاج النجدى وسبَّ ولعن ، وتجمع البياضية الذين كانوا في الشارع وضحكوا وصفقوا ، بينما استأنف البنياني حساباته التي كانت قد توقفت بسبب هذا الحديث .

وخال الثويني ، واسمه حسن ، إذا لم تخنى ذاكرتي ، يشغل منصب الحاكم المحلى في مدينه مسقط . وقد التقيته ذات يوم في واحد من شوارع المدينة - وهو رجل مسن ، يبدو عليه الوقار ، ولحيته بيضاء ، كما يلبس ملابس بيضاء أيضا ، وهو نحيف ومنحنٍ إلى حد ما بفعل السن ؛ وخنجره الذى صنع جرابه من الذهب هو وحده وبكل ما فيه من زينة ، الذى يوحى بمكانة هذا الرجل ، الذى كان يتجول سيرا على الأقدام وبصحبته بعض أفراد حاشيته وخدمه ؛ وكان الجميع يفسحون الطريق من أمامه ويُحيُّونه ، باحترام يصل إلى حد التقديس ، نظرا لأنه كانت له سلطة دينية عجيبة بين البياضية في هذه البلاد . والثويني يزور مسقط طبقا لظروف المال والأعمال أو حسب ما يصور له خياله ، ولكنه غالبا ما يقيم في منزل من منازله الموجودة في سيب ، أو برقا ، أو نزوة . والقنصل الإنجليزى الذى يتخذ من مسقط مقرا له ، من المقرر له أن يكون شغله الشاغل هو منع تجارة الرقيق ، ولكن المهام الخيرية التي تقوم بها بلادنا هنا لم تلق سوى القليل مع النجاح ؛ وعلى كل حال ، فإن سوق العبيد قد انتقل ، على سبيل الأدب والاحترام ، من مسقط إلى مدينة مطرح ، التي تفي بالغرض نفسه .

ويقام كل يوم خارج مدينه مسقط ، وبالقرب من بوابتها الجنوبية سوق عامة ، شاهدت فيها ، من بين الأدوات العمانية الصنع والأدوات فارسية الصنع ، كثيرا من الصناديق المصنوعة من الخشب الأسود والبضائع الهندية الأخرى التى كانت معروضة للبيع عن طريق المزايدة . وذات مساء وبينما كنت أتجول بين صفوف دكاكين السوق ، بحثا عن خنجر أكثر أناقة من ذلك الذى كنت أزين به وسطي ، التقيت برفاقنا القدامى فى السفينة ، الربان ومعه اثنان من طاقم السفينة ، الذين كانوا يرتدون ملابس جيدة وفى روح معنوية عالية ، بعد أن حصلا من السلطان على ما يكفى لتعويض خسارتهم الفادحة ؛ كانوا على وشك أن يعودوا إلى السُّويق ، ليبدأوا من جديد العمل فى حياة البحر بكل مكاسبها وأخطارها ؛ ولكني على ثقة أن ذلك سيكون فى ظل رعاية وعناية أفضل .

وبعد أن أمضيت حوالى أسبوع فى مسقط بدأت أفكر جديا أنا ويوسف فيما ينبغى أن نفعله بعد ذلك . ولكن صديقى كانت لديه فكرة واحدة فقط ، هى كيف يعود ، على وجه السرعة ، إلى عمه فى أبى شهر ؛ فالرحلة لم تعد بعد جذابة ، لا من ناحية الفائدة أو المتعة ؛ فى حين أن حادث تحطم المركب والمصاعب التى ترتبت على ذلك جعلته يبدو كما لو كان أكبر من عمره بعشر سنوات . أما أنا فقد بدأت أحس أننا فعلاً قاسينا بما فيه الكفاية ، وأننا ينبغى أن نترك الباقى للظروف المستقبلية ؛ وهذا هو ما ينبغى أن نفعله ، نظرا لأن مجرد العودة إلى بغداد ثم منها إلى سوريا ، تعد مسألة طويلة تماما ، وبخاصة أن فصل الصيف أوشك على الدخول . زد على ذلك ، أننى كان يتملكنى إحساس غامض بالإرهاق والروح المعنوية المتدنية ، ولا أستطيع تحديد أسبابه ، إلا أننى فى واقع الأمر كنت أدرك أن ذلك هو "فترة الحضانة" (إن جاز لى أن استعمل المصطلح الطبى هنا) التى تسبق حمى التيفود اللعينة ، التى كانت تحوم حولى ، وجعلتنى أكثر رفضا للقيام بالمزيد من الرحلات . أخيرا ، فإن كل الاقتراحات التى عرضتها للقيام برحلة إلى مدينة باهلة ، أو حتى إلى صور لم تحظ سوى برد واحد لا رجعة فيه ، وهو الرفض القاطع من جانب ابن خميس ، والأكثر من ذلك أنه رفض حتى أن يتحرك حتى ولو لخطوة واحدة خارج المدينة . وعلى الجانب الآخر ، كان ابن خميس دائم السؤال والبحث عن سفينة متجهة إلى أبى شهر ، ولكن ريح الشمال كانت عنيفة ومستمرة ، بل كانت تبدو وكأنها ستظل على هذا الحال إلى ما بعد ظهور القمر ، أى فى الحادى والعشرين أو الثانى والعشرين من الشهر .

ولم يتبق لنا عندئذ سوى الصبر المشوب بالقلق ؛ وهنا بدأت أحس بكل القلق في مسقط . ومدينة مسقط ، شأنها شأن عدن ، تعد سجنا إلى حد ما من الناحية البدنية ومن الناحية المعنوية . فهي يحدها البحر من أمامها ، وتحيط بها من الخلف ومن الأجناب أيضا سلسلة من القمم الصخرية شديدة الصلابة ، ومناخ مدينة مسقط من النوع الخانق ، ووسط سكان اقترضوا واستعادوا الكثير من كل شئ إلى أن أصبحوا هم أنفسهم لا شيئ ؛ من هنا فإن الغريب الذي لا تكون له مصلحة مالية أو تجارية ، أو هدف معين ، قد يشعر بالقلق والضيق بعد أن يمضي عشرة أيام خلف بوابات هذه المدينة . وتمضية للوقت كنت أقوم كل يوم برحلة سيرا على الأقدام تستمر ساعة أو ساعتين أقضيهما خارج أسوار المدينة ، أزور خلالهما الضواحي ؛ والقرى الصغيرة الضائعة وسط مناظر الصخور ، إلى أن جعلتني المصادفة البحتة أتوغل داخل المنطقة الريفية ، إلى مسافة أبعد من تلك التي كنت أنوي الوصول إليها ، بسبب حمى التيفود التي أوشكت أن تصيبني . وقد حدث ذلك على النحو التالي .

في اليوم العشرين من شهر مارس كنت قد قمت برحله مبكرة ، غادرت خلالها المدينة عن طريق البوابة الجنوبية ، ورحت أتجول ببطئ بين البساتين والآبار التي كانت على جانب الطريق ، الذي كانت صخوره تحجب الرؤية ناحية اليمن وناحية اليسار ، وفجأة التقيت ثلاثة رجال ، أوحت لي ملابسهم القصيرة التي تشبه الكلتية[1] ، هي وأحزمتهم الجلدية ، والتروس الصغيرة المستديرة التي كانوا يعلقونها على ظهورهم ، بأنهم ربما يكونوا من قطاع الطرق ، لولا أن الشال الأبيض الذي كان يلفه كل واحد منهم حول رأسه ، ولولا أيضا خصل الشعر الطويلة التي كانت تتدلى على جانبي وجوههم حلوة القسمات . كانت مقابض خناجر هؤلاء الرجال مزينة بنقوش فضية جميلة، فيما عدا خنجر واحد كان مزينا بالذهب وله مقبض مصنوع من ظلف الزراف، ولونه بلون الكهرمان الغامق .

وحيا كل منا الآخر ؛ ولكن حامل الخنجر المذَهَّب نظر إليَّ نظرة فاحصة ولكنها كانت توحي بالطيبة وحسن النية ، وسألني من أين جئت وإلى أين أنا ذاهب . وعندما أجبته بأنني جئت من مدينة مسقط ، وأنني كنت أقوم بمجرد تمشية صباحية ،

(١) الكلتية : تنورة ذات ثنيات طولية يرتديها الرجال في إسكتلنده وأفراد الفرق الاسكتلندية في الجيش البريطاني – (المترجم) .

دخل معى فى حديث ، اكتشفت منه أنهم جميعا يعملون فى خدمة رئيس اليعاربة ، الذى يقيم فى مدينة زاقى فى جبل أخضر : وأبلغنى الرجل أنهم كانوا فى مسقط فى أمر يخص رئيسهم ، وأنهم عائدون الآن إلى منطقة زاقى . ودعانى ذلك الرجل الذى تحدث معى أول مره ، وكان اسمه زوحام Zoh.am إلى مرافقتهم فى طريق عودتهم ؛ وقال الرجل ، إن الحراسة جميلة ، والطريق عامر بالقرى وأماكن التوقف لنيل قسط من الراحة . وقد حرضتنى رغبتى على تعلم شيئ من حديثهم ، على قبول الدعوة ، رغم أننى انتويت ألا أتجاوز أول قرية نصل إليها ؛ والسبب فى ذلك أننى كنت قد تخليت عن فكرة القيام بزيارة للمناطق الداخلية . كان معارفى الجدد ، مثلى تماما ، من المشاة ؛ ومع أن فترة الصباح كانت حارة إلى حد ما ، إلا أنها كانت مقبولة بفضل نسيم الشمال .

وعلى امتداد ساعتين تقريبا كان طريقنا يمر عبر تلال وعرة تحيط بمدينة مسقط من ناحية البر ، إلى أن تجاوزنا القلاع المهجورة الموجودة اعلى هذه التلال ، وبدأنا نهبط عن طريق ممر ضيق إلى الأرض المستوية الموجودة ناحية الجنوب . كانت الأرض التى أمامنا والمناظر الطبيعية تستحق أن يقوم برسمها فنان من الدرجة الأولى . فقد كانت توجد أمامنا مباشرة صخور داكنة ومدببة ، بنيت على قممها ، حصون بيضاء وأسوار تتخللها مزاغل لترسم بذلك صورة من صور التحدى والفحولة ؛ يلى ذلك ، سهل أخضر كبير ، كان يفترش أرض ذلك الصدع ، وتتخلله بيارات كثيرة تنتشر وسط تموجاته الرملية ؛ كما كانت تنتشر فى هذا السهل أيضا المنازل ، أو الكبائن المصنوعة من سعف النخيل ، والتى تنتشر على شكل مجموعات صغيرة كما هو الحال فى عمان ، وبلا أية أسوار أو أية شكليات دفاعية أخرى . ومن خلف ذلك الصدع ، وفى اتجاه الشمال ، والغرب والجنوب كانت هناك سلسلة جبال جبل أخضر – يغلب عليها اللون الأخضر الغامق الذى يذوى متحولا إلى اللون الأزرق ؛ كانت مجموعة الجبال الأولى والمنخفضة تبدو قريبة ؛ ولكن رفاقى أكدوا لى أن المسافة بين مسقط وزاقى ، تلك القرية التى تقع بالقرب من أعلى جزء فى جبل أخضر ، تحتاج إلى مسير ثلاثة أيام ؛ أى أن المسافة إذا ما كانت على شكل خط مستقيم تقدر بحوالى أربعين ميلا . كانت مدينة البشير ، التى تقع إلى اليسار قليلا ، تبعد عنا مسير ساعتين تقريبا ؛ كانت تلك القرية تبدو لنا كما لو كانت مجموعة من الأسقف الداكنة التى يحيط بها سور دائرى منخفض ؛ ولم يبرز من بين منازل هذه القرية حصن أو قلعة . ونظرا لأن

قمم الجبال المقابلة لنا عن بعد تتفق مع ذلك الذى يوقعونه على الخرائط تحت اسم "جبل هوذر" و"جبل فلاه" فقد سألت رفاقى عن هذين الاسمين ولكن أحدا لم يعرفهما ؛ والمصطلح الوحيد الذى أقره هؤلاء الرفاق هو أخضر ، اللهم باستثناء بعض الحالات التى تجرى فيها تعيين مكان بعينه ، من هذه الجبال ، عن طريق نسبته إلى أقرب المدن إليه ، كما هو الحال عندما يقولون :" جبل نزوة " أو " جبل صامد " .

وواصلنا المسير فى طريقنا بين أشجار السنط وأشجار المانجو ، فى حين كنا نصادف كل عشر دقائق مجموعة من الفلاحين الذين يركبون الحمير ، وبعض الناس الذين كانوا يركبون إبل الذلول ، ومجموعات أخرى من البشر الراجلين مثلنا . كان السواد الأعظم من عابرى السبيل عزلا من السلاح ، وكان البعض منهم يحمل السهم القصير الذى يشبه الرمح ، الذى لم تعد نجد تستعمله بعد ، ويحمل ترسا مستديرا ، أو إن شئت فقل "يلب" Yeleb، مصنوع من الجلد المشدود على إطار من الخشب ومثبت فيه رؤوس معدنية . ولم أر من الأسلحة النارية فى عمان ، إلا قليلا ، إذ لم يكن يحمل هذه الأسلحة سوى البلوش ، الحراس وما إلى ذلك ؛ والحرب هنا تعد حدثا نادرا ، وليست تجارة ؛ زد على ذلك ، أن سكان الداخل يندر أن يتصلوا بالقبائل الأخرى أو حتى بالناس اللهم إلا إذا كانت هذه الاتصالات سلمية وعن طريق التجارة . كان طريقنا يمر من حين لآخر ببعض المجارى المائية الصغيرة ، التى ما تزال جارية والمقدر لها أن تجف خلال أسابيع قليلة أو شهور ؛ أما عن الآبار فقد كانت كثيرة ، إضافة إلى أننا كنا نصادف من حين لآخر بعض خزانات المياه المحاطة بالأحجار أو الجص ، والمملوءة بالماء . ولعل القارئ يذكر أننا كنا فى أواخر موسم الأمطار فى عمان وهذا بالضبط هو الوقت الذى تصل الرطوبة فيه إلى أقصى مدى لها فى هذه البلاد ؛ وفى الصيف والخريف تجف الأرض إلى حد ما . والحقول هنا تتمايل بمحصول واحد يجنيه الناس هنا قبل شهر من أوانه فى الأماكن الأخرى ، فى حين ينضج الباذنجان ، والقرع ، والشمام وما إلى ذلك قبل أوانه بوقت طويل ، وقبل نضوج هذه الحاصلات فى الأحساء بوقت طويل . ومع ذلك ما تزال أراضى هذه المنطقة أقل خصوبة من أراضى باطنة ؛ وتدخل ضمن الأرض الزراعية هنا نسبة من أراضى المراعى المخصصة لرعى الأغنام ، والثيران ، والإبل . والزراعة فى هذا الجزء تجرى فى مناطق متفرقة ، وغالبا ما تكون الأراضى الزراعية قريبة بالقرب من إحدى القرى أو أحد الكفور . والهواء هنا منعش والمناخ صحى . وسكان هذه المنطقة من النوع الشهم الصريح ،

وهم أقل تحضرا من أهل باطنة؛ وبشرة السكان هنا داكنة ، وقامتهم متوسطة الطول ، وسيقانهم متناسقة ؛ وهم بشكل عام ، يجوز أن نقارنهم بأفضل سلالات العرق المهراتي Mahratta ، ومع ذلك يظل العرق العمانى هو الأفضل ، الذى يتميز بقوة بدنية وقدرة على التحمل تفوق قوة وقدرة العرق الهندى .

ومع دخول وقت العصر كنا قد وصلنا إلى البشير ، تلك القرية الكبيرة التى أنشئ معظمها من الخشب والقش ؛ وشوارع هذه القرية واسعة ، ونظيفة وغير منتظمة ؛ والقرية يحيط بها سور مبنى من اللبن ، يفصل المنازل عن البساتين ؛ وينعقد كل أسبوع ، خارج أسوار هذه القرية ، سوق يشغل مساحة واسعة فى ما بين المزارع . وعلى بعد أميال قليلة فى اتجاه الجنوب توجد واحدة من مناطق صناعة الفخار فى عُمان : والأوانى الفخارية التى يجرى صنعها فى هذه المنطقة تميل إلى الابيضاض ، وتشبه إلى حد ما ذلك الذى نطلق عليه اسم "الحجر" من بين الأباريق والأطباق الكبيرة؛ وهذا النوع من الخزف صلب جدا ولا يسمح بتسرب الماء وهم يطلونه فى بعض الأحيان بطبقة من الجليز . ولا توجد مصانع أخرى للخزف فى الجزيرة العربية كلها على امتدادها فى المنطقة ما بين الجوف وعمان ، والمنطقة ما بين عُمان وشومر ، ونجد والأحساء أيضا لا توجد فيها هذه الصناعة نظرا لعدم وجود المادة الخام اللازمة لهذه الصناعة ؛ وأوانى المطبخ هى والأوانى المنزلية تصنع من الخشب أو المعدن فى كل من نجد والأحساء . وعمان هى المنطقة الوحيدة التى نرى فيها الأدوات الفخارية تستعمل كل يوم ، برغم أن الأوانى المعدنية يشيع استعمالها أيضا فى هذه البلاد ، نظرا لأن الإهمال فى البيوت العربية يؤدى إلى تكسير الكثير من هذه الأوانى الخزفية أو الفخارية ، ومن ثم يستوجب الحرص فى الإنفاق المنزلى .

وفى قرية البشير بحث رفاقى عن منزل صديق لهم ، وعثروا عليه واصطحبونى إليه معهم . كان منزل مضيفنا ، واسمه عقيل الجعفرى ، يقع بالقرب من سور القرية ؛ وكان هناك بستان بالقرب من هذا المنزل ، فرش الناس الحصير والسجاد على أرضه بالقرب من خزان الماء الصغير ، فى ظلال بعض أشجار العُنَّاب ، وأمضينا ساعات العصر الحارة بطريقة ممتعة ، وانضم إلينا شقيق المضيف الأصغر منه سناكى يشاركنا شرب القهوة وتدخين النرجيلة ؛ ووضعوا أمامنا فى الوقت نفسه كمية من المشمش شديد الاخضرار، وبعضاً من الخيار، والنبق واليام النزوى (نسبة إلى مدينة نزوة)

انتظارا لتجهيز العشاء . ولو قدر لي أن أكون بحالة صحية طيبة لكنت قد تمتعت تماما بصحبة هذا المجتمع الأسرى ؛ إذ لم أكن أتصور مطلقا أن الناس هنا على هذا القدر من الود وحلاوة المعشر . ولكني كنت قد هدني المسير ، وكنت أميل إلى النوم أكثر من التسامر ؛ ولذلك وبعد أن دخنت نرجيلتين ، قبلت العرض الذى قدمه لى عقيل ، وكان عبارة عن سجادة عمانية حمراء اللون ومخدة ، ورحت فى النوم لحين غروب الشمس ، فى حين قام أصدقاؤنا ، بدافع من الأدب ، بالانتقال إلى مكان آخر من البستان كى يهيئوا لى جوا من الهدوء والراحة .

وأخير وصل واحد من الشباب وأيقظني لتناول العشاء . كانت أطباق العشاء كثيرة ومتنوعة ، وزاخرة بالشعيرية ، إضافة إلى بعض الأصناف المعروفة للقراء السوريين ، كما كانت هناك أيضا أطباق من " الكشك " الذى هو هنا نوع من المهلبية المعطرة بماء الورد كي يضفي عليها نكهة طيبة وهو ليس من الأطعمة المكروهة بأى حال من الأحوال . وكان إبريق ماء غسيل الأيدى وكذلك الأوانى المخصصة لذلك مصنوعة من النحاس الأحمر وذات أشكال وطرز جميلة . والناس هنا لا يبدءون تناول الطعام بالبسملة، إضافة إلى أنهم هنا لم يصلوا عند دخول وقت الصلاة أو حتى بعده؛ إذ كان جميع الحاضرين من البياضية ؛ والقرية كلها لم يكن فيها مسجد أو مصلى . وعندما دخل الليل ، قال رفاقى من زاقى إنهم ينوون القيام بزيارة ودية لرئيس المكان ، ووافقت بقيه الجماعة على مرافقتهم أثناء هذه الزيارة ، وبناء على ذلك ، غسلنا أيدينا ، وسرنا على شكل وفد إلى مقر إقامة صاحب السعادة ، الذى كان يقيم فى منزل منخفض مبني من الحجر ، هو في معظمه منزل وليس قلعة ، ولكنه كان منزلا فسيحا . وفى قهوة ذلك المنزل التى كانت تتسع لما لا يقل عن ستين فردا ، وكان يجلس صاحب السعادة (يؤسفنى أننى نسيت اسمه) ، الذى كان رجلا فى مقتبل العمر ، ويلبس ثوبا من القطن الأحمر الوطني ، ومن فوق الثوب مشلح خفيف مصنوع محليا أيضا ، وكانت تزين رأسه عمامة بنغالية، فى حين كان يزين وسطه خنجر له مقبض من الذهب. وكان يجلس ، من حول صاحب السعادة ، أعيان قرية البشير ، والعديد من الزنوج ، الذين ينتمى بعضهم إلى العاملين فى منزله ، وكان بعضهم الآخر ضيوفا عليه ، واستقبلنا الرئيس باحترام بالغ يليق بهذه المناسبة ، كما اهتم كثيرا بأصدقائنا من قرية زاقى ، من أجل عيون رئيس قريتهم . أما فيما يتعلق بى شخصيا ، فإن صفتى كطبيب بلا أدوية ، وبلا مشرط ، وبلا شهادة أيضا ، أكسبتنى مقعدا إلى جانب هذا

الرجل العظيم ، الذى فحصت له نبضه بدقة بالغة ، وقدمت له النصيحة التى تخلصه من "أبى صفار" Biliousness ، إن جاز لى أن استعمل المصطلح الذى قاله لى ، والذى لم يكن أكثر من مجرد روماتيزم مزمن عندما استجليت حقائق الأمر . وقدموا لنا بدلا من القهوة مشروبا من القرفة ، ودار الحديث بيننا بسهولة ويسر ، وفى أدب يليق بالمجتمع الشرقى الجيد ، دون أن يختلط ذلك الحديث بالانفعال أو التهور الذى قد يحدث بين الحين والآخر ، فى بعض البلدان الأخرى ، مثلما يسود الصمت الزائد عن الحد فى بعض البلدان الأخرى . ومن وجهة نظرى فإن الشرقيين يتفوقون فى فن الحديث على الغرب ؛ وربما يكون ذلك ناشئا عن أن الحديث هو الوسيلة الوحيدة هنا لنقل الأخبار وللتواصل فى بلاد لا تعرف الصحف أو النشرات .

ورئيس قرية البشير هو وقريته يعتمدون على مسقط ، التى تعد المدينة الرئيسة فى هذه المنطقة . ولكن واقع الأمر هو أن هذه القرية هى ورئيسها وكذلك الرؤساء المحليين الآخرين يعتمدون على أنفسهم بالدرجة الأولى أكثر من اعتمادهم على أى إنسان آخر؛ وعندما شاهدت إطلاق أيدى هؤلاء الرؤساء فى المناقشات التى كانت تدور بينهم وبين السلطان ، وضباطه ، وأوامره المحلية ، وعندما وقفت على مدى التدخل الطفيف من قبل الحكومة المركزية فى شئون هؤلاء الرؤساء المحليين ، ذكرنى كل ذلك بالأيام الخوالى " التى لم يكن فيها ملك لإسرائيل " ، كما ذكرنى بأشياء أخرى كثيرة . والواقع أن سلطة الحياة والموت ليست فى أيدى رؤساء القرى ، ولكن فيما عدا ذلك فإن هؤلاء الرؤساء أقرب ما يكونون إلى الحكام المطلقين ، برغم أن ذلك يتم بطريقة مألوفة وبالتعاون مع المجالس المحلية . زد على ذلك أن الضرائب التى تفرضها الحكومة هم الذين يجبونها ، بطريقتهم الخاصة ، ويجرى إرسالها بعد ذلك إلى الحكومة المركزية ، ويندر أن تتساءل مسقط عن الزيادة أو النقص فى المبالغ التى يجرى إرسالها إليها . وفى مقابل ذلك ، فإن الجميع يلتفون حول الثوينى ، الذى له حزب قوى هنا ، وجاهز للدفاع عنه والحرب إلى جانبه إذا دعى الداعى ؛ وخلاصة القول هى أن الشعب هنا سلس وسهل الانقياد ، فى ظل رؤساء سلسين أيضا ، وعلى رأس الجميع سلطان سلس أيضا ، والكل هنا قانع وراض بما قسم له فى هذه الدنيا ، إلا فيما يتعلق بالآخرة فهم يميلون إلى "عدم التفكير فيها" ، وذلك إذ ما قارناهم بجيرانهم الوهابيين .

ويمضى الليل وتُثَارَ القهوة بواسطة نجفة بها خمس لمبات مستقلة من البرونز جرى وضعها فى وسط القهوة ، إضافة إلى وسيلة إضاءة صغيرة أخرى كانت موضوعة فى جزء غائر من الجدار عند أقصى القهوة . وكان الشئ المميز فى ذلك الاجتماع ،

عبارة عن رقصة ، أعجبتنى جدا ، لأننى سمعت الكثير عن مثل هذه العروض فى عمان ولكنى لم أشاهد أيا منها قط . وفى هذه المناسبة ، وبينما كان يجرى توزيع الفستق على جميع الحاضرين ، ظهر عشرون من الرجال ، ملابسهم مصبوغة بلون الزعفران ، وشعرهم من النوع الطويل المسترسل ، فى حين كان كل منهم يحمل سيفا أو خنجرا فى يده . وبعد أن دخل هؤلاء الرجال إلى القهوة انقسموا إلى جماعتين قوام كل منهما عشرة أفراد ، وبدءوا يقومون بسلسلة من الابتكارات الجميلة جدا ، التى كانت إلى حد ما خليطا من معركة هيكلية والرقصة التقابلية ، يقومون خلالها بطعن أهدافهم وبث الحياة والنشاط المحموم داخل أجسادهم . وتلت ذلك الأغانى النبطية ، التى ذهب كل منا بعدها لحال سبيله .

وفى صباح اليوم التالى استأنف أصدقائى مسيرهم إلى قرية زاقى ، وتمنوا لو أنهم أخذونى معهم، ولكنى كنت أحس بعدم مقدرتى على مواصلة رحلة من هذا القبيل. وعندما استشعر مضيفنا عقيل عدم قدرتى وضعفى ، عرض علىّ أن يحضر لى حمارا أركبه إلى الكاملى Kamlee ، وان يرافقنى فى هذه الرحلة صبى من أهل قرية بشير . وبينما كنا نسير فى طريقنا عبر السهل المتموج ، الذى تتخلله البيارات الصغيرة ، والذى يشبه ، إلى حد ما ، بعض مناطق الدكّان Deccan ، فى المنطقة المجاورة لـ – بونا Poonah ؛ وبعد ثلاث ساعات وصلنا إلى تلال الصخور الساحلية ، وسرنا خلال ممراتها فى وهج وحرارة شمس شهر مارس التى تضارع شمس وحرارة شهر يوليو فى سوريا ، فقد كانت أشعه الشمس حارقة ، وتنعكس لترتد إلينا بفعل الصخور العارية التى كانت تحيط بنا من كل جانب؛ زد على ذلك ، أن حالتى المرضية ، التى حاولت إخفاءها عن نفسى جعلت الحرارة أقسى مما أستطيع تحمله . كانت الصخور بأشكالها الخيالية من فوقنا ، ومن حولنا ، وكانت حادة مثل السكاكين ومجوفة مثل الرماح ، مما كان يشكل إطارا عجيبا لتلك الأرض الخصبة المحصورة بين هذه الجبال . وأخيرا تجاوزنا تلك الحافة التى تشبه المكلا واتجهنا صوب البحر ، ثم وصلنا مع دخول وقت الظهر إلى تلك القرية الصغيرة ، نظرا لأن قرية الكاملى لا تعدو أن تكون كذلك، أو إن شئت فقل أن قرية الكاملى ليست سوى ميناء من موانئ الصيد ، فضلا عن إنها تعد أيضا ضاحية من ضواحى مدينه مسقط ، برغم أنها لا ترى مدينة مسقط نظرا لوجود ذلك الرُّعن الطويل الذى يشكل الطرف الشرقى لميناء مسقط الكبير . وعندما وصلت الكاملى لم أعد أقوى على تحمل أى شيئ ، وعندما شاهدت اثنين من

الزنوج وهما يسحبان الماء من بئر قريب من القرية ، تحممت تحمما عارضا بأن طلبت إليهما أن يسكبا فوقي ملء دلوين من الماء وأنا واقف بجوار البئر ؛ وقد تسبب هذا التحمم في إنعاشي بدرجة كبيرة في تلك اللحظة ، رغم أني لم أكن أعرف أن كان ذلك صحيحا أم لا . وهنا ودعت الصبي القروي الصغير الذي كان يسليني طوال الطريق بحديثه العذب ، وسرت على قدمي وحيدا مدة ساعة كاملة ، دست خلالها في بعض الأحيان ، على الشاطئ المليئ بالقواقع ، وسرت في أحيان أخرى خلف الصخور ، والرُّعُن الجبلية المدببة ، إلى أن عدت إلى مسقط مرة ثانية وذهبت إلى منزل أستار Astar ، كان يوسف بن خميس، قد اتفق أثناء غيابي ، مع أحد ربابنة السفن الكويتية ، والذي تحدد موعد إبحار سفينته ، مع بداية الريح المرسلة والمواتية ، والذي عرض أن ينقلنا إلى أبي شهر ، ورفض أن يحصل على أية أتعاب مقابل سفرنا معه ، مشيرا أن من الخطأ أن يتقاضى الإنسان أتعابا من أناس ، تحطمت سفينتهم منذ وقت قريب .

ولكن قبل أن نشق طريقنا إلى ظهر هذه السفينة القطرية Cutter، يهمني أن أعطي القارئ شيئا من التفاصيل الختامية الخاصة بسكان عمان وأحوالها الداخلية – وقد حصلت على هذه التفاصيل من الرجال الذين كانوا متجهين إلى قرية زاقي والذين سبقت الإشارة إليهم ، ومن بعض المصادر المحلية الأخرى . وأنا أورد هذه التفاصيل دون أن أشفعها بذلك التأكيد الموضوعي الذي ينبثق عن الملاحظة الشخصية ؛ وعلى كل حال ، فإن طبيعة الرواة الحقيقية التي لا مراء فيها ، والذين هم من أبناء الأرض التي وصفوها ، إضافة إلى ما رأيته أنا بنفسي من هذا البلد عندما كنت أسير على سواحله في المنطقة من رأس مسندم إلى برقا ، أو عندما كنت أسير على اليابسة في منطقة صوحار ، وفي منطقة مسقط ، كل ذلك يقنعني ويجعلني أحسب أن البيانات التي سوف أوردها هنا قريبة جدا من الصحة ؛ ولكن أرجو أن تكون الظروف والأحداث السيئة التي أشرت إليها ، حَدَّت من استكشافاتي وجعلتني أختصر فترة إقامتي في هذه البلاد ، أرجو أن تلتمس لي هذه الظروف العذر عند القارئ فيما قد يكتشفه من عيوب ونقائض في هذه البيانات .

الممتلكات العربية والفارسية من عمان ، وهي الآن تحت حكم الثويني ، تنقسم إلى ثلاثة عشر منطقة إدارية متميزة، بعضها يعتمد على الحكومة المركزية بصورة مباشرة، والبعض الآخر أقل اعتمادا على الحكومة المركزية ، أما المناطق الأقل اعتمادا على الحكومة المركزية ، فهي خمسة مناطق على وجه التحديد وهي : البحرين التي لم يكن

بينها وبين السلطان ، طوال فترة زيارتي ، أية صلة فيما عدا دفع جزية هزيلة ، ونوع من الولاء الغامض ؛ قطر ومنطقة بنوياس Beno - yass، اللتان يعد اتحادهما أكثر وثاقه من البحرين ؛ ثم تجيئ بعد ذلك المناطق الثلاثة وهى الشارقة ورؤوس الجبال ، وقلحوط ، الخاضعة فعلا للسلطان ، ولكن عن طريق الوسيط المكروه خالد بن صقر ؛ وهذا هو حال الشارقة بصفة خاصة .

هناك ثمانية مناطق تقر وتعترف بتبعيتها المطلقة وتخضع لحكم صارم . وأول هذه المناطق الثمانية هو الساحل الفارسي اعتبارا من رأس بستانة إلى جسك Djask ، ومعها الجزر المجاورة وهى جزيرة جشم Djishm وجزيرة لارج Larej ، ثم هرمز ويصل طول هذه المنطقة إلى حوالى مائتى ميل تقريبا ، ويتراوح عرضها بين عشرة أميال وثلاثين ميلا ؛ وهى عبارة عن شريط طويل من الموانى ، وأهميتها نابعة من طبيعتها فقط .

ثانيا ، الباطنة ، أو إن شئت فقل كل السهل المحصور بين ممر قطَّاع اللُّحى الضيق من ناحية الشمال ، وتلال برقا ومسقط من ناحية الجنوب ، وسلسلة جبال أخضر من ناحية الغرب . ويتساوى طول هذه المنطقة مع طول المنطقة الأولى ، أى مائتى ميل تقريبا ، ولكن عرضها يتردد بين أربعين وخمسين ميلا ، وهى أخصب المناطق العمانية وأشدها ازدحاما بالسكان .

ثالثا ، جبل أخضر ، وهو يبدأ من قطَّاع اللُّحى ويمتد إلى صماد S.amad ؛ وباطنة تحيط بجبل أخضر من ناحية الشمال الشرقى ، والظاهرة تحيط به من ناحية الجنوب الغربى . والمنطقة كلها جبلية ، ولكنها مأهولة بالسكان ؛ وقوة السلطة السياسية والعسكرية تقع فى هذه المنطقة .

رابعا ، الظاهرة ، وقد سبق أن قلت الكثير عنها .

خامسا ، منطقة مسقط التى تمتد من برقا إلى رأس حيران ؛ وقد سبق أن تكلمت باستفاضة عن هذه المنطقة أيضا .

سادسا ، بلاد صور ، التى تمتد من رأس حيران إلى رأس الحضض .

سابعا ، جيلان التى تقع إلى الخلف مباشرة من بلاد صور .

وفي المقام الثامن تأتي تلك المناطق التي تمتد من رأس الحضض إلى ظوفار D.ofar – وهذه المناطق مخلخلة السكان ، وسكانها أصلا من البدو أو الزنوج أو من القبائل الافريقية ؛ والأقحاف الذين يعيشون بين قطر والحريق ينتمون إلى هذه الطائفة من السكان . وهذه المناطق الثمانية ، باستثناء المنطقة الأخيرة تشكل من الناحية الجغرافية الخالصة ومن الناحية السياسية ، ذلك المسمى الذى نطلق عليه اسم عمان ، بالمعنى الحقيقى لهذا المصطلح .

وقد قدّر لى الرواة عدد سكان كل منطقة من هذه المناطق وكذلك قوتها العسكرية بما يلى :

رقم مسلسل	اسم المنطقة	عدد القرى	عدد السكان	القوة العسكرية
١	البحرين	٦٠	٧٠٠٠٠	٣٠٠٠
٢	قطر	٤٠	١٣٥٠٠٠	٦٠٠٠
٣	الشارقة	٣٥	٨٥٠٠٠	٣٥٠٠
٤	رؤوس الجبال	٢٠	١٠٠٠٠	٥٠٠
٥	قلحاط	٤٠	٦٠٠٠٠	٢٠٠٠
٦	باطنة	٨٠	٧٠٠٠٠٠	٣٠٠٠٠
٧	جبل أخضر	٧٠	٦٠٠٠٠٠	٣٥٠٠٠
٨	الظاهرة	٤٠	٨٠٠٠٠	٢٠٠٠٠
٩	بلاد صور	٣٥	١٠٠٠٠٠	٤٠٠٠
١٠	جيلان	٥٠	١٤٠٠٠٠	٨٠٠٠٠
١١	الساحل الفارسى ومناطق أخرى	–	٣٠٠٠٠٠	–
الإجمالى			٢٢٨٠٠٠٠	١١٢٠٠٠

ويجب أن نضيف إلى هذا الإجمالى كل سكان الصحراء المجاورة وسكان الساحل العربى الجنوبى الشرقى ؛ وهذا عدد لا يستهان به من واقع هذا التقرير . وربما يلاحظ القارئ أننى لم أذكر منطقة مسقط فى الجدول السابق ؛ والسبب فى ذلك أن هذه المنطقة أدرجها الرواة مرة مع سكان باطنه ومرة أخرى مع جبل أخضر. وأنا أريد هنا أيضا أن الملاحظات التى أبديتها على قائمه القرى النجدية والسكان النجديين ، وكذلك القوات العسكرية ، يمكن تطبيقها على هذا الجدول أيضا .

ومداخيل ، أو متحصلات هذه السلطنة كبيرة ومضمونة . وأنا عندما حاولت أن أتعرف بأكبر قدر من الدقة المبالغ التى يجرى تحصليها من مصادر الدخل المختلفة ، كنت أشك أن هناك خطأ ما فى حساباتى أو أن هناك مبالغة غير مقبولة فى المعطيات ذاتها . ولكنى عندما رجعت ، بناء على ذلك ، إلى البيانات الواردة عن هذه الأمور عند بعض الرحالة الذين كتبوا عن بعض المناطق المحددة في عمان ، وعندما رجعت إلى المصادر المتوفرة لدى حكومتها ، بالإضافة أيضا إلى التصحيح الذى قدمته لى الاستخبارات الرسمية ، خارج سلطنة عمان نفسها ، اكتشفت أن حساباتى كانت أقل بكثير من تلك الحسابات والتقديرات التى وردت عند الآخرين ؛ من هنا ، فأنا لا أجد مبررا للشك ، فى أن كل هذه الأشياء ، هى والأصفار والإجمالى يمكن أن تكون اقترابا صحيحا من الحقيقة الواقعة . وعلى كل حال ، وإذا ما ظهر خطأ (إذ أننى لا يمكن أن أقطع تماما بعدم وقوع الأخطاء فيما أقوله أو فى الجدول الذى أوردته هنا عن السكان) فقد عمدت فى كل ما قلته أو أوردته عن هذه الأشياء ، أن يكون الخطأ بالناقص وليس بالزائد . وأنا على يقين أن الزمن هو ومزيد من التقصى سوف يصححان كل شيئ .

وهنا يجب على القارئ أن يعرف أن مصادر الدخل العام فى عمان تنقسم إلى أربعة مصادر : صيد اللؤلؤ ؛ الضرائب والمكوس التجارية ؛ والضرائب العقارية ، ثم الاحتكارات والتجارة الخاصة التى تمارسها الحكومة . وسوف أتناول كل مصدر ، من هذه المصادر ، على حدة فيما يلى ، ثم أقوم بتجميعها فى النهاية .

قد يكون من الصعب الحصول على العدد المضبوط للقوارب التى تعمل فى صيد اللؤلؤ ، والتى تمارس هذه الحرفة طوال العام فى المنطقة من القطيف إلى الشارقة ، إضافة إلى أن الحكومة المركزية ، فى رأيى ، ليس لديها بيان قاطع أو أرقام محددة فى

هذا الموضوع ، حتى ولو بشكل جماعي أو كلي . وعلى كل حال ، فان السجلات غير الدقيقة موجودة في كل قرية من قرى الساحل على حدة ، وإذا ما كلف الإنسان نفسه مشقة البحث عن هذه السجلات في أماكن تواجدها فانه ربما يصل إلى الملاحظة نفسها التي وصلت أنا إليها . ويقدر إجمالي عدد المدن ، والقرى ، والكفور التي تخرج القوارب منها لصيد اللؤلؤ ، بحوالي مائة وأربعين مدينة وقرية ، بما في ذلك مدن وقرى البحرين ؛ في حين يصل متوسط القوارب التي تخرج من القرية أو المدينة الواحدة ، وذلك اعتماداً على عدد القوارب التي شاهدتها وعددتها بنفسي في كل المدن والقرى التي زرتها ، بحوالي أربعين قاربا . وبذلك يمكن القول أن إجمالي عدد القوارب العاملة في صيد اللؤلؤ يصل إلى حوالي خمسة آلاف وستمائة قارب . ثانيا ، يتعين على صاحب كل قارب من القوارب العاملة في صيد اللؤلؤ أن يدفع مبلغا يقدر بحوالي ثلاثين شلنا إنجليزيا ، إضافة إلى نسبة مئوية مما يصطاده القارب ، وفي أغلب الأحوال لا تزيد هذه النسبة المئوية عن ريال ونصف تقريبا ، أو ما يعادل حوالي ثماني شلنات إنجليزية ، إذ ما أخذنا بمبدأ المتوسط . وإذا ما أضفنا هذه النسبة المئوية إلى الضريبة التي يجرى تحصيلها عن القارب الواحد ، نجد أن الإجمالي يصل إلى ثمانية وثلاثين شلنا إنجليزيا عن القارب الواحد ، وإذا ما ضربنا هذا الإجمالي في عدد القوارب فإن الناتج يكون حوالي مائتان واثنى عشر ألفا وثمانمائة شلن ، أو إن شئت فقل حوالي عشرة آلاف وستمائة وأربعين جنيها إسترلينيا ، هي بمثابة دخل سنوي يذهب لصالح الحكومة المركزية ، وحدها ؛ برغم أن هناك أيضا بعض الإتاوات الخاصة والعرفية التي يجبيها الرؤساء المحليون بصفة مستمرة ، وبخاصة في البحرين ، ولكني لم أسمع في قطر شيئا عن الشكوى أو التبرم من هذه الإجراءات .

ويتمثل المصدر الثاني من مصادر الدخل في الضرائب والمكوس التي يتم تحصيلها من الموانئ . وقد اكتشفت أن نيبور حدد هذه الضرائب بواقع خمسة في المائة على المسيحيين ، وستة في المائة على المسلمين ، أي على الحمولات والأمتعه التي تكون معهم . هكذا كان الحال منذ حوالي مائة وعشرين عاما مضت ، ولكن الأمور تغيرت تماما الآن . وهنا يجوز لي أن اعتمد على تجربتي الشخصية ، نظرا لأنني منذ أن غادرت المنامة إلى أن تحطمت السفينة التي كانت تقلنا من سوادة ، كان بصحبتي أنا ورفيقي أمتعة وبضائع تخضع لهذه الرسوم الجمركية ، وأننا أبحرنا من وأبحرنا إلى ما لا يقل عن عشرة موانئ مختلفة . والقاعدة العاملة المتبعة في جميع المنافذ الجمركية

المقامة على شاطئ البحر فى المنطقة ما بين البحرين وصور - وهى بالتحديد ، فى المنامة ، والمحرق ، والبداع ، ووكره ، ولينجا ، وبندر عباس ، وأبى ظبى ، وظبيع ، والشارقة ، وبقية الأكواخ التى من هذا القبيل ، والتى يصل عددها الإجمالى إلى حوالى ثلاثين ميناء مهما تمارس هذا النشاط فعلا - تقضى بتحصيل ريال واحد ، أو ما يعادل خمس شلنات إنجليزية ، عن كل طرد كامل يجرى إنزاله ، بغض النظر عن محتوياته ؛ ويتروح وزن الطرد أو البالة بين ستين وسبعين رطلا . وهذه الطريقة تمتاز بأنها تقلل من عدد العاملين فى الدائرة الجمركية ، ولكن القارئ يعلم أن هذه الطريقة غير منصفة فيما يتعلق بقيمة البضاعة . وعلى سبيل المثال ، فإن مسألة التعريفة الجمركية المقدرة بريال واحد ، تصل إلى حوالى أربع عشر أو خمسة عشر فى المئة بالنسبة للتمور ، وتقدر بحوالى واحد فى المئة من قيمة الأقمشة ؛ وتقدر ، فى الأرز ، بما يتروح بين أربعة وخمسة فى المئة ؛ ولكن على المدى الطويل ، يمكن القول إن شيئا يوازن شيئا آخر . وهذه التعريفة تفرض على الواردات فقط ، ولهذا فان الحكومة العمانية ، على العكس من النظام الفارسى ، لا تحصل ضرائب أو تفرض رسوما جمركية على الصادرات - وهذا نظام حكيم فى الشرق . والآن ، وبعد ملاحظتى اليومية لأعداد القادمين إلى الموانئ التى أقمت فيها فترة تسمح لى بعد هؤلاء القادمين، توصلت إلى أن متوسط عدد الطرود والبالات التى يجرى إنزالها فى الميناء الواحد لا يقل عن ستة طرود أو بالات فى اليوم الواحد ؛ أما عدد الطرود أو البالات التى يجرى إنزالها فى الموانئ الكبيرة مثل لينجا ، وصوحار ، ومطرح ، ومسقط ، وما إليها من الموانى الكبيرة الأخرى ، أكثر من ذلك بكثير ؛ كما يقل هذا العدد ، عن ذلك بكثير أيضا فى الموانى الأخرى الأقل أهمية . وإذا ما ضربنا كل هذه الأرقام المختلفة فى بعضها ، إذ ما خفضنا أيضا العمل فى هذه الموانى على امتداد العام ، من ثلاثمائة وخمس وستين يوما إلى ثلاثمائة يوم فقط ، وذلك تحاشيا لأيام الطقس السيئ والطوارئ المماثلة الأخرى ، نجد أن حاصل هذا الضرب يصل إلى حوالى ستة عشر مليون ومائتى ألف شلن ، أو ثمانمائة وعشرة آلاف جنيه إسترلينى ، تمثل الدخل السنوى الذى تحصل عليه الحكومة المركزية من هذا المصدر .

أما فيما يتعلق بالمصدر الثالث ، وهو الضرائب العقارية ، بما فى ذلك الضرائب التى تفرض على الثروة الحيوانية ، فأنا أورد المعطيات التالية. وينبغى أن أضيف هنا ، أن الضريبة المفروضة هنا فى عمان ، لا يطلقون عليها اسم الزكاة ، وإنما يسمونها

" الخرج " أو إن شئت فقل " المنتج "، وهي أقل من الضريبة المماثلة في الأراضي الوهابية بحوالي الثلث تقريبا ؛ يضاف إلى ذلك ، أنني لم أسمع قط في عمان عن أية ضرائب أو رسوم إضافية أو غير عادية سواء أكان ذلك للحرب أو لأية أغراض أخرى . ونحن هنا يجب أن نضع في اعتبارنا أن السكان ، في عمان ، وبخاصة أولئك السكان المستقرين أو الذين يملكون أراضي ، هم الأكثر كثافة ، إذ تصل كثافة السكان هنا إلى ضعف ما هي عليه في نجد ، إذا ما أخذنا هذا المصطلح بمعناه السياسي ؛ زد على ذلك أن الأراضي في عمان، هي بشكل عام وقاطع أكثر خصوبة من الأراضي في نجد. من هنا ، فإن نوعية الملبس الجيد ، والمسكن الجيد أيضا ، والحياة الجيدة أيضا يشهد على مستوى ثروة محلية أكبر من ثروة وسط الجزيرة العربية . وفي ضوء ذلك ، نجد أن الدخل الذي يتم الحصول عليه من هذا المورد في كل أنحاء عمان لابد وأن يكون ضعف ذلك الدخل المماثل الذي يصل إلى خزانة الرياض ، وأنه قد يقدر بما يتراوح بين مائة وثمانين ومائتي ألف جنية إسترليني في العام الواحد . وقد أبلغني كل الرواة الذين سألتهم عن ذلك ، أن هذا المورد من موارد الدخل هو ، من ناحية ، أقل بكثير من المورد التجاري ؛ وأنه من الناحية الأخرى أكبر بكثير مما يمكن أن تحصله الدول العربية الأخرى عن طريق الضرائب الحكومية الجائرة الأخرى. وينبغي أن أضيف هنا، أن مسألة تأجير الأراضي غير معروفة هنا ؛ ولكن المنتج ، والماشية ، والمعادن ، قد تخضع للضرائب في ظل بعض الظروف الخاصة .

رابعا ، وأخيراً تأتي التجارة التي يمارسها ثويني وعائلته ، وأفراد حاشيته الخاصة الذين يمارسون هذه التجارة بأسمائهم هم شخصيا ؛ وهنا يجب أن ندخل ضمن هذه التجارة بعض الاحتكارات التي سبقت الإشارة إليها ، وهي تجارة الملح أو المناجم الأخرى ، وكذلك تجارة الكهرمان . وأنا ليست لدي معلومات مؤكدة عن هذه الأمور ، أكثر مما هو متيسر عنها لدى عامة الناس ، والتي تقول إن هذه التجارة تعود على ثويني بدخل خاص يقدر بحوالي مائتي ألف ريال ، أو ما يعادل خمسين ألف جنيه إسترليني كل عام .

وقد يكون من المفيد هنا أن يلاحظ القارئ أنني دمجت تجارة الرقيق في المورد الثاني : إذ تُجبى على كل زنجي يتم إحضاره إلى هذه البلاد ، حوالي ريالين ، أو ما يعادل عشر شلنات انجليزية ، يتم تحصيلها بواسطة موظفي الدائرة الجمركية – وأنا لا أظن أن هذا مبلغا كبيرا . ومن ثم ، وبرغم الخوف من أن يتسبب التدخل الأجنبي ،

فى بعض الأحيان – فى المزيد من المضايقات التى تنتج عن إخفاء هؤلاء العبيد المساكين فى عنابر المراكب وما إليها ، فأنا لم أسمع قط عن أيه إجراءات مماثلة يتخذها ربابنة البحر العرب حتى يتسنى لهم تهريب شحناتهم من الأحياء عن طريق الرسوم الجمركية .

هيا بنا الآن نحصى سويا المبالغ التى سبق أن أوردتها ؛ والتى تصل إلى مليون وخمسة وستين ألفا وستمائة وأربعين جنيها إسترلينيا فى العام . وهذا مبلغ كبير على حكومة وطنية فى الشرق ، برغم أن هذا المبلغ فى ظل حكم أفضل والظروف الأحسن ربما يزيد زيادة كبيرة. ولكن إذ ما نظرنا إلى هذا المبلغ ، فى ظل النظام القائم حاليا ، فإنه لا يشكل عبئا على الأراضى أو الشعب ؛ وإذا ما اعتبرنا ازدهار ورفاهية الأمة ، بأثريائها وفقرائها ، وبحرفييها وتجارها ، ومزارعيها ، وملاك الأرض فيها ، هو الهدف الرئيس الذى تُشَكَّلُ الحكومات من أجله ، وهو الذى تجبى من أجله الضرائب أيضا ، فإننا لا يسعنا ، بشكل عام ، إلا أن نحييَّ سلطان عمان على أن لديه ما يكفيه ، وما يخصصه لكل الأهداف الشريفة ، دون أن يُحمِّل شعبه ما لا يطيق أو يعرقل الصناعة أو التجارة .

أما فيما يتعلق بالمتحصلات كائنة ما كانت ، التى تحصل عليها الحكومة المركزية من الممتلكات الأفريقية ، وبخاصة من جزيرة سوقطره ومن زنجبار ، فأنا ليس لدى ما أقوله عنها على وجه اليقين . والتقارير الجارية عن الثروة التى يجرى الحصول عليها من هذه الممتلكات – والتى تتمثل فى "الذهب والفضة ، والعاج ، والنسانيس ، والطواويس " ، لا تخفى على أحد مثلما كان حالها فى الأزمان القديمة ؛ ولا يمكن إخضاعها لميعار الإحصائيات والحسابات الرياضية .

وقد يتساءل القارئ عن المصارف التى تنفق الحكومة عليها هذا الدخل السنوى . وهنا نجد أن المصارف الرسمية على النحو التالى : أولا ، صيانة القلاع العديدة التى ما يزال يجرى الاحتفاظ بها وصيانتها ، وبخاصة الموجود منها على ساحل البحر ، إضافة إلى دفع مرتبات الحاميات البلوشية ، والمدفعية ، والذخيرة ، وكل ما يخدم هذا الهدف . ثانيا ، حرس السلطان الخاص ، الذى يتكون من الخيالة الذين سبقت الإشارة إليهم ، والذين يدخلون فى نطاق الخدمة العسكرية العاملة والمستمرة ، إضافة إلى عدد قليل أيضا من الجنود المشاة . ثالثا ، جهاز الجمارك ، وموظفيه والعاملين فيه ،

والمحصلين ، والشرطة ، وما إلى ذلك من الفئات الأخرى . رابعا ، الأسطول – وهو ، كما شاهدنا ، كبير وفاعل ، ومصدر من مصادر الإنفاق الدائم ، وذلك على العكس من المصارف الأخرى مجتمعة . خامسا ، دخول الوزراء ، وأعضاء الأسرة المالكة ، وأبهة المنصب والدولة . أخيرا ، وليس آخرا ، إذ صح ما يقال ، يجيئ ترف ثويني وبذخه الشخصي ؛ وهو فى ذلك يشبه إلى حد كبير أجداده من الأسرة الملكية القحطانية ، كما يقول عنهم التاريخ سواء أكانوا في اليمن أم عمان . والمثل العربي يقول : " من شابه أباه فما ظلم " ؛ وربما يستميح ذلك شيئا من العذر لـ – ثويني ، إذ ما سار على خطى كل من ذى الرياش وتُبَّع ، الذين يزعم أنه بينه وبينهما ارتباط وثيق .

وأنا اعتقد أنه قد آن أن نعود مرة ثانية إلى سياق رحلتنا ، التي أوشكت على الانتهاء . إذ عندما عدت إلى منزل أستار ، قدمني يوسف لصديقه البحرى الجديد ، الذى كرر عليّ عرضه المجاني بان ينقلنا بلا مقابل إلى أبي شهر . وبقي هذا الربّان ، طوال اليومين التاليين ضيفا على ديوان أستار ، الذى أحضر إلينا كثيرا من رفاقه ومن العاملين فى البحر . وبحارة الكويت ، دونا عن سائر كل البحارة الذين يعملون فى الخليج الفارسى ، هم الذين يحتلون المرتبة الأولى من حيث الجرأة ، والمهارة وإمكانية الاعتماد عليهم والثقة بهم . ومنذ خمسين عاما لم يكن هذا الميناء الكويتي أو مدينته الصغيرة – لم أزر هذا الميناء قط ، ولكنى قرأت وصفه على لسان أولئك الذين زاروه – شيئا مذكورا ؛ ولكن هذا الميناء أصبح الآن ، أهم وأنشط الموانئ فى شمالي الخليج الفارسى ، ولا يستثنى من ذلك أيضا ميناء أبو شهر نفسه . ورئيس الميناء الكويتي واسمه عيسى ، له سمعة طيبة داخليا وخارجيا ويرجع الفضل فى ذلك إلى إدارته الجيدة وسياسته الحكيمة ؛ يضاف إلى ذلك أن الرسوم الجمركية فى هذا الميناء منخفضة ، ومناخه صحى ، والسكان من النوع الودود ، وهذه الأسباب مجتمعة ، إضافة إلى كون هذا المرفأ يعد نوعا من أنواع المكلا ، أو إن شئت فقل صلاحية هذا الميناء لرسو السفن ، وتميزه بهذه الخصيصة عن سائر الموانئ المجاورة ، هو الذى يجذب إلى الكويت مئات من القوارب الصغيرة التي يمكن لها أن ترسو فى كل من أبي شهر أو البصرة . وسكان هذا الميناء الكويتي من المسلمين ، أو من العرب ، وهم يتسامحون مع الغير ولا يتعصبون لأنفسهم ؛ والوهابية مستبعدة هنا تماما ، إضافة إلى فشل جميع الجهود النجدية المبذولة فى أن يكون لها نصير واحد فى الكويت . وهذه المدينة من الناحيتين التجارية والسياسية تعد منفذا بحريا ، بل هى المنفذ الوحيد

لـ - جبل شومر ، ولذلك فهى تتشابه في ذلك مع ميناء تراستى Trieste في النمسا . والكويت لا تبعد سوى مسير خمسة عشر يوما عن حائل ؛ ومن ثم فإن الحكام من أسرة ابن الرشيد كانوا يحافظون دوما على أحسن العلاقات مع رؤوساء الكويت ، بل إن هذه العلاقات ازدادت وثاقة في ظل الحكم الحالى ، في عهد طلال بن الرشيد . وربما ساعدت قرابة الدم أيضا على تقوية ذلك التحالف السياسي ، إذ يزعم حكام الكويت أن أصولهم ترجع إلى عشيرة جعفر ، وهي العشيرة نفسها التى ينتمى إليها طلال بن الرشيد . ولكن إذا ، ما نحينا كل ذلك جانبا ، نجد أن المزايا الكبيرة التى حققها ذلك الميناء البحرى لـ - جبل شومر ، سواء من ناحية استيراد السلع التى من قبيل الأرز ، والأقمشة ، والبضائع الأخرى ، أو من ناحية تصدير الخيول ، والأغنام ، والصوف وما إلى ذلك من المنتجات الأخرى التى تأتى من الأراضى العالية ، تؤكد تماما حكمه طلال بن الرشيد فى هذا الجانب . أخيرا ، فان تحالف طلال بن الرشيد مع الكويت يساعد طلال بن الرشيد على المحافظة على التوازن بينه وبين الوهابيين الذين يتعدون على أملاك الآخرين : في الناحية الجنوبية ؛ في حين يتشجع عيسى هو ومواطنوه بفضل اتحاده هذا مع شومر ، ويرفض مطالب الجزية والاستسلام التى تفرض عليه هو ومواطنيه من متأسلم البصرة ومن الباشا في بغداد ، وهذا يساعد عيسى على النجاة من التدهور والركود الذى يصيب كل الموانئ البحرية الواقعة تحت الإدارة العثمانية .

وفي عصر اليوم الثاني والعشرين من شهر مارس هب نسيم جنوبي ، وهنا أعلن رباننا عن نيته في أن يبحر بسفينته فى صباح اليوم التالى ؛ ولكن العرب يماطلون فى البر والبحر على حد سواء ، ولكن مع حلول صباح اليوم التالى اكتشفنا أننا لن نبحر قبل غروب الشمس في أسرع الأحوال . وكانت السفينة قد تحركت بالفعل من ميناء مسقط ، وأصبحت تقف الآن فى مطرح بالقرب من مدخل الميناء ، مقابل صخرة كبيرة يطلقون عليها اسم الفحل Fah.l ، الذى يشيع استعماله بين العرب ويطلقونه على كل ما هو كبير الحجم . وفحل مطرح عبارة عن كتلة من الأحجار السوداء التى تنبثق فجأة من داخل مياه البحر ، شأنها فى ذلك شأن قريبتنا سلامة التى شاهدناها بعيدا عن رأس مسندم .

أخيرا ، وفى اليوم الثالث والعشرين ، استأذنا من مضيفنا أستار ، ومن أصدقائنا الطيبين الآخرين ؛ وبينما كنت أسير فى اتجاه الميناء ومعى يوسف وأربعة من معارفنا المقربين، كنت أستشعر أن خطواتى بدأت تقودنى بشغف كبير، صوب الوطن .

ولم يكن ذلك الإحساس خال من الحزن والندم ، أو بلا أمل ، مهما بعدت المسافة ، في زيارة هذه المناطق الجميلة والغريبة مرة ثانية . واستقلينا زورقا من زوارق الزنوج ، أبحرنا به على امتداد ساعتين حول الرأس والرِّعن إلى أن شاهدنا فانوس السفينة وبدأنا نتسلق جوانبها الدّاكنة بعد حلول الليل . وفي نفس هذه الليلة ، وبعد أن غادرنا الميناء وأصبحنا في عرض البحر رحت أراقب مجموعة نجوم صليب الجنوب ، الذي يرتفع طرفه المنخفض عن مستوى الأفق ، في هذه المنطقة بمعدل أربع أو خمس درجات ؛ برغم أنه لو كان هذا الطرف المنخفض عند حافة الماء ، لأدى صفاء الجو إلى وضوح النجوم كلها . كان صليب الجنوب صديقا قديما ، رأيته من جديد لفترة قصيرة بعد غياب دام سنوات طويلة ، وهو سرعان ما يختفي عن الأنظار ، ولكنه لا يغيب عن البال .

ولن أقول الكثير عن بقيه الرحلة . فقد كان طريقنا يمر عبر الخليج إلى بندر عباس ، التي مكثنا فيها يوما واحداً ؛ ومن بندر عباس توجهنا إلى جزيرة هنجام أو إن شئت فقل هنيام الصغيرة ، التي تبعد عن جشم ، تلك المحطة البحرية الممتازة ، وإن شئت فقل أنها جزيرة بريم الخليج الفارسي ، ومن هينام أبحرنا إلى ميناء شيرو **Chiro** الهادئ ، والذي يقع فوق ميناء شاراك مباشرة ؛ ومن شيرو أبحرنا إلى أبي شهر ، وسط عواصف عاتية ورياح غير مرسلة أخرت وصولنا إلى أبي شهر إلى اليوم السادس من شهر أبريل .

وأبقى الربان وطاقمه ، من بداية الرحلة إلى نهايتها ، على ودهم وتأدبهم الذي أعطونا منه عينة في مسقط ، ولم تحدث أية شكوى أو تبرم من كثرة المسافرين معنا ، الذين كان معظمهم من الهنود الذين جاءوا من مدينة لوكنو **Lucknow** والمناطق المجاورة لها . كانت السفينة كبيرة ، ونظيفة ولا تسمح بتسرب الماء داخلها : ومن حسن حظي أنها كانت كذلك ، والسبب في ذلك ، أننا ونحن في منتصف الطريق عند أعالي الخليج الفارسي ، هبت علينا عاصفة ، أقسى من تلك العاصفة التي أغرقت سفينتنا العمانية في قاع البحر . ولكني عند هذه المرحلة لم أكن ألقي بالا للصالح أو الطالح من حولي ، نظرا لأن الحمى التي أصابتني في مسقط كانت قد وصلت الآن إلى عنفوانها . زد على ذلك ، أنني لم أكن المريض الوحيد على ظهر السفينة ، فقد مرض أحد الهنود بهذه الحمى عندما كان على البر، ثم مات قبل أن نصل إلى ميناء الوصول . وبذل الربان والبحارة كل ما في وسعهم خدمة لي ؛ ولكن السفينة العربية باستثناء التعاطف

والكلمات الرقيقة ، ليس لديها ما تواجه به متطلبات رجل مريض . وفي النهاية رست سفينتنا أمام أبي شهر : وحملني طاقم السفينة على أكتافهم ، نظرا لأنني لم أكن أقوى على الحركة ، في حين راح يوسف بن خميس يدلهم على الطريق إلى أن وصلنا إلى المنزل الذي يقيم فيه أبو عيسى ، الذي كان قد ظن أننا قد أُضفنا منذ زمن طويل إلى قائمة الرجال الآخرين الذين ماتوا ، والسفن الأخرى التي غرقت في الإعصار الذي هب في الليلة التاسعة من شهر مارس . وكان بركات قد غادر أبي شهر فعلا إلى البصرة ، ومنها إلى بغداد ، التي كان ينتظرني فيها ؛ أما أبو عيسى هو وفوج الحجاج الإيرانيين الذي يقدر بحوالي مائة وعشرين حاجا فقد تقرر لهم أن يغادروا ، خلال أيام قلائل ، ميناء أبي شهر متجهين إلى البحرين ، ومنها إلى الأحساء .

وفي أبي شهر وصلت آخر أخبار سقوط عنيزة وانتصارات الوهابيين ناحية الغرب . ولكن الحمى ، بحكم أنها كانت قد وصلت إلى ذروتها ، منعتني من الاهتمام بالأحداث قريبها وبعيدها ؛ والواقع ، أنني كنت يوما ، وذلك باستثناء فترات قليلة جدا ، في حالة من الهذيان الذي يثير الكثير من التعب والإرهاق خلال حمى التيفود . ووصلت السفينة الهندية في اليوم العاشر من شهر أبريل ، وحملتني إلى البصرة ، وفيها نقلني بعض البحارة إلى قارب بخاري نهري ، كان يقوده النقيب سلبي من البحرية الهندية . وعلى ظهر هذا القارب ، ومن خلال الكرم والحنان اللذين يعدان شعارا لكل رجل إنجليزي وكل بحار إنجليزي أيضا ، لقيت معاملة طيبة ، وحصلت على مساعدة طيبة مختلفة الأنواع ، ولولا ذلك لانتهت رحلتي ، مثل سائر رحلات الرحالة الآخرين ، الذين رحلوا عن دنيانا . أما رحلتنا عبر نهر دجلة فقد طالت بفعل فيضانات الربيع ، واستغرقت سبعة أيام ؛ وفي اليوم الثامن نزلنا في مدينة بغداد ، التي وصل كرم النقيب سلبي فيها هو وأصدقاء آخرون سويسريون ، وإنجليز ، وفرنسيون ، حدا جعلني ، إن لم أتماثل إلى الشفاء تماما ، أصل إلى درجة معقولة منه . وفي بغداد ، التقيت ، بعد أيام قلائل ، صديقي الوفي القديم بركات ، مرة ثانية ؛ ذلك الصديق الذي يسهل أن نتصور مدى سعادته أكثر من وصفها ، عندما رآني مرة ثانية بعد التقارير الخطيرة التي وصلته ، وبعد المخاوف التي رجحت عنده كفتها على كفة الآمال . ويجب أن أشير هنا أن أنباء عاصفة شهر مارس كانت قد وصلت بغداد ، التي سبقتني إليها استفسارات كثيرة عن السفن الغارقة والسفن الناجية التي كانت لتجار بغداد فيها بعض المآرب والمصالح .

كان طريق عودتنا يمر بمدينة كركوك ، والموصل ، وماردين ، وديار بكر ، وعرفة ، ومنها إلى حلب وسوريا . كان هذا المسار جديدا عليّ ، ولذلك فقد كان مليئا بالسحر والجمال ، غير أنه قد لا يكون كذلك عند القارئ ؛ وأنا لا أشك أن هذا الطريق قد غطاه عدد كبير من القصص والروايات التي هي أفضل من قصتي . وأنا عندما أتذكر ثراء هذه الأرض، أجد أن الدفع بالجدّه هو العزاء الوحيد لي فيما أستشعر أنه أفضل، وليس أكمل ، خطوط حدود وسط وشرقي الجزيرة العربية ! وبقاء هذه الحدود دون أن يتناولها أحد بالوصف ؛ ومع التحفظ ، فأنا على ثقة ، أن رحّالة حظيظا آخرا ، غير ذلك الذي يودع قارئه الآن ، سوف يقوم بهذه المهمة .

قائمة محتويات

المجلد الثانى